

ترجمة مالك أبوعليا



مجموعة مقالات ماركسية سوفيتية- (الجزء الثالث)
في الفلسفة والتاريخ

مجموعة مقالات ماركسية سوفيتية

(الجزء الثاني)

في الفلسفة وتاريخ الدين

ترجمة مالك أبو عليا
بمُساعدة رُبا مَسوِدة والهادي معروف

مُقدِّمة المُترجم

لقد أنجزنا الجزء الثالث من كتاب (مجموعة مقالات ماركسية سوفيتية). كان الجزء الأول والثاني يحتويان في قسمهما الثاني على مقالات في تاريخ الدين، أما هذا الجزء، فيحتوي في قسمه الثاني على مقالات تبحث في منهجية البحث التاريخي، ومسائل بحثية خاصة، وحول النظرة التاريخية العامة.

ساعدني في هذا الجزء، الرفيق الهادي معروف، والمُترجمة رُبي مَسوِدَة، واللَّذينِ ترجمَ كُلُّ منهما مقالة واحدة.

يحتوي القسم الأول من هذا الكتاب (المقالات الفلسفية)، على 8 مقالات، ويحتوي القسم الثاني على 8 مقالات أخرى.

قُمت بتزويد هذا الكتاب بالصور التي تُثري القراءة بصرياً، وصور الباحثين المذكورين في المقالات والباحثين الذين كتبوها، ما عدا صور الباحثين كلوديا بافلوفا كورجيفا وديان بافلوف والتي لم أستطع إيجاد صورهما للأسف. وقمت كذلك بإعداد تعريف بالفلاسفة الذي كتبوا المقالات. ان الاشارات المرجعية التي تترافق مع اشارة النجمة (*)، هي من وضع المُترجم، لكي يتم تمييزها عن الاشارات المرجعية العائدة للمؤلفين، وهي أرقام بدون النجمة، بطبيعة الحال

هذا العمل لم يُنشر ورقياً من أي جهة أو دار نشر لصعوبات مالية.

مالك أبوعليا

2022/8/5

القسم الأول

المقالات الفلسفية

الفلسفة الماركسية ومسألة القيمة



كاتب المقال: أوليغ غريغوريفيتش دروبنيتسكي*

في السنوات الأخيرة، طرَح السؤال حول موقف الفلسفة الماركسية تجاه ما يُسمَّى بمشكلة القيمة. لا يقتصر الأمر على أن علم القيم axiology البرجوازي، الذي كان يتطور على مدى ثلاثة أرباع قرن، يجب أن يُحلل نقدياً. محور المسألة هو ما اذا كان علم القيم الماركسي مُمكنًا. سيكون ما يلي، مفيداً في هذا الصدد. غالباً ما يطرح المؤلفون الذين يتجاهلون تاريخ الفلسفة ويبدأون في بناء نظرية للقيمة على أساس التعميم المُباشر "الجميع الحقائق المعروفة"، غالباً ما يطرحون المسألة القيمية بالضبط كما تمت صياغتها في وقتٍ مُبكرٍ من القرن التاسع عشر. كما نرى، لا ينبغي أن ننسى أن نتعلم من درس علم القيم البرجوازي. من الأفضل أن نبدأ دراسة هذه المُشكلة ليس فقط من خلال تبيان ظواهر القيم وتعريفها، ولكن بتحليل كيف ظهرت المشكلة تاريخياً.

* أوليغ غريغوريفيتش دروبنيتسكي 1933-1973. دَرَسَ جامعة موسكو الحكومية عام 1957. صار دكتوراً في الفلسفة عام 1970 برسالته المُعنونة: (الوعي الأخلاقي-مسائل حول عيانية وطبيعة ومنطق وبنية الأخلاق. نقد المفاهيم الأخلاقية البرجوازية). ودكتوراً في الفلسفة عام 1963: (نقد الاتجاه الحدسي في علم الأخلاق البرجوازي الحديث).

كان باحث في قسم المعلومات العلمية في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم منذ عام 1963-1973، ومُحاضراً في معهد الفلسفة التابع لجامعة موسكو الحكومية. ومن كُتبه: (تبرير اللاأخلاقية-أبحاث نقدية لعلم الأخلاق البرجوازي) 1963، (نقد مفاهيم العلم أخلاقية البرجوازية) 1967. (عالم الأشياء الحية: مسألة القيمة والفلسفة الماركسية) 1967.

ومن مقالاته: (الأسس الاجتماعية والأيديولوجية لمذهب "العلاقات الانسانية") 1960، (حول مسألة مقولة الواجب في علم الأخلاق الماركسي) 1960. (في نقد منهجية الوضعية المنطقية في علم الأخلاق) 1961، (مذهب "العلاقات الانسانية" هو السلاح الأيديولوجي

* 1 - لم نَقم بترجمة المقالة كاملةً

للرأسمالية المُعاصرة) 1962، (الاتجاه الحدسي في علم الأخلاق الانجلوأمريكي) 1962، (الفلسفة الماركسية ومسألة القيمة) 1966 وغيرها الكثير.

لا يُمكن لأحد أن يشك بحقيقة أن أشياء وظواهر العالم الاجتماعي هي ذات خصائص تحتوي على قِيم مُعينة، مثل الخير والشر، الجميل والقبيح، العدالة والظلم.

مما لا شك فيه أن ظاهرة الوعي الاجتماعي، في بعض جوانبها، تشتغل باعتبارها "قيماً روحية"، أي أنها تمتلك طابع معايير التقييم. أخيراً، يُمكن دمج كل هذه الظواهر تحت مفهوم واحد يُسمى القيمة. السؤال، هو كيفية التعامل مع تحليل القِيم: هل بأخذ حقيقة وجودها كنقطة انطلاق للتفكير النظري، أم مُحاولَة اكتشاف ميكانيزم نشوئها. هل باتخاذ وجهة نظر الوعي القِيمِي ووصف العالم انطلاقاً منها، أم مُحاولَة توضيح علاقة هذا الوعي بالواقع، لتحديد الى أي درجة يُمكنها بحد ذاتها أن تكشف عن طبيعة الأشياء التي تُقِيمها. سنحاول اثبات أن معيار الوعي بالقيمة غير مقبول بشكل أساسي بالنسبة الى علم يريد دراسة الواقع بشكل موضوعي صارم.

نشوء علم القِيم (الاكسيولوجيا) البرجوازي

تمت في الفلسفة، منذ أزمان بعيدة، مُناقشة مسألة طبيعة الظواهر المتنوعة، والتي أصبحت تُسمى قيماً. لكن مشكلة القيمة كأحد الجوانب الأساسية للفلسفة وعلم القِيم قد نشأت فقط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. هل من قبيل المصادفة أن هذه المُشكلة كانت غائبة في الفلسفة البرجوازية الكلاسيكية، على الرغم من أن هيوم وكانط قد أشارا الى بعض مُقدماتها الأساسية؟ على العكس من ذلك، يُمكننا أن نقول أن هذا الاتجاه في الفلسفة الحديثة الذي نشأت فيه الاكسيولوجيا، قد تبلور في نواحٍ عديدة كنفويض للفكر المُهيمن في الفلسفة البرجوازية الكلاسيكية، وقبل كل شيء، كنفويض لأفكار التنوير.



ديفيد هيوم

في هذا السياق، دعونا نتتبع الطريقة التي نظر بها الماديون الفرنسيون الى مسألة النشاط الانساني والنظرة الى العالم. الانسان هو جزء من الطبيعة، وهو بالتالي كائنٌ طبيعي. ان طبيعته هي التعبير المُناسب لقواه الجوهرية-مصالحه الموجهة عقلاً. التي تكشف عن انسجام تام مع قوانين الطبيعة العالمية. لذلك، فان الدراسة والاستيعاب العملي للموضوع الخارجي ككل مُتطابقان من الناحية النظرية مع الذات واكتشاف الانسان لذاته. وهذا يعني، عند التعبير عنه بلغة العلوم الاجتماعية، أن التحقيق الصحيح للمصالح الشخصية لكل امرئ يؤدي الى تحقيق رفاه الجميع. يترتب على ذلك، أن حل جميع المشاكل الاجتماعية يفترض معرفة

موضوعيةً لطبيعة الانسان والعالم. يجب على الانسان أن يجد كل مبادئ التوجه الاجتماعي في داخله. صحيح أن هذا الموقف لا يتم بلوغه الا في مُجتمع عقلاني، لكن يجب أن يُبنى على أساس التطور الموضوعي الحر للطبيعة الانسانية الحقة. يجب أن يُصبح التنوير الشامل وتوضيح مصالح الناس الحقيقية لهم هو مبدأ التنشئة الاجتماعية. ولكن، في هذه الحالة، لا تنشأ أي مسألة خاصة تتعلق بالقيمة. يتم حل المسائل المتعلقة بالنظرة الى العالم والبرنامج الاجتماعي واختيار أهداف الحياة والمُثل العليا وحرية الانسان وسعادته من خلال العلم "الطبيعي" والأخلاق "الطبيعية" النابعة من الانسان نفسه.

انتقد كانط وهيجل هذه النظرة الطبيعية للانسان كما نعلم.



ايمانويل كانط

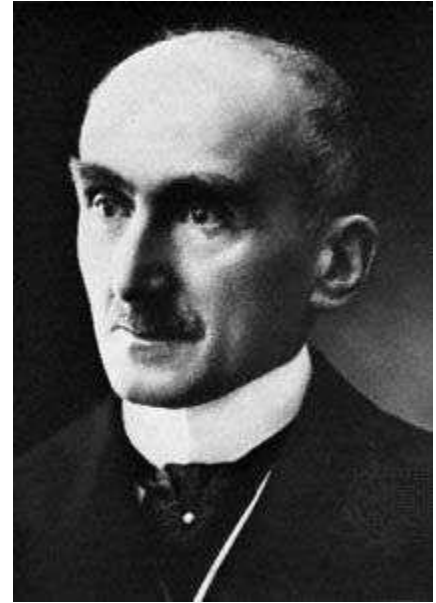
بالإشارة الى أن المصلحة الطبيعية العفوية ليست بعد تعبيراً كافياً عن الضرورة العالمية (العقل)، لم يستبعد هيجل مع ذلك امكانية أن ترتقي الذاتية الفردية الى موضوعية عالمية. علاوةً على ذلك، فإن الإدراك العلمي وسيرورة الاعتياد على منطق الضرورة العالمية، يتوافقان، عند هيجل، مع حرية الانسان. ينطلق كانط، في علم الأخلاق خاصته، من تطابق الارادة الحرة وعقلانيتها، لكنه يكشف عن انفصال تام بين "المشاعر الطبيعية" والضرورة الشاملة التي هي فوق الطبيعة. لذلك، سيبدو أن الانسان عنده، مُمزق داخلياً الى ذلك الكائن غير الحر والحساس (نو مشاعر) الذي نراه في الواقع التجريبي، والكائن الحر العقلاني الذي أدرك، بشكلٍ قبلي، ضرورة القانون الأخلاقي الذي لا يُمكن تحديه ويقف في مواجهة عالم علاقات البشر الطبيعية (والاجتماعية). هذا القانون، لا يُمكن بطبيعة الحال التحقق من صحته من خلال العلم التجريبي ولا يحمل في ذاته ضمانات التجسيدات العملية في التاريخ التجريبي. وقد ثبتت أن وجهة نظره الأخلاقية (التي سُميت فيما بعد بوجهة النظر القِيَمِيَّة) مُنفصلة عن العلم والتجربة الاجتماعية.

ان التطور اللاحق للفكر البرجوازي بشأن المسألة قيد البحث قد اتبعت المسار الذي خطه كانط وليس ذلك الذي رسمه هيجل. ان التطور التاريخي الفعلي للحياة في ظل الرأسمالية لم يتلائم مع أفكار هيجل حول مفهوم الوحدة العضوية للعالمي والفرد، ووحدة الضرورة العالمية الموضوعية للكون والذاتية الفردية، سواءً كان يُنظر لها على أنها مُعطاة من الطبيعة أو أنها ناتجة عن عملية صعود تاريخية. أظهر التطور اللاحق

للحضارة البرجوازية، خاصةً في عصر الرأسمالية الاحتكارية، أن نمط النشاط المتأصل في الرأسمالية، بعيد عن العالمية الشاملة المنسوبة إليها. في هذا الصدد، تطلبت مشكلة نشاط حياة الانسان اعادة تفسير، أما مبادئ المذهبين الطبيعيين والتاريخي فقد رُفِضا.

يُمكننا أن نوجه الانتباه الى عاملين أساسيين للحياة في ظل الرأسمالية كما دونتهما الذهنية البرجوازية. من ناحية، تتحول ذات النشاط من "رائد أعمال حُر" ينفذ مصالحه الخاصة، الى مُنفذٍ للأهداف التي حُدد لها من الخارج. في المُقابل، فان حركة المصالح الاقتصادية والسياسية وغيرها في المُجتمع لا تشتمل الآن عن تكتُف الطبيعة الداخلية للانسان ولكنها مجرد تمظهر للمصلحة النفعية الخارجية بالنسبة له. لذلك، ظهر الرأي القائل بأن قوانين النشاط الاجتماعي غير قادرة على الكشف عن معنى الوجود الانساني على هذا النحو، وأنه من الضروري البحث عنه في مكانٍ ما خارج الممارسة الاجتماعية (تم التعبير عن هذه الفكرة بشكلٍ أوضح في البروتستانتية الجديدة). ومن ناحيةٍ أُخرى، فان الموقف البرجوازي تجاه الطبيعة ليس عالمياً ولكنه وحيد الجانب: نفعي. ان التحويل الرأسمالي للطبيعة ليس بأي حال من الأحوال نشاطاً ابداعياً شاملاً ينفذ تطور العالم وفقاً لقوانينه الجوهرية. تظهر الطبيعة هنا فقط كركيزة سلبية لتتم مُعالجتها في عملية الانتاج. "الحضارة التقنية" لا تُعيد انتاج الطبيعة بل تُدمرها، وتستولي على مواردها وتستخدمها جزئياً فقط لأغراض المُنافسة الاقتصادية، والتي غالباً ما تتعارض مع قوانين تطور الطبيعة العضوي.

لذلك، تظهر هذه الطبيعة للفيلسوف اللاعقلاني على أنها مادة جامدة تُعالج وتُعاد صياغتها مرةً أُخرى وفق الاحتياجات النفعية (برغسون).



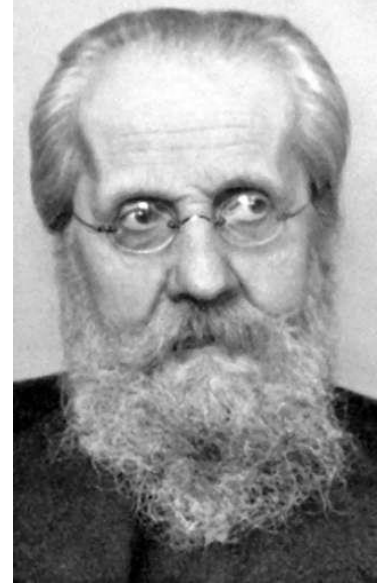
هنري برغسون

يرى الوضعي في الطبيعة نفس الشيء من حيث الجوهر، ولكن من الجهة المُقابلة. ان قوانين الطبيعة، المُعطاة في التجربة، قادرة فقط على أن تعمل كقيود خارجية على تعسفية الذات، ولكنها لا تتضمن في ذاتها المنطق العام للنظام العالمي. في هذه الحالة، قد تتكون "موضوعية" العلم فقط من وصف الحقائق الميكروية

ونظامها الخارجي بمساعدة قوانين التوحيد والتسلسل العامة. ومع ذلك، فإن مسألة جوهر العالم، هي أمر محظور على هذا الفكر الوضعي "العلمي الصارم"، الذي يُريد التحقق من جميع استنتاجاته.

لقد كان هذا الاتجاه نحو ما هو خارجي، موجود ليس فقط في العلوم الطبيعية ولكن في العلوم الاجتماعية أيضاً. لم يعد مُنظر القرن العشرين الوضعي قادراً على ربط قوانين الحضارة المُعاصرة بقوانين عملية التاريخ العالمية وتحديدات جوهر الانسان. نَتَجَّ عن هذا الفقدان في الاحساس بالتاريخ و"المعنى الانساني" بأن صارت السوسولوجيا تصف المُعطيات التجريبية و"وقائع" الحياة الاجتماعية والصلات الخارجية وقوانين الجماهير الاحصائية فقط، ولكنها لم تكن قادرة على قول أي شيء عن الاتجاه العام أو "معنى" التاريخ. لا يُمكن لهذه السوسولوجيا أن تكون مُمكنة الا من خلال نمط فكري مُختلف جذرياً، انه نمط فكري "فوق علمي": فلسفة التاريخ والتي هي نقيض السوسولوجيا.

أصبحت تناقضات الواقع الرأسمالي والوعي النظري هذه، التي نضجت تاريخياً، نقطة انطلاق للاعقلانية والوضعية الجديدة، لكنها سبق أن وجدت تفسيراً لها في الكانطية الجديدة، والتي كانت بمثابة أساس لطرح مسألة القيمة. طَرَحَت مدرسة بادن Baden مسألة امكانية الدراسة النظرية لمسألة معنى الوجود الانساني والعملية التاريخية، والتي صنفت ادراج كل ظاهرة فردية في الكل، بطريقة لا تتسبب بضياع فرديتها وتقردها. برأي الكانطيين الجدد، يُمكن حل هذه المشاكل فقط إن تخلى المرء عن منهجية التعميم التي تُمارسها العلوم الطبيعية وبعض العلوم الاجتماعية (مثل السوسولوجيا وعلم الحقوق والسيكولوجيا)، وهي منهجية تكشف عن انتظامات وقوانين مُجرّدة. يجب على المرء، انطلاقاً من وجهة النظر هذه أن يتبنى منهجية التفريد individualizing في مسألة القِيم. وبينما اعتبر هينريك ريكيرت Henrich Rickert ، على سبيل المثال، أن هذه المنهجية الأخيرة علمية تماماً على مثال علمية العلوم الطبيعية، فانها (أي المنهجية) تتعلق فقط بعلم التاريخ التجريبي، الذي يصنف الأحداث التي وقعت فقط على أنها وصف للحقائق.



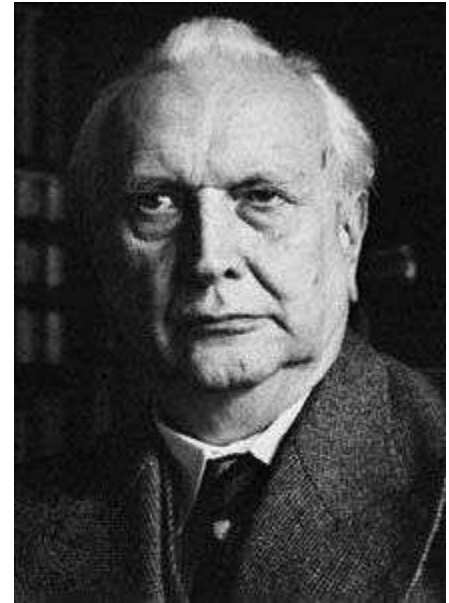
هنريك ريكيرت

لكن تفسير السيرورة التاريخية في تكاملها ووحدتها الداخلية التي، كما يفترض ريكيرت، هي امتياز لفلسفة

التاريخ فقط، والتي تسير في حدود التفكير ما فوق التجريبي مُفترضةً قيماً مُطلقة ومُتجاوزةً الثقافة. وهكذا، حتى في الكانطية الجديدة، تُوصَف وجهة النظر القِيَمية حول العالم بأنها نقيض للمنهجية العلمية. لكن في وقتٍ لاحق، اتخذت مُشكلة القِيَم معنىً لاعقلانياً بشكلٍ مُتزايد.

دعونا نُحاول تحديد المسائل الرئيسية التي بُنيت عليها الاكسيولوجيا. في المقام الأول، وُجِدَ أن العلم الوصفي، الذي يُحدد موضوع المعرفة كشيء مُتعارض مع الذات ومفصول عن المنطق العام للنظام الطبيعي وغير مُرتبط بالذات الانسانية، وبالتالي يمتلك علاقة "مُحايدة" مع الموضوع (وهكذا يصير "الحياد" مُرادفاً للموضوعية)، غير قادر (أي العلم الوصفي) على أن يقول لنا أي شيء عن الانسان نفسه. تبدو التجربة الاجتماعية، بالنسبة الى هذا النوع من العلم، كمجرد شرط خارجي ووسيلة لتهيئة تلك التجربة تقنياً من أجل ايجاد تطبيق نفعي لبياناتها. بقدر ما يمتلك هذا العلم معنىً اجتماعياً، فان نتاجه يضع في ايدي الانسان وسائل قوية للنشاط، ولكنه لا يتضمن أي معرفة حول أهداف الحياة ومعناها ومصائرنا. يُمكن استخدام هذه الوسائل (التكنولوجيا، الأتمتة، الطاقة الذرية ووفرة السلع المادية) اما لصالح أو ضد صالح الانسان. على عكس مثل التنوير الأعلى، والذي وفقاً له من المفترض على العلم أن يُساعد الانسان ليس فقط في السيطرة على الطبيعة ولكن أيضاً على تنظيم حياته الاجتماعية بطريقة عقلانية. تم تقديم الاطروحة التي مفادها أنه يجب على الحقيقة القِيَمية (الأخلاق، الدين، الخ)، والتي يتم التأكد منها بطرق مختلفة، أن تُكَمّل الحقيقة العلمية.

عندما يدرس مثل هذا العلم الانسان، فانه يعتبره، بمقارنته بالطبيعة، كموضوع خارجي، كائن عديم الهوية من نوع مُعيّن، ويُقسمه الى مجالاتٍ قوانين فعل الضرورة الطبيعية، معزولة عن بعضها. ومع ذلك، يُمكن فهم الوجود "الحقيقي" للانسان بتكامله وتفرده-والذي يمتلك المعنى والحرية، دون اخضاعه للعيانية العلمية- بطريقة لا تخضع للعلم، و فقط في هذا المستوى من الدراسة تكتسب الحياة الانسانية قيمةً في ذاتها وتُصبح قيمة كل القِيَم. بعد أن طرَحَت الكانطية الجديدة هذه الفكرة قامت اللاعقلانية (كارل ياسبرز على سبيل المثال) بتطويرها بشكلٍ أكبر، ومن ثم قامت الاكسيولوجيا انطلاقاً من هنا، بمتابعتها على طول نفس الخط.



كارل ياسبرز

ان المفكرين ذوي التوجه الليبرالي، الذين يهتمون العلم بأنه ينزع الانسانية عن الشخصية، يرون فيه سبب تحول الانسان الى روبوت، الى مُلحقٍ للانتاج الآلي أو آلة بيروقراطية تكنوقراطية، الى موضوع وظيفي شامل وموضوع "للتطويع الجماهيري واسع النطاق". انهم يضعون في مواجهة "عقلانية المُجتمع والعلم عديمتا الهوية" أخلاقاً نقدية تستمد مثلها من مثال المشروع الحر أو قرية القرون الوسطى، آخذين كنقطة انطلاق لهم الانثروبولوجيا الانسانية التي تعتبر الانسان كذات مُنعزلة تقف في مواجهة عالم العلاقات الملموسة. تسعى فلسفة "النشاط" الى ايجاد ما هو "انساني أصيل" في ذلك النوع من النشاط الذي يُمكن تعريفه بالكامل على أنه مشروع حر للفرد ولن يتم تجسيده في نتائج خارجية لا تنتمي له (أي لا تنتمي للانسان)- هذه هي وجهة نظر سارتر في كتابه (الوجود والعدم).

ومع ذلك، فانه لمن المُثير للاهتمام، أنه ليس فقط الفلاسفة اللاعقلانيون فقط، بل والمدافعون عن "العلم الصارم" أنفسهم، غالباً ما يتوصلون الى وجهة نظر لاعقلانية حول النشاط الانساني. ان ذلك العلم التطبيقي-سوسولوجيا العمل والاستهلاك والرأي العام والاعلانات- والذي له وظيفة "عقلنة" السلوك ووسائل السيطرة عليه، يستخدم تقنيات التطويع السيكولوجي والايحاء الوهمي وزراعة الأوهام بين الجماهير بشكلٍ مُتكرر. ومن خلال وجود هذه الأوهام وأخذها كنقطة انطلاق، ينتقد منظرو العقل الجماهيري مفهوم التطور الاجتماعي للطبيعة الانسانية الذي طرحه أيديولوجيو التنوير الذين يرون أن سلوك الانسان محكوم بدوافع عقلانية. وجدت نظرية التطويع السيكولوجي تركيباً فلسفياً في علم ما بعد الأخلاق الوضعي، مؤكدة أن الأحكام الأخلاقية (القيم الايديولوجية بشكلٍ عام) لا تحمل أي معلومات عن الواقع، ولكنها مُجرد وسائل للتأثير على سلوك البشر وقناعاتهم من خلال استخدام العواطف والارادة. من هذا المنظور، لا علاقة للقيم بالحقائق، وأنه لا علاقة للمعايير القيمية بالافتراضات العلمية.

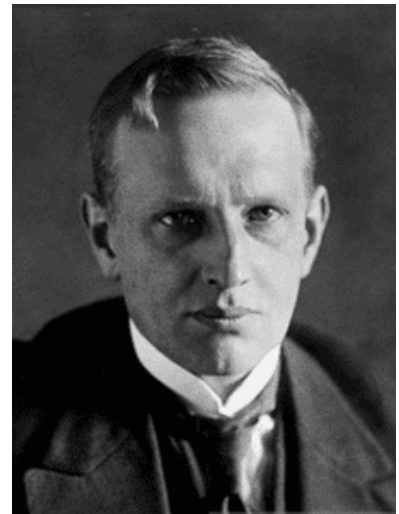
في تلك الظروف التي يفقد فيها العقل البرجوازي "احساسه بالتاريخ"، سيكون من المُمكن فهم وحدة السيرورة التاريخية كعملية تطور مُقنونة، وتحديد ماهية الانسان حسب علاقته بالنظام الاجتماعي القائم، وأن يكون حل مسألة توجهه الاجتماعي-السياسي قائماً فقط على دوغما أو ميول سيكولوجية، ولكن ليس اطلاقاً على قاعدة فهم عقلائي للقوانين التاريخية. تمشياً مع هذه الآراء، لا يُمكن تفسير حقيقة وجود نظامين اقتصاديين-اجتماعيين مُتعارضين الا كمؤشر على وجود واقع اجتماعي "تعددي"، ولكن ليس كتعبير عن صراع طبقي على صعيد عالمي. يعتبر مؤيدو هذه الآراء (من الكانطيين الجدد الى الوضعيين الجدد) أي ادعاء بأن العلم يُمكن أن يتوصل الى استنتاج حول شكل المُجتمع الذي يجب على المستقبل أن يحوزه، نقول، يعتبرونه بمثابة تشويش "قيمي" غير مسموح به.

أخيراً، تظهر مسألة القيمة كوسيلة لحل بعض المسائل التقليدية في نظرية المعرفة المُرتبطة بالطبيعة الاجتماعية-التاريخية للمعرفة. حتى كانط، أخذاً كنقطة انطلاق الطبيعة غير المُكتملة للمعارف التجريبية في كل لحظة ملموسة في التاريخ، يستبدل مفهوم لانهائية المعرفة الانسانية بفكرة المبدأ التنظيمي، وهو مثال ideal مُتعالٍ يُمكنه أن يجعل من المُمكن تخيل لانهائية الكون ككيان ويوجه تطور الادراك العقلي. التقط تلامذة كانط في مدرسة بادن هذا المفهوم، وسعوا الى اختزال الشيء في ذاته، الى مفهوم القيمة. وظّف هوسرل مفهوم القيمة (الضرورة الأخلاقية، القاعدة الازامية) لمحاولة التعبير عن طبيعة كل المعرفة العلمية على أنها ضرورية موضوعياً وموجهة الى مواضيع ملموسة. لكن يُنظر الى نشاط الانسان الذي يتعامل مع الاشياء الملموسة، وتطوره الذي يحكمه القانون التاريخي، على أنه ظاهرة نفسية فقط، أي في الشكل المُتحوّل الذي يظهر في فعل معرفي فردي ويتم ادراكه من قِبَل الذات الفردية.

ان كل مجموعة المسائل التي يجد المُنظَر البرجوازي نفسه في مواجهتها ويسعى الى اتخاذ قرار بشأنها بالاستعانة بمفهوم القيمة، تتأسس على قاعدة مُشكلة جذرية عامة واحدة، وهي مُشكلة استيعاب الذات الفردية النشيطة للثقافة الانسانية. ان الفرد، الذي يحده العوامل الطبقيه والمهنية والتنظيم الجماعي ويؤدي فقط عمليات معزولة في النشاط الاجتماعي غير قادر على استيعاب قوانين حياة المُجتمع وثقافته ككل، ولا يستطيع استيعاب حركة عملية الادراك التاريخي العام. يميل نظام التقسيم الاجتماعي للعمل في المُجتمع الرأسمالي المُعاصر الى أن يُصبح نشاطاً وظيفياً مُتعدد الجوانب، حيث يندمج الفرد في الحركة المُستمرة للكل الاجتماعي كمنفذ سلبي للدور المنوط به وخاضعاً لنظام صارم التنظيم.

في ظل هذه الظروف، تكون الطبيعة الاجتماعية للانسان مواجهةً له كشيء غريب عنه في الأساس: كأنها ضرورة خارجية يجب أن يُنسَق أفعاله معها، والتي لا يستطيع أن يستوعب معناها. انها نشاط اجتماعي يتم تكليفه بها من خارجه، ولا يوجد أي شيء مُشترك بين أهدافه (أهداف الطبيعة الاجتماعية) وأهدافه "الانسانية الصرف"، والتي لا تُمكنه من اكتساب الثروات المادية والفكرية التي يوظفها فقط بما يتناسب مع احتياجاته المُباشرة. ونتيجةً لذلك، فان استيعاب ادماج الفرد في الثقافة يحدث بطريقة خارجة عن نشاط حياته. هذا ليس سوى تعلم تلقيني للمبادئ العامة للسلوك المقبول وحفظ صيغ العلم والعمل المُنتج والسلوك الأخلاقي وتقديسها كمُطلقات ودوغما لا بديل عنها، أو تطوير قوالب نمطية عاطفية ونفسية توافقها. هذا "الامام" بالثقافة الذي لا يكشف عن نشأتها التاريخية وأهميتها الانسانية، يحدث حتماً في شكل بناء "مقاييس قِيَمية" تؤدي وظيفة التوجيه الاجتماعي للشخصية في عالمٍ لا عقلاني.

حينها تصبح الاكسيولوجيا هي المكوّن المركزي للفلسفة البرجوازية وتدّعي أنها الموضوع الحقيقي للفلسفة، عندما يصير من الضروري أن يتم حل هذه المسألة الأساسية. حتى نيتشه يعتقد أن حل "مسألة القِيم" هو المهمة الرئيسية للفلسفة. وبغض النظر عن المُقاربة التي يتبعها المُنظَر البرجوازي لحلها، فانه يعتبر أن حلها يقع خارج حدود العلم أو حتى الفكر العقلاني بشكلٍ عام. يبدو أن مُقاربة القِيم بالنسبة له كأنها طريقة أُخرى لرؤية العالم تختلف عن "الوصف" أو "التعميم" أو التصوير "المُحايد" للعالم. على عكس النظرة الوضعية للعلم التي تفصله عن التجربة الاجتماعية، وترى المعرفة بأنها شيء "نقي" محروم من المعنى فيما يتعلق بالنظرة الى العالم، تدخل الاكسيولوجيا التي تطرح "المشاكل الانسانية" الى الفلسفة من الباب الخلفي.



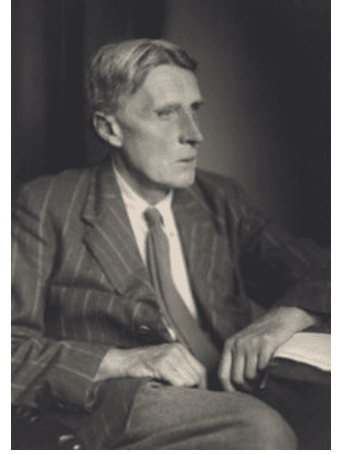
نيكولاى هارتمان

كيف يُمكن فهم طبيعة القيمة ذاتها في هذه الحالة؟ هنا نقترح من المُحتوى الملموس للاكسيولوجيا البرجوازية وتصنيف الاتجاهات الموجودة داخلها. نُلاحظ، دون الخوض في تحليل مُفصّل لها، اتجاهين فقط. بقدر ما تنشأ مُشكلة القيمة على أساس التناقض بين موضوعية التاريخ الطبيعي والذاتية الانسانية، حيث تظهر في أكثر الأشكال تنوعاً (الضرورة الاجتماعية والحرية الشخصية، القانون التاريخي والمُثل، المنفعة الاجتماعية والأهداف "الانسانية"، الضرورة العلمية الصارمة والابداع الفردي)، فانها في كل الأحوال تحمل بصمة هذا التناقض.



وليام ديفيد روس

في فهمه لطبيعة القيمة، يجب على عالم الاكسيولوجيا أن يختار بين المثالية الموضوعية والمثالية الذاتية. في الحالة الأولى، يتم التعامل مع القيمة كظاهرة كامنة في عالم الجواهر المُتعالية خارج المكان والزمان وهي تقع خارج العالم التجريبي، مثل الواجب الأخلاقي المُطلق الذي يُعيّن معايير وتقييم السلوك الانساني من الخارج مثل نظرية القيمة الظواهرية نيكولاي هارتمان وماكس شيلر، وعلم الأخلاق الحدسي لجورج مور وويليام ديفيد روس William David Ross وايدغار كاريت Edgar Frederick Carritt ، والتوماوية الجديدة، والواقعية الجديدة لجورج سانتاينا George Santayana



ايدغار كاريت

في الحالة الثانية، على العكس من ذلك، تُفهم القيمة على أنها موقف ذاتي صرف للانسان تجاه شيء خارجي، كاسقاط للسلوك العاطفي على العالم، كنتاج لقرار بشري تعسفي لا يخضع للتحليل العقلاني (الوضعية الجديدة). نجد أن وجهة النظر القِيمية، في كلتا الحالتين، لا يُمكن ربطها منطقياً ببيانات المعرفة العلمية المُثبت صحتها¹

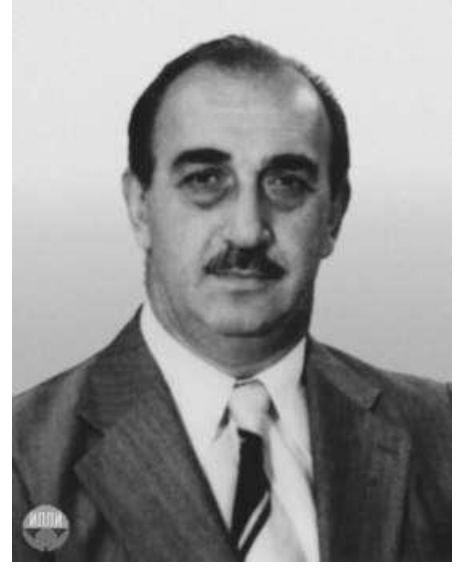
هذه بعض الدروس المُستمدة من تحليل الاكسيولوجيا البرجوازية.

ترجمة لمقالة:

O. G. Drobnitskii (1967) Marxist Philosophy and the Problem of Value, Soviet Studies in Philosophy, 5:4, 14-24

¹ - يوجد هناك اتجاه ثالث أيضاً في علم الاكسيولوجيا البرجوازي، وهو الاتجاه الطبيعي، والذي يظهر أنه استثناء في هذا الصدد. يُمكننا، كمثال عليه، كمثال عليه، أن نستشهد بنظرية القيمة لـ رالف بيرري Ralph Barton Perry والتي بموجبها تتأسس أحكام القيمة في أحكام الحقائق. ولكن هنا، لا يتم النظر الى الظواهر القِيمية الا من جانبها السيكلوجي-كنتنظهر لـ "المصلحة" (الرغبات والانجذابات والميول). وفقاً لهذا المفهوم، يُمكن تفسير تمظهر هذه "المصلحة" كحقيقة تجريبية، ولكن لا يُمكن اشتقاقها بنفس صرامة الضرورة العلمية. وهكذا، فان التناقض بين العلم والاكسيولوجيا يظل قائماً: تم فقط "دفعه الى الداخل" وينتقل من مجال الوصف التجريبي للحقائق الى مجال اكتشاف انتظاماتها الأساسية.

الماركسية ومسألة القيمة: مقارنة نظرية



فلاديمير فلاسوفيتش شيفير نادزة*

ان مسألة تطوير نظرية القيمة الماركسية اللينينية، والحاجة الى تعريف علمي دقيق وصارم للموضوع المراد بحثه، وأدواته المفاهيمية ومقولاته الفردية، وتحديد مكان هذه المقولات في منظومة المعرفة العلمية، هي أمور تطرح نفسها فيما يتعلق بعددٍ من المسائل الملحة التي تشغل بال العديد من الفلاسفة الماركسيين. ليس أقل أهميةً بمكان، في هذا الصدد، حقيقة أن هذه المسائل تحتل مكانةً بارزةً في الأدب الفلسفي والسوسيولوجي البرجوازي المعاصر.

تُعالج النظريات الاكسيولوجية البرجوازية المختلفة الموجودة الآن، والتي لا تتضمن "مفاهيم القيمة" (أنظمة نظرية) فقط، بل و"مقاربات حول القيمة" (المسائل في منهجية البحث) كذلك، نقول، تُعالج مجموعةً كبيرةً

* فلاديمير فلاسوفيتش شيفير نادزة 1926-1990، فيلسوف سوفياتي مُتخصص في تاريخ الفكر الاجتماعي الغربي ومنطق وفلسفة السياسة. دكتور في الفلسفة، واستاذ وعضو مراسل في أكاديمية العلوم السوفييتية في قسم الفلسفة والقانون منذ عام 1984. شارك في الحرب الوطنية العظمى. عضو في الحزب الشيوعي السوفييتي منذ عام 1945. تخرّج من كلية الفلسفة في جامعة تبليسي عام 1953، وأكمل دراساته العليا في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية. حصل على دكتوراة في الفلسفة عام 1957 حيث تقدم بأطروحته المُعنونة (المبادئ الفلسفية لنظرية المعرفة الفلسفية: مقال نقدي). عمِل في معهد الفلسفة كباحث أول، ورئيساً للمعهد ونائب مدير ممن عام 1979-1989. ورأس قسم المسائل الفلسفية السياسية عام 1989-1990. كان مديراً لقسم التنمية الدولية للعلوم الاجتماعية في الأمانة العامة لليونسكو منذ عام 1972-1978، وكان رئيس المجلس العلمي لأكاديمية العلوم السوفييتية حول مسائل الفلسفة والثقافة والاتجاهات الأيديولوجية. ومن أعماله الرئيسية: (التيارات الرئيسية في الفلسفة البرجوازية المعاصرة) 1961، (فلسفة الوضعية الجديدة والسيماطيق) 1961، (العداء للشيوعية سلاح المحكوم عليهم بالفشل) 1964، (الفلسفة البرجوازية المعاصرة في الولايات المتحدة: استعراض نقدي) 1966، (ماركسيين أجانب في النضال ضد الايديولوجيا البرجوازية) 1971، (العداء للشيوعية-ايديولوجيا وسياسة الامبريالية) 1973، (المسائل القائمة في النضال ضد العداء للشيوعية) 1973، (الفكر الفلسفي والسوسيولوجي التقدمي المعاصر في الولايات المتحدة) 1977، (الوعي السياسي البرجوازي المعاصر - الجانب الفلسفي) 1981، (الفلسفة الاجتماعية-السياسية البرجوازية المعاصرة) 1984، (الفلسفة والثقافة) 1987.

ومن مقالاته: (المادية المعاصرة- فلسفة التعاون بين الشعوب) 1955، (فلسفة الوضعية الجديدة-مسائل فلسفية) 1957، (الفكر الفلسفي في كندا) 1961، (العداء للشيوعية هي انعكاس للانحلال الشديد للايديولوجيا البرجوازية) 1962، (العداء للشيوعية هي عدو للثقافة) 1963.

من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية-النفسية والأخلاقية والجمالية والدينية وغيرها. يقوم الأيديولوجيين البرجوازيين بتشويه هذه المشكلات بطريقة مثالية، في حين يكتسب تفسيرها نبرةً مُعاديةً للشوعية بشكلٍ مُتزايد، ويستمرّون في مُمارسة تأثير مخفي على ملايين من الناس غير المُتمرسين فلسفياً في البلدان الرأسمالية.



رودولف هيرمان لوتزه

طَرَحَت الحاجة الى النضال ضد الايديولوجيا البرجوازية أمام الفلاسفة الماركسيين مهمة تقديم تفسير نقدي لـ"نظريات القِيم" التي تطورت على نطاقٍ واسع في الكتابات البرجوازية. تتضمن هذه المهمة البحث عن تعريف علمي صارم لمفاهيم أساسية مُعينة، والتي كان الكثير منها يُطبَّق في العادة حتى الآن فقط في معناها اليومي ولم تتطلب تعريفاً صارماً! يتعلق هذا بمفهوم "القيمة" نفسها، وكذلك بالمصطلحات المُشتقة منها: "القيمة الايجابية" و"القيمة السلبية"، الخ. ستطرح هذه المقالة فقط مُقاربة عامة لمسألة القيمة ولحل بعض المسائل الأساسية.



ماكس فيبير

إن كُلاً من طرح مسألة "القِيم" وحقيقة أن الفلاسفة البرجوازيون يعالجونها بطريقة خاصة للغاية، لهما جذور في العلاقات الطبقيّة ذات الطبيعة الاجتماعية-الاقتصادية والسياسية، وفي تقاليد مُعينة.

1 - أنظر في هذا الصدد الى الأعمال المُكتفة التي قام بها الفيلسوفان السوفييتيان أوليغ غريغوريفيتش دروبنيتسكي وفاسيلي يتروفيتش توغارينوف، وآخرون.

يُمكن ايجاد مفهوم "القيمة" في بواكير الفلسفة القديمة، ولكن تطور هذا المفهوم، وحتى الوقت الذي تمايزت فيه "مسألة القيمة" كجزء من الفلسفة، ثم كان لتحولها الى "نظرية القيمة" باعتبارها مجالاً مُستقلاً "الاكسيولوجيا"، تاريخاً استثنائياً للغاية.



ماكس شيلر

يُمكن للمرء أن يقول أن طرح وتطوير "نظريات القيمة" البرجوازية، والمُقاربة الاكسيولوجية لهذه المسألة في الفلسفة البرجوازية الأوروبية بدأ في النصف الأخير من القرن التاسع عشر (رودولف هيرمان لوتزه Rudolf Hermann Lotze 1817-1881، وفريدريك نيتشه 1844-1900، فيلهلم فيندلباند W. Windelband 1848-1915، ماكس فيبر 1864-1920، هينريك ريكرت 1863-1936، ماكس شيلر Max Scheler 1847-1928، نيكولاي هارتمان Nikolai Hartmann 1882-1950، وآخرين). كان أول عمل تركيبى الى حد ما حول مسألة القيمة في السوسيولوجيا البرجوازية الأمريكية، على الرغم من أنه لم يكن دراسةً خاصةً في الاكسيولوجيا، هو كتاب فلوريان زنانيكى Florian Znaniecki وويليام توماس William I. Thomas (الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا) الذي نُشِرَ عام 1918.



فلوريان زنانيكى

في البداية، تضمنت "مقاربة القيم"، في معظمها، المجالات الأخلاقية والاجتماعية والدينية فقط، وتألفت من جهود لتقديم تحليل لقيم معينة (اجتماعية، ثقافية، علمية، أخلاقية، جمالية، دينية، الخ) رُعم أنها مُحددات نهائية لسلوك الانسان في المجتمع وللتطور الاجتماعي نفسه، ووضعت مقابل نظرية القوانين المادية الموضوعية للتطور الاجتماعي.

وهكذا، اعتبر وليام توماس وزنانيكي القيمة، كأى شيء يحوز أهميةً بالنسبة لأي مجموعة اجتماعية. قام المؤلفون باعتبار "قواعد السلوك الرسمية الواضحة الى حد ما والتي تُحاول المجموعة من خلالها المحافظة على أنواع السلوك المُلائمة بين أعضائها وتنظيمها ونشرها"¹، باعتبارها القيمة الأساسية. تم التأكيد مراراً وتكراراً على أن هذه القواعد أرست معايير السلوك، وهي تختلف عما كان يُسمى "المواقف Attitudes" و"الوضعيات" (التوجهات الشخصية). وبقدر تزايد الاستخدام المُكثف لمفهوم "القيمة" في السوسولوجيا البرجوازية الأمريكية، فقد تم "تحريره" بشكلٍ مُتزايد من أي مُحتوى موضوعي. علّق السوسولوجي الأمريكي ويليام كولب William kolb قائلاً: "من تعريف القيم ككيانات لها أهمية للذات، مع التركيز على القواعد كقيم مهمة للسوسولوجيين، حدثت تغيير تدريجي في مفهوم القيم بالنسبة للسوسولوجيين، بحيث أصبح وضع المعايير Norm-setting المُميز للقواعد، معياراً للتعريف، أكثر من كونه عُنصراً يمت بصلة للموضوعية"²

انطلاقاً من نظرية القيمة، بدأت دراسة السلوك البشري وأفعال المجموعات الاجتماعية مثل المجتمع والعائلة أو تعاونيات المُنتجين باعتبارها تعبيرات أو نتائج لـ"علاقات القيمة". ما وصلت اليه هذه المُعالجة هو أنه تم منح مكانة هائلة لأي حقيقة اجتماعية أشارت اليها أكثر التظاهرات سطحيةً. لقد استُبدلَ البحث العميق في جوهر القوانين الاجتماعية بوصف الانطباعات الذاتية المُكتسبة من ملاحظة أشكال الحياة الاجتماعية الخارجية الصرفة. يبدو ان هذا الجانب بالذات من "مقاربة القيمة" هو المسؤول بشكلٍ خاص عن الدرجة الكبيرة غير المُعتادة لقبوله من قِبَل الفلاسفة والسوسولوجيين البرجوازيين.



هوارد بيكر

¹ - W. Thomas and F. Znaniecki, The Polish Peasant in Europe and America, Boston, 1918, Vol. 1, p. 31

² - see H. Becker and A. Boskoff, Modern Sociological Theory in Continuity and Change, Russ. ed., Moscow, Foreign Literature Press, 1961, p. 115

مُلخِصاً لنتائج مُعيّنة لمناقشاتٍ مُطوّلة الى حدٍ ما مُكرسة لتعريف مفهوم القيمة، طرَحَ السوسيولوجي الأمريكي هوارد بيكر Howard Becker في عام 1957، "تعريفاً" لهذا المفهوم ربطه بشكلٍ وثيقٍ وعضوي بالاحتياجات. كتب بيكر: "قد تكون القيمة محسوسة وغير محسوسة، جذابة أو مُنفرة، خاصة Private أو اجتماعية، مشوشة أو واضحة، الخ. تكمن طبيعتها ككيان في حقيقة أنه تم تحديدها هكذا من قِبَل الكائن الحي الذي يشعر بحاجةٍ شديدةٍ لها. الجبن السويسري، المملكة السماوية، الغنى، الفقر، الكبرياء، سيارة باهظة الثمن توفر الهيبة لصاحبها، جندي العدو، الشر، المجد والدين. كل هذه أشياء لها احتياجات مُعيّنة، وأيضاً قِيم بالمعنى الذي نستخدم به هذه الكلمة"¹

لقد حوّل الفلاسفة البرجوازيين، الذين ضخموا مسألة القيمة واستخرجوها من كل شيء، حولها الى شيءٍ فضفاض وغير محدود. هذا هو الشكل الذي ظهرت فيه القيمة في المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة (المكسيك 1963)، حيث واصلَ الفلاسفة البرجوازيين التحدث بشكلٍ رئيسي عن أهمية هذه المسألة والحاجة الى دراستها بعناية. لكنهم لم يهتموا بتقديم أي تعريفٍ دقيقٍ لمفهوم "القيمة".

ومع ذلك، لا يُمكن النظر الى مسألة القِيم على أنها مُجرّد ثمرة لخيال الايديولوجيين البرجوازيين. ان حقيقة طرحها لم تكن نتيجةً لمنطق الصراع الايديولوجي وحسب، بل لأسباب اجتماعية-اقتصادية. أصبحت تناقضات الرأسمالية، في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، مثل التناقضات بين الفرد والمُجتمع، وبين المُنتجين المُباشرين للسلع المادية وغير المادية من ناحية، وعواقب هذا الانتاج من ناحيةٍ أُخرى، حادةً للغاية لدرجة أنه لم يكن من المُمكن تصور التطور اللاحق لهذا المُجتمع دون ايجاد حل لتلك التناقضات. نشأت الحاجة العملية لإزالة المستوى المُتطرف من اغتراب العمل البشري وثماره-السلع المادية والفكرية- من المُنتج المُباشر، من الانسان نفسه، وللتغلب على التناقض شديد الخطورة بين المُجتمع والفرد، لكي يُمكن للانسان في النهاية "السيطرة على جوهره وعلى حياته ونشاطاته الانسانية الفعلية"²

لقد أثبتَ الفلاسفة البرجوازيون أنهم غير قادرين على تقديم حلٍ مُناسبٍ لهذه المسائل التي تطرحها الحياة نفسها. كانت "نظريات القيمة" و"مقاربات القيمة" في الواقع مُجرد اعدادٍ للانسانية الزائفة بلمعةٍ أكاديميةٍ مُحترمة. أدت هذه النظريات الى تشويه المسألة الحقيقية-مسألة موقف الانسان من ثمار نشاطه، أي من تلك النتاجات الثقافية والمكتسبات الانسانية التي حققها المُجتمع في سياق تطوره التاريخي.

تكشف المُحاكمة النشوئية-التاريخية لـ"نظرية القيمة" البرجوازية نفسها عن التطور المُميز للغاية (من حيث النطاق والمحتوى) الذي مر به هذا المُصطلح في الفلسفة البرجوازية خلال القرن التاسع عشر. على الرغم من غياب الصرامة العلمية في طرح هذه المسألة والغموض الناتج عن التفسير، كانت أهميتها الحقيقية هي توضيح مكانة ودور الانسان في المُجتمع والكشف عن ميكانيزم وبُنية "الأفعال الاجتماعية" للفرد. في حين أن التطور اللاحق لمفهوم القيمة قد أدى الى تفسير أكثر فضفاضةً وغالباً ما كان سكولاستيكياً، فإن عملية توسيع نطاق المفهوم كانت مصحوبةً بتضييق محتواه، أو بالاشارة اليه حيث يُشير معناه ان أردنا الدقة. أصبحت المشكلة الرئيسية-مشكلة الفرد والمُجتمع- والتي تتخلل المسائل والمناهج المتعددة والمتنوعة للبحث في الفلسفة البرجوازية، بدءاً من التفسير "الانساني الحق" للعقائد الدينية الدوغمائية، الى التحليل السكولاستيكي لـ"الأحكام القِيمية"، نقول أصبحت أكثر وضوحاً، أكثر من أي وقتٍ مضى.

¹ - ibid., p. 159

² - Marx and Engels, From the Early Writings [Iz rannikh proizvedenii], Moscow, 1956, p. 591

لم يتم العثور على حل علمي حقيقي لهذه المُشكلة الا في الفلسفة الماركسية. كَشَفَت الماركسية اللينينية عن القوانين الموضوعية الأعمق للتطور الاجتماعي وأظهرت حتمية الغاء المُلكية الخاصة والتقسيم الرأسمالي للعمل. أظهر هذا امكانية تقديم حل علمي لمسألة سيطرة الانسان على جوهره وتملكه للقيم المادية والفكرية التي يُنتجها، المُغتربة عن العمال في المُجتمع الرأسمالي. على عكس المُقاربة المعيارية في دراسة القوى الدافعة للتقدم الاجتماعي، والذي يتطلب في التحليل النهائي انتقاءً تعسفاً لدوافع وحوافز تطور العضوية الاجتماعية، تشدد الماركسية، قبل كل شيء، على الاشرط الموضوعي للسلوك الانساني، وتعتبر الحياة الاجتماعية كعملية في التاريخ الطبيعي. بطبيعة الحال، يُشكّل التقييم الحقيقي للعوامل الاجتماعية المُختلفة شرطاً أساسياً لعمل الفرد الواعي. خلاف ذلك، فان تغيير وتحسين تلك العوامل سيكون مُستحيلاً. ومع ذلك، فان كل تقييم صحيح، وكل تحديد لقيمة ظاهرة مُعطاة، يفترض مُسبقاً وجود مقياس موضوعي ما، وإلا فلن يكون هناك سوى أهمية ذاتية محدودة، وفي هذه الحالة سيتشكل هنا خطر حقيقي من إقامة "نماذج مشوهة" للعملية الاجتماعية. على الرغم من أن كل قيمة مُرتبطة بعملية التقييم، فان ليس كُل ما يتم تقييمه هو قيمة. في هذا الصدد، يجب مُلاحظة أن تقسيم القيم الى "ايجابية" و"سلبية" المقبول في الاكسيولوجيا البرجوازية، لا يقوم على أي أسس علمية. إن الاعتراف بالقيم "الايجابية" و"السلبية" لا يؤدي الا الى خلق ما يبدو أنه مُقاربة عيانية (ملموسة)، الا أن هذا يؤدي في الواقع الى اللاتحديدية واستحالة تفسير الظاهرة المُعطاة بشكل علمي وموضوعي صارم، وعدم امكانية التحقق الموضوعي من التقييم. بما أن الحقيقة هي مقولة تاريخية، فإنه لا توجد قيم أبدية، أي أنه مع مرور الزمن ونتيجةً لتغير الظروف تتوقف ظاهرة مُعينة عن أن تكون قيمة. ومع ذلك، هذا لا يعني أن القيمة "الموجبة" تُصبح "سالبة".

بالإضافة الى ذلك، فإن الاعتراف بالقيم "الإيجابية" و"السلبية" يخلق امكانية التحديد الذاتي للقيم، وتصنيفها "حسب الذوق". يترتب على ذلك أن التقييمات الرجعية والتقدمية، البرجوازية والبروليتارية، سوف تختلف تعسفاً. جوهر الأمر أن التحزب البروليتاري يستلزم الموضوعية العلمية. لذلك، فإن تحديد القيم ليس شيئاً يُمكن القيام به انطلاقاً من "وجهات نظر" مُتنوعة. لا توجد سوى وجهة نظر علمية واحدة، هي نفس وجهة نظر التحزب البروليتاري. وبالتالي، فإن كل ظاهرة ليست اليوم قيمة من وجهة نظر البروليتاريا (أي من وجهة النظر الموضوعية العلمية) هي ليست قيمةً على الإطلاق.

هل هذا ينفي وجود قيم انسانية عالمية؟ بالطبع لا. يفترض التقييم البروليتاري التحزبي الاعتراف بالقيم الانسانية العامة الأساسية التي طورتها الجماهير على مدى آلاف السنين في النضال ضد الاضطهاد الاجتماعي.

إن محاولة تناول مسألة القيم الانسانية العامة بطريقة لاتاريخية تدفع بالفلاسفة البرجوازيين الى المُبالغة الواضحة في إمكانيات جعل الاكسيولوجيا كـ"جسر فكري" مزعوم بين الايديولوجيات الطبقيّة المُتنوعة. قام الفيلسوف البرجوازي الأمريكي هنري مارجيناو Henry Margenau بإحدى هذه المحاولات في المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة.

طَرَحَ في ورقته شديدة التعقيد التي تحمل عنوان (التواصل الفكري للأحكام الأخلاقية)، فكرتين رئيسيتين:
1- العلم مُحايد فلسفياً، لذلك تُشكّل الحقائق المُعترف بها بشكلٍ عام جسراً بين الشرق والغرب. 2- ان كنا نريد

أن نُنشئ "نظاماً أخلاقياً" علمياً، أي للعمل على مبادئ يُمكن من خلالها قياس قِيَم الثقافات المُختلفة والحُكم عليها، فإن هذا سيبنى "جسراً ثانياً" سينضم الى قاراتنا الثقافية، مُكملاً جسر الحقائق الموجود مُسبقاً.



هنري مارجيناو

لكن هذا يتطلب، من وجهة نظر مارجيناو، الاعتراف بحيادية العلوم: "تفسير العلم هو مسألة ذوق فردي. أن تكون مُحايداً هو سمة من سمات العلم"². هذا يعني، فيما يتعلق بالأخلاق، أنه يجب تحديد بعض المبادئ الأخلاقية (املاءات)، والتي يجب تقييم السلوك البشري وفقاً لها. تفتقر هذه المبادئ الى أي أساس موضوعي وهي مُنتقاة بطريقة تعسفية، والذي "يُبرره" حقيقة أن "التفسير مسألة ذوق"، ويُمكن أن يتم تكيفه مع آراء المرء "المثالية أو الواقعية" و"الوضعية أو العقلانية". نحصل، بنتيجة ذلك، على ما يلي: في العلم هناك بديهيات، وفي الأخلاق هناك املاءات. في العلم يوجد نظريات، وفي الأخلاق يوجد قِيَم. في العلم يوجد استنتاجات، وفي الأخلاق يوجد التقييم. إن وجود التقييم في علم الأخلاق، في رأي مارجيناو، مشروط بأن مبادئ بناءه (المبادئ الأخلاقية) لا تمتلك أساساً موضوعياً، بل أساساً تقليدياً.

بتأكيدنا على الحاجة الى فهم القانون الموضوعي للتطور الاجتماعي كعملية تاريخية طبيعية، تُعارض الماركسية التفسير المعياري لقوانين التطور الاجتماعي والتقسيم التقليدي الذي لا أساس له من الصحة لموضوع الفلسفة الى ثلاث مجالات: الواقع، الحقيقة والقيمة. لكن الماركسية لا ترفض أو تتجاهل على الاطلاق المعايير والمعيارية. على العكس من ذلك، يُمكن تحديد موقعها الصحيح ومصدرها ووظيفتها في العملية الاجتماعية على أساس المنهجية الماركسية.

القيمة هي مقولة اجتماعية تدل على الظواهر المادية والفكرية التي أنشأها واستخدمها الانسان في النضال من أجل التقدم الاجتماعي، ومن أجل حرية الشخصية الانسانية وتطورها. ان القانون الموضوعي للتقدم الاجتماعي يعمل كمعيار موضوعي للتقييم، في التحليل النهائي. لا يُمكن للقيمة أن لا ترتبط بمصالح الطبقات التقدمية والمجموعات الاجتماعية في المُجتمع. ومع ذلك، فإن هذه المصالح بالذات، بغض النظر عن شكلها

¹ - simposium sobre informacih v comunicacih. Mexico, 1963, p. 67

² - ibid., pp. 66-67

الذاتي، تمتلك أساساً موضوعياً وتُعبّر عن علاقات اجتماعية موضوعية، اقتصادية قبل كل شيء. تتجلى العلاقات الاقتصادية في كل مجتمع في المقام الأول على شكل مصالح!

قد يبدو أن تحديد القيم "من خلال" القوانين الموضوعية للتقدم الاجتماعي هو تحديد عام الى حد ما. هذا صحيح. ولكن في المقام الأول، مفهوم التقدم الاجتماعي مُحدد بما يكفي لتقديم معنى مُحدد لمفهوم القيمة. وفي المقام الثاني، فإن تجريدية هذا التحديد للقيمة تُبرره حقيقة أنه يُمثل تعبيراً ايجابياً عن جوهر المسألة ويتضمن معيار انساني موضوعي عام.

من الضروري التمييز بين القيم المادية والفكرية، ولكن هذا التمييز من وجهة نظر مبدئية، مشروط، لأنه لا يتعامل مع تعريف وفهم القيم ذاتها، ولكن فقط مع علاقتها بالمصالح المادية أو الفكرية للمجتمع (الطبقة). لا تُركز الماركسية، لدن تطويرها مسألة القيم، على انشاء "نظرية عامة ما حول القيم"، ولكن على دراسة تلك القوانين الاجتماعية والطبيعية الموضوعية، التي يُسهّل استخدامها العملي التطور الاجتماعي والشخصي، والتحرر التاريخي للإنسان.

وغني عن القول، أن القيم لا توجد خارج الانسان وبدون الانسان. لكن هذه الحقيقة لا تجعلها تفقد طبيعتها الموضوعية بأي حال من الأحوال، لأن الأشياء المادية "توجد" بالنسبة للإنسان فقط بقدر ما يتم دمجها في قطار الحضارة، ويتم "أنسنتها". ومع ذلك، يبدو لنا أنه من غير الدقيق تفسير القيمة كشيء صرف استعمالي أو قيمة استعمالية. هذه الأخيرة هي خصيصة تمت بصلة فقط للسلع المنتجة خصيصاً لهذا الغرض. لذلك، فإن وضع "نظرية القيم الاستهلاكية" في المقدمة، يعني أولاً وقبل كل شيء، مقارنة حل المشكلة من اتجاه خاطئ.

هذا لا يعني أنه يجب التخلي تماماً عن تشخيص قيمة (أو المعرفة الصحيحة حول هذا الموضوع) من وجهة نظر استخدامها (المقصود نفعها). ولكن، لا يتضمن اختزال القيمة الى مدى استخدامها ونفعها فقط عدداً من الأخطاء الجوهرية والأساسية (الذاتية، التسطحية، الخ)، ولكنه أيضاً غير مُتسق منطقياً. النقطة المهمة هي أنه لا يُمكن للإستخدامية أن تكون معياراً، لأنها هي نفسها تتطلب معياراً لتحديدها. وبالتالي، من الضروري، وجود معيار أكثر عمومية وموضوعية لتحديد كل من الإستخدامية والقيمة معاً. لاحظ لينين، في انتقاده لاختزال البراغماتيين للحقيقة الى منفعتها، لاحظ، أن المعرفة يُمكن أن تكون نافعة للإنسان فقط ان كانت انعكاساً مُطابقاً للواقع الموضوعي.

بالرغم من أننا نفهم شرطية أي تشبيه ومحدوديته، فإننا مضطرون مع ذلك الى استخدام أحدها، مع العلم أنه ليس أكثر من مجرد مقارنة. بالضبط مثلما "الحقيقة"، على سبيل المثال، هي مقولة ابستمولوجية، فإن القيمة هي مقولة اجتماعية. الحقيقة موضوعية، أي أن محتواها مُستقل عن الأفراد وعن الجنس البشري. لكنها ذاتية في الشكل ولا يُمكن أن توجد بدون الذات التي تعكسها. وبالتالي، من الخطأ مُساواة الحقيقة بالكيانات المادية الموجودة موضوعياً. القيمة كمقولة تنشأ في عملية الترابط بين الذات والموضوع، وتمتلك خصائص مُشابهة لمقولة الحقيقة. ولكن، القيمة لا تتجلى في العلاقة الابستمولوجية بين الذات والموضوع، بل في العلاقة الاجتماعية.

ان الماركسية، التي تتخذ موقفاً مُضاداً لكل التأكيدات المثالية بأن القيمة موجودة بشكلٍ سابق للعلاقات الاجتماعية، وأنها "مُحايدة"، تكشف بالتالي، من ناحية، الديماغوجية الاجتماعية التي يلجأ اليها الايديولوجيين

¹ - Marx and Engels, Soch., Vol. 18, p. 271

البرجوازيين في تفسير مسألة القيم، ومن ناحية أخرى، تكشف الجهود المبذولة لاستبدال المقولات الاجتماعية العيانية بالمفهوم العام والجماعي لـ"القيمة".

لكن الماركسية لا تقصر نفسها على ذلك. يشمل البحث الإبداعي في مشكلة القيم التطور العلمي لتلك الحقول الماركسية المتخصصة، حيث يُمكن إيجاد حلول ايجابية للمسألة المطروحة بشكلٍ مُشوه في النظريات الاكسيولوجية البرجوازية.

(كُتِبَت هذه الورقة خصيصاً لمناقشة المسائل المنهجية للعلوم الاجتماعية في مؤتمر عموم الاتحاد حول مسائل الفلسفة الماركسية.)

ترجمة لمقالة:

V. V. Mshvenieradze (1965) Marxism and the Problem of Values: An Approach (1), Soviet Studies in Philosophy, 4:2, 50-55

ملاحظة ماركسية أولية على مسألة القيم

ديان بافلوف*

ترجمة الهادي معروف

أثار معاصرنا العديد من المسائل الجديدة في ما يتعلق بالصلة والتفاعل بين المعرفة والقيم. يتحدث العديد من المؤلفين حول "أزمة القيم القديمة" وعن ضرورة إيجاد قيم جديدة متعلقة بالأخلاق والثقافة والحياة. وسيكون المؤتمر الدولي الخامس للفلسفة (فارنا، أيلول 1973) المكان الذي سنطرح فيه مواقف متعددة تجاه هذه القيم وعلاقتها بالعلم.

هل يقف الشيء المُدرَك نقيضاً للشيء القيمي، وهل يقف ما هو إدراكي نقيضاً لما هو قيمي؟ نحن ندعم الموقف الذي يعترف بوجود تمايز نسبي بينها، على الرغم من إمكان وجودهما في حالة وحدة داخلية. قد يكون للعلم نفسه أهمية هائلة بقدر ما يتعلق الأمر بالقيمة بالنسبة للبشرية، بشرط أن يتم تطويره في وئام مع تطلعاته الإنسانية وأن يخدم تطورها الحر و الشامل.

وهكذا، ما هي القيم؟ القيم هي أداة مُحددة للعلاقات بين الفرد وبين بيئته الطبيعية والاجتماعية. يبرز دائماً جانبين في كل علاقة قيمة: أ- المصدر الموضوعي (الأشياء، الظواهر وخصائص القيم بالنسبة للبشر). ب- الذات التي تقوم بالتقييم، إذ تنشأ القيمة من تكامل هذين الجانبين وليس خارجاً عن ترابطهما¹.

بناءً على ذلك، فإنَّ القيمة ليست شيئاً موضوعياً خالصاً ولا ذاتياً خالصاً، فالقيمة، كما يشير فاسيلي بيتروفيتش توغارينوف Vasily Petrovich Tugarinov هي التحام الجانبين الموضوعي و الذاتي على أرضية الخصائص الموضوعية للشيء الذي يتم تقييمه². فالقيم ليست شيئاً مُستقى من الطبيعة ولا كيفيات ما فوق طبيعية، إنها علاقة اجتماعية مُحددة. ودون وجود إنسان لن يكون هنالك وجود للقيم في الطبيعة، ستوجد فقط الخصائص الموضوعية وكيفيات الأشياء أو الظواهر التي تُقيمها الذات أو الإنسان كجيدة أو سيئة بناءً على خبرته الشخصية. يشير المؤلف السوفييتي بوبوق S.I.Popov إلى أن "الحاجات المادية ومصالح الناس ووعيتها تُشكّل جميعها القاعدة الطبيعية التاريخية، والتي تنشأ عليها حاجات ومصالح البشر الروحية، إضافةً علاقتهم القيمية مع الواقع"³. وهكذا توجد قيمة حيثما يوجد صلة ورابطة راسخة بين الذات التي لديها معرفة بالعالم وتقوم بتحويله من جهة وبين الشيء الذي هو موضوع لتأثير الذات في الاتجاه المرغوب و"المفيد للإنسان".

* ديان بافلوف، وُلِدَ عام 1927 فيلسوف ماركسي بلغاري وعضو في الحزب الشيوعي البلغاري، وعضو في أكاديمية العلوم البلغارية. كان مُتخصصاً في تاريخ الفلسفة البلغارية، وفي تاريخ الفلسفة البرجوازية وناقدها. كَتَبَ عديد من المؤلفات منها: (ثورة أكتوبر الاشتراكية وأزمة الفلسفة البرجوازية) 1968، (الفلسفة الماركسية والفلسفة الواقعية الجديدة) 1970، (بعض مظهرات التحريفية في يوغسلافيا) 1984.

¹ - V. Momov. "The moral norm and its realization." Sofia, 1969. "Nauka i Izkoustvo," p. 53

² - V. P. Tougarinov. The Problem o/Values in Marxist Philosophy. M. 1966, p. 12

³ - Leninism and the Philosophical Problems of Our Times." Edited by M. T. Yovehouka and V. V. Mshvenieradze, M. 1970, p. 54

يقدم التحليل الماركسي لمقولة "القيمة" ، في رأينا، القاعدة العلمية المنهجية من أجل بلورة إشكالية "القيمة" (يستخدم كارل ماركس في "رأس المال" ومؤلفاته الأخرى الكلمة الألمانية "Wert" كـمعنى لـ "value" وـ "worth").



فاسيلي بيتر وفيتش توغارينوف

ففي معرض نقده لكتاب أ. فاغر " A Manual on Political Economy، والذي يقول فيه إن نشاط البشر يبدأ بحقيقة "أنهم - أي البشر - كانوا في علاقة نظرية مع الأشياء في العالم المحيط بهم"، يشير كارل ماركس إلى أن البشر يبدأون بعلاقتهم مع الطبيعة "بالإنتاج"، وبهذا يمارسون تأثيراً فاعلاً على أشياء محددة حولهم في الحياة كي يلبّوا بذلك احتياجاتهم¹. يُوضح هذا، أن ماركس ينتقد النظرة الذاتية للقيم (Wert) والتي سادت سواء في الاقتصاد السياسي لذلك العصر وفي مناخه الفلسفي على حدٍ سواء.

رافضاً الاستنباط المثالي للقيم من الذات، كتب ماركس أن المفهوم العام للـ "قيمة Wert" ينبثق من علاقة البشر مع الأشياء في العالم الخارجي والتي تلبّي احتياجاتهم². وفقاً لماركس فإن صميم مفهوم "القيمة" Value مبني على عملية فصل وتحديد مفهوم الأشياء في العالم والإدراك العملي لاستخدام منفعة وضرر خصائص هذه الأشياء بالنسبة للبشر. لاحظ ماركس أنه وبسبب تكرار هذه العمليات، انطبعت قابلية هذه الأشياء على "تلبية احتياجات" البشر في عقولهم. إذ تعلم البشر أيضاً أن يميزوا نظرياً في الحياة بين الأشياء التي تلبّي احتياجاتهم من بين كل الأشياء الأخرى. بعدها "بدأ البشر في مرحلة محددة أعلى تزايدت فيها الاحتياجات والنشاطات لتلبيتها، بإعطاء تعيينات لمجموعات كاملة من هذه الأشياء والتي تمايزت بالتجربة عن بقية العالم الخارجي"³. كان هذا، من حيث المبدأ، هو الحل العبقري لهذه الأحجية العظيمة التي حيرت المفكرين قبل ماركس. في نظرنا فإن صوغ الماديتين الديالكتيكية والتاريخية واكتشاف الطابع الطبيعي-التاريخي للتطور الاجتماعي وانتظامه جعل من الممكن النفاذ بشكلٍ أعمق إلى طبيعة إشكالية القيم. سنؤدي كل المحاولات التي تتجاهل نقاط الانطلاق العلمية المنهجية هذه بشكلٍ محتوم إلى الذاتية subjectivism أو

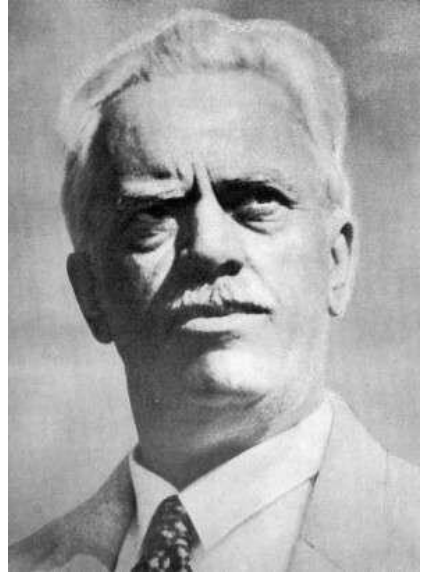
¹ - K. Marx and F. Engels. Works. Vol. 19, Moscow, 1961, p. 377

² - Ibid

³ - Ibid

الموضوعانية objectivism. أشار ماركس بشكل خاص إلى أنه عندما يتحدث المرء عن القيم فإن البشر يُعطون الأشياء أسماءها الموروثة لأنهم واعون مسبقاً لقابلية هذه الأشياء لخدمة حاجات الإنسان ويحاولون بطريقة فيها أكثر أو أقل من النشاطات المتكررة أن يسيطروا على هذه الأشياء وأن يبقوها في ملكيتهم¹.

انطلاقاً من روحية هذا الإطار المنهجي الأساسي لكارل ماركس يعارض الباحثون (الماديون الديالكتيكيون والتاريخيون) بشكلٍ حاسم نصب حاجز لا يمكن تجاوزه بين ما هون كائن sein وما يجب أن يكون sollen ، بين الموجود وبين المثال. Ideal. يشير الأكاديمي البلغاري تودور بافلوف Tudor Pavlov في كتابه "مشكلات أساسية في علم الجمال"، إلى أن قد نُثبت أن هذا المُقابلة بالذات بين ما هو كائن وبين ما هو غير كائن ولكن "يجب أن يكون" (بشكل عام بينه وبين كل "قيمة"، "مثال" أو "إلزام")، نقول، دائماً ما نُثبت أنه متجذر-فيما يتعلق بتوضيحه وتبريره- في ما هو "قد كان"². إن المقاربتين القِيمية والمُعيارية لا يمكن مُعارضتهما بشكلٍ ميثافيزيقي أو أن يتم اعتبارهما كطرفي نقيض³.



الماركسي البلغاري تودور بافلوف

تحمل الشكلانية أهمية عظيمة لعلم القِيم Axiology الحديث. يستبعد الشكلانيون من دراسة القيم الذات التاريخية الملموسة والخصائص الموضوعية للأشياء والطواهر، وتركز على اللغة في المداولات بين القيم. إن إختزال الإشكالية القيمية إلى مجرد إشكالية منطقية أو السنية هو أمر مُلازم للنظريات الشكلانية، من خلال وضعها لحواجز لا يُمكن تجاؤها بين روابط القيم والعلم والادراك. تفتقد المداولات القيمية، وفقاً لممثلي الشكلانية، المعنى العلمي، بما أنها لا تعطي أية معلومات معرفية فيما يخص الواقع الموضوعي. وبسبب طابعها الذاتي الخالص فإنها نسبية وتستبعد العلم.

1 - Ibid

2 - Todor Pavlov, Fundamental Problems of Esthetics. Sofia, Vol. I, pp. 11-12

3 - V. Momov. The Moral Norm and Its Realization. Sofia, 1969, p. 53

عارضت الشكلانية الوضعية الجديدة المداولات التلقينية بتلك الوصفية، و فقط تلك الوصفية قد اعتبرت علمية وتحمل معلومات إدراكية حول المواضيع والعمليات وتقدم إمكانية التحقق منها. تلك التلقينية كانت معنية بالشروط العاطفية للموضوع، وبهذا لا تجمعها بفضاء الاستمولوجيا والمنطق أية قواسم مشتركة¹. وبهذه الطريقة إختزل الشكلانيون الأنظمة التلقينية إما إلى مجال عاطفي خالص أو إلى محاولات التأثير على سلوك الفرد في الاتجاه المرغوب من خلال استخدام الحقل العاطفي.

نحن نعلم أننا نمتلك ادراكاً، حالما نُعطى تفسيراتٍ حول طبيعة الأشياء والظواهر أو العمليات وحول أسباب ظهورها. كما أننا نملك قيمةً وأحكاماً قيمية حالما نقارب الأشياء والظواهر من ناحية أهميتها وغايتها في الحياة الاجتماعية والخاصة. إن كلاً من الإدراك والحكم القيمي يستندان إلى الواقع الموضوعي، الأمر الذي تم الاعتراض عليه وتحديه بشكل صريح من قبل ممثلي علم القيمة الشكلاني. يعتبر المنطقي التجريبي هانز رايشنباخ Hans Reichenbach أن القيم لا تمتلك أية قواسم مشتركة مع الإدراك، ووفقاً له، لن تُنتج الإطيقا (علم الأخلاق)، في حال كانت شكلاً من أشكال الإدراك، ما يتوقعه منها فلاسفة الأخلاق: إنها لن تنتج إرشاداً أخلاقياً. أية معرفة يجب أن تمنحنا إياها الإطيقا؟ إن هي أعطتنا معرفةً تركيبية فسوف تعلمنا حول الحقائق. وهذا ما تقوم به الإطيقا الوصفية descriptive ethics، والتي تخبرنا عن العادات الأخلاقية للعديد من الأمم والطبقات الاجتماعية، ومثل هذه الأطيقا هي جزء من علم الاجتماع السوسولوجيا. وإن أعطتنا الأطيقا من جهة أخرى معرفةً تحليليةً، فإنها سوف تكون عقيمة ولن تعلمنا كيف نتصرف.



هانز رايشنباخ

بالإضافة لذلك يعطينا رايشنباخ المثال التالي: نعرّف الرجل النزيه كفرد يختار في تصرفاته مبدأً يمكن تحويله إلى مبدأ من مبادئ التشريع العام (يكرر هنا رايشنباخ في الواقع حتمية إيمانويل كانط القطعية). في

¹ - The Relationship Between Descriptive and Prescriptive Judgments,"N. Stefaaov. Science, Norm, Management. BCP, Sofia, 1969

هذه الحالة نحن نعرف ما نفهمه تحت مصطلح "رجل نزيه" ولكننا لن نكون في وضعية تسمح لنا أن نثبت أو نبرهن: لماذا يتوجب علينا أن نسعى للنزاهة. إن كانت المواقف الأخلاقية تحليلية (إدراكية) فإنها، وفقاً لرايشتنباخ، ليست إملاءات أخلاقية.

إن محاولات بناء علم الأخلاق بناءً على الإدراك، والتي مورست خلال الـ 2000 سنة الماضية تتبع، وفقاً لرايشتنباخ، من الاعتقاد الخاطئ بأن الإدراك معياري. إن كانت الفضيلة هي أدراكية (معرفية)، فإن الأعراف والقيم ستفقد الطابع الإملائي (الارشادي). إن الفلسفة العلمية، كما يُطلق رايشتنباخ على نسخته من الوضعية الجديدة (التجريبية المنطقية)، لم تضع مبادئ أخلاقية، ولكنها فقط وصفت الحقائق. "إن أولئك الذين يريدون أن يستنتجوا التعاليم الأخلاقية من أنساقهم الفلسفية قادرون على إعطاء أدلة كاذبة فقط. ليس هناك أي معنى للسعي نحو المتعذر". يقوم رايشتنباخ باطلاق التعميم التالي: "يُخبرنا العلم ماهية الشيء وليس ما يجب أن يكون". وهكذا يُعارض هذا المنظر ما هو ادراكي بشكلٍ مُطلق بما هو حكم قيمي. ولكن دون الرابط المشترك بينهما سيسير المرء إلى الطوباوية وإلى التكهن الاعتباطي أو إلى عقيدة علموية مناهضة للإنسانية وإلى تشويه العلم نفسه.

يُضفي علم القيم على الشروط المحددة لتطور العلم الموجودة في ظل الرأسمالية المعاصرة، والتي تسمح باستخدام العلم ضد مصالح البشرية، يُضفي عليها صفة الاطلاق. وهذا ما يعطي الانطباع الخاطئ بأن العلم مفصول عموماً عن القيم. فخلف القيم السامية للإنسانية الحقيقية لا يجد المرء العلم، بل تمظهرات اجتماعية محددة، معادية للإنسانية، والتي تمنع الإنجازات البارزة لأفضل عقول عصرنا من خدمة الإنسانية دون عوائق. توجد فجوة حقيقية بين العلوم الطبيعية، مثل الرياضيات والتكنولوجيا في العالم الرأسمالي والتي تقول الحقيقة حول الطبيعة من جهة، وبين عدد من النظريات في العلوم الاجتماعية والتي تشكل تشويهاً أيديولوجياً للحظات الأساسية والحاسمة في الحياة الاجتماعية.

إن الرتم السريع للتطور العلمي في خدمة الإنسان الحر والخلاق والمنسجم مع اتجاهات التقدم الاجتماعي، لهو خير حقيقي وقيمة حقيقية. يتحدث المرء عن "تراجيديا العلم" كلما تحول التقدم العلمي والتقني ضد الإنسان والبشرية وكما تورط في العسكرة وفي تحضير وشن الحروب العدوانية أو في سياسة تهدد العالم بحريق نووي هائل ذو نتائج كارثية.

إن الاستخدام البرجوازي للثورة العلمية والتقنية يتناقض مع القيم الإنسانية الأساسية للبشرية. إن نقد التعاليم الأكسيولوجية الرجعية والتي تُرافق هذا الاستخدام والتي تُعارض العلم بالقيمة بشكلٍ عام، سوف يتحول حتماً إلى نقدٍ للرأسمالية نفسها. يكتسب العلم أهمية قيمة كبرى في ظل الاشتراكية لأنه نسق متوافق مع الاتجاهات الموضوعية للتقدم الاجتماعي. هذه الاتجاهات التي أفصح عنها العلم والقيم العليا للإنسانية الحقيقية تضع الإنسان وإبداعه الحرة في قلب كل نشاط عملي وروحي. في مثل هذه الشروط يصبح العلم واحداً من أكثر القيم أهمية، في حين أن تحقيق القيم الإنسانية السامية ممكن فقط من خلال العلم واستخدامه العملي من قبل الشعوب العاملة تحت قيادة الأحزاب الماركسية-اللينينية.

طبعاً فإن الحكم القيمي لا يمكن مُطابقتها مع العلم بشكلٍ مُطلق. إن العلاقة القيميّة للإنسان مع الواقع ذات خصوصية مُعينة، ولكنها ليست علاقة من جانب واحد وليست في تضاد مطلق مع الإدراك. لا يمكن أن يُخنَزَل الحكم القيمي إلى مجرد وصف للشيء الكائن، ولكنه إفصاح عن أي تلك الخواص المتعلقة بالاشياء والظواهر الموضوعية هي مفيدة للإنسان، سواء تلك الجيدة منها وتلك السيئة. مع ذلك فإن الأحكام القيميّة

في ظل الاشتراكية مبنية على المعرفة العلمية، وبهذا المعنى يتوافق الحكم القيمي والمعرفة العلمية. وإن أردنا التحدث بشكل أكثر تحديداً، فإن الحكم القيمي يظهر كأحد جوانب الإدراك العلمي للواقع!¹.

تتعارض كل من المثاليين الذاتية والموضوعية في علم القيمة (إكسيولوجيا) axiology مع متطلبات التحليل العلمي الحقيقي للقيم سواء أقر المرء بإمكانية المعرفة العقلية للقيم بحد ذاتها أم لا.

إن الحل الصحيح للمشكلات المعاصرة لعلم القيمة (الإكسيولوجيا) قد يوجد، في رأينا، على أرضية منهجية المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية. إن كلاً من الفلسفة الماركسية اللينينية ونظرية القيمة تجعلان من الممكن التغلب على الصعوبات المتأنية سواءً من الذاتية القيمية ومن النظرات وحيدة الجانب أو من تضخيم الجوانب الذاتية أو الموضوعية للقيم. إن اهتماماً خاصاً يجب أن يعطى، حسب اعتقادنا، إلى تجربة المؤلف البلغاري ستيفان أنجيلوف Stefan Angelov الذي طرَحَ تعريفاً مركباً للقيمة مبنياً على المبادئ المنهجية المذكورة أعلاه، ألا وهو: "القيمة هي مقولة تدل على تلك الأشياء، الخواص والعلاقات الكامنة في الواقع الذي خلقه واكتشفه وصممه الإنسان، والتي تستخدم من أجل تعزيز التقدم البشري ومن أجل تطور الشخصية الإنسانية."²



الماركسي البلغاري ستيفان انجيلوف

ترجمة لمقالة

(1973) Pavlov, D. A tentative Marxist interpretation of the problem of values. J Value Inquiry 7, 148–152

¹ - Leninism and the Philosophical Problems of Our Times. Moscow, 1970, pp. 550- 551

² - St. Angelov. "Value and Truth." Filosa[ska Misul. 1969, p. 60

الحقيقة والقيمة



أوتار ميخايلي باكورادزه*

الحقيقة موجودة في شكل فرضيات صحيحة. لذلك فإن تحديد طبيعة الحقيقة يعني تحديد الظروف التي تكون الفرضية فيها صحيحة. تكون الفرضية صحيحةً ان كان مُحتواها لا يعتمد على العارف، وتُشكل انعكاساً للواقع الموضوعي. مثل هذه الفرضية تُنتج المعرفة. يجب أن نُطلق عليها فرضية ادراكية.

ومع ذلك، فإن علاقة الانسان بالواقع لها جانب آخر: التقييم. الإدراك يُقيم الحقائق، وبالتالي فإن علاقة الانسان بهذه الحقائق مخفية. هذا هو الشرط الأول لكل إدراك. يجب على الموضوع وحده أن يكون مُعطىً في الإدراك: لا شيء أكثر من ذلك. ومع ذلك، الذات هي التي تقوم بالتعبير عن الموضوع. أهم شيء هنا هو تحديد القيمة التي يُشكلها الموضوع للذات. الكيان، الموضوع المُقيّم، بالنسبة الى الذات، هو موضوع قِيم، أنه يحوي على قيمة. دعونا نضع فرضية صادرة عن ذات تضع قيمةً ما على موضوع ما. على سبيل المثال، "س هو شيء جيد أو خير". هذا يُعبّر عن موقف الذات تجاه الموضوع، وهو يُثبت، أن الذات توافق على س على وجه التحديد. تختلف فرضية "س هو جيد أو خير" اختلافاً كبيراً عن فرضية "ص صحيح". True تُعبّر الفرضية الأولى عن موافقة الذات على س، في حين أن الثانية لا تأخذ بعين الاعتبار موقف الذات تجاه الموضوع. هذا الموقف ليس من ضمن مُحتوى الفرضية ولا هو جزء منها!

* أوتار ميخايلي باكورادزه 1926-1986 تخرّج عام 1949 من كلية الفلسفة في جامعة تبليسي. صار في عام 1970 باحثاً ورئيساً لأحد أقسام معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم الجورجية. حصل باكورادزه على لقب دكتور في الفلسفة عام 1965. كان رئيساً لمعهد باتومي التربوي في الأعوام من 1970-1978، ومن 1978-1986 رئيساً لمعهد كوتايبي التربوي. مُنح باكورادزه عام 1982 لقب شخصية جورجيا العلمية عن أنشطته العلمية والتربوية. كان رئيس لقسم الفلسفة في معهد تبليسي فانو سار اجيشفيلي الموسيقي عام 1986.

احتل عمل باكورادزه المُبكر (حول تشكّل فلسفة كارل ماركس) عام 1953 مكاناً خاصاً بين أعماله. ومن أعماله (لينين كفيلسوف) عام 1969 الذي عالج المرحلة اللينينية في تطور الماركسية، و(الحرية والضرورة) 1964 والذي يُحلل فيه العلاقة بين الحرية والضرورة. كان باكورادزه مُدافعاً عن الماركسية اللينينية ضد التحريف الغربي، وكان على دراية عميقة بالفلسفة الأوروبية في القرن العشرين وتيارات الفلسفة الغربية بشكل عام.

1 - يجب أن يتم التمييز بدقة بين الفرضيات القِيمة وفرضيات نظرية القيمة (الاكسيولوجي). ان فرضيات نظرية القيمة بحد ذاتها ليست فرضيات قِيمة، ولكنها فرضيات علمية تكون الحقيقة فيها كامنة في الانعكاس الصحيح لموضوعها.

يجب أن لا يُفهم موقف الذات على أنه يعني أن القيمة تعتمد على الذات، أي أن القيمة ذاتية. ما قلناه بحد ذاته لا يعني أي فهم ذاتي أو موضوعي للقيمة. إنه فقط يُشير فقط الى حقيقة أن التقييم لا يشمل فقط ذات التقييم وموضوعه، ولكنه يُعبّر عن موقف الفرد المُقيّم من هذا الموضوع.

تشهد خصائص الحقيقة truth والقيمة على حقيقة أن الأولى ليست قيمة، وبالتالي فإن الفرضية الإدراكية المعرفية والفرضية القيمية لهما معنىً مختلف تماماً. لكن للوهلة الأولى، تعود الحقيقة والقيمة الى ظروفٍ مُتطابقة، حيث يفترض كلاهما وجود علاقة مُتبادلة بين الذات والموضوع ويفتقران الى الموجود الموضوعي، أي يفنقران الى وجودٍ خارج الذات.

الحقيقة لا يُمكن أن توجد خارج الذات وبدونها. بمجرد أن نُدرك أن الحقيقة هي مُحتوىٌ مُحدد لإدراكنا، سيكون واضحاً أن وجودها لا ينفصل عن وجود الذات. تتدرج الضرورة الأولى ضمن الثانية. ان تمدد جسم تحت تأثير التسخين هو حقيقة. سيتمدد الجسم عند التسخين حتى لو لم يكن هناك ذات على الإطلاق. ومع ذلك، هذا لن يكون حقيقة Truth. الحقيقة ليست حالة ملموسة، لكنها حالة ذهنية لا يُمكن أن توجد بدون ذات. الحقيقة هي كذلك فقط عندما تُطرح في ذهن الذات كشيء ذو مُحتوى مُعيّن.

من ناحيةٍ أخرى، لا يُمكن للقيمة أيضاً أن توجد بدون ذات. ما هو ذو قيمة يكون دائماً كذلك بالنسبة لشخصٍ ما. وعندما يُنظر إليها خارج علاقةٍ بذاتٍ ما، فإنها تُصبح جوهراً ممتافيزيقياً. أما إن كانت القيمة تعتمد على وعي الذات هي مسألة أخرى تتطلب اعتباراتٍ أخرى، لكن القيمة لا يُمكن أن تكون كذلك، إن لم تكن بدون ذات.

لذلك فإن تطابق الحقيقة والقيمة هو أمر ظاهري فقط. بينما الفرق بينهما مُهم ومُتأصل.

عندما نتحدث عن الحقيقة، فإن الموضوع الذي يعكسه الفكر موجود بشكلٍ موضوع ولا يتطلب أي علاقة بالذات. يحتفظ الموضوع بواقعيته بدون أي علاقة بالذات، بالمعنى الاستمولوجي، حتى الواقع الفكري موضوعي، أي أنه موجود بغض النظر عن أي موقف ادراكي للذات تجاهه. وفي الحالة المُعطاة، وكما بالنسبة للإدراك بشكلٍ عام، يختلف موضوع الإدراك عن إدراك الموضوع. هذا هو بالضبط ما يجعل العلم حول ما هو غير مادي، مُمكناً. يُمكن أن يكون موضوع الإدراك صفراً، عدماً، ولكنه يظل موضوعياً، ويظل موجود بشكلٍ مُستقل عن المعرفة به. وبالتالي، فإن وظيفة الفرضية المعرفية هي مُجرّد انعكاس لحالة موضوعية وواقعية للأمر. ليس هناك أهمية لمسألة ما إن كانت هذه الحالة تروق أو لا تروق للذات، بالنسبة لمُحتوى الفرضية الصحيحة.

ما يخص حُكم القيمة هو بالتحديد حقيقة أنه يعكس موقف الذات تجاه الموضوع. هذا الوضع ليس فقط شرطاً للتقييم، ولكنه عنصر أساسي لمُحتوى حُكم القيمة. يتم التعبير عن القيمة دائماً في التقييم. ليس لدينا أي شكل آخر للتعبير عنه. ان كانت الحقيقة قيمة، فإن التعبير عن الحقيقة سيكون تقييماً، ولكن هذا يتعارض مع مفهوم الحقيقة، لأن الحقيقة كما ذكرنا سابقاً، ليست سوى إنعكاس صحيح لحالة موضوعية، لمُحتوى فكر، مُستقل عن الذات. الذات لا تزيد ولا تُنقص شيئاً من الحقيقة: إنها "عبد" للموضوع.

الحقيقة بحد ذاتها ليست قيمة. القيمة الإدراكية للحقيقة والحقيقة نفسها هما شيان مُختلفان. الأمر ليس أن الحقيقة هي قيمة، لكنها تمتلك قيمة، وقيمة إدراكية على وجه التحديد. لكي يُمكننا أن نتحدث عن قيمة الحقيقة، فإنها يجب أن توجد كحقيقة. الفكر الصحيح ذو قيمة لأنه حقيقي. بدون هذا، لن يكون له أي قيمة. لكن قيمة الحقيقة هي مجرد شرط لإعتبار الفكر ذو قيمة. عندما نتحدث عن قيمة الحقيقة، فمن المُفترض أننا نُقيّمها. هنا

الحقيقة هي موضوع للتقييم، وفي هذا الصدد يجب النظر اليها بنفس طريقة النظر الى جميع عناصر التقييم الأخرى. بالطبع، الحقيقة من حيث قيمتها هي أعلى بكثير من بعض المواضيع الأخرى، ولكنها هي نفس المواضيع الأخرى من حيث هي موضوع للتقييم. باختصار، الحقيقة أو الفرضية الصحيحة هي حامل للقيمة، ولكنها ليست قيمة بحد ذاتها.

وبالتالي، فإن الفرضية الصحيحة هي وصف للحقائق facts ، وبالتالي تختلف جوهرياً عن فرضية القيمة.

يجب أن نتغلب على النزعة الاكسيولوجية Axiologism في الاستمولوجيا والنزعة الاستمولوجية epistemologism في الاكسيولوجيا. تتمثل النزعة الاكسيولوجية في الاستمولوجيا في اعتبار الحقيقة قيمة، وبالتالي تشويه الطبيعة الحقيقية للفرضية الادراكية. أما النزعة الاستمولوجية في الاكسيولوجيا فهي اختزال الفرضية القيمية الى وصف للحقائق، أي يتم تجاهل ما يميزها. ويُمثل هذه التطرفات: الكانطية الجديدة والمذهب الطبيعي على التوالي.

حُكم القيمة له وظيفة تختلف عن الفرضية الادراكية. العبارة "س هي شيء جيد" تُساوي العبارة "أنا أستحسن س أو اوافق عليها" "أنا" هنا تعني الذات بشكلٍ عام، وليس فرد ما.

ما الذي توافق عليه الذات أو لا توافق؟ انه ما تتعلق مصالحها به. لا معنى للقول عما اذا كان مُحيط الدائرة يُساوي مضروب ضعف القطر بالثابت باي هو خير أم شر، أو أن الجزء أقل من الكل.

عندما يقول المرء عن شيء انه سيء أو جيد، خير أو شر، فإنه لا يؤكد حقيقةً، بل يُعبر عن رغبته في وجود هذه الظاهرة ان كانت غير موجودة، أو أن تستمر في المستقبل ان كانت موجودةً أصلاً. حتى عندما يعتبر المرء ظاهرةً من الماضي على أنها خير، فإنه يرغب في أن تتكرر هذه الظاهرة، أو إن أراد أن تكون هذه الظاهرة موجودة في الوقت الحاضر، فإنه يرغب أن توجد في المستقبل أيضاً. إن الحقيقة "Fact المحايدة" التي لا تمس مصالح المرء هي ليس بالخير ولا الشر.

ان الشيء المُوافق عليه هو شيء مرغوب. لا تعني كلمة "مرغوبٌ فيه" أن الظاهرة أو الشيء المعني موجودٌ كحقيقة تُلبي رغبات الإنسان، بل المرغوب فيه يُشير الى المستقبل. بمعنى آخر، إنه يُصبح هدفاً. إن حُكم القيمة غائي بطبيعته، إنه يُشير الى ظرف يُحدده الهدف.

يتطلب الهدف تحقيقاً، إن كان حقيقياً. إنه يواجه الإنسان كشيء يجب أن يكون. القيمة ليست ما هو موجود، ولكن ما يجب أن يكون. حتى لو لم يكن "واجب الوجود" مُعطى في حُكم القيمة، إلا أنه يندرج فيه. وواجب الوجود تطرحه الذات على نفسها وعلى غيرها. لا تنطبق العبارة "يجب عليك..." على الحقائق المُعتبرة خارج موقف الشخص منها. الفرضية العلمية الادراكية هي فرضية فيما يتعلق بحقيقة fact ، بينما يكون واجب الوجود بالنسبة الى الافتراض القيمي ذو أهمية كبيرة.

هناك أيضاً افتراضات في شكل عبارات حتمية ولكنها في الواقع افتراضات وقائعية. على سبيل المثال، "الانسان يجب أن يموت". هذا شكلياً يُشبه حُكم القيمة، ولكنه في مضمونه الحقيقي افتراض وقائعي. يُصبح هذا واضحاً إن استبدلنا الافتراض "الانسان يجب أن يموت" بالطرح المُكافئ "كل الناس يموتون". ومع ذلك، لا يُمكن بنفس الطريقة استبدال الافتراض "يجب على الانسان أن يقول الحقيقة" بافتراض "كل الناس يقولون الحقيقة" لأن هذا الأخير خاطئ. بعبارةٍ أخرى، ليس حُكم القيمة حُكم وقائعي مُعدّل، ولكنه يختلف عن الأول في المعنى.

كان كانط أول من كشف عن الاختلاف المهم بين الافتراض الادراكي وافتراض القيمة. لقد فهم أن حكم القيمة، ولا سيما الحكم الأخلاقي، يخدم كشيء قطعي Imperative ويتسم بضرورة أخلاقية. ولكن عند كانط الضرورة الأخلاقية مُنفصلة تماماً عن الواقع. الحقيقة Fact والضرورة الأخلاقية مُتعارضان الى حد كبير في فلسفته لدرجة أن الأمر القطعي categorical imperative لا يخدم فقط كمبدأ شكلي بل كشيء غريب عن العالم التجريبي.

تختزل النظريات الطبيعية التي تُنكر الحتمية المطلقة، حكم القيمة الى مُجرد وصف، أي أنها تؤكد أن وظيفة حكم القيمة هي وصف الحالة الذهنية للذات. في مثل هذه الحالة، نحن نتعامل إما مع حكم نفسي أو مع افتراضات في تخصصات أخرى هدفها دراسة الوقائع.

من الواضح أن المذهب الطبيعي يقضي على مسألة القيمة كمسألة مُستقلة. تترك الطبيعة عامل حاسم من عوامل افتراض القيمة، كالضرورة الأخلاقية، بدون أي تفسير. دعونا نُفكر في مسألة الحكم الأخلاقي، على سبيل المثال. لا يُمكن قصر وظيفته على أنه يقوم فقط باعلامنا عن الحالة الفعلية للأمر وتجاهل حقيقة أن مثل هذا الحكم يتطلب شيئاً ما من المرء. إن وصف حقيقة أن لدى الذات لديها رأي أو مشاعر معينة فيما يتعلق بموضوع مُعين لا يتطلب بحد ذاته أي شيء من المُستمع، في حين أن الأخير قد يؤكد صحة Truth هذا الافتراض حتى لو لم يعترف بقيمة هذا الموضوع بالنسبة له.

ان الفرضية القِيَمِيَّة لا تنحل الى فرضية ادراكية (علمية طبيعية)، لان مصلحة الانسان لا تعتمد فقط على العلم وحده. ولو كان الأمر كذلك لكان يُمكن حل جميع المسائل حول القيمة المُتنازع عليها بسهولة، مثل مسألة سلوك الانسان، والذي سيتم حله بالعلم الطبيعي وحده، وسيكون حينها المنطق قادراً من حيث المبدأ على التوفيق بين المبادئ الأخلاقية المُتناحرة. ولكن ليس هذا هو الحال. ان وجود مبادئ أخلاقية مُتناحرة ليس نتيجة قصور في الادراك أو ضعف في منهجية العلم. ان المواقف المُختلفة للبشر تجاه موضوع ما، لا تعتمد فقط على الاختلافات في معارفهم، ولكن أيضاً على طبيعتهم. وهنا نقول أن طبيعة الانسان اجتماعية في المقام الأول، وتحدد منظومة مصالحهم بالظروف الاجتماعية التي يعيشونها.

يُمكن للمرء أن يستنتج أن الفرضية القِيَمِيَّة تختلف في جوهرها عن الفرضية الادراكية-المعرفية الذي يتم من خلالها التعبير عن المُحتوى الحقيقي لإدراكنا. ان اختزال الفرضية الادراكية الى فرضية قِيَمِيَّة، أو عكس ذلك، اعتبار الفرضية القِيَمِيَّة هي وصف للحقائق هو نتيجة لفهم خاطئ لطبيعتهما.

ولكن، لا يُمكن للمرء أن يُصرّح فقط أن الفرضية الادراكية تختلف عن الفرضية القِيَمِيَّة، وأنه لا يوجد رابط عضوي بينهما. على العكس من ذلك، فإن الفرضية الادراكية ليست فقط شرطاً ضرورياً لفرضية القيمة وحسب، ولكنها أيضاً جزء من معناها. تفترض الفرضية القِيَمِيَّة دائماً المعلومات حول الحالة الفعلية للأشياء، وهذا دليل على أنه سيكون من الخطأ الفادح اعتبار الأحكام القِيَمِيَّة والفرضيات الادراكية على أنها أضداد مُطلقة. بعبارة أخرى، فإن حكم القيمة له أيضاً جانب وصفي، على الرغم أن ما يُميزه بالذات، ليس مُتضمناً في هذا الجانب.

يوضح تحليل العلاقة المُتبادلة بين الفرضية القِيَمِيَّة والفرضية الادراكية المعرفية أن تقييم الانسان للواقع متميز ويختلف عن الادراك، وبالتالي فهو موضوع خاص تدرسه الفلسفة.

تم نشر هذا المقال في سياق نقاش جماعي.

ترجمة لمقالة:

O. M. Bakuradze (1967) Truth and Value, Soviet Studies in Philosophy, 5:4, 25-28

الفلسفة التحليلية المعاصرة



فلاديسلاف الكساندروفيتش ليكتورسكي*

الحقيقة الأساسية التي تلفت الأنظار عند دراسة الوضع الحالي للفلسفة التحليلية هي أن جميع المتحدثين باسمها تقريباً يشتركون في الاعتقاد بأن الوضعية المنطقية، التي كانت ذات يوم الأكثر تأثيراً في التيارات التحليلية، أخذت في الانحلال. تُعتبر فلسفة التحليل الحالية نوعاً من "ما بعد الوضعية". قد يبدو هذا التوصيف في تناقض صريح مع الوصف السائد للفلسفة التحليلية ككل باسم "الوضعية الجديدة". في هذا الصدد، يجب ملاحظة أن هناك أساساً جدياً لتعريف الفلسفة التحليلية بأنها الوضعية الجديدة. في الواقع، هناك سمة حاضرة بوضوح في جميع التيارات والمدارس الفلسفية التحليلية.

* فلاديسلاف الكساندروفيتش ليكتورسكي وُلِدَ عام 1932. فيلسوف ماركسي سوفياتي خبير في مجال نظرية المعرفة وعلم النفس وفلسفة العلوم. تخرّج من كلية الفلسفة في جامعة موسكو الحكومية عام 1955 وتابع الدراسات العليا في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية وتخرّج عام 1959. صار موظف في معهد الفلسفة منذ عام 1957، ورئيس لقسم نظرية المعرفة في الأكاديمية عام 1969. صار مُرشحاً للعلوم الفلسفية بأطروحته (الموقف الإدراكي) عام 1964، ودكتوراً في الفلسفة لعام 1978 بأطروحة (الذات، الموضوع، الإدراك) وبروفيسوراً عام 1979.

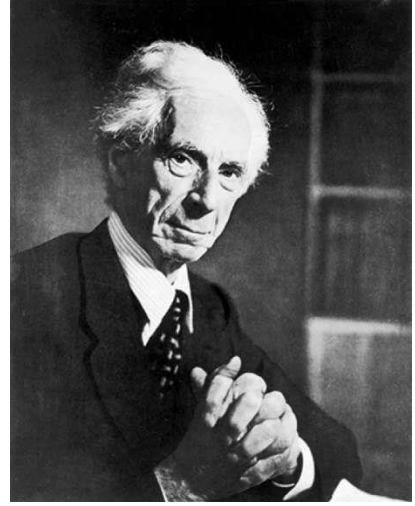
من أعماله الأساسية: (مشكلة الذات والموضوع في الفلسفتين الكلاسيكية والحديثة) 1965. (الديالكتيك المادي) 1979. (الذات، الموضوع، الإدراك) 1980

ومن مقالاته: (حول مبادئ البحث المنطومي) 1960، (وحدة النظري والامبريقي في المعرفة العلمية)، (الديالكتيك ونظرية المعرفة وقوانين التفكير) 1964، (نشوء وبُنية البنى الفكرية في مفاهيم جان بياجيه-الاتجاهات الأساسية في بحث سيكولوجيا التفكير في الدول الرأسمالية) 1966، (الفلسفة والمنهجية العلمية- مسائل في الفلسفة) 1967.

ترجمت معظم أعماله الرئيسية و60 مقالة له حررها وكتبها بالمشاركة ونُشرت في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الديمقراطية والغربية وفرنسا وفنلندا وكوريا الديمقراطية والجنوبية والصين وتركيا وبولندا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا وغيرها.

حصل ليكتورسكي على جائزة وسام الشرف عام 1979 ووسام العمل الشجاع عام 1971.

ان المعيار الذي يُعطي للباحث تبريراً لتصنيفها في اتجاه فلسفي واحد على الرغم من الاختلافات الجوهرية فيما بينها، هو قبولها لمفهوم امكانية حل المسائل الفلسفية بمساعدة التحليل اللغوي (بغض النظر ان كانت اللغة طبيعية أم اصطناعية)، وفيما يتعلق بهذا، توجهها نحو "العداء للميتافيزيق" المُعبّر عنه بهذه الحدة أو تلك. علاوة على ذلك، يجب أن لا يغيب عن الأذهان أن فلسفة التحليل وُلدت واكتسبت أكبر تأثير لها في البلدان التي كانت تقاليد التجريبية سائدةً فيها منذ فترةٍ طويلة (الولايات المتحدة وبريطانيا)، وأن موضوع الفلسفة التحليلية كان، في كثيرٍ من الأحيان، يتم صياغته بالارتباط مع هذه التقاليد (طبيعة "البيانات الحسية"، تحليل فكرة "التجربة" الخ). هذه السمات تجعل الفلسفة التحليلية أقرب ما تكون الى الوضعية، والتي لطالما تميّزت بالجهود المبذولة لوضع العلم الايجابي كمعرفة تستند الى الأدلة التجريبية، في مقابل "الميتافيزيقيا" الفلسفية غير المثمرة¹.



برتراند راسل

أخيراً، لا يُمكن للمرء أن يتجاهل الحقيقة التي لا جدال فيها حول التأثير المباشر لأفكار راسل وفيتغنشتاين الفلسفية-وهي منبع الفلسفة التحليلية المُعترف به- على تشكيل أساسيات عقيدة التجريبية المنطقية، وهو تيار استفاد من تقنية التحليل للتحقق من صحة المفاهيم الوضعية. كانت الوضعية المنطقية، في العشرينيات والثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، هي الأكثر تأثيراً من بين جميع مدارس الفلسفة التحليلية، وهي المدرسة التي كان يتم في العادة مُطابقتها بالفلسفة التحليلية ككل. ومع ذلك، فإن هذه المُطابقة ليست دقيقة تماماً. ان السمات المُميزة للوضع الحالي للفلسفة التحليلية تجعل من المُمكن فهم هذه الحقيقة بوضوح خاص. الحقيقة، هي أن الفلسفة التحليلية، مع التأكيد المُميز لها أن تحليل المعاني اللغوية (والبحث عن معنى "المعنى" نفسه) هي المسألة المركزية في الفلسفة، قد تمظهرت أيضاً في أشكال لم تكن مُرتبطة فقط بالوضعية بالمعنى المُحدد للكلمة، بل ذهبت خارج حدود التجريبية. ينطبق هذا، على سبيل المثال، على الأعمال الفلسفية لراسل، الذي لم يكن أبداً تجريبياً مُتسقاً والذي جمَع بين أسلوب التحليل المنطقي والآراء الأفلاطونية حول وجود الكُلّيات، في الوقت الذي صاغ فيه تنويعته الخاصة من الفلسفة التحليلية. بالمعنى الدقيق للكلمة، المذهب التحليلي، لما

1 - تم فهم ما كان يجب أن ينزل الى فئة "الميتافيزيقيا" بشكل مُختلف في كل مرحلة من مراحل تطور الوضعية. ولكن الرأي القائل بأن كل الفلسفة التقليدية مريضة بمرض "الميتافيزيقيا" هو الرأي الشائع طوال الوقت. تم استثناء بعض المُتمثلين الفرديين للفلسفة التجريبية مثل بيركلي وهيوم، الذين صاغوا، في رأي الوضعيين، أفكاراً تجاوزت حدود "الميتافيزيقيا".

يُسمى "الذرية المنطقية"، التي تؤكد أن المعاني الأولية لبعض الافتراضات الذرية (المشتقة من خلال اجراء التحليل حتى نهايته) والتي تتوافق مع "الحقائق الذرية" الموجودة وجوداً حقيقياً، وهو مذهب تطوّر على يد راسل وفينغنشتاين في العقد الأول من القرن العشرين، ليس شكلاً من أشكال الوضعية. لقد كانت مُطابقتاً معنى الافتراض، بإمكانية اختبار حسيّاً (نظرية التحقق من المعنى)، هي التي أتاحت الفرصة للدعاء بصحة الوضعية التجريبية عن طريق تحليل المعاني.

يبدو أن مبدأ التحقق يوفر امكانية مُعارضة افتراضات العلم التجريبي من جهة، بما يبدو أنها عبارات "ميتافيزيقية" فلسفية غير ذات معنى، من جهةٍ أُخرى. وهكذا تمت مُطابقتة الوضعية بالفلسفة التحليلية.

وفقاً للوضعية المنطقية، يُمكن للفلسفة أن توجد، من الآن فصاعداً، ليس كنظرية حول هذا الشيء أو ذاك (الواقع أو المعرفة)، ولكن فقط كنوع خاص من نشاط التحليل اللغوي، من أجل الوصول الى هدفين: 1- تنقية العلم من جميع الأحكام والمسائل الزائفة التي لا معنى لها والتي تنشأ نتيجة الاستخدام غير السليم للغة وانتهاك قواعدها المنطقية، و2- ضمان بناء نماذج منطقية ذهنية للتفكير. ان أفضل تكنيك لاجراء التحليل الفلسفي هو استخدام جهاز المنطق الرياضي الذي تم تطويره في القرن العشرين.

يُمكن القول انه في مفهوم الوضعية المنطقية تم طرح مهمة الفصل الكامل بين الافتراضات "الميتافيزيقية" عن التصريحات العلمية في الشكل الأكثر حدةً وصراحةً في تاريخ الفلسفة، في العشرينيات والثلاثينيات. في الوقت نفسه، من وجهة نظر شرائع الوضعية المنطقية، فان حالة تلك المُقدمات الأساسية التي انطلق منها عمل التحليل في اطار هذا المذهب الفلسفي ليست واضحة. ان كان سيتم تصنيف التأكيدات التحليلية (التوتولوجية)¹ tautological أو التركيبية (الحقائقية) Factual على أنها ذات معنى، فما الذي يُمكن للمرء أن يفعله حيال اطروحة التحقق ذاتها، والتي من الواضح أنها لا تنتمي الى أي من نوعي التأكيدات أعلاه؟ هل يجب اعتبارها "ميتافيزيقية" بلا معنى؟ لكن هذه الفكرة بالتحديد هي التي أصبحت أساسية في العمل على ازالة جميع العبارات "الميتافيزيقية"، وان كانت "ميتافيزيقية" فلن يكون هناك أساس للدعاء بأن "الميتافيزيقيا" قد انهارت وتلاشت.

في الأساس، يحصل نفس الموقف فيما يتعلق بالمبادئ النظرية الأساسية الأخرى للوضعية الجديدة (مثل فكرة امكانية اختزال محتوى العبارات النظرية الصحيحة الى تأكيد "المُعطيات" التجريبية، والتأكيد على الافتقار الى محتوى (اي الافتقار لقابلية التحليل) افتراضات المنطق والرياضيات، وقبول فكرة أن جميع العبارات ذات المعنى يُمكن تقسيمها بوضوح الى تحليلية وتركيبية، وما الى ذلك). علاوةً على ذلك، أصبح من الواضح أن كل محاولة للتطبيق المُتنسق لمبادئ الوضعية الجديدة في سياق النشاط التحليلي تقود حتماً الى نتيجة مفادها أن فئة العبارات "الميتافيزيقية" (أي تلك المُعرضة للالغاء) لا تشمل فقط العبارات التي لا معنى لها، ولكن أيضاً تلك التي يُسبب الغاءها انهيار البُنى النظرية في مُعظم مجالات المعرفة الخاصة.

كشفت مذهب الوضعية المنطقية لتحليل المعرفة العلمية بشكلٍ مُتزايد تناقضه مع التجربة العلمية الحقيقية، والتي اعتُبر تفسيرها الفلسفي السبب الأساسي لوجودها. ونتيجةً لذلك، أصبح هذا المفهوم، الذي يدعي الصرامة والدقة وامكانية اثبات العبارات وتحويل الفلسفة الى شكل من أشكال النشاط المتخصص، والذي صار مُعترفاً به عالمياً بين الفلاسفة التحليليين، صار في حد ذاته، مُجرّد تنويع من تنويعات "الميتافيزيقيا"،

*1- العبارات التوتولوجية في مجال المنطق هي تلك التي تُقِيم بالصواب دائماً. أي أن نتائجها صحيحة مهما كانت قيمة المتغيرات التي تحويها. على سبيل المثال: "اما أنها ستمطر أو أنها لن تُمطر". "اما أن فلان سيمرض أو أنه لن يمرض". الخ

المتهاقنة أمام النقد الجادا¹. تنبثق الاتجاهات الجديدة التي جاءت لتحل محل الوضعية المنطقية داخل اطار الفلسفة التحليلية، من نفس هذا الوضع الناشيء.

ان أكثر هذه الاتجاهات تأثيراً هي ما يُسمى بفلسفة التحليل اللغوي التي سادت في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في الفلسفة الانجليزية (يُمكن أيضاً ايجاد مُمثلة هذه المدرسة في الولايات المتحدة). يُمكن اعتبار لودفيغ فيتغنشتاين بحق، في فترته الثانية (الثلاثينيات والأربعينيات)، مؤسسها الحقيقي².

ممثلوها الرئيسيون هم الانجليزيون غيلبرت رايل Gilbert Ryle وجون لانغشو اوستن John Langshaw Austin. دعونا نتوقف قليلاً لنضع توصيفاً أكثر تفصيلاً الى حد ما لهذا الاتجاه، ونركّز على عرض اتجاهاتٍ مُعينة في تطور الفلسفة التحليلية المُعاصرة.



غيلبرت رايل

يُعارض التحليل اللغوي نفسه بوعي مع الوضعية المنطقية. تم التعبير عن هذا في رفض المُحللين اللغويين لنظرية التحقق من المعنى (مما يجعل من الممكن بالنسبة لهم تجنّب استنتاجات التجريبية الذاتية السخيفة جداً)، وبرفضهم قبول الفكرة القائلة بأن التفكير العلمي هو النموذج الكامل لجميع التفكير الهادف ذو المعنى، وفي رفضهم الاعتراف بالتعريف الوضعي للعبارات الاخبارية ذات المعنى (والذي (اي التعريف)، يُشير، في اطار مذهب التجريبية المنطقية، الى أن العبارات الأخلاقية والجمالية وغيرها من العبارات التقييمية بالاضافة الى العبارات على شكل الأوامر والطلبات والنصائح وما شابه- هي غير ذات معنى من الناحية المنطقية)، وفي رفض الاختزال المنطقي الوضعي، اي فكرة أنه من المُمكن اختزال معنى العبارات من نوع

¹ - For a detailed investigation of the philosophical foundations of logical positivism and the neopositivist program for analysis of science, see I. S. Narskii, *Sovremennyi pozitivizm*, Moscow, 1961, and V. S. Shvyrev, *Neopozitivizm i problemy empiricheskogo obosnovaniia nauki*, Moscow, 1966

² - كان للفيلسوف الانجليزي الكبير جورج مور تأثير كبير في تشكيل أفكار التحليل اللغوي. ومع ذلك، كان فيتغنشتاين هو الذي قدم الصياغة الشاملة للافتراضات الرئيسية لهذا الاتجاه بالاضافة الى تذكير التحليل.

ما الى عباراتٍ من نوعٍ آخر (على سبيل المثال العبارات النظرية الى عباراتٍ تجريبية، وعباراتٍ حول الأشياء المادية الى عباراتٍ حول الأحاسيس).



جون لانغشو اوستن

على النقيض من الوضعية المنطقية، يتم التأكيد على أن اللغة المُستخدمة بالفعل تحتوي على عددٍ من التقسيمات الفرعية والمناطق المُختلفة" ألعاب لغوية منفصلة على حد تعبير فينغنشتاين، و"الأنماط المنطقية و"مقولات" اللغة حسب رايل، و"الشرائح" اللغوية تبعاً لفريدريك ويزمان Friedrich Waismann ، وما الى ذلك.



فريدريك ويزمان

يختلف منطق الأداء الشكلي للكلمات المُطابقة في كُلِّ من هذه التقسيمات والسياقات اللغوية اختلافاً جوهرياً. لذلك، فان الكلمات والتعبيرات التي تبدو متطابقة خارجياً في جوهرها تمتلك معانٍ غير متطابقة ويتم استخدامها على أسسٍ مُختلفة وفقاً للسياقات التي يتم استخدامها فيها. علاوةً على ذلك، يشمل السياق أيضاً

هدف المُتحدث وعلاقة التصريح بالوضع الحقيقي الذي يُلفظ فيه، اي الوضع الذي تُفهم من خلاله "العبة اللغة"، ليس كعلاقة ثابتة بين كلمات مُعينة بأخرى، ولكن لأنها تُشكل جزءاً من نشاط انساني حقيقي. تُعتبر اللغة مؤسسة اجتماعية وشكل من "أشكال الحياة". المعنى ليس جوهرًا حقيقيًا مُتميزاً، كما يعتقد المُحللون اللغويين، وليس شيئاً مُجرّداً مُعطىً بلغة دلالات شكلية، بل وسيلة أو أخرى لاستخدام الكلمات في تطبيق مُعيّن.

من المهم أيضاً التأكيد على ما يلي. لا يقتصر الأمر الأساسي للتحليل اللغوي على مجرد الإشارة الى وجود شرائح واستخدامات مختلفة للغة اليومية، ولكن أيضاً الاعتراف بحقيقة أن عدد هذه الاستخدامات لا حدود له بشكلٍ أساسي (لذلك ليس من المنطقي طرح مهمة اكتشافها جميعاً، أو لنقل مهمة تجميع قائمة كاملة من "التصنيفات" اللغوية)، والأهم من ذلك، على الرغم من وجود نوع مُعيّن من الرابط بين شرائح مختلفة من اللغة (العاب اللغة)، فان هذا الرابط، في مُعظم الحالات، يستبعد امكانية الكشف عن أي نوع من الخصائص المشتركة للاستخدامات المختلفة للكلمات المتطابقة. وهذا يعني، أنه على الأقل بالنسبة لمعظم الكلمات، لا يُمكن للغة اليومية المُستخدمة فعلياً أن تُقدّم تعريفات عالمية شاملة على الاطلاق!

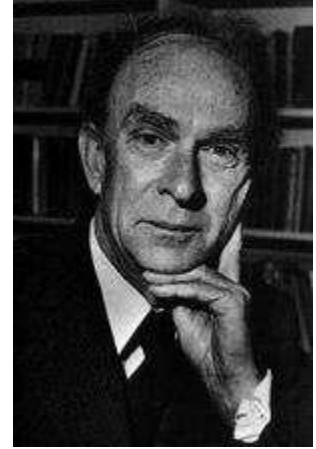
لا يتعلق ما سبق بالتقنية المصطنعة التي يُمكن استخدامها في العلوم الفردية لأغراض خاصة (على الرغم من أنه لا يُمكن لأي علم فردي الاستغناء عن اللغة الطبيعية)، بل يتعلق فقط باللغة المنطوقة المُستخدمة عادةً.

يرى المُحللون اللغويون أن المشكلات الفلسفية تنشأ بالضبط كنتيجة للفشل في فهم منطق اللغة الطبيعية. لذلك، لا يُمكن حلها الا من خلال التحليل الدقيق لهذه اللغة، من خلال الكشف الدقيق والوصف الدقيق للسياقات المتنوعة لاستخدامات اللغة. ان الاعتقاد بأن هذه المشكلات يُمكن حلها من خلال اكتشاف بعض الخصائص المُشتركة للكلمات التي تقض مضجع الفلاسفة مثلما سعت "الميتافيزيقيا" التقليدية الى القيام به في محاولتها لبناء نظرية منهجية للمقولات الفلسفية، أو من خلال بناء أنظمة لغوية تركيبية تُعطي الكلمات فيها معنى تعسفاً بعيداً جداً عن المعنى الحقيقي الذي يُمليه استخدامها مثلما سعى الوضعيون المنطقيون الذين قاموا ببناء نماذج لغة اصطناعية، ان كل هذا يعني اتباع مسار ميؤوس منه بوضوح. بطبيعة الحال، فان بناء النماذج اللغوية بمساعدة جهاز المنطق الشكلي هو أمر مفيد وضروري لحل عدد من المهام العلمية والتقنية الخاصة. ومع ذلك، يجب أن نعرف، كما يؤكد ممثلو هذا الاتجاه الفلسفي، أن هذا الجهاز، على الرغم من أهميته، لا يتناسب مع أغراض حل المشكلات الفلسفية، لأن مثل هذه المشكلات موجودة بالضبط نتيجة الفشل في فهم تنوع السياقات اللغوية واستحالة اختزالها الى بعضها البعض، لأنه لا يُمكن أن تُعطي المصطلحات في النظم اللغوية الاصطناعية معانٍ صارمة وواضحة وفقاً لفكرة انشاء مثل هذه الأنظمة. علاوةً على ذلك، فان المعنى الذي يُعطيه المنطق الشكلي للتوابت المنطقية ("كل"، "بعض"، "و"، "أو"، "لو-إذا") بعيد جداً عن تنوع معانيها في اللغة الحقيقية. لذلك فان أفضل تطبيق لمُختلف مهام التحليل الفلسفي يتم عن طريق التحليل غير الشكلي للغة اليومية غير الرسمية.

وكما كتب بيتر سترافسون Peter Frederick Strawson أحد أبرز مُمثلي هذه المدرسة الفلسفية، فان برنامج بناء النظم اللغوية الاصطناعية "مُكرّس لظواهر العلاقات شبه الحاسمة الموجودة بين المفاهيم المبنية.

1 - وفقاً لفيتغنشتاين يُمكن أن يكون لمختلف "الألعاب اللغوية" أوجه تشابه "عائلية". هذا يعني انه اذا رتّب المرء "العاباً لغوية" في سلسلة حسب درجة التشابه المتبادل، فسيكون لكل لعبتين مُقابلتين شيء مُشترك. ولكن، قد لا يكون هناك اي تشابه على الاطلاق بين أفراد هذه "العائلة". ان الرابط الذي يوحّد "الألعاب اللغوية" المتنوعة في "عائلة" واحدة يخدم كأساس لاستخدام نفس الكلمة فيها (في الألعاب). ان عدم وجود أي شيء مُشترك بين الأعضاء على طرفي نقيض هذه "العائلة" يجعل من المستحيل تقديم تعريف عام لجميع حالات استخدام كلمة مُعيّنة.

من المُفترض أن هذه العلاقات توجد بالفعل في النظام الذي تم بناؤه، لأن هذه هي الطريقة التي تم بناؤها بها. ولكن حتى هذا النجاح المحدود مُكلف للغاية: تكلفة الانفصال التام عن الحقائق المفاهيمية للخطاب العادي". كما يقول، أُن يكون من الأفضل استبدال مسار التحليل هذا بآخر لفهم "تفسير المفاهيم التي تُحير الفلاسفة من خلال الملاحظة الدقيقة للوسائل التي يتم من خلالها استخدام التعبيرات اللغوية المترابطة حقاً في التفكير. وبطبيعة الحال، لن تكون جميع خصائص استخدامها مُهمّة للأغراض الفلسفية. ان قدرة الفيلسوف الفنية تكمن في اكتشاف ما هو مهم لحل مشاكله بالضبط، وبواسطة أي وسيلة"¹



بيتر سترأوسون

لقد وصلنا الى نقطة توضيح كيفية فهم المحللين اللغويين لمهام وخصائص البحث الفلسفي. وهنا يجب ملاحظة أنه على الرغم من كل الكراهية التي عبّر عنها التحليل اللغوي للوضعية المنطقية، فإن هناك نوعين من الارتباط بين هذين الاتجاهين في الفلسفة التحليلية. يتم التعبير عنها، في المقام الأول، من حقيقة أن منطق التعارض نفسه يضطر المُحللين اللغويين الى مناقشة تلك المشكلات الفلسفية وحلولها، والتي كانت ذات أهمية للوضعية المنطقية، باسهاب (مثل مبدأ التحقق ونظرية التحقق من المعنى، وثنائية الأحكام التحليلية والتركيبية، مسألة الاختزال، وما الى ذلك). ثانياً، وهذا هو الأهم، يرث التحليل اللغوي بعض المبادئ الأساسية في فهم طبيعة النشاط الفلسفي، من الوضعية المنطقية.

النقطة المهمة، أن النتيجة، والحصيلة الكاملة لنقد المُحللين للوضعية المنطقية، هي اتهام المبادئ الأولية لهذه الأخيرة بأنها "ميتافيزيقية". ان وصف الوضعية المنطقية على أنها تنويع من "الميتافيزيقيا" له ما يُبرره بمعنى أن ادعاء الوضعيين المنطقيين بتحويل الفلسفة التي يُمارسونها الى نوع من النشاط المُتخصص والمُنْتَبِت بصرامة والذي لا علاقة له بـ"الميتافيزيقيا" الفلسفية التقليدية، هو ببساطة ادعاء لا يصمد أما النقد. ومع ذلك، اذا تم اعتبار أن "الميتافيزيقيا" تُفهم في هذه الحالة التي أمامنا على أنها تعني النطاق الكامل للمشاكل الفلسفية التقليدية، فإنه لا يُمكن اعتبار هذا المُصطلح بحد ذاته بمثابة لائحة اتهام. ان جوهر الأمر، كما يبدو، ليس في الطابع "الميتافيزيقي" للوضعية المنطقية، ولكن في حقيقة أنه تُبِت أنها "ميتافيزيقيا" سيئة للغاية ولا تتوافق مع الممارسة العلمية والاجتماعية المُعاصرة. يفهم المُحللون اللغويين اتهام الوضعية بأنها "ميتافيزيقية"، على أنه محاولة منهم لتنفيذ برنامج "مُضاد للميتافيزيقية" أكثر راديكالية. على أي حال، هذه

¹ - P. W. Strawson, "Construction and Analysis," in The Revolution in Philosophy, London, 1957, p. 104

هي الطريقة التي صاغ بها هؤلاء الفلاسفة الذين وقفوا مع مصادر هذا الاتجاه، ولا سيما فيتنغشتاين نفسه. سُنَّين الآن المُقاربة التي تتخذها الفلسفة اللغوية من أجل فهم العلاقة بين التحليل و"الميتافيزيقيا" الفلسفية.

يرى المُحللون اللغويون أن العبارات الزائفة "الميتافيزيقية" تنشأ نتيجة انتهاك قواعد استخدام كلمات مُعينة في اللغة العادية. في هذا الصدد، يجب ملاحظة أن المُناقشات الفلسفية لا يُحفرها في لغتنا كُل الكلمات بل فقط بعضها، على سبيل المثال، كلمات مثل "أن يعرف"، أو "حقيقي" Real ، "في الواقع" in actuality ، "يبدو"، "ربما"، "بحق"، "يوجد". يبدو أن المشكلة تكمن في حقيقة أن هذه الكلمات على وجه التحديد تمتلك سمات خاصة مُعينة تجعل من المُمكن اساءة استخدامها. يستخدم الفلاسفة "الميتافيزيقيون" هذه الكلمات اما في سياقات لا يُمكن استخدامها فيها وفقاً لقواعد اللغة اليومية أو يحاولون منحها تعريفات عامة مُعينة، مُتجاهلين سياقات لغوية حقيقية لا يُمكن اختزال أحدها الى الآخر .

وعليه، فان مهمة الفيلسوف التحليلي تكمن في الكشف عن مصدر المشاكل "الميتافيزيقية" الزائفة والكشف عن المعنى الحقيقي للكلمات التي استخدمها الفلاسفة "الميتافيزيقيون" بشكل غير صحيح. وهكذا، على سبيل المثال، اذا اكتشفنا، من خلال تحليل كلمة "أن يعرف"، أن لها مجموعة كاملة من المعاني السياقية، والتي يصعب العثور على أي شيء مُشترك من بينها، وبالتالي يؤكد المُحللون اللغويون على هذا الأساس أنه لا يوجد أي تعريف عام لكلمة "المعرفة". وهذا يعني، في رأيهم، أن مُهمة بناء نظرية فلسفية شاملة للمعرفة لا معنى لها.

دعونا نُلاحظ سمة أخرى للفلسفة اللغوية. ان "الذرية المنطقية" وهي أحد أشكال الفلسفة التحليلية جمعت (ووحدت) بناء صورة "ميتافيزيقية" مُتميزة للواقع والمعرفة مع نقد "الميتافيزيقيا" الفلسفية. فرضت الوضعية المنطقية على الفلاسفة ليس فقط هدف القضاء على التأكيدات الزائفة "الميتافيزيقية" ولكن أيضاً مهمة بناء نماذج مثالية Ideal للتفكير نو المعنى. بعبارة أخرى، بالنسبة الى الفلاسفة التحليليين هؤلاء، تُستكمل مُهمة النقد (السلب) بمهمة ذات طبيعة ايجابية. يقوم مُمثلوا التحليل اللغوي باختزال أهدافهم الى أهداف سلبية Negative صرف، أو كما يُفضلون هم أنفسهم أن يقولوا، أهداف "علاجية": أي القضاء على المشكلات الفلسفية، بمعنى تحرير الفلسفة من نفسها.

وهكذا، تتحول الفلسفة التحليلية على أيديهم الى نوع من "فلسفة الفلسفة" التي تهتم فقط بالمسائل التي طرحها الفلاسفة في الماضي أو الحاضر، ولكن ليس لديها اهتمام بالمسائل التي يهتم بها علماء التخصصات الفردية أو أي مُحاولة لحل مسائل الأخلاق الاجتماعية التي يطرحها التطور الاجتماعي المُعاصر.

بالإضافة الى ذلك، لا يُنظر الى هذه للخاصية على أنها عيب بقدر ما أنها نوع خاص من مزايا التحليل اللغوي، ومؤشّر على الصرامة والدقة المُتزايدة في تقنية البحث الفلسفي ودليل على جعلها تخصص احترافي. كتب رايل أن "...السلوك الجديد في اخضاع المسائل والحُجج للنقد من قِبَل الزملاء المُتخصصين كان له نتيجة مفادها أن الفلاسفة بدأوا يهتمون الى حدٍ كبير بمسائل التكنيك الفلسفي واكتسبوا ذوقاً مُتزايد الصرامة... أصبح الفلاسفة الآن فلاسفة للفلاسفة¹.

ان المثل الأعلى للمحللين اللغويين هو الفيلسوف الذي لا يصوغ أي أطروحات فلسفية "ميتافيزيقية"، ولا يُحاول حل مشاكل النظرة الى العالم، ولا يضع أنظمة انطولوجية أو ابستمولوجية، بل ذلك الذي ينخرط في نشاط احترافي ومُتخصص بدرجة عالية لاكتشاف المعنى الدقيق للكلمات والتعبيرات بمساعدة تقنيات خاصة

¹ - G. Ryle, Introduction to The Revolution in Philosophy, pp. 3-4

واكتشاف الأشياء التي لا معنى لها والقضاء عليها. كان فيتغنشتاين يؤكد أن الفلسفة أصبحت واحدة من العديد من التخصصات الخاصة¹، بحيث أنه بينما كان للماضي فلاسفة عظام، ظهرَ اليوم فلاسفة "مُحترفون" لأول مرة في التاريخ.

بالطبع، فإن الفلسفة، بالمعنى الدقيق للكلمة، وفقاً لفيتغنشتاين، ليست علماً والفيلسوف ليس عالماً. لأن الفيلسوف (الإشارة إلى الفيلسوف التحليلي) لا يبني أي نظريات أو فرضيات تفسيرية قد تؤكدتها أو تنفيها الحقائق. كما أنه لا يُشبه عالم المنطق أو عالم الرياضيات الذي يضع بُنى استنتاجية ويُثبِت نظريات تستند إلى بعض المُسلمات. يقوم الفيلسوف التحليلي بتحليل معنى الكلمات والتعبيرات في اللغة العادية المُستخدمة وفي وصف ما هو مُعطى حقاً في اللغة. الفلسفة أداً، هي تخصص وصفي، ولكن ليس بمعنى العلم التجريبي الوصفي الذي يصوغ تعميماتٍ مُعينة على أساس الحساب الاحصائي للحالات المُختلفة، أي ليس بمعنى علم اللغة الوصفي على سبيل المثال المُهتم بتكرار استخدام عبارات مُحددة، والذي عليه أن يخرط في بحث تجريبي ملموس ووضع استبيانات مُحددة يُجيب عليها الناس.

تُثير اللغة اهتمام الفيلسوف، ليس لصفاتها اللغوية الصرف، ولكن باعتبارها حاملةً للمعاني. بالإضافة إلى ذلك، يُمكن التعبير عن نفس المعنى بوسائل لغوية مُختلفة وحتى بلغات وطنية مختلفة. يستطيع الفيلسوف الكشف عن المعنى من خلال نوع فريدٍ من "التجربة المثالية Ideal Experiment"، أي من خلال تخيل المواقف المُحتملة التي يُمكن فيها استخدام كلمة مُعينة، وبالنظر في عمل اللغة وتسجيل ما هو "واضح ومباشر".

كتب فيتغنشتاين عن عمل المُحلل اللغوي: "كانت ملاحظتنا، في وجوب الا تكون نظرتنا نظرةً علمية، قولاً صائباً. فنحن لا نُهمنا التجربة (ان يكون بإمكاننا التفكير في كذا وكذا خلافاً لحكمنا المُسبق) مهما كان معنى ذلك (الاعتبار الهوائي للتفكير). وليس من المفروض علينا أن نؤسس لأية نظرية. لا مكان للافتراضات في نظرتنا للأمر. ينبغي اراحة كل تفسير واعطاء مكان للوصف فقط، فيتلقى هذا الوصف النور، أي غايته، من المشاكل الفلسفية. وهذه الأخيرة ليست بالطبع مشاكل تجريبية بل مشاكل تُحل اعتماداً على نفاذنا إلى طريقة اشتغال اللغة، بغرض التعرف عليها: مُقابل ميلنا الجارف إلى سوء فهمها. لا تُحل المشاكل بايجاد تجارب جديدة، بل بتنظيم ما وقعت ملاحظته منذ زمن"².

بدوره، يوجه رايل الانتباه إلى الاختلاف بين عمل الفيلسوف التحليلي وعمل عالم المنطق. يوضح هيل وجهة نظره: "ان عمل الفيلسوف لا يتطابق مع عمل عالم المنطق، على الرغم من أن بعض الفلاسفة هم في نفس الوقت علماء منطق. ولكنه لا يتطابق على أي حال بسبب أن الحُجج الفلسفية تختلف عن الاستنتاجات المنطقية، لا يُمكنها ان تُصبح براهيناً. على عكس البراهين، فإن تلك الحُجج ليس لها أي مُقدمات"³.

¹ - See G. E. Moore, "Wittgenstein's Lectures in 1930-1933," Mind, London, 1955, p. 27

² - تحقيقات فلسفية، لودفيغ فيتغنشتاين، ترجمة عبد الرزاق بَنُور، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص 195

³ - T. I. Hill, Sovremennyye teorii poznaniia, Moscow, 1965, p. 479.

نلاحظ في هذا الصدد أن الصعوبات الكبيرة تنشأ عند محاولة وصف الفلسفة اللغوية بأنها علمية أو مُعادية للعلم (الصعوبات التي تشهد على حقيقة أن ثنائية "العلمي-مُعادي للعلم" بحد ذاتها اشكالية). كان من المُفترض أن تؤدي محاولة تحويل الفلسفة إلى تخصص ضيق إلى تقارب بين التحليل اللغوي والعلم. في الوقت نفسه، كما حاولنا أن نُثبت، يرفض اللغويون أن يروا في العلم نموذجاً للتفكير ذو المعنى ولا يعتبرون عملهم "علماً" بالمعنى الدقيق للكلمة.

حقاً، وعلى أساس الوصف العام للفلسفة اللغوية أعلاه، فإنه ليس من الصعب الكشف عن التناقضات الداخلية التي تتخللها والتي تقود الى تغييرات مُحددة، ليس فقط خارج حدود هذا الشكل من الفلسفة التحليلية، ولكن، كما سنحاول أن نُبين، وفي ظل ظروف مُعينة خارج حدود الفلسفة التحليلية تماماً.

حقيقة الأمر، هي أن التحليل اللغوي يُحاول أن يُثبت نفسه كنوع من التخصص الخاص، وفي حين أنه لم يكن علماً بالمعنى الدقيق للكلمة، فإنه كان قادراً على الحصول على نتائج دقيقة لا جدال فيها والتخلص من عبئ المقدمات "الميتافيزيقية"، أي التوصل الى حل خاص للمشكلات الفلسفية يُفهم بأنه حل أصيل. لكن ما سبق، قد فرض الحاجة الى الامتناع عن صياغة أي لوحة فلسفية وكان مسؤولاً عن القول بأن هذه المدرسة لا تفكر فقط الى مواقف ومبادئ نظرية وحسب، بل وحتى الى طريقة مُحددة للتحليل كذلك. ان اختيار منهجية مُعينة يعني منحها أفضلية على منهجية أخرى، وهذا ينطوي حتماً على عواقب "ميتافيزيقية" مُعينة. يدعي المُحللون اللغويون أنهم يبنون "تحليلاً غير مُخطط له". ولهذا السبب بالتحديد، كان على فيتغنشتاين أن يؤكد أنه "لا يوجد منهج واحد في الفلسفة، بل توجد مناهج عديدة، أي، ان صح التعبير، طرح علاج مُختلفة"¹.

ان منطق تبني فكرة امكانية "التحليل غير المُخطط له" يُجبر رايل على المُضي قدماً والتأكيد على أنه حتى مناهج هذه المدرسة بالذات ليست هي الوحيدة المُمكنة: "ليس صحيحاً القول بأن هذه المنهجية المُقترحة هي الأكثر مُلائمة، أو هي وحدها الأفضل، أو أنها جزء من أفضل منهجية للتفلسف، وهذا ليس صحيح حتى ان اعتبرناها مسألة ذوق شخصي. ان قول هذا يُمائل الادلاء بتصريح فلسفي، وهو بالاضافة الى ذلك تصريح من النوع الذي يؤكد مبدأ مُعیناً. لذلك فان المدرسة التي تدعي أنها تسير على الطريق الصحيح لأنها تحتكر المنهجية الأفضل لن تكون سوى حالة خاصة لما درسناه أعلاه، أي احتكاراً ظاهرياً لمبدأ فلسفي"². أدى نفس هذا الظرف الى أن قام فيتغنشتاين نفسه أيضاً برفض أي تعريف عام للغة أياً كان (وحتى رفض صياغة أي فكرة عامة حول "المعنى" باعتباره استخداماً) وتفضيله للتحليل العياني لمعنى كلمات مُعينة ضمن "الألعاب اللغوية" الفردية.

في الوقت نفسه، بغض النظر عن مدى رغبة التحليل اللغوي في تجنب العواقب "الميتافيزيقية" الناتجة عن تبني أي برنامج مهما كان، فإن الحاجة الى اظهار نفسه (اي التحليل اللغوي) كفلسفة مُختلفة عن كل الفلسفات الأخرى، فإن منطق ذاته لا يُمكن الا أن يؤدي به الى تبني مُقدمات مُعينة، سواء أ تمت صياغتها صراحةً أو عرضها بنفس اسلوب وممارسة التحليل (وهذا بشكل عام هو تناقض أي فلسفة تدّعي بأنها "حرّة").

في هذا الصدد، دعونا نوجه انتباهنا الى الثنائية الغربية الموجودة عند الفلاسفة اللغويين في تقييم الأسلوب التحليلي الذي طوره فيتغنشتاين (تحديد ما اذا كانت المسألة قد صيغت "داخل" أم "خارج" لعبة لغة مُعينة، استبدال بعض التعبيرات بتعبيرات أخرى، وتعريف ما يُسمى الحالات "الباراديجمية"). من ناحية، فإن الالتزام بتعاليم هذه المدرسة يُجبر المرء على أن يطبق تقنية التحليل اللغوي ويُقيّمها تقيماً عالياً كشيء يُمكنه أن يضع حلاً صارماً لا أيس فيه للمسائل الفلسفية. أعلن فيتغنشتاين نفسه، في نقاش له مع جورج مور، أن أهم انجازاته لم يكن استنباط نتائج فلسفية مُعينة، بل ابتكار تكنيك يُمكنه أن يحل المسائل الفلسفية³. من ناحية أخرى، فإن الرفض المبدئي لأي منظومة فلسفية (رفض تُمليه اعتبارات النظرية على وجه التحديد) يُجبر فيتغنشتاين وأتباعه أنفسهم على رفض أي منهجية فلسفية مهما كانت.

1- تحقيقات فلسفية، لودفيغ فيتغنشتاين، ترجمة عبد الرزاق بقر، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص203

2 - G. Ryle, "Taking Sides in Philosophy," in Philosophy, London, 1937, p. 332

3 - See G. E. Moore, "Wittgenstein's Lectures in 1930-1933," Mind, 1955, p. 27

تُظهر دراسة مُمارسة المُحللين اللغويين أن المُتقدّمات الفلسفية التي يتخذونها في الواقع كנקاط انطلاق في عملهم، أنها أولاً فلسفية بشكلٍ واضح (أي "ميتافيزيقية" ان استخدمنا لغتهم)، وأنها ثانياً، غير مُقتنعة بالمرّة.

ان أهم هذه المُتقدّمات الأساسية، هي، قبل كل شيء، الاصرار على ضرورة البحث عن معاني الكلمات في استخداماتها اليومية، وأنه يُمكن ايجاد جذر المسائل الفلسفية (أي "المشكلات الميتافيزيقية الزائفة" بلغة الفلاسفة التحليليين) في انتهاك قواعد اللغة اليومية. ومع ذلك، فان فكرة "اللغة اليومية" ذاتها غير واضحة. ما الذي يُمكن أن نفهمه منها؟ من الواضح أن اللغة اليومية ليست مُجرّد استخدام للكلمة موجود امبريقياً، فقط لأنه في هذه العملية بالتحديد تنشأ السخافات التي تؤدي الى صعوبات فلسفية وفقاً للمُحللين اللغويين. عندما تُفهم اللغة اليومية بهذه الطريقة، فانه لا يُمكنها أن تكون معياراً للمعنى.

ومع ذلك، لا يُمكننا أيضاً ان نُعطي لغة الحياة اليومية أي تعريف آخر. على وجه التحديد، لا يُمكننا أن نفهمها على أنها اللغة التي قد نستخدمها في ظل ظروف مُعينة على أساس مبدأ وجوب اعتبار التعبير كجزء من اللغة اذا كان يُعطي معنىً في ظل تلك الظروف. النقطة المُهمّة هي أنه ان قام المرء بتضمين تلك التعبيرات ذات المعنى في ظل ظروف مُعينة في اللغة اليومية، فمن الواضح أن اللغة اليومية لا يُمكن أن تكون معياراً لما هو ذو معنى أو لما ليس له معنى. ولكن ان لم يكن واضحاً ما الذي يجب أن يتم تصنيفه مع اللغة اليومية، سيكون من الأكد أنه من المُستحيل التحدث عن عمل الفيلسوف بأنه "وصف" بسيط لاستخدام التعبيرات في تلك اللغة، لأن هذه "الاستخدامات" ليست واضحة بدورها¹.

وبالضبط لأن الاستخدام الحقيقي للغة نفسها يوُلّد التناقضات، فلا يُمكنها بحد ذاتها (أي اللغة) أن تكون وسيلةً لحلها. يضطر الفلاسفة اللغويون في هذا الصدد، الى مُناقشة حقيقة أن "استخدام" عدد من التعبيرات هو الذي يجعل الخصائص المنطقية الأصلية لعددٍ من التعبيرات لأن تُصبح "مخفية" أو "مُشوشة". ولكن في هذه الحالة، من أجل التمييز بين استخدام الكلمات "الحساسة" و"غير الحساسة"، ومن أجل التمييز بين الخصائص المنطقية "الأصلية" و"الظاهرية" سنكون مضطرين الى اللجوء، وبطريقة خفية، الى بعض المعايير التي تتجاوز حدود مُجرّد الاستخدام الفعلي. لذلك، فان الحُجّة القائلة بأنه يتم الكشف عن معنى تعبير مُعيّن من خلال المُلاحظة البسيطة، ومن خلال "النظر" في طريقة اشتغال اللغة، هي حجة ضعيفة ولا تتوافق مع ما يفعله الفلاسفة التحليليون أنفسهم في الممارسة.

حقاً، بأي معنى يُمكن "النظر" في الخصائص المنطقية للغة اليومية؟ بأي معنى يُمكننا القول أن لدينا معرفة غير مُتوسّطة، بهذه الخصائص؟

يلاحظ ماكسويل تشارلزورث Maxwell John Charlesworth في الحقيقة، يُمكن الدفاع عن هذا المذهب اما بتحويله الى حشو صرف، أو بتعريف اللغة اليومية على أنها "صحيحة" على أرضية فلسفية. ولكن في هذه الحالة، ان كان بإمكاننا معرفة كيفية استخدام تعبير "اللغة اليومية" فقط بعد قيامنا ببحثٍ فلسفي، فلماذا لا ينطبق هذا أيضاً على جميع التعبيرات الأخرى؟² بعبارةٍ أخرى، ان لم نتمكن من حل الصعوبات الفلسفية بمساعدة اللغة اليومية، ولكن على العكس من ذلك، حددنا معيار المعنى بمساعدة اعتبارات فلسفية مُحددة (خفية أو صريحة) فسينهار عندها مفهوم فلسفة التحليل اللغوي كلياً.

¹ - See M. J. Charlesworth, Philosophy and Linguistic Analysis, Louvain, 1959, p. 113

² - Ibid., p. 80

تجب الإشارة الى أن أنصار هذه المدرسة يقدمون صورة لممارستهم الخاصة تختلف بشكل كبير عن مجرد "النظر" في حقائق اللغة. يكتب ج. بول ان مجرد جمع حالات مختلفة من استخدام الكلمات لا يبدأ في سرد القصة. "الجوهر" ان جاز التعبير، يُصيح "مرئياً" ليس عن طريق "الحفر" أو "التحليل"، وليس من خلال الملاحظة السلبية لما هو "موجود مسبقاً أمام أعين المرء"، بل عن طريق "الترتيبات الجديدة" أو حتى "اعادة الترتيبات" العديدة التي يجب أن أقوم بها... لذلك لا توجد منهجية في الفلسفة تماماً كما لا توجد منهجية لاختراع الحالات وترتيبها... بالضبط كما لا توجد منهجية لأن "يُفاجأ" المرء بحقيقة أكثر من أخرى)...¹



ماكسويل تشارلز وورث

ولكن من هذا يُستمد امكانية (وحتى) الفهم المُختلف لحقائق اللغة والتفسيرات المُختلفة لما ينبغي اعتباره استخداماً صحيحاً لـ "معنى" كلمة معينة. ليس من قبيل المصادفة أن الاختلافات في الرأي بين الفلاسفة الذين يمارسون التحليل اللغوي كبيرة جداً. ليس من الصعب اظهار أن نفس الصعوبات والحلول الأساسية التي طُرحت مسبقاً في تاريخ الفلسفة يتم اعادة انتاجها في الشكل غير المُعتاد لتحليل الكلمات في اللغة المنطوقة. وهكذا على سبيل المثال، عند تحليل الكلمات والتعبيرات المُتعلقة بالعقل (يُميّز، يُفكر، يحس وما الى ذلك) يتبنى رايل أساساً الموقف السلوكي، بينما يقف مايبز أقرب الى الاستبطان النفسي، وما الى ذلك. يكاد لا يوجد فيلسوف لغوي واحد يتفق تماماً مع أي من زملائه الآخرين.

وهكذا، تُثبت الفلسفة اللغوية نفسها بأنها شكل خاص من "الميتافيزيقيا"، حيث تعرض نفسها مُرتديةً تقنية التحليل اللغوي، على الرغم من عدم رغبتها في اظهار جوهرها الحقيقي.

ولكن، ان أدرك المرء أنه من المُستحيل التهرب من التأكيدات "الميتافيزيقية" في التحليل اللغوي وفي نفس الوقت قَبِلَ بجديّة تأكيد المُحللين بأنه يغيب عندهم أي منهجية فلسفية في عملهم (ليس فقط من خلال مجرد قبول مسألة "الخلو من المُقدمات" المزعومة)، فانه تنشأ عندها امكانية بناء المفاهيم "الميتافيزيقية" الأكثر صراحةً والتي لا تدخل في تناقض شكلي مع التحليل اللغوي. تكمن الطبيعة المتناقضة للتحليل اللغوي في

¹ - G. Paul, "Wittgenstein," in The Revolution in Philosophy, London, 1957, p. 96

يُصادف المرء أيضاً التأكيد على أن المنهجية التي أوصى بها فيتغنشتاين للفلسفة هي أقرب بكثير للفن منها للعلم

See D. Pears, "Wittgenstein and Austin," in British Analytical Philosophy, London and New York, 1966, p. 38

حقيقة أنه يذهب في الصراع مع "الميتافيزيقيا" الى ذلك الحد الذي يصير فيه الموقف "المضاد للميتافيزيقيا" "ميتافيزيقياً" من حيث المبدأ. وهكذا، تصل الفلسفة التحليلية، في شكل التحليل اللغوي، الى النقطة التي تُنكر فيها نفسها، وتتجاوز حدود ذاتها.

يُدرِك عدد من الفلاسفة هذا الاحتمال. وهكذا، في كتابه (الأفراد) يبني سترافسون Peter Frederick Strawson "ميتافيزيقيا وصفية" مميزة، يحاول من خلالها استخلاص استنتاجات حول البنية الحقيقية للوجود من تحليل عدد من التعبيرات في اللغة اليومية. يذهب الفيلسوف البارز ستيوارت هامشاير Stuart Hampshire الى أبعد من ذلك بكثير في كتابه (الفكر والفعل)، لا تكون فيه المنهجية التحليلية للفلسف هي الطريقة الوحيدة أو حتى الرئيسية.



ستيوارت هامشاير

يتقاطع المفهوم الفلسفي الذي طوّره هامشاير في عددٍ من النقاط مع أفكار ميرلوبونتي الظواهرية. يطرح هامشاير نقداً خاصاً لادعاء الفلسفة التحليلية بأنها توصلت الى حل نهائي للصعوبات الفلسفية عن طريق تحليل اللغة، ويؤكد أن تحليل اللغة اليومية نفسها يجب أن يقوم على أساس فهم عملية التطور والتغير اللانهائيين، كما اشتراطها بالمؤسسات الاجتماعية. وهو يرى أن "البحث الفلسفي لا يمكن أن يكتمل أبداً"¹. ومع ذلك، يجب تصنيف كل من سترافسون وهامشاير في اطار الفلسفة اللغوية، حيث أنهما لا يتخيلان تماماً عن تحليل اللغة اليومية أيضاً.

دعونا نستعرض مفارقة أخرى في فلسفة اللغة يكمن في حقيقة أن حل المهمة التي يضعها المُحللون على عاتقهم (انتزاع المشكلات الفلسفية) كان يؤدي الى تدمير كل النشاط الفلسفي، بما في ذلك النشاط الفلسفي التحليلي². ان مثل هذا الاستنتاج يتبع فقط عندما تقتصر مهام التحليل اللغوي على المعالجة الفلسفية. ومع ذلك، لو أعطى المرء نشاط المُحللين معنىً ايجابياً مُعيناً، فقد يبدو أن لديه (اي لدى النشاط) آفاق أفضل. لكن

¹ - S. Hampshire, Thought and Action, New York, 1960, pp. 271-272

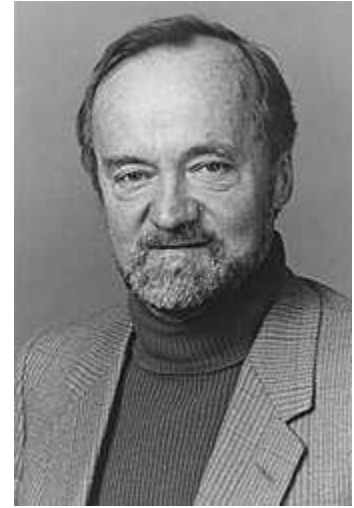
الآراء الفلسفية التي تتم مواجهتها هي جزء ضروري من كل مرحلة من مراحل الفكر الانساني. وتنشأ هذه الآراء مباشرة من التفكير النقدي للانسان على أساس سلوكه عندما يحاول تعديل الظروف لنفسه عندما تنفتح أمامه الاحتمالات المُختلفة للفعل المُتاح له أن يتم الاختيار بينها أو مطابقتها ببعضها البعض" (المرجع نفسه).

² - ولذا فاننا نواجه مشهداً مثيراً. يُنتج الفيلسوف المُحترف بوعي ومنهجية صداعاً يتعين عليه أن يُعالجه. يقضى الطالب السنة الأولى في دراسته في السعي للاصابة بالمرض ثم يقضي السنة الثانية في محاولة التخلص منه. ولكن لو كانت الأمور على غير هذا النحو، فلن يكون لدى الأطباء أي مرضى".

H. H. Price, "Clarity Is Not Enough," in Clarity Is Not Enough, London, 1963, p. 18

ان بقي المرء ضمن حدود تحليل معاني اللغة اليومية، فان الفرصة الوحيدة للعمل الايجابي تكمن في البحث في معاني ليس تلك الكلمات والتعبيرات التي تُنتج صعوباتٍ فلسفية فقط، بل وأيضاً جميع الأشكال اللغوية المُختلفة، بغض النظر عن علاقتها بالفلسفة. في الواقع اتخذ اوستن ذلك المسار. في هذه الحالة، يخرج التحليل اللغوي بحق عن حدود الفلسفة ويصير نوعاً من التخصص الخاص (على الرغم من أنه لا يُصبح تخصصاً لغوياً). اوستن نفسه قام بدعم فكرة أن تكتيكاته التحليلية تتشابه مع تكتيكات العلوم الطبيعية واعتبر أنه كان يبتكر "علماً جديداً للغة" والذي سيحل محل ما يُسمى بالفلسفة ويخطاها تماماً. يقول اوستن لو كانت قواعد النحو أكثر عالميةً وتجريبيةً، فانها ستتضمن الكثير مما تهتم الفلسفة به الآن، وفي هذه الحالة ستُصبح الفلسفة علماً.

لكن هناك طريق آخر لتحويل دراسة اللغة اليومية الى مهنة علمية. يتساءل ستيفان تولمين Stephen Toulmin اذا اعترفنا أن اللغة اليومية هي شكل من أشكال الحياة، مرتبطة بطريقة ما بالمؤسسات الاجتماعية، فلماذا لا ندرس اذاً اعتماد اللغة على نظام الثقافة ككل وتغيراتها في العملية الاجتماعية.



ستيفن تولمين

قد يبدو هذا منطقياً، تماماً مثل دراسة تمكن الطفل من استيعاب اللغة في عملية تطور العقل الفردي (عمل مشابه لما يقوم به جان بياجيه). يرى تولمين أنه ان تم ذلك، فسيؤدي التحليل اللغوي الى ظهور علم جديد من شأنه أن يدرس العلاقة المفاهيمية المتبادلة بين نمو الطفل وعلم نشوء الانسان².

ولكن، يفترض البرنامج الذي صاغه تولمين، أن اللغة اليومية ستتحول من وسيلة لحل المشاكل الفلسفية الى أداة للدراسة العلمية، مما يعني صياغة النظريات والفرضيات وفقاً لجميع القواعد المقبولة في المجتمع العلمي. بمعنى آخر، لن يُعبّر تنفيذ هذا البرنامج عن مرحلة جديدة في تطور الفلسفة اللغوية، ولكنه، في جوهره، خروج خارج حدود الفلسفة التحليلية تماماً. وفي الوقت نفسه، لا تحل الدراسة النشوئية للمفاهيم ولا دراسة أصل اللغة المشكلات الفلسفية تلقائياً، وهي وسيلة سعى اليها التحليل اللغوي.

¹ - See D. Pears, "Wittgenstein and Austin," in British Analytical Philosophy, London and New York, 1966, p. 23

² - See S. Toulmin, "From Logical Analysis to Conceptual History," in The Legacy of Logical Positivism, Baltimore, 1969, pp. 48,49, 53

دعونا نختتم عرضنا الموجز لحالة الفلسفة اللغوية المعاصرة بالتصريح التالي لوايزمان أحد المشاركين في الحركة التحليلية خلال مراحلها المختلفة: "من المُستحيل... اثبات أن تعبيراً مُعيناً طبيعي، أو أن استعارة ما هي وثيقة الصلة بالموضوع، أو أن هناك سؤالاً منطقياً (أو سؤالاً يُمكن الاجابة عليه) أو أن مجموعة من الكلمات لها معنى (أو تفقر اليه)... ان التأكيد على أن الميتافيزيقيا لا معنى لها، هو أمر لا معنى له بحد ذاته"¹.

انه لمن الغريب أن هذا ما أكده مساعد سابق لموريس شليك، وهو عضو نشط في مدرسة فيينا.

حاولت الوضعية المنطقية ضمان الفصل الكامل والدقيق بين التأكيدات العلمية و"الميتافيزيقية". كان هناك احتمال أن يؤدي فشل هذه الحيلة الى استنتاج مفاده أن هناك حاجة الى التزام أكثر اتساقاً بخط التحليل الفلسفي "المضاد للميتافيزيقية" الذي لا يتسند الى أي مقدمات فلسفية مهما كانت ("غير مُخططة وغير برنامجية") وفي نفس الوقت توجيه الانتباه في المقام الأول الى حقائق اللغة اليومية، لأنها كانت على وجه التحديد اللغة اليومية الطبيعية التي بدت أنها وسيلة لتوفير علاج أسرع وأكثر موثوقية للمشكلات الزائفة "الميتافيزيقية" أكثر من علم مُثقلٍ بشدة بـ"الميتافيزيقيا". لقد سلكت فلسفة التحليل النفسي هذا الاتجاه. لقد حاولنا من قبل أن نبين الى أين أدى هذا.

لكن الاعتراف بفشل برنامج الوضعية المنطقية يُمكن أن يكون مصحوباً أيضاً باستنتاج آخر. ليست فكرة مواجهة المشاكل الفلسفية بالتخصصات العلمية، هي فكرة عديمة المعنى في حد ذاتها؟ ربما كان من الخطأ محاولة تحرير العلم ككل من كل "الميتافيزيقيات" الفلسفية، وكان ينبغي، بدلاً من ذلك، ان يقتصر الجهد على محاولة تحريرها من "الميتافيزيقيا" السيئة (الوضعية) لصالح تلك "الميتافيزيقيا الجيدة" من ذلك النوع الذي يتوافق مع ممارسة ومنطق عمل المعرفة العلمية اليوم؟

الاجابة الايجابية على هذا السؤال تأخذ المرء- بهذا القدر أو ذاك اعتماداً على مدى راديكالية الاستنتاجات المُستخلصة من هذا- الى خارج اطار الوضعية بالمعنى الدقيق للكلمة، وان لم يكن بالضرورة خارج حدود الفلسفة التحليلية.

نلاحظ أيضاً أن هذه الاجابة توجه المرء الى البحث في مجال الموضوع الفلسفي والمنهجي للعلم (على خلاف توجه فلسفة التحليل اللغوي). يوجد تحليل مفصل لاتجاهات منهجية العلم التي حلت محل الوضعية في مقال شفيريف في هذا العدد من مجلتنا. لذلك سنقتصر على بعض الملاحظات الموجزة المهمة لتوضيح الصورة العامة لتطور الفلسفة التحليلية المعاصرة.

ان التخلي عن عقيدة الوضعية المنطقية في فهم علاقة الفلسفة بالعلم وفي الدراسة المنهجية للمعرفة العلمية لم يحدث باتساق موحد. عند فلاسفة مثل هربرت فايغل Herbert Feigl اقترن الاعتراف بأهمية ومعنى المشكلة النفسية-الجسدية (التي اعتبرها الوضعيون المنطقيون الأرتنوكسيون على أنها مشكلة زائفة) وقبول

¹ - F. Waismann, How I See Philosophy, New York, 1968, pp. 24, 38

المفهوم الابدستمولوحي لـ"الواقعية الدلالية" جنباً الى جنب مع الاحتفاظ بالعديد من افتراضات التجريبية المنطقية. يتميز ممثلو ما يُسمى "البراغماتية المنطقية" (ويلارد كوين Willard Van Orman Quine وأرثر باب وغيرهم) بالتخلي عن معظم افتراضات الوضعية المنطقية، ولكن في نفس الوقت، يحتفظون بتوجههم نحو التحليل الذي يفهم على أنه بناء أنظمة لغوية اصطناعية بمساعدة جهاز المنطق الرياضي كأداة فلسفية. كارل بوبر، الذي لعب دوراً كبيراً في تأطير فكرة الوضعية المنطقية، لم يتخلى فقط عن الوضعية، بل تبنى مفهوم أفلاطوني "واقعي" وانتقل الى حدٍ كبير خارج اطار الفلسفة التحليلية، مؤكداً أن المشاكل الفلسفية لا يُمكن اختزالها في تحليل اللغة.



هربرت فايغل

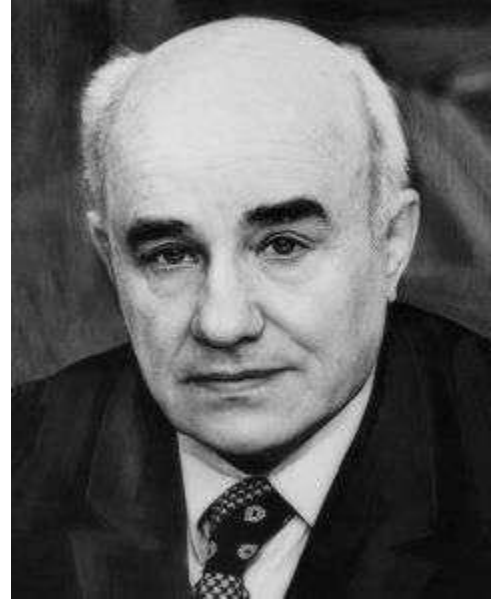
أخيراً، تحمل الأفكار التي طورها توماس كون (التي تقترب من أفكار ماكسويل وفيريباند وغيرهما) في السنوات الأخيرة طابعاً مضاداً للوضعية بوضوح. انه يوظف مفهوم "الثورات العلمية" ووجود أنواع من العلوم العلمية من أجل استنتاج أنه لا يوجد حد فاصل لاتاريخي بين ما هو علمي وما هو "مينافيزيقي". يتم البحث في "الباراديم" الذي يُحد طابع نوع تاريخي مُعين من المعرفة العلمية، ليس فقط كبنية للغة مصطنعة أو طبيعية، ولكن كشيء مرتبط بعمل جميع المؤسسات الثقافية للمجتمع المُعطى. لا يسع المرء الا أن يعترف أنه على الرغم من جميع نقاط ضعف عمل كون وأنصاره، فانهم لا يقتصرون على التوجه المضاد للوضعية فحسب، بل ويتعدون الى حدٍ كبير حدود هذا النهج لحل المسائل الفلسفية والمنطقية والعلمية التي كانت تُملئها الفلسفة التحليلية.

ان ما سبق هو بعض نتائج واتجاهات تطور الفلسفة التحليلية. لا تمتلك هذه الفلسفة اليوم أي مفاهيم رئيسية ومؤثرة وحسب، بل حتى أنها فقدت الثقة الى حدٍ كبير وتميل بشغف الى امكانية (وحتى حتمية) وجوب وجود اتجاهات غير تحليلية وحتى "مينافيزيقية" بكل صراحة. ومع ذلك، تستمر في الوقت الحاضر في الهيمنة على الحياة الفلسفية في انجلترا والولايات المتحدة، على الرغم من عدم وجودها بشكلها النقي بل في شكل تركيبات نظرية من أنواع مُختلفة تتضمن بوعي عناصر "مينافيزيقية". ان الفكرة القائلة بأنه من المُمكن، عن طريق التحليل اللغوي، التخلّص من مشكلة النظرة الى العالم الخاصة بالفلسفة، وتحويل الفلسفة الى نوع من التخصص التقني، قد أثبتت بأنها أسطورة.

ترجمة لمقالة:

V. A. Lektorskii (1971) Analytical Philosophy Today, Soviet Studies in Philosophy, 10:2, 135-157

العلوم الطبيعية المعاصرة والنظرة العلمية الى العالم



نيكولاي بيتروفيتش دوبنين*

في عصرنا هذا، تُعتبر مسألة طبيعة النظرة العلمية الى العالم ذات أهمية كبيرة في النشاط العملي للناس. تُشكّل النظرات التي يتبناها العلم الحديث في الوقت الحاضر أهم عنصر في النظرة الى العالم ككل، مؤكدةً الطبيعة المادية للكون والانسان. يؤمّن لنا العلم المعاصر، بعد أن حقق لنا نتائج مُذهلة في تحليل قوانين العالم الميكروي والكون وجوهر الحياة وفهم البشر، يؤمّن لنا دليلاً لا يقبل الجدل على الطبيعة المادية لكل الأشياء والظواهر.

* نيكولاي بيتروفيتش دوبنين 1906-1998 عالم وراثه ماركسي ومؤسس ومُطور العديد من المجالات الجديدة في علم الأحياء ومؤلف الأعمال الكلاسيكية عن التطور والاشعاع والوراثة المكانية والجزيئية ومسائل الوراثة الانسانية وقدم حلولاً علمية لمسائل اصطفاء حيوانات المزارع والمزروعات والكانات الدقيقة وساهم في تطوّر العلاج الوراثي وكان مساهماً في تحديد معالم تطور علم الوراثة السوفييتي في القرن العشرين. كان عضواً في الكومسومول اللينيني، ودّرّس في جامعة موسكو الحكومية وتخرج عام 1928. عمل منذ عام 1932 في العديد من معاهد البحث التابعة لأكاديمية العلوم السوفييتية ومفوضية الشعب للصحة العامة، بما في ذلك معهد البيولوجيا التجريبية ИЭБ، حيث دافع باستمرار عن موقفه في صراعه مع الليسينكوية. عمل دوبنين في تطوير التشجير الوقائي الميداني الذي أنشأه معهد الغابات التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية عام 1948، وكان يدرس ويعمل في مجال علم الطيور منذ عام 1949-1955. طوّر دوبنين مناهج جديدة في دراسة الطيور والمناهج الكمية وتحديد المخططات العلمية. أمضى دوبنين من 7 الى 8 أشهر في السنة في رحلات استكشافية في غابات الروافد الدنيا لجبال الأورال، وقام باعداد عدد من الدراسات بما في ذلك دراسة (طيور غابات وادي الأورال) 1956. نيكولاي دوبنين هو مؤسس معهد علم الخلايا وعلم الوراثة التابع للفرع السيبيري لأكاديمية العلوم السوفييتية، والذي صار مديراً له 1957-1959، وكان مدير معهد علم الوراثة العام في الأكاديمية منذ عام 1966-1981. كان علم الوراثة هو مجال اهتمام دوبنين، حيث أظهر جنباً الى جنب مع الكسندر سيربيروفسكي هشاشة الجين وكذلك ظاهرة تكامل الجين. نُشرَ عدداً من الأعمال العلمية المهمة حول بُنية ووظائف الكروموسومات وأظهرَ وجود طفرات جينية قاتلة وشبه مُميتة عند عدد من الناس، كما وعملَ على مشاكل علم الوراثة الاشعاعية. حصل دوبنين على جائزة لينين عام 1966 وعلى لقب بطل العمل الاشتراكي ووسام لينين وميدالية المنجل والمطرقة عام 1990. من أعماله العلمية: (حول مسألة علم الوراثة الاشعاعي) 1961، (الجينات الجزيئية وتأثير الاشعاع على الوراثة) 1963، (ما هي الشخصية؟) 1983، (علم الوراثة العام) 1986، (الحركة الأبدية) 1989

تم تحصيل مجموع حقائق وأفكار العلوم الطبيعية المعاصرة وفقاً للخطوط التي وضعتها فلسفة المادية الديالكتيكية. نظراً لأن نظريات العلوم الطبيعية تتغلغل في مجال نظرية الانسان والمجتمع، فانها تُقدّم مساهمتها في تطوير النظرات الفلسفية والاجتماعية-السياسية والأخلاقية والجمالية وغيرها، وهو أمر بالغ الأهمية لتطوير المادية التاريخية. يُصبح أولئك العلماء في البدان الرأسمالية المُتحررين من النهج الطبقي البرجوازي، بشكلٍ مُتكرر، مُناصرين للنظرة الماركسية اللينينية عن العالم. في ضوء هذه الحقيقة، تُصبح أهمية التحالف بين علماء الطبيعة والفلاسفة واضحة بشكلٍ خاص. في عمل لينين، (حول معنى المادية المُقاتلة) تمت صياغة أهداف التحالف بين الفلاسفة وعلماء الطبيعة. تمت الإشارة الى أهم الاتجاهات التي يجب اتخاذها في تطوير الفلسفة الماركسية. تم التأكيد على الحاجة الى صراع حاد مستمر ضد وجهات النظر غير العلمية والرجعية عن العالم. يكتب لينين أنه: "يجب علينا أن نفهم أنه لا علم طبيعي، لا مادية اياً كانت، يمكنها الصمود في النضال ضد هجوم الأفكار البرجوازية وعودة الفلسفة البرجوازية دون أساس فلسفي صلب. من أجل دعم هذا النضال والسير به نحو النتائج المرجوة، على عالم الطبيعة ان يكون مادياً حديثاً - واعياً وملتزماً بالمادية التي يمثلها ماركس، أي، يجب أن يكون مادياً جدلياً"¹.

يتزايد باستمرار في يومنا هذا الذي يعج بالصراع الايديولوجي الحاد، هجوم الأفكار البرجوازية. يصير هذا الهجوم واضحاً للغاية على طول جبهة العلوم الطبيعية بالكامل، ويُصبح حاداً بشكلٍ خاص في حل المُشكلات المُتعلقة بالانسان وجوهره الاجتماعي والبيولوجي. في تفسيرهم غير الصحيح لمُشكلة الطبيعة البيولوجية للانسان ودور تلك الطبيعة في عمل العقل، يُهاجم العلماء البرجوازيون المبدأ الأساسي للماركسية اللينينية فيما يتعلق بالانسان، والذي يرى أن الوعي هو نتاج التطور الاجتماعي وبأنه لا يُمكن أن يوجد خارج المجتمع.

ان اولئك الذين يختزلون الوعي الانساني الى ما هو بيولوجي، يبحثون عن مُكوناته بالشكل النوعي الموجود بين الحيوانات، ويرون أن الوعي، هو شكل أبدي من الوجود البيولوجي للانسان، يتغير خارجياً تحت "تأثير" انظمة اجتماعية مُختلفة. وبالتالي، من وجهة النظر هذه، فان مُحتوى وعي كل فرد، يتحرك بدافع سماته البيولوجية الفردية، أي برمجته الجينية. بالنسبة للبشرية جمعاء، فانه يتم تعريفها على أساس بيولوجي، مما لا يسمح، في ظل أي ظروف اجتماعي، بتغيير نوعي في محتواها عن طريق التنشئة والتثقيف. يضع هذا النهج قيوداً على العقل الانسانية يُزعم أن بيولوجيته تُملئها عليها، ويُنكر امكانية التطور اللانهائي للعقل استجابةً لتطور الكائن الاجتماعي. يُنكر أنصار اختزال الوعي في البيولوجيا الفكرة القائلة بأن الناس في نشاطهم العملي الابداعي يُغيرون الطبيعة والمجتمع وبالتالي أنفسهم، وبكلمات لينين، فانهم يُنكرون أن "العقل الانساني لا يعكس العالم الموضوعي فحسب، بل ويخلقه"².

تتشترك نظريات "البيولوجية" هذه مع الآراء الدينية. يتم تصوير تأثير الجينات على الانسان فيها على أنه شيء رائع وعنيد، بينما توصف حياة الفرد الروحية بالاعتماد فقط على مجموعات الجينات العَرَضية. بالتوافق التام مع وجهات النظر الغائية، من المقبول في هذا الصدد أن العناصر الأساسية الانسانية مكتوبة في الجينات، وهي التي تخلق الأساس الداخلي الثابت للعنصر الروحي في الانسان.

وسيراً على خُطى لينين في مجال الفلسفة، التي خطاها في عمله الرائع (حول معنى المادية المُقاتلة)، فانه علينا أن نواجه بجديّة المسألة الحديثة المُلحة حول جوهر الانسان ككائن بيولوجي، من المواقع الماركسية

¹ - V. I. Lenin, Poln. sobr. soch., Vol. 45, pp. 29-30

² - Ibid., Vol. 29, p. 294

اللينينية. يكمن تعقيد هذه المسألة في حقيقة أن الوعي الانساني هو نتاج للتطور الاجتماعي، وأن أسس الحياة البيولوجية للانسان تستند الى برنامج جيني تطوّرَ باعتباره النتاج النهائي للتطور الطبيعي على الأرض. تكمن أعمق جوانب النظرة الى العالم اليوم في العلوم الطبيعية، في حل هذه المسألة.

الجينات ومسألة الانسان

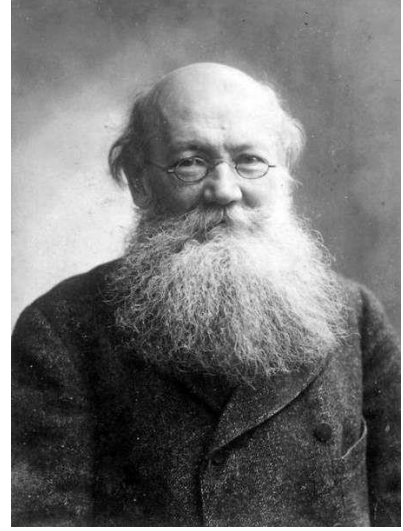
أشار ليونيد بريجينيف في تقريره الى المؤتمر الرابع والعشرين للجنة المركزية للحزبي الشيوعي السوفييتي الى أن تشكيل الانسان الجديد وشخصيته المتطورة من جميع النواحي لا تقل أهمية عن مسألة بناء الشيوعية وبناء أساسها المادي والتكنولوجي. أثبتت التجربة أنه تتشكل معايير أخلاقية وانسانية جديدة في عملية بناء الاشتراكية وفي حُصَم الثورة العلمية التكنيكية.

انه في مسألة دور البيئة الاجتماعية في تشكّل الشخصية الانسانية نجد الحد الفاصل بين المنهج الماركسي اللينيني، الذي ينظر الى الشخصية الانسانية كنتاج للتطور الاجتماعي، وجميع أنواع المفاهيم التي تتحدث حول فطرية صفات الانسان وتصلها مُسبقاً في طبيعته.

كان علم الوراثة ولفترة طويلة، يُضفي الطابع البيولوجي على الصفات الانسانية على أساس مفهوم أسبقية الخصائص الفطرية، حيث تم التأكيد على أن السلوك الاجتماعي والموقع الاجتماعي هما نتيجة مُباشرة للسمات البيولوجية للروح الانسانية لكل فرد. تم الافتراض بأن الظروف الاجتماعية لا يُمكنها أن تخلق انساناً جديداً، وأن هذه المهمة يجب حلها عن طريق اعادة تشكيل الجينات البشرية. ظهر اتجاه يُسمّى "تحسين النسل" eugenics والذي أكد أنه كما الحال بالنسبة لتحسين النسل الحيواني عن طريق الانتقاء كما هو الحال مع النباتات، فان علم "تحسين النسل" مدعو الى تحسين النوع الانساني بمساعدة الانتقاء. كانت هذه المقاربات نفسها بمثابة تبرير للعنصرية، التي اعتبرت أن جميع أعراق الناس تقع تحت الكمال الوراثي باستثناء تلك الأعراق "العليا".

تحظى مسألة الانسان اليوم بأهمية استثنائية، لأنه لا يُمكن بدون فهم عميق لها تحقيق تقدّم ناجح لمُجتمعنا. تتطلب دراسة هذه المسألة نهجاً مُتعدد الجوانب من وجهات نظر السوسولوجيا والفلسفة والسيكولوجيا والبيولوجيا والعلوم الأخرى. ان البيولوجيا، وعلم الوراثة في المقام الأول، مدعوون للعب دور كبير هنا. ان الانسان هو حلقة طبيعية في تطور الحياة على الأرض. انه يخضع لقوانين الولادة والحياة والموت البيولوجية. هذا هو الطرف الذي كان بمثابة ذريعة لبيلاجة النشاط غير المادي للانسان وسلوكه الاجتماعي. كان الكُتّاب البرجوازيون منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، يُروجون للداروينية الاجتماعية، وهي نظرية تتخذ نقطة انطاقها من الافتراض القائل بأن السمات الرئيسية للشخصية الانسانية تُحددها الوراثة وتنتقل الى سلالاته. استناداً الى هذه الحتمية الجينية الصارمة المزعومة للسلوك الاجتماعي وتجاهل الطبيعة المُميزة للعلاقات الاجتماعية نوعياً، يعتبر الداروينيون الاجتماعيون الصراع من أجل البقاء وانتقاء البشر المُتكيفين بيولوجيا كعامل قوي وحاسم. ترتبط الداروينية الاجتماعية وتحسين النسل العنصرية في أفكارهم ارتباطاً قوياً.

وكفويض للداروينية الاجتماعية، ظهرت نظرية ترى أن العامل الرئيسي في التقدم الانساني هو انتقاء الأنواع البيولوجية الانسانية ليس بالميل نحو الصراع، ولكن على العكس من ذلك، بل بالميل نحو المساعدة المتبادلة داخل المجموعة. كان بيوتر اليكسيفيتش كروبوتكين (1842-1921) Pyotr Alexeyevich Kropotkin



بيوتر اليكسيفيتش كروبوتكين

ان كلا المقاربتين وحيدتي الجانب من وجهة نظر الماركسية، لأن كليهما لا يأخذان بعين الاعتبار الديالكتيك الحقيقي للقوى المُحرّكة لتطور الانسان وفي الانتاج. اختزلَ هذان الاتجاهان التطور الاجتماعي الى عوامل بيولوجية، بدلاً من تحليل العمليات الحقيقية للتطور التاريخي للانسانية. لم يتم أخذ حقيقة أن الانسان هو رابط مُميّز ومُختلف نوعياً في التطور الطبيعي للحياة على الأرض بعين الاعتبار. لقد شهدَ تاريخ الحياة نقطتيّ تحوّل. الأولى هي ظهور الحياة نفسها على أساس التطور العفوي للطبيعة غير العضوية. ارتبط هذا الانتقال بظهور تفاعل مُختلف نوعياً للبروتينات والأحماض الأمينية في نظام الخلية مصحوباً بتفاعل عميق بين هذا النظام والبيئة الخارجية. استمر كل التاريخ اللاحق للحياة على أساس نمو وتعميق مكونات التطور العفوي، ولكن على أساس تأثير تشكّل العوامل البيئية الخارجية. كان على الكائنات الحية أن تتكيف مع ضوء الشمس كمصدر للطاقة، مع تأثير الجاذبية وتنفس الأوكسجين والحياة في الماء وعلى اليابسة ومع الوجود في ظروف بيئية وجغرافية متنوعة، وهكذا دواليك. ظهرت الحياة نفسها بشكل يتلائم مع ظروف كوكبنا طوال تاريخه. نشأت وحدة ديالكتيكية حقيقية بين الكائن الحي والبيئة، من جهة بسبب ظهور الاستقلالية المُتزايدة لظواهر الحياة، ومن جهة أخرى بسبب اعتمادها النوعي على الظروف البيئية. تغيّرت الأمور جذرياً مع ظهور الانسان. كان نشوء الوعي، الذي ميّز نوعياً الانسان عن عالم الحيوان، عمليةً طويلة ومُعقدة. كان يجب أن يكون هناك شكل جديد من حركة المادة-أي المُجتمع- من أجل تطوره (تطور الوعي). يقول ماركس: "أنه يجب أن تتوافر للبشر امكانية العيش لكي يكون في مقدورهم أن (يصنعوا التاريخ). بيد أن الحياة تشتمل قبل كل شيء على المأكل والمشرب والمسكن والملبس وأشياء عديدة أخرى. وهكذا فان العمل التاريخي الأول هو انتاج الوسائل الضرورية لأجل تلبية هذه الحاجات، انتاج الحياة المادية ذاتها... والنقطة الثانية هي أن تلبية الحاجات الأولى (عمل التلبية وأداة التلبية التي تم اكتسابها) تدفع الى حاجات جديدة-وهذا الانتاج لحاجات جديدة هو الفعل التاريخي الأول"¹. خضعَ الدماغ الانساني، نتجيةً لتطور العلاقات الاجتماعية، لتغيرات

¹ - الايديولوجيا الألمانية، ماركس وانجلز، ترجمة فواد أيوب، دار الفارابي 2016، ص46، 47

وبالتالي ظهر الوعي. كل هذا أدخل الانسان في عملية لانهائية من تحصيل المعرفة عن العالم وعن ذاته. اندمج النشوء الانساني Anthropogenesis بالنشوء الاجتماعي. sociogenesis ارتبط ظهور الانسان كشخصية مُفكّرة بتطوير قدرته على انتاج أدوات العمل، وهذا ما يُميّز الانسان عن كل الحيوانات.

تُظهر قدرة الانسان على التأثير بالطبيعة وتحويلها في سياق نشاطه الانتاجي أنه في المراحل الأولى لنشوء الانسان، كان الانتقاء الجماعي على أساس بيولوجي قادراً على المُضي قُدماً عن طريق انتقاء مجموعات ذات قُدرات عالية لانتاج أدوات العمل، أي بنمو متفوق للدماغ. ارتبط نجاح هذه المجموعات بتطور الكلام وظهور الاستمرارية في أشكال السلوك الاجتماعي في ظل ظروف اجتماعية مُعطاة. كانت هذه أبرز لحظة في تاريخ البشر. تطوّر الكلام الذكي من احتياجات الناس في عملهم. لم يتطلّب تطوّر أشكال السلوك الاجتماعي التي تتم عن طريق الجماعة تطوراً بيولوجياً. لقد استند على البنية البيولوجية لأداة دقيقة للغاية وهي الدماغ. بدأ الانسان في الفترة التي أعقبت اكتمال النشوء الانساني، يتشكل كشخصية فكرية تحت تأثير التربية والارث الاجتماعيين. توقّف الانتقاء الطبيعي عن لعب الدور الحاسم بعد أن دخّل الانسان مجال العلاقات الاجتماعية. أثبتت الأسس البيولوجية للانسان في المرحلة التي وصلت لها أنها مُناسبة تماماً لتلبية الاحتياجات الاجتماعية لتطور دماغه. أفسح الموروث البيولوجي المكان للموروث الاجتماعي، وهو ما يُميّز تقدّم الانسان ككائن اجتماعي. بدأت المبادئ الأخلاقية للسلوك الانساني تتبلور كاستجابة لمقتضيات المصالح الاجتماعية الكامنة في عمق هذا الظرف الاجتماعي المُتمثّل بتطوّر قوى الانتاج وتفاعلها مع العلاقات الاجتماعية. انه لمن الخطأ الفادح تشبيه الفئات السلوكية الانسانية الأساسية بتلك الحيوانية. تمتلك الحيوانات أنواعاً من الغرائز وردود الفعل تجاه التأثيرات البيئية، والتي تُحددها الجينات كقاعدة عامة، بشكلٍ صارم. يعتمد السلوك الانساني على العقل، ويرتبط وجوده بخصائصه كنوع بيولوجي بشكلٍ عام فقط. يتحدد السلوك الانساني بالفكر والارادة والمشاعر ومستوى معرفته لقوانين الطبيعة والمُجتمع ودرجة معرفته ذاته. كانت النظريات الفلسفية والأديان القديمة تتحدث حول "الطبيعة البشرية"، في حين أن الداروينيين وعلماء تحسين النسل يتحدثون اليوم حول أن طبيعة روح الانسان مكتوبة في جيناته. على النقيض من هذه التأكيدات، أثبتت الماركسية أن طبيعة الانسان تتشكل من خلال ظروف حياته التاريخية الملموسة.

أظهرَ التطور العميق لعلم الوراثة الحديث عدم صحة الداروينية الاجتماعية وعلم تحسين النسل والعنصرية من وجهة نظر العلم. لا يدور الجدل حول ما اذا كانت هناك اختلافات فيما يتعلق بالتركيب الجسدي للفرد وميوله وقدراته ووجود قدرات خاصة وما الى ذلك. ان وجود مثل هذه الاختلافات أمرٌ لا يُمكن دحضه. ومع ذلك، فان كل هذه الاختلافات تخلق أساساً، على الرغم من أهميته، الا أنه الأساس البيولوجي لأشكال مُختلفة من السلوك المُجتمعي والنشاط العصبي الأعلى للانسان، والذي لا ينفصل عن البيئة الاجتماعية. تكون أولوية تأثير البيئة الاجتماعية واضحة ولا شك فيها في تشكيل العالم الثقافي "الروحي" للانسان. تُشكّل الجماعة والبيئة الاجتماعية والاحتياجات الاجتماعية واعادة التنظيم الاجتماعي شخصية الانسان، حيث تندمج العوامل الفردية والاجتماعية. تتميز كل حُقية تاريخية بنمطٍ مُختلفٍ من الشخصية الانسانية، والتي تتشكل على أساس عملية تطور اجتماعية مُحددة. ولكن، كانت هذه العمليات تحدثُ بشكلٍ عفوي. تتميز فترة الاشتراكية بحقيقة أنه يتم طرح مسألة تشكّل الشخصية الانسانية باعتباره هدفاً ذا أهمية قصوى، ويتم التخطيط له بوعي في سياق بناء الاشتراكية والشيوعية. تجري حالياً اعادة تشكيل هائلة للشخصية الانسانية في الممارسة العملية تحت تأثير الجماعة والبيئة الاجتماعية الجديدة. في ضوء ذلك، فان تصريحات علماء تحسين النسل التي تُفيد بأن كمال الانسان يتطلب بالضرورة تغييرات جينية، وهو الأمر الذي يتطلّب اعادة التشكيل الجيني للانسان على مدار أجيال، تكشف عن نفسها بأنها يوتوبيا رجعية بشكلٍ واضح.

تُمارس العوامل الجينية تأثيراً جوهرياً على السمات الجسدية للفرد وعلى حقيقة أن العديد من الخصائص الفردية لعضو النوع species (الإنسان) يتشكل في عملية النشوء الجنيني. embryogenesis ولكن هناك ظرف واحد يُميّز الإنسان عن أي مُمثلٍ آخر لعالم الحيوان على الأرض، ويظهر هذا الظرف بمُجرد ولادته، وهو وجود الدماغ الإنساني. يتحدد تطوره في الجنين من خلال الشيفرة الوراثية. ولكن بمجرد أن تبدأ حياة الإنسان، حتى تدخل قوانين التفاعل بين الدماغ والبيئة الخارجة حيز التنفيذ، وهذا هو الذي يُشكّل محتوى عقل الشخص، في التحليل النهائي. ان قدرات الدماغ على تلقّي المعلومات وتطوير استجابات عامة تجاه البيئة الاجتماعية، أي المشاركة في العمليات التي تؤدي الى ظهور شخصية انسانية، هي حقاً غير محدودة. يحتوي الدماغ على 14 مليار خلية عصبية¹ وكل واحدة منها لديها 5000 وصلة مع الخلايا الأخرى. تتطور الحالات الخلوية داخل كل خلية. كل هذا يخلق امكانيات غير محدودة حقاً. ان الانتقاء الطبيعي الذي خلق الدماغ كجهاز فكري، وقَر منظومةً من الاتصالات التي تؤمن تدفقات هادفة من المعلومات ومعالجتها. ان المُجمعات المُندمجة تركيبياً والتي تنشأ في الدماغ غير مكتوبة في الجينات. انها استجابة الدماغ للبيئة ويُمكن أن تنشأ في الاجيال القادمة فقط في حالة وجود نفس العوامل البيئية.

كُل هذا يُظهر أنه على الرغم من أن الإنسان يولد انساناً من حيث قدراته، ويُظهر عدداً من المشاعر والاستجابات البشرية، الا أنه نتيجةً للتفاعل مع البيئة تنشأ شخصية الإنسان. من خلال الجماعة، يمتص وعيه نتائج التطور الاجتماعي الإنساني السابق ويُصبح قادراً على التنبؤ بالمستقبل. ان وجود الوعي يجعل الإنسان مُتكيفاً جداً بحيث أن كل حُقبَة من التاريخ تطوّر شخصية انسانية تتوافق مع احتياجاتها الخاصة، دون الاعتماد على التغيرات في الجينات من أجل هذا، بل فقط من خلال اعادة تشكيل الوعي. في ضوء هذا، تُصبح واضحةً تماماً الطبيعة غير العلمية لوجهات النظر التي كانت سائدة حول "الطبيعة الانسانية الأبدية" المزعومة لصفات الإنسان الخيرة والشريرة، مثل التضحية بالنفس وغريزة المُلْكِيَّة الخاصة والعدوان والاجرام وغيرها.

لقد قلنا أن حجر الزاوية للمفاهيم المعاصرة حول وراثية وتطور جميع الكائنات الحية، بما في ذلك الإنسان، هو فرضية أن الوراثة والبيئة تُشارك في تشكيل جميع الخصائص. ومع ذلك، فان أخطاء أتباع علم تحسين النسل والداروينيين الاجتماعيين تكمن على وجه التحديد في فشلهم في فهم التميّز النوعي للوعي الإنساني باعتباره خاصيةً انسانية. لا يمتلك الإنسان السمات البيولوجية المُعتادة فقط، مثل لون العيون، وفصيلة الدم، وشكل الأنف والأذن وما الى ذلك، بل يمتلك خصائص العقل. يتحدد الدماغ وامكانية الوعي على هذا النحو من خلال البرنامج الجيني، ولكن كيف يتطور الدماغ، وما الذي سيكونه مُحْتَوَى الوعي، هذان الأمران سيكونان مُرتبطان بالمعنى الأساسي بتفاعل الفرد مع الآخرين ومع البيئة الخارجية. يجب أن يكون مفهوماً أنه عندما تنتقل الى عالم تشكّل شخصية الفرد، فاننا ندخل منطقةً جديدةً نوعياً. توقّر الشيفرة الوراثية امكانية ظهور شخصية، والظروف الاجتماعية تُحوّل هذه الامكانية الى واقع في عملية النشاط الإنساني للعمل والانتاج الاجتماعي، والتي تتضمن تطويراً للغة، والتي تؤثر بدورها على تشكّل الفكر المنطقي المُجرّد. وبسبب كل هذا، من الواضح أن التلبية الطبيعية للاحتياجات البيولوجية للإنسان هو شرط مهم لحياة ثقافية متناغمة ومتكاملة.

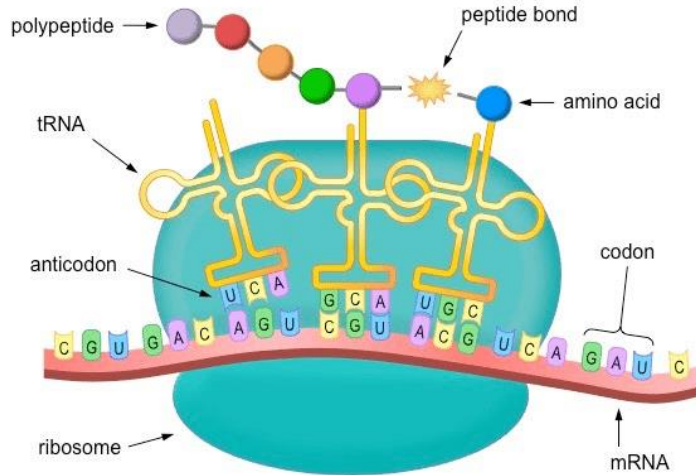
¹ - يعتمد المؤلف على البيانات العلمية التي سادت في سبعينيات القرن العشرين. هناك دراسة حديثة صدرت عام 2009 تقول بأن عدد الخلايا العصبية في الدماغ الإنساني هو 86 مليار خلية عصبية:

Herculano-Houzel S. The human brain in numbers: a linearly scaled-up primate brain. Front Hum Neurosci. 2009. doi:10.3389/neuro.09.031.2009

ان تدفق البيانات العيانية حول الجينات الانسانية كبير بشكل استثنائي. عُقد المؤتمر الدولي حول علم الوراثة الانساني، الذي شارك فيه العلماء السوفييت في باريس أيلول عام 1971. أظهر المؤتمر النطاق الهائل للأبحاث الفرعية الفسيولوجية والسريرية والبيوكيميائية والجزيئية والسكانية المتعلقة بعلم الجينات. تم بالفعل وصف حوالي 2122 جيناً مندلياً مُتحوراً في الانسان¹، وتم اثبات وجود طفرات سائدة ومُتحتية والعديد من الجينات الموجودة في الكروموسومات الجنسية. أظهرت الدراسات التي أُجريت على التوائم وأنواع أُخرى كثيرة من الدراسات الجينية أن المعلومات الجينية التي تُشكل السمات الوراثية لكل انسان تتجلى بقوة استثنائية. تم اثبات الظهور المنتظم للأمراض الوراثية والتحديد الجيني للعديد من أمراض القصور العقلي ووراثة القدرات الانسانية، وما الى ذلك.

لا تختلف القوانين الوراثية في الانسان بأي شكل من الأشكال عن القوانين المُماثلة في الحيوانات. ليس هناك شك في أن المعلومات الجينية البشرية مكتوبة في جزيئات الحمض النووي DNA. يتأتى هذا من الحقائق التي جمعها علم الوراثة الخلوية البشرية وعلم الوراثة الجزيئية التي أوضحت الدور الجيني للكروموسومات وجزيئات ال DNA التي تتوضع فيها الجينات البشرية.

كشفت دراسات علم الجينات الجزيئي المحتوى الأساسي لبرمجة تخليق البروتينات تحت تأثير الجينات. لقد ثبت أن ادخال حمض اميني الى ببتيد ثنائي (بولي ببتيد) polypeptide يتم ترميزه بواسطة قواعد نيتروجينية ثلاثية (كودونات) codones، وهي مجموعة خاصة بكل جين.



ادخال حمض اميني الى ببتيد ثنائي ترمز بواسطة الكودونات

لقد ثبت أن الشيفرة الجينية عالمية وتنطبق على جميع أشكال الحياة. ينطبق هذا التشفير على الفيروسات والبكتيريا والنباتات والحيوانات والانسان. لم يصل مفهوم وحدة الحياة الى هذا العمق من قبل. ان وحدة الحياة على الأرض، وأصل الانسان من أعماق التطور البيولوجي على الأرض واضحان كل الوضوح. ان جميع النظرات المتعلقة بكون أن الانسان من أصل إلهي مُتميز، أو نظرات الحالمين بأن الانسان ظهر على الأرض في وقت سابق من الفضاء الخارجي كمبعوث من الحضارات الأخرى، تفقد معناها في ضوء حقيقة

¹ - V. A. McKusick, Mendelian Inheritance in Man, 2nd ed., Baltimore, 1968

وحدة الشيفرة الجينية لكل العضويات الحية على الأرض، من الفيروس وصولاً إلى الإنسان. إن قانون عالمية الشيفرة الجينية هذا بالذات، يفتح آفاقاً واسعة للتدخل في الطبيعة البيولوجية للأشكال العضوية. تُطرح المسألة حول الاستخدام الواسع للتهجين البعيد على المستوى الجزيئي، مع استدخال بعض العناصر المطلوبة من البرنامج الجيني إلى الكائن الحي. بهذه الطريقة تفتح إمكانية العلاج الجيني للأمراض الوراثية لدى الإنسان. ترتبط العديد من الأمراض البشرية بحقيقة أن بعض الجينات الطافرة فقدت القدرة على تخليق إنزيم مُعيّن يُشارك في سلسلة التخليق الحيوي. أُجريت تجربة في عام 1971 بمساعدة فيروس يُصيب البكتيريا، حيث تم إدخال الجين المطلوب من بكتيريا من أجل إنتاج هذا الإنزيم في الخلايا المأخوذة من مريض يُعاني من الجالاكتوزيميا، وتم علاج هذه الخلايا. تم تحقيق إنشاء إمكانيات رائعة حقاً للتغيير الموجّه لوراثة الأشكال العضوية.

كل هذا يدل على وحدة العالم العضوي، ووحدة الإنسان بباقي الكائنات الحية. ومع ذلك، فإن وجود الوعي والعمل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية قد جعله يتميز عن غيره ويرتفع فوق أشكال الحياة الأخرى. تتشكل شخصية الإنسان، على هذا الأساس بالذات. لكن محاولات توظيف الحقائق حول توريث الخصائص البيولوجية كأساس لفهم شخصيته هي مثال نموذجي للموقف أحادي الجانب في معالجة أهم المسائل حول طبيعة الإنسان. يظهر المرء، بهذا النوع من المقاربة، بمحاكاةٍ سخيفة لفهم جوهر الإنسان، لأنه عندما يفعل هذا، لا يأخذ في الاعتبار مجموع التناقضات الكامنة خلف وجوده. هذا النهج لا يأخذ في الاعتبار عدا جانب واحد من جوانب الوجود الإنساني، وهو الجانب المرتبط بعمل البرنامج الجيني.

والحقيقة، هي أنه بسبب وجود الوعي، فإن الإنسان، باعتباره مُتميزاً عن جميع الحيوانات، قد أنشأ برنامجاً آخر بالإضافة إلى البرنامج الجيني، وهو برنامج يُحدد تطور شخصيته، والذي يُمكن أن يُطلق عليه برنامج الوراثة الاجتماعي¹.

يُعتبر التطور Evolution الجيني لأي نوع Species عمليةً بطيئةً نسبياً. إن سرعة التقدم الاجتماعي لا تدع مجالاً للشك في أن تطوّر الثقافة المادية والفكرية لا يقوم على التغيرات الجينية للبشر. تكمن ميزة الإنسان التطورية Evolutionary الهائلة في حقيقة امتلاكه للوعي الذي نشأ أثناء التطور، والذي لم يُتيح له أن يُكيّف نفسه مع بيئته وحسب، بل وأن يُغيرها أيضاً. إن العقل الإنساني قادر على إدراك جميع الظواهر المُتناقضة دون حدود، سواءً العالم الخارجي أم عالمه الداخلي. من خلال استيعاب نتائج تطور القوى المُنتجة في وعيه، يقوم الإنسان، الذي نشأ على أساس تصوّر برنامج اجتماعي أكثر تعقيداً باستمرار، بنقل عالمه الروحي (الثقافي) إلى كل الجيل اللاحق. إن القفزة الثقافية الرائعة في الثمانية أو التسعة آلاف سنة الماضية، من وجود حضارات عظيمة مثل الآشورية والهندية والصينية والمصرية والمكسيكية واليونانية والرومانية، وسنوات العصور الوسطى القاتمة في أوروبا، والطفرة الثقافية الجديدة في القرن الخامس عشر، وأخيراً التحولات الاجتماعية والثورية والثورية العلمية التكنولوجية التي تحدث في عصرنا مؤديةً إلى تغيرات مُذهلة في علم الثقافة الإنسانية، إن كل هذه التغيرات لم تكن مصحوبةً بتغيرات جينية موجهة. من الواضح أن العامل الرئيسي في هذه العمليات العظيمة هو تطور قوى الإنتاج التي انعكست بطريقتها في "الموروث" الاجتماعي.

¹ - ee N. P. Dubinin, Genetika i budushchee chelovechestva, Moscow, "Znanie" Publishing House, 1971; same author, "Filosofskie i sotsiologicheskie aspekty genetiki cheloveka," Voprosy filosofii, 1971, Nos. 1-2

كل هذا يوضح، أن الوعي الاجتماعي، الموجود في شكل فلسفة وعلم وفن ودين وأفكار سياسية وما شابه، وكل أشكال السلوك المُصنَّف اجتماعياً في المُجتمع الانساني، مثل مفاهيم الخير والشر، ليست سوى الصورة المُركزة للموروث الاجتماعي.

لا يمكننا أن ننسى، لدن مُحاولاتنا لنقد اختزال الحياة الفكرية الانسانية الى الحياة البيولوجية، أن تطوّر كل فرد يحدث تحت التأثير المُشترَك للبرنامج الاجتماعي والجيني. لا أحد منا يستطيع أن يُحرر نفسه من المعلومات الجينية التي تلقاها من والديه. ان تنوّع البشر، وتميّز كل شخص في التكوين الجيني، هو ما يخلق أحياناً مشاكل معقدة في الجماعة. يجب ألا ننسى أن كل فرد يمتلك تنظيماً وراثياً فريداً يحوز على معيار خاص به في الاستجابة، أي كون أنه هو الوحيد الذي يتفاعل بطريقة مُعيّنة مع التأثيرات الاجتماعية والمادية المُحيطة. نحن هنا نتعامل مع الوراثة الجينية، التي توفر الأساس للخصائص الطبيعية الحيوية للانسان، والتي يتحد فيها وجود أسس مُشتركة مع التفرّد البيولوجي. كما لاحظَ ماركس بحق "الولادة تمنح الانسان الوجود الفردي وحسب، وهي تمنحه، فوق كل شيء الحياة كفرّدٍ طبيعي فقط"¹، بعد ذلك "فقط في المُجتمع يُمكن لـ"الانسان" أن يطور طبيعته الحقيقية، ويجب الحُكم على قوة طبيعته ليس من خلال قوة الأفراد المُنعزلين ولكن من خلال قوة المُجتمع ككل"².

بالطبع، فان الموروث الاجتماعي، يؤسس نفسه على السمات الجينية في برمجته سلوك الشخصية. في هذا الصدد، فان جينات كل فرد لها أهمية قصوى، ليس فقط في تأكيد خصائصه البيولوجية، ولكن في تحديد تصور البرنامج الاجتماعي. بسبب كل هذا، أثبت الوعي أنه قادر على استيعاب البرنامج الاجتماعي المُتنامي وهذا قدّم ضماناً كاملاً بأن الناس سيكونون قادرين على الاستجابة للتغيرات في وضعهم الاجتماعي على مدار التاريخ بأكمله. يكمن دور علم الوراثة الطبي والعام والجزيئي، بالاضافة الى علم الوراثة البشري، في حماية الوراثة الصحيحة للانسان وفي مُكافحة الطفرات المُنتجة للأمراض وفي التغيير الموجه لجينات المرضى الفرديين أو الأشخاص المثقلون بأمراض وراثية بدون تغيير الأسس العامة للمعلومات الوراثية الموجودة.

مقولات الحرية والضرورة في ضوء مسألة الوراثة الاجتماعية

ان الحرية والضرورة هي مقولة فلسفية تُبرز العلاقة المُتبادلة بين النشاط الانساني والقوانين الاجتماعية والطبيعية الموضوعية. تعترف فلسفة المادية الديالكتيكية، بالمعنى الاستمولوجي، بأولوية الضرورة والطبيعة الثانوية للارادة والوعي الانسانيين. ظل الانسان الذي لا يعرف القوانين الموضوعية للطبيعة والمُجتمع، في بداية تاريخه، عبداً للضرورة العمياء. أتاح تطور العلم والعلاقات الاجتماعية للانسان معرفة طبيعة الضرورة والاستفادة الواعية من هذه المعرفة. ومع ذلك، تكون العلاقات الاجتماعية في المُجتمع الطبقي مُعادية للشغيلة وتُهيمن عليهم. يتم التخلص من الاضطهاد الاجتماعي في عملية الثورة الاشتراكية. تبدأ قوانين الطبيعة وقوانين المُجتمع في خدمة الانسان. وتحدث قفزة من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية كما قال انجلز. أظهرَ البناء العملي للاشتراكية الطريق الى التطور المتناغم للشخصية في تلك الظروف الفكرية والمادية التي نشأت في فترة تطور المُجتمع الاشتراكي.

¹-- K. Marx and F. Engels, Soch., Vol. 1, p. 342

² - Ibid., Vol. 2, p. 146

انتقد لينين بشدة المناهج النظرية والعملية التي ترى أن طبيعة الانسان لا تتغير وأنه قد وُهبَ غريزة الملكية الخاصة وغرائز أخرى منذ البدء. أعلن أنصار هذه الآراء، الذين أكدوا أن بناء الاشتراكية محكومٌ عليه بالفشل، أنه من الضروري أولاً خلق نوع خاص من البشر قادر على العمل كـ "مادة جديدة" لبناء الاشتراكية. كتب لينين في فضح زيف هذه الأفكار: "نريد أن نبني الاشتراكية بهؤلاء الناس الذين ربّتهم الرأسمالية وشوهِتهم وأفسدتهم، ولكنها بالمقابل مرّستهم للنضال... نحن نريد أن نبني الاشتراكية فوراً من المادة التي خلفتها لنا الرأسمالية، بين عشية وضحاها، الآن بالذات، لا من أولئك الناس الذين يُستتَبَتون في المناكب المُدْفأة، اذا تسلينا بهذه الحكاية¹."

في عصرنا، أصبحت مُقاربة لينين حول تشكيل شخصية باني الاشتراكية مُلحة بشكلٍ خاص: بناء الشيوعية لتشكيل انسانٍ جديد، وتشكيل انسان جديد لبناء الشيوعية. تذكروا كلمات ماركس: "ان الجوهر الانساني ليس تجريباً مُلزاماً للفرد المُعزل، فهو في حقيقته مجموع العلاقات الاجتماعية كافة"².

على الرغم من الأهمية الواضحة لتأثير التربية والبيئة الاجتماعية على تأسيس شخصية الانسان، لا يزال هناك عدد من علماء الوراثة الذين يعتقدون أن شخصية كل فرد وسلوكه الاجتماعي يتحددان من خلال برنامج وراثي. يؤكد علماء الوراثة هؤلاء أن الوراثة البشرية هي مجال بيولوجي خاص له قوانينه الثابتة الخاصة به. لا تفعل الجمعة أي شيء في هذا المجال. تدفع هذه المفاهيم هؤلاء المؤلفين الى الاعتقاد بأن تقدم صفات الانسان الروحية يتطلب تغييراتٍ جينية.

ان نظرية الحاجة الى اعادة تشكيل الانسان بيولوجياً تضع البشر في حالة اعتماد شبه استعبادية لجيناتهم. فمن ناحية، تُعبّر التغييرات الاجتماعية غير كافية لتغيير طبيعته، بينما، من ناحية أخرى، نحن شبه عاجزين عن تغيير الجينات البشرية. ان هذه مُقاربة عاجزة، تاركة الانسان في موضعه القديم السابق بشكلٍ قاتل، لأنه لا أحد يعرف طرق أو وسائل أو اهداف اعادة التشكيل البيولوجي هذه. بالإضافة الى ذلك، وبالنظر الى عدم امكانية تطبيق هذه الفرضيات، فانها ستكون عمياء في تقييمها للامكانات الجينية الحالية للبشر. لقد مرّ الانسان المُعاصر بتغييرات اجتماعية هائلة في مجرى تاريخه ودخل الآن حُقبَةً خلق فيها أكثر أنماط الحياة انسانية للناس في ظل الاشتراكية. ان معنى حياة الانسان الجديد وكفاحه يكمن في خلق ظروف انسانية حقيقية لوجود جميع البشر على الأرض.

تُظهر الحقائق العلمية المُستمددة من علم الوراثة الحديث بأقصى قدر من الوضوح أنه لا توجد مُعادلات مُباشرة لتشكيل شخصية الانسان طريق البيولوجيا. يقوم كل فرد، وفقاً لخصائصه الطبيعية، ببناء شخصيته بطريقة ابداعية في سياق الجمعة على أساس الظروف الاجتماعية الملموسة. بهذا المعنى، يخلق كل شخص نفسه عاكساً للعلاقات الاجتماعية السائدة في عصره. انه يجمع في نفسه أشكال السلوك الاجتماعية وتفرّد شخصيته. يتمتع الانسان بخصائص بيولوجية لنوع الهومو سابينيس *Homo sapiens*، ويمتلك امكانات غير محدودة لتطوّر وعيه.

لا تضع البيولوجيا قيوداً الزامية على التطور الاجتماعي للانسان، الذي لا يعرف تفكيره حدوداً لتطوره. يبني البشر علاقاتهم الاجتماعية بوعي في ظل الشيوعية، ويوسع العلم باستمرار ضرورة قوانين الطبيعة من

¹ - المُختارات في 10 مجلدات، فلاديمير لينين، دار التقدم 1977، ص411

² - موضوعات عن فويرباخ، كارل ماركس، دار التقدم، ص2

أجل استخدام البشر لها. كل هذا ينقل الانسان الى مملكة حقيقية من الحرية ذات آفاق غير محدودة لتقدم عبقريته، حرته الحقيقية.

حول الامكانية الجينية للبشر

يعتمد تصور وطابع تغيّر البرنامج الاجتماعي على ثقافة الناس ومستوى معيشتهم. وهذا يوضح أنه من الممكن تحقيق تحسين أساسي للجنس البشري من خلال التأثير على البيئة ورفع مستوى المعيشة والثقافة تحديداً. حتى يومنا هذا تستمر النظريات العنصرية التي تستند الى حقيقة وجود أعراق متنوعة، بطريقة غير مُبررة علمياً، بالسعي الى ايجاد عدم تساوي بيولوجي غير موجود أصلاً بين الأعراق. والحقيقة أن كل الناس من جميع الأعراق يمتلكون برنامجاً اجتماعياً موروثاً وعقلاً يفتح أمامهم طريقاً للوصول الى أعظم مصافي الثقافة الفكرية والنشاط المادي.

ان الاعتراف بحقيقة أن التطور الاجتماعي للبشر، سيئني، لفترةٍ طويلةٍ قادمة، على أساس نظام وراثي ديناميكي مستقر كأساساً للبشرية جمعاء، لا يحوّل على الاطلاق النمط الجيني للانسانية الى شيءٍ مُعطى الى الأبد ولا يتغير بعد ظهور الانسان كما هو موجود الآن. ان الأمر هو أنه مُجرّد مسألة وقت. في حين أن التطور الاجتماعي يسير بخطوات كبيرة في عصرنا هذا ويتسارع باستمرار، فان هذا لا ينطبق على التطور الجيني للانسان. تقدّم الناس السوفييت، في غضون جيلٍ واحد من الرأسمالية الى الاشتراكية. يا لها من تغيرات هائلة يمر بها عالم الروح الانسانية، ويا لها من معلومات هائلة تلك التي يستوعبها ويُعالجها المُجتمع! يحتاج التطور الجيني عشرات ومئات آلاف بل وملايين السنين. يسير التطور الاجتماعي أسرع بما لا يُقاس من التطور الجيني، لذلك سيحدث التقدم الاجتماعي، على الأقل في العقود القادمة وربما لعدة قرون وحتى آلاف السنين دون أي تغيرات مُهمة في التركيب الجيني البشري.

ان الامكانيات الجينية للبشرية المُعاصرة لا تنضب حقاً. علاوةً على ذلك، من الضروري ملاحظة أن التغيرات التاريخية في المُجتمعات البشرية خلال آلاف السنين منذ ظهور الانسان قد سارت باتجاه تعميق فُرص استمرار تحقيق فدراته الموروثة. كان يُمثّل الانسانية، منذ فجر وجوده، مجموعاتٍ صغيرة. ان النمو السكاني (الذي بلغ كثافةً هائلةً في عصرنا) يخلق ظروفاً أفضل من أي وقتٍ مضى لتحقيق الامكانيات الجينية لجماهير الناس. تطرح دراسة مسائل الجنس البشري في ضوء مُعطيات علم الوراثة عدداً من المشاكل الرئيسية في المنهجية. لم تتلق مسألة بُنية طابع المُجتمع الانساني من هذه الزاوية اهتماماً كافياً. لم يتم توضيح مسألة الدور الذي يلعبه كل فرد بشخصيته الفريدة وتناقضاته الداخلية وامكانية استيعاب كل الأعماق والصلات اللامتناهية مع العالم والناس. هناك حاجة الى النظر في مسألة ثراء ثقافة الانسان ككائن اجتماعي بالتزامن مع سماته الشخصية التي لا تُضاهى بسمات الآخرين. تُفلت هذه المُشكلة العميقة تماماً من انتباه أولئك الذين يختزلون الانسان الى مكوناته البيولوجية وحدها، والذين هم غير قادرين على فهم جوهر الانسان ككائن بيو-اجتماعي.

في ضوء النظر في السمات النوعية للانسان باعتباره كائناً يمتلك وعياً، من الضروري التأكيد بوضوح على أن ظهور نظرية البرنامج الاجتماعي يُحرر أخيراً علم الوراثة بشكلٍ أساسي من قيود اختزال عالم الانسان الروحي والاجتماعي الى ما هو بيولوجي. تُعرّي نظرية البرنامج الاجتماعي الطابع اللاعلمي لادعائات علوم مزعومة مُعادية للانسانية مثل تحسين النسل والنظريات العنصرية (العرقية). في ضوء المعطيات حول

تفاعل ما هو اجتماعي مع ما هو جيني في تطور الشخصية عقلياً وأخلاقياً تبرز مشكلة الاختزال، وأهمية مقولة (الكليّة) بشكل كامل.

بالانتقال الى ما يتعلق بالانسان، يُمكن للمرء أن يؤكد أن المُكوّن الرئيسي لهذه الظاهرة المُعقدة هو الوعي، لأن هذا هو الذي يخدم بمثابة الأساس لامكانات البشر غير المحدودة. في ضوء ذلك، من الواضح أن دراسة الطريقة التي يتم بها استيعاب البرنامج الاجتماعي وبُنيته في عمليات تطور الشخصية هي واحدة من أهم أكثر المشاكل المنهجية عملياً ونظرياً، ولكن الأكثر تعقيداً في يومنا هذا. في هذا الصدد، فإن المعرفة في إطار العلوم الطبيعية، التي تكشف عن الطبيعة الحقيقية للنظام، تندمج مع الدراسة الفلسفية للكُل، لأن موضوع الدراسة هو عملية اكتساب المعرفة بحد ذاتها.

كل هذا يُبين أن مذهب البرنامج الاجتماعي، وتفاعله مع البرنامج الجيني يفتح الباب على مصراعيه لتغلغل فلسفة المادية الديالكتيكية في علم الوراثة. يدور اليوم صراع ايديولوجي شرس حول مسائل الانسان والجينات. ان حدة هذا الصراع مفهومة تماماً، لأن مُستقبل الشيوعية مُرتبط بالانسان على وجه التحديد.

خاتمة

لقد مرت خمسون عاماً على ظهور مقال لينين (حول معنى المادية المُقاتلة). لقد كانت هذه السنوات هي سنوات وصول بلادنا الى مُجتمع اشتراكي ناضج يتميز بعلم قوي قائم على تحالف علماء الطبيعة والفلاسفة، وهي فكرة قَدّمها لنا لينين. يتميز عصرنا، بعد المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي، ببيئة ابداعية وبامكانات استثنائية لتطوير العلوم، ونمو المحتوى الفكري للمُجتمع. كل هذا يتحقق بالعمل والنضال. مر تحالف علماء الطبيعة والفلاسفة، في تاريخه بأحداث مُعقدة. تستند مبادئ لينين الى التعميمات الفلسفية لمسائل علوم الطبيعة. كان تاريخ تطور التحالف بين الفلاسفة وعلماء الوراثة مُعقداً ومتناقضاً. أصبح هذا التحالف أقوى تدريجياً وترسخت في المناقشات النظرية الحادة. كانت هذه المناقشات في البداية تدور حول اللأدرية وعلم الوراثة الذاتي واللاماركية ومن ثم حول ليسينكو. اليوم يُمكننا النهج اللينيني، القائم على مجموع البيانات والأفكار المُعاصرة، من النضال بنجاح ضد اختزال الظواهر الاجتماعية الى بيولوجية، وضد مظاهر هذا الاختزال في المُجتمع الرأسمالي المُرتبطة بتبرير الابادات الجماعية وسياسة الابادة البيئية الوحشية التي تنتهجها القوات المسلحة الأمريكية في فييتنام، وسياسة شن الحرب النووية والايديولوجيا الصهيونية العنصرية والأحزاب الفاشية الجديدة في الولايات المتحدة وألمانيا الغربية.

لقد وَقَعَ عليّ أن أكون مُشاركاً نشطاً في جميع تلك الأحداث الرئيسية في جبهة تطوير وترسيخ تحالف الفلاسفة وعلماء الوراثة. كان هناك العديد من النقاشات والانحرافات والأخطاء على طريق النضال من أجل المبادئ المادية الديالكتيكية في علم الوراثة. نحن نرى، بالنظر الى السنوات التي مرّت، كيف رأى لينين مُستقبل العلوم الطبيعية بعمق وواقعية. تم تنفيذ المبادئ التي عبّر عنها لينين عام 1922 في مقالته (حول معنى المادية المُقاتلة) وأصبحت جزءاً من جميع الجوانب الرئيسية للثورة العلمية التكنيكية. ان علم الوراثة هو ابن المادية الديالكتيكية على المستوى الفلسفي. انه أحد جوانب التغلغل العميق في جوهر الحياة كشكل خاص من أشكال حركة المادة. يتم التأثير بشكل ابداعي على الانتاج والطبيعة الحية والانسان من خلال ارتباط علم الوراثة بالزراعة والطب. اكتسب الاحاد العلمي ترسيخاً أكبر وتقوى أكثر من خلال دعم علم

الوراثة له، لأن الإنسان يظهر، في ضوء معطيات هذا العلم، كحلقة وصل طبيعية في تطوّر Evolution الحياة وكظاهرة تمتلك سمة جديدة في شكل الوعي ونشاط العمل الاجتماعي.

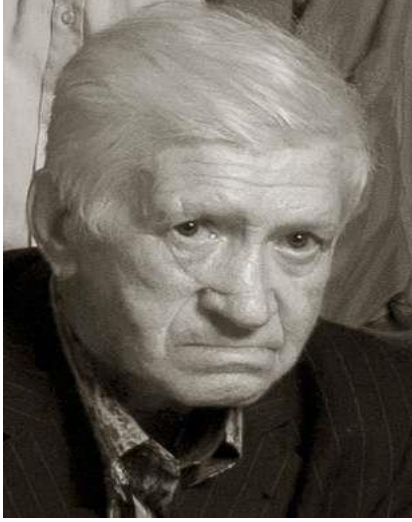
يفتح العلم الطبيعي المعاصر أمام الإنسان صورةً جديدةً عن العالم. هذا مشروط بانجازات الفيزياء والكيمياء والسيبيرنتيك وعلم الوراثة الجزيئي والعلوم الأخرى. لقد أظهرت انجازات هذه العلوم مادية العالم ووحدته والديالكتيك العميق لتطوره. ظهر الإنسان الذي يمتلك الوعي، على أساس الشكل الاجتماعي لحركة المادة، - ظَهَرَ من حدود الأشكال البيولوجية والكيميائية والفيزيائية لحركة المادة. كانت الحياة الاجتماعية والشخصية الإنسانية مُستحيلة الحدوث لولا مشاركة هذه الأشكال من الحركة، ولكن في نفس الوقت ارتقى الإنسان فوق كل شيء في العالم من خلال التحول الى شكل حركة جديد نوعياً، على أساس الارث الاجتماعي والوعي.

ان تطور التراث الفلسفي اللينيني يُلهمنا بالتفاؤل حول الإنسان. ليس هناك ما هو أسمى من الإنسان، وفي المستقبل سنتفتح طريق واسعة وسريعة أمامه من أجل تطوّر لامحدود لقوته وشخصيته في ظل الاشتراكية. ان البشرية لن تنسى أبداً العمل الفذ الذي قام به لينين، وعلى وجه الخصوص حقيقة أنه أقام علاقةً لا تنفصم بين العلوم الطبيعية في فترة أزمتهما والتي بلغت ذروتها في بداية الثورة في العلوم والتكنولوجيا، مع النظرية الفلسفية للمادية الديالكتيكية.

ترجمة من مقالة:

N. P. Dubinin (1972) Contemporary Natural Sciences and a Scientific World View, Soviet Studies in Philosophy, 11:3, 248-269

انجلز والداروينية

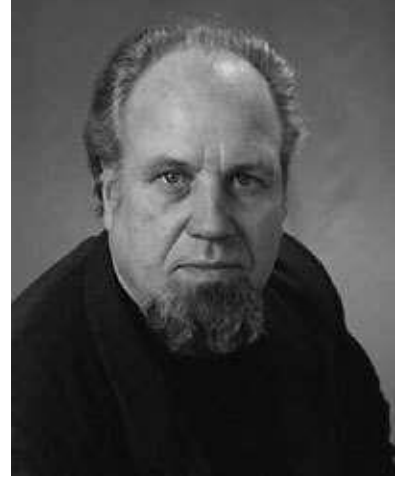


الكسندر جور جيفسكي بوريسوفيتش^{2*}



كيريل ميخائيلوفيتش زافادسكي^{1*}

- ^{1*} - كيريل زافادسكي 1910-1977 مؤرخ سوفياتي لنظرية التطور ومؤرخ للعلوم ودكتور في العلوم البيولوجية. تخرّج زافادسكي في عام 1932 من معهد لينينغراد التربوي وعمل من عام 1933-1938 ومن عام 1975-1977 في المعهد النباتي التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية، وكان أستاذاً مساعداً في قسم الداروينية في كلية البيولوجيا في جامعة لينينغراد من عام 1938-1942. كان في الميليشيا الشعبية في الأعوام من 1941-1942 وشارك في معارك عدة في الحرب العالمية الثانية وكان مُحاضراً في الإدارة السياسية. عمل منذ عام 1945-1967 في جامعة لينينغراد. وصار عضواً في الحزب الشيوعي السوفياتي عام 1951. مُنحت درجة دكتور في العلوم البيولوجية لزاغادسكي عام 1963. ومنذ عام 1967-1975 عمل في قسم تاريخ العلوم الطبيعية التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. ان مساهمة زافادسكي في تطوير عدد من المفاهيم حول الأنواع البيولوجية مُعترف بها بشكل عام. لقد رَوّج لأحدث مُنجزات نظرية الأنواع في اطار النظرية التطورية، وانتقد اضعاء الطابع المُطلق على مفهوم النوع البيولوجي ودعم النظرية التكافلية symbiogenesis في التطور ودرَس تاريخ نظرية الأنواع، وطوّر القضايا المُتعلقة بتحديد الأنواع البيولوجية وبنائها والعلاقات بينها. تم تدريس الجانب التطبيقي الذي عمل عليه زافادسكي حول مناهج نظرية التطور لأكثر من 20 عاماً في الجامعات السوفياتية. من مقالاته: (نحو فهم تقدّم الطبيعة العضوية) من كتاب مجموعة مقالات حول مسائل تطور الطبيعة والمجتمع- 1958. (الأشكال الرئيسية لتنظيم العضويات الحية)- مسائل فلسفية بصدد البيولوجيا المُعاصرة، 1966
- ^{2*} - الكسندر بوريسوفيتش 1939-... دكتور في العلوم الفلسفية ومؤرخ فلسفة ومؤرخ للبيولوجيا والانتروبولوجيا التطورية، دَرَس في جامعة لينينغراد في كلية الفلسفة عام 1967 وتخرّج من دورة في معهد لينينغراد للاقتصاد التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية عام 1970. من أبحاثه: (مسألة التكيف، دراسة تاريخية نقدية) 1974، (تطور التكيف-بحث تاريخي ومنهجي) 1989.



أناتولي بافلوفيتش موزيلوف***

كتب انجلز في 12 كانون الأول عام 1859 مباشرةً الى ماركس بعد أن نشرَ داروين كتابه (أصل الأنواع)، يقول: "داروين الذي أقرأ له الآن: رائع! لقد تم الآن تحطيم الغائية التي لا تزال تحافظ على أحد جوانبها حتى هذه اللحظة. بالإضافة الى ذلك، لم تكن هناك حتى الآن محاولة شاملة لإثبات التطور التاريخي في الطبيعة الا من خلال هذا المؤلف"². وسُرعان ما قام ماركس أيضاً بتقييم الداروينية في 16 كانون الثاني عام 1861. في رسالته الى لاسال: "كتاب داروين بالغ الأهمية، ويخدمني كأساس طبيعي من أجل الصراع الطبقي في التاريخ"³. لذلك، ليس من قبيل المصادفة أن انجلز اهتم بعمق وشمول بنظرية التطور لدن تطويره مبادئ المادية الديالكتيكية ومسائل ديالكتيك الطبيعة.

ان العقل القوي والقدرة العملية لتطبيق منهج الديالكتيك المادي لتحليل البيانات العيانية، بما في ذلك المواد المُعقدة والجديدة مثل مسألة نظرية التطور، قد مكّن انجلز، بالاشتراك مع ماركس، من وضع بناء المادية الديالكتيكية. يجب توجيه اهتمام خاص الى حقيقة أن انجلز لم يُعمم فقط على مُجرّد استنتاجات أعمال علماء الطبيعة، ولكنه تعمّق في كل تفاصيل مجال العلوم الطبيعية التي بحثَ فيها. مكّن هذا النهج العياني والبحث المُتعمّق للمسائل الخاصة انجلز من الوصول الى استنتاجات مُتنوعة لم تكن ذات أهمية لنظرية التطور في عصره وحسب، بل احتفظت في نواحٍ كثيرة بقيمتها العلمية في عصرنا أيضاً.

***1 - أناتولي موزيلوف 1941، فيلسوف سوفياتي مُتخصص في مجال فلسفة العلوم والتكنيك، دكتور في الفلسفة وأستاذ وأكاديمي في أكاديمية. طرَح موزيلوف وأثبت أن الاصطفاء الطبيعي هو شكل من أشكال التطور الشامل، والذي يتكون من التفاعل العشوائي للأنظمة السببية والمشروطة. أظهر موزيلوف ديالكتيك القوى الدافعة للتطور كطريقة للتفاعل الصدفي، وآلية حل تناقضات الاستقرار والتنوع، والبناء والهدم.

تخرّج من كلية الفلسفة في جامعة لينينغراد عام 1968. صار منذ عام 1971 استاذ مساعد في قسم المادية الديالكتيكية في كلية الفلسفة في جامعة لينينغراد واستاذ مشارك في نفس القسم عام 1979. ورئيس لقسم الفلسفة في جامعة البلطيق التقنية الحكومية عام 1984. دافع عن اطروحته للدكتوراه عام 1987 (الديالكتيك المادي ونظرية القوى الدافعية لتطور العضويات). من أعماله: كتاب: (المسائل الفلسفية لنظرية الاصطفاء الطبيعي) 1983، كتاب: (الداروينية الحديثة وديالكتيك المعرفة البيولوجية) 1985، مقال: (مسألة تنظيم العملية التطورية)، 1978، مقال: (حول مشكلة القانون في نظرية التطور) 1980.

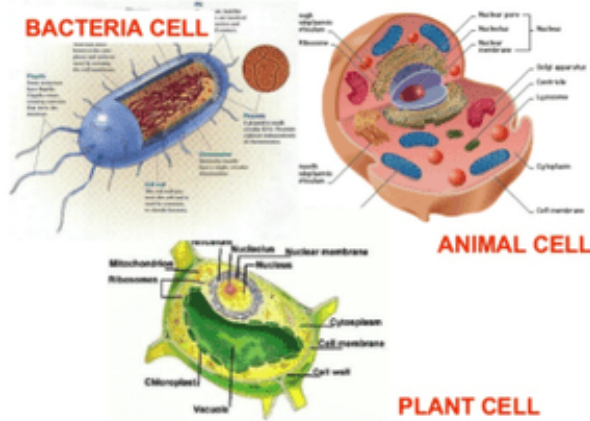
² - K. Marx and F. Engels, -Soch., Vol. 29, p. 424

³ - مراسلات ماركس وانجلز، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق 1981، ص141

كان انجلز على وجه الخصوص هو الذي أسدى خدمةً لتفسير المسائل الفلسفية لعلم الطبيعة على أساس المادية الديالكتيكية، وخاصةً المشاكل المنهجية التي طرحها تطور البيولوجيا في عصره. قدّم انجلز، في مجال المسائل الفلسفية في البيولوجيا، عدداً من التعميمات المثيرة للاهتمام. لقد طرَح تعريفاً لجوهر الحياة يحتفظُ الى حدٍ ما بصلاحيته حتى يومنا هذا، وقيّمَ عالياً دور نظرية الخلية في تعزيز النظرية المادية الديالكتيكية للطبيعة، وصاغ تصوراً أصيلاً حول أصل الانسان وقدّم تحليلاً مفصلاً لنظرية تطور المادة العضوية. وقف انجلز ضد منهج الفلسفة الطبيعية التأملية. كَتَب: "لم تكن المسألة بالنسبة لي هي بناء قوانين الجدلية في الطبيعة بل اكتشافها في الطبيعة واستخراجها منها"¹.

Cell Theory

1. All organisms are made up of one or more cells
2. All cells come from pre-existing cells.
3. The cell is the basic unit of structure and organization that performs life functions.



نظرية الخلية

أدرك انجلز بوضوح شديد أن تطور العلوم الطبيعية كان ثورياً بطبيعته وأنه أدى بالعلم الى منعطفٍ حاد. لقد لاحظَ أنه "من المُحتمَل أن يؤدي تقدم العلوم الطبيعية النظرية الى جعل عملي في جُزئه الغالب أو في مجموعه غير ضروري"^{2 3}. صار عددٌ من المسائل المُحددة التي تناولها انجلز، في سياق تطور المعرفة العلمية، أكثر تحدياً وملموسيةً. ومع ذلك، فإن مُقاربة انجلز المنهجية للمسائل قيد الدراسة والعديد من تقيّماته العيانية ظلت مُهمّة. تمت مُعالجة مسألة موقف انجلز من الداروينية ومعالجته لمشاكل نظرية التطور بشكلٍ مُتكررٍ في بلادنا. اننا نهدف الى بحث موقف انجلز من أهم مسائل تلك النظرية، والتقييمات التي طرحها بصدد الداروينية على خلفية المراحل الرئيسية في تطور نظرية التطور، وتحديد مدى أهمية أحكامه بالنسبة الى يومنا هذا.

1 - ضد دوهرينغ، انجلز، دار التقدّم، 1984، ص14

2 - نفس المصدر، ص18

*3 - ولكن "اذا استرسلنا في قراءة ما بعد هذا الاقتباس، سنرى أن انجلز يتحدث عن التفاصيل التكنيكية للنظريات العلمية حول الطبيعة، وبالتالي نقول، أن ما قاله انجلز حول (عدم ضرورة) عمله التألفي لا يتعلق باستنتاجاته الفلسفية الديالكتيكية الفذة في كتابه (ديالكتيك الطبيعة) و(ضد دوهرينغ)، انها مرةً أخرى، تفاصيلها التكنيكية فقط."

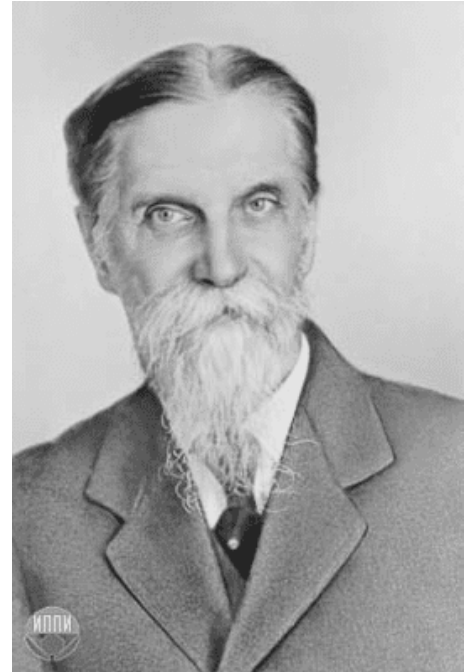
من كتاب معالم الهزيمة-مُداخلة نقدية حول كتاب هربرت ماركوز (الماركسية السوفييتية) ولبعض ملامح الماركسية الغربية في القرن العشرين، مالك أبوعليا، الكتاب منشور الكترونياً فقط، ص433

سرد موجز لحالة نظرية التطور في الفترة ما بين ستينيات القرن التاسع عشر وبدايات ثمانينياته

مرت النظرية التطورية بعدد من المراحل في تطورها من داروين الى يومنا هذا. ان نشاط انجلز في معالجة المشكلات الفلسفية لهذا الفرع من البيولوجيا يتعلق تاريخياً بمرحلتين فقط من هذه المراحل.

كانت المرحلة الأولى قصيرة للغاية. استمرت 5 سنوات 1859-1864. ترسخت فكرة التطور في البيولوجيا، خلال تلك السنوات. واكتمل النضال ضد المفهوم الميتافيزيقي حول أزلية الأنواع species. اتخذ التغيير في تفكير العلماء ومناهجهم في البحث مساراً حاداً. أثبتت حُجج داروين أنها مُقنعة للغاية لدرجة أن فكرة التطور

والمنهج التاريخي سرعان ما اتخذوا مكانةً مُهيمنةً في البيولوجيا، وأكد كليمنت تيميريازيف Kliment Timiryazev أن فكرة التطور قد حققت انتصاراً لا رجعة فيه لأنها اتخذت الشكل المُرتبط بالداروينية على وجه التحديد: كان تحديد أسباب التطور دافعاً لظهورها كواقع فعلي.



كليمنت تيميريازيف

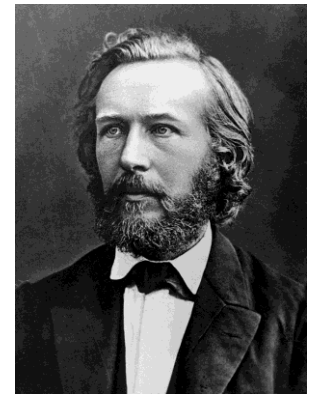
يُمكن أن تُرجع تاريخ بداية المرحلة الثانية الى عام 1865 عندما وجد داروين لنفسه مُعارضين لأول مرة، ليس من قِبَل المُعادين للتطور، بل من قِبَل أنصاره (كارل ناجيلي Carl Wilhelm von Nägeli و A Kelliker). نشأت الخلافات حول المسائل المُتعلقة بعوامل وأسباب العملية التطورية. استمرت هذه المرحلة حتى عام 1882 (17 عاماً). يُمكن اختصار مُحتواها الرئيسي الى التالي: كانت المنهجية التاريخية قد تغلغت الى البيولوجيا، وتطورت على هذا الأساس، مدرسة متشعبة واسعة في (علم النُظم، المورفولوجيا، علم الأجنّة، علم تاريخ العصر الحجري، الجغرافيا الحيوية). صارت مُهمة البيولوجيا التطورية الآن ليست التحليل السببي للعملية التطورية، بل اعادة انشاء الصورة التاريخية لتلك العملية. سيطر ارنست هايكل Ernst Haeckel على أذهان بيولوجيي تلك المرحلة.

حَدَّثَ تمايز واضح للمدارس الرئيسية في نظرية التطور, من ناحية، اكتمل تشكّل الجبهة الداروينية. ومن ناحيةٍ أخرى، وُجِدَت على الساحة مجموعة من الاتجاهات المُعينة المُعادية للداروينية) اللاماركية الجديدة، مذهب الطفرات الفُجائية mutationism-saltationism ، ومذهب النشوء التفضيلي (teleogenesis). تميّزَت جميع أشكال الداروينية بالاعتراف بالتناقضات الناشئة في عملية تفاعل العمليات البيولوجية (الاصطفاء الطبيعي) كأساس لتطور العالم العضوي.



كارل ناجيلي

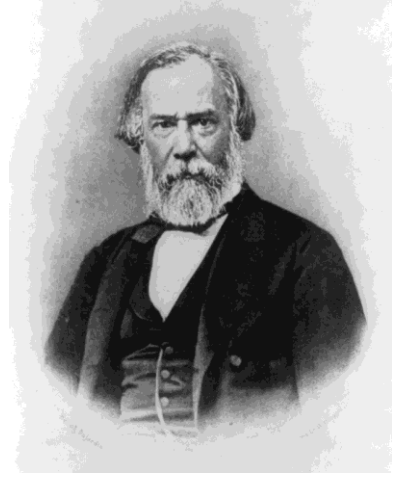
ومع ذلك، اعتبرت جميع المدارس المُعادية للداروينية التطور كعملية مُتناغمة غير متناقضة، تجري تحت تأثير قوى داخلية) النشوء الذاتي التلقائي (autogenetic أو خارجية مادية أو روحية) النشوء الخارجي ectogenetic. لذلك، يُمكن تصنيف جميع المُقاربات الداروينية للتطور على أنها دياليكتيكية موضوعياً وجميع أشكال مُناهضة الداروينية على أنها مذاهب ميتافيزيقية جديدة.



ارنست هايجل

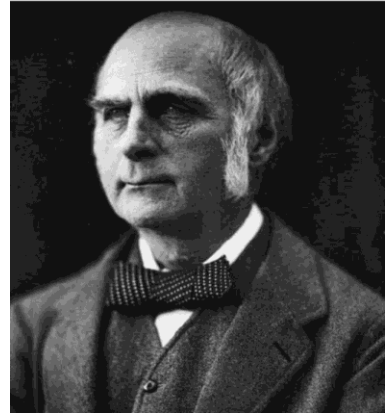
شهِدَت تلك السنوات ولادة المدرسة التجريبية في النظرية التطورية (كتابات داروين، براون سيكوارد Brown-Sequard، فرانسيس غالتون Francis Galton، نيكولاي فيدوروفيتش ليفاكوفسكي N. F.

(Levakovskii) على الرغم من تلك الفترة كانت ذات طابع أبحاث عَرَضِيَّة ومَعزولة.



براون سيكوارد

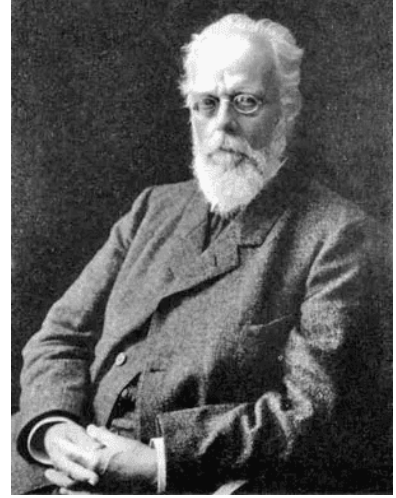
يُفسَّر التطور الضعيف للغاية للتطورية التجريبية في تلك الفترة حقيقة أن جميع تفسيرات القوى المُحرِّكة، بما في ذلك مفهوم الاصطفاء الطبيعي، كانت في جوهرها افتراضات احتمالية الى هذا الحد أو ذلك.



فرانسيس غالتون

كان من المُستحيل بناء نظرية حول القوة الدافعة للتطور قائمة على أساس علمي في ذلك الزمن، عندما لم تكن معروفةً قوانين التباينية variability وجوهر الوراثة وديناميات عدد الأنواع Species وكثافة أعداد النوع كعوامل للتطور، وتأثير العلاقات التعايشية على العملية التطورية، وما الى ذلك. على الرغم من أن داروين كان قد نَجَحَ في تجميع كمية هائلة من المواد التي تُثبت أن الاصطفاء البشري للحيوانات هو سبب تشكيل عدد من الأنواع والسُّلالات، إلا أن هذه البيانات كانت بمثابة دليل غير مُباشر على وجود مثل هذا الاصطفاء في الطبيعة. فقط في وقتٍ لاحق، في القرن العشرين، صار من المُمكن الحصول على التأكيد التجريبي لحقيقة أن الاصطفاء الطبيعي كان موجوداً في الطبيعة ولإثبات تنوع وكثافة عمل العوامل الاصطفائية، وأشكالها واتجاهاتها من خلال التجارب المُباشرة.

نحن قادرون، في ضوء المستوى الحالي الذي وصلته نظرية التطور، أن نتصوّر بوضوح مدى صعوبة قيام علماء ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر بتبني أي وجهة نظر، بما في ذلك وجهات النظر الداروينية، فيما يتعلق بالعوامل الدافعة للتطور. يجب أن نتذكر أن فكرة وراثّة الخصائص المكتسبة كانت مقبولةً عالمياً في ذلك الوقت، على الرغم من أنها لم تكن خاطئةً أقل من فرضية الأثير على سبيل المثال. لم تكن حُجج أوغست ويسمان August Friedrich Leopold Weismann الجادة- وهو أول من طرَحها بنجاح وألقت بظلالٍ من الشك على وراثّة الخصائص المكتسبة- قد ظهرت بعد.



أوغست ويسمان

كان نَمَط التفكير المُتمركز حول (العضوية الفردية) individual organism مُنتشراً وانتشاراً عالمياً واسعاً بين انصار التطور في ذلك الزمن، وكان أحد العقبات الرئيسية أمام تطور الداروينية. هذا باختصار شديد، وصف لحالة نظرية التطور في الوقت الذي جَدَّبت فيه انتباه انجلز. ماذا كان تقييم انجلز لها؟

التقييم العام للداروينية

نجد التقييم الرفيع لتعاليم داروين في (كلمة على قبر ماركس) لفريدريك انجلز عام 1883: "وكما أن داروين اكتشف قانون تطور العالم العضوي، كذلك اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري"¹. لماذا وَضَعَ انجلز داروين في منزلةٍ رفيعة في تاريخ العلم؟

في المقام الأول، لاحظَ انجلز، الجوهر المادي للداروينية. كان من الضروري، قبل تحليل انتظامات تطور الطبيعة الحية، تحديد الركيزة المادية التي تحدث فيها جميع عمليات التطور، وهي الأنواع Species. في رأي انجلز، فإن مفهوم النوع باعتباره شكلاً موجوداً بالفعل من تنظيم الطبيعة الحية، يشتمل على أساس كل البيولوجيا، والتي بدونها ستتحول فروعها الفردية الى "لا شيء". جذبت الداروينية انجلز أيضاً بحلها المادي

¹ - مُختارات من أربعة أجزاء، ماركس وانجلز، المُجلد الثالث، دار التقدم 1975، ص 135

الصارم لمسألة أسباب التطور في العالم العضوي. ان حقيقة ان داروين استنتج هذه الأسباب من تفاعل العوامل المادية أفنَع انجلز أن هذه النظرية كانت ماديةً مُتسقة.

قدّر انجلز نظرية داروين تقديراً رفيعاً لسببٍ آخر هو أن منهجية الاثبات المُستخدمة في تطويرها كانت قريبةً من الماركسية. لقد اعتبر أن الجانب الأكثر قيمةً في منهجية داروين هو استدخال الخبرة العملية في مجال انتقاء الحيوانات والنباتات واثبات أن تشكّل الأنواع والأجناس الذي يحدث كنتيجة للاصطفاء البشري لها يُشكّل نموذجاً رائعاً لقانون التطور الأساسي، أي للانتقاء الطبيعي. ان أحد الشروط الحاسمة التي سمّحت لداروين بالكشف عن العامل الرئيسي في عملية التطور، أي الانتقاء الطبيعي، حسب تعبير انجلز، هو حقيقة أنه لم يُسهب في أسباب التباين بل وجّه اهتمامه الرئيسي على تفسير مسألة كيف تُصبح التغيرات الفردية الطفيفة خصائص للسلالة أو النوع تدريجياً. يقول انجلز: "وفي الواقع، عندما يتكلم داروين عن الانتقاء الطبيعي، فإنه يتجرّد عن تلك الأسباب التي استدعت التغيرات في الأفراد المُختلفين ويُعالج في المحل الأول الطريقة التي تُصبح فيها مثل تلك الانحرافات الفردية شيئاً فشيئاً علامة على جنس أو صنف أو نوع ما. وليست المسألة بشكلٍ أساسي بالنسبة لداروين هي ايجاد تلك الأسباب-فهي جُزئياً حتى الآن غير معروفة على الاطلاق، ويُمكن جُزئياً الاشارة اليها فقط في قسماتها العامة جداً-بقدر البحث عن شكل عقلائي تتدعم فيه نتائجها وتكتسب أهمية ثابتة"¹. الحقيقة هي أنه لو دَمَج داروين في جوهر نظريته أياً من الفرضيات السائدة في عصره فيما يتعلق بجوهر وأسباب التباين الوراثي-مثلاً فرضيته هو نفسه، حول شمولية النشوء pangenesis*² - أفقَدَ مفهومه عن التطور أساسه العلمي الصارم.

اعتبَرَ انجلز اثبات فكرة التطور الخدمة الرئيسية التي أدتها نظرية داروين. يقول: "ومهما كانت التحولات التي ستطرأ على هذه النظرية بالنسبة لتفاصيلها، فإنها، بصورةٍ عامة، تحل، الآن، القضية على نحوٍ أكثر من مقبول"³.

كما نعلم اليوم، حققت الداروينية نصراً نهائياً بعد صراع مُعقدٍ في تاريخها. وَضَعَ انجلز تشخيصه للنظرية بشكلٍ صحيحٍ تماماً. تختلف الداروينية الكلاسيكية في تفاصيلها اختلافاً كبيراً عن نظرية التطور المُعاصرة، ولكن تم تأكيد المبادئ الأساسية للداروينية في مُجمَلها لتُصبح أساس علم التطور المُعاصر.

كان داروين على وجه التحديد، هو، على حد تعبير انجلز، أول من كَشَفَ عن الأسباب الطبيعية لتطور الطبيعة العضوية، والتي كانت من الأمور الغامضة لعلماء البيولوجيا والفلاسفة في ذلك الوقت، وأول من فسّر ظهور التنوع اللامتناهي ووحدة الأشكال العضوية في الوقت ذاته. كما كان أول من قدّم تفسيراً علمياً لظاهرة مُلائمة الخصائص العضوية لاستخداماتها. بعد أن طرّحت نظرية داروين تفسيراً مادياً لأسباب ظهور الأشكال، فقد جَعَلَت من المُمكن أيضاً فهم حقيقة تعقيد العضويات المُتزايد باستمرار للكائنات الحية في سياق تطورها التاريخي. رأى انجلز، انطلاقاً من هذه الحقيقة، أن الداروينية مُهمة بشكلٍ استثنائي، ليس فقط كمفهوم بيولوجي، بل أيضاً كمفتاح لفهم ما قبل تاريخ العقل، والذي بدونه "يبقى وجود الدماغ البشري المُفكّر مُعجزة، يتعدّر تفسيرها"⁴.

1 - ضد دوهرينغ، انجلز، دار التقدم 1984، ص83

*2 - شمولية النشوء وتعني عند داروين أن جميع أعضاء الوالدين بكل خلاياها يُمكن أن تُساهم في التطور وتغيّر نسلهما.

3 - ديبالكيتيك الطبيعية، فريدريك انجلز، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي 1988، ص189

4 - نفس المصدر

بالإضافة الى هذه الصياغات، فإن كتابات انجلز تكشف عن تقييمات أخرى للداروينية، وتطرح تقديراً مختلفاً الى حدٍ ما للأهمية التاريخية لها. كما ذكرنا أعلاه، كان هناك نقاش حاد حول عوامل وأسباب العملية التطورية في النصف الثاني من ستينيات القرن التاسع عشر. في ذلك الوقت، كان من الصعب الحكم على مستقبل فكرة الانتقاء الطبيعي، والتي إذ تفنقر الى الدليل المباشر، ظلّت مجرد فرضية حتى عشرينيات القرن العشرين. في هذا الوضع المُعقّد، كانت تساور داروين نفسه الشكوك في أنه ربما بالغ في تقدير دور الانتقاء وقل من تقدير التأثير المباشر للبيئة¹.

هذا هو السبب في أن تشخيص القوى الدافعة للتطور أصبح أكثر حذرًا في تقييمات انجلز العامة للداروينية في السنوات اللاحقة. يقول "من الداروينية أنا أقبل نظرية التطور. لكن طريقة داروين في البرهان (الصراع من أجل البقاء، الانتقاء الطبيعي) اعتبرها مجرد تعبير أولي ومؤقت وناقص عن حقيقة مُكتشفة حديثاً"². يعكس هذا التعبير، التعقيد الكامل للوضع الذي نشأ بعد 15 عاماً من مناقشة نتائج داروين. لذلك يجب الا يُثير تصريح انجلز التالي أي شك فيما يتعلّق بموقفه العام، والذي تضمّن بشكلٍ عام تقييماً ربيعاً جداً للداروينية. يقول: "ولكن نظرية التطور نفسها ما زالت في شبابها الأول، ولهذا فإن البحث التالي يجب أن يُغيّر بشكلٍ كبير التصورات الحالية حول عملية تطور الأنواع، بما في ذلك التصورات الداروينية على سبيل الحصر"³.

ديالكتيك العملية التطورية

لم يوجّه انجلز الانتباه الى المحتوى الديالكتيكي لنظرية داروين فحسب، بل قدّم أيضاً تحليلاً فلسفياً عميقاً لها. كَتَبَ انجلز في مُخطّطه العام لحُطّة كتابه (ديالكتيك الطبيعة) "البيولوجيا، الداروينية، الضرورة والصدفة"⁴ معاً. وقد خصّ ديكالكتيك الضرورة والصدفة بالتحديد لأن هذه المسألة أساسية في نظرية داروين. يسير انجلز بهذه النقطة الى مكان أبعد: "في مؤلّفه الذي كان بعيد الأثر، انطلق داروين مع أوسع أساس وقائعي قائم على الصدفة. فإن الاختلافات العَرَضية اللامتناهية بين الأفراد داخل النوع الواحد، هذه الاختلافات التي يُمكن أن تتعزز (تزداد) حتى تتجاوز أطر سمات النوع، والتي يتعذّر الوقوف على أسبابها القريبة الا في حالاتٍ نادرة للغاية، هي، بالتحديد، ما أرغمه على التشكيك بالأساس السابق لكل قانونية في البيولوجيا-بمفهوم النوع، في صيغته الميتافيزيقية السابقة، الثابتة والمُحَنّطة"⁵.

كانت الداروينية، كما لاحظ انجلز، دليلاً علمياً مُقنعاً على فكرة هيغل بأن هناك ترابطاً متأسلاً بين الصدفة والضرورة. تُظهر الطبيعة العشوائية للغاية-اللاتحددية- للتنوع الوراثي في نفس الوقت على أنها ضرورة بيولوجية أساسية. تشتمل على الشرط الأساسي المُسبّق للعملية التطورية. نَجَحَ انجلز أيضاً في الكشف عن حقيقة أن الانتقال من التنوع اللامتحدّد الى التكيّف هو انتقال من الصدفي موضوعياً الى الضروري.

¹ - letter to M. Wagner, October 13, 1876

See C. Darwin, Izbrannye pis' ma, Moscow, 1950, pp. 250 252

² - مراسلات ماركس وانجلز، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق 1981، ص359

³ - ضد دوهرينغ، انجلز، دار التقدم 1984، ص88

⁴ - ديالكتيك الطبيعة، فريدريك انجلز، ترجمة توفيق سلّوم، دار الفارابي 1988، ص20

⁵ - نفس المصدر، ص212

ان تحليل ديباليكتيك الصدفة والضرورة في التطور، الذي أجراه انجلز، له أهمية دائمة وقيمة هائلة من الناحية المنهجية في النضال ضد تنويعات اللاتحددية^{1*} ونظريات التخلُّق الجديدة neomogenesis^{2*} المعاصرة³.

عزا انجلز أهمية كبيرةً لدياليكتيك الاستمرار والانقطاع ومشكلة القفزة في تطور العضويات. برأي انجلز، كانت النتائج التي توصل إليها داروين بأن التشكُّل التدريجي للأصناف، والذي يحدث كنتيجة لتراكم التغييرات الفردية الصغيرة، ليست أحادية الجانب وميتافيزيقية تختزل التطور الى عملية مُستمرة تماماً بأي حالٍ من الأحوال. رأى انجلز، مثل داروين، أن الدور الريادي في تطور العالم العضوي تلعبه القفزات الصغيرة. وبهذا المعنى كتَب: "ان كانت الطبيعة لا تعرف القفزات، فذلك بالتحديد، لأن الطبيعة مؤلفة كلياً من القفزات"⁴. هذه القفزات الصغيرة، مُجمعةً، تخلق انطباعاً حول سلسلة مُستمرة، كما ذكَّر داروين في نظريته. اتَّهم العديد من الكُتَّاب داروين، مُستندين الى مقولة داروين الشهيرة بأن "الطبيعة لا تقفز"^{5*} بأنه يُنكر وجود القفزات تماماً^{6*}. ومع ذلك، لم يكن داروين مؤيداً للنظرية التطورية المُبتدلة، وكان انجلز من أوائل الذين رفضوا الاتهام بأن "النزعة التدريجية" متصلة في الداروينية⁷.

*1 - في النصف الثاني من القرن العشرين، كان قد ظهرَ برنامج الاختزالية في عديد من العلوم الطبيعية. حاول هذا البرنامج اختزال جميع النظريات العلمية في نظرية أساسية واحدة. الى جانب ذلك، أدى التقدم في البيولوجيا الجزيئية الى مُقترحات اختزالية جديدة، والتي سعت الى اختزال جميع التفسيرات البيولوجية الى مجال البيولوجيا الجزيئية. مهَّدت الاختزالية الجينية الكلاسيكية الطريق لوضع جهات نظر لاتحددية في البيولوجيا من خلال استدخال الصدفة بجميع أنواعها في جميع المجالات البيولوجية كعامل مؤد للتنوُّع وكألية للتطور، الخ بدون أخذ الضرورة بعين الاعتبار. بالنسبة للحمتمية (عكس اللاتحددية) اللاحقة، فإن الجينات هي التي تُحدد تماماً شكل وسلوك العضوية. لذلك دارت سلسلة من المناقشات حول العلاقة بين التطور الميكروي والتطور الماكروي.

*2 - هي النظرية التي تقول بأن التغيير التطوري ناتج عن عمليات مُنظمة متصلة في الطبيعة العضوية ومُستقلة عن التأثيرات البيئية.
3 - For further details, see K. M. Zavadskii and M. T. Ermolenko, "K kritike neomogeneza," in the collection *Filosofskie problemy sovremennoi biologii*, Leningrad, 1966

*5 - قيل ان هكسلي خاطب داروين في اليوم الذي سبق مباشرة صدور (اصل الانواع) بقوله: "لقد حملت نفسك عبئاً غير ضروري بتبنيك مبدأ (الطبيعة لا تقفز) بلا اي تحفظ".

من مقال: داروين وأصل الأنواع، يحيى محمد، الحوار المتمدن.

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=677839>

كثير من الباحثين المعاصرين أيضاً يتهمون داروين بالنزعة التدريجية:
أنظر:

<https://www.oxfordbibliographies.com/view/document/obo-9780199941728/obo-9780199941728-0072.xml#:~:text=Gradualism%20has%20been%20ascribed%20to,the%20%E2%80%9Ctransmutation%E2%80%9D%20of%20species>

*6 - عندما كان داروين في التشيلي، حدث زلزال ضخم أدى الى مقتل وجرح العديد من الأشخاص. في اليوم التالي على متن السفينة نظر الى قعر الساحل ورأى أن المنحدرات قد ارتفعت عدة أمتار، وأن هذا كان ببساطة أحدث مثال على مثل هذه الكوارث. وأشار داروين الى هذا الحدث في مذكراته على أنه "gradual change" يبدو غريباً لأسماعنا أن نفكر بأن تأثيرات الزلازل "تدريجياً" Gradual، لكن أصل الكلمة يأتي من اللاتينية Gradus والتي تعني (الخطوة). في أيام داروين غالباً ما كانت كلمة Gradual مثل الذرَج. وعندما يتخرَج Graduate الطلاب من الجامعة ينتقلون الى مرحلة نوعية مختلفة عن كل السنة. هذا هو معنى الكلمة أيامه. من غير المُحتمل بالمرّة أن يكون داروين قد أيد النزعة التدريجية الكلاسيكية الاختزالية التي تستبعد القفزات.

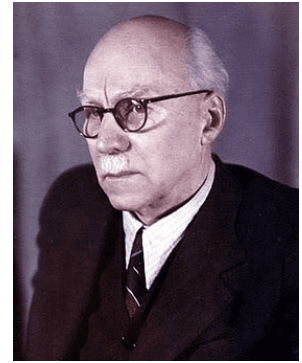
لقد بيَّن الانتقال الجيني الأفقي Horizontal gene transfer أن الطبيعة تقوم في بعض الأحيان بقفزات، حيث يُمكن أن تظهر كُتل ضخمة من الحمض النووي عند فرد أو مجموعة بشكلٍ مُفاجئٍ ومن ثم يعمل الانتقاء الطبيعي عليها. يُمكن أن تكون هذه الآلية مهمة للغاية في تطور الأنواع الجديدة.

أظهرت الحفريات نشوء أنواع جديدة والتي عادةً ما تم تفسيرها من خلال سجلات احفورية غير مُكتملة. تحت ضغط البيانات والوقائع الجديدة، تم تصميم مُخططات تطورية من شأنها أن تجمع بين فترات الركود وفترات الاندفاعات التطورية السريعة التي تُسمى التوازن المُتقطع punctuated equilibrium. يقول العلماء أن المجموعات المُنعزلة، التي لم يتم ملاحظتها في السجلات الاحفورية تُنتج فجأةً ذرية ذات سمات مُفيدة ناجحة من الناحية التكاثرية وامكانية البقاء وأن هذه نتيجة طبيعية للتطور، وليس حالات عارضة.

*7 - See K. M. Zavadskii, *Vid i vidoobrazovanie*, "Nauka" Publishing House, Leningrad, 1968, p. 56

وجّه انجلز الانتباه، عند معالجته لمسألة التناقضات المادية كمصدرٍ للتطور، الى الطابع الديالكتيكي الموضوعي للحل الذي طرحه داروين لمسألة أسباب التطور. على هذا المستوى، قيّم انجلز مفهوم داروين عن الصراع من أجل البقاء بشكلٍ أكثر دقة مما فعل معظم مُعاصريه. كانت هذه الفرضية الأساسية لنظرية داروين هدفاً للعديد من الهجمات من قِبَل يوجين دوهرينغ وآخرين. انتقده انجلز واتخذ موقفاً صريحاً دفاعاً عن فكرة داروين حول الصراع من أجل البقاء. وشدد، لدن رفضه أفكار مالتوس الرجعية، على أن الصراع من أجل البقاء في الطبيعة الحية الذي يتحدد بالتناقض بين "العدد الهائل من الأجنّة التي خلقتها الطبيعة والعدد القليل من الكائنات الحية التي وصلت في الواقع الى النضج، وبما أن كل جنين يهدف الى التطور، فإنه ينشأ بالضرورة صراع من أجل البقاء"¹ يُمكن أيضاً رؤيته بدون وجهة النظر المالتوسية. في الوقت نفسه اتخذ موقفاً ضد اختزال ثروات وتنوّع أشكال التطور في العالم العضوي الى صيغة صراع من أجل البقاء أحادية الجانب. يقول انجلز: "قبل داروين، كان أنصار الصراع من أجل الحياة يُشددون بالضبط، على التعاون المُنسّق في الطبيعة العضوية... وما أن إعرّف بنظرية داروين حتى غدا هؤلاء الناس انفسهم لا يرون في كل مكان غير الصراع"².

يكون الصراع من أجل البقاء حاداً بشكلٍ خاص عندما يكون عدد السكان عالي الكثافة. لا يزال دور ازدياد عدد السكان في التطور قيد المناقشة. طرّح انجلز، عندما كان يُناقش أشكال العملية التطورية (تحت ضغط زيادة عدد السكان وبدونها)، مسألة الأهمية المحدودة لهذا العامل في التطور (تسريع العملية التطورية دون تغيير في اتجاهها). وبخلاف الكُتّاب الداروينيين الكلاسيكيين مثل كليمنت تيميريازيف الذي رفض فكرة الصراع من أجل البقاء تحت ضغط النقد، واصفاً هذه الفكرة بأنها مؤسفة، وأنه يُمكن طرح نظرية داروين بدونها، اعتبرها انجلز على أنها فرضية مُهمة تعكس الواقع الموضوعي. بتأكيد على الأهمية العميقة للصراع من أجل البقاء باعتباره يُعبّر عن نشاط الأحياء في علاقتها مع كُُل من البيئة الحية والميتة، قدّم السوفييتي ايفان ايفانوفيتش شمالغوزا Ivan Ivanovich Shmal'gauzen مزيداً من التطوير لمفاهيم انجلز حول هذه المسألة³.



ايفان شمالغوزا

¹ - ضد دوهرينغ، انجلز، دار التقدّم 1984، ص81

² - ديالكتيك الطبيعة، فريدريك انجلز، ترجمة توفيق سلّوم، دار الفارابي 1988، ص302-303

³ - See I. I. Shmal'gauzen, Faktory evoliutsii, Moscow, 1946

أخضع انجلز سحب نظرية الصراع من أجل البقاء من الطبيعة الى المجتمع الى نقد تفصيلي. وبهذا، وَضَعَ انجلز أسس الموقف الماركسي بصدد أفكار الداروينية الاجتماعية الرجعية.

بالإضافة الى المسائل التي تناولناها أعلاه، طَرَحَ انجلز مسألة الطابع الديالكتيكي للعديد من جوانب العملية التطورية الأخرى، مُشيراً الى التناقض بين التقدم والتقهقر، والاحتمال والواقع، والشكل والمضمون والجزء والكُل على سبيل المثال. وهكذا، كان انجلز، أول من كَشَفَ عن الديالكتيك في انتظامات تطور العالم العضوي، ويجب أن نعترف بأننا لم نعمل ما يكفي لتطویر هذا الجزء من تراثه حتى الآن.

لا يُمكننا، بهذا الصدد، أن نتجاهل المُحاولات العديدة، لاستخلاص "القانون الأساسي للتطور" من تعريف انجلز المؤلف حول جوهر البناء كوحدة للبناء والهدم assimilation and dissimilation في الأيض. يجب القول بأنه ليس انجلز فقط لم يُحاول أن يفعل ذلك بنفسه، بل أنه لم يدعو الآخرين للقيام بذلك. وبالتالي، فإن هذا "الاستخلاص" ليس بأي حالٍ من الأحوال تطويراً لفكرة انجلز. تُظهر المادة الواقعية للنظرية التطورية المُعاصرة أن اختزال الانتظامات التاريخية للتطور الى انتظامات فيسيولوجية هو أمر خاطئ من الناحية المنهجية. تتعلق العملية التطورية بتنظيم العملية الحية في شكلها كأنواع وسكان. ويعمل قانونها الرئيسي، وهو الانتقاء الطبيعي، فقط على مستوى مجموعات الأنواع، ولا يُمكن استخلاصه من التناقضات ذات الطبيعة الفسيولوجية.

حول موقف انجلز بصدد اللاماركية

لا يُمكن أن يكون هناك شك في موقف انجلز السلبي الحاد تجاه تعاليم لامارك ككل. كَتَبَ انجلز في انتقاده لفكرة هيغل حول تحقيق هدف داخلي عن طريق "الشوق (الميل)": "في الكائنات العضوية تشق طريقها، كما يرى هيغل، من خلال الشوق (الميل). هذا بعيد عن أن يكون مُقنعاً. ان الشوق-تبعاً لهيغل- يجب أن يجعل الكائن الحي المُفرد مُنسجماً، الى هذا الحد أم ذلك، مع مفهومه. من هُنا يتضح كون هذه الغاية الضمنية برمتها تعريفاً ايديولوجياً. ومع ذلك هنا يكمن جوهر (نظرية) لامارك"¹. وهكذا، كان لدى انجلز في المقام الأول فكرة صحيحة تماماً عن جوهر اللاماركية في التفسير الغائي للتطور. وفي المقام الثاني، رَفَضَ أيضاً الفكرة المثالية حول الأساس الذهني لنشوء الأشكال، والتي بموجبها "الحاجة تولد العضو."

اتخذ انجلز موقفاً مُختلفاً تجاه هذا الجانب من نظرية لامارك الذي يتضمن وراثه الخصائص المُكتسبة ومبدأ التكيف المُباشر للكائنات مع البيئة. لقد كانت فكرة وراثه الخصائص المُكتسبة مقبولةً عالمياً بين أنصار التطور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كما أشرنا أعلاه، كما كانت الداروينية الكلاسيكية تقبلها كذلك. تمسك انجلز أيضاً، مُستنداً الى علم بيولوجيا عصره، بوجهة النظر هذه. كان هناك داخل الداروينية نفسها عدد من وجهات النظر حول العلاقة بين الانتقاء الطبيعي ووراثه الخصائص المُكتسبة (داروين المُبكر، هايكل، والاس، داروين الكهل، الخ).

من الطبيعي أنه فيما يتعلق بهذه المسألة المُعقدة- التي لم يتم مُعالجتها في ذلك الزمن على الاطلاق، اتخذ انجلز منها موقفاً حذراً، كما يليق بفيلسوفٍ يُناقش مسائل العلوم التجريبية التي لم تتضح بعد تماماً. ولهذا نجد صيغاً مُتنوعة حول هذه المسألة في كتابات انجلز. وهكذا، على سبيل المثال، استخدم انجلز مفهوم الدارويني

1 - ديالكتيك الطبيعة، فريدريك انجلز، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي 1988، ص201

الألماني الرائد هايكل، حول الصراع بين الوراثة والتكيف، والذي يُعتَقَد أن واضعه قد وسَّع مفهوم الانتقاء الطبيعي. كتب انجلز في تعليقاته على الصراع من أجل البقاء، وفي ملاحظاته في (دياليكتيك الطبيعة)، وهو يُفكِّر في مسألة المعنى المُحتَمَل لـ"التكيف والوراثة" لهايكل "ولذا فإن بوسع (التكيف والوراثة) الهايكلين أن يضمنا، أيضاً، عملية التطور بأسرها، دونما حاجة الى الاصطفاء أو المالتوسية¹.

من ناحيةٍ أخرى، فإن تعليقات انجلز ضد دوهرينغ التي يُدافع فيها بصراحة عن المفهوم الدارويني للتطور عن طريق الصراع من أجل البقاء والاصطفاء الطبيعي ضد هجمات هذا الكاتب، وموقفه النقدي تجاه وجهات النظر التطورية الساذجة التي عبَّرَ عنها ب. تريمو P. Tremeau معروفةً على نطاقٍ واسع.

بعد أن طرَحَ ببراعة مسألة دور العمل في نشوء الانسان، شخَّص انجلز آليات وراثه التغييرات في أعضاء أسلاف الإنسان بنفس الطريقة التي كان يفعلها أي عالم طبيعيات تقدَّمي في الفترة السابقة لظهور علم الوراثة. توصلَ الكسندر سيريبروفسكي Alexander Serebrovskii أثناء جداله مع اللاماركيين، الى استنتاجات مُماثلة في أيامه².

نوقشت مسألة "أخطاء انجلز اللاماركية" في أدبنا لسنواتٍ عديدة. قام عددٌ من المؤلفين في العشرينيات والثلاثينيات، ثم في الأربعينيات والخمسينيات بمقاربة تراث انجلز العلمي بطريقة دوغمائية واقتباسية في محاولة لاثبات وجهة النظر الميكانيكية اللاماركية بشأن التطور. بعد عام 1948 بُذلت محاولات ذاتية لرفع فرضية وراثه الخصائص المكتسبة الى مصاف أساس البيولوجيا المادية³. بعد استنفاد جميع الحُجج المُتاحة على أساس التجارب، طرَحَ هؤلاء المؤلفين تصريحات انجلز المُنعزلة المُقتطعة من سياقها كأنها دليل حاسم.

اتخذ ايفان شمالغوزا موقفاً صحيحاً بصدد "أخطاء انجلز اللاماركية"، حيث أكَّدَ أن انجلز لم يقع في مثل هذه الأخطاء على الاطلاق، بل على العكس، استشرَف أفكاراً حديثة حول الدور الفعال للأنماط الظاهرة Phenotype والدور المُهم للتعديلات في التطور⁴.

كان انجلز نفسه مدركاً الصعوبة الشديدة لحل مسألة مُعقدة جداً مثل مسألة العوامل المُحرِّكة للتطور. وكما كَتَبَ انجلز، أنه في مجال العضويات الحية "يسود ذلك التنوع في العلاقات المُتبادلة وعلاقات السببية. بحيث أن كل مسألة محلولة تُثير الكثير من المسائل الجديدة، بل وكل مسألة على جده يُمكن أن تُحل في أغلب الحالات على أجزاءٍ فقط، عن طريق سلسلة من الأبحاث، التي كثيراً مما تتطلب قروناً كاملة. وبذلك تُجبرنا الحاجة الى العرض المنهجي للروابط المدروسة بشكلٍ مُستمر الى إحاطة الحقائق النهائية الأخيرة بغابة كثيفة من الفروض"⁵. ان التشديد على آراء انجلز التي لم يدعمها سياق تطور البيولوجيا، كما يفعل بعض البيولوجيين والفلاسفة، يتناقض مع روح الماركسية الابداعية.

أهمية أفكار انجلز لنظرية التطور المُعاصرة

¹ - نفس المصدر، ص302

² - See, for example, A. S. Serebrovskii, "Opyt kachestvennoi kharakteristiki protsessa organicheskoi evoliutsii," Estestvoznaniye i marksizm, 1929, No. 2

³ - For fuller detail see I. T. Frolov, Genetika i dialektika, "Nauka" Publishing House, Moscow, 1968

⁴ - See I. I. Shmal'gauzen, "F. Engels' ob uchenii Ch. Darvina," in Filosofskie problemy sovremennoi biologii

⁵ - ضد دوهرينغ، انجلز، دار التقدم 1984، ص104

يَفْصِلُنَا مَا يَقْرُبُ مِنْ قَرْنٍ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي انْكَبَ فِيهِ انْجَلَزَ عَلَى دَرَاةٍ نَظْرِيَّةِ التَّطَوُّرِ. مَرَّتْ نَظْرِيَّةُ التَّطَوُّرِ خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ-كَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ فُرُوعِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ الْأُخْرَى، الْبَيُولُوجِيَا عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ-بِمَسَارٍ هَائِلٍ مِنَ التَّطَوُّرِ. صَارَتِ الْعَدِيدُ مِنْ فُرُوعِهَا الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي تِلْكَ السَّنَوَاتِ سِوَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ التَّخْمِينَاتِ وَالْمُلاحِظَاتِ السَطْحِيَّةِ الْمُنْعَزَلَةِ، صَارَتِ عُلُومٌ مُسْتَقَلَّةٌ وَمُنْتَشِعَةٌ عَلَى نِطاقٍ وَاسِعٍ وَذَاتِ أَهْمِيَّةٍ قُصُوى، مِثْلَ عِلْمِ الْوَرَاثَةِ وَالْأَيْكُولُوجِيَا وَالْبَيُولُوجِيَا الْجَيُولُوجِيَّةِ. تَرَسَّخَتْ نَظْرِيَّةُ التَّطَوُّرِ الْجُزْئِيَّ بِأَكْمَلِهَا عَلَى أُسَاسِ تَجْرِبِيٍّ وَرِيَاظِيٍّ ثَابِتٍ. تَمَّ التَّخْلِيُّ عَنِ عَشْرَاتِ الْفَرَضِيَّاتِ الَّتِي بَدَتْ مُغْرِيَّةً وَمُحْتَمَلَةً بَعْدَمَا تَمَّ اخْتِبَارُهَا بِشَكْلِ مُتَكَرِّرٍ. كَانَتْ أَكْثَرَ مَا يَلْفَتُ الْإِنْتِبَاهُ هُوَ مَصِيرُ الْفِكْرَةِ الدَّارُوِينِيَّةِ الرَّئِيسِيَّةِ، وَهُوَ مَبْدَأُ الْإِصْطَفَاءِ الطَّبِيعِيِّ. بَدَأَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَكَأَنَّهَا دُفِنَتْ تَحْتَ كِتْلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْإِعْتِرَاضَاتِ وَالصَّعُوبَاتِ. كَانَتْ أَرْمَةٌ الْإِصْطَفَاءِ فِي بَدَايَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ عَمِيقَةً بِشَكْلِ خَاصٍ. وَمَعَ ذَلِكَ، أَكَّدَتْ التَّجَارِبُ وَالْحِسَابَاتُ الشَّامِلَةُ فِي الْعُقُودِ الَّتِي تَلَتْ ذَلِكَ حَقِيقَةَ أَنَّ التَّطَوُّرَ يَسِيرُ تَحْتَ تَأْتِيرِ الْإِنْتِقَاءِ الطَّبِيعِيِّ الْمُوَجَّهٍ.

هَذَا الْإِنْتِقَاءُ الْحَاسِمُ لِلدَّارُوِينِيَّةِ فِي نَظْرِيَّةِ التَّطَوُّرِ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ مُرْتَبِطٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِالْبَحْثِ وَاسِعِ النِّطاقِ حَوْلَ الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي تَحْدُثُ بَيْنَ مَجْمُوعَاتِ سُكَّانِيَّةٍ بِأَكْمَلِهَا: دِينَامِيَّاتِ أَعْدَادِ السُّكَّانِ، وَالتَّنَاقُضَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ الَّتِي تَنْشَأُ فِي الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلَفَةِ الْمَشْرُوطَةِ فِي أَنْظِمَةِ الْعُبُورِ (Crossing systems *1)، كَثَافَةِ وَعَمْرِ وَجِنْسِ تَكْوِينِ السُّكَّانِ، طَبِيعَةِ الرِّعَايَةِ بِخُصُوصِ الْجِيلِ الصَّاعِدِ أَوْ تَنْظِيمِ الْقَطِيعِ وَمَا شَابَهُ، وَكَذَلِكَ فِي الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الْجَمَاعَاتِ الْحَيَوِيَّةِ biocenoses. لَعَبَتْ دَرَاةُ الْعَوَامِلِ الطَّبِيعِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ كَعَوَامِلٍ فِي الْإِصْطَفَاءِ دَوْرًا هَائِلًا.

تَنْبَأُ انْجَلَزَ بِالْأَهْمِيَّةِ الْحَاسِمَةِ لِمِثْلِ هَذَا الْبَحْثِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ لِلتَّطَوُّرِ لِمُسْتَقْبَلِي نَظْرِيَّةِ التَّطَوُّرِ مِنْذُ عَامِ 1876: "أَنَّ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةَ فِي الطَّبِيعَةِ لَهَا أَيْضًا قَوَانِينُهَا الْخَاصَّةُ بِالسُّكَّانِ الَّتِي لَمْ تُبْحَثْ بَعْدَ تَقْرِيْبًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَكِنْ إِقْرَارُهَا سَيَكُونُ لَهُ أَهْمِيَّةٌ حَاسِمَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِنَظْرِيَّةِ تَطَوُّرِ الْأَنْوَاعِ. وَمَنْ الَّذِي قَدَّمَ فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ أَيْضًا الدَّفْعَةَ الْحَاسِمَةَ؟ دَارُوِينٌ وَلَا أَحَدٌ غَيْرُهُ"².

حَتَّى ثَلَاثِينَاتِ وَأَرْبَعِينَاتِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ كَانَتْ نَظْرِيَّةُ التَّطَوُّرِ تَسْتَنْدُ إِلَى مَبَادِيٍّ مَرْكَزِيَّةِ الْعَضُويَّةِ، أَيُّ كَوْنِهَا تَعْتَبَرُ الْفَرْدَ (الْعَضُويَّة) الْوَحْدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ فِي التَّطَوُّرِ. نَتِيجَةً لِذَلِكَ، كَانَ اسْلُوبُ تَفْكِيرِ التَّطَوُّرِيِّينَ نَمَطِيًّا. كَانَتْ مَرْكَزِيَّةِ الْعَضُويَّةِ وَالْفِكْرُ النَّمَطِيُّ مُلَانِمًا لِكُلِّ أَشْكَالِ اللَّامَارْكَبِيَّةِ وَالطَّفْرَاتِيَّةِ، وَالَّتِي اخْتَرَلَتْ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَوْ تِلْكَ، الْعَمَلِيَّاتِ التَّطَوُّرِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ إِلَى تَنْوَعِ الْأَفْرَادِ وَاعَادَةِ التَّرْكِيبِ Rearrangment الْفِسيُولُوجِي للعضوية.

يَتَنَاقُضُ أُسَاسُ الدَّارُوِينِيَّةِ، أَيُّ مَبْدَأُ الْإِنْتِقَاءِ الطَّبِيعِيِّ، بِشَكْلِ أُسَاسِيٍّ مَعَ نَهْجِ مَرْكَزِيَّةِ الْعَضُويَّةِ مِنْ حَيْثُ الْجَوْهَرِ. الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ الشَّرْطَ الضَّرُورِيَّ لِعَمَلِيَّاتِ الْإِنْتِقَاءِ الطَّبِيعِيِّ هُوَ وُجُودُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَفْرَادِ كَافِيَّةٍ لِلإِنْتِقَاءِ مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَفْرَادِ الْمُتَكَيِّفِينَ. الْعَمَلِيَّةُ التَّطَوُّرِيَّةُ هِيَ شَيْءٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ إِلَّا فِي مَجْمُوعَاتٍ مُشَبَّعَةٍ احْصَائِيًّا، وَهَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ بِالتَّحْدِيدِ (أَيُّ مَجْمُوعَةُ سُكَّانِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَضُمُّ سُكَّانًا مَحَلِّيِّينَ) هِيَ الْوَحْدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلتَّطَوُّرِ. وَمَعَ ذَلِكَ، سَيَطَّرُ مَبْدَأُ مَرْكَزِيَّةِ الْعَضُويَّةِ عَلَى عَقُولِ الدَّارُوِينِيِّينَ لِعُقُودٍ عَدِيدَةٍ. لِذَلِكَ، لَمْ تَكُنْ نَظْرِيَّةُ التَّطَوُّرِ مُقْتَنَعَةً فِي فِتْرَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَالرَّبْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. يَتَطَلَّبُ الْإِنْتِقَاءُ الطَّبِيعِيُّ،

*1 - هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْإِنْتِقَالِ الْجِنِّيِّ أَوْ الْإِنْقِسَامِ الْخَلَوِيِّ الَّذِي قَدْ يَحْدُثُ أَثْنَاءَ مَرِحَلَةِ الْإِنْقِسَامِ الْمُنْصَفِ (MEIOSIS) فِي كُلِّ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ وَغَيْرِ الْجِنْسِيَّةِ.

² - ضِدُّ دُوهْرِينْغِ، انْجَلَزَ، دَارُ التَّقَدُّمِ 1984، ص 82

بما هو القانون الأساسي للتطور، اعتبار عدد مُعيّن من السكان هو الوحدة الأولية للتطور، وليس العضوية الفرد.

ولكن كان هذا الفكر النمطي يُقاوم الأمر بعناد. لم يتم التخلص من عدم الاتساق هذا في نظرية التطور الا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.

كانت نظرية التطور في سبعينيات القرن التاسع عشر لا تزال تتمسك بوجهة نظر (روبنسون كروزو) التي سَبَقَ أن سحقها ماركس تماماً في مجال الاقتصاد السياسي. كان التنبؤ الأكثر بروزاً هو فكرة انجلز القائلة بأن دراسة قوانين تجمعات الأنواع ستثبت أنها ذات أهمية أساسية لنظرية التطور.

هناك عدد من الأفكار الأخرى التي طرحها انجلز والتي تحوز على أهمية كبيرة في نظرية التطور اليوم. وهي تشمل، على سبيل المثال، تسارع مُعدلات التطور مع تزايد تعقيم التنظيم: "بالنسبة لتاريخ تطور العضويات، يجب التسليم بقانون التسارع على نحوٍ يتناسب طردياً مع المسافة الزمنية التي تفصلنا عن نقطة الانطلاق... كلما كانت العضوية أرفع كانت عملية التطور أسرع"¹. بالإضافة الى ذلك، من الواضح أن انجلز استند فقط على المُقارنة مع مُعدلات تطور المُجتمع الانساني. ان المستوى المُعاصر للمعرفة في مجال الأركيولوجيا التطورية قد جعل من المُمكن تقصي وجهه نظر انجلز هذه وتأكيدا كقانون لتطور الوجود الحي.

ان فكرة انجلز القائلة بأن "كل ترقٍ في التطور العضوي هو، في الوقت ذاته، تقهقر، وذلك أنه، بحصر التطور في تطور وحيد الجانب، يستبعد امكانية التطور في كثيرٍ من الاتجاهات الأخرى"^{2 3*}، قد أثبتت أهميتها الواقعية في نظرية التطور. نحن نعلم اليوم أنه بغض النظر عن مدى التقدم الشامل والعالمي نسبياً، الا أنه لا يُمكنه أن يكون مُطلقاً في طابعه. الاستقناء Channeling or canalization*⁴ كمبدأ للتطور، يضع عوائق أساسية ضد التطور في اتجاهات أخرى. يُمكن التأكيد على أن فكرة انجلز المطروحة أعلاه ستستمر في تحفيز البحث العلمي.

طَرَحَت نظرية التطور على شكل الداروينية في زمنها، مادةً ثريةً تُعالجها المادية الديالكتيكية. ان التقدم الذي حققته نظرية التطور اليوم هائل. لا يُمكن مُقارنة مُحتوى هذه النظرية بكل ثرائها مع حالتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهي لا تزال تنتظر استخلاص المزيد من النتائج من وجهة النظر المادية الديالكتيكية بنفس عمق وشمول النتائج التي استخلصها انجلز في عصره.

1 - ديالكتيك الطبيعة، فريدريك انجلز، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي 1988، ص301

2 - نفس المصدر، ص302

3* - في الطبيعة، تقوم المُضيفات بتطوير مناعة ضد الطفيليات، وفي نفس الوقت، تُحاول الطفيليات أن تتغلب على مناعة المُضيف. لقد قام عدد من الطفيليات على طول تاريخ تطور الكائنات الحية، بتطوير ميكانيزمات تقوم من خلالها بتطويع الكائن الحي، مما يجعله (أي هذا الأخير) يتكيف معه (أي مع الطفيلي). هناك أمثلة كثيرة. يُمكن للقارن أن يبحث عن مثال lighthouse snails، و Zombie Ants و fatal attraction rats. هذه الحالات من التكيف هي حالة تطورية بالطبع، الا أنه ليس كل تطوّر بيولوجي هو تقدّم، بل هي تقهقر كما أشار انجلز الى ذلك منذ أكثر من قرن. في أغلب هذه الحالات، يفقد تكيف المُضيف هذا، الى الموت.

4* - يُظهر الأفراد ضمن مجموعة سكانية اختلافاً مورفولوجياً ضئيلاً بشكل ملحوظ، نظراً لمقدار التباين البيئي الذي يواجهونه أثناء التطور ومقدار التباين الجيني داخل السكان. أدى هذا الثبات في النمط الظاهري الى الاقتراح القائل بأن الأفراد يتم عزلهم ضد الاختلاف البيئي والجيني. من الواضح أنه ينتج عن هذه الآلية عواقب تطورية مُهمة. نظراً لأن الانتقاء الطبيعي يعمل على النمط الظاهري داخل مجموعة سكانية، فإن الاستقناء يُقلل من قابلية تطور سمات تختلف جذرياً عما يحوزه المجموع بغض النظر عن تنوع بيئته أو نمطه الجيني. يُقلل الاستقناء أيضاً من آثار الطفرات الجديدة (التي يُمكن أن تكون ضارة)، مما يسمح للأفراد بتخزين هذا النمط الجيني دون المُعاناة من العواقب. إن تعطلّ الاستقناء بسبب ظروف جينية أو بيئية فسيتم اطلاق تنوع جيني مُخزّن مما يضيف ركيزة جديدة للانتقاء الطبيعي.

ترجمة لمقالة:

K. M. Zavadskii , A. B. Georgievskii & A. P. Mozelov (1971) Engels and Darwinism, Soviet Studies in Philosophy,
10:1, 63-80

كتاب لينين "المادية ومذهب النقد التجريبي" ونظرية المعرفة المعاصرة



فلاديسلاف الكساندروفيتش ليكتورسكي*

في ذكرى عمل لينين العبقري، يجب أن نفهم أهمية هذا الكتاب للفلسفة الماركسية ككل، ولا سيما للنظرية المادية للمعرفة بشكل واضح. بالانتقال الى تاريخ الفكر الماركسي اللينيني في القرن العشرين، فاننا نفهم تماماً الدور الهائل الذي لعبه كُُلُّ من دفاع لينين عن الافتراضات الرئيسية للمادية الديالكتيكية ضد التحريفيين والأعداء الصريحين للماركسية، وتطويره الابداعي للأسس الرئيسية للنظرية الماركسية، وهي الأسس التي حددت، في التحليل النهائي، طريقة استعراض وحل المشاكل الأخرى في الماركسية، ليس فقط تلك ذات

فلاديسلاف الكساندروفيتش ليكتورسكي وُلِدَ عام 1932. فيلسوف ماركسي سوفياتي خبير في مجال نظرية المعرفة وعلم النفس وفلسفة العلوم. تخرّج من كلية الفلسفة في جامعة موسكو الحكومية عام 1955 وتابع الدراسات العليا في معهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية وتخرّج عام 1959. صار موظف في معهد الفلسفة منذ عام 1957، ورئيس لقسم نظرية المعرفة في الأكاديمية عام 1969.

صار مُرشحاً للعلوم الفلسفية بأطروحته (الموقف الإدراكي) عام 1964، ودكتوراً في الفلسفة لعام 1978 بأطروحة (الذات، الموضوع، الإدراك) وبروفيسوراً عام 1979.

من أعماله الأساسية: (مُشكلة الذات والموضوع في الفلسفتين الكلاسيكية والحديثة) 1965.

(الديالكتيك المادي) 1979. (الذات، الموضوع، الإدراك) 1980

ومن مقالاته: (حول مبادئ البحث المنطومي) 1960، (وحدة النظري والامبريقي في المعرفة العلمية)، (الديالكتيك ونظرية المعرفة وقوانين التفكير) 1964، (نشوء وبنية البنى الفكرية في مفاهيم جان بياجيه-الاتجاهات الأساسية في بحث سيكولوجيا التفكير في الدول الرأسمالية) 1966، (الفلسفة والمنهجية العلمية- مسائل في الفلسفة) 1967.

تُرجمت مُعظم أعماله الرئيسية و60 مقالة له حررها ليكتورسكي وكتبها بالمشاركة ونُشرت في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الديمقراطية والغربية وفرنسا وفنلندا وكوريا الديمقراطية والجنوبية والصين وتركيا وبولندا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا وغيرها.

حصل ليكتورسكي على جائزة وسام الشرف عام 1979 ووسام العمل الشجاع عام 1971.

الطبيعة النظرية ولكن أيضاً ذات الطبيعة السياسية العملية كذلك. تكتسب العديد من المسائل المطروحة في أعمال لينين العبقريّة أهمية خاصة للفلسفة الماركسية اللينينية وتحديدًا في المرحلة الحالية من تطور العلم وفي ظل ظروف الصراع الايديولوجي الحالية. في هذا المقال سوف نتعامل مع أهمية كتاب "المادية ومذهب النقد التجريبي" لتفسير بعض المشاكل المُلحة للنظرية الماركسية اللينينية عن المعرفة.

نظرية الانعكاس ونظرية المعرفة والنظرية الديالكتيكية

في معالجته المسائل النظرية الماركسية للمعرفة كنظرية الانعكاس، أكد لينين أن الانعكاس هو السمة الأساسية والحاسمة لكل ادراك. من المناسب تماماً الاشارة الى مساهمة لينين في تطوير نظرية المعرفة كنظرية لينينية عن الانعكاس.

ما هي العلاقة بين نظرية الانعكاس والابستمولوجيا؟ بالطبع، بالدرجة التي تكون فيها هذه المناقشة متعلقة بالبحث الفلسفي لعمليات الانعكاس على مستوى ما قبل ادراكي في الطبيعة الحية وغير الحية (وقد قام فلاسفتنا بعمل جيد في مجال الاستفادة من بيانات السبيرنتيك ونظرية المعلومات و علم الأحياء والعلوم الخاصة الأخرى، على أساس فهم لينين للانعكاس كخاصية شمولية للمادة ككل)، أثبتت نظرية الانعكاس أنها أوسع الى حد ما من الابستمولوجيا بالمعنى الدقيق للكلمة. لكن الأهم من ذلك، هو التأكيد على شيء آخر: نظرية الانعكاس هي ليست فرعاً خاصاً من المادية الديالكتيكية توازي نظرية المعرفة. ان مسائل الانعكاس، في نظرية المعرفة، هي ليست "جزء" (حتى وليس جزءاً أساسياً) من مسائلها (مسائل نظرية المعرفة). ان نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية، هي من بدايتها وحتى نهايتها، هي نظرية انعكاس، بمعنى آخر، انها بحث في الخصائص الأساسية لعملية الانعكاس بالشكل الذي تحدث فيه على المستوى الادراكي، وهو المستوى الذي يُميز الذات الانسانية.

بالطبع، تحتل دراسة أشكال وأساليب الانعكاس المُختلفة والأفعال الادراكية والذاتية وأنظمة التوسطات المُعقدة لعلاقة المعرفة بالموضوع الفعلي، تحتل، مكاناً رئيسياً في نظرية المعرفة. لكن الانعكاس ليس أحد خصائص المعرفة والادراك الذي يوجد جنباً الى جنب مع الخصائص الأخرى: ان فهم الادراك باعتباره انعكاساً هو بالضبط الذي يوفّر مفتاح تفسير جوهره. ولكن، ان اعتبر المرء، وفقاً لأطروحة لينين الأساسية، التي تم تطويرها لاحقاً في الدفاتر الفلسفية (والمُتضمنة مُسبقاً في كتاب المادية ومذهب النقد)، أن نظرية المعرفة الماركسية تتطابق مع الديالكتيك والمنطق وأن "الديالكتيك هو نظرية (هيغل) ونظرية الماركسية في المعرفة...¹"، فانه سيظهر استنتاج بأن نظرية المادية الديالكتيكية والمنطق الماركسي يستندان الى نظرية الانعكاس اللينينية.

وفي واقع الأمر، من المستحيل تحديد السمات الفعلية لعملية الانعكاس على المستوى البشري دون دراسة الديالكتيك الحقيقي للعملية الادراكية وبدون دراسة وظائف مقولات الديالكتيك المادي في عملية تحصيل المعارف الجديدة.

هناك رأي مفاده أن لينين قد عالج مسائل المادية الفلسفية الماركسية ونظرية الانعكاس في كتاب (المادية ومذهب النقد التجريبي)، بينما في (الدفاتر الفلسفية) طوّر نظرية الديالكتيك المادي. ان أي فكرة من هذا

1 - دفاتر عن الديالكتيك، فلاديمير لينين، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة 1988، ص185

القبيل غير دقيقة بالمرّة. بالطبع، كان هناك تغييرات في تأكيدات لينين في معالجة الموضوع الفلسفي حسب التغييرات في الوضع التاريخي، لكن فكره الفلسفي صار أكثر عمقاً وتطوراً. ولكن، كان فكره يتسم بالوحدة والاستمرارية في سياق هذا التطور. تم التعامل مع مسائل نظرية المعرفة كنظرية انعكاس في كتاب (المادية ومذهب النقد التجريبي) من المواقع الديالكتيكية كمسائل مُرتبطة بالتطور الديالكتيكي للمعرفة، والانتقال من الجهل الى المعرفة. لذلك، فان بحث لينين في (الدفاتر الفلسفية) حول ديالكتيك المقولات كان بمثابة اثرء وتطوير اضافي لنظرية الانعكاس.

وتجب الاشارة الى انه على الرغم من أهمية وضرورة اجراء مزيد من الدراسة لعمليات الانعكاس في الطبيعة غير الحية والحية، فان تطوير مسائل نظرية الانعكاس اللينينية على مستوى ما قبل الانسان يرتبط اليوم في المقام الأول بدراسة السمات الخاصة بالانسان، أي الانعكاس الادراكي. تبيّن أن هذا الأمر معقد كثيراً. يفترض النجاح في حل هذه المسألة تحليل الديالكتيك الحقيقي للادراك، أي تطوير نظرية الديالكتيك المادي والمنطق الديالكتيكي ومنهجية الادراك العلمي. في المُقابل، لا يُمكن البحث في مسائل نظرية الديالكتيك والمنطق الديالكتيكي الا على أساس مبدأ الانعكاس المادي الديالكتيكي.

ديالكتيك الحقيقة المطلقة والنسبية ومسألة "الوضع الأنطولوجي للكيانات النظرية

ان نظرية ديالكتيك الحقيقة النسبية والمُطلقة التي طوّرها لينين، في ظل الظروف المُعاصرة، لهي نظرية راهنة بشكلٍ خاص. تلعب أفكار لينين الأساسية حول هذه المسألة دوراً مُهماً في حل مجموعة كاملة من المسائل التي لا تتعلق فقط بالمتخصصين في نظرية المعرفة ومنهجية العلم، ولكنها تُدرّس بشكلٍ مُكثّف في الأدبيات الفلسفية وتاريخ العلم أيضاً. في هذا الصدد، من المُهم أن نلاحظ أن مُشكلة الحقيقة تكشف اليوم، الى حدٍ أكبر من أي وقتٍ مضى، عن طابعها العميق من حيث النظرة الى العالم وتُظهر الصلة المُباشرة مع الحلول المُختلفة للمسائل التي نوقشت بشكلٍ مُكثّف حول مكانة الادراك بشكلٍ عام، والادراك العلمي والنظري بشكلٍ خاص ضمن نظام الثقافة وطبيعة وافاق تطور العلوم والثورة العلمية التكنيكية.

طوّر لينين النظرية المادية الديالكتيكية عن الحقيقة، وطوّر فهم الحقيقة على أنها انعكاس للحالة الواقعية الموضوعية للأشياء مُستقلّة عن الانسان والبشرية، وفي الوقت نفسه كعملية ديالكتيكية بشكلٍ لا ينفصم مع نقد الماخية الروسية والأجنبية. أنكرت هذه الأخيرة، كما نعلم، المعنى الحقيقي الموضوعي للبنى النظرية مُعتبرة كل البناء الفوقي النظرية في العلم مُجرّد طريقة مُلائمة لوصف "البيانات الحسية" ("عناصر العالم" حسب كلمات ماخ). في الأساس، التزمت الوضعية المنطقية بنفس الموقف الأساسي في الاستمولوجيا، مع بعض التعديلات، وهي قد حلّت محل الفكر الماخي وسادت في "فلسفة العلم" الغربية حتى وقتٍ قريب. من وجهة النظر هذه، لا معنى للحديث عن صدق (أو زيف) البنى النظرية ووجود مرجعيات "أشياء" حقيقية تُقابل المُصطلحات النظرية. لقد أخضع لينين هذا المفهوم الفلسفي الذاتي للنقد مُواجهاً به موقف المادية الديالكتيكية.

ومع ذلك، يجب أن نلاحظ أن الماخبين والوضعيين المنطقيين شددوا على الحاجة الى أن تتوافق البنى النظرية مع "الواقع التجريبي"، على الرغم من أنهم فهموا هذا الأخير بروح مثالية ذاتية (يُمكن للمرء أن يقول أن نظرية "العناصر" الماخية كانت نوعاً غريباً من الأنطولوجيا والتي يرتبط بها مفهوم الواقعيون الجُدد Neorealist عن "البيانات الحسية" الذي تمت صياغته لاحقاً). المدارس ما بعد الوضعية المُتنوعة في

"فلسفة العلم" الغربية، والتي حلت محل الوضعية المنطقية، والتي تنتقد بشكلٍ مُحق الوضعية المنطقية بسبب تجريبيتها الضيقة، والتي تُلاحظ وجود "ثقل نظري كبير" للأفكار التجريبية في العلم المعاصر، تتميز في نفس الوقت بكثافة هائلة من الأفكار النسبوية في نظرية المعرفة. مؤكدين على وجود "الانقطاعات" في تطور المعرفة النظرية ومُلاحظين أهمية دور الثورات العلمية في تاريخ العلوم الطبيعية، يعتبر مثل هؤلاء المُمثلين لفلسفة ما بعد الوضعية الحديثة، على سبيل المثال توماس كون وبول فايراباند Paul Feyerabend، أن مُشكلة الحقيقة الموضوعية لا معنى لها بشكلٍ عام لأنها تنطبق على المعرفة العلمية وتُتكرر وجود استمرارية نظرية مُعنية في العلم¹. تنتشر في هذه الدوائر، الأفكار المُتعلقة باعتمادية فهم مُعَيّن لصحة التأكيدات العلمية عن طابع "الباراديم" العلمي أو حتى عن الوضع الثقافي التاريخي الأوسع، وهي موضة واسعة إلى حدٍ كبير، ولكن لا تنتشر على أي حال، الأفكار عن الحالة الموضوعية الحقيقية للأشياء². بالإضافة إلى ذلك، فإن الأفكار النسبوية من هذا النوع تُمارس تأثيراً على مجموعة واسعة من المُتخصصين في العلوم الخاصة.

في ظل هذه الظروف، يُساعد اللجوء إلى أفكار (المادية ومذهب النقد التجريبي)، على وضع مسألة الديالكتيك المُعقد للعوامل النسبية والمُطلقة في المنظور الصحيح الوحيد ويوفّر وسائل نظرية للكشف عن عُم النسبوية الفلسفية. كَتَبَ لينين أن "الحقائق نسبية وهي انعكاسات صادقة نسبياً للموضوع المُستقل عن البشرية، وأن هذه الانعكاسات تُصبح صادقة أكثر فأكثر، وأن لكل دقيقة علمية، بالرغم من نسبيتها، عنصر الحقيقة المُطلقة"³. في الوقت نفسه، أكد لينين أن "حدود حقيقة كل موضوع علمية هي حدود نسبية لأنها تتسع تارةً وتضيق تارةً من جراء نمو المعرفة اللاحق"⁴.

يجب التأكيد على أن فهم لينين للحقيقة كعملية يتضمن الاعتراف بالاستمرارية في تطور المعرفة ووجود إعادة بناء ثورية في سياق هذه العملية، وليس له أي شيء مُشترك مع النزعة التراكمية ثنائية البعد. (لهذا السبب، على سبيل المثال، فإن الفكرة القائلة بأنه، في سياق تطور المعرفة العلمية يُمكن اختزال نظرية ما إلى نظرية أخرى عن طريق المنطق، لا تنبع على الإطلاق من الفهم اللينيني لديالكتيك الحقيقة باعتبارها عملية).

إن كل نظام معرفي تم التحقق منه من خلال التجربة الاجتماعية وبعد اثبات قيمته الموضوعية، يعكس حالة واقعية موضوعية مُعينة للأشياء، على الرغم من أن هذا الانعكاس تقريبي دائماً وله حدوده. ما تم ذكره، يتعلّق بكل من المعرفة النظرية العلمية وأشكال مُختلفة من المعرفة العامة. دعونا نتوقف قليلاً لننظر، في هذا الصدد، في مسألة تكتسب الآن أهمية خاصة في دراسات نظرية المعرفة ومنهجية العلم. نقصد هنا مسألة "الوضعية الأنطولوجية" لمواضيع النظرية العلمية. هناك وجهة نظر تنتشر على نطاق واسع اليوم في الفلسفة الغربية، وفقاً لها إنه يجب اعتبار واقعاً موضوعياً فقط تلك الأشياء التي تتحدد على المستوى ما قبل

1 - كَتَبَ توماس كون: "ولكي نكون أكثر دقة، علينا التخلي عن الفكرة، الصريحة أو الضمنية، وهي أن تغيير البراديغمات يُقرّب العلماء والذين يتعلمون منهم من الحقيقة باطراد" ويقول: "فمفهوم مطابقة ما، بين أنطولوجيا نظرية ونظيرها (الواقعي) في الطبيعة، يبدو لي الآن مُخادعاً من الوجهة المبدئية".

نُبئية الثورات العلمية، توماس كون، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المُنظمة العربية للترجمة 2007، ص 284 وص 332.

2 - يؤكد كارل بوبر مُعلم بول فايراباند والعديد من مُمتلي ما بعد الوضعية المعاصرين، على أهمية فهم الحقيقة من أجل المعرفة العلمية، كفكرة تنظيمية مُرتبطة بتأكيد التطابق بين النظريات العلمية والحالة الموضوعية للأمور. بالاعتماد على النتائج التي توصل إليها الفريد تاركسي، حول بوبر بناء رياضيات "شبه الحقيقة" verisimilitude "كتوسيع مُتسق لمحتوى صحة (حقيقة) النظريات المُتعاقبة. تبعاً لبوبر، فإننا نفتقر إلى الوسائل التي نكتشف بها الحقيقة، ولا يُمكن أن نعرف أننا وجدناها حتى لو أننا كنا قد اكتشفناها بالفعل.

See K. R. Popper, Objective Knowledge. -An Evolutionary Approach, Oxford, 1973, pp.317-18

قام عدد من تلاميذه بتطوير آخر اطروحات بوبر المذكورة والتي تتضح ذاتيتها بشكلٍ جلي، وتوصل هؤلاء إلى استنتاج مفاده أن مسألة الحقيقة هي مسألة زائفة.

3 - المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم 1981، ص 361

4 - نفس المصدر، ص 151-152

النظري، أي عن طريق الإدراك العادي في مصطلحات اللغة اليومية. (وبذلك، فإن هذا المفهوم يدحض الذاتية الواضحة للماخيين والوضعيين المنطقيين). فيما يتعلق بالكيانات النظرية، فإنها تُعتبر دائماً بحد ذاتها كأمثلة -Idealizations بقدر ما أن المعرفة حولها تتم عن طريق سلسلة من عمليات الأمثلة-، أي انه ليس لهذه الكيانات النظرية المؤتملة أي مرجعية في الواقع الفعلي، ولكنها تتخذ، ان جاز التعبير، وجوداً "بين نظرياً-أي داخل النظرية.intratheoretical"

ولكن، دعونا نوجه الانتباه الى حقيقة أنه في العلم فعلاً، لا يحدث تطابق بين المواضيع النظرية والأشياء المؤتملة. بطبيعة الحال، فإن صياغة قانون في إطار نظرية علمية يفترض تنفيذ اجراءات الأمثلة، أي انه يتم قبول عدد من الافتراضات التي لا تتوافق مع ما يُمكن ملاحظته بشكلٍ مباشرٍ في الممارسة التجريبية، ولكنها، مع ذلك، تُساعد على فهم القانون في "شكله النقي". لا شك أيضاً أنه، في إطار النظرية، غالباً ما يكون من الضروري بناء ما يُسمى بالمواضيع المؤتملة (نقطة مادية، جسم صلب مثالي، سائل غير قابل للضغط، الخ) والتي لا يوجد أي مرجع واقعي يتوافق معها فعلاً، والتي تتحدد الحاجة النظرية اليها من خلال دورها في التعرف على علاقات موضوعية مُعينة في "شكلها النقي". في الوقت ذاته، على الأقل يُعتبر العلم بعض الأمور المعروفة على مستوى نظري، على أنها موجودة في الواقع الموضوعي: الجزيئات، الذرات، للكترونات، البوزيترونات، الأحداث في الزمكان رباعي الأبعاد، الحقل، الخ. لم يكن من دون سبب أن لينين وجّه الانتباه في نقاشه ضد الماخيين الى حقيقة أن الذرة والالكترون موجودان في الواقع الموضوعي. النقطة المهمة هي أن التمايز الذاتي للأشياء المؤتملة عن الأشياء غير المؤتملة، أي الأشياء الحقيقية، هو شيء مُمكن وله معنى فقط في إطار معرفة المواضيع الفعلية وخصائصها الحقيقية.

لا يتم اكتساب مثل هذه المعرفة فقط بطريقة غير نظرية (على سبيل المثال، بمساعدة الإدراك العادي). تُقدّم النظرية العلمية في حد ذاتها مفاهيم حول الأشياء التي لها وجود حقيقي والتي قد لا تتطابق بالضرورة مع الأشياء التي تتحدد في الممارسة غير العلمية، أو التي قد تكون غير قابلة للرصد (فعلياً أو نظرياً). يجب التأكيد على أن الفرضية القائلة بوجود عدد من الكيانات الحقيقية التي لا توجد معرفة عنها الا على المستوى النظري (مع تطور النظرية وزيادة درجة تأكيده، تتحول هذه المعرفة تدريجياً من مُجرد فرضية الى انعكاس حقيقي للواقع بهذه الدقة أو تلك)، عادةً ما تكون مرتبطة بشكلٍ مباشرٍ بتشكّل ما يُسمى "أب" برنامج البحث، والذي على أساسه تتطور سلسلة لاحقة من النظريات العلمية. يُحدِ هذا الى حدٍ كبير الامكانات الكشفية للبرنامج البحثي المعني. يتم انشاء الكيانات النظرية المؤتملة فقط بالعلاقة مع الكيانات الحقيقية، أي أنها تُقدّم نفسها في شكل أشياء تفنقر الأشياء الحقيقية الى الكثير من خصائصها، أو على العكس من ذلك، الى أشياء يستحيل على الأشياء الحقيقية أن تحوز عليها.

يترتب على ما سبق، من بين أمورٍ كثيرة، أن الكيانات المؤتملة قد تكون مؤتملة من الأشياء الحقيقية المُنعكسة على المستوى غير النظري او غير العلمي (كقاعدة، يتم تفسير النماذج الأولية للأشياء المؤتملة بهذه الطريقة بالضبط) ولكن أيضاً من الأشياء الواقعية التي لا يُمكن الحصول على المعرفة عنها الا بالوسائل النظرية. في الوقت نفسه، من المهم التأكيد على أنه من المُمكن أيضاً وجود وضع يُمكن بأن يتم الافتراض فيه وجود أشياء مُعينة في الواقع في مرحلة مُعينة من تطور العلم، يُمكن أن يتبين، مع عملية تغيّر المفاهيم العلمية، انها خيالية تماماً (المصير الذي حل بالكيان النظري المُسمى بـ"الأثير" في الفيزياء الكلاسيكية، على سبيل المثال)، أو أن يتم نقله الى منزلة الأشياء المؤتملة (ذرات العلوم الكلاسيكية، المُتعلقة بالذرات الحقيقية التي تتعامل معها الفيزياء المُعاصرة، على سبيل المثال).

ليس من الصعب أن نرى أن تلك العملية تُعبّر عن دياليكتيك الحقيقة الموضوعية النسبية والمُطلقة¹. وبالتالي فان وظيفة النظرية العلمية لا تكمن فقط في كونها مُجرّد وضع مُخطّط ورسم بياني "اقتصادي" لبيانات التجربة الحسية، كما يدّعي الأداتيون، ولكن في كونها تعكس جزءاً مُعيّناً من الواقع الموضوعي بهذا الشكل أو ذاك.

في ضوء فهم لينين للحقيقة كعملية انعكاس دياليكتيكية، دعونا نتوقف أيضاً لنتأمل بعض فرضيات ما يُسمى بـ "الواقعية العلمية" (ويلفريد سيلارز Wilfrid Sellars وآخرين²) والمؤثرة حالياً في الفلسفة الانجلوأمريكية.



ويلفريد سيلارز

يتخذ مؤيدو هذا التيار كمنقطة انطلاق، الفكرة الصحيحة (والمادية بشكلٍ أساسي) القائلة بأن تعاليم العلوم النظرية الحديثة-الفيزياء قبل كل شيء- حول بُنية المادة وحول جسيمات مادية حقيقية (ذرات، الكترونات، الخ) يُمثل الحقيقة التي تُقابل الحالة الواقعية الموضوعية للأشياء³. ولكن ينهض السؤال التالي في هذا الصدد: ما هي الحالة الأنطولوجية لأشياء الإدراك الحسي الشائع؟ بالنسبة لأشياء التجربة اليومية التي نعتبرها ذات وجود حقيقي موضوعي (الجداول، الأشجال، الجبال وحتى الأدوات العلمية نفسها)، فانها في الواقع، تبدو أنها مجموعة مُحددة فقط من عدد قليل من الجسيمات المادية (الذرات، الخ). هذا يعني، أن دُعاة "الواقعية العلمية" يستنتجون، أن موضوعات التجربة اليومية لا توجد في الواقع، ولكنها أشياء ذاتية من النوع الكانطي يقبع خلفها "العالم الحقيقي"، وهي مع ذلك، ليست تلك "الأشياء بذاتها" التي تحدث عنها كانط والتي لا يُمكن

1- يجب ملاحظة أنه في أدبياتنا، لم تتم معالجة كافية مجموعة مُهمّة جداً من المسائل المُرتبطة بفهم "الحالة الأنطولوجية" للكائنات النظرية، وخاصة العلاقات المُتبادلة بين الكائنات الحقيقية والمُؤتملة. يبدو أنه ليست كل الاجرائات التي اعتاد أدبنا تسميته الأمثلة هي في الواقع كذلك.

2 - See W. Sellars, Science, Perception and Reality, London and New York, 1963; Action, Knowledge and Reality. Critical Studies in Honor of Wilfrid Sellars, edited by H. -N. Castaneda, Indianapolis, 1975

3- تتخذ "الواقعية العلمية" الافتراضات التالية كمنقطة انطلاق: 1- قد تكون النظريات العلمية صحيحة أو خاطئة. 2- ان المبادئ والتأكيدات النظرية مفسّرة. 3- ان الأشياء المؤكدة التي نتحدث عنها النظريات العلمية موجودة في الواقع.

W. A. Rottschachter, "Wilfrid Sellars and the Demise of the Manifest Image," Modern Schoolman, 1976, vol. 53, no. 4, p. 398

وتجدر الإشارة الى أنه في الأدبيات الغربية الحديثة (خاصةً الانجلوأمريكية) حول مسائل نظرية المعرفة، تتمتع الاتجاهات التي تشترك في المبادئ الأساسية للمادية الفلسفية بتأثير مُعيّن، لكنها لم ترتقي الى مستوى المادية الدياليكتيكية وتتميز بطابع ميتافيزيقي ذاتي. وينطبق هذا على ما يُسمى بـ"المادية العلمية" التي تؤكد على اعتماد الوعي على عمل الدماغ، ولكنها (اي المادية العلمية) غير قادرة على الكشف عن التعقيد الكامل للعلاقة بين الأولى والأخير، وهي تختزل الوعي بالعمليات العصبية. بل أن هناك محاولات للجمع بين الدياليكتيك والمادية في شكل ما يُسمى بـ"المادية النشئية" emergentist materialism. هذه الجهود مُلهمة للغاية، لكنها أيضاً لا تؤدي الى النجاح.

معرفتها، بل يُمكن معرفتها تماماً من خلال أدوات العلم الحديث¹. هذا هو التطرف الآخر الذي يتحدد بالفهم الميتافيزيقي للعلاقة بين المعرفة وموضوعها.

في الواقع، كما ينبع من فهم لينين لديالكتيك الحقيقة النسبية والمُطلقة، من الضروري التحدث ليس فقط عن سيرورة التفكير التي تجري على عدة مستويات (تصير المعرفة أعمق من الظاهرة الى الجوهر، من الجوهر الأول الى الجوهر من الدرجة الثانية، الخ)، ولكن أيضاً عن تعدد مستويات الواقع الموضوعي نفسه.

هناك طاولة ومجموعة من الذرات التي تتكون منها موجودة في الواقع الموضوعي، ولكن، في مستويات متعددة من الواقع، ان جاز التعبير، توجد بينها (بين مكوناتها) علاقة مؤكدة، ليست دائماً بسيطة. من هذا، من بين أمورٍ أخرى، هناك امكانية لوجود معرفة على مستويات مُختلفة (المعرفة التجريبية، على وجه الخصوص، والتي تسمح، في شكل الرصد العلمي، بتحديد ليس فقط الأشياء في الممارسة اليومية، بل أيضاً الأشياء التي لا يُمكن تحديدها الا في الفكر العلمي) وعدد من المسائل الأخرى التي لا تزال تتطلب معالجة مُفصلة من وجهة نظر المادية الديالكتيكية.

نظرية لينين في الانعكاس والبحث في طبيعة الادراك الاجتماعية-التاريخية.

لقد قام فلاسفتنا بقدر كبير من العمل المُثمر في دراسة مسائل نظرية الانعكاس، مُستدين الى مُنجزات العلوم المُتخصصة مثل الفيزياء والكيمياء والأحياء وفسولوجيا النشاط العصبي والسيبيرنتيك ويتعاونون بشكل وثيق مع علماء الطبيعة المُتخصصين. تم انجاز الكثير في مجال تحليل عمليات الانعكاس من وجهة نظر المجالات الخاضعة للسياطيقا والدلالات المنطقية (دراسة ترميز المعلومات وفك رموزها، وخصائص وقوانين أداء أنظمة الاشارات، والعلاقة المُتبادلة بين الأفكار "الصور الابستمولوجية، "النموذج"، "الاشارة" الخ).

لم يتم فعل الكثير في دراسة نشوء وأداء الانعكاس الادراكي فيما يتعلق بانخراطه في النشاط العملي الموجه نحو الهدف وفيما يتعلق بالقياسات الاجتماعية والثقافية-التاريخية لهذا النشاط. الا أنه من خلال هذا النوع من الدراسة، يُمكن للمرء، كما توضّح الفلسفة الماركسية اللينينية، أن يكتشف تماماً ما يتقرّد به الادراك ويُميزه عن جميع أشكال الانعكاس الأخرى. على الرغم من أن الانعكاس المادي أو الفسيولوجي وعمليات نقل المعلومات تفترض أهمية استثنائية في الادراك، الا أنها بحد ذاتها لا تُشكّل صورةً ادراكيةً بشكلٍ مُباشر.

من المهم، بل من الضروري، تفسير واستيعاب البيانات فلسفياً من جميع العلوم الخاصة التي تكشف عن آليات وشروط الادراك الانساني. مع ذلك، سيكون من الخطأ اختزال كامل مجال الفلسفة والابستمولوجيا الى هذه البيانات، وتجاهل العلاقة بين نظرية المعرفة والتخصصات الاجتماعية والتاريخية. لقد وجّه لينين الانتباه الأكثر جدية الى حقيقة أن مثل هذا الاختزال غير مسموح به. كما وضّح في (المادية ومذهب النقد التجريبي)، فانه قد حدد الماخييين والتجريبيين الأحاديين والتجريبيين الرمزيين وغيرهم من مُمثلي "الوضعية الأكثر حداثة" من خلال مُحاولاتهم الخلط بين مُشكلات نظرية المعرفة، والعلوم الخاصة واستبدال الأخيرة بالأولى واختزال الأولى بالأخيرة. تم الكشف عن هذا أيضاً في المُطابقة بين المقولة الفلسفية (المادة) Matter بنظرية

¹ - كتب ويلفريد سيلارز: "على الرغم من أن نظام الأشياء المتصورة حسياً التي تواجهنا في الحياة اليومية تُلبّي تحقيق أهدافنا اليومية، الا أنه (اي ذلك النظام) غير مُلائم تماماً للوضع الحقيقي رولا يُمكن اعتماده عندما يُطرح السؤال حول ما الذي تتكون منه كل الأشياء".

W. Sellars, Science, Perception and Reality, p. 27

بُنية المادة المقبولة في العلوم الطبيعية واستبدال فكرة الاعتماد الوظيفي بالسببية، وما الى ذلك. تم التعبير عن هذا أيضاً، بالجهود، التي أُجريت بروح المادية المُبتدلة (أظهر لينين، أن الماخية جمعت بين المثالية الذاتية وعناصر من المادية المُبتدلة) لتفسير عملية الادراك بمساعدة مفاهيم "الانتقاء الطبيعي" و"تبادل الطاقة" و"التوازن بين الكائن الحي والبيئة" الخ. كَتَبَ لينين مُنتقداً بوغدانوف: "وكل (مذهب الطاقة الاجتماعي) هذا (الانتقاء الاجتماعي)، ان كل هذا هو مجرد رصف للكلمات واستهزاء تام بالماركسية"¹. مُدافعاً عن المبادئ الأساسية للمادية الماركسية من هجمات المثاليين الذاتيين، دعا لينين مادبي الأزمنة القديمة كحلفاء في نضاله ضدهم. في الوقت نفسه، يؤكد أن المادية الديالكتيكية تختلف اختلافاً جوهرياً عن مفاهيم مادبي ما قبل الماركسية من حيث أنها تضع مقولة (النشاط الاجتماعي) في أساس نظرية المعرفة. كتب لينين: "يجب أن تكون وجهة نظر الحياة، وجهة نظر الواقع العملي هي وجهة النظر الأولى والأساسية في نظرية المعرفة. ووجهة النظر هذه تؤدي حتماً الى المادية، نابذةً منذ بادئ بدء الاختلاقات اللامتناهية للسكولاستية الأستاذية"².

ان فعل الادراك لا تقوم به ببساطة عضوية بيولوجية أو من خلال آلية مُعالجة المعلومات، ولكن بواسطة كائن انساني فاعل ونشيط يحوّل العالم، وهو كائن مُندمج في منظومة النشاط الاجتماعي. فقط في هذا النظام الأوسع يُمكن فهم نشأة وعمل العلاقة الادراكية، أي علاقة المعرفة كصورة ابستمولوجية للموضوع. هذا الفهم للادراك يحوّل جذرياً مجال موضوع نظرية المعرفة ويزيلها من حدود التقاليد النموذجية للنظرية البرجوازية عن المعرفة ككل.

ان الاعتراف بوحدة التفكير والنشاط العملي الموجه نحو الهدف هو المبدأ الأساسي لنظرية المعرفة الماركسية اللينينية، ذلك المبدأ ذاته الذي يخوض مُمثلو التحريفية الفلسفية المُعاصرة ضده صراعاً شرساً. في هذا الصدد، تحوز مسائل من مثل دراسة العلاقة بين الادراك والنشاط العملي الموجه نحو الهدف، ودراسة التوسط الاجتماعي-الثقافي للادراك وكل منظومة التوسطات التي يضعها المرء بين نفسه والشئ الذي يتم ادراكه وتلك الوظيفة المتوافقة مع قوانين النشاط الاجتماعي، تحوز على أهمية خاصة للبحث الابستمولوجي. يُفهم الادراك الانساني، أي الانعكاس الانساني، على أنه نظام متطور تاريخياً. لذلك، يجب على نظرية المعرفة أن تستند الى مُركّب فلسفي نشوئي (نشوء تطوري على مدار ملايين السنين) ونمائي (مُتعلّق بتطور إدراك الطفل الفرد خلال سنوات حياته)، وعلى تحليل تاريخ الادراك والثقافة ككل. أكّد لينين، في هذا الصدد، في دفاثره الفلسفية أن تاريخ المعرفة بوجه عام وكل ميادين العلوم الفردية وعلى وجه الخصوص "علم تطور ذكاء الطفل وتطور ذكاء الحيوان وعلم اللغة والسيكولوجيا وفيسيولوجيا أعضاء الحواس هي ذي ميادين العلم التي يجب أن تُكوّن نظرية المعرفة والديالكتيك"³.

يرجع الفضل الى الفلاسفة السوفييت في بعض التطورات في تنفيذ هذه المهمة. ولكن، لا يزال هناك الكثير الذي يتعيّن القيام به. قد يبدو من المُلح للغاية مُعالجة مشاكل مثل أنواع وأشكال النشاط الموجه نحو الهدف المُختلفة وعلاقتها بالممارسة المادية باعتبارها جوهر البداية الرئيسية لجميع الأنشطة، والعلاقات المُتبادلة بين المكونات العملية Operational والموجهة نحو الهدف في الانعكاس النظري، والعلاقة بين النشاط والابداع، وديالكتيك النشاط، المعرفة والتواصل وديالكتيك الاتصال والفهم، وديالكتيك الادراك والتأمل، والسمات المُميزة لانتاج المعرفة في مُختلف نُظم المُجتمع والثقافة في التاريخ. تتطلب مُشكلة العلاقة بين

1 - المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم 1981، ص382

2 - نفس المصدر ص161

3 - الدفاثر الفلسفية-3 جزء 2، فلاديمير لينين، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة 1984، ص132

الوعي والادراك والجوانب الفلسفية للآليات الذاتية للوعي مُعالجة مُفصلة¹. يجب التأكيد على أن دراسة هذه المسائل الابستمولوجية هي نتيجة لتطور عدد من العلوم الاجتماعية والانسانية التي تُحل كل من الجوانب العملية والموجهة نحو الهدف والجوانب الاشارية الرمزية للنشاط الانساني (السيكولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية وعلم اللغة وعلم اللغة النفسي والانثروبولوجيا ونظرية الثقافة وتاريخ العلم والفلسفة الخ) وأيضاً ظهور عدد من التخصصات العلمية التي لا تقوم فقط بالبحث في النشاط الانساني، بل تعرض أشكالاً جديدةً منه (علم النفس الصناعي، جماليات التصميم، بيئة العمل وما الى ذلك).

أشار لينين الى الاتجاه نحو "الرياضة mathematization" المتزايدة للمعرفة كميزة نموذجية للفيزياء المعاصرة. انتشر هذا الاتجاه في سياق تطور الثورة العلمية في القرن العشرين الى نظام المعرفة العلمية بأكمله. في الوقت نفسه، كشف العلم الحديث، في السنوات الأخيرة، عن اتجاه آخر يُسمى أحياناً "أنسنة" humanitarization المعرفة. نحن لا نُشير هنا فقط الى الحاجة الملحة الى التطوير المُكثف للعلوم الاجتماعية والانسانية ولكن أيضاً الى الأهمية المتزايدة لمسائل النظرة الى العالم والأخلاق من أجل تطوير العلوم الطبيعية على نحوها (ليس فقط من أجل الاستفادة منها والحصول على نتائج فيما يتعلق بمرحلة تطبيق النتائج التي حققها العلم، بل وأيضاً من أجل الاسترشاد بها في مرحلة البحث)، ونشير كذلك الى الوعي المتزايد بأهمية الشروط الاجتماعية والثقافية والتاريخية للعلوم الطبيعية وجميع العلوم ككل.

بالنسبة للنظرية الماركسية اللينينية عن المعرفة، التي تقوم على الاعتراف بالطبيعة الاجتماعية والتاريخية للادراك، فان البحث التفصيلي في مشاكل النظرية الابستمولوجية والمنهجية، المُرتبط بتطور العلوم الاجتماعية والانسانيات في الوقت الحاضر وكذلك، بالميل نحو "أنسنة" المعرفة ككل، هي مهمة ذات أهمية راهنة.

الثورة العلمية في القرن العشرين، ونظرية المعرفة

قدّم لينين في عمله العبقري تحليلاً كلاسيكياً لآخر ثورة في العلوم الطبيعية أظهر أنه مُرتبط بالحاجة الى تغلغل أفكار الديالكتيك المادي، ونظرية المعرفة الديالكتيكية في نسيج العلوم الطبيعية وأن الفيزياء الحديثة "تولّد المادية الديالكتيكية" عفويّاً. ولكن، فان التغيرات في الفيزياء في مطلع القرن العشرين كانت مجرد بداية لقائمة هائلة من التحولات التي لم تشمل الفيزياء وحسب، بل سلسلة كاملة من التخصصات الأخرى، مما أدى الى تغيرات عميقة في الصورة العلمية عن العالم وفي طبيعة وبُنية النظرية العلمية². أصبحت الثورة في علم الطبيعة ثورةً في العلم والتكنولوجيا، وهي قد ارتقت بنفسها الى مستوى جديدٍ نوعياً من خلال دخولها الى تلك الثورة الأخيرة كأحد مكوناتها الأساسية.

يبرز الاتجاه العام للتحول الثوري في العلم الجاري الآن بشكلٍ واضحٍ بهذه الحدة أو تلك. ان جوهر ذلك التحول هو اعادة توجيه جذرية للعلم في مجالات المنهجية والنظرة الى العالم وظهور أفكار جديدة حول العالم والمعرفة العلمية على هذا النحو، وظهر معيار جديد للعلم وما هو علمي. ان التغيير في الأفكار حول طابع

1- أكد لينين، كما لو أنه كان يُكافح "الماديين العلميين" اليوم أن جوهر المادية ليس "استخلاص الاحساس من حركة المادة أو في حصره في حركة المادة، بل تقوم في كونها تعتبر الاحساس احدى خواص المادة المتحركة". المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم 1981، ص45. وأنه "من الهراء التام الزعم أن المادية قد أكدت واقعية "اصغر" للادراك... "نفس المصدر، ص326

2 - detailed analysis of the stages in the current scientific revolution, and philosophical interpretation thereof, may be found in B. M. Kedrov, Lenin i revoliutsiia v estestvoznanii XX veka, Moscow, 1969

العالم المُدرَك، والتفاعل بين الزمان والمكان، وامكانية موضعة الكيانات المُدرَكة والتغير في الأفكار حول مكانة الأدوات في عملية الحصول على البيانات العلمية وطبيعة التحديد الموضوعي، الخ، كل هذا في وقتٍ واحد يدل على تشكّل مطالب جديدة على الوصف والتفسير العلميين والتغير في قوانين بناء النظرية العلمية، وحتى في مفهوم ما يُمكن اعتباره معرفة علمية. كما أن التغير في العلاقات المُتبادلة بين العلوم المُختلفة وظهور تخصصات جديدة يعمل بشكلٍ أساسي في نفس الاتجاه.

يتميز تطور العلم الحديث بالتعقيد المتزايد باستمرار في منظومة أجهزة البحث تلك التي يضعها المرء بينه وبين الموضوع المُدرَك، بدءاً من مُختلف الأدوات وأجهزة القياس، من ناحية، الى المخططات النظرية والنماذج والبنائات الاستنتاجية، الخ، من ناحية أخرى. كل هذا يخلق بعض التعقيدات في التفسير الملموس الموجه نحو الهدف لأنظمة المعرفة النظرية، وفي نفس الوقت، يخلق موقفاً يُصبح فيه، تقدير العالم نفسه لطبيعة وسائل البحث التي يستخدمها-الأدوات والافتراضات النظرية- شرطاً ضرورياً لتقدم العمل النظري.

كل هذا يُشير الى ازدياد حاد في الطبيعة الانعكاسية الذاتية للفكر العلمي النظري. لا يَنبُج التعقيد المُتزايد لُبنية المعرفة النظرية فقط من زيادة عدد الروابط الوسيطة بين المستويات النظرية العُلوية وأساسها التجريبي، ولكن أيضاً من ظهور مكونات جديدة بشكلٍ أساسي في نظام المعرفة العلمية ذاته: التفكير النظري حول البنية المنطقية والمعنى الإدراكي لتلك المنظومات المفهومية التي تُصوّر الواقع الموضوعي.

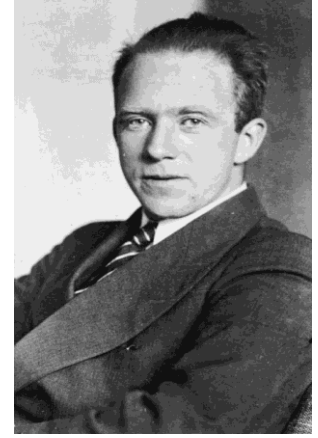
يُنْتِج هذا التفكير، في بعض الحالات، تخصصات علمية خاصة، على سبيل المثال ما بعد الرياضيات metamathematics، والتي يكون موضوعها هو البنية المنطقية للبراهين الرياضية. في حالاتٍ أخرى، لا يأخذ التفكير النظري شكل علم خاص أو أحد مكوناته، ولكنه يلعب دور مُهم في عملية صياغة وتفسير وتوسيع النظرية العلمية. على سبيل المثال، تعريف وتحليل المبادئ العامة التي تُبنى عليها النظرية الفيزيائية: مبادئ التطابق والتكامل والملاحظة والثباتية، الخ.

ومع ذلك، من المُهم أن نلاحظ أن التفكير النظري حول العلم، الى الدرجة التي يلجأ فيها الى البحث في الأسس الأكثر عُمقاً للمعرفة العلمية النظرية، لا يُمكنه الا أن يتخذ طابعاً فلسفياً، ولا يسعه الا أن يمس المشاكل الابستمولوجية الأساسية المُتعلقة بطبيعة الواقع المُدرَك، والعلاقة المُتبادلة بين الذات والموضوع، وطبيعة المعرفة العلمية، وما الى ذلك. بدأ التفكير الابستمولوجي النظري، في سياق الثورة العلمية في القرن العشرين، يلعب دوراً جديداً في عملية تطور المعرفة العلمية النظرية، وتتغير العلاقات بين الابستمولوجيا والمعرفة في العلوم الخاصة أيضاً.

كما نعلم، فان عملية التطور التاريخي لاكتساب المعرفة كانت مصحوبةً على الدوام بانفصال العلوم الخاصة عن الفلسفة، وزيادة التخصص والمهنية بين العلماء والفلاسفة على حدٍ سواء، وتحديد أدق لموضوع التخصصات العلمية الفردية والفلسفية نفسها. ان لهذه العملية التقدمية تكاليفها بالطبع. ان بين الفلاسفة والعلماء البرجوازيين الرأي القائل بأن المعرفة في الفلسفة والعلوم الخاصة يختلفان اختلافاً جوهرياً ويتسع "عدم التداخل" بينهما على نطاقٍ واسع. ووفقاً لهذا الرأي، يحل العلم الخاص مهامه بنجاح دون اللجوء الى مُساعدة الفلسفة (بالإضافة الى ذلك، فان الفلسفة لا يُمكن الا أن تضر بالنشاط العلمي). من ناحيةٍ أخرى، لا تحتاج الفلسفة، ولا سيما نظرية المعرفة، في اعتقاد أتباع وجهة النظر هذه، الى تحليل المعرفة العلمية التي تحدث بالفعل في العلم، لأنها، أي الفلسفة، تُطوّر معرفتها بطريقةٍ خاصة: اما عن طريق تحليل سمات الوعي في فعل المُلاحظة الذاتية، أو بمساعدة اكتشاف وتشريح المحتوى النظري المُجسّد أبدياً في مقولات المنطق، أو كنتيجة للبحث في اللغة اليومية ما قبل العلمية والتي تُعتبر بدورها ثابتة ومُعطاة مُسبقاً، الخ. ان كل المعرفة

الابستمولوجية، وفقاً لوجهة النظر هذه، على عكس المعرفة في العلوم الخاصة، هي، بحكم تعريفها بالذات، أبدية وغير مُتغيّرة ومُطلقة وتتطور في إطار حل المشكلات الخاصة التي يُزعم أنها تختلف اختلافاً جوهرياً عن مسائل العلوم الملموسة.

هذا الفهم للعلاقة المُتبادلة بين المعرفة الابستمولوجية والعلوم الخاصة قد انهار في سياق تطور الثورة الحالية في العلم. تكمن احدى السمات الهامة للمعرفة العلمية اليوم في حقيقة أن المناقشات الشاملة للمشاكل الأساسية للنظرة عن العالم ونظرية المعرفة والمنهجية الفلسفية تُثبت أنها شرط ضروري لصياغة أفكار جديدة في العلم نفسه. يتضح هذا بشكلٍ جليٍّ من خلال المناقشات الفلسفية الساخنة في التخصصات النموذجية للعلم الحديث مثل أسس الرياضيات وميكانيكا الكم والكوزمولوجي ونظرية التطور البيولوجي وما الى ذلك. انخرط مُبدعو العلم الحديث مثل الفيزيائيون البيرت اينشتاين وفيرنر هايزنبرغ Werner Heisenberg ونيلز بور Niels Bohr والرياضيون ديفيد هيلبرت David Hilbert ولوتزيان بروار Luitzen Egbertus Jan Brouwer في مُناقشةٍ مُكثفةٍ لمسائل النظرة الى العالم والابستمولوجيا والمنهج الفلسفي.



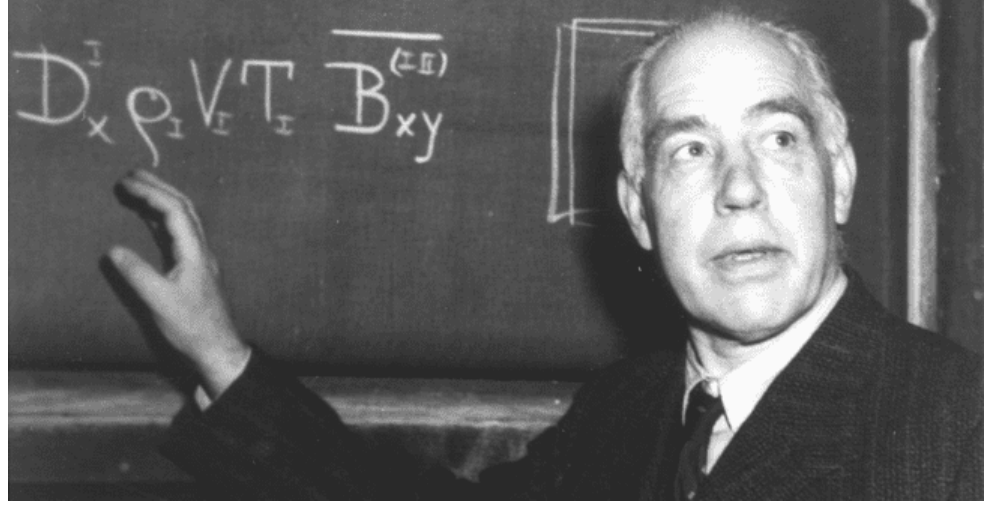
فيرنر هايزنبرغ

في هذا الصدد، من المهم التأكيد على أن المسألة المطروحة ليست مُجرّد تفسير ابستمولوجي للمفاهيم العلمية القائمة في مُختلف مجالات العلوم: تُطرح اليوم مطالب أكثر جديةً اليوم على الابستمولوجيا، بقدر ما يلعب مجموع الأفكار الفلسفية دوراً مُهماً في صياغة أي برنامج ملموس للبحث العلمي. ان الصورة الابستمولوجية للادراك وللعلم والالتزام به ليس لها وظيفة وصف ممارسة البحث العلمي كما هي فحسب، بل صارت هي نفسها مُندمجةً في تلك المُمارسة وتُعيد تنظيمها في بعض النواحي.

لكن هذا الموقف يُعيّر أيضاً المطالب المطروحة على نظرية المعرفة. ما يحدث هو عملية عاصفة من "اعادة دمج" الابستمولوجيا والمعارف العلمية الخاصة. تبرز الابستمولوجيا العلمية بدرجة متزايدة كدليل منهجي ضروري في عملية البحث العلمي مُحتملةً بما يُميزها وبدون أن تخضع الى معرفة تُميّز العلوم الخاصة، وبالطبع تتجنب فرض حلول مُسبقة ملموسة على العلم بروح الفلسفة الطبيعية القديمة.

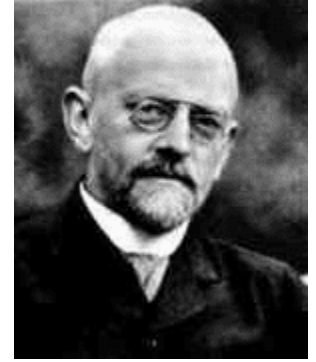
في الوقت نفسه، ترتبط الثورة العلمية في القرن العشرين بالحاجة الى حل نوع خاص من الأزمات، والذي وقره لها التحليل الكلاسيكي الذي قام به لينين في (المادية ومذهب النقد التجريبي). نحن نُشير هنا الى أزمة النظرة الفلسفية الى العالم والأسس الابستمولوجية للعلم. كان الأساس الفلسفي للعلم الكلاسيكي هو المادية

الميتافيزيقية والميكانيكية والتي قَبِلها بوعي غالبية علماء الطبيعة.



نيلز بور

جاء هذا النمط من التفسير الفلسفي للعلم في تناقضٍ حاد مع نتائج الثورة العلمية في القرن العشرين.



ديفيد هيلبرت

ان البحث عن أساس فلسفي مُناسب، والذي قام به فلاسفة الكُتّاب الكلاسيكيون في العلوم الطبيعية الحديثة بنشاط، يُعبّر عن السعي لايجاد طريقة للخروج من أزمة الأسس الفلسفية للعلم.



لوتزيان بروار

وهذا الجُهد مفهوم، لأن التطور الكامل للثورة في العلم يفترض أن يطور العلماء ويستخدموا أساساً سليماً للنظرة الى العالم يكون كافياً تماماً لمتطلبات المعرفة العلمية. هذا الأساس، كما ذكر لينين في (المادية ومذهب النقد التجريبي) هو المادية الديالكتيكية. يُمكن اعتبار الثورة العلمية في القرن العشرين بشكلٍ مُحق عملية (اضفاء الديالكتيك) dialectization على العلم. يسير العديد من الباحثين العلميين الواعين من رواد العلم الحديث في هذا الاتجاه بالضبط.

ومع ذلك، فقد أثبتت عملية توفير أساس فلسفي مُلائم للعلم الحديث أنها مسألة مُعقدة للغاية. طرحت الفلسفة البرجوازية الحديثة عدداً من المفاهيم المثالية كتفسيرات فلسفية للثورة العلمية في القرن العشرين، وقد مارس العديد منها تأثيراً مُعيناً على عقول العلماء العاملين في البلدان الرأسمالية. لذلك، إذا نظرنا الى تطور الثورة العلمية في ظل ظروف الرأسمالية الحديثة، فلا يسعنا الا أن نلاحظ الطبيعة المُعقدة والمتناقضة لتلك العملية. من ناحية، تُعبّر تلك الثورة عن العملية الموضوعية لتغلغل أفكار المادية الديالكتيكية في العلم الحديث، ولكنها من ناحية أُخرى، لا يُصاحبه (لا يُصاحب العلم الحديث) استيعاب كامل وواعي للموقف الاستمولوجي الموافق لها (للمادية الديالكتيكية). كل هذا يعني، أن الثورة العلمية، في ظل الرأسمالية، لا تؤدي الى القضاء على أزمة الأسس الفلسفية للعلم، التي قدّم لينين تحليلاً كلاسيكي لبدائيتها!

ولكن، عندما نتحدث عن حقيقة أن الاتجاهات والمدارس المُختلفة في نظرية المعرفة المثالية الحالية ليست أكثر من مُجرد طفيليات على انجازات الثورة في العلم، فان هذا لا يعني أن المفاهيم التي اقترحها المنظرون البرجوازيون ليس لها أي تأثير على المشاكل الحقيقية للعلم في القرن العشرين. في الواقع، الوضع هو أن المفاهيم الاستمولوجية والمنهجية المُختلفة التي طورها الفلاسفة البرجوازيون المُحترفون أو التي ابتكرها المنظرون الفلسفيون في العلم الحديث، كانت قادرة على مُمارسة تأثير مُعين على الباحثين العلميين، ليس فقط على ادراكهم الذاتي، ولكن في بعض الأحيان على ممارساتهم البحثية، لأنهم التقطوا بعض السمات الحقيقية للعلم الحديث (وان كان ذلك بشكلٍ مُشوه ووحيد الجانب)، جنباً الى جنب مع تفسير مُشوه عموماً للمعرفة العلمية.

وهكذا، على سبيل المثال، ركزت النزعة العمليانية (Operationalism)، التي كان لها تأثير مُعين ليس فقط على الفيزيائيين بل و علماء النفس ومُمثلي علم الاجتماع البرجوازي والتي قدمت تفسيراً مثالياً وميتافيزيقياً للمعرفة العلمية، نقول، ركزت الفكر العلمي على التجريبية الضيقة وتناقضت بشكلٍ صارخ مع الممارسة الحقيقية للثورة الحالية في العلم، وهي تلتقط بشكلٍ مُشوه جوانب مُعينة من العلاقة المتبادلة بين المفاهيم النظرية والقاعدة التجريبية وتفاصيل ما يُسمى بـ"التعريفات العمليانية". انطلق الفلاسفة الذين عالجوا مسائل المنهجية ومنطق العلم في إطار العقيدة الوضعية المنطقية من نقطة خاطئة وميتافيزيقية وتجريبية في العلم، ولكنهم حصلوا على بعض النتائج في دراسة لغة النظريات العلمية وروابط المنطق الصوري بين عناصر المعرفة النظرية. تستند الحدسية، كاحدى المدارس التي تسعى الى تطوير أساس الرياضيات، على

1- أزمة أُخرى أثرت على العلم كروسة اجتماعية في ظل ظروف المُجتمع الرأسمالي المُعاصر وتم التعبير عنها في ظهور التناقضات بين نمط مُعين من تطور العلم ومصالح تطور البشر الانساني، وصارت، في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، تشابك مع أزمة الأسس الفلسفية للعلم. ان الخروج من هذه الأزمة الجديدة لا يفترض فقط اعادة تفسير فلسفية جذرية للعلم ومكانه في نظام الثقافة ومسائل الاستمولوجيا والمنهجية العلمية والأخلاق والنظرة الى العالم، وهو أمر غير مُمكن الا على أساس الفلسفة الماركسية اللينينية، بل انها تفترض أيضاً حدوث تغيير في الوظائف الاجتماعية للعلم، والذي يثبت أنه مُمكن فقط في ظل ظروف الاشتراكية.

فهم مثالي لطبيعة المعرفة الرياضية، ولا يُمكن تطبيق برنامج العمل الذي تقدم به الحدسيون. ومع ذلك، فإن العلماء المتأثرين بهذا التيار قد حصلوا على نتائج مهمة في المنطق الرياضي¹.

ولكن من المهم التأكيد مرةً أخرى على أن الفلسفة البرجوازية غير قادرة من حيث المبدأ على التغلب على المثالية والميتافيزيقيا، ولا يُمكنها أن تكون وعياً ذاتياً فلسفياً مناسباً للثورة الحالية في العلم، وبالتالي، فإن تطور هذا الأخير يُرافقه في نفس الوقت خيبات يشعر بها العلماء باستمرار من مناهج تفسير العلم من وجهة نظر النظرة الى العالم والابستمولوجيا التي تُميّز الأعمال النظرية البرجوازية.



ويلارد كوين

في هذا الصدد، لا يواجه الفلاسفة الماركسيون مهمة المعالجة العلمية لمسائل الابستمولوجيا فحسب، بل وكذلك مهمة تحليل التغيير الحاصل داخلها في ظل ظروف الثورة العلمية اليوم والعلاقات الجديدة التي تتشكل بين الابستمولوجيا والعلوم الخاصة ومسائل ما هو الذي يُميّز المعرفة الابستمولوجية ومناهج الوصول اليها والتحقق من صحتها وتطويرها والعلاقة بين المعرفة النظرية والعلوم الخاصة التي تدرس النشاط الادراكي، الخ. يجب أن نلاحظ أن الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين يقومون بالتعتميم على هذا النطاق من المسائل وهم يقدمون عليها اجابات مُختلفة ولكنها خاطئة بشكلٍ مُماثل. وهي تتراوح من الالغاء العملي لنظرية المعرفة عن طريق اختزالها الى فسيولوجيا عصبية ونظرية معلومات وسيمانطيقا (أي فكرة ما يُسمى بالابستمولوجيا المُطبعة Naturalized epistemology للفيلسوف الأمريكي ويلارد كوين Willard Van Orman Quine)،² والقول باطروحة أن نظرية المعرفة (الابستمولوجيا) لا تتحدث عما يحدث بالفعل في الادراك،

¹ - يؤكد لينين على الحاجة الى التمييز المبداي بين النتائج الخاصة التي يتم الحصول عليها في هذا المجال أو ذاك من ناحية (قد تتعلق هذه النتائج اليوم بدراسة البنية المنطقية للغة النظريات العلمية وتاريخ العلم الخ)، وتفسيراتها الفلسفية والابستمولوجية من ناحية أخرى-بغض النظر عن ارتباط هاتين الناحيتين ببعضهما في الممارسة الحقيقية. كما يُشير الى الحاجة الى تفسير هذه النتائج من وجهة نظر المادية الديالكتيكية.

² -See W. V. Quine, "Epistemology Naturalised," in J. R. Royce and W. W. Rozeboom, The Psychology of Knowing, London, 1972

ولكنها تقدم فقط بعض التوصيات بشأن ما يجب أن يكون عليه الإدراك، على الرغم من أن هذه التوصيات، في التحليل النهائي، مواضيعية conventional في طبيعتها (كارل بوبر)¹.
يكتسب حل هذه المجموعة من المسائل أهمية خاصة في ظل ظروف الثورة العلمية الحالية، ويجب أن يتركز اهتمام باحثينا عليها.

ترجمة لمقالة:

V. A. Lektorskii (1980) Lenin's Materialism and Empirio-Criticism and Contemporary Theory of Knowledge, Soviet Studies in Philosophy, 18:4, 78-101

¹ - ان أفكار بوبر هذه وصل بها بول فايراباند الى السخف، حيث نشر حُججاً تدعم ما يُسمى "الأناركية في الاستمولوجيا". ييسر هذا في اطار ذاتي مُفرط والذي وفقاً له يجب على كل نظرية علمية كبرى، أن تستند، الى جانب أشياء أخرى، على نظريتها الخاصة في المعرفة، والتي تختلف عن النظرية المعرفية الخاصة بأي نظرية علمية أخرى.

القسم الثاني

التاريخ ومنهجية التاريخ

قوانين الوضعيات التاريخية



ليف ايفيموفيتش كيرتمان *

ان التصنيف الصحيح لقوانين التطور الاجتماعي يحكم الى حد كبير تطبيق هذه القوانين في البحث العلمي وفي الحياة. كل علم اجتماعي له نظام قوانين خاصة به، تتحدد خصائصه من خلال ماهية موضوعه وتميز تقنياته.

* ليف ايفيموفيتش كيرتمان 1917-1987، مؤرخ سوفياتي-انجليزي، دكتور في العلوم التاريخية 1961، واستاذ ورئيس قسم تاريخ العالم 1956-1974، واستاذ في قسم التاريخ الحديث والمعاصر 1974-1987 في جامعة مدينة بيرم، ومؤسس مدرسة بيرم العلمية حول مسائل حركة الطبقة العاملة وتاريخ الثقافة الأجنبية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

تخرج كيرتمان من كلية التاريخ في جامعة كييف عام 1940. وتم استدعاه للجيش في نفس السنة حيث شارك في الحرب الوطنية العظمى حتى تم تسريحه بسبب اصابه عام 1941. تم تقيده العديد من الميداليات والجوائز، منها ميدالية بطل حرب من الدرجتين الأولى والثانية. واصل دراساته العليا في جامعة قازان عام 1942.

دافع عام 1943 عن اطروحته لدرجة مُرشح في العلوم التاريخية (تطور نظرات ت. م. غرانوفسكي التاريخية)، وبدأ بالتدريس في جامعة كييف. صار بروفيسور مساعد في التاريخ الحديث عام 1944. صار منذ عام 1949 بروفيسوراً ورئيساً لقسم تاريخ العالم التابع لكلية التاريخ وفلسفة اللغة في جامعة بيرم، ودافع عام 1961 عن اطروحته لنيل الدكتوراة (الحركة العمالية في إنجلترا وصراع التيارين في حزب العمال 1900-1914). ترأس، منذ عام 1965 قسم تاريخ العالم، وبعد تقسيم هذا القسم الى فروع، صار عام 1974 رئيساً لقسم التاريخ الحديث والمعاصر. ترأس كذلك المجلس المنهجي للجامعة. كان عضواً في اللجنة الوطنية للمؤرخين السوفييت وعضواً في المجلس العلمي السوفياتي حول تأريخ العلوم التاريخية. كانت المجالات الرئيسية لاهتماماته العلمية تتضمن دراسات اللغة الانجليزية، الدراسات الثقافية، منهجية التاريخ والتأريخ، ومناهج تدريس التاريخ في التعليم العالي. نُشر أكثر من 100 مؤلف بما في ذلك 6 دراسات، واشرك في تأليف العديد من الكتب المدرسية حول التاريخ الحديث والمعاصر في المدارس الثانوية. من أعماله الرئيسية: (حركة الطبقة العاملة في إنجلترا وصراع التيارين في حزب العمل 1900-1914) 1957، كتاب مدرسي: (صراع التيارين في الحركة العمالية الاشتراكية الانجليزية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) 1960، كتاب مدرسي: (أوروبا الغربية وأمريكا البرجوازيين على مشارف القرن العشرين: على طريق الأزمة العامة للرأسمالية) 1984. ومن مقالاته: (حركة الطبقة العاملة وسياسة البرجوازية الانجليزية 1906-1914) 1957، (قوانين الوضعيات التاريخية) 1971-سنقوم بترجمته قريباً، (دراسة مسائل التاريخ الحديث والمعاصر في الأعوام 1966-1970) 1971، (مساهمة في منهجية دراسة الثقافة ونقد مفاهيمها المثالية).

على الرغم من جميع الاختلافات في قوانين المادية التاريخية، والاقتصاد السياسي وعلم الجمال والسوسولوجيا العيانية ونظرية الأدب وتاريخ الفنون والعلوم الاجتماعية الأخرى (من حيث مدى الظواهر التي تشملها القوانين ومستوى تجريدها ودرجة شكليتها، الخ)، فإنها جميعها، بمعنى مُعَيَّن، من نفس النمط نوعياً كقوانين لتشكيلات اجتماعية مُعَيَّنة، سواء أ كانت شاملة للانسانية ككل، أو تشكيلات اجتماعية اقتصادية فردية، أو مراحل في نظام مُعَيَّن (قوانين الامبريالية على سبيل المثال)، أو قوانين لمُختلف الجوانب المُستقلة نسبياً للعملية التاريخية. من الطبيعي أن تفترض الخصائص المُختلفة لهذه التشكيلات مستويات مُختلفة من التجرّد عن التظاهرات التاريخية العيانية لقانوني مُعَيَّن ومن انحرافات وتعديلات خاصة تُحددها ظروف مُتنوعة. ان مستوى التجريد في القوانين ذات الطبيعة الاجتماعية الشاملة، أكبر بشكل مفهوم، منه في قوانين أنظمة مُعَيَّنة أو جوانب فردية من حياة المُجتمع.

ومع ذلك، ألا يوجد هناك، في تنوعات التطور الاجتماعي، ظواهر وعمليات وعلاقات يتم التوصل حولها الى تعميمات عن طريق قوانين تختلف نوعياً عن تلك الخاصة بالنظم التي تتميز بمستوى تجريد مُختلف اختلافاً جوهرياً؟ ان دراسة مقارنة لينين لقوانين حياة المُجتمع ومنهجية تحليلها والاستفادة منها، بالإضافة الى نفس القوانين التي صاغها لينين، يضع أساساً، في رأينا، لمناقشة الفرضية المعروضة أدناه. بالإضافة الى قوانين التشكيلات (أو القوانين العامة)، توجد أيضاً قوانين من نوع بالغ الأهمية يُمكن تسميتها مبدئياً "قوانين الوضعيات التاريخية". يتوافق هذا النوع من القوانين مع مجال مبحث دراسة التاريخ وهي قوانين خاصة به. بعبارة أُخرى، تختلف قوانين تخصص التاريخ عن تلك السائدة في العلوم الاجتماعية الأخرى من حيث أنها قوانين الوضعيات التاريخية، - أو قوانين تاريخية عيانية.

اعتبر لينين، لدن دفاعه عن المنهج الماركسي وتطويره لقوانين التطور الاجتماعي، أن القوانين ذات الطابع العام (قوانين التشكيلات) هي تعبير علمي، مأخوذة الى أقصى درجة من التجريد، للاتجاهات الموضوعية في تاريخ الانسانية ككل أو تاريخ التشكيلات الاجتماعية الفردية. تعكس القوانين العامة العلاقات المُتكررة والضرورية من خلال الكشف عن الأسس الكامنة لكل من العملية التاريخية بأكملها وجوانبها المُنفردة التي يتعذر رؤيتها من خلال مُجرّد الملاحظة ووعي الحس السليم، ومن خلال الكشف عن العلاقات بين سلسلة مختلفة من الظواهر الاجتماعية. هذه القوانين العامة التي تتمظهر بهذا الشكل تضع لنفسها مسارات من خلال التنوع العياني الملموس للعملية التاريخية. يقول لينين "يُقدّم لنا العلم في جميع مجالات المعرفة تجسيداً للقوانين الأساسية في الظواهر التي يتبدى لنا أنها تترجح في فوضى عارمة"¹ نظراً لأن القوانين العامة توحّد ما هو منطقي وتاريخي فهي تخلق أساساً منهجياً ثابتاً لتحليل المسار الملموس للتاريخ. "أي شخص يُعالج مسائل خاصة دون حل المسألة العامة سوف يتعثّر بلا هوادة وعن غير قصد في كل خطوة في هذه المسائل العامة"².

في الوقت الذي كان لينين يعزو لمبادئ النظرية العامة أهمية كبيرة، التي تجد التعبير الأكثر كمالاً عنها في القوانين، ناضل لينين ضد الاستخدام المُبسّط والمُبْتذَل للقوانين العامة في البحث الملموس. كان لهذه المسألة، بالإضافة الى أهميتها النظرية الصرف، أهمية عملية عميقة بالنسبة له، لأن العديد من التصورات المُعادية للماركسية مثل الماركسيين الشرعيين والاقتصاديين والمناشئة (والتي كان لها جذور اجتماعية وسياسية

¹ - V. I. Lenin, PSS, Vol. 25, p. 46

² -Ibid., Vol. 15, P 368

عميقة) غالباً ما اشتُقت ابستمولوجياً من المقاربة الخاطئة للعلاقة بين الطرح النظري التجريدي، والتاريخي العياني لهذه المسألة أو تلك.

أظهر لينين في وقتٍ مبكرٍ من جداله مع بيتر ستروفه P. Struve حول نظرية التحقق التي تعود الى ماركس، أنه يجب التمييز الدقيق بين كلا المقاربتين عند معالجة البيانات المُعطاة والمُتحددة بأهداف بحثية مُختلفة. اعتقد لينين أن خطأ مقاربة ستروفه يكمن في حقيقة أنه خلط "نظرية التحقق المُجرّدة... بالظروف التاريخية العيانية التي يتحقق في ظلها الانتاج الرأسمالي في بلدٍ مُعيّن أو في فترةٍ مُعيّنة"¹. في سعيه لدحض أحد قوانين الاقتصاد السياسي الماركسي، استشهد ستروفه بظروفٍ تاريخيةٍ مُختلفة ضيّقت أو عدلت الأشكال التي يتجلى فيها القانون. وفي حين يُظهر فشلاً تاماً في فهم أهمية القوانين العامة، فقد أعرب عن شكوكه حول القيمة العلمية لنظرية التحقق. رد لينين على هذا "الشك" بمجادلةٍ بليغة من حيث المقاربة الشاملة: "ان كان ستروفه مشوشاً من حقيقة أن (التحقق التام هو الهدف الأعلى للانتاج الرأسمالي وليس واقعه بأي حالٍ من الأحوال) فإننا نود أن نُذكره بأن جميع القوانين الأخرى للرأسمالية التي اكتشفها ماركس تُصوّر الحالة المثلى للرأسمالية فقط، وليس واقعها بأي حال². بالطبع، لا يدور الحديث حول "النمط المثالي" الفيبري، والذي يسمح بتطويع الحقائق التجريبية بشكلٍ تعسفي وانشاء "الأنماط" التي تكون "ملائمة" لجزء مُعيّن من البحث، بل يدور حول التجريد العلمي الصارم الذي يُعبّر عن جوهر عملية أو ظاهرة قيد الدراسة.

ويترتب على فهم لينين للقوانين كتجريدات ذات مستوى عالٍ والتي تقود الى فرض قانون عام على وضع ملموس لا محالة، الى بروز أخطاء في تحليل المسار التاريخي الحقيقي. "لم يُصرّح أيّ من خصوم ستروفه في أي وقت بعباراتٍ سخيفة مثل امكانية حل مسألة تاريخية من خلال المفاهيم المُجرّدة"³. وهكذا، أيد لينين، في نضاله ضد تحريفية ستروفه، أولاً، الأهمية الحاسمة للقوانين العامة من حيث معناها وشموليتها، وثانياً، أكد على أهمية استخدامها علمياً في البحث العياني.

ان التجرد عن الانحرافات والتعرجات الحقيقية للتاريخ، والذي هو أمر مُبرر وضروري تماماً لتحقيق المعرفة حول الانتظامات العامة، هو أيضاً غير مسموح به مُطلقاً في تحليل الواقع التاريخي، وهي الفكرة التي كررها لينين أكثر من مرة في نضاله ضد المناشقة في سنوات الثورة الروسية الأولى وفي فترة الرجعية. عند تحليله تقرير اكسلرود في المؤتمر الرابع للحزب، وصف لينين المُتحدث بأنه انتقائي "كُلّياً في مجال التجريد... الصالحة لكل زمان وكل أمة ولكل اللحظات في التاريخ، وغير القادرة بسبب تجريديتها على وجه التحديد، على تفسير الخصائص العيانية للمسائل العيانية التي تواجهنا"⁴. ظل لينين مُتمسكاً بهذا الرأي. كتب في عام 1917: "ان الاستعاضة عن الملموس بالمُجرّد هو خطأ من الأخطاء الرئيسية، من الأخطاء الأشد خطراً في الثورة"⁵.

أدت التغييرات الكثيرة والمُتكررة في الوضع الاجتماعي والسياسي في البلاد خلال الثورة الروسية الأولى، والحاجة الى تغيير التكتيكات وفقاً للأوضاع الجديدة للثورة، والصراع الايديولوجي والسياسي الحاد بشكلٍ مُتزايد والتشويه المنشفي للماركسية، أدت الى جعل مسألة تحليل الوضعيات التاريخية الملموسة واحدة من المسائل الهامة في المنهجية الماركسية. "يجب على الماركسي ألا ينسى تحت أي ظرفٍ من الظروف أن

¹ - ibid., Vol. 4, p. 68

² - Ibid., p. 80

³ - Ibid., p. 82

⁴ - Ibid., Vol. 13, p. 39

⁵ - مُختارات لينين في عشرة مجلدات، المُجلّد السادس، دار التقدم 1977، ص 515

الشعار الحالي لا يُمكن استنتاجه ببساطة وبشكلٍ مُباشرٍ من الشعار العام لوضع مُعطى... لهذا من الضروري مُراعاة الوضع التاريخي الملموس¹. على عكس المناشفة "يُركز الاشتراكيون الديمقراطيون الثوريون بشكلٍ خاص على الدراسة المُتأنية للوضع السياسي الملموس². لا يقصر لينين نفسه على الاطلاق على صيغة عامة تتعلق بالحاجة الى دراسة الوضع الملموس في حل المسائل التكتيكية. انه يطرح ويحل مسألة كيفية تحليل الوضع، ويتوصل الى كشوفات علمية ذات أهمية بارزة.

المسألة تطرح نفسها كالتالي: هل لدى الباحث في الأوضاع الملموسة تحت تصرفه قوانين عامة وبيانات ملموسة فقط، أم أنه يمتلك أيضاً أدوات أخرى طورها النهج الماركسي اللينيني؟ ألا يستطيع، على سبيل المثال، استخدام ما يُطلق عليه في اللغة اليومية "التجربة التاريخية"، أي مُقارنة الوضع قيد الدراسة بأوضاع أخرى كانت موجودة في أزمنة مُختلفة؟ ليس من الصعب أن نرى أن هذا السؤال الأخير مُرتبط بمسألة التكرار في التاريخ. بالنسبة للماركسيين، من الواضح أن النظم والعمليات والظواهر الاجتماعية في تاريخ المُجتمع مُناسبة تماماً للتعميم التصنيفي، لأنه من السهل نسبياً تتبع التكرارات في حال كانت المادية التاريخية مُرشدٌ لنا في هذا العمل. نحن، بالطبع، لا نتحدث عن التكرار الدقيق للمسار الملموس للأحداث في بلدانٍ مُختلفة، ولكن عن جوهر القابلية للتكرار حيث أنها تُعبّر عن وحدة العملية التاريخية في جميع أنحاء العالم. كتب لينين، في مُعارضته للسوسيولوجيا المثالية الذاتية بالماركسية، حيث أن الأخيرة "قدمت مقياساً موضوعياً تماماً إذ فرزت علاقات الانتاج بوصفها أساس المُجتمع، ووفرت إمكانية تطبيق المقياس العلمي العام، مقياس التكرار، على هذه العلاقات (مع أن الذاتيين كانوا يُنكرون إمكانية تطبيقه في علم الاجتماع)³.

لكن هل تُكرر الوضعيات التاريخية نفسها؟ هل يُمكن اخضاعها للتعميم التصنيفي؟ لأن كل وضع يتشكل في أي بلد في أي مرحلة من مراحل تطوره يكون فردي وفريد في شكله الملموس. طرَح لينين إجابة على هذا السؤال المُعقد في مستوييه النظري والعملية، وقدم أمثلةً كلاسيكيةً على تصنيف الوضعيات التاريخية.

مهما كانت الظروف الداخلية والخارجية لثورة عام 1917 (في الفترة ما بين شباط الى تشرين الأول) وثورة 1848 الفرنسية مُختلفة، إلا أن لينين قال إنه من المُمكن تصنيف الأوضاع التي نشأت في بلدين تحت بند نمطٍ واحد. تم التعبير عن هذا التعميم التصنيفي في شكل الوصف نفسه، متضمناً ما يميز كلاهما على وجه التحديد: "الجمهوريون البرجوازيون في الحُكم، وهم مثل الكاديت في بلادنا يُريدون "النظام" قادرين بذلك على بعث وتوطيد الأدوات المَلكية لاضطهاد الجماهير... مثل الكاديت في بلادنا يريدون وضع حد للثورة، ويكرهون البروليتاريا الثورية... وكانت البرجوازية الصغيرة المُتذبذبة الخائفة من الشبح الأحمر، المُنساقَة بالصيحات ضد "الفوضيين" القوة الاجتماعية الأساسية الثانية. فإن البرجوازية الصغيرة "الاشتراكية" بالأحلام والأقوال في تطلعاتها، والتي سمّت نفسها عن طيب خاطر "بالديمقراطية الاشتراكية" (والآن يستعمل الاشتراكيون الثوريون مع المناشفة هذا التعبير بالضبط) كانت تخشى أن تثق بقيادة البروليتاريا الثورية وكانت البروليتاريا القوة الطبقيّة الثالثة الفاصلة، وكانت تسعى لا الى "المُصالحة" مع البرجوازية، بل الى الانتصار عليها...⁴. هنا أثبت لينين أن الوضعيات يُمكن في جوهرها أن تتكرر. ولقد خُلصَ، من خلال فهمه أن هذه الوضعيات كانت من نفس النمط نوعياً، الى أنه من المُحتم أن تُحاول الطبقة الرأسمالية الروسية قمع الطبقة العاملة بالقوة. ومع ذلك، كان لينين شديد البُعد عن المُقاربة الجبرية لنتائج هذه المُحاولة: "فعلى

¹ - bid., Vol. 13, p. 312

² - ibid., p. 340

³ - مُختارات لينين في عشرة مُجلدات، المُجلد الأول، دار التقدم 1978، ص46

⁴ - مُختارات لينين في عشرة مُجلدات، المُجلد السادس، دار التقدم 1977، ص496-497

صلابة العمال الثوريين في روسيا ويقظتهم وقوتهم بوجه الحصر يتوقف ما إذا كان النصر أو الهزيمة سيكون من نصيب إضراب كافينيك الروس...¹. لم تُقدّم حقيقة انتصار كافينيك باريس أي أساس لاستنتاج أن انتصار "الكافينيك الروس" كان حتمياً، ولكن كان احتمال انتصارهم في وضعٍ من هذا النمط حقيقياً تماماً.

أذاً، في القضية المُعطاة، ما هي منهجية لينين من أجل تحديد تكرار الوضعيات أو تصنيف تطابقها؟ تكمن الصعوبة في حقيقة أنه ليس فقط لا تتطابق المعايير وتسلسل الأحداث والشخصيات والخلفيات التاريخية، ولكن هناك أيضاً اختلافات جوهرية في بعض السمات الأساسية لهذه الوضعيات التاريخية. لقد حدثت ثورة عام 1848 عندما كانت الرأسمالية في صعودها، بينما حدثت الثورة الروسية في عصر الامبريالية. كانت فرنسا دولةً مُركزةً ذات قومية واحدة، في حين كانت روسيا مُتعددة القوميات. ألغيت ثورة شباط في فرنسا المَلْكية البرجوازية، في حين وضعت ثورة أكتوبر حداً لنظام مَلْكي مُطلق لم يكن قد خطى بعد خطواته الأولى باتجاه تحوله الى نظامٍ برجوازي. ولدن استنتاجه أن كلا الوضعيتين من نفس النمط، فقد أخذ كل ما سبق ذكره بعين الاعتبار، وأشار مباشرةً الى الاختلافات الكبيرة بينهما: "الآن تتوفر في روسيا كثرة من العناصر التي تُميّز ثورتنا عن الثورة الفرنسية في عام 1848: الحرب الامبريالية، كوننا في جوار بلدان أكثر تقدماً (وليس أشد تَأخراً كما كان الحال بالنسبة لفرنسا آنذاك)، حركة زراعية وقومية، ولكنه ليس بوسع كل هذا أن يُغيّر الا شكل عمل إضراب كافينيك، واللحظة، والذرائع الظاهرية، وما الى ذلك، وليس بوسع كل هذا أن يُغيّر جوهر المسألة، لأن الجوهر يقوم في العلاقات المُتبادلة بين الطبقات."²

تحتوي هذه الكلمات على المبدأ الأساسي لكل المسألة، والذي يوضّح خصائص الوضعية التي اعتبرها لينين أساسية وحاسمة في إرساء الحق في وضع مجموعة من الوضعيات (في بلدانٍ مُختلفة في مراحل مُختلفة من التطور، وما الى ذلك) في نفس التسلسل النمطي. يكمن جوهر الوضع، والذي يخضع وحده للتنميط، في تناسب القوى الطبقيّة، والعلاقة المُتبادلة بين الطبقات.³

يطبع مستوى تطور الطبقة وخصائصها التاريخية الملموسة الأخرى طابعه على الوضع الذي تجد هذه الطبقة نفسها فيه. علاوةً على ذلك، فهي، أي الطبقة، تؤثر على تشكّل أي وضعية مُحددة. ينهض الوضع، في سياق الصراع الطبقي. ان علاقاتها المُتبادلة تُحدد جوهرها وتُحدد أهم خصائص ملحّة تاريخية مُعطاة. هذا هو السبب في أن لينين قد صنّف الوضع الفرنسي عام 1848 والوضع الروسي صيف عام 1917 على أنهما ينتميان الى نمطٍ واحد، على الرغم من حقيقة أنه لا يُمكن تعريف أي من الطبقات الرئيسية الا من خلال المعايير الأوسع لهذا النمط. من أجل رسم تشابه نمطي في الوضعيات، يكفي أن تحتل الطبقات الأساسية موقعاً جوهرياً مُطابقاً فيما يتعلق بالعلاقة مع الطبقات الأخرى (الطبقة الرأسمالية تسعى الى "النظام"، الطبقة البروليتارية تُناضل من أجل الوصول الى السُلطة والنضال من أجل تطور الثورة، والبرجوازية الصغيرة تُساعد القوى الرجعية، بسبب تذبذبها موضوعياً).

يسمح لنا تحليل مُقارنة لينين حول تكرار الوضعيات بالتوصل الى ثلاث استنتاجات على الأقل. في المقام الأول، الى جانب قابلية تكرار الأنظمة والعمليات والظواهر، نحن نواجه ظاهرةً أخرى في التاريخ، أي تكرار الوضعيات التاريخية، والتي تكون بالتالي قابلةً للتعميم النمطي. في المقام الثاني، تتعلق قابلية تكرار

1 - نفس المصدر، ص 500

2 - نفس المصدر، ص 499-500

3 - يتعلق هذا التعريف، بطبيعة الحال بالمُجمعات الطبقيّة. يتطلب تطبيق مفهوم الوضع التاريخي على المُجمعات غير الطبقيّة مُعالجة خاصة، وهذا ما لم نتناوله في هذه المقالة.

الوضعيات بجوهرها. بقدر ما يتطلب تحديد تكرارية الأنظمة تجرداً من السمات العيانية للنظام في بلدٍ مُعيّن (على سبيل المثال، الخصائص المُميزة للرأسمالية في روسيا وانجلترا)، يتحدد التطابق النمطي للوضعيات من خلال التجرد عن الظروف الخاصة لوضعية عيانية مُعطاة. ومع ذلك، فإن مبدأ التجرد principle of abstracting ومستوى التجريد level of abstraction مُختلفين تماماً هنا. في الحالة الأولى، يتجاهل الباحث تماماً الوضعية التاريخية العيانية، بينما في الثانية، الوضعية هي بالضبط ما يدرسها الباحث، مُقصرًا نفسه فقط على تلك الخصائص التي تُعبّر عن الجوهر. ثالثاً، جوهر الوضعية التاريخية هو العلاقة المُتبادلة بين الطبقات، ومدى قوتها. يؤدي التغير النوعي والجوهري في تناسب القوى الطبقيّة الى تغيير الوضعيات التاريخية. يُمكن اعتبار أن الوضعيات التاريخية تنتمي الى نفس الفئة إن كانت العلاقة بين الطبقات مُتطابقة بشكلٍ أساسي.

تحدث لينين في بواكير الثورة الروسية لعام 1905-1907 حول نتيجتين مُحتملتين واتخذ اعتباراتٍ نظريةً عامة كمنقطة انطلاق له، وهذه الاعتبارات هي القانون العام لاحتامية التغيرات البرجوازية-الديمقراطية في سياق تطور الرأسمالية: "ان تحوّل النظام الاقتصادي والسياسي في روسيا تحولاً ديمقراطياً برجوازياً أمر أكيد، مُحتمّم". لكن شكل التحوّل لا يتحدد مُسبقاً بواسطة القوانين العامة، فهو يعتمد على كيفية انتهاء الثورة. انطلاقاً من ذلك، وصف لينين الأوضاع التي قد تنشأ بعد الثورة، أي أنه حدد أنماطها بشكلٍ أساسي: "1- فإما أن يؤول الأمر الى (انتصار الثورة الحاسم على القيصرية) وإما 2- أن لا تكفي القوى لإحراز النصر الحاسم وينتهي الأمر بصفقة بين القيصرية وأشد العناصر "ذبذبة" وأكثرها "أنانية" في صفوف البرجوازية. انه كان يُجادل أنماطاً من الوضعيات من خلال جُملة انتهت بهذا التأكيد العلمي: "عند أخذ كل شيء بعين الاعتبار"، "فان التنوع اللامتناهي من التفاصيل والتركيبات المُمكنة التي لا يستطيع أحد التنبؤ بها، ينحصر بالاجمال في أحد هذين المآلين¹."

وهكذا، في حالة الاحتمال الأول، سوف تتم التغيرات الديمقراطية الجمهورية والبرجوازية الديمقراطية بأساليب يعقوبية، واضعاف واضح لمواقع مُلاك الأراضي وشريحة الرأسماليين الرجعيين المُرتبطة بهم، ومواجهة مُباشرة بين الطبقة العاملة والرأسماليين مما يؤدي الى تقاوم الصراع الطبقي من أجل التأثير على البرجوازية الصغيرة من بين أمورٍ أخرى، و"عندما يتم أخذ كل شيء في الاعتبار" سد" يكمن جوهر الوضعي، والذي يخضع وحده للتنميط، في تناسب القوى الطبقيّة، والعلاقة المُتبادلة بين الطبقات."

ليس من الضروري وصف العلاقة المُتبادلة بين الطبقات في حالة النتيجة الثانية. لقد كان هذا الوضع تحديداً هو الذي تطوّر في روسيا، وتقييم لينين له معروفٌ جيداً. عند مُعالجته لهذه النتيجة، فقد وضعها لينين في تسلسل تنميطي كان قد ظهر مُسبقاً: "وسيكون هذا المآل، الى هذا الحد أو ذاك، أشبه بمآل الثورات الديمقراطية في أوروبا القرن التاسع عشر، بمآل جميعها تقريباً²..."

عزا لينين أهميةً كبيرةً لمسألة تكرار الوضعيات التاريخية. كما نعلم، دافع المناشفة، خلال ثورة 1905 عن خط تحالفهم مع الطبقة الرأسمالية، وأشاروا الى الفرضية العامة الماركسية بأن الرأسماليين الكبار هم مجموعة تقدمية في فترة صعود التطور الرأسمالي.

1 - حُطنا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية، لينين، دار التقدم، ص44

2 - نفس المصدر، ص47-48

كَتَبَ لينين "ان حُجة هؤلاء الناس تستند الى اختيار غير موقِّق للاقتباسات. انهم يتخذون افتراضات عامة مُعينة تتعلق بدعم الرأسماليين الكبار ضد البرجوازية الصغيرة الرجعية ويُطبّقونها دون تمحيص على الكاديت الروس والثورة الروسية"¹. دون التقليل من أهمية القوانين العامة على الاطلاق، أوصى لينين باستخدام طريقة مُختلفة: "يجب على أي شخص يرغب في الاستعانة بماركس بشأن مهام البروليتاريا في ثورة برجوازية أن يُعالج تفكير ماركس الذي يتعامل بشكلٍ خاص مع فترة الثورة البرجوازية الألمانية"². قد يكون الموقف الذي اتخذه ماركس وانجلز في ثورة عام 1848-1849 قد استُخدم من قِبَل الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين الروس كمثال، لأن الوضع الذي نشأ في ذلك الوقت كان مُشابهاً في نمطه للوضع في روسيا عام 1905-1907: السُلطة في أيدي مَلَكية مدعومة بشكلٍ رئيسي من قِبَل مَلَكَ الأراضي من النمط شبه الاقطاعي، وطبقة رأسمالية تعمل من أجل عقد صفقة مع الرجعيين، وطبقة عاملة تُناضل من أجل استكمال الثورة حتى النهاية، وبرجوازية صغيرة مُتذبذبة.

لم يُغفل لينين، بالطبع عند، "استشارته" لماركس، الاختلافات الملموسة في الوضع ومسار الثورتين الروسية والألمانية، لا سيما على مستوى تنظيم ووعي الطبقة العاملة. في نفس العمل الذي تم الاستشهاد منه أعلاه، يستشهد بكلمات فرانس ميهرينغ: "التاريخ يمقت التكرار"³. لكن حقيقة أن تناسب القوى الطبقيّة التي كانت أهم المسائل، قد كانت من نفس النمط، قد وفرت أساساً لاستنتاج مبادئ تكتيكية مُشتركة، على الرغم من أنها كانت بطبيعة الحال تختلف باختلاف الوضعيات، حتى ضمن التصنيف النمطي نفسه.

حدّر لينين، عند تأييده للمقارنة بين الوضعيات التاريخية والتوصية بها كإحدى وسائل معرفة الظواهر الاجتماعية، من أنه لا يمكن لمثل هذه المقارنة أن تكون مُثمرة الا إن تمت على أساس علمي صارم، أي بعد التحقق الأولي من ظروف امكانية مقارنة الوضعيات للتأكد مما إذا كانت من نفس النمط. بخلاف ذلك، ستكون أي مقارنة مُجرّد تعمية للحقيقة وتصير شعوذةً اعتبارية، وهذا أمر خطير ان لم يكن مبنياً على التعميم النمطي.

حتى في أعماله المُبكرة، حث لينين قُرّاءه على تذكر "القاعدة الأساسية للمقارنة: يجب أن تكون الظواهر التي تتم مقارنتها من نفس النمط"⁴. أظهر لينين، في بداية ثورة 1905-1907 خطأ المقارنة الشائع في الصحافة الليبرالية، بين الدوما واللاندتاغ البروسي في فترة الصراع الدستوري: "ان كان المرء سيُجري مقارنته فعلاً، فليست الفترة الدستورية، بل فترة النضال من أجل الدستور، وفترة بداية الثورة التي يجب أن تؤخَذ كمثال... يُذكرنا مجلس الدوما بالبرنامج البروسي "اللاندتاغ المُتحد" في 3 شباط 1847، أي قبل عام من الثورة"⁵. على الرغم من أنه تجري هنا من الناحية الشكلية مقارنته بين المؤسسات وليس الوضعيات، إلا أن لينين كان يُقارب المسألة من موقع الوضعيات بالضبط، كان يستخلص استنتاجات حول الفترات التاريخية التي كانت مُتشابهة من حيث تناسب القوى الطبقيّة.

وبالتالي، فمن الخطأ المنهجي ليس فقط "فرض" قانون عام بشكلٍ مُباشرٍ على وضع ملموس، ولكن أيضاً تجاهل التكتيكات العلمية لتصنيف الوضعيات. تكررت هذه الأفكار حول هذه المسألة في كتابات لينين، الذي هاجم خصومه الايديولوجيين لأنهم استخدموا "أسلوب جميع السفسطائيين في جميع الأزمنة، وقوامه أخذ أمثلة

1 - Ibid., Vol. 15, p. 264

2 - ibid

3 - ibid., p. 261

4 - ibid., Vol. 1, p. 25

5 - ibid., Vol. 11, p. 187

من المعروف سلفاً أنها ترتبط بحالات مُختلفة مبدئياً¹. ان كلاً من مارتوف وتروتسكي يجمعان الفترات التاريخية المتنوعة معاً...² "لقد نسي العزيز لارين الغالي نقل الظروف الصناعية والتاريخ من بلجيكا الى روسيا"³. حتى اولئك المُخلصين لقضية الشيوعية ارتكبوا أحياناً نفس هذا الخطأ المنهجي: "الرفيق بيلا كون يقوم بانتقاده على أساس اقتباس من ماركس يتعلق بوضع يختلف عن الوضع قيد الدراسة..."⁴

ان قَبْلَ المرء تكرر الوضعيات التاريخية فيما يتعلق بجوهرها وامكانها، وانطلاقاً من ذلك، تصنيف الوضعيات في سلسلة نمطية، وان قَبْلَ المرء، بالإضافة الى ذلك، الصلاحية العلمية لفكرة "نمط الوضعية"، فإنه سيترتب على ذلك وحده أن يكون لكل نمط من الوضعيات انتظاماته الخاصة التي يُمكن أن يُطلق عليها اسم "قوانين الوضعيات التاريخية". تم تأكيد هذه الاستنتاجات بالكامل من خلال تحليل قوانين الوضعيات التي اكتشفها وصاغها لينين من قبل. سيكون من المُحبذ أن نبني تحليلها على تعريف لينين للوضع الثوري، والذي يُعد في هذه الحالة مثلاً كلاسيكياً. كما نعلم، تعامل لينين مراراً وتكراراً مع تحليل الظروف الموضوعية التي يُمكن في ظلها أن تنتصر الثورة. لقد استنتج خلال ثورة 1905-1907 أن الانتفاضة سوف تنهض "في الوقت الذي تكون فيه الحكومة في أسوأ حال وفي لحظة النهوض العارم للجماهير"⁵. طرَحَ لينين في عامي 1913 و1915 تحديداً لمعايير الوضع الثوري. في عام 1920 وضع الصيغة النهائية لقانون الثورة الأساسي: "أن يستحيل على الطبقات السائدة الاحتفاظ بسيادتها دون أي تغيير. أن تنتشب هذه الأزمة أو تلك في (القمة)، أي تنتشب أزمة في سياسة الطبقة السائدة، تُسفر عن صدع يتدفق منه استياء الطبقات المُضطهدة وغضبها. فلكي تنفجر الثورة لا يكفي عادةً (ألا تريد القاعدة بعد الآن) أن تعيش كما في السابق، بل ينبغي أيضاً (الا تستطيع القمة ذلك)"⁶. طَبَّقَ لينين مفهوم "القانون" الغائب عن جميع الصياغات السابقة، فقط بعدما تحقق من تجربة ثورتي فبراير و أكتوبر في روسيا، ونوفمبر في ألمانيا وعدد من الثورات الأخرى بين عامي 1918-1919. أكدَ لينين نفسه أن القانون قد تأكَّدت صحته عام 1905 في روسيا وفي جميع المراحل الثورية في الغرب"⁷.

إن مقارنة قانون الوضع الثوري بقانون التطور الرأسمالي اللامتكافئ، على سبيل المثال، يكشف الاختلافات النوعية بينهما. ينص الأول على إعتمادية نتيجة مُعينة (وهي احتمالية انتصار الثورة) على وضعية نشأت مُسبقاً. عندما يوجد معيار نمطي مُعَيَّن للوضع (بغض النظر عن الأشكال الملموسة التي يتخذها)، حينها تكون الثورة مُمكنة. ان كان أحد هذه المعايير مفقود (بقدر ما يعني هذا تغييراً في الوضعية)، فإن الثورة مُستحيلة. في القانون الثاني، تكون النتيجة (لاتكافؤ التطور) هي نتيجة نظام (الرأسمالية). في ظل الرأسمالية، وخاصةً في مرحلتها النهائية، تتطور البلدان بشكلٍ غير مُتكافئ. وطالما ظل النظام الرأسمالي قائماً، فإن البلدان الموجودة في ظلّه تتطور وفق هذا القانون. بعبارةٍ أخرى، ان جزء القانون الذي يُحدد مجال التطبيق خارجه

1 - مُختارات لينين في عشرة مُجلدات، المُجلد الخامس، دار التقدم 1976، ص307

2 - Ibid., Vol. 19, p. 363

3 - Ibid., Vol. 14, p. 165

4 - Ibid., Vol. 41, p. 136

5 - Ibid., Vol. 9, p. 134

6 - مُختارات لينين في عشرة مُجلدات، المُجلد الخامس، دار التقدم 1976، ص297-298

لتحليل تاريخ اكتشاف هذا القانون أنظر:

G. P. Frantsov, Istoricheskie puti sotsial'noi mysli, Moscow, 1965, pp. 356-370

7 - نفس المصدر، ص298

ينحل في الحالة الأولى الى وصف لنمط الوضع، وفي الحالة الثانية الى تعريف للنظام. هذا هو الفرق بين قوانين الأنظمة وقوانين الوضعيات من حيث طبيعة الكيانات التي يتم تعميمها منها.

من أجل اثبات حقيقة أن التطور الرأسمالي اللامتكافئ أمر حتمي في مجموعة معينة من البلدان، يكفي إظهار أن هذه الدول رأسمالية. ولكن من أجل تحديد ما إن كانت انتصار الثورة ممكن في بلد معين في مرحلة محددة، من الضروري التحقق مما إذا كان الوضع الذي نشأ هناك يندرج ضمن الأوضاع الثورية. للقيام بذلك، يجب على المرء أن يدرس العلاقة بين الطبقات دراسة تاريخية ملموسة. هذه هي المسألة فيما يتعلق بمنهجية استخدام نمطين من القوانين: قوانين الأنظمة وقوانين الوضعيات. وهذا هو السبب في أن قوانين الوضعيات التاريخية هي قوانين ملموسة تاريخية.

إن قانون التطور الرأسمالي اللامتكافئ، وقانون الإفقار النسبي المطلق للبروليتاريا، وقانون تعاقب التشكيلات الاجتماعية-الاقتصادية، وقانون ضرورة دكتاتورية البروليتاريا خلال الفترة الانتقالية، والقوانين العامة الأخرى (قوانين الأنظمة) مستقلة عن الظروف الملموسة، أي مطلقة. إن ظروف المكان والزمان قادرة على التأثير فقط في شكل وشدة تلك القوانين التي تُعبّر بها عن نفسها. يستخدم لينين فكرة "القانون المستقل عن الظروف" عندما يعتبر أن ظاهرة معينة هي حتمية وضرورية في ظل نظام معين: "إن التفاوت في التطور الاقتصادي والسياسي هو قانون مطلق للرأسمالية"¹.

على عكس القوانين من هذا النوع، تحمل قوانين الوضعيات طابعاً شرطياً: فهي لا تُحدد حتمية نتيجة معينة بل إمكانية حدوثها. بعبارة أخرى، تكون النتيجة في هذه الحالة محددة في طبيعتها: يتم التعبير عنها في إمكانية (أو استحالة) تطور الأحداث والسياق التاريخي الملموس. كما نعلم، لا يؤكد قانون الوضع الثوري أنه سيكون هناك ثورة منتصرة حتماً في ظل نمط معين من الوضعيات، بل هذا القانون يقول بأنه "يمكن" أن تنتصر. يتجلى في هذا أيضاً الطابع الملموس تاريخياً لقوانين الوضعيات. كل وضع تاريخي يحوز على بديل. قد تتحول الأحداث نحو هذا الطريق أو ذلك، اعتماداً على تنوع الظروف التي لا تُشكل جزءاً من المعايير النمطية للوضعيات. تتأتى من هنا الأهمية الهائلة لنشاط الناس والأحزاب والطبقات الهادفة، نشاط الانسان صانع التاريخ والطاقة الثورية والجُرأة وفن رسم التكتيك. لكن الاستخدام الخلاق لكل من القوانين التاريخية العامة والملموسة يؤدي الى نتائج مواتٍ الى أقصى حد بالنسبة للنضالات التاريخية. وهكذا، فإن نمط القوانين قيد الدراسة، مثل جميع قوانين الطبيعة والمجتمع، تُعبّر عن التكرارية الموضوعية للعلاقات من نمط مُحدد، لأن قوانين الوضعيات تعكس الواقع التاريخي بشكلٍ مباشرٍ أكثر من قوانين النظم والتشكيلات.

تتجلى كل سمات قوانين الوضعيات هذه بالمثل لأقصى درجة في قوانين أخرى من هذا النمط اكتشفها لينين، بغض النظر عن مقاييس وأهمية الظواهر والتبعيات التي تشملها. إن قانون الوضع الثوري، ذلك الظرف المطلق لأي ثورة، يشمل بطبيعة الحال نطاق أوسع من الظواهر وفي المقابل مجال تطبيقه واسع أيضاً. إن مجال تطبيق قوانين الثورات البرجوازية محدود أكثر. أحد هذه القوانين هو: "إن الثورة البرجوازية، لا يمكنها أن تكون أكثر من ثورة غير مكتملة عندما تقودها البرجوازية... يمكنها أن تكون ثورة حقيقية فقط تحت قيادة البروليتاريا والفلاحين"². يتحدث لينين، في صياغته هذه، حول البروليتاريا، ولكن عندما كان يُناقش فترات الثورات البرجوازية الكلاسيكية، عندما لم تكن البروليتاريا تُشكّل قوةً مستقلةً بعد، فإنه يستخدم مصطلحاً مختلفاً. كتب لينين أن الكثير من مصائر الأمم تعتمد على "المقدار الذي تنتقل به الزعامة في

¹ - مُختارات لينين في عشرة مجلدات، المُجلد السادس، دار التقدم 1977، ص 23

² - Ibid., Vol. 15, p. 228

اللحظات الحاسمة من التاريخ الوطني، لا الى البرجوازية، بل الى "الرُعاع"، الى "العامّة" الذين ينتمون الى القرن الثامن عشر، الى بروليتاريا القرن التاسع عشر والقرن العشرين¹. وبالتالي، بما أن التعميم الذي ندرسه يتعلق بالثورات البرجوازية بشكل عام، فيمكن صياغته على النحو التالي: لا يُمكن أن تصل الثورة البرجوازية الى نهايتها المنطقية الا تحت قيادة "الطبقات الدُنيا"، عامة الشعب والبروليتاريا والفلاحين.

أولاً، من الضروري تحديد ما ان كانت هناك أسباب لا اعتبار هذه الصيغة كقانون وليس كتعميم على مستوى أدنى. في المقام الأول، ما يتم التعبير عنه هنا هو العلاقة المُتكررة باستمرار بين اتمام الثورة البرجوازية، وقيادة "الطبقات الدُنيا". في المقام الثاني، هذه العلاقة ضرورية، إنها تتحدد بخصائص البرجوازية كطبقة ستدخل حتماً في صراع ليس فقط مع الاقطاع الرجعي، ولكن، مع الطبقة "الرابعة" وعوام المُدن والبروليتاريا في مرحلة مُعينة أيضاً. وهكذا، نحن نتعامل مع قانون، لكن مع قانون مُحدد، لأن الأمر ليس مُتعلقاً بالثورات البرجوازية كنظام خاص. لا تعتمد القوانين العامة للثورات البرجوازية على الأوضاع، لكنها تُظهر نفسها بشكل مُختلف بالاعتماد عليها. في مثالنا المطروح، تم اثبات تبعية النتيجة (اكتمال الثورة) على الوضع الناشئ في سياقها. بعبارة أُخرى، يستند هذا القانون أساساً الى التعميم النمطي للوضعيات وليس الأنظمة. في الحقيقة، الثورة البرجوازية تحت قيادة "الرُعاع" هي نوع خاص من الوضعيات. يكمن جوهرها في علاقة الطبقات التي تنجح في ظلها "الطبقات الدُنيا" في الاستيلاء على قيادة العمليات الثورية. مثل قانون الوضع الثوري، فإن هذا القانون (الذي يُمكن تسميته "قانون اكتمال الثورات البرجوازية") يدور حول إمكانية حدوث نتيجة مُعينة في ظل وضع مُعين فقط، ولا يؤكد أن قيادة "الطبقات الدُنيا" يضمن استكمال الثورة. هذا يعتمد على العديد من الظروف الأخرى. هذا ما كتبه لينين "قد تكون" وليس "ستكتمل حتماً".

يرتبط هذا القانون ارتباطاً شديداً بقانون آخر بالغ الأهمية، والذي افترض وجوده أنجلز قبل سنوات من ذلك: "لكي تتحصل الطبقة الرأسمالية على ثمار النصر التي كانت قد نصجت تماماً في ذلك الحين، من الضروري أن تتجاوز الثورة هذا الهدف نفسه الى حد كبير... يبدو أن هذا هو في الواقع أحد قوانين تطور المُجتمع الرأسمالي"². في عرضه لهذا الاقتباس، يختبر لينين ان كانت الفرضية تنطبق على الثورة الروسية 1905-1907: "تأكدت حقيقة أن الثورة يجب أن تُستكمل الى أبعد من أهدافها البرجوازية الناضجة الصرف من أجل تحقق هذه الأهداف حقاً، ومن أجل ضمان الحد الأدنى من المكاسب البرجوازية التي تتجاوز إمكانية الانقلاب ضدها"³. بعبارة أُخرى، يُمكن ضمان مكاسب الثورة البرجوازية حينما يُمكن تجاوز إمكانية الانقلاب عليها فقط في نوع مُعين من الوضعيات، أي عندما تتجاوز الثورة أهدافها. تعتمد النتيجة (تأمين المكاسب البرجوازية) على نمط الوضعية.

قانون الوضعية هذا، مثله مثل القوانين الأخرى، ليس مُستقلاً عن الظروف. حتى لو تجاوزت الثورة البرجوازية أهدافها الناضجة بالكامل، فقد تفقد مكاسبها جُزئياً نتيجةً لتدخل الثورة المضادة أو عوامل أُخرى لم يتم تضمينها في الوضعية المُعطاة. لكن إمكانية تأمين هذه المكاسب وحسب، موجودة عندما يكون الوضع من ذلك النمط. من الواضح أن منهجية دراسة هذا القانون لا تفترض وجود أنظمة، بل تحليل تاريخي ملموس. من أجل تحديد العلاقات التي يُعبر القانون عنها، لا يكفي أن نُؤكد أن الأحداث قيد البحث تُشكل ثورةً برجوازية. من الضروري أن ندرس بدقة كيف تتطور الثورة المعنية، وما هي علاقات القوى الطبقيّة، وما إن

1- مُختارات لينين في عشرة مُجلدات، المُجلد الثالث، دار التقدم 1976، ص542

2 - K. Marx and F. Engels, -Soch., Vol. 22, pp. 308-309

3 - V. I. Lenin, PSS, Vol. 17, p. 47

كانت الثورة قد تجاوزت الحد الأدنى من الأهداف البرجوازية. يجب، بعبارةٍ أخرى، إجراء بحث تاريخي ملموس.

تتعامل قوانين الوضعيات مع الواقع التاريخي. من الصعب للغاية، في المسار الفعلي للأحداث، تحديد الى أي درجة نضجت أو نشأت معايير نمطية معينة. قد لا يتمكن أولئك "الذين في القمة" من الاستمرار بالحكم بالطرق القديمة، ولكن قد تكون الدرجة التي لا يستطيعون فيها القيام بذلك أكبر غداً. قد لا يكون أولئك "الموجودين في القاع" مُستعدين لمواصلة العيش بالطريقة القديمة، ولكن هنا أيضاً، هناك مستويات مختلفة من عدم القدرة أو الرغبة في ذلك. أياً يكن أمر إخضاع العلاقات التاريخية لدراسة صارمة للغاية، فإن تلك العلاقات، لا يُمكن، بحكم طبيعتها، أن تخضع لقولية رياضية دقيقة. هذا هو السبب في أن إحدى الخواص الأخرى لقوانين الوضعيات تكتسب أهمية كبيرة: قدرتها على أن تخضع لتغيرٍ الى قوانين تُعبّر عن العلاقات بين الدرجة التي نضج فيها وضع مُعيّن، وأماكنيات نتائجها. هذه القدرة على التحول والتي لا تُفقد القانون معايير النمطية النوعية.

والحقيقة، أنه كلما تعمقت الأزمة في "القمة" وعدم رغبة الجماهير في العيش بالطريقة القديمة، زادت احتمالية حدوث ثورة ناجحة. وفي أحد تعريفاته، وضع لينين صياغةً لهذا المبدأ: "ان الديمقراطية البرجوازية في كل بلد تتشكل بنحوٍ أو آخر في عهود التحولات البرجوازية (أو بالأصح، في عهد الثورات البرجوازية) وتتخذ هذا المظهر أو ذلك، وتترى بهذا التقليد أو ذلك، وتعترف بهذا الحد أو ذلك من الديمقراطية، تبعاً للمقدار الذي تنتقل به الزعامة في اللحظات الحاسمة من التاريخ الوطني، لا الى البرجوازية، بل الى (الرُعاة)، الى (العامّة)"¹.

هنا، يتحدث لينين عن درجة الهيمنة (أي المقدار)، مُدتها، استقرارها، وما الى ذلك. ولكن، قوانين الأنظمة مثل قانون التطور الرأسمالي اللامتكافئ، على سبيل المثال، لا يُمكن أن تكون من نمط قوانين (بقدر ما كذا وكذا، فسوف كذا وكذا). فقط قوانين الوضعيات تُعبّر عن مثل هذه العلاقات، والتي تتمظهر اما بالشكل التقليدي المُعتاد، أو في شكل يعكس الدرجة التي تؤثر بها الأسباب على النتائج.

وبالتالي، فإن قوانين الوضعيات التاريخية تُشكّل نمطاً مُتميزاً من قوانين التطور الاجتماعي، وهي تتميز بالسمات التالية: 1- انها تستند الى التعميم النمطي للوضعيات وليس الأنظمة، والوضع يُفهم بهذه الصورة على أنه العلاقة المُتبادلة بين الطبقات التي تتخذ شكلاً مُعيّناً في بلدٍ مُعيّن في فترة معينة من تاريخه. 2- انها لا تُحدد حتمية نتيجة معينة بل امكانية حصولها (أو استحالة ذلك) في ظل نمطٍ مُعيّن من الوضعيات. 3- تُعبّر ليس فقط عن اعتمادية نتيجة مُتملة على وضعية ما، بل ودرجة الامكانية، التي تتحدد بدورها حسب درجة نُضج نمط الموقف المعني. 4- تُستخدم بطريقة ملموسة تاريخياً.

يُستمد تعريف قوانين الوضعيات مما يلي: قوانين الوضعيات التاريخية هي قوانين تاريخية ملموسة تتضمن قابلية التكرار المُستقر والضروري للعلاقات بين نمط الوضع وامكانية نتيجة مُعطاة. يُظهر تحليل قوانين الوضعية التاريخية مدى ارتباطها المُباشر بالمسار الحقيقي للتاريخ. انها تُشتق على أساس تجريد نطاق قوانين مُختلفة تماماً، "أدنى" من قوانين الأنظمة. تُستمد القوانين الأخيرة من الظروف الملموسة بشكلٍ عام، في حين أن قوانين الوضعيات تُستمد فقط من الظروف الثانوية التي لا تشمل معايير النمط. تضع هذه الخصيصة الأساس فيما يتعلق بقوانين الوضعيات كقوانين تخص مجال تخصص التاريخ، هذا التخصص

1 - مُختارات لينين في عشرة مجلدات، المُجلد الثالث، دار التقدم 1976، ص541-542

المدعو لكشف وتحليل وبحث تلك الوضعيات. يتأكد هذا من خلال الخصائص الأخرى لقوانين الوضعيات المذكورة أعلاه. ولكن هناك أيضاً اعتباراتٍ أخرى تؤدي الى نفس الاستنتاج.

ان العملية التاريخية كموضوع للتعلم هي أمر مُعقّد بشكلٍ غير مألوف. لا يُمكن فهمها ما لم يتم فرز البنية التي يتم البحث فيها حول جوانبها وأجزائها وأنظمتها المُختلفة. هذه هي الطريقة التي ظهرت بها العلوم المُختلفة حول المُجتمع وقوانين تلك التخصصات، التي تُعبّر عن العلاقات داخل حدود الأنظمة المُتسلسلة نسبياً. ان الكشف الهائل الذي قامت الماركسية به، والتي وضعت دراسة الظواهر الاجتماعية لأول مرة على أساس علمي، هذا الكشف هو فرز المجال الحاسم المُحدّد في حياة المُجتمع، أي بناءه التحتي. ان للقوانين الاقتصادية التي تحكم هذا البناء ذات أهمية حاسمة. إنها أكثر أهمية من أي نظام آخر على جده (لأن هذه الأخيرة تتحدد بالأولى، في التحليل النهائي). ولكن، فهي تظل قوانين نظام مُفرد، وليست قوانين للعملية التاريخية ككل. كتب انجلز: "ان العامل الاقتصادي هو الأساس، لكن لعناصر المُختلفة للبنية الفوقية-الأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه، ومثالها، الدساتير المُطبقة من قِبَل الطبقة الظاهرة بعد معركة ناجحة، الخ، والأشكال القانونية، وحتى انعكاسات جميع هذه الصراعات الفعلية في أدمغة المُشاركين، والنظريات السياسية والحقوقية والفلسفية، والآراء الدينية وتطورها اللاحق الى أنظمة عقائدية، تُمارس تأثيرها كذلك في مجرى الصراعات التاريخية وفي كثيرٍ من الأحوال تُحدد شكلها بصورة متفوقة"¹.

ان دراسة الكيان بأكمله كعمليات مُنفصلة عن بعضها البعض من أجل اكتساب المزيد من المعرفة حوله (مثل التاريخ الاقتصادي، تاريخ الدولة والقانون، تاريخ الثقافة، الخ) لهو منهج أكاديمي وتكنيك بحثي يعكس جوانب تطور المُجتمع الموجودة بالفعل. لكن الكيان نفسه، أي تطور المُجتمع الانساني موجود فقط في وحدة جميع جوانبه. التاريخ الفعلي هو وحدة وتفاعل مُختلف جوانب العملية التاريخية. وكما يقول انجلز "ان هناك تفاعلاً بين سائر هذه العوامل التي تنتهي الحركة الاقتصادية الى شق طريقٍ لها فيها على اعتبارها ضرورية..."². يُمكن القول، أن التاريخ ينتقل من وضعية الى أخرى، في حين أن الوضعية نفسها هي نتيجة وتمظهر ملموس لذلك التفاعل.

درست السوسيولوجيا الماركسية اللينينية والمادية التاريخية قوانين التفاعل بين الجوانب المُتنوعة لتطور المُجتمع بشكلها العام المُستقاة من الوضعيات التاريخية الملموسة. ولكن في كل لحظة مُعطاة، تعمل قوانين المادية التاريخية وتلك المُتعلقة بالأنظمة وتتمظهر في وضعية مُعطاة.

تحمل قوانين الوضعيات طابعاً تاريخياً ملموساً على وجه التحديد لأن الوضعيات تتشكل نتيجةً لتزامن العمليات التي تحدث في تشابك وتفاعل جوانب متنوعة من الحياة الاجتماعية. "ان الوقوع المُتزامن لحدث عجز (اولئك الذين في القمة) على أن يحكموا بالطُرق القديمة، وعدم قدرة أولئك الذين "في القاع" على أن يتصالحوا مع هذا النوع من الوضع، يُسمى أزمة سياسية على مستوى بالبلد بأكمله"(وان كنا نتفق على أن هذا يحتاج الى تدقيق)³. يتطور كل جانب من جوانب حياة المُجتمع والذي يُشكّل وضعية مُعينة وفقاً للقوانين السوسيولوجية العامة وقوانين نظامه الخاص أو تشكيلته. وبالتالي، فإن آلية هذه القوانين تكمن بالضبط في حقيقة أن هذه الآلية، التي تتجلى في سلوكيات الناس وتفاعلهم مع القوانين الأخرى، تُشكّل الوضعية. ومع ذلك، فإن هذه القوانين تدخل في الوضع ليس في شكل صرف ولكن في أشكال ملموسة مُميزة للبلد المعني والرحلة

1 - مراسلات ماركس وانجلز، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب، دار دمشق 1981، ص 495

2 - نفس المصدر

3 - V. I. Lenin, PSS, Vol. 23, p. 329

المعنية. هذا يعني، على سبيل المثال، أن قانون الإفقار النسبي والمُطلق للطبقة العاملة يدخل في وضعية ليس بشكله المُجرّد، ولكن مع عوامل مقاومة الطبقة العاملة، وتكتيكات الطبقة الرأسمالية، وعوامل أخرى تحد من عمل هذا القانون، أو تقوم بإطلاق العنان له من ناحيةٍ أخرى. وبالتالي، فإن قوانين الوضعية التاريخية هي قوانين تفاعل مُختلف جوانب العملية التاريخية، مُعبّرةً عن الآلية التي تعمل بموجبها القوانين العامة.

أعرب فرانتسوف عن فكرة مُشابهة جداً، فيما يتعلق بقانون الوضع الثوري: "يجب جعل القانون السوسيولوجي العام حول الصراع بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ملموساً بموجب قانون نُضح أزمة وطنية في بلدٍ مُعيّن"¹. على الرغم من أن مؤلف تلك السطور لا يتحدث عن وضع ثوري كقانون من نوع مُختلف اختلافاً جوهرياً عن القوانين العامة، إلا أن الفكرة القائلة بأن الأول هو أكثر ملموسيةً ومُرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالواقع التاريخي واضحةً تماماً. في الوقت نفسه، لا يُمكن للمرء أن يوافق على أن القانون الملموس تاريخياً، قانون الوضعية، هو تجسيد لأحد القوانين العامة، مهما كانت أهمية هذا الأخير. نحن نعلم أن الوضع الثوري ينشأ غالباً في ظروفٍ لا يصل فيها الصراع بين القوى الانتاجية والعلاقات الانتاجية الى حدوده القصوى. يُمكن تفسير ذلك من خلال حقيقة أن هناك قوانين أخرى تعمل في ذات الوقت: القوانين الاقتصادية (على سبيل المثال، قانون الإفقار النسبي والمُطلق للطبقة العاملة، مما يؤدي الى إضعاف الجماهير)، والقوانين الساسية، وأخيراً قوانين السيكولوجيا الاجتماعية (الاطروحة القائلة بأن "الذين في القاع" لا يريدون... يُعبّر عن مستوى مُعيّن من الوعي والمزاج الجماهيري).

بغض النظر عن أي من قوانين الوضعيات السابقة التي يدرسها المرء من وجهة النظر هذه، يجد المرء أن جميع جوانب العملية التاريخية، وبالتالي، أيضاً القوانين المُتأصلة فيها بشكلٍ مُباشرٍ أو غير مُباشرٍ تُشارك في تشكيل الوضع. هذا أمر طبيعي، لأن جوهر الوضعية يكمن في تفاعل الطبقات، التي يقوم تأثيرها في جميع جوانب حياة المُجتمع الاقتصادية والسياسية والايديولوجية بطبع بصماته في كل لحظة تاريخية. من المُمكن، عند أخذ هذا الأمر كنقطة انطلاق، تطوير تعريف قوانين الوضعيات المطروحة أعلاه، والتي تبدو في شكلها النهائي على النحو لتالي: قوانين الوضعيات التاريخية هي قوانين تخص مجال التاريخ، تُعبّر عن آلية عمل القوانين العامة وتؤكد العلاقة بين الوضع والنتيجة المُحتملة لمثل هذا الوضع.

تدور النقاشات العلمية التي تتناول مسألة القوانين المُميزة لمجال التاريخ حول عدة نقاط: 1- هل يُعد اكتشاف القوانين جزء من وظيفة تخصص التاريخ؟ 2- ان كان الأمر كذلك، فأى نوع من القوانين يجب اكتشافها؟ سوسيولوجية أم عيانية؟ 3- ان كانت عيانية ملموسة، فمن أي ناحية؟ من مدى الظواهر التي تشملها من ناحية نمط التعميم المُختلف نوعياً؟ 4- أخيراً، أن نحن أقررنا بأن القوانين المُتعلقة بالتاريخ تختلف نوعياً عن القوانين السوسيولوجية، فأين يكمن الاختلاف؟ في هذا السؤال الأخير، تم التعبير عن فكرة أن القوانين المُميزة للمعرفة التاريخية تعكس تفاعل جوانب مُتنوعة من العملية التاريخية. ان الأفكار حول "الاحتمالية التاريخية"، وحول أهمية مقولة "الاحتمالية والواقعية في تطور المُجتمع" وحول المُعالجة الاحتمالية لقوانين التاريخ²، وحول تصنيف التعميمات في كتابات لينين³ هي أيضاً مُثمرة (وقد اخذناها بعين الاعتبار عند معالجتنا للأطروحة المُقدمة).

¹ - G. P. Frantsov. cit., p. 364

² - Istoricheskaia nauka i nekotorye problemy sovremen - nosti, Moscow, 1969, p. 362

³ - See M. S. Persov, "Obobshcheniia istoricheskogo opyta v rabotakh V. I. Lenina (dooktiabr'skogo perioda)," V. I. Lenin i istoricheskaia nauka, Moscow, 1968

ليست هناك حاجة لتحليل تفصيلي، في حدود هذه المقالة، لوضع الفلسفة البرجوازية ومنهجية التاريخ، خاصة وأن هذا قد تم تناوله في أدبنا¹. ومع ذلك، يبدو أنه من المستحسن الإشارة الى النهج الذي اتخذه المؤرخون البرجوازيون تجاه المسائل المطروحة أعلاه، والى أهميتها للصراع الايديولوجي الجاري الآن في التاريخ. قد يعتقد المرء أنه كان على مسألة القوانين المميزة للمعرفة التاريخية أن تحظى باهتمام كبير في مناقشة الموضوع المنهجي "المؤرخ والعلوم الاجتماعية" في المؤتمر الدولي الثالث عشر للعلوم التاريخية. بغض النظر عن غموض الصياغة في كل من عناوين وصياغة الأوراق (كان التاريخ يبدو خارج حدود مفهوم "العلوم الاجتماعية")، فإنه يجب الاعتراف بأن الموضوع افترض، قبل كل شيء، توضيح الفروق بين موضوع بحث تخصص التاريخ ومواضيع العلوم الاجتماعية الأخرى، وبأن موضوع بحث أي تخصص يجد تعبيراً عنه في طبيعة القوانين التي يدرسها.

في الواقع لم يتم التطرق الى الطابع الذي يُميّز قوانين تخصص التاريخ في أوراق العلماء البرجوازيين. ان أسباب ذلك تكمن فيما يلي. في التاريخ البرجوازي، لم يتم التغلب على فكرة أن التاريخ هو نطاق بحث ايديوگرافي (مجال بحث مُتعلق بشخصيات وأفراد) أو حتى كفرع يُمكن الكتابة في نطاقه ابداعياً. بطبيعة الحال، يُنكر المؤرخون من مثل هذا النوع وجود قوانين لعملية التاريخ، ولا يُمكن أن يخطر لهم مسألة ماهية القوانين التي يتميز بها التاريخ. ومع ذلك، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين البرجوازيين لا ينتمون الى هذا التيار القديم. ومع اعتراف هذه الغالبية بوجود قوانين التطور التاريخي من حيث المبدأ، فإنهم يشنون نضالاً ضد الماركسية فيما يتعلق بطبيعة هذه القوانين ويُنكرون الكشوفات العظيمة للمادية التاريخية. وفي بحثهم حول العلاقات بين التاريخ والعلوم الاجتماعية الأخرى، لا يغيب تأثير الوضعية الجديدة اللادرية عندما يُنكرون فلسفة التاريخ، والتي تتمثل وظيفتها في تسليط الضوء على أكثر القوانين شموليةً لتطور تاريخ الانسانية. ان المؤرخين البرجوازيين، كقاعدة عامة، غير قادرين على طرح مسألة تصنيف العلوم الاجتماعية ونظام القوانين المتأصلة في كل منها، نظراً لعدم تملكهم لأي نظرية علمية حول العملية التاريخية وعدم ادراكهم لقوانين اجتماعية شاملة.

ولكن، عندما تنشأ مسألة امكانية الكشف عن القوانين، يتضح أن العلماء البرجوازيين عاجزون على وجه التحديد بسبب ضعف مواقفهم الفلسفية والمنهجية. يُمكننا أن نستشهد بمُحاججات المؤرخ الألماني الغربي تيودور شيدير Theodor Schieder كمثال على ذلك. كتب يقول، في ورقة قُدِّمَت الى المؤتمر: "ان أي تصوير للأحداث... هو، في المقام الأول، عرض للتفاعلات الملموسة والتاريخية للأحداث والتأثيرات. وفي الخطوة الثانية من اجراءات البحث اللاحقة قد يَنْشُج عنه استنباط قواعد أكثر عمومية، على أساس واحد أو عدة ترابطات أحداث تاريخية مهمة... ومع ذلك، هنا بالضبط تبدأ الصعوبات الحقيقية في مُحاججات المؤرخ المنطقية. هل يُمكن التعميم من الظروف التاريخية، حتى لو تم اختيار الأحداث بعناية ودعمها من خلال مقارنة عدد من الأمثلة؟". يدعم شيدير وجهة نظره، مُجيباً على هذا السؤال بالنفي، بالفكرة القائلة بأن المؤرخ لا يُمكنه الا استخلاص استنتاجات ذات طابع غائي. على سبيل المثال، فإن عبارة "مات لويس الرابع عشر غير معروفاً وبدون شعبية لأنه قام بسياسة تتعارض مع مصالح فرنسا القومية"، يُمكن للمؤرخ تحويلها الى عبارة "أي حاكم ينتهج سياسات لويس الرابع عشر في ظل ظروف مُماثلة سيفقد شعبيته، كما فعل لويس الرابع عشر بالضبط."

¹ - See, for example, A. I. Danilov, "Teoretiko-metodologicheskie problemy istoricheskoi nauki v burzhuznoi istoriografii FRG," Srednie veka, No. 15; I. S. Kon, "Filosofskii idealizm i krizis burzhuznoi istoricheskoi nauki," Voprosy istorii, 1963, No. 9

علاوةً على ذلك، يَخْلُص شيدير الى أن "شروط صياغة قانون، لم تعد مُستوفاة، على العكس من ذلك، يتم استنتاج العام من الخاص"¹.



تيدور شيدير

ليس من الصعب أن نرى، ان شيدير في استعارته للمثال الذي طرحه و. دري، يُنكر شيدير التكرار في التاريخ، وبالتالي، امكانية استنتاج قانون. وهكذا، فإن مسألة القوانين المميزة للبحث التاريخي يتم استيعابها من خلال المشكلة الأكثر عمومية التي تدور حول انتظامات التطور الاجتماعي ككل، والتي يستحيل حلها ضمن النظرة المثالية الى العالم. لا يُمكن حل هذه المسألة الا على أساس المنهجية الماركسية اللينينية.

في تبادل الآراء بين علماء التاريخ السوفييتي حول المسألة قيد الدراسة، كان هناك، مع ذلك عيباً مهماً. استمر النقاش حصرياً على مستوى المنطق المُجرّد. كان يتم التعبير عن صحة أو خطأ هذا الحُكم أو ذلك مدعوماً بالاستشهادات المناسبة. لكن لم تكن هناك مُحاولات للرجوع الى قوانين التطور الاجتماعي نفسها لدراسة خصائصها وبُناها. يجب أن يتم فعل هذا، لأنه يُمكن لهذا المسار أن يؤدي الى حل المسألة بشكلٍ أسرع مما يُمكن أن يؤديه استمرار المناقشات النظرية الصرف. هذا هو المسار الذي دفع المؤلف الى طرح الفرضية الموضحة أعلاه. لقد مثّلت هذه المقالة، مُحاولَةً لتحليل أحد أنواع قوانين التطور الاجتماعي، وهي قوانين الوضعيات التاريخية. ومن أجل ثبات أن القوانين من هذا النوع ذات طبيعة مُحددة تاريخياً ومُميّزة للبحث التاريخي.

ان البحث التاريخي الماركسي اللينيني للتاريخ له قوانين خاصة به، وهو تخصص تم تطويره كما هو الحال جميع العلوم الطبيعية والانسانية. ما يُميّز علم التاريخ ليس حقيقة أنه ليس لديه قوانين خاصة به (كما يؤكد البعض)، ولكن أن لديه قوانين تُميزه بالذات. ان الهجمات ضد الطبيعة العلمية للمعرفة التاريخية لم تتوقف، وسيُمكن تطوير نظام صارم من القوانين علماء التاريخ الى تقوية النضال ضد التأريخ المثالي.

¹ - T. Schieder, Razlichie mezhdru istoricheskim metodom i metodom sotsial'nykh nauk, Moscow, 1970, p. 19

يبدو لي أن هذا سيكون له تأثير كبير على تطور الدراسات السوفييتية حول التاريخ.

ترجمة لمقالة:

L. E. Kertman (1971) Laws of Historical Situations, Soviet Studies in History, 10:3, 195-220

حول مشكلة التحليل البنيوي للتاريخ



إيلينا ميخايلوفنا شاتيرمان*

ان النمو السريع للغاية للمعرفة الوقائعية الذي يُميّز البحث المعاصر قد واجه العلماء بمهمة تجميع المعارف وتوظيفها لتطوير أفكار متكاملة حول الموضوعات التي تمت دراستها. لا تقتصر هذه المهمة على مجال العلوم الطبيعية، ولكنها تواجه أيضاً البحث التاريخي بكل تعقيداته. وهكذا، في السنوات الأخيرة، حظيت مسألة امكانيات ومناهج تطبيق التحليل البنيوي والمنظومي على العلوم الاجتماعية، وخاصةً التاريخ، باهتمام متزايد، لأن هذا التحليل يفترض نهجاً مُتكاملاً للموضوعات التي تتم دراستها. إنها حقيقة، أن الكمية الهائلة من الحقائق التي تم جمعها وتحليلها في الدراسات المُتخصصة والتي تم استخلاص استنتاجات عامة منها على المستوى التجريبي، في جانبها كمشاكل وفترات معزولة في تاريخ بلدان مُنفردة، تتطلب مزيداً من التعميم لكي تتجاوز هذه الحدود الضيقة. لكن هذا يتطلب تطوير مبادئ تصنيف كيانات اجتماعية مُعينة- والتي يتم الشعور بغيابها باستمرار في المناقشات حول النظام الاجتماعي الذي ينتمي اليه مُجتمع مُعَيّن (وهذا ينطبق بشكلٍ خاص على المُجتمعات ما قبل الرأسمالية، سواءاً القديمة منها أم المُعاصرة)، ومكانها في تاريخ العالم، والمسارات التي اتبعتها في تطورها، وسمات الانتقال الى أنماط انتاج أُخرى، والانتظامات الخاصة التي

*إيلينا ميخايلوفنا شاتيرمان

1914-1991 مؤرخة سوفيتية للعالم القديم ومُتخصصة في تاريخ روما ودكتورة في العلوم التاريخية وحاصلة على جائزة الدولة السوفيتية عام 1987. انخرطت في دراسة المسائل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للتاريخ الروماني القديم وخاصةً أزمة الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث، وكانت تدرس القضايا المُتعلقة بالتشكيكية الاجتماعية-الاقتصادية العبودية الرومانية ودرست عدداً من مؤلفات الكُتاب القدماء. كانت إيلينا عالمةً ماركسية درست خصوصيات المُجتمع القديم وفسرت بشكلٍ خلاق مبادئ المادية التاريخية عند النظر في مشاكل مُحددة وعيانية. نُشرت شاتيرمان مقالاً في مجلة (نشرة التاريخ القديم) عام 1989 فتحت نقاشاً مُهماً حول طبيعة الدولة في روما القديمة. صارت شاتيرمان أشهر باحثة سوفيتية لمسائل روما القديمة في الغرب بفضل ترجمة أعمالها الى اللغات الأوروبية (الألمانية في المقام الأول). من كتبها: (أزمة نظام العبودية في المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية 1957). (أخلاق وديانة البقات المُضطهدة في الامبراطورية الرومانية 1961). (ازدهار العلاقات العبودية في الجمهورية الرومانية 1964). (علاقات العبودية في بدايات الامبراطورية الرومانية 1971). (أزمة الثقافة القديمة 1975). (روما القديمة: مشاكل التطور الاقتصادي 1978). (الأسس الاجتماعية للدين في روما القديمة 1987). ومن مقالاتها (بعض الدراسات الإيطالية الجديدة حول التاريخ الاجتماعي-الاقتصادي لروما القديمة 1982).

تعمل في داخل كلٍ منها. أصبحت هذه المسائل مُلحةً بشكلٍ خاصٍ مؤخراً فيما يتعلق بالمناقشات حول المسارات التي يجب اتباعها لتخليص الشعوب والبلدان المُحررة من التبعية الاستعمارية. يرتبط تعقيد مجموعة المسائل التي طرحناها بشكلٍ مُباشر بتعقيد التفسير التاريخي للحقائق وتحديد القوانين والانتظامات السارية على مدار التاريخ كله، والتي تعدلت وتغيرت في مراحل مُعينة أو لم توجد الا في ظروف مُعينة.

ان دراسة تراث مؤسسي الماركسية اللينينية ونهجهم تجاه المُجتمع ككل متكامل ومنهجهم في تحليل الروابط بين العناصر الفردية التي تُشكل الجسد الاجتماعي الحي، وتقييمهم لمعنى هذه الروابط من أجل توصيف البنى الاجتماعية، يُشكل مهمةً مُلحةً ومرحلةً ضروريةً في تطوير التاريخ. على هذا المستوى، فان كتاباً للمؤرخ الماركسي المعروف موريس غودليير Maurice Godelier مُحللاً فيه منهجية ماركس في دراسة الرأسمالية، له أهمية كبيرة¹.



موريس غودليير

بادئ ذي بدئ، يؤكد غودليير أن ماركس قاربَ الرأسمالية ككل والتي كانت كل عناصرها (المنظومية الفرعية والبنيوية) مرتبطة بقواعد أو قوانين مُحددة. ومع ذلك، في سعيه لاكتشاف القوانين العالمية التي تُحدد حركة النظام الرأسمالي ككل، لم يقصر ماركس نفسه على توصيف تلك العناصر والصلات بينها. كما قام بتحليل النظم الفرعية التي تتكون منها الرأسمالية، وأخذَ بعين الاعتبار العناصر (البني) التي تتكون منها، وكذلك الروابط المُميزة لها، مما أدى الى اظهار كل نظام فرعي وكل بُنية كوحدة كاملة قابلة للتحديد بقوانين تطورها الداخلية الخاصة بها، كقوانين خاصة تتعلق بالقوانين الاجتماعية العامة. وهكذا، فان دراسة ماركس للرأسمالية، تحليلاً لمستويات النظام الاجتماعي المُختلفة كشريحة فوق الأخرى، وصولاً الى بحث كل بُنية فردية كمجموعة من الأشياء (فرد، شيء، مؤسسة) يجمعها قواعد مُحددة (العلاقات المُتبادلة، المعايير، وما اذا كانت المسألة المعنية هي القرابة، والمعايير الفنية للانتاج، والمعايير القانونية لحيازة الأرض وما الى ذلك). هذه القواعد تُظهر نظامية الحياة الاجتماعية، حيث يُنظم المُجتمع من خلالها أشكال النشاط المتنوعة على مستويات مختلفة أو في أنظمة فرعية مُختلفة للنظام المُعطى. وبالتالي، تجب دراسة كل مُستوى من

¹ - العقلانية واللاعقلانية في الاقتصاد، موريس غودليير، ترجمة عصام الخفاجي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية 1955

مستويات النظام الاجتماعي بالارتباط مع مستوياته الأخرى، ولكن بدون اختزال أحدها الى مستوى آخر، كما يحدث في التفسيرات المبسطة للسببية.

يتميز كل نوع من أنواع المجتمع بعلاقات محددة وتسلسل هرمي وأهمية محددة بين بناء، تتجلى في جميع جوانب الحياة الاجتماعية. تُحدد هذه الأشياء أيضاً معنى ونتائج الأحداث الفردية في نظام مُعَيّن. ان الماركسية بعيدة كل البعد عن أن تكون خطية سببية مبسطة كما يتهمها العلماء البرجوازيين. أكد ماركس وانجلز دائماً على أن كُلية خصائص البنية الاجتماعية تقف بين الحدث وعواقبه. ان الحدث الذي يفعل على عنصر واحد من البنية يفعل عليه طوال الوقت، وخصائص البنية، بدورها، تُعطي الحدث أبعاده وتُفسّر تأثيره. لذلك تكون شروط التغيير في البنية دائماً مميزة في كل حالة خاصة. لا توجد صفات لتفسير مُشترك لجميع الحالات¹. يكتب ماركس "ان القاعدة الاقتصادية الواحدة نفسها-نفسها من ناحية الشروط الأساسية- بفعل ما لا عد له من الظروف التجريبية المتنوعة، والشروط الطبيعية، والعلاقات العرقية، والمؤثرات التاريخية التي تفعل فعلها من الخارج، الخ، من أن تُبدي في تجليها صوراً وتدرجات لانهائية، لا يُمكن ادراكها الا عبر تحليل هذه الظروف المُعطاة تجريبياً"². على أساس هذه الأحكام ومنهج رأس المال، يُقارب غولديير تحليل النظم الاقتصادية وبنائها (الانتاج والاستهلاك والتوزيع) في المجتمعات الطبقيّة المبكرة والتي كانت مُرتبطة بالبيئة المُحيطة والتسلسل الهرمي لاحتياجات المجتمع، وبالتالي الى أنظمة القرابة والسياسة، وما الى ذلك. نحن نعلم أنه في المجتمعات ما قبل الرأسمالية، لم يكن الاقتصاد قد ظهر بعد كمجالٍ مُستقل. يقرن غولديير هذه الفكرة بمبدأ ماركس المعروف جيداً بأنه من الضروري ليس فقط ملاحظة الدور السياسي للعلاقات السياسية في المجتمع القديم والدين في العالم الاقطاعي، ولكن اكتشاف ما الذي أدى الى جعل هذا الدور هام، مع الأخذ بنمط الانتاج المُعطى كنقطة انطلاق³. يكتب غولديير أنه حتى في المجتمعات ما قبل الرأسمالية، كانت البنية الاقتصادية هي المُحددة، لكنها كانت مُتشابهة بشكلٍ وثيق مع البنية غير الاقتصادية وكانت تتميز بالترابط بينها وبين النظم الاجتماعية والمؤسسات الأخرى، الخ. ان طبيعة هذه الروابط تُحدد أيضاً هرمية القيم، وتؤثر هذه الأخيرة، بدورها، على الاقتصاد، على سبيل المثال على استهلاك فائض القيمة. لذلك فان وجود هذا الأخير لم يؤدّ بشكلٍ تلقائي الى مزيد من التطور الاقتصادي والاجتماعي. ترفض الماركسية اللينينية التفسير الميكانيكي الوضعي لعملية التطور الاجتماعي وتطالب بمنهج مُتكامل تجاه المجتمع. يكتب غولديير، أن النهج المُتكامل هو بالضبط الذي قاد الماركسيين الى استنتاج يقول بأن العقلانية في النشاط الاقتصادي لكل مجتمع هو الذي يجعله (يجعل النشاط الاقتصادي) يتطابق تماماً مع عمل النظام المُعطى ككل ومع البنية الفردية التي تُشكله. لذلك فان معدّل تطور قوى الانتاج يختلف مع كل نمط من أنماط المجتمع، ليس فقط بالاقتران مع علاقات الانتاج الذي تُميزه، ولكن مع جميع بُناه. وبالتالي، فان الحد الاقتصادي الأمثل ليس سوى جزء من الحد الاجتماعي (بالمعنى الواسع للكلمة) الأمثل للشروط العامة للحفاظ على عمل النظام حين تكون التناقضات المُلازمة لحركته غير تناحرية بطبيعتها، أي تلك التناقضات التي لا تنتهك الروابط بين عناصرها الأساسية. ان التناقضات التناحرية فقط هي التي تُحطّم بنية النظام الاجتماعي والروابط الموجودة بين عناصرها القاعدية، وتجعل من المُستحيل دمج عناصر جديدة فيه. و يُقدّم غولديير تطور المجتمعات البدائية مثلاً على ذلك. تدريجياً، تخنفي الوظائف الاجتماعية من بُناها الاجتماعية وتحل محلها وظائف جديدة، وهذا يُغير البنية نفسها. وهكذا، عندما يتطلب تطور الانتاج تنظيمياً يقف فوق نظام القرابة، تظهر بُنى دينية

¹ - M. Godelier, Rationalite et irrationalite en bconomie, Paris, 1966

² - رأس المال- المُجلّد الثالث، كارل ماركس، ترجمة فالح عبد الجبار، دار الفارابي، ص918

³ - K. Marx and F. Engels, Vol. 23, p. 92, footnote; Vol. 17, p. 92

وسياسية تعمل كشكل لعلاقات الانتاج الجديدة. يتغير نظام المجتمع والتسلسل الهرمي لأنظمتها، أي كل البنية الاجتماعية: تتسحب علاقات القرابة الى الخلفية، في حين تُصبح البنى الدينية والسياسية مركزية. تُحدد الطريقة التي يتشكل المجتمع فيها من الأنظمة كلاً من السببية التي تعمل في حدودها المناسبة، والقوانين السارية في المجتمع ككل. ستكون ذات طبيعة واحدة في تلك المجتمعات التي تعمل فيها القرابة والعلاقات الدينية والسياسية كعلاقات تتداخل في الانتاج، وذات طبيعة أخرى حيث تظهر أشكال الاستغلال خارج هذه العلاقات وتخضع للتغيير الى بنية فوقية، أي حيث من الممكن حقاً التحدث عن الاستقلال الذاتي للاقتصاد¹.

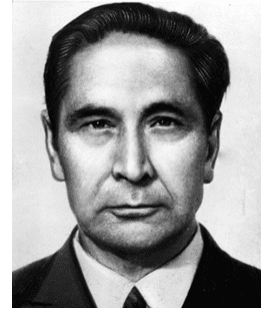
لقد دخلنا في مثل هذه التفاصيل في عمل غودليير لأنه، يُظهر، كما نعتقد، عدم جدوى استمرار المخاوف التي يتم التعبير عنها أحياناً حول أن تطبيق التحليل البنيوي يؤدي حتماً الى التعددية وبالتالي لا يتوافق مع الماركسية اللينينية. يتضح من هذا العمل، أن الطريقة البنيوية ان وُضعت بشكل صحيح، ليس أنها لا تتعارض مع منهجية ماركس فحسب، بل على العكس من ذلك، تتوافق بشكل مباشر مع مطلبه بتجنب نظريات (المفتاح الذي يصلح لتفسير كل شيء) اللاتاريخية. ان التحليل البنيوي هنا يقترح نهجاً عياناً لتحديد السببية التاريخية ليس كفعل وحيد الجانب للنشاط على موضوع يتلقاه بشكل سلبي (وهي فكرة احتج عليها مؤسسو الماركسية دائماً)، ولكن كتفاعل بين العناصر والميول التي تخلق الحركة الذاتية للنظام المُعبر عنها في التغييرات المتنوعة داخله.

تستحق تصريحات لينين، في هذا السياق، اهتماماً خاصاً، وهي لم تحظى حتى الآن بالاهتمام الكافي، على الرغم من أنها وثيقة الصلة بموضوعنا بشكل مباشر وقابلة للتطبيق العملي في البحث التاريخي. لاحظ لينين، في ملاحظاته الموجزة حول كتاب هيغل (المنطق)، أن "السببية، كما نفهمها عادةً، ليست الا وجهاً صغيراً من الترابط الكلي الكوني" وأن "السببية ليست الا واحدة من أوجه الترابطات الشاملة". لكن لينين اعتبر أنه من الضروري الكشف عن الترابط العالمي على أساس تكامل العوامل التي تفعل فعلها في الواقع: "الكشف عن الكلية الشاملة التي تُشكل الواقع = جوهر الإدراك الديالكتيكي". ويُعلّق لينين كذلك، "من جهة، يجب تعميق معرفة المادة حتى معرفة (حتى مفهوم) الماهية، لكي نجد أسباب الظواهر، من جهة أخرى، ان المعرفة الفعلية للسبب هي تعميق المعرفة الذاتية من سطح الظواهر الى الماهية". فيما يتعلق بكلمات هيغل حول بطلان محاولات البحث في التاريخ حول "الوقائع الصغيرة كأسباب صغيرة لأحداث كبيرة" وبأنها "ليست سوى ذرائع، سوى الحافز الخارجي الذي كان بإمكان روح الحوادث الداخلي أن لا يكون بحاجة إليه"، يُعلّق لينين: "هذه (الروح الداخلي)... هو احياء صوفي، مثالي، ولكنه عميق، عن الأسباب التاريخية للحوادث. هيغل يُخضع التاريخ كلياً للسببية ويفهم السببية فيها أعماق وأغنى ألف مرة مما يفهمها حشد من (العلماء) المعاصرين". ان "حركة العلاقة السببية بالواقع: حركة المادة أو حركة التاريخ، مُدركة، مُستملكة في ترابطها الداخلي الى هذه الدرجة أو تلك". يقول لينين، أن هيغل قد شدّد على نقص و فراغ مفهوم الفعل المُتبادل عارياً. ينسخ لينين ما كتب هيغل: "صحيح أن الفعل المتبادل هو الحقيقة التالية مباشرة للعلاقة سبب-نتيجة، وهو نوع على عتبة المفهوم. ولكن لذلك بالضبط لا يُمكن الاكتفاء بتطبيق هذه العلاقة حين نكون في صدد المعرفة المفهومية. ان اعتبار مفهوم مُعطى ما، فقط من وجهة نظر الفعل المُتبادل هو موقف غير مُتبصر على الاطلاق، عندما لا يكون أمامنا سوى واقعة جافة أو اشتراط الوساطة، الأساسي حين نكون بصدد علاقة سببية، يبقى من جديد غير مُشبع. منظوراً اليه عن قُرب، هذا النقص في تطبيق علاقة الفعل المُتبادل يكمن في أن هذه العلاقة، بعيداً عن أن تكون مُساوية للمفهوم، ينبغي أن تُفهم هي (أن يتم تصورهما

¹ - See M. Godelier, op. cit., pp. 92-94

مفهوماً)، ولهذا الغرض يجب أن لا يُترك حدا العلاقة في حالة مُعطى مُباشر، بل يجب... أن نتعرف عليهما كحظتين لحدٍ ثالث، أعلى، وهو بالضبط (المفهوم). هكذا مثلاً، اذا اعتبرنا عادات شعب سبارطة نتيجةً لدستوره، وبالعكس، اذا اعتبرنا دستورهِ نتيجةً لعاداته، فان هذه الطريقة في الفهم يمكن أن تكون صحيحةً فعلاً، دون أن ترضينا مع ذلك، لأنها لا تُتيح لنا أن نفهم لا دستور ولا عادات هذا الشعب، ذلك لا يكون مُمكناً ما لم نفهم حدّي العلاقة وكذلك سائر وجوه وحياة شعب سبارطة، على أنها نابغة من المفهوم الذي يقبع في أساسها". ثم يُعلّق قائلاً: "الفعل المتبادل لوحده= فراغ. اشتراط الوساطة (الارتباط، ذلك هو معنى السببية. كل (الوجوه الخاصة)-المكتوبة أعلاه في مُقتطف هيغل- والجمع الكلي (الكلية الجامعة¹ Begriff).

كما نرى، يؤكد لينين في هذه الأفكار، على الحاجة الى التعمق أكثر فأكثر في كل حالة، والوصول الى جوهر أي كُلية وأي نظام، دون الاكتفاء بالبقاء على السطح، ويؤكد على الحاجة الى أخذ الصلات بعين الاعتبار كوظائف لبُنية النظام وضرورته الداخلية المُلازمة له. في مقالة للفيلسوف السوفييتي غينادي اليكساندروفيتش سفيتشنيكوف المنشورة في مجلة *Kommunist* (أهمية لينين في البحث حول مسألة السببية)²، يُلاحظ مؤلفها أن الطابع الضروري أو الصدفي للحدث يُحدده كُلية الشروط، وأن الروابط السببية تشتترطها بُنية الأشياء وتفاعلها.



غينادي اليكساندروفيتش سفيتشنيكوف 1914-1974

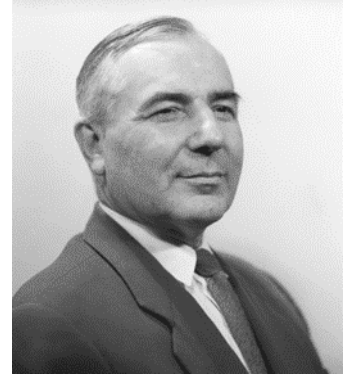
هذه المقالة مبنية على بيانات العلوم الدقيقة، الفيزياء في المقام الأول، ولكن افتراضاتها النظرية الأساسية القائمة على أفكار لينين، تنطبق تماماً على العلوم الانسانية.

وجّه الأكاديمي بيوتر نيكولافيتش فيدوسييف³ الانتباه أيضاً الى أهمية مفهوم البُنية كمقولة فلسفية والى دورها في العلوم الاجتماعية، حيث تم تطبيقها بشكلٍ فعالٍ من قِبَل مؤسسي الماركسية اللينينية.

¹ - دفاتر عن الديالكتيك، لينين، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة 1988، ص169-172

² - G. Svechnikov, Геннадий Александрович Свечников "Znachenie leninskikh idei dlia issledovaniia problemy prichinnosti," -Kommunist, 1966, No. 16

³ - See P. N. Fedoseev, "Idei Lenina i metodologiya sovremennoi nauki," Problemy mira i sotsializma, 1967, No. 4, p. 14



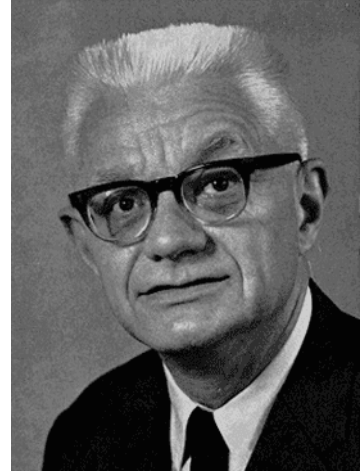
بيوتر نيكولايفيتش فيدوسيف 1908-1990

من الواضح أنه سيكون من الخطأ مطابقة التحليل البنيوي كمنهج خاص للتحليل التاريخي بتحليل البنية، وهي مدرسة خاصة في المنهجية البرجوازية لعلم التاريخ. غالباً ما تتناقض هذه الأخيرة مع الماركسية اللينينية بنظرتها الواحدة للمواضيع، وهي شكل مُقنَع الى حد ما من أشكال التعددية. لكن منهجية التحليل البنيوية-المنظومية تُشكّل تجسداً مُنسقاً لمبادئ المادية الديالكتيكية عندما يستخدمها المؤرخ الماركسي.

لا تصلح تلك الممارسة التي نواجهها غالباً في الوقت الحاضر والتي تضع التحليل البنيوي كتحليل يُزعم أنه يصلح فقط لدراسة مُجتمع مُعيّن في لحظة معينة من وجوده، في مواجهة ديناميكيات العمليات التاريخية، بقدر ما تتمثل أحد المهام الرئيسية للتحليل البنيوي في الكشف عن مسارات وامكانيات وحدود تطور أي نظام، بما في ذلك الأنظمة الاجتماعية، والذي يُمكنه (اي التحليل البنيوي) أن يُعزز فهماً أعمق لديناميكياتها في المسار التاريخي ككل. أخيراً، من الصعب الموافقة على الرأي السائد الى حد ما، بأن التكنيك البنيوي المنظومي الذي أصبح منذ فترة طويلة جزءاً من ترسانة العلوم الفيزيائية والطبيعية، قد استعاره المؤرخون منها بشكلٍ مصطنع دون أن ينظروا الى الخصائص التي تُميّز المُجتمع. صحيح أن هناك حالات حدث فيها هذا، وصحيح أن التحليل البنيوي المنظومي لم يتطور الا قليلاً في العلوم الاجتماعية (باستثناء علم اللغة)، لكن هذا في حد ذاته لا يدحض فائدة تطويره ولا الأفاق التي يُبشّر بها هذا المنهج. ان المُحاولات التي تمت في هذا الاتجاه لم تكن نتيجةً لتكليف مُصطنع لتقنيات العلوم الاخرى مع التاريخ، بل نتيجة لاحتياجات هذا التخصص المُلتَحَة.

لقد أدت مسألة قابلية تطبيق المنهج البنيوي في التاريخ الى ظهور أدب برجوازي واسع النطاق، يستحيل وصفه بأي اكتمال في حدود هذا المقال. يعترف عدد من الباحثين الغربيين، أن غياب المبادئ التي تجعل من الممكن ربط تفرّد وتنوع تواريخ مُختلف الشعوب والعصور في تاريخ عالمي واحد هو أحد الأسباب الرئيسية لانهايم المفاهيم البرجوازية السابقة في تاريخ الفلسفة، استناداً الى مادة أكثر محدودية والأزمة العامة للتاريخ البرجوازي تبعاً لذلك. هذا هو أصل اهتمام هذا الأخير بالتحليل البنيوي-المنظومي والذي يُعطي أفاقاً جديدة لمقارنة وتصنيف الكيانات الاجتماعية التي يعتبرها العديد من الباحثين كوحدات أساسية لتاريخ العالم، مثل الأمم والدول والثقافات والحضارات وما الى ذلك. ان نقاط الضعف المنهجية للنظريات البرجوازية المعنية في نظريات تاريخ الفلسفة مسؤولة أيضاً عن حقيقة أن مؤلفيها يستخدمون التحليل البنيوي بشكلٍ غير مُقنَع وغير فعّال بالمرّة، لأن التحليل البنيوي، بمفرده، لا يُمكنه بأي حالٍ من الأحوال أن يكون بمثابة المفتاح لحل كل المسائل التاريخية. ان نطاق الآراء، في التاريخ البرجوازي فيما يتعلّق بمسألة تطبيق التحليل البنيوي،

واسع جداً. إن موقف مُختلف المؤلفين حول ذلك التطبيق، يُخبرنا أيضاً عن موقفهم تجاه امكانيات ومهام البحث التاريخي: إن كانوا يلجأون إلى جمع وتفسير الحقائق والأحداث الفردية الفريدة، أم يريدون تطوير نظرية تستند إلى ما هو عام ومُتكرر، وهي نظرية قادرة ليس فقط على الكشف عن انتظامات العملية التاريخية في الماضي، بل توقع اتجاهها المُستقبلي. إن أحد أقسام العلماء البرجوازيين، الذي يُمثلهم أحد قادة الوضعية الجديدة كارل هيمبيل Carl Hempel عبّر عن موقفهم بشكلٍ أوضح، وهو ينطلق من أن منطق التفسير العلمي يجب أن يكون واحداً بالنسبة للعلوم الطبيعية وعلم التاريخ، وبالتالي، فإن تفسير حدث تاريخي أو فئة معينة من الأحداث يعني تقديمها كنتيجة لعمل شروط سابقة ومتزامنة أو على الأقل نظرية عامة واحدة يُمكن التحقق منها تجريبياً.



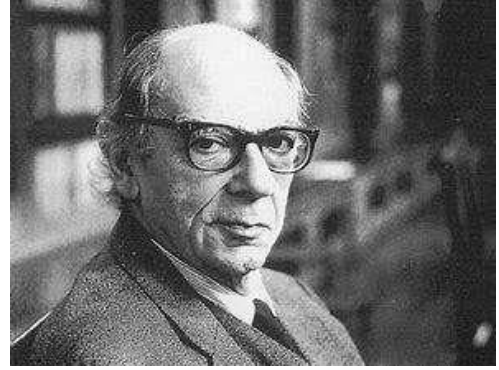
العالم الألماني كارل هيمبيل

قام آخرون مثل م. سكريفين ون. روتشر و أ. هيلير بتعديل فرضية هيمبيل بعض الشيء، مُفترضين أن فعل القانون العام محدود وبالتالي يسمح بالاستثناءات، أو أنها تُحل محلها التعميمات الضيقة بدلاً من مفهوم القانون العام، مثل المكان والزمان والتي لا تكون صالحة إلا في ظل ظروف مُعينة¹. ولكن مفهوم القانون العام، حتى بهذا الشكل، يواجه اعتراضاتٍ عديدة من جانب المؤرخين البرجوازيين. تستند هذه الاعتراضات جزئياً إلى انكار الحتمية التاريخية، والتي تم التعبير عنها في كتاب آزايا بيرلين² isaiah berlin ، الذي اكتسب شعبيةً كبيرةً في الغرب، وجزئياً على انكار امكانية اكتشاف القوانين التي تعمل في التاريخ. يُنظر إلى التاريخ على أنه سلسلة من الأحداث الفريدة التي تستدعيها عوامل متنوعة ومُعقدة ومتشابكة للغاية، بحيث يستحيل فرز أي حدث يُمكن أن يكون شبيهاً بأحداثٍ أخرى. يعتقد مؤيدوا وجهة النظر هذه أنه لا يُمكن تحديد الحتمية السببية واتجاهات التطور إلا لحدثٍ واحدٍ فريدٍ من هذا القبيل. ومع ذلك، لا يُمكن اعتبار الاستنتاج المدعوم بقضية أو حدث واحد بمثابة قانون. ستكون الظروف الأولية مُختلفة، وهذا يعني أن اتجاه التطور سيكون مُختلفاً أيضاً. يعتقد العلماء المُتطرفين في هذا الموقف مثل كارل بوبر والكندي وويليام دراي William Herbert Dray ، أن التعميمات، حتى تلك ذات الطبيعة المحدودة قد تكون قادرة على تفسير انطلاق حدث واحد، ولكن لا

¹ - Sidney Hook, ed., Philosophy and History, a symposium, New York, 1963, pp. 106-123, 151; A. C. Danto, Analytical Philosophy of History, Cambridge, 1965, pp. 203-209

² - I. Berlin, Historical Inevitability, London, 1954: compare E. Carr, What Is History?, London, 1964, p. 100

يُمكنها تفسير خصائصها الملموسة¹. من وجهة نظرهم، فإن المؤرخ الذي يسعى الى تفسيرها على أساس قانون عام أو استنتاج شامل، والذي لا ينطبق على حالة مُعينة، سيقدم حتماً بعض العوامل الجديدة غير المتوقعة، فانه لن يتمكن من تحقيق دمج هذه العوامل في ذلك القانون العام.



ازايا برلين

ولنفس السبب، يرى العديد من المؤرخين البرجوازيين أن الباحث لن يستطيع اكتشاف الشروط الضرورية والكافية التي بموجبها يدخل القانون العام حيز التطبيق ويُحدد الحدث قيد البحث.



ويليام دراوي

هنا، يرى المؤرخ الذي يُعالج ظاهرة تاريخية ما سبباً واحداً ضرورياً لها، في حين أن النتيجة نفسها قد تكون ناتجة عن أسباب أخرى. قد يتم اعتبار السبب ضرورياً وكافياً فقط على أساس قانونٍ عام، ولكن مثل هذه القوانين، كما يرونها، لا يُمكن كشفها، أو يتم الكشف عنها بشكلٍ صحيح، نظراً لأن دور السبب يُنسب الى عامل واحد قد تم اختياره تعسفاً، والنتيجة هي حلقة مُفرغة².

¹ - عقم المذهب التاريخي، كارل بوبر، ترجمة عبدالحمد صبره، دار المعارف 1959، ص123

W. Dray, Philosophy of History, New York, 1964, pp. 5-16, 62

² - Cf. W. Gallie, Philosophy and the Historical Understanding, New York, 1964, pp. 105-106; E. Ryding, The Concept, Cause, as Used in Historical Explanation, New York, 1965, pp. 5-7, 23, 42, 44; M. Cohen, The Meaning of Human History, Illinois, 1961, pp. 112-114, 225.

قام اولئك الذين لا يُنكرون وجود القوانين التاريخية فحسب، بل يضعون السببية أياً كانت موضع شك، بحمل تلك الافتراضات الى أقصى حدودها، مثل رايموند آرون وهنري مارو Henri-Irénée Marrou وغيرهم). من وجهة نظرهم، الماضي لا ينضب، وبالتالي لا يُمكن معرفته أو تفسيره بالكامل. في رأيهم، هناك فقط ظواهر تاريخية مُعيّنة تشترك مع بعضها البعض وترتبط في تجمعات قابلة للتفسير جُزئياً فقط، لكن هذه التفسيرات أيضاً ستكون مشروطة واحتمالية. يُمكن للمرء فقط أن يشترط وجود ارتباط مُعيّن بين ظاهرتين وتقديم ملاحظات صحيحة من ذلك النوع الضيق، والتي، مع ذلك، سوف تتحدد بالكامل من خلال وجهة النظر الذاتية للمؤرخ.



هنري مارو

في تفسيرهم، يُصبح التاريخ بالتالي سلسلةً من الأحداث غير المنطقية والمُتحددة جُزئياً من خلال سببية محدودة للغاية تصلح فقط لمجموعة مُعيّنة من العوامل. يقول هنري مارو، على سبيل المثال، أنه من المُستحيل تحديد سبب مُهيمن مُشترك لأي فترة تطول أو تقصر، وبالتالي لا يُمكن للمرء أن يتحدث عن القوانين العامة أو الحتمية التاريخية¹. يعرض مارو وآرون وبوبر وغيرهم منهجيات مُختلفة، والتي في رأيهم، تتوافق تماماً مع طبيعة البحث التاريخي (الذي له وظيفة مُعالجة الأحداث الفريدة) وطبيعة المعرفة التاريخية (التي لا يعتبرون أنها معرفة موضوعية). على عكس التفسيرات التي تتخذ القوانين العامة أو التعميمات الجُزئية كنقطة انطلاق. وهكذا، يقترح بوبر الانطلاق من منطلق "الوضعية التاريخية" الذي يُشير الى حاجة البشر الى اتخاذ اجراءات مُعيّنة تحت تأثير الحركات والمؤسسات والأفكار والتقاليد الاجتماعية كما تظهر للمؤرخ، والذي تكون استنتاجاته وافتراضاته غير قابلة للتحقق منها، حيث أن هذه ليست أكثر من تفسيرات ذاتية لها الحق في الوجود مثل أي تفسيرات أخرى². يتمتع الافتراض الذي يعود بالأساس الى روبن كولينغود Robin George Collingwood بشعبية كبيرة والذي يقول أن التاريخ هو تاريخ أفكار، وبالتالي فان تفسير أي حدث يعني اعادة انتاجه في الفكر وفهم قناعات ودوافع أفكار المُشاركين فيه. يرى ي. رايدينغ، على سبيل المثال، أن مثل هذا الاجراء-ان تم اجراؤه بحذر بما فيه الكفاية- قد يخدم المؤرخ كما

¹ - H. Marrou, De la connaissance historique, Paris, 1954, pp. 168, 170-177, 180; R. Aron, Introduction to the Philosophy of History, Boston, 1962, pp. 16-17, 225, 238-259, 264

² - K. Popper, Misère de l'historicisme, Paris, 1956, pp 147-149

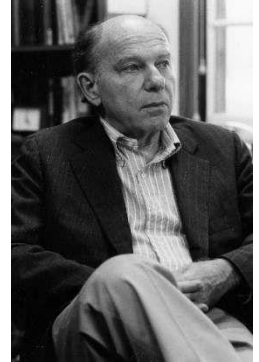
تخدم التجارب غيره¹.



روبن كولينغود

تم تطوير مقاربة "التفسير العقلاني" بشكلٍ كاملٍ من قِبَل داري dary الذي أكد أن تفسير حدث ما، يعني وصفه على أكمل وجه مُمكن مع الأخذ بعين الاعتبار ارادة وعقل ودوافع الشخصية التاريخية المعنية التي تُفهم حينما "يضع المؤرخ نفسه في الوضع" المعني.

بالطبع، تستبعد مثل هذه المقاربات معرفة الانتظامات التاريخية. لكن حتى العديد من المؤرخين البرجوازيين، الذين يعترفون بوجود هذه الأخيرة، يميّزون أنفسهم بشدة عن التفسير الأحادي للحتمية التاريخية. ان الموقف الذي يتخذه المؤرخ الأمريكي مورتون وايت Morton White مميز للغاية في هذا الصدد.



مورتون وايت

على الرغم من أنه لا يعتبر التفسير التاريخي المُستمد من الانتظامات والقائم على اكتشاف الأسباب الضرورية والكافية للأحداث مُستبحلاً، الا أنه يؤكد بكل طريقة مُمكنة أن مثل هذه الانتظامات ليست مُطابقة بأي حالٍ من الأحوال لتلك القوانين الموضوعية للتاريخ التي صاغتها "الفلسفة التأملية" ذات الموقف الواحدي. تُعارض "الفلسفة التحليلية" التي يُدرج وايت نفسه من بين أتباعها، تُعارض الواحدية التاريخية

¹ - E. Ryding The Concept, Cause, as Used in Historical Explanation, New York, 1965, pp. 63-79

بالتفسير التعددي للسببية، بما في ذلك البحث عن الشروط الضرورية والكافية وامكانية الانتظامات (وان كانت جزئية) وعمليات اعادة الانتاج، الصالحة للأحداث التاريخية المتماثلة¹.

هذه، بعبارات مختصرة جداً، هي المدارس الرئيسية للتفسير السببي للتاريخ السائدة في التاريخ. في هذا الصدد، تجدر الإشارة الى أن مبادئ التطبيق العياني لأي من هذه المقاربات قد تم العمل به بشكل ناقص، ولا يُمكن للمرء أن يتفق مع المؤرخ الاسكتلندي والتر غالي Walter Bryce Gallie عندما كتب أن غالبية الكتابات الغربية المعاصرة حول تفسير التاريخ هي تمارين في المنطق التطبيقي، انهم ينطلقون من الفكرة العامة عن التفسير، ويطبقونها، بطريقة أو بأخرى على التفسير التاريخي، مُظهرين درجة اختلافه عن النماذج الشائعة، وهذا لا ينتج عنه سوى القليل لفهم طبيعته وطرق تطبيقه².



والتر غالي

تُنكر وجهات النظر هذه بشكلٍ أساسي أحقية وجود التاريخ كعلم، وتقول بأن الاتجاه التجريبي في البحث التاريخي، والتي-بكلمات مارو نفسه وآخرين- حوّلت التاريخ من "مدرسة الحياة" التي كانته في السابق، الى ملكية لمجموعة صغيرة نسبياً من المُحترفين.

ومن هذا المنطلق بالنسبة للمؤرخين البرجوازيين الذين يعز عليهم العلم، تنشأ الحاجة الى البحث عن طرق جديدة يُمكن من خلالها الكشف عن الانتظامات التاريخية، وخاصةً منهج التحليل البنوي للكيانات التاريخية. وهكذا، على سبيل المثال، توصل المؤرخ الأمريكي روبرت براون Robert Brown عند مُعالجته لمناهج التفسير الموجودة في العلوم الانسانية، الى استنتاج مفاده أن أياً منها ليس شاملاً لأنه لا يوجد بينها ما يؤدي الى تطوير نظرية كاملة. انه يعتبر، كخطوة مهمة نحو انشاء نظرية، تطوير منهجية للمقارنة بين المسارات المُتبعة في تطور المؤسسات والظواهر وما شابه ذلك، ضمن حدود النظام المعني، مما يساعد على الكشف عن القوانين التي تحكم هذه الأنظمة³. من وجهة نظر توينبي، فان المنهجية الأكثر نجاحاً لتفسير ظاهرة

¹ - M. White, Foundations of Historical Knowledge, New York and London, 1965, pp. 16, 28, 35, 181

² - Cf. W. Gallie, Philosophy and the Historical Understanding, New York, 1964, pp 10-19

³ - R. Brown, Explanation in Social Science, Chicago, 1964, pp. 190-193

اجتماعية هي الكشف عن مكانها في نظام اجتماعي أكبر، والذي لا يُمكن فهمه الا من خلال الدراسة المُقارنة لبُنيتها والعمليات التي تحدث في هذه البُنية، فضلاً عن بُنية العمليات التي تحدث في أنظمة أُخرى¹. ينطلق جميع الباحثين البرجوازيين المؤيدين للدراسة المُقارنة للثقافات أو الحضارات من هذا الافتراض بطريقةٍ أو بأخرى. يستفيد البعض، لدن قيامهم بذلك، من المنهج الاستقرائي أو التركيبي، الذي يتكون من فرز عدد مُعيّن من العناصر التي تشترك بها الأنظمة المُختلفة، والصلات بينها، والتي يبنون منها نماذج من الأنماط تخضع لقواعد وانتظامات وقوانين مُعينة. يستخدم البعض المنهج الاستنباطي أو التحليلي، مُنطلقين من مفهوم الكيان التاريخي الذي يختلف عن مجموع العناصر التي يتكون منها، وهو يسبق تلك العناصر منطقياً وتاريخياً. لذلك، لا يُمكن استنباط خصائص هذا الكل من مجموع خصائص عناصره. يتم التعرف عليها من خلال الانتقال نظرياً من بُنى الكل الى مكوناتها من خلال منهجية التحليل والاستنباط، مع التحقق اللاحق من النتائج عبر تركيب جديد أكثر اكتمالاً. هنا أيضاً، نواجه ضعفاً شديداً في العمل الناتج عن التطبيق العياني لهذه المناهج، على الرغم من أنه صارت الحاجة الى استخدامها لتحديد الانتظامات الكُلّية ولتفسير الظواهر التاريخية، مُعترفاً بها من قِبَل عدد متزايد من المؤرخين الأجانب².

في التاريخ البرجوازي، كثيراً ما تتم مُعارضة التفسير بمنهجية التحليل البنيوي، بالتفسير السببي. كثيراً ما يُعتبر هذا الأول أكثر مرونةً ويؤمن نطاقاً أكبر لظهور ما هو ضيقٌ وصدفي. في الوقت نفسه، وليس كما اللائحة، فهي تضع حدوداً مُعينة لعمل النظام وتطوره، مما يجعل من الممكن اكتشاف الانتظامات التي تعمل بداخله³. ان مواجهة هذين المنهجين خاطئ من حيث الجوهر، لأن الروابط البنيوية (سواءً كانت نشوئية أو وظيفية أو غير ذلك) هي روابط سببية في التحليل النهائي (ما لم نخترل السببية الى سلسلة سببية سطحية). ولهذا السبب على وجه التحديد، لا يُمكن اثراء التحليل السببي الا من خلال استخدام المنهجية البنيوية. ان تحديد البُنية التي تُميز جميع مجالات حياة المُجتمع يجعل من المُمكن رؤية وحدتها (وحدة المجالات) وراء تنوع الظواهر. انه يوقّر امكانية البحث في كل ظاهرة في سياقها وتوضيح كيف تؤثر على الظواهر الأخرى في المجالات الأخرى، وكيف هي نفسها تخضع لتأثير تلك الظواهر. انها تُسهّل تحديد المكان الذي تحتله العوامل المُختلفة في تسلسل عناصر البُنية، وكيف تتحرك في ترابطها، وليس تحت تأثير سبب واحد. غالباً ما يتم الاستشهاد بأعمال الباحث الفرنسي جورج دوميزيل Georges Dumézil لاثبات ضعف التحليل البنيوي. حاول دوميزيل استخدام هذه المنهجية لتفسير عدد من المؤسسات الاجتماعية والدينية في الهند واليونان وروما على أساس افتراض أنها بُنية ثلاثية لنظرة الشعوب الهندوأوروبية، والتي تنعكس في أفكارهم عن الكون والمُجتمع والدولة والدين⁴. ان هذا المثال الأخير بالتحديد هو الذي يوضح أن المنظرين البرجوازيين يسعون في أغلب الأحيان الى وضع أساس البُنية والعامل الذي يُشكلها والعنصر المكون لها في مجال الوعي. هذه سمة خاصة لجميع المدارس التي تتخذ الدراسة المُقارنة للثقافات كُنقطة انطلاق (ستتم مناقشتها بتفصيل أكبر أدناه). ولكن، هذا لا يُثبت خطأ المنهجية في حد ذاتها-وهي منهجية يستخدمها الماركسيون لأسباب مُختلفة تماماً.

¹ - A. Toynbee, A Study of History, Vol. MI, Oxford, 1961, pp. 27, 165, 167

² - See O. Anderle, "Die Geschichtswissenschaft in der Krise," Festgabe Lortz, Vol. 11, Baden-Baden, 1958; J. Vogt, Geschichte des Alt ertums und Univer-sal ges ch ich te , Wiesbaden, 1957, p. 30

³ - See, for example, The Problems of Civilisations. ReDorts of the First Synopsis Conference of the S.I.E.C.C., edited by o. Anderle, London and Paris, pp. 135-139, 376, 379

⁴ - J. Dumezil, Les dieux des indoeuropeens, Paris, 1952

يفتح المنهج الماركسي آفاقاً واسعاً للبحث في العلاقات والتفاعلات بين جميع الأنظمة التي يتكون منها المجتمع. ومع ذلك، فإنه تقبع هنا صعوبات كبيرة نتيجةً لحقيقة أنه لم يتم العمل كثيراً على وضع المبادئ العامة لتطبيق المنهجية البنيوية على التاريخ.



جورج دوميزيل

أولى تلك الصعوبات هي البحث عن عنصر تشكيل البنية، أي العامل الذي يُحدد بنية كل نظام اجتماعي مُعطى. كما أشرنا سابقاً، يسعى العديد من المنظرين البرجوازيين إلى البحث عن هذا العامل في مجال الروح: منظومة الحقائق والقيم وصورة العالم، والتي في حين أنها تلعب دوراً مهماً في تحليل أنظمة الثقافة الفكرية ومكوناتها. لا يمكنها تقديم تفسير مُرضٍ على الإطلاق للترابط بين البنية الاجتماعية-الاقتصادية وثقافته غير المادية¹. من وجهة نظرنا، يتكون عنصر تشكيل البنية من علاقات الإنتاج-أولاً وقبل كل شيء، أشكال الملكية. يُعزز رأينا هذا تعريف ماركس المعروف جيداً للبنية الاقتصادية للمجتمع على أنها كُلية علاقات الإنتاج والتي تُمثل علاقات الملكية الشكل القانوني لها².

ولكن تنهضُ هنا الأسئلة التالية: هل تُحدد هذه العلاقات البنية بالكامل، أم أنها قادرة على أحداث أنظمة بنية مُختلفة؟ كيف يفهم المرء المجتمعات التي توجد فيها أكثر من بنية واحدة، والتي لا يوجد أيٌّ منها مُحدد للبنية الأخرى (كما كان الحال في أواخر الامبراطورية الرومانية على سبيل المثال)؟ بالنسبة للسؤال الأول، قد يبدو أن الاجابة الايجابية فقط هي الممكنة: حسب كلمات ماركس تُحدد أشكال معينة من الملكية اما غياب الاستغلال أو وجود شكل مُعين منه، أي شكل الاستيلاء على فائض المُنتج الذي يُميز الشكل الاقتصادي الذي يُميز بالتالي المجتمع وبنيته بالكامل، على الرغم من أنه من المُمكن دائماً أن يحتفظ هذا المجتمع ببقايا أشكال الملكية السابقة أو قد تظهر أجنة جديدة من الملكية إلى جانب العلاقات المُقابلة لها. السؤال الثاني هو أكثر تعقيداً إلى حدٍ كبير، وبالتالي غالباً ما تم التعبير عن رأي مفاده أن المنهج البنيوي المنظومي لا يُمكن أن يُطبَّق الا فيما يتعلق بالمجتمعات البسيطة (المُتجانسة)، وليس المجتمعات المُعقدة (غير المُتجانسة). ولكن، يبدو لنا أن هذه الصعوبة ليست مُستعصية على الحل. تتكون المجتمعات غير المُتجانسة من عددٍ من الأنظمة المُعقدة،

¹ - For more detail on this see the survey "Problemy kul'tury v zapadnoi sotsiologii," Voprosy filosofii, 1967, No. 1

² - نقد الاقتصاد السياسي، كارل ماركس، ترجمة راشد البراوي، دار النهضة العربية 1969، ص3

وقد يساعد تحديد بُناها، وبُنية النظام ككل، الى هذا الحد أو ذاك، في ايجاد أي الروابط هي الأكثر فعاليةً في أداء المُجتمع وتطوره وانتقاله المُحتمل الى بُنى أكثر تحديداً وأعلى وأكثر استقراراً.

تكمن الصعوبة أيضاً في تحديد طابع الروابط في بُنية مُعيّنة، نظراً لأن هذا الطابع هو بالضبط الذي يُحدد خصائصها. ان العناصر التي قد تكون مُشتركة للعديد من الأنظمة (على سبيل المثال، نجد، في جميع المُجتمعات السابقة على الرأسمالية تقريباً، عناصر من العبودية والعمل المُأجور بالإضافة الى أشكال مُختلفة من التبعية للأرض وللأشخاص)، ولكن سيكون طابع ارتباطها مع العناصر الأخرى ومع النظام مُختلفاً تماماً. تم الكشف عن أنماط الروابط وأشكال التفاعل (على سبيل المثال روابط الجذب والتنافر) للعناصر والأنظمة في العلوم الفيزيائية والبيولوجية¹ ولكن ليس في ميدان التاريخ.

اقترح ميخائيل أبراموفيتش بارغ ضرورة تحديد الروابط الوظيفية (تحديد عمل النظام) والنشئية والتحولية (التي تُحدد حالاته الماضية والمستقبلية)².



المؤرخ السوفييتي ميخائيل أبراموفيتش بارغ 1915-1991

هذا السياق مُهم جداً، ولكنه أيضاً لا يؤمن تحديد تلك الروابط التي تُحدد ما هو خاص بنظام مُعيّن ملموس. هنا، على ما أعتقد، من المُمكن اتباع نهج مُزدوج. من جهة، من المُمكن الحديث حول روابط وتركيبات وتوازنات وعناصر مُهيمنة مُسبقاً داخل النظام: روابط تُحدد طابع النظام ونوعه وخصائصه. سيكون هذا هو الحال مع الروابط الاقتصادية والسياسية على سبيل المثال (يتم تضمين الاكراه المُباشر، غير الاقتصادي بشكل تعسفي في الأخير) بين مالك وسائل الانتاج والمُنتج المُباشر، وبين وحدات الانتاج الفردية ومجالات الانتاج، بين الجماعات الاجتماعية والدولة ومواطنيها. يُمكن أيضاً دمج هذه الروابط، وقد يسود هذا النمط أو ذاك فيها. على سبيل المثال، العلاقة بين السيد والعبد الذي يستأجر أرضاً أو ورشة ستكون بمثابة رابطة عبودية من العالم القديم، أو علاقة سيد برجل حر مُرتبطين بالواجبات. قد تختلف طبيعة الروابط داخل حدود

¹ - See, for example, the collection Problemy struktury v nauchnom posnananii, Saratov, 1965, pp. 83, 86

² - M. A. Barg, "Strukturnyi analiz v istoricheskom issledovanii," Voprosy filosofii, 1964, NO. 10, pp. 86-87

نظام واحد تحت تأثير كُلِّ من العوامل الخارجية والداخلية والعناصر الجديدة. أدّى تطوّر العلاقات السلعية والنقدية، في العصور القديمة على سبيل المثال، الى تقوية المكونات الاقتصادية للروابط. لكن مثل هذه التغييرات كانت مُمكنة فقط الى حدٍ مُعيّن. ستخضع البنية للتشوه من ثم الى التدمير عندما يتم تجاوز ذلك الحد. قد يُحاول المرء تحديد هذه الروابط المُميزة وتراكيبها في أي نظام يدخل في كُلِّ اجتماعي. ان تحدثنا، مثلاً، عن نظام علمي، سيصبح من المُمكن التحدث حول روابط في مجال النظرة الى العالم والروابط الادراكية-العملية، بالاضافة الى تركيبٍ من كليهما. في علم العصور القديمة، كانت الروابط في مجال النظرة الى العالم هي الأقوى، وقد حدد هذا، الدور الرائد للفلسفة آنذاك. ولكن ما هو الذي يُحدد التطابق العام للأنظمة المتنوعة التي تُشكّل المُجتمع: ذلك التطابق كنتيجة له سيكون لأي مجال مُجتمع مُعطى سمات مشتركة مع المجالات الأخرى، تماماً، كما هو الحال، على سبيل المثال، كأى مقطع عرضي من خلال اسطوانة تحتوي على منحنيات وأي مقطع من خلال منشور يحتوي على خطوط مستقيمة؟ يبدو أن هذا التطابق مشروط بطبيعة ثانية للروابط التي تعتمد على عوامل النظام المُشكّلة للبنية، ويتجلى في جميع مكوناته. يُمكن تحديد الروابط مبدئياً على أنها جماعية وفردية وهي تدخل في تركيبات مُختلفة. نجد، في عالم العصور القديمة، مثل هذا المُركّب من الطابع الجماعي والفردية للروابط على وجه التحديد، يتغلغل من أسفل الى أعلى ان جاز التعبير، من شكل مُلكية المُجتمع القديم المُحدد من خلال الاشتراط المُتبادل للمُلكية الشخصية والجماعية ومُلكية الدولة ووحدتها، الى الدين، حيث يتم الجمع بين العبادة الالزامية في التي أسسها المواطنون مع أقصى قدر من الحرية الفكرية للفرد، بما في ذلك الاحاد. ولكن في هذه الحالة أيضاً، تُحدد طبيعة الروابط حدود بقاء البنية. على الرغم من التآرجح بين الفردية والجماعية، فان الاطاحة الكاملة لأي منهما من قِبَل الأخرى لا يتوافق مع بُنية ذلك المُجتمع. الى أي درجة يُمكن للمرء أن يقول ان نوع الروابط العاملة في نظامٍ فرعي مُعيّن مشروطة بنوع الروابط العاملة في النظام ككل؟ يبدو ان مثل هذا الاشتراط موجود. في مثالنا، يتجلى الطابع المُزدوج للروابط التي تتخلل النظام ككل، في ازدواجية الروابط الفرعية الفردية الأكثر عيانية: على سبيل المثال، في ازدواجية تلك الروابط الاقتصادية والسياسية التي لا تندمج مع بعضها تماماً، كما هو الحال في المُجتمعات القائمة على المُلكية المشاعية، كما هو الحال أيضاً على تلك التي لا تنفصل في المُجتمعات القائمة تماماً على المُلكية الخاصة، حيث يكون الاقتصاد مُستقلاً. علاوةً على ذلك، يوجد حد مُماثل تقريباً للتغير بين العام والخاص والعياني، والذي بعده تخضع البنية بأكملها للتشوه والدمار.

دعونا نحاول الآن تحليل ما يُمكن لمفاهيم "النظام" و"البنية" أن توفره لنا لغرض التفسير التاريخي. في المقام الأول، هذه المفاهيم تُحدد مكان وأهمية العناصر الفردية في الأنظمة المُختلفة، وبالتالي، من ناحية، تجعل من المُمكن مقارنتها، بينما من ناحيةٍ أُخرى، تجعلنا نتجنب سحب انتظامات نظامٍ مُعيّن على نظامٍ آخر. وهكذا، على سبيل المثال، فان عامل Factor نظام تملك العبيد، أو، ان أردنا أن نكون أكثر دقة، النظام الميكروي "السيد-العبد" (ان اعتبرنا العبد، من وجهة النظر "الكلاسيكية" لهذا المُصطلح، مُنتجاً مُباشراً محروماً من وسائل الانتاج والحقوق القانونية والمدنية ويكون مُلكية مُطلقةً وغير محدودة لمالكه)، نقول، هذا العامل Factor يتحدد دائماً من خلال ارتباط الاكراه المُباشر والعنف للأول ضد الثاني. هذا هو أساس ما تشترك فيه مثل هذه العلاقات، بغض النظر عن المكان الذي نشأت فيه. لكن هذا النظام الميكروي يأخذ معنىً مُختلفاً عندما يتبين أنه مُدمج كعنصر في بنية منظومةٍ أُخرى. ان كانت الروابط المشاعية الجماعية هي السائدة في مثل هذه المنظومة، وكانت هناك عناصر مثل التقسيم الاجتماعي للعمل وتسويق مُنتجات للبيع، فان عنصر "السيد-العبد" ليس ضرورياً ولن يكون في مكان يُمارس فيه تأثيراً كبيراً على البنية ككل، في حين يتحدد وضع العبد في هذه الحالة من خلال ظروف عيانية مُختلفة. في ظل النظام الرأسمالي (في الولايات المتحدة،

على سبيل المثال)، مع وجود سوق رأسمالية عالمية، لعب مالك العبيد نفس دور رجل الأعمال الرأسمالي، أي أنه سعى من أجل المزيد من التوسع المستمر في الانتاج وتسريع دوران رأسماله. في هذه الحالة لا يكون العنصر الذي نتحدث عنه، ضرورياً، ويصير غير مقبولاً ان وضعناه في سياق غير سياقه الحقيقي. في حين أن استغلال العبد هو الأكثر قسوةً وغير مُقيد بأي شيء، بقدر ما يكون العبد هنا-ان استخدمنا كلمات ماركس رأسمالاً ثابتاً، اي يُشبه الآلة، يُمكن استبداله عند تأكله ومع تقدم عمره بشخص، بآلة، أكثر حداثةً. ومع ذلك، فإن العبد يخلق قيمةً تبادليةً تنافس في السوق العاملة قيمة التبادل التي أنشأها العامل الحر. في عالم العصور القديمة، كنتيجة لما هو خاص بالشكل القديم للانتاج، والذي يستبعد الاستغلال الواسع للمواطنين بغض النظر عن الشكل، كان العبد عاملاً Factor ضرورياً، وأثبتت العبودية، التي كانت تتطور جنباً الى جنب مع العلاقات السلعية النقدية، أنها تُمارس تأثيراً كبيراً على النظام بأكمله. على عكس فائض القيمة، تم الاستيلاء على فائض العمل على شكل مدخولات¹، بقدر ما كان يُقصد بالانتاج اعادة انتاج العلاقات القديمة، وزيادة قيمة الاستخدام وليس القيمة التبادلية، على حد تعبير ماركس. وفقاً للطابع المزدوج للروابط المتصلة في شكل الملكية في المجتمع القديم، كان الدخل المُستحصل من عمل العبيد يُقسّم بين تلبية احتياجات ملاك العبيد (سواء الشخصية أو تلك التي يتطلبها تطور السلعة والعلاقات المالية)، واحتياجات مُجتمع المواطنين ككل (الأشغال العامة، الاحتياجات العسكرية وما الى ذلك). هذا هو أصل اهتمام مجموع المواطنين بأن على العقارات الفردية أن تكون مُنتجة للدخل، حيث تسمح القوانين بالاستيلاء على قطعة أرض من مالك لا يعمل بها، أو القيود المفروضة على الانفاق على المعيشة الفارهة، الخ. وهذا أيضاً هو أصل الرأي العام الذي يُطالب بأن يكون المواطن الصالح مالكاً حصيفاً وزارعاً مُجتهداً. بقدر ما تم الاعتراف بالاجماع على أنه من أهم الشروط لازدهار الاقتصاد أن يكون العبيد في حالة بدنية -وإحراقاً، أخلاقية- مُرضية، فإن القسوة المُفرطة على العبيد وسوء معاملتهم كانت-مع تطوّر العبودية- موضع ادانة وتقنين من قِبَل الدين والجمهور والرأي العام. من المُثير للاهتمام أنه يبدو أن تعسّف الأسياد كان مقصوراً على صقلية خلال فترة الجمهورية الرومانية، وأن مُعظم التقارير عن الوضع الرهيب للعبيد جاءت من تلك الجزيرة. ومع ذلك، كانت صقلية بالضبط في ذلك الوقت هي التي قال ماركس أنها الوحيدة في العصور القديمة التي كان من المُمكن مقارنتها الى حد ما مع بلد رأسمالي، لأن هذه الجزيرة كانت قائمةً بمثابة دافع الجزية لروما، وكانت الزراعة هناك موجهة في الأساس، نحو التصدير². بالضبط لأن بُنية الاقتصاد الصقلّي كانت قريبةً من تلك الموجودة في مناطق تملك العبيد في العالم الرأسمالي، احتل عنصر "السيد-العبد" مكانةً مُشابهةً. في حالاتٍ أُخرى، فإن الحكم على هذا العنصر بالقياس على العبودية في العصر الحديث، كما يحدث غالباً، هو أمرٌ غير مُبرر.

ان التفسير الذي يأخذ الروابط البُنوية كنقطة انطلاق يؤدي الى توسيع مفاهيمنا عن الأشياء قيد الدراسة. وهكذا، على سبيل المثال، ناقش الأدب أكثر من مرة مسألة عدم حدوث ثورة صناعية في عالم العصور الكلاسيكية، على الرغم من وجود ظواهر مثل طرد الفلاحين من الأرض وتركيز وسائل الانتاج، بينما اقترب العلم بالفعل من انشاء الآلات (كان تأثير البخار معروفاً، وصُنعت مُختلف أنواع الآلات الأوتوماتيكية، وما الى ذلك). الاجابات على هذا السؤال هي تقريباً ما يلي: كانت الآلات غير متوافقة مع العبودية من حيث أن العبد، الذي ليس له حافز لكي يعمل، لن يكون حريصاً بما فيه الكفاية عليها. لم تكن الآلات ضرورية لأن

¹ - تم استخدام مصطلح "الدخل" هنا بشكل انتقائي، باعتباره مُتميزاً عن الربح وفائض القيمة، طالما أن تخصصنا لا يحتوي على مُطلح مناسب لشكل الاستحواذ على العمل الفائض للعبيد. كان الدخل (من الأرض والجرف والتجارة والربا) هو المُصطلح الأكثر شيوعاً في الفكر الاقتصادي للعصور القديمة الكلاسيكية، اشارةً الى نسبة عوائد الأموال المُستثمرة. تم اعتبار الدخل المُستخلص من عمل العبيد في سياق أنواع المدخولات المُمكنة الأخرى من الأنماط المذكورة.

² - رأس المال- المُجلّد الثالث، كارل ماركس، ترجمة فالح عبد الجبار، دار الفارابي، ص914

عمل العبيد كان رخيصاً بما يكفي لاتاحة التوسع في الانتاج عن طريق زيادة عدد العبيد وتكثيف استغلالهم بدلاً من التحسينات التكنولوجية. لم يتطور الابداع التكنولوجي بسبب ازدياد الأحرار للعمل والجهد العملي، والنمط العام للحضارة القديمة وأن "مناخها الثقافي" لم يؤدي تطور التكنولوجيا.

هناك قدر من الحقيقة الى هذا الحد أو ذلك في كل هذه التفسيرات. لكن كلٌ منها هو عرضة للنقد. ان "المناخ الثقافي" بحد ذاته هو مُصطلح يحتاج الى تفسير. كما أن ازدياد العمل والنشاط العملي من جانب الطبقات العليا، وهي سمة من سمات المجتمع الاقطاعي، لم يمنع نمو بذرة الصناعة في رحمه. بقدر ما يتعلق الأمر بالطبقات المنتجة في العصور القديمة، بما في ذلك جزء من المنقذين، فقد قدروا العمل تقديراً عالياً، بما في ذلك العمل البدني البسيط (ان موقف الطبيب الشهير غالينوس Galen وأفكاره الذي عارض بين العلماء والحرفيون المهرة بالمتعطلين، وفضلَ العبد الماهر الذي يعرف عمله جيداً وكان يساوي عشرة آلاف دراخماً، على سيده الذي لم يكن يعرف صنع أي شيء ولم يساوي دراخماً واحداً، لهو موقف مُهم بهذا الصدد).



الطبيب اليوناني غالين

كما أن فكرة رخص العمل العبودي نسبية للغاية. كانت أسعار العبيد رخيصةً فقط خلال فترة البيع الجماعي للسجناء من حين الى آخر، ولكن في فترات أخرى، كانت أسعار العبيد، ولا سيما المهرة منهم، مُرتفعة للغاية، وبالكاد يُمكن للمرء أن يُثبت أن شراء العبد الماهر والحفاظ عليه كان أقل تكلفة من أجور العمال خلال الثورة الصناعية. علاوةً على ذلك، نجد في المصادر أدلةً كثيرةً على أن فئات واسعة من المجتمعات الرومانية واليونانية كانت تُعارض النمو المُفرط في عدد العبيد والاستغلال واسع النطاق لعمالهم. كان من الطبيعي أن تُرحب هذه العناصر بتخفيض عدد العبيد من خلال ادخال الآلات. الحجة الأكثر اقناعاً هي افتقار العبيد لحافز العمل، والتي تستند بشكلٍ خاص على تجربة مزارع العبيد في الولايات المتحدة. ولكن هنا من الضروري النظر في حقيقة أن الوضع هناك مُختلف تماماً عن العصور القديمة. في المقام الأول، لم يكن العبيد وحدهم هم من كانوا يعملون، ولكن أيضاً الأشخاص الأحرار، الذين كان لديهم الحافز لزيادة انتاجهم. في المقام الثاني، تطورت ممارسة تأجير الورش والجرف وقطع الأراضي للعبيد. بطبيعة الحال، كان للعبيد

أنفسهم مصلحة ملحوظة للغاية في زيادة عائداتهم، وبالتالي زيادة إنتاجية العمل. وبذلك، ان انطلقنا من منظومة "السيد-العبد" الميكروية فلن نجد اجابةً نهائيةً للسؤال المطروح.

يتغير الوضع الى حدٍ ما ان تناولنا السؤال من وجهة نظر النظام ككل. يفترض عمل دُول المدينة القديمة، التي كانت التجسيد الاقتصادي-الاجتماعي والسياسي للشكل القديم للملكية، اعادة انتاج الروابط في ذلك النظام، أي رابط مُزدوج (اقتصادي وسياسي) بين المواطن وجماعة المواطنين، والدولة. ان طابع هذه الروابط تضع التزامات مُعينة على كُلِّ من المواطن الفرد والدولة، والتي كانت مطلوبة بـكُلِّ الوسائل المُمكنة (حروب للاستيلاء على مناطق جديدة وقيم مادية لمنحها لمن لا يملكون، الاستعمار والحد الأقصى للملكية الأراضي، ضبط الأسعار، الضرائب على الأثرياء، ودفع الدولة الأموال للأشخاص الذين يعملون لأشغالها) للحفاظ على المساواة الاقتصادية النسبية بين المواطنين، أو على الأقل لتزويدهم بالحد الأدنى من مستوى المعيشة. لو لم يتم ذلك، لكان المُكوّن الاقتصادي لهذا الرابط قد اختفى، وكان من المُمكن أن يؤدي ذلك الى تغيّر في البنية بأكملها. أدى تطور عنصر موجود في النظام من الخارج (العلاقات السلعية والنقدية- الى زيادة أهمية الروابط الاقتصادية بين مكوناته المتنوعة: بين قطاعي الانتاج الرئيسيين-الزراعة والحرف-، بين مُلاك الأراضي والمستأجرين أو العمال المأجورين، وبين مالكي العبيد وجزء من العبيد، بين الأسياد والمواطنين الأحرار، الخ). لقد مارست هذه العملية تأثيراً كبيراً على جميع مجالات الحياة، وعلى جميع العلاقات، بما في ذلك التقسيم الشرائحي للمواطنين أنفسهم، ولكنها لم تكن قادرة على تدمير الترابطات القائمة على النظام. وبالتالي، كان من المستحيل حدوث انقسام كامل للروابط الاقتصادية والسياسية، الأمر الذي كان من شأنه وحده أن يجعل من المُمكن تحوّل الدولة الى بناء فوقي في شكل نقى، وحدث "ثورة صناعية" عندما قد تحدث في ظل ظروف الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، تؤدي حتماً، ليس فقط الى استبعاد جزء من المواطنين من الانتاج (كان لتطور العبودية نفس التأثير)، بل وحرمانهم حتى من الحد الأدنى من وسائل العيش وتحويلهم الى موضوع استغلال غير محدود على الاطلاق من جانب مواطنيهم، أي الى بضاعة. تظهر بوضوح الطريقة التي تنعكس بها هذه الاحتمالية في أذهان مُثلي دول العصور الكلاسيكية القديمة، من مثال الحكاية المعروفة عن الامبراطور فيسباسيان (حكّم منذ عام 69-79 ميلادية) الذي عندما عرّض عليه مُخترع نمط آلة لسحب الأشياء والأعمدة والحجارة الثقيلة المُستخدمة في ترميم مبنى الكابيتول، كافي المُخترع، ولكنه رفض الآلة، لأن استخدامها سيحرم الناس العاديين الموظفين في البناء من أرباحهم.

من الواضح أنه لهذا السبب على وجه التحديد، تم بذل الكثير في عالم العصور الكلاسيكية القديمة لتحسين جودة وتنوع انتاج الزراعة والحرف اليدوية (أي في اتجاه زيادة قيمة استخدامهما)، وقليل جداً لزيادة الانتاجية (اي في اتجاه زيادة قيمتها التبادلية)¹. تم تحقيق هذا الهدف الأول من خلال تراكم الخبرات، والتكثيف التدريجي للتخصص وزيادة مُقابلة في مهارة الناس المُشاركين، مع تقسيم العمل وتحسين تنظيمه، أي الأساليب التي لا تنطوي على اخراج القوى العاملة خارج الانتاج. كان تطور هذه الأساليب مقيداً بحقيقة أن العبيد كانوا يفتقرون الى الحافز نحو العمل، وموقف الأسياد الحذر والشكك تجاههم وتجاه كل من يُظهر منهم مبادرة ومهارة خاصة (وهذا هو أصل القول المأثور المعروف: "من الضار والخطير أن يتجاوز الوضع الآخرين في الفن")، والصعوبات في مجالات الانتاج والسياسة التي نشأت عندما كان هناك مُحاولات لتنظيم الانتاج واسع النطاق على أساس السُخرة. كان تطور هذه الأساليب مُفيداً بحجم السوق الصغير، أي بشكل عام، بالظروف التي يُمكن العثور عليها بدرجة أو بأخرى في المُجتمعات المبنية على الانتاج البضاعي

1 - نفس المصدر، ص 924

الصغير المتضمنة نسبة عالية من العمالة غير الحرة. لم يكن من الممكن تحقيق الهدف الثاني الا من خلال زيادة حادة في انتاجية العمل، لا سيما من خلال تحسين كبير جداً في أدوات العمل وادخال الآلات، لكن كان ذلك مُقيداً بالبنية الكُليّة لعالم العصور القديمة الكلاسيكية. ومع ذلك، سنجد هنا عناصر ومؤشرات قليلة على نقص الحافز من جانب العبيد. توضّح لنا الروابط البُنويّة اعتماد تطور الانتاج على طبيعة النظام الاجتماعي ككل.

يبدو أن التغيرات البُنويّة توفر أيضاً آفاقاً جيدة لتحليل العلاقة بين نمط الانتاج والثقافة غير المادية. على سبيل المثال، ان محاولة تفسير التغيرات في فلسفة ودين المُجتمع القديم فقط عبر دراسة احتياجات اقتصاد العبيد، هي محاولة بدائية وغير مُفنتعة. من الواضح، أنه من الضروري أن نأخذ، وظائف النُظم الفرعية البُنويّة الفوقية التي تضمن عمل النظام ككل، وكذلك استخدام طبيعة الروابط المُحددة لهذا الأخير، كنقطة انطلاق من أجل الدراسة. وهكذا، على سبيل المثال، كان النظام، في عالم العصور الكلاسيكية القديمة، مُصمّم لأن يُعيد انتاج العلاقات القديمة، وهذا هو سبب النداءات حول "أيماننا القديمة" و"أخلاق أجدادنا"، الخ. استدعى التقدم والتغير توتراً مُستمراً، واخفاءً للجديد في ظل القديم. ظلّت أنظمة القِيم، التي كانت وظيفتها أن تلعب دوراً مُحافظاً، دون تغيير خارجي لفترة طويلة، على الرغم من تغير مُحتواها الحقائق. وهكذا، في العصور القديمة، كانت اعادة انتاج علاقات البولس (المُدن القديمة) هي المسؤولة عن حقيقة أن لها الدور الأساسي في معيار القِيم. هذا هو السبب وراء الدور الأساسي لمسألة "الدولة المُثلى" التي فيها يتحقق أفضل تلبية لاحتياجات المواطنين المادية وغير المادية، وهي دولة تُجسد "الانسجام الكوني التام"، حيث كان التأمّل بها على هذه الحالة احدى أهداف الفلسفة ويُستقى منها التعميمات الفلسفية من العلم، والتي وفقاً لها، لعبت دوراً مُختلفاً في مقياس أنظمة ثقافة العصور الكلاسيكية القديمة عن دورها في الثقافة المُعاصرة. وهذا هو أصل مقياس الفضائل المدنية ومثال المواطن الصالح القادر على خدمة الدولة في كل مجالات الحياة، ورؤية الدين باعتباره قوة تُدعم الجماعة الكُلية للمواطنين ومؤسساتها، والتي حل الدين بسببها في المقدمة وكان يُدرك بشكلٍ خاص في العصور القديمة كشكلٍ من العلاقات الاجتماعية بشكلٍ واضح.

هنا، لم يظهر الدين في تناقض مع الأنظمة الأخرى، ولم يدّعي الاحتكار أو حتى الأسبقية، أو دور حامل الوازع الأعلى، لأن هذه الأخيرة كانت مُلكاً للدولة. لقد حددت الثقافة غير المادية عناصره وطابع روابطه. تتجلى ثنائية هذه الأخيرة في الارتباط بين الجماعي والفردي: في اشتراطهما المُتبادل. كانت الحرية الشخصية وحرية المواطنين، والقيم الفردية والجماعية مشروطة بشكلٍ مُتبادل. لم يتعارض "الحُكم Judgment الفردي" والحكم الصادر عن ضمير الفرد مع الحُكم الجماعي لأن مسؤوليات الفرد كانت تتطابق مع واجباته كمواطن. قد يضل في اختيار طريقه، ويتعرّض للعقوبة أو النفي، ولكن هذا لم يكن ينتقص من شرفه ان سعى فعلاً لخدمة مصالح مواطنيه وليس مصالحه. فقط ان سعى لمصالحه وحدها، فان هذا سيسمه بالعار. لذلك كان البطل القديم خادماً لجماعة ما، لكنه لم يكن أبداً "سوبرمان" يقف فوقها. وهذا، من بين أمورٍ أخرى أصل النظر الى الجريمة والضلال ليس على أنها خطيئة، أو صراع مع الذات، بل انتهاك للقيم الجماعية وتصالح معها بطريقة أو بأخرى. وهذا، كما يجب أن نلاحظ، يُفسّر غياب الروايات السيكولوجية القائمة على الصراع الداخلي في العصور القديمة (على الرغم من حقيقة أن عدد من كتبها كانوا قادرين على التعمق في النفس الانسانية)، ويُفسّر لنا الدور الأساسي الذي لعبه التاريخ في الأدب الروماني-اليوناني، حيث يكون البطل اما جماعة من المواطنين أو أفراد لتلك الجماعة التي تُجسد أحكامها القيمية على الفضيلة والخطأ، في حين يتجلى كلاهما في صراعات خارجية والتي تكون المشاعر الداخلية هي أرضية لها. البطل يقمع أو لا يقمع مصلحته الشخصية في تعارض مع ما هو اجتماعي. يُمكن رؤية ازدواجية

الروابط هذه في أي مجال من مجالات الثقافة. وقد تجلّى هذا في الفنون في شكل معالجة الفرد على أنه تعبير عن ما هو كوني.

على الرغم من الطبيعة المحافظة للثقافة في تلك الفترة، فقد تغيرت بُنيته تدريجياً، حيث تكيفت مع التغيرات التي كانت تحدث مُسبقاً في النظام الاجتماعي بأكمله. لكن هذا النوع من التكيف أيضاً لا يُمكن أن يكون غير محدود. تعرضت الثقافة في مرحلة ما، للتشوه والدمار. وهكذا، حاول أوغسطس، عندما وصل إلى السلطة، وتحت شعار إعادة تأسيس الجمهورية وحياء "أخلاق الأجداد"، تكيف بُنية الايديولوجيا والثقافة الرومانية القديمة مع عناصر جديدة أهمها الامبراطور نفسه، واستبدال "حكومة الشعب" بـ "حكومة الامبراطور"، التي يُرعى أن الشعب قد جعلها في مركز قيادي في الدولة. لكن هذا الاحلال الجديد للسلطة قد قوّض طابع الروابط الأولى (بُنية ايدولوجيا الثقافة الرومانية القديمة)، وقلل من أهمية المُكوّن الجماعي فيها. لقد وقف الامبراطور نفسه فوق الجماعة، وكان موقف رعاياه منه أكثر فردية بما لا يُقاس من موقف المواطنين تجاه الدولة. وَجَدَ هذا الموقف الجديد تعبيره في عبادة الامبراطور، مما أدى تدريجياً إلى تغيير في التسلسل الهرمي للأنظمة الثقافية. الآن لم تعد الفلسفة والتاريخ هما اللذان يسعيان إلى الوضع المثالي كمكوّن عضوي للـ "الحالة المثالية للعالم"، بل الدين، الذي رَبَط الأباطرة بالآلهة والرعايا بالأباطرة. نما الدين والدولة معاً أكثر فأكثر، وصار عصيان الامبراطور ليس جريمةً ضد الدولة فحسب، بل تدنيساً للمقدسات. تم انتهاك التوازن النسبي الذي كان قائماً بين الجماعة والفرد بشكلٍ مُتزايد لصالح الأخير، مما أدى إلى ظهور صراع بين الجانبين، وتطور تدريجي، وغير مُكتمل لـ "الرأي الفردي". وصار مفهوم الحرية الشخصية والمعتقد الشخصي والضمير والخطيئة، وهي عناصر لم تعد متوافقة مع البُنية القديمة. ثبت أن الآفاق الكامنة في هذه البُنية قد استنفدت. اختفى حافز خدمة تلك القيم، وبالتالي الحافز للابداع. استُبدل التطور بالاستقرار، والاستقرار بالتراجع، وعندما ظهرت مسألة عدم موثوقية القيم القديمة، التي كانت في تناقضٍ حاد مع الواقع، فقد أدى ذلك إلى ظهور احتجاج شديد ضدها. ومع ذلك، فإن هذا الاحتجاج على القيم القديمة ظل داخل حدود البُنية القديمة طالما أن هذه البُنية التي أدت إلى ظهورها ظلت ماثلة. كان الصراع في ظل دولة المدينة يدور حول المسائل السياسية والاجتماعية عندما كانت الفلسفة الاجتماعية والسياسية تنصدر التسلسل الهرمي للثقافة. أما في ظل الامبراطور، أصبحت المسائل الدينية تنصدر ساحة المعركة لأن الدين هو الذي صار يحتل المركز القيادي الآن. كان هناك، وعلى أساس الدين، انكار لجميع القيم القديمة، تلاه بداية انشاء قيم جديدة أصبحت عُصراً بُنيوياً مُشكلاً لأنظمة الثقافة غير المادية.

وهكذا، فإن بُنية الثقافة غير المادية، التي تُحدد بُنية المُجتمع ككل في التحليل النهائي، تُحدد بدورها الشكل الذي تتخذه الصراعات الاجتماعية. قد يكون المظهر الحقيقي لهذه الصراعات - على سبيل المثال - في نفس الامبراطورية الرومانية (التيارات الدينية، والتيارات الفلسفية داخل وخارج اطار المسيحية) - مُختلفاً تماماً، ويُمكن تفسير الانتصار النهائي لاتجاه مُعيّن منها من خلال الأسباب العيانية المتنوعة، لكن طابعها العام يتحدد من خلال بُنية النظام وروابط أنظمتها الفرعية. من الواضح أنه يُمكن رؤية مزايا التحليل البُنيوي من خلال المثال التالي. من المُمكن تطوير تفسير مُنعزل، للأسباب التي جعلت المسيحية أقوى من المُعتقدات الميثراوية Mithaism (المُعتقدات الصوفية الغامضة حول الاله ميثرا)، أو لماذا انتصرت المسيحية الأرثوذكسية على الغنوصية. ولكن هذا التفسير لن يكشف عن الانتظام الناتج عن الصراع الطبقي الذي اتخذ شكل الصراع الديني في الامبراطورية الرومانية. ان تفسير هذه الحقيقة، المحصور ضمن حدود النظام الفرعي المُعيّن، يعزو الأسباب إلى استسلام الطبقات الدنيا من النضال السياسي بعد قمع تمرد العبيد والفقراء في فترة نهاية الجمهورية (هزيمة ثورة العبيد الثالثة بقيادة سبارتاكوس)، والبحث عن عزاء ديني لمواساة

ظروف الحياة الصعبة، وأعمال القمع الحكومية. كل هذا يُقدّم تفسيراً جزئياً فقط، لكنه لا يكون مُقنعاً تماماً في غالب الأحيان. كانت الحياة على الفقراء والعبيد في فترات سابقة من تاريخ عالم العصور الكلاسيكية القديمة صعبة للغاية، ولم تتوقف عمليات انتشار الفقر، ولا حتى انتشار المسيحية، من ثم لاحقاً انتشار الحركات الهرطقية المُختلفة، الخ. لكن على الرغم من أن الروابط البُنْيوية لا تُفسّر كل حقيقة عيانية، إلا أنها (أي الروابط) تجعل من المُمكن التعرف على بعض الانتظامات العامة لمرحلة مُعينة من التطور التاريخي لبلد مُعَيّن، ويجب على المرء أن يبحث، ضمن حدودها، عن دور وأهمية الظواهر الفردية والعمليات في الكلّ الاجتماعي، وتقييمها وفقاً لذلك (على سبيل المثال، قد تكون الحركات الدينية في بعض الأحيان عاملاً رجعيّاً في نظام ما، وقد تكون عاملاً تقدمياً في نظامٍ آخر).

تؤمن لنا، طبيعية روابط البُنْيوية، الى هذا الحد أو ذاك، تصوراً عن حركة النظام ككل. وهكذا، فإن ازدواجية روابط المُلكية في العصور الكلاسيكية القديمة افترضت منذ البداية أن الاقتصاد قام بتسويق سلعه الى حد ما، لأن هذا هو رفيق حتمي للمُلكية الخاصة. أدى بيع السوق، بدوره، بشكلٍ طبيعي، الى الاستقطاب الطبقي على طول خطوط المُلكية. لكن المساواة الاقتصادية بين المواطنين كانت شرطاً ضرورياً لتحقيق التوازن في النظام. هذا هو السبب في أن الحرب كان لها وظيفة كمصدر للحصول على الأراضي والقيم المادية (وليس بحالٍ من الأحوال فقط الحصول على العبيد، كما كان يُفترض في كثيرٍ من الأحيان) لاعطائها لأولئك الذين ليس لديهم هذه الممتلكات. يُمكن تعريف روابط الدولة-المدينة بالبيئة الخارجية في ذلك الوقت على أنها روابط تتناظر مُتبادل. أعادت الحرب التوازن داخل النظام الى حد ما، ولكن في الوقت نفسه، أدت الى مزيدٍ من التقسيم الطبقي الاجتماعي وزيادة نسبة الانتاج الذي يتم تسويقه وفي زيادة دور العبودية، وبالتالي، الى نمو الاحتياجات، سواءً الخاصة أو الجماعية، والتي كما سعينا لتوضيحها في الأعلى، لم يكن من المُمكن تلبيتها من خلال اعادة الانتاج الموسعة ضمن حدود النظام القائم، والتي تمت تلبيتها عن طريق تأمين التدفق المُتجدد باستمرار للقيم المادية من الخارج. في الوقت نفسه، أدت الحرب الى دمج دولة المدينة (المُنْتصرة أو المهزومة) في نظام جديد أكثر تعقيداً، حيث تصير هي نفسها أحد العناصر جنباً الى جنب مع عناصر أخرى لها بُناها المُختلفة الخاصة بها. في الامبراطورية الرومانية، هذه العناصر كانت تتألف من كوميونات من أنواع مُختلفة، بالإضافة الى أقطاب من مُلاك أراضي يتمتعون بالاعفاءات، وفلاحي أراضي على مستويات مُختلفة من التبعية. في ظل هذه الظروف الجديدة، صار من المُمكن، من ناحية، اعادة انتاج البُنْي الحضرية المتعددة في العديد من المُدن الجديدة، مما أدى الى تقوية النظام المُعطى، ولكن ومن ناحية أخرى، كان هناك تطور في الروابط الجديدة للامبراطورية مع البيئة الخارجية السابقة. وهكذا، لم يعد الأمر كما في السابق تتنازراً مُتبادلاً، بل أصبح علاقة جذب سياسية واقتصادية (بعدها تقوّت هذه العلاقة الأخيرة)، بين الأنظمة وداخل كلٍ منها، وخصوصاً داخل المدينة. ولكن كما لاحظنا مُسبقاً، لم يكن الانتصار الكامل للروابط الاقتصادية الخارجية في هذا النظام مُمكناً، والهيمنة المُفرطة لهذه الروابط قد شوّهت وأثقلت البُنْيية بأكملها. كما أشار ماركس، استشهداً بالامبراطورية الرومانية على وجه الخصوص كمثال: ان كانت القوة الانتاجية للعمل الاجتماعي متطورة بشكلٍ غير كافٍ، فلن يكون من المُمكن الاستعاضة الكاملة عن الاقتصاد الطبيعي بالاقتصاد النقدي¹. ان تقوية الروابط الاقتصادية يفترض على وجه التحديد الانتقال الى الاقتصاد النقدي.

كان هناك كذلك تحوّل في الروابط السياسية المُميزة لدولة المدينة المُستقلة. أصبح عدد مُتزايد من الأحرار والعبيد رعايا ليس فقط لأسيادهم، وانما للامبراطور أيضاً، ليس فقط أعضاء للجمعيات الفردية ولكن

¹ - See Marx and Engels, op. cit., Vol. 21, p154

للدولة بأكملها، وهي جمعيات أصبحت الآن مُرتبطة بشكلٍ وثيق مع بعضها أكثر مما كانت عليه للبולس المُستقلة. من ناحيةٍ أخرى، توقفت البيئة الخارجية، التي أصبحت الآن جزء من النظام، عن ضمان تدفق القِيم التي كانت ضرورية للحفاظ على الروابط السياسية المُزدوجة بين المدينة والمواطن. ازداد التمايز الاجتماعي بشكلٍ لا رجعة فيه، وأدى الى ظهور مساحات واسعة من اللاتيفونديا، وهي عنصر لا يتوافق مع بُنية شكل مُلكية العصور الكلاسيكية القديمة، والتي افترضت استغلال العبيد، بقدر ما كان الانتاج الضخم القائم على مُلكية العبيد مُستحيلاً في ظل هذه الظروف. لا يُمكن لحيازة الأرض على نطاقٍ واسع أن توجد الا بالاقتران مع الاقتصاد الزراعي ضيق النطاق، لكن المتطلبات الأساسية لتطوره لم تتشكل داخل حدود البنية الحضرية. كان من المُستحيل، أن تتطور الروابط الشخصية المُباشرة بين مالك الأرض والكولون بداخلها، لأن الكولون استمر في كونه مواطناً في المدينة. ولم يكن للعبد الذي استقر في الأرض أن يُصبح فلاحاً تابعاً، بقدر ما أنه وعلى الرغم من الروابط بين العبيد والحكومة المركزية، فقد بقي العبد بعيون الدولة مُلكيةً لسيده (بغض النظر عن الأساليب التي تم استغلاله من خلالها، ومتميزاً عن الفلاح التابع اقطاعياً)، ويقع خارج كل المؤسسات القانونية والاجتماعية. تُعتبر الكوميونة التي ترسخت في بعض الأنظمة، شرطاً ضرورياً للانتاج الزراعي ضيق النطاق، وكانت، على حد تعبير انجلز أهم عامل في تجديد مُجتمع العصور الكلاسيكية القديمة الذي كان قد دخل في زقاق مسدود¹. لم يكن من المُمكن اعادة انشاء الكوميون، في ظل ظروف المدينة، الا على نطاق ضئيل جداً. كان هذا الزقاق المسدود هو نتيجة لثنية المُلكية في العصور الكلاسيكية القديمة، والتي لم تكن متوافقة مع المزيد من التطور الذي حدث بالفعل في الأنظمة الفرعية الأخرى للامبراطورية التي تعايشت مع ذلك، وأدى هذا الى ابطاء التطور. يرجع التوتر في النظام بأكمله، من بين أمورٍ أخرى، الى تنوع روابط أنظمتها الفرعية. ظلت الروابط في مدينة العصور الكلاسيكية القديمة، على الرغم من التغيرات التي خضعت لها في حدود الامبراطورية، ظلت مُزدوجة، أي سياسية واقتصادية، بينما كانت، في أنظمة فرعية أخرى اما غير مُتمايزة (كما هو الحال في الكوميونات الحرة) أو مبنية على أساس تبعية الأرض والأشخاص (كما كان الحال في العقارات خارج المُدن، حيث كان النوع السائد من العمل هو عمل أنواع مُختلفة من المُزارعين، والذين غالباً ما اتخذت اعتماديتهم شكل علاقات التبعية النفعية clientele and patrons ، (أي أن السيد يقدم الحماية للرجل الحر أو العبد المُحرر في حين يؤدي هذا الأخير خدماته لأعمال سيده-المُترجم). مع تغيّر أساس شكل مُلكية العصور الكلاسيكية القديمة القائمة على هذا، تم فتح الطريق للتطور غير المُقيّد للأنظمة المذكورة أعلاه. استمرت عناصر النظام القديم لفترة طويلة كما كان من قبل، أي لوردات الأراضي من مُختلف الأوساط، والكولون والعبيد وأعضاء الكوميونات، لكن هنا تغيّرت الروابط ، مما جعل النظام أكثر استقراراً.

نحن هنا نُقارب مسألة كيفية تحديد فئة النظام الاجتماعي التي علينا أن نُصنف مُجتمعاً في اطارها عند وجود العديد من الأنظمة ذات البنى المُختلفة. ومن أجل الاجابة على هذا السؤال، نقوم في العادة بتحديد أي شكل من أشكال الاستغلال كان سائداً، ولكن غالباً ما يكون من الصعب القيام بذلك. يعتقد البعض، فيما يتعلق بالامبراطورية الرومانية المتأخرة، أن العبودية كانت المعيار الحاسم، يعتقد البعض الآخر أن الكولونية، بما يشبه الفئانة المُبكرة، هي التي كانت المعيار الحاسم، وحُجج نفس الفريقين لها نفس القدر من الأهمية بشكلٍ عام. يبدو أنه في هذه الحالة، لا يوجد حل واحد مُمكن لهذا المُجتمع غير المتجانس ككل، حيث كان لكل نظام من الأنظمة المُكونة له شكله الخاص من المُلكية وشكل الاستغلال خاصته. النظام الذي كان يلعب الدور الأساسي هو ذلك الذي جعل الأنظمة الأخرى تتلائم معه، حتى ولو جزئياً، وفي أوقات مُختلفة. وهكذا، طالما

¹ - See -ibid., Vol. 2*1*, p*. 154

كان انهيار الكوميونات وتفتت تجمعات الأرض الكبيرة والعمليات المماثلة في ظل الامبراطورية هي النتيجة التي جعلت مدينة العصور الكلاسيكية تتطور، فقد كان شكل ملكية العصور الكلاسيكية القديمة هو الذي كان مُحددًا. ولكن عندما كان النظام يتوقف عن لعب هذا الدور، عندما لم تتوقف بُنى الأنظمة الأخرى عن تلقي تأثيره وحسب، بل على العكس تماماً، بدأت في التأثير عليه بشكلٍ مُتزايد، مما أدى الى تشويبه الى أقصى الحدود المُمكنة، مما أدى بدوره الى تشويه جميع مجالات حياة المُجتمع: النظام الحكومي، طبيعة الصراع الطبقي، الايديولوجيا، الثقافة وما الى ذلك. وبالتالي، أصبح هذا الشكل من الملكية عاملاً من عوامل الانهيار وكان لا بد من تدميره.

لقد ذكرنا أمثلة لتطبيق التحليل البنيوي لتحديد الانتظامات التاريخية وتفسير الظواهر. يبدو ان استخدام هذا التحليل يفتح آفاقاً مُعينة لتحليل أعمق لدرجة تحديد العملية التاريخية، لأنه يُحدد النتائج العامة لمجموعة كاملة من الشروط وتفاعلها واتجاه تطور النظام وحدود امكاناته. ان هذه الشروط بالتحديد هي التي تُفسّر لماذا يقوم عامل مُعين بافراز نتيجة مُعينة في حالة، ونتيجة أُخرى في حالة أُخرى. قد تساعد المقارنة بين العوامل، في الحالات المُتعددة، في تحديد القوانين التي تُميّز كل كيان اجتماعي ملموس بشكلٍ أكثر دقةً من تلك التي يتم تحديدها من خلال البحث في الحركة العامة للنظام الاجتماعي-الاقتصادي، وفي نفس الوقت يُمكن ايجاد قوانين أكثر عموميةً من تلك التي تُحددها المناهج التقليدية.

من مقالة:

E. M. Shtaerman (1969) On the Problem of Structural Analysis in History, Soviet Studies in History, 7:4, 38-55

مساهمة في منهجية دراسة الثقافة ونقد مفاهيمها المثالية



ليف ايفيموفيتش كيريمان*

على الرغم من حقيقة أن دراسة تاريخ ثقافة الغرب الأوروبي والمُجتمعات الأمريكية في القرن السابع عشر حتى القرن العشرين قد أحرزت تقدماً إلى حد ما في السنوات الأخيرة، فإنه لا حاجة إلى القول إلى أن هذا الفرع من المعرفة التاريخية لا يزال متأخراً بشكل كبير عن دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

* ليف ايفيموفيتش كيريمان 1917-1987، مؤرخ سوفياتي-انجليزي، دكتور في العلوم التاريخية 1961، وأستاذ ورئيس قسم تاريخ العالم 1956-1974، وأستاذ في قسم التاريخ الحديث والمعاصر 1974-1987 في جامعة مدينة بيرم، ومؤسس مدرسة بيرم العلمية حول مسائل حركة الطبقة العاملة وتاريخ الثقافة الأجنبية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

تخرّج كيريمان من كلية التاريخ في جامعة كييف عام 1940. وتم استدعاه للجيش في نفس السنة حيث شارك في الحرب الوطنية العظمى حتى تم تسريحه بسبب إصابة عام 1941. تم تقيده العديد من الميداليات والجوائز، منها ميدالية بطل حرب من الدرجتين الأولى والثانية. واصل دراساته العليا في جامعة قازان عام 1942.

دافع عام 1943 عن اطروحته لدرجة مُرشح في العلوم التاريخية (تطور نظرات ت. م. غرانوفسكي التاريخية)، وبدأ بالتدريس في جامعة كييف. صار بروفيسور مساعد في التاريخ الحديث عام 1944. صار منذ عام 1949 بروفيسوراً ورئيساً لقسم تاريخ العالم التابع لكلية التاريخ وفلسفة اللغة في جامعة بيرم، ودافع عام 1961 عن اطروحته لنيل الدكتوراة (الحركة العمالية في إنجلترا وصراع التيارين في حزب العمال 1900-1914). ترأس، منذ عام 1965 قسم تاريخ العالم، وبعد تقسيم هذا القسم إلى فروع، صار عام 1974 رئيساً لقسم التاريخ الحديث والمعاصر. ترأس كذلك المجلس المنهجي للجامعة. كان عضواً في اللجنة الوطنية للمؤرخين السوفيات وعضواً في المجلس العلمي السوفياتي حول تأريخ العلوم التاريخية. كانت المجالات الرئيسية لاهتماماته العلمية تتضمن دراسات اللغة الانجليزية، الدراسات الثقافية، منهجية التاريخ والتأريخ، ومناهج تدريس التاريخ في التعليم العالي. نُشرَ أكثر من 100 مؤلف بما في ذلك 6 دراسات، واشرك في تأليف العديد من الكتب المدرسية حول التاريخ الحديث والمعاصر في المدارس الثانوية. من أعماله الرئيسية: (حركة الطبقة العاملة في إنجلترا وصراع التيارين في حزب العمل 1900-1914) 1957، كتاب مدرسي: (صراع التيارين في الحركة العمالية الاشتراكية الانجليزية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) 1960، كتاب مدرسي: (أوروبا الغربية وأمريكا البرجوازية على مشارف القرن العشرين: على طريق الأزمة العامة للرأسمالية) 1984. ومن مقالاته: (حركة الطبقة العاملة وسياسة البرجوازية الانجليزية 1906-1914) 1957، (قوانين الوضعيات التاريخية) 1971-سنقوم بترجمته قريباً، (دراسة مسائل التاريخ الحديث والمعاصر في الأعوام 1966-1970) 1971، (مساهمة في منهجية دراسة الثقافة ونقد مفاهيمها المثالية).

كان ماركس وانجلز، لدن تحديدهما خصائص الظواهر والوضعيات التاريخية المُعقدة، يأخذون العلاقة الديالكتيكية بين الوجود المادي والحياة الروحية بعين الاعتبار. يتحدد موقع الطبقة أو المجموعة الاجتماعية أو فردٍ مُعين بدرجةٍ كبيرةٍ، في مجرى الصراع الطبقي، بمبادئ النظرة الى العالم، ونمط التوجهات القِيَمية ومُثلها الأخلاقية والاجتماعية والجمالية والتي تمتد جذورها في البناء التحتي ولكنها تتحلّى بالاستقلالية النسبية. لم يكن من المُمكن لأي حركة سياسية أن توجد على الإطلاق بدون النضال من أجل تملك عقول وقلوب الناس، وهذا النضال لا يدور بأي حالٍ من الأحوال في مجال المفاهيم السياسية أو الاجتماعية فقط. انه يتخلل جميع جوانب الحياة الروحية للمجتمع. يكتسب الشكل الايديولوجي للصراع الطبقي أهميةً مُتزايدةً باستمرار في التاريخ الحديث، ويتعين على الدراسات التاريخية الماركسية اللينينية أن تدرسه بنفس عمق وشمول دراستها للأشكال السياسية والاقتصادية. لقد صار تاريخ الثقافة بحد ذاته من أكثر الصراعات الايديولوجية جدّةً. ان القضية، في الحالة المعروضة أمامنا، ليست الدراسات الثقافية النظرية بقدر ما تتعلق بالضبط بتاريخ الثقافة، ولا سيما في بلدان الغرب المُعاصر. في الواقع، لا يوجد فرق كبير بين هذين الأمرين لأن المؤرخين البرجوازيين يسندون أنفسهم على تنوعياتٍ نظريةٍ مثالية حول الثقافة، بينما يتعامل مُنظرو الدراسات الثقافية مع المواد التاريخية والتعميمات الموجودة في أعمال المؤرخين. لقد قام الفلاسفة والسوسيولوجيين والاثنوغرافيين السوفييت بالكثير، للكشف عن عدم قُدرة مفاهيم نظرية الثقافة البرجوازية على الصمود في وجه النقد¹.

يُنكر الغالبية العظمى من مُنظري ومؤرخي الثقافة البرجوازيين الطابع الطبقي للمسائل الروحية، وتستند دراستهم لثقافة القرون من السابع عشر الى العشرين على هذا الموقف. بغض النظر عن المهام الملموسة التي قد يضعها هذا الباحث أو ذاك نُصب أعينه، فإنهم دائماً ما يخوضون في جدالٍ مُباشرٍ أو ضمني مع الماركسية ويناضلون ضد تعاليم لينين حول وجود ثقافتين برجوازية وديمقراطية في ثقافة المُجتمع الرأسمالي. ينطبق هذا أكثر ما ينطبق على الأعمال التي تهتم بالثقافة الغربية المُعاصرة والتي تسود فيها حول حاضرها ومُستقبلها نظرةً تشاؤمية.

يُقارب البروفسور فريدريك لودفيك بولاك Frederik Lodewijk Polak من مدرسة العلوم الاقتصادية الهولندية، تشخيص الحياة الفكرية الغربية من مواقع "صورة المُستقبل"، وهي فكرة أساسية في مفاهيمه. كان هذا هو العنوان الذي أطلقه على كتابه، والذي إدعى انه اكتشف فيه "قانوناً تاريخياً جديداً لديناميكيات الثقافة". قام بصياغة القانون بإيجازٍ شديد: "ان كل ثقافة تمتلك صورة عن المُستقبل تمر بفترة ازدهار، وكل ثقافة لديها صورة ضعيفة وغير مُتكاملة عن المُستقبل محكومٌ عليها بشكلٍ قاطع بالانحلال". إن الافتقار الى صورة ايجابية عن المُستقبل يقضي على "كل العناصر الثقافية الأخرى مثل الحمض الحاد"، و"عصرنا... لم يُطوّر صوراً للمُستقبل، أو أنه قام بتطوير صوراً سلبيةً فقط"². يُحلل بولاك، من وجهة النظر هذه، التيارات

¹ - See S. N. Artanovskii, *Istoricheskoe edinstvo chelovechestva i vzaimnoe vlianie kul'tur*, Leningrad, 1967; V. A. Karpushin, "O nekotorykh sovremennykh burzhuaznykh teoriikh kul'tury," *Uchenye zapiski Moskovskogo gos. in-ta kul'tury*, Issue 14, Moscow, 1967; E. M. Shtaerman, "Problemy kul'tury v zapadnoi sotsiologii," *Voprosy filosofii*, 1967, No. 1; A. I. Arnol'dov and E. A. Baller, *Filosofskie problemy kul'tury*, Moscow, 1968; V. M. Mezhev, *Kul'tura i obshchestvo*, Moscow, 1968; E. A. Baller, *Preemstvennost' v razvitiu kul'tury*, Moscow, 1969; E. s. Markarian, *Ocherki teorii kul'tury*, Erevan, 1969

² - F. L. Polak, *The Image of the Future*, Vol. 11, New York, 1961, pp. 126, 89. [All citations from non-Russian-language sources are retranslated from the Russian.]

الفلسفة البرجوازية والعلوم الاجتماعية وحالة الجامعات والفن والأدب، ويخلص الى أنها آخذة في الانحلال نتيجةً لغياب "صورة المستقبل الايجابية". ان تشخيص أزمة الثقافة البرجوازية في بعض النقاط لهو وصف شامل ومُقع للغاية. لكن بالنسبة الى هذا المؤلف، فإن هذه أزمة للثقافة الغربية بشكلٍ عام، وليست أزمة الثقافة البرجوازية. يتجاهل بولاك عناصر الثقافة الاشتراكية والتقدمية التي تتطور بسرعة وبعُمق في الدول الغربية مثل الفلسفة الماركسية والتاريخ والأدب وفن الواقعية الاشتراكية، ناهيك عن الاتجاهات التقدمية العامة في العلوم الانسانية وفي فن الواقعية النقدية.



لودفيغ بولاك

صحيح أنه يعترف، في لحظةٍ مُعنية، وبالتناقض مع تصوره العام، بأن "الشيوعية تطرح تصوراً صحيحاً ورائعاً للمستقبل، وهي تجتذب ملايين الناس"¹، لكن هذا الاعتراف، ليس له أي تأثير على تحليله للثقافة الروحية.

ان الافتقار الى التجانس ووجود ظواهر فكرية متنوعة في المجتمع الرأسمالي المعاصر واضحان للغاية لدرجة أن الاتجاهات المختلفة لدارسي الثقافة البرجوازية يفضلون عدم انكار وجود ثقافتين في ثقافة الغرب، ورسم خطٍ فاصلٍ بينهما حسب أي معيارٍ يُمكن تصوره، ما عدا المعيار الطبقي.

أعزب العالم والكاتب والشخصية العامة الانجليزي تشارلز سنو Charles Snow عن آرائه عام 1959 بمحاضرة بعنوان (الثقافتان والثورة العلمية).



تشارلز سنو

¹ - Ibid., p. 326

لقد عارضَ الثقافة الانسانية الكلاسيكية مع تلك الموجودة في العلوم الطبيعية، والتي تُعتَبَر في رأيه، عن المبدأ الرئيسي الذي يُمكن تحت بنده وضع ظاهرة الثقافة المُعاصرة. بالإضافة الى ذلك، أكد أن هذا التقسيم بناءً على هذا المبدأ هو أكثر أهميةً من التقسيم وفقاً للمبدأ الطبقي¹. أدت مُحاضرة سنو الى بروز جدالاتٍ حادة بين دارسي الثقافة البرجوازية في انجلترا وخارج حدودها. جادلَ كُلُّ من علماء الطبيعة والأدباء حول أي من الثقافتين أهم²، لكن جميع المُشاركين في المُجادلات افترضوا أن هذا هو بالضبط مبدأ تصنيف الظواهر الثقافية الذي ينبغي أن يقوم تحليلها عليه. في حين أنه يقول بأن "المُجتمع الفكري في العالم الغربي ينقسم الى مُعسكرين مُتناحرين"، يربط الباحث الأمريكي ديريك ريجين Deric Regin هذا بقضية الثقافتين³، بنفس المعنى الذي طرحه سنو. يخدم انكار المُقاربة الطبقيّة الهدف نفسه عند مبدأ آخر واسع الانتشار في الثقافة البرجوازية المُعاصرة: تعريف الثقافتين على أنهما ثقافة "النُخبَة" وثقافة "الجماهير". وكما في التنويع المذكورة أعلاه، يستخدم مؤيدو هذه الفكرة الاختلافات الحقيقية الموجودة بالفعل بينهما، لكنهم، من خلال اضعاف صفة الاطلاق عليهما ونزعهما من السياق التاريخي، يتجاهلون أو يشوهون التناقضات الحقيقية في مجال الثقافة. يؤكد ريجين أن "القضية الوحيدة الحاسمة الكامنة وراء الصراع في ثقافة عصرنا، هو الصراع الذي لا يُمكن التوفيق فيه بين مبدأ الفردية والجماعية، الأصالة والامتثال، الابداع الفردي والرأي العام"⁴. في رأيه، لقد عانت الثقافة "الراقية"، ثقافة النُخبَة، ثقافة الفرد والتفرد الابداعي، من الهزيمة في الصراع مع ثقافة "الجماهير" الامتثالية ذات المستوى المتوسط. لذلك، يُمكن لعصرنا أن يوفر فقط التقدم المادي، أي التكنولوجيا، لكن يجب أن لا تكون هناك أو هام مفادها أننا "سنكون قادرين على خلق ثقافة عظيمة" عند تطبيق مثل هذه المواهب على الفن، "سوف لن ننجح في هذه المجالات"⁵. نحن نجد في كتاب (الفن والثقافة) Art and culture لكليمينت جرينبيرغ Clement Greenberg طروحات مُماثلة ومُتسائمة من حيث تصنيف الظواهر الثقافية.



كليمينت غرينبيرغ

الثقافة "الراقية" بالنسبة له، هي ثقافة الطليعة، وما سواها هي ثقافة تجارية "جماهيرية". لكن الثقافة

¹ - C. P. Snow, "The Two Cultures and the Scientific Revolution," The Open Form, Essays for Our Time, ed. A. Kazin, New York, 1965, p. 43

² - F. R. Leavis, "The Significance of C. P. Snow," Spectator March 9, 1962; L. Trilling, Beyond Culture

³ - D. Regin, Culture and the Crowd. A Cultural History of the Proletarian Era, Philadelphia, 1968, p. 467

⁴ - Ibid., p. 9

⁵ - Ibid., p. 482

الطليعية، والتي تُصبح أكثر تعقيداً بشكلٍ مُتزايد، تفقد الدعم، حتى من جانب النُخبة، وبما أن الثقافة الطليعية هي الثقافة الوحيدة الحية اليوم، فإن الحفاظ على الثقافة بشكلٍ عام سيكون مُهدداً في المُستقبل القريب¹.

تبنّى باحث الثقافة الكندي دوايت ماكدونالد Dwight Macdonald نفس مبدأ التصنيف هذا، مع اختلاف وحيد عن سابقه وهو أنه يؤكد على التأثيرات المُتبادلة للثقافتين على بعضهما البعض. "تنطبع ثقافة الجمهور بطابع كلا تنوعتي الثقافة سواءً الأكاديمية والطليعية، في حين أن هذه الأخيرة تسترشد بشكلٍ مُتزايد بعناصر ثقافة الجمهور". لكنه يرى أيضاً أن "الثقافة الراقية في عصرنا متطابقة الى حد كبير مع الثقافة الطليعية"².



دوايت ماكدونالد

وهكذا، يرى علماء الثقافة البرجوازيون أن التناقض الأساسي في ثقافة العالم الرأسمالي يتمثل في الصراع بين الثقافة "الإنسانية و"العلمية"، و"الراقية والمنحطة"، و"النخبوية" و"الجماهيرية"، و"الطليعية" و"التقليدية"، وحتى في أي شيء يُمكن للمرء أن يُفكر فيه ما عدا صراع الثقافة البرجوازية بكل تنوعاتها ومظاهرها ضد الثقافة الاشتراكية والديمقراطية. ولكن، يؤكد جميع المؤلفين المذكورين، وكثيرون غيرهم، أن بداية المرحلة الحالية في الثقافة الغربية انطلقت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وأنه لم تطرأ أي تغييرات نوعية منذ ذلك الحين. هذه الفكرة أوضح ما تكون عند ريجين. في تلك الفترة بدأ المفكرين والفنانين "يتمردون ضد أشكال وصيغ العالم الكلاسيكي" ولهذا السبب قسّم عام 1800 "تاريخ الثقافة الى فترتين"³ وبالتالي يُمكن القضاء على مسألة أزمة الثقافة البرجوازية كعنصر لا ينفصل عن الأزمة العامة للرأسمالية.

لقد أدرجنا أعلاه عدداً قليلاً فقط من من مفاهيم التاريخ الثقافي السائد في الغرب، لكنها توضّح مدى الحاجة الى الدراسات الماركسية اللينينية حول تاريخ الثقافة في الأزمنة الحديثة والمعاصرة من أجل النضال الايديولوجي ضد التاريخ البرجوازي.

يبدو لنا، أنه من بين الأسباب العديدة للتأخر في هذا الفرع من البحث التاريخي حقيقة أن بعض الأسئلة

¹ - C. Greenberg, Art and Culture. Critical Essays, Toronto, 1961, p. 9

² - D. Macdonald, "A Theory of Mass Culture," in Mass Culture, ed. B. Rosenberg and D. White, Glencoe, 1958, p. 63

³ - D. Regin, op. cit., p. 473

المُتعلّقة بالنظرية والمنهجية لم يتم حلها بعد. يرى المؤلف، في هذا الصدد، أن مهمته هي طرح تلك المسائل التي سيتعيّن علينا التعامل معها حتماً في سياق دراسات تاريخ الثقافة الملموسة من أجل المناقشة، والتعبير عن الأفكار حول المسارات التي يجب اتباعها من أجل حلها.

ان التاريخ الماركسي اللينيني حول الثقافة في طريقه لأن يُصبح فرعاً مُستقلاً نسبياً من تخصص التاريخ، مثل التاريخ الاقتصادي وتاريخ الحركة العمالية وتاريخ العلاقات الدولية، الخ. وان له، مثله مثل تلك الفروع، قاعدة منهجية مادية دياكتيكية وتاريخية. وان لديه، مثل تلك الفروع، خصائصه، التي تُحددها قبل كل شيء تفرد موضوعه وكذلك تاريخ ظهوره وتطوره كفرع من المعرفة التاريخية. لذلك من الطبيعي أن نبدأ بدراسة المسائل النظرية لتاريخ الثقافة بتحليل موضوع البحث الرئيسي.

تطرح هذه المسألة صعوباتٍ كبيرة، لأن مفهوم "الثقافة" ذاته، في المقام الأول، أكثر تعقيداً بشكلٍ لا يُضاهى من مفهوم "العلاقات الدولية" على سبيل المثال. منذ الوقت الذي قام فيه عالمي الانثروبولوجيا الثقافية كروبر Kroeber وكلوكون Kluckhohn بتجميع 164 تعريفاً شكلياً للثقافة وأكثر من 100 محاولة أخرى لتوضيح هذا المفهوم وصفاً عام 1952¹، ظهر عدد من المحاولات لصياغة تعريفات أخرى، أعادت انتاج نفس الصيغ المعروفة مسبقاً بأشكالٍ أخرى.



الفريد كروبر

لا يُمكن للمرء أن يتوقع تحولاً جذرياً في الدراسات البرجوازية حول الثقافة، لأن هذا التخصص يقوم على أفكار مثالية حول أصل الظواهر الروحية. قامت الينا ميخايلوفنا شاتيرمان² بوضع مسحٍ للتعريفات الرئيسية حسبما وضعها كروبر وكلوكون. ولكن يبدو لنا أنه من الأفضل تصنيفها ليس من خلال التركيز على مجموعات متنوعة من الكُتّاب (الاستمرارية، القيمة، السلوك، النشأة)، بل من خلال مبدأ آخر.

¹ - A. L. Kroeber and Charles Kluckhohn, Culture. A Critical Review of Concepts and Definitions, Cambridge, 1952

² - E. M. Shterman, op. cit



الينا ميخايلوفنا شاتيرمان

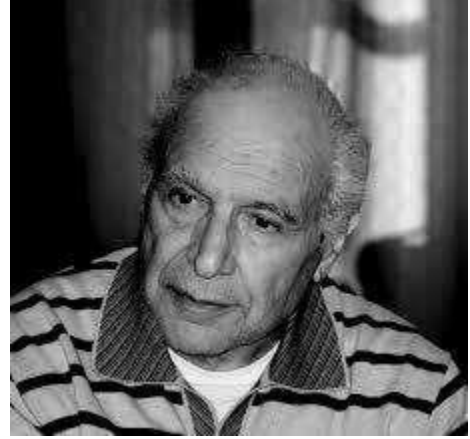
ان وَصَعَ المرء جانباً الاستخدام الضيق لمُصطلح الثقافة (ثقافة الكلام، ثقافة العمل، ثقافة السلوك وما الى ذلك)، فسببى هنالك ثلاثة مُقاربات علمية أساسية لهذه الفكرة، والتي يُمكن أن يُطلق عليها بشكلٍ مشروط أنثروبولوجية وسوسيولوجية وفلسفية. لا يُمكن للمرء أن يرى جوهر المسألة الكامن وراء التعاريف التي لا حصر لها بدون أخذ الاختلاف الأساسي في المُقاربات ذاتها بعين الاعتبار. ولا تكمن المشكلة في اضافة تعريف آخر الى التعاريف الموجودة مُسبقاً. من الضروري مُحاوله تحديد ما هو التاريخ الثقافي الذي نتعامل معه، وكيف يختلف موضوعه عن الانثروبولوجيا الثقافية وسوسيولوجيا الثقافة وتاريخ الأفكار والفن والتعليم والعلم.

كما كتب كروبر وكلوكوهن فإن "المقاربة الانثروبولوجية، نسبوية، بمعنى أنها لا تتبع من تسلسل هرمي متأصل من القِيم بل تفترض أن كل مُجتمع، يسعى الى القِيم ويجدها من خلال ثقافته، وأن مُهمة الانثروبولوجيا هو تحديد نطاق وتنوعات ومقاييس استقرار وتفاعل هذه القِيم التي لا حصر لها"¹. حدد الباحث السوفييتي ادوارد ساركيسوفيتش ماركاريان Eduard Sarkisovich Markarian وجهة النظر هذه بنجاح على أنها "مفهوم الثقافات المُتكافئة" ولاحظ عن حق أنها نشأت في النضال ضد المفاهيم المركزية الأوروبية². هذا المفهوم يفترض أن لكل مُجتمع بشري ثقافة، وهو (أي هذا المفهوم) يتجنّب بوضوح تقسيم الشعوب الى تاريخية ولاتاريخية، الى ثقافية ولاثقافية. في الوقت نفسه، فإن المقاربة الأنثروبولوجية (الانثروبولوجيا البرجوازية) بطبيعتها نسبوية وموضوعانية حقاً، لأنها تستثني من الاعتبار مسألة تطور الثقافة ومعيار تقييمها، وأخيراً تتجاهل تقدم الثقافة الانسانية. من الواضح تماماً أنه بالنسبة للبحث التاريخي في مجال الثقافة فإن وجهة النظر هذه غير مقبولة. يتضمن الفهم الانثروبولوجي للثقافة أيضاً نظرةً شاملة للثقافة (أي الثقافة، على النقيض من ثقافة ما)، تتميز بتفسيرٍ واسعٍ للغاية لهذا المفهوم. يؤكد عالم

¹ - A. L. Kroeber and C. Kluckhohn, op. cit., p. 32

² - E. S. Markarian, op. cit., p. 98

الانثروبولوجيا كروبر والسوسيولوجي تالكوت بارسونز، لدن وصفهما المُقاربة الانثروبولوجية، بأنه حتى النظام الاجتماعي يُعتبر فقط جزءاً من الثقافة. هذا التصريح جدير بالملاحظة من حيث أنه وَرَدَ في مقال مكتوب لأجل مُصالحة المُقاربتين الانثروبولوجية والسوسيولوجية معاً¹.



دوارد ساركيسوفيتش ماركاريان

يُمكننا أن نستعرض عدداً من تعريفات الثقافة مُستمدّة من المُقاربة الانثروبولوجية (انها في الواقع، تعود، الى مُثلي مجالات أُخرى كذلك). يطرح مُؤلفون مُختلفون تعريفاتٍ مُتنوعة: انها نمط وجود الانسانية، تماماً كما أن الحياة هي نمط وجود البروتوبلازم" (القاموس الفلسفي الألماني 1922). "انها النشاط الكلي للانسان الاجتماعي" (كروبر). "أسلوب الحياة الذي يتبعه المُجتمع أو القبيلة" (K. Whistler). "نمط حياة عام ووسيلة مُحددة لتكيف الانسان مع بيئته الطبيعية واحتياجاته الاقتصادية (كريستوفر داوسون Christopher Dawson). "ثمرة التلاحم الانساني" (E. Prouse). "كل ما صنعه أو عدّله النشاط الواعي أو اللاواعي لشخصين أو أكثر والسلوك التفاعلي المُتبادل (بيتريم سوروكين Pitirim Sorokin). "الجزء الذي صنعه الانسان من البيئة (ميلفيل هيرسكوفيتس Melville J. Herskovits). "كل شيء مادي وغير مادي صنعه الانسان" (E. Reiter). "انها ما يُميز الانسان عن الحيوان" (فيلهم اوستفالد Wilhelm Ostwald)². "طريقة الحياة الجماعية"³. ليس من الصعب الموافقة على أن هذه التعريفات تشمل أساساً الحياة الكلية للمُجتمع.

تمتلك تعريفات من هذا النوع اتجاهاً واضحاً لا شك فيه يبرز ضد جوانب مُختلفة من التفسيرات البيولوجية (بما في ذلك العنصرية) لمصادر الثقافة. ولكن الموافقة التامة على هذه التعريفات للثقافة، وحصر المرء لنفسه في صياغة من نوع "نمط مُعيّن من النشاط المُميز للكائنات الحيّة" أو "نظام طوره الانسان لبيولوجياً"⁴ يعني إحلال علامة أولية واحدة فقط محل المفهوم بأكمله. الحقيقة، هي أن كل حياة الجنس

¹ - A. L. Kroeber and T. Parsons, "The Concept of Culture and of Social System," American Sociological Review, October, 1958; also see E. S. Markarian, op. cit., pp. 52-54

² - A. L. Kroeber and C. Kluckhohn, op. cit., pp. 27, 44, 56, 64, 65, 69

³ - P. Bagby, Culture and History, London, 1958, p. 8

⁴ - E. S. Markarian, op. cit., pp. 11, 30. There is a similar definition: "Culture is everything that man has created as distinct from what was created by nature," in A. A. Zvorykin, Opredelenie kul'tury i mesto material'noi kul'tury v obshchei kul'ture, Moscow, 1964, p. 3

البشري، على الرغم من ارتباطها ببيولوجيا الانسان العاقل homosapiens تتحدد بشكلٍ أساسي من خلال عمليات اجتماعية غير بيولوجية.

هذا هو السبب في أن مُجرّد التأكيد على الطبيعة غير البيولوجية للثقافة غير مُلائم بشكلٍ واضح من أجل توضيح السمات المُحددة للظاهرة. بالإضافة الى ذلك، في رأينا، ليست هناك حاجة، في المرحلة الحالية من تطور السوسبيولوجيا الماركسية اللينينية، لتضمين هذا المعيار الواضح في تعريف المفهوم، لأنه غير مُدرج في تعريفات الظواهر الاجتماعية الأخرى، ولكنه يبقى فيها ضمناً.

قد يَطرح المرء الفرضية القائلة بأن النمط الانثروبولوجي لتعريف الثقافة مُرتبط نشوئياً بالموضوع التقليدي للانثروبولوجيا التجريبية والبحث الاثنوغرافي: لقد كانتا حتى وقتٍ قريبٍ مُكرّستين لدراسة الشعوب المُتخلفة في المقام الأول في مرحلة المُجتمع العشائري.

ومع ذلك، فإنه لا يجب سحب حقيقة أن الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي لم يكونا مُفصلين في وقتٍ مُبكر، وان كانت مرحلةً طويلةً جداً من التاريخ الانساني، لا يجب سحبها على التاريخ كله. للأسف، يوجد تفسير واسع جداً لهذه الفكرة في أدبياتنا حول تاريخ ونظرية الثقافة في كثيرٍ من الأحيان. وهذا ينطبق قبل كل شيء على صيغة مُنتشرة على نطاقٍ واسع "مُجمل الانجازات في تطورات الحياة المادية والفكرية للمُجتمع"¹. تم انتقاد تعريفات من هذا النوع مراراً وتكراراً، على أساس أنها لا توفر الفرصة "لما يوحدها بطبيعتها الكامنة فيها" حسب تعبير ماركاريان². تمت الإشارة أيضاً الى أن "مجموع الانجازات" أو "النتائج" تستبعد عملية التطور ذاتها. وقد عبّر فاديم ميخويف Vadim Mezhev عن هذه الفكرة بوضوح تام: "الثقافة لا توجد في شكل الأشياء الجامدة الميتة، ولكن في الشكل العاصف للقدرات الانسانية التي تُظهر نفسها بشكلٍ فعّال"³.



فاديم ميخايلوفيتش ميخويف

ومع ذلك، فإن العيب الرئيسي في تعريفات من هذا النوع يكمن في حقيقة أنها تتضمن تاريخ البشرية بأكمله.

¹ - M. P. Kim, Kommunisticheskaia partiia - organizator kul'turnoi revoliutsii v SSSR, Moscow, 1955, p. 8; E. A. Baller, Kul'tura sotsialisticheskaiia i kul'tura burzhuznaia, Moscow, 1961, p. 6; P. I. Kabanov, Istoriia kul'turnoi revoliutsii v SSSR, Uchebnoe posobie, Moscow, 1971, p. 5

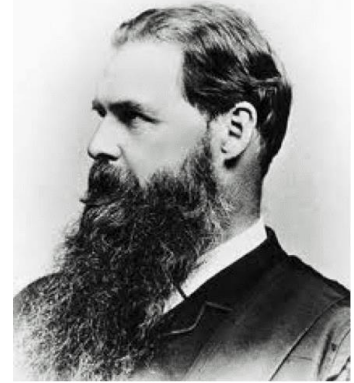
² - E. S. Markarian, op. cit., p. 67

³ - V. M. Mezhev, "O poniatii kul'tury," Uchenye zapiski Moskovskogo gos. in-ta kul'tury, Issue 14, Moscow, 1967, p.27

حسب ارزاكانيان Arzakan'ian هل كل التاريخ هو ثقافة؟ بالرغم من أنه لم يتجاهل حقيقة أن التاريخ يتضمن " القدرات الانسانية التي تُظهر نفسها بشكلٍ فعّال". انه يفهم الثقافة بأنها "النتائج الرئيسية للنشاط المادي والفكري والفني للانسان والمجتمع ووسائل تنفيذ ذلك النشاط عملياً، وهذا النشاط نفسه كعملية ابداعية مُتواصلة يُحددها الانتاج المادي"¹. هل يختلف هذا التعريف كثيراً عن صياغة قسطنطين بيتروفيتش ابروسينكو Konstantin Petrovich Abrosenko والتي تُعبّر بوضوح شديد عن مفهوم الثقافة هذا: "الثقافة، ككل، بالمعنى الواسع، تشمل مُجمل جميع جوانب حياة المُجتمع. انها تتضمن الحياة المادية للبشر والمسائل الاجتماعية الحكومية والسياسة والايديولوجيا"².

نظراً لأن جوانب الحياة الاجتماعية المتنوعة أصبحت أكثر تعقيداً وتمييزاً، فإن التخصصات المُختلفة للمعرفة التاريخية، رغم تخلفها وراء هذا العملية المُعقدة، الا أنها قد تشكّلت بالفعل. ظهرت مجالات موضوعاتها كتاريخ لهذا الجانب أو ذاك من جوانب عملية تطور البشرية الواحد: التاريخ الاقتصادي، تاريخ الدولة والقانون، الحركة العمالية، الأدب وما الى ذلك. ما هو جانب العملية التاريخية التي يدرسها تاريخ الثقافة؟ من الواضح أنه من المُستحيل العثور على إجابة من خلال إتباع المُقاربة الانثروبولوجية.

تُثبت المُقاربة السوسولوجية، من هذا المُنطلق، أنها أكثر فائدة، حيث تتعامل مع الثقافة على أنها جانب أو جزء أو عُنصر مُعيّن من الحياة الاجتماعية. حتى التعريف المعروف جيداً الذي وضعه مؤسس الانثروبولوجيا الحديثة ادوارد بارنت تايلور Edward Burnett Tylor هو من النمط السوسولوجي الى حد ما.



السير ادوارد تايلور

فالثقافة، على حد تعبيره "تتكون في مُجملها من المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقوانين والعادات وأي قدرات وعادات أُخرى يكتسبها الانسان كعضو في المُجتمع"³. فقط الظواهر من نوع البنى الفوقية هي التي يقوم بتعدادها فقط. يوسّع عالم الانثروبولوجيا البريطاني برونيسلاف مالينوفسكي Bronisław

¹ - Ts. G. Arzakan'ian, "Kul'tura i tsivilizatsiia: problemy teorii i istorii," Vestnik istorii mirovoi kul'tury, 1961, No. 3, p. 65

² - K. P. Abrosenko, Sovetskaia sotsialisticheskaia kul'tura - samaia peredovaia kul'tura v mire, Moscow, 1951, p. 7

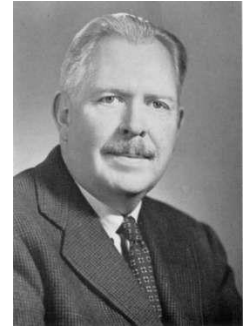
³ - E. Taylor, Pervobytnaia kul'tura, Moscow, 1939, p. 1. We found it necessary to correct the translation and replace the work nekotorykh by liubykh, since the original reads "any other capabilities"

Malinowski فكرة الثقافة: الاختراعات والأشياء والعمليات التقنية والأفكار والعادات والقيم الموروثة".



برونيسلاف مالينوفسكي

يُضمّن رادكليف براون Radcliffe-Brown اللغة والمعتقدات والأذواق الجمالية والمعرفة والمهارات المهنية والعادات من كل نمط في مفهوم الثقافة. يتم وضع التعريف في عنصر أو عنصرين فقط في العديد من التعريفات المختصرة: "طريقة تفكير مقبولة" (كارل يونغ). "الأفكار والعادات" (رالف لينتون Ralph Linton). "الاتيكيت واللغة والعادات... المعتقدات الدينية والبحوث والاختراعات ونظام المعارف" (لوغان ويلسون Logan Wilson وويليام كولب William L. Kolb). "دقق الأفكار الذي ينتقل من فرد إلى فرد" (C. Ford)¹.



رالف لينتون

إن واضعي هذه التعريفات، الذين ينتمون إلى مدارس مختلفة من السوسولوجيا البرجوازية، بعيدون تماماً عن المقاربة المادية الديالكتيكية العلمية الحقيقية للظواهر الاجتماعية. ما يضعونه ليس حتى تعريفات، ولكن مجرد قائمة من العناصر، من الأجزاء المكونة لكل ما. "لقد نسوا أن يقولوا ما هي الثقافة" حسبما علّق كروبر وكلوكهون². إن النقطة الأساسية، فيما يتعلق بمسألة موضوع تاريخ الثقافة ليست المكونات المختلفة المتعلقة بالثقافة، بل المنهج نفسه: فكرة "الثقافة" لا تشمل حياة المجتمع كله لكن جانب مُعيّن منها.

¹ - A. L. Kroeber and C. Kluckhohn, op. cit., pp. 47, 48, 58, 50, 67

² - Ibid., p. 57

يتم التعبير عن المقاربة السوسولوجية في أدبياتنا من خلال تنوعتين رئيسيتين. التنوعية الأكثر انتشاراً هي الميل الى التمييز بين مفهوم "الثقافة" بالمعنى الواسع والضيق للمصطلح¹.

التعريفات الواسعة التي قدمها كيم وأرزاكانيان وبوللر Baller وكابانوف المعروضة أعلاه تتعلق تحديداً بالجانب الواسع للفكرة. في هذه الحالة، فإن فهم الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة هو الذي يحتوي على حس أنثروبولوجي. ومع ذلك، يفهم هؤلاء المؤلفين وغيرهم الثقافة بالمعنى الضيق على أنها تعني الثقافة الروحية، والتي يتم تفسيرها على أنها "مجموع القيم الروحية"، وفي بعض التعريفات على أنها "وسائل خلقها" أيضاً. تُنبه هيئة تحرير العمل الجماعي المعروف (الشيوعية والثقافة) Kommunizm i kul'tura القارئ من أن الثقافة "تُفهم في هذا الكتاب بالمعنى الضيق"².

في الحالة الثانية، يتم فرز ليس أحد جوانب العملية الموحدة لتطور المجتمع، ولكن جانب مُحدد منه. يفهم التيروفيتش O. N. Al'terovich الثقافة على أنها "استيعاب الانسانية والمجتمع الاثنى والطبقة والفرد للواقع الموضوعي"³. يطرح فاديم ميغوييف التعريف التالي: هي "نشاط كوسيلة لتطور الانسان الشامل والمُتكامل، والذي يتجلى مباشرة في الاستيعاب الشامل للطبيعة ومُعالجتها من خلاله: هذه هي ماهية الثقافة"⁴. بالطبع، تحتوي هذه الصيغ على تلوين أنثروبولوجي يُمكن ملاحظته جيداً، حيث يتم تضمين كل من الانتاج المادي والعلاقات الاجتماعية والصراع الطبقي في مجال دراسة الثقافة. لكن مع ذلك، يسعى المؤلفين الى توجيه دراسة الثقافة ليس نحو دراسة العملية التاريخية ككل، بل نحو أحد جوانبها، مثل تاريخ عملية استيعاب الواقع أو تاريخ النشاط الانساني، بينما يتم التركيز في الحالة الثانية على "تطور الانسان كشخصية مُتكاملة"⁵.

أخيراً، لا تتقدم الثقافة في ظل المقاربة الفلسفية كمرادف للمجتمع وليس كجزء أو جانب مُعين من التطور الاجتماعي، بل كظاهرة مُجردة يُمكن استبعادها من العملية فقط بطريقة تحليلية صرف. وهكذا يرى ايفانز بريتشارد Evans-Pritchard أنه يُمكن تمييز شيء ما كُلي في دراسة الثقافة: "عند القيام بذلك، لا يتم رسم حدود الاختلاف بين نوعين من الأشياء- المجتمع والثقافة غير موجودين في الواقع- ولكن بين تجريدين مُختلفين"⁶. يطرح كروبر وبارسونز في المقالة التي سبقَ واستشهدنا بها نفس الفكرة تقريباً، على الرغم من أن المجتمع والثقافة بالنسبة لهما ليسا تجريداً بل ظواهر موجودة بالفعل، يتم حذف الأول أو الثاني عن طريق التحليل⁷.

مُنتقداً المُعالجة المثالية لكل من الأفكار قيد الدراسة ومفهوم "التجريد"، حاولَ ماركاريان طرح تفسير ماركسي للمسألة: "عند تحديد مشكلة العلاقة المُتبادلة بين المجتمع (بالمعنى الضيق) والثقافة، يُمكن أن يكون

¹ - See A. I. Arnol'dov, Sotsializm i kul'tura, Moscow, 1962, pp. 39-40

² - Kommunizm i kul'tura, Moscow, 1966, p. '7

³ - O. N. Al'terovich, "Dialektika kul'turnogo razvitiia," Dialektika material'noi i dukhovnoi zhizni obshchestva, Moscow, 1966, p. 239

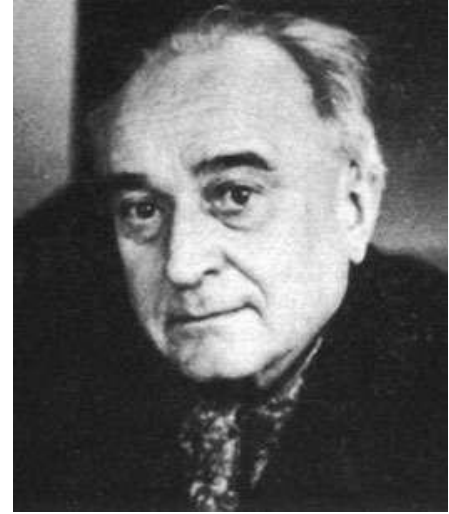
⁴ - V. M. Mezhev, "O poniatii kul'tury," p. 29

⁵ - Ibid., p. 30

⁶ - A. L. Kroeber and C. Kluckhohn, op. cit., p. 134

⁷ - A. L. Kroeber and T. Parsons, op. cit

فهمها فهماً صحيحاً من الناحية النظرية ومُثمراً من الناحية المنهجية عندما لا نعتبر العلاقة بين فكرتي "المجتمع" و"الثقافة" كعلاقة بين الجزء والكُل، ولكن كتعبير عن جانبين مُختلفين مُتحدّين عضويّاً وينهضان نشوئياً في نفس الوقت، والذين لا يُمكن فصل مكوناتهما الا من خلال تكتيكات التحليل المنطقي¹. يُمكن تعريف الثقافة، وفقاً لماركاريان، على أنها "وظيفة للوجود الجماعي للبشر"².



إيفانز بريشارد

هذا الفهم، في رأينا، ليس مُثمر، على الأقل بالنسبة للبحث التاريخي في مجال الثقافة. بالطبع، من الصواب التأكيد على أن الثقافة والمجتمع نشأ في وقتٍ واحد. لكن علاقات الانتاج نشأت بالتزامن مع ظهور المجتمع، بالضبط كما نشأ الانتاج نفسه ونوع مُعيّن من التنظيم الاجتماعي. هل هذا يعني أن جميع مكونات الحياة الاجتماعية هذه ليست جزءاً من المجتمع كأنها جزء من كُل؟ وهل صحيح أنه لا يُمكننا فصل مكون عن آخر وفصل الجزء عن الكُل الا بالتحليل المنطقي؟ بالنسبة للاقتصاد والعائلة (العشيرة) وجميع أنواع العلاقات الأخرى (بما في ذلك الثقافية)، توجد جميعها في الواقع الموضوعي على وجه التحديد كجزء من المجتمع ككلية. يُمكن، على هذا النحو بالضبط، أن تخضع لتحليل تاريخي ملموس، وهذه المقاربة بالضبط مُثمرة للغاية.

كان ماركاريان مُحقّقاً أيضاً عندما يُذكرنا بالوحدة العضوية لمُختلف جوانب العملية التاريخية. دائماً ما يهتم الماركسيين بهذا الجانب. لكن هذا بالتأكيد لا يمنعنا من دراسة هذا الجانب أو ذاك على المستوى التاريخي. يوجد لهذا النوع من الدراسة كم مُعيّن من التجريد، لكنه ليس أكثر من أي بحث علمي آخر. مثلاً، العلاقة العضوية بين الاقتصاد والسياسة ليست عقبة أمام أي دراسة للتاريخ السياسي أو للتاريخ الاقتصادي كُلاً على حدة.

برأينا، لا التفسير الانثروبولوجي المطاط للثقافة الذي يُفرغ محتواها المُحدد، ولا المُقاربة الفلسفية للمفهوم قيد

¹ - E. S. Markarian, op. cit., p. 57

² - Ibid., p. 61

البحث قد أديا الى حل المُشكلة. هذا لا يعني، مع ذلك، أنه من المُستحيل استخلاص أي شيء مُفيد منهما لمعالجة مسألة ماهية الثقافة. تحتوي المُقاربة الانثروبولوجية على الأقل على عامل أساسي واحد مُهم: السعي الى دراسة الثقافة ليس كمجموع الظواهر والجوانب المُختلفة للواقع، بل كظاهرة مُتكاملة. يجب اعتبار أن توجّه المُقاربة الانثروبولوجية لدراسة الظواهر السائدة بين الجماهير بما في ذلك توجهاتهم القيمية وقواعد سلوكهم ومُثلهم العُليا وأذواقهم وما الى ذلك، سمة لها أهمية خاصة لتاريخ الثقافة. وكما لاحظَ الباحث السوفييتي أرتانوفسكي بحق، فإن الانثروبولوجيا والاثوغرافيا يطرحان "تكنيكات مُفصلة جيداً لمقاربة مُتكاملة نحو الثقافة" ليس فقط لدراسة سوسيولوجيتها ولكن تاريخها أيضاً.¹

أثبت فكر ماركاريان في عددٍ من الحالات أنه مُثمر للغاية فيما يتعلق بالتفسير الفلسفي لفكرة "الثقافة". يتعلق هذا، على سبيل المثال، بفصل التحليل الصرف للظواهر التي تُصنفها على أنها "ثقافية" عن عملية الانتاج أو العلاقات الاجتماعية.

تُركز المناقشة الحالية على تطوير رأي موحد حول أي جانب من جوانب الواقع يجب أن نعتبره ضمن تلك الجوانب التي يجب أن تندرج في اطار المفهوم المُعطي. هذا ضروري من أجل "التوصل الى اتفاق بشأن شروط ومُعطيات تحديد موضوع دراسات التاريخ الثقافي بشكلٍ واضح. من غير المُستحسن، في هذا الصدد، المُحافظة على كُلٍ من تعريفي الثقافة الواسع والضيق: يجب أن يكون جهاز العلم المفاهيمي واضحاً. برأينا، يُمكن للمقاربات المتنوعة لدراسة الثقافة، وكذلك التعاريف المُختلفة للثقافة أن تتخللها فكرة "الحياة الروحية للمُجتمع". ان هذه الفكرة ليست مُعادلاً للوعي الاجتماعي، على الرغم من أن لديها الكثير من القواسم المُشتركة مع هذه المقولة. طرَحَ إيجيتخانيان فكرة أن نفهم الوعي الاجتماعي على أنه "أفكار ووجهات نظر ونظريات تنشأ وتتطور على أساس العلاقات المادية والوجود الاجتماعي وتبرز على أنها انعكاس (صحيح أو خاطئ) لهذه العملية"².

ولكن حتى عند دراستها بشكلٍ شامل وليس من الناحية الابستمولوجية الصرف، فإن الأفكار والنظريات والآراء لا تستنفد على الاطلاق ثراء الحياة الروحية للمُجتمع. ما هي، على سبيل المثال، حالة التعليم في مُجتمع مُعيّن؟ ما مدى انتشار الآراء المُختلفة أو الأذواق الجمالية فيه؟ ما هو تنظيم الحياة الروحية عند مُختلف الطبقات، أي كيف هي أوضاع وسائل اتصالها ومعلوماتها ومؤسساتها؟ كل هذا يتجاوز مفهوم الوعي الاجتماعي، بالضبط كما هو في حالة تاريخ الصراع السياسي فيما يتعلق بمسائل التطور الفكري للمُجتمع، والحقوق والتشريعات الموجودة فيه، وما الى ذلك. ومع ذلك، فإن هذه عناصر بالغة الأهمية للحياة الروحية للمُجتمع.

تتضمن أنواع الوعي الاجتماعي اليومي الشائع. ولكن "الوعي اليومي بشكلٍ عام ليس وعياً اجتماعياً ولكنه ذلك العنصر العالمي الطبقي (الشامل) في وعي الناس اليومي، في آرائهم ومشاعرهم التي لا يُمكن تفسيرها إن ظل المرء في إطار فهم الوعي كوعي "بشكلٍ عام" كما يقول اجيتخانيان عن حق³. لا تدخل

¹ - S. N. Artanovskii, op. cit., p. 31

² - M. G. Igitkhanian, "Teoriia poznaniia i issledovanie obshchestvennogo soznaniia," in Dialektika material'noi i dukhovnoi zhizni obshchestva, Moscow, 1966, p. 192

³ - Ibid., p. 195

المكونات "التكنولوجية" اللاتحددية للوعي اليومي في مفهوم "الوعي الاجتماعي"، ولكنها تحتل مكاناً مهماً في الحياة الروحية للمجتمع. الحقيقة هي أن مستوى قدرات التفكير، أي القدرة على التعميم والاستفادة من الأفكار المُجردة التي توصل إليها مُجتمع مُعَيّن تتغلغل في جميع جوانب الحياة الروحية وتضع بصمتها على نمط الجدالات والأخلاق والعادات.

وهكذا، فإن مفهوم "الحياة الروحية للمجتمع" أوسع بكثير من مفهوم "الوعي الاجتماعي". لكن الأفكار والنظريات والصور الابداعية لا تدخل الحياة الروحية للمجتمع من حيث مكانتها في عملية الإدراك بقدر ما تدخلها من حيث مستوى وجودها في مُجتمع مُعطى في مرحلة مُعينة من تطوره.

كما أن مفهوم "الحياة الروحية للمجتمع" لا يتطابق مع مفهوم "الانتاج الفكري" الذي طرحه ميغوييف كمقولة أساسية في تاريخ الثقافة. إن تركنا جانباً مسألة مدى قابلية تطبيق هذه الفكرة المُستعارة من الاقتصاد السياسي على نظرية الثقافة، فإننا نلاحظ فقط أنها تتعلق حصرياً بالنشاط المهني لأناس العمل الفكري. يقول ميغوييف: "إن المُقدمة المُباشرة لوجود تطور الانتاج الفكري هو انقسام نشاط الناس المادي والفكري، الانقسام بين العمل الذهني والبدني"¹. والواقع، أن فكرة "الانتاج الفكري" ستُفقر من محتواها الذي يُميزها (على عكس "الانتاج المادي") إن فهمناها على أنها تشمل كل نشاط فكري. يتضمن نشاط الناس المادي، نشاط الإنتاج المادي، ولكن لا يُمكن اختزال الأول للثاني. الرجل الذي يمشي في الشارع أو ينقل الأثاث في مكان ما هو في حالة نشاط مادي، لكنه لا يُنتج أي شيء، وهو ليس في عملية انتاج مادي. الفرد الذي يتذكر أن لديه موعداً هو منخرط في عملية فكرية مُعينة، انه في نشاط فكري، لكنه لا يُنتج شيئاً، وهو لا يقع ضمن مجال الانتاج الفكري.

الحياة الفكرية توجد بالطبع في كل مُجتمع بشري بمعزلٍ عما ان كان قد حدث فيه (اي في المُجتمع) الفصل بين العمل الذهني والعمل الجسدي. ولكن حتى في المرحلة التي اتخذ فيها تقسيم العمل أشكالاً مُتطرفة من التناقض بين العمل الفكري والجسدي، تتمتع جميع الطبقات بحياةٍ روحية، حتى تلك التي لا تُشارك في الانتاج الفكري (بالمعنى المُشار اليه للمصطلح).

ان هذه الطبقات، مثل جميع الأشخاص الذين لا يُشاركون بشكلٍ مُباشرٍ مهنياً في الانتاج الفكري، ليست معزولةً على الإطلاق عن خلق القيم الروحية. على عكس القيم المادية، فهي لا تتشكل فقط في سياق نشاط العمل الهادف. يمتلك الفرد الذي يقوم ببناء منزل، معرفةً دقيقةً الى حدٍ ما بالنتيجة التي يرغب في التوصل اليها. لكن الفرد الذي يُشكل رأياً أو تقييماً لأحداث أو ظواهر مُختلفة لا ينصبّ لنفسه أي مهام انتاجية: إنه ببساطة يعيش ويعمل في عالمٍ من أشخاصٍ مثله. انه، في وجوده الواقعي، يُضيف الى الثروة الروحية للانسانية اضافةً حتى وإن كانت اضافةً بسيطةً جداً.

وهكذا، فإن الحياة الروحية، رغم أنها لا تتطابق مع الوعي الاجتماعي أو مع الانتاج الروحي، ولكنها تتضمن هذه الأفكار كُلياً أو جزئياً، هي جانب مُحدد جداً من حياة المُجتمع. انها ظاهرة تقوم على أساس واحد، وتتحدد، في التحليل النهائي، من خلال ظروف الوجود المادي ويتم التعبير عنها في أشكالٍ مُتنوعة وتتنويع في

¹ - Kommunizm i kul'tura, p. 25

عملية التطور التاريخي.

في رأينا، الثقافة هي الحياة الروحية للمجتمع والتي تتحدد خصائصها الأساسية بظروف الحياة المادية والعلاقات الاجتماعية، وكذلك تُمارس تأثيراً مُتبادلاً عليها. هذه الصيغة لا تقوم مقام التعريف الرسمي الى جانب المفاهيم التي تسبقه، الا أنها تُساعد على الكشف عن جوهر حل مسألة موضوع تاريخ الثقافة الذي طرحناه. تتضمن هذه المقاربة عنصراً من عناصر المقاربة الانثروبولوجية حيث تُمثل الثقافة هنا كلاً لا يتجزأ، بينما ينتقل مركز الثقل الى الحياة الروحية للمجتمع بأسره. إنها تتضمن عنصراً سوسولوجياً، حيث يضمن المفهوم بعض جوانب حياة المجتمع، وتتضمن كذلك عنصراً فلسفياً، لأن بعض مكونات الحياة الروحية (على سبيل المثال، الفكري داخل حدود الانتاج المادي) لا يُمكن فصلها عن بعضها البعض الا بوسائل التحليل المنطقي.

يبدو لنا أن لينين قد طرَحَ هذا المعنى للثقافة بالضبط. على الرغم من أن كلمة "ثقافة" تُستخدَم في كتابات لينين بمُختلف الفروق من حيث المعنى حسب طبيعة العمل (مقالة، خطاب شفهي) وحسب الجمهور الذي يتم توجيه الخطاب له، الا أنه لم يستخدمه أبداً بالمعنى الانثروبولوجي الواسع بشكلٍ مُبالغٍ فيه.

في صيغ لينين، مثل "مع التدمير الهائل للثقافة ووسائل الانتاج" و"الاشتراكية مُستحيلة دون الاستفادة من مكاسب التكنولوجيا والثقافة" و"الاستفادة من كل ما صنعه أنشأته الثقافة الرأسمالية، والاستفادة مما خلقه الانتاج الرأسمالي"¹، لا تظهر قوى الانتاج والتكنولوجيا والانتاج نفسه كجزء من الثقافة بل موازية لها بشكلٍ مُستقل. بالطريقة نفسها لا يُدرج لينين علاقات الانتاج في مفهوم "الثقافة". من الضروري أخذ الثقافة التي خلفتها الرأسمالية وراءها بالكامل وبناء الاشتراكية بالاستناد عليها². أليس من الواضح أنه لا يتحدث عن "أخذ" علاقات الانتاج الرأسمالية؟ لم يُدرج لينين ما يُطلق عليه عادةً "الثقافة المادية"، أي أدوات العمل والمسكن وأشياء الحياة اليومية، لم يُدرجه في مفهوم الثقافة. في صياغاته المألوفة حول ثقافة مُلاك الأراضي وثقافة الكهنة والبرجوازية وعناصر الثقافة الديمقراطية والاشتراكية³ فإن القضية بالطبع ليست مُتعلقة بالآلات ووسائل الإنتاج، لأن الآلة غير قادرة على أن تكون رأسمالية أو اشتراكية، بل الأفكار والآراء والتوجهات والقيم، أي الحياة الروحية لمُختلف طبقات أو فئات المجتمع.

تُمارس البيئة المادية للإنسان، مثل أدوات العمل التي يستخدمها وخصائص طعامه ونوع مسكنه وملابسه، تُمارس بطبيعة الحال (جنباً الى جنب مع علاقات الإنتاج)، تأثيراً حاسماً على جميع جوانب حياة المجتمع. ولكن لا ينبع من ذلك على الإطلاق أنه ينبغي اعتبار القيم المادية نفسها جزءاً من مكونات الثقافة. ان الآلات والمباني والمُنتجات عموماً هي تجسيديات materializations ليس فقط للعمل البدني، بل وللعمل الفكري، أي تجسيد materialization للثقافة. ما يوجد في عملية انتاج السلع المادية ويحمل طابع النشاط الفكري (الكشوفات العلمية والاختراعات والتطويرات التكنولوجية بغض النظر عن كم انتاجها ومستوى تبادل الآراء والتفاعل الواعي ومستوى تنظيم الانتاج والانضباط والموقف من العمل) تشمل عناصر الحياة الروحية، أي

¹ - V. I. Lenin, Poln. sobr. soch., Vol. 36, pp. 46, 310; Vol.37, p. 446

² - Ibid., Vol. 38, p. 55

³ - Ibid., Vol. 24, pp. 120, 121

الثقافة¹. هذا هو بالضبط ما يدور في أذهاننا عندما نتحدث عن "ثقافة الإنتاج".

تحتل عناصر الحياة الروحية هذه، في مجمل تصريحات لينين حول الحاجة الى استخدام مُنجزات الثقافة المكتسبة في ظل الرأسمالية، مكاناً هاماً. كتب لينين: "ان التعاون موروث ثقافي هائل للغاية من الضروري تقديره واستغلاله"². وبذلك يتم وضع مهارات تنظيمية مُعينة ضمن مفهوم "الثقافة". في ملاحظته أن الرأسمالية قد "رفعت الثقافة بشكلٍ عام أكثر بكثير من أي وقتٍ مضى، وخاصةً ثقافة الجماهير" يقول لينين، بعد عدة فقرات أدناه، عن احدى تجسيدات هذا الانتعاش لثقافة الجماهير: "مبدأ الانضباط والتنظيم والعمل المُنظم على أساس صناعة الآلات الأكثر حداثةً، وحفظ السجلات والمراقبة الأكثر صرامة"³. وهكذا، بدون دمج نتاجات الإنتاج المادي والإنتاج نفسه في مفهوم "الثقافة"، يُصنّف لينين العنصر الفكري في عملية الإنتاج بالكامل ضمن هذا المفهوم. وهنا يواجه الباحث مهمة العزل التحليلي لهذا العنصر، مع ادماجه اللاحق في التعقيد العام للحياة الروحية لهذه الطبقة أو تلك في مرحلة مُعينة من التاريخ.

لا تعني حقيقة أن الفهم المطروح للثقافة باعتبارها الحياة الروحية للمجتمع، يستثني "الإنتاج المادي" من المفهوم، لا تعني على الإطلاق أي استخفاف بالنشاط المادي للناس والوجود المادي بشكلٍ عام، بالضبط كما أن وجود فكرة "البناء الفوقي" لا يعني الاستهانة بالبناء التحتي. كان اليزار الكساندروفيتش بالير Eleazar Aleksandrovich Baller مُحققاً عندما كتب في تحليله لأحد الأخطاء الأساسية في الدراسة البرجوازية للثقافة: "إن الفصل المثالي للثقافة الروحية عن أساسها المادي هو الأساس المنهجي لاستنتاج أن الثقافة الروحية مُستقلة تماماً وأساس نظريات التطور الذاتي للثقافة، المُستمدة من هذه النظرة"⁴. لكن كل ما يجب أن نستنتجه من هذا هو أن الثقافة يجب أن لا تتفصل عن أساسها، لا أن نقوم بتبني هاتين الظاهرتين كشيء واحد. على العكس من ذلك، فإن مفهوم "الثقافة" بالمعنى الواسع للمصطلح يحو الحدود بين البناء الفوقي والبناء التحتي.

بتعريف الثقافة بوضوح كظاهرة تنتمي الى البناء الفوقي، فإننا نعتزف بالتالي أنها مُشتقة وتستند الى البناء التحتي. لا توجد أسباب لإذابة نمط الإنتاج في مفهوم "الثقافة". تُعد آثار الثقافة المادية مصدراً مُهماً لدراسة تاريخ البشرية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. إن مفهوم "الثقافة المادية" كمفهوم خاص في بعض العلوم (الأركيولوجيا على سبيل المثال) له الحق في الوجود، تماماً مثل مفاهيم مثل "ثقافة الحبوب"، ولكن هذه أفكار مُستقلة ومُتخصصة.

برأينا، يُمكن اعتبار موضوع التاريخ الثقافي، إن قِيلَ المرء تفسير مفهوم الثقافة المطروح أعلاه، تطوراً لتاريخ الروح الانسانية ووسائل التعبير عنها منذ نشوءها منذ ظهور الانسان العاقل homo sapiens وحتى اليوم. ولكن من الواضح أن هذا التعريف العام للغاية، غير مُناسب لتوضيح إطار مسألة دراسات التاريخ الثقافي وسماتها المُحددة.

¹ - The question of intellectual factors in material production is dealt with solidly in an article by A. S. Frisch, "Kul'tura i proizvodstvo," in Uchenye zapiski Moskovskogo gos. in-ta kul'tury, Issue 14, Moscow, 1967

² - Lenin, Poln. sobr. soch., Vol. 37, p. 202

³ - Ibid., Vol. 36, pp. 81, 82

⁴ - E. A. Baller, Preemstvennost' v razviti kul'tury, p. 51

الحياة الروحية ليست شيئاً موجوداً بشكلٍ عام: فهي دائماً جزء من مُجتمع من الناس مُحدد تاريخياً نشأ على أساس الوجود المادي والبنية الاجتماعية لمُجتمع مُحدد. تُعتبر نظرية التشكيلات الاقتصادية-الاجتماعية ذات أهمية حاسمة بالنسبة للتحليل الماركسي اللينيني للحياة الروحية لمُختلف المُجتمعات والجماعات. السمة الرئيسية للحياة الروحية في التشكيلات الاجتماعية التناحرية هي طابعها الطبقي ووجود ثقافتين أو أكثر في مُجتمع مُعيّن، وهذا لا يستبعد وجود سمات عامة للحياة الروحية في هذه المُجتمعات. هنا، الرئيسي الذي تتميز به الحياة الروحية وما يُمكن من خلاله تحديدها نوعياً، هو الطبقة، وهي حامل التوجهات القِيَمية والمُثل العليا ومعايير الحياة المُجتمعية والأذواق ومبادئ فهم الطبيعة والانسان والمُجتمع.

بطبيعة الحال، هناك اختلافات في الحياة الروحية بين الفئات العمرية والجنس والتجمعات المهنية وحتى الأنماط النفسية تكون ذات أهمية فُصوى. لكن التصنيف وفقاً لهذه المعايير لا يكشف عن الجوهر الحقيقي لظواهر التاريخ الثقافي. وليس من قبيل الصدفة أن يعتمد علم الثقافة البرجوازي عليها. لا توجد ثقافة شبابية وثقافة كبار سن، أو ذكرية وأنثوية، متفائلة أو متشائمة، لكن هناك ثقافة الفلاحين وثقافة السادة الاقطاعيين، وثقافة ديمقراطية وثقافة استغلال الطبقات. لذلك، فإن تصنيف الثقافة حسب المعيار الطبقي هو المعيار العلمي الوحيد، والمنهج الطبقي في دراسة التاريخ الثقافي يجعل من الممكن التغلغل في جوهر الحياة الثقافية. فيما يتعلّق بتاريخ النظام الرأسمالي، فإن ظهور وتطور الحياة الروحية لجميع طبقاته هو موضوع التاريخ الثقافي. نحن نُشير هنا الى الثقافة البرجوازية والديمقراطية والاشتراكية، والتي يُشكّل تفاعلها المُعقد ثقافة العصر الحديث.

انطلاقاً من المُقدمات الماركسية اللينينية حول الدور الحاسم للجماهير في العملية التاريخية، كُشِف العلماء الماركسيون عن عُقْم الطابع التبريري لمُختلف النظريات النُخبوية السائدة على نطاقٍ واسع في دراسات الثقافة البرجوازية¹. في الوقت نفسه، يتم التأكيد بشكلٍ مُحق على أن الرأسمالية تحرم جماهير الكادحين من التمتع بالثروات الروحية المُتراكمة وتحد من تعليم الناس الى الحد الأدنى الضروري لتطوير الانتاج، وبالتالي تقف عائقاً في وجه تلبية الحاجات الفكرية للناس. فقط الثورة الاشتراكية هي التي تستطيع ازالة العقبات عن طريق التطوير الشامل للشخصية وتحقيق الامكانيات الروحية الكاملة للشعب.

عموماً، ما هو دور الكادحين في الحياة الروحية في ظل الرأسمالية؟ يبدو لنا أن التصور عن هذا الأمر يحتاج الى تصحيحات جوهرية في أدبنا. كَتَبَ ارنولدوف، أنه يتم التعبير عن الدور الحاسم للناس في تطوير الثقافة الروحية في ظل الرأسمالية، بشكلٍ أساسي، في خلق الظروف والمُتطلبات المادية اللازمة لها. بعبارةٍ أخرى، الناس ليسوا خالقين للقيم الروحية، بل فقط المُقدمات المادية للثقافة. هذا صحيح بحق. ولكن وضع هذه الحدود لا معنى له، لأن المؤلف يعترف بالمشاركة المُباشرة للناس في خلق القيم الروحية بمعنىً واحدٍ فقط: "الشعب هو خالق اللغة وشارك بشكلٍ مُباشر في ولادة الثقافة الروحية"².

قدّم السوفييتي ماكسيم بافلوفيتش كيم Maxim Pavlovich Kim اجابَةً أوسع وأعمق لهذا السؤال. إنه يؤكد أن "الكادحين هم المبدعين الحقيقيين للثقافة"³. ان هذا الافتراض مُثبت (كما يظهر بشكلٍ أساسي في العديد

¹ - See lu. N. Davydov, *Iskusstvo i elita*, Moscow, 1966

² - A. I. Arnol'dov, op. cit., p. 72

³ - M. P. Kim, op. cit., p. 9

من الأعمال المتعلقة بنظرية وتاريخ الثقافة، ان لم يكن كلها)، من خلال أمرين هامين: "يتغير الانسان ثقافياً لدن انتاجه السلع المادية". "يتم انشاء أكثر أنواع الشخصيات عمقاً وحيويةً من خلال الابداع الشعبي الشفوي" من المؤكد أن تغير الجوانب الروحية للمنتج نفسه هو مساهمة مهمة للغاية ومباشرة من قِبَل الناس في الثقافة. لا يُمكن أيضاً أن يخضع للشك، الابداع الفني الشعبي في مساهمته الثقافية.



ماكسيم بافلوفيتش كيم

لكن هذا الحل للمسألة لا يذكر أيضاً عاملاً مهماً يُظهر، في رأينا، الدور الحاسم حقاً لجمهير الناس في تطور الثقافة. لقد سَبَقَ أن لوحظَ أعلاه أن الجماهير، تُطور في حياتها اليومية، وجهات نظر وتقييمات مُعينة. ان التفسير البرجوازي المثالي للقيم كأنها موجودة خارج كل الوجود المادي، وحتى فوق الانسان والتاريخ، هو بطبيعة الحال غير مقبول كُلياً بالنسبة الى وجهة نظر علمية حقيقية حول القيم الفكرية. لكن التوجهات القيمية التي يخلقها الوجود المادي ومكان الطبقة المُعطاة في عملية الانتاج وفي مصفوفة العلاقات الاجتماعية هي ظاهرة حقيقية تماماً في الحياة الروحية. كتب الباحث السوفييتي أوليغ دروبنيتسكي: "على أساس مفاهيم القيم الخاصة بهم، لا يُقيم الناس ما هو موجود وحسب، بل ويختارون أفعالهم ويُطالبون بالعدالة ويسعون الى تحقيقها أيضاً"¹. ان معايير الأخلاق والعدالة التي وُلدت من تاريخ أعمال الكادحين أنفسهم هي واحدة من أعظم القيم الثقافية، ويتجلى الدور الحاسم للجماهير الكادحة في تطوير الثقافة، في المقام الأول، في تطوير هذه المعايير والتوجهات القيمية والمُثل العليا الموافقة لها.

¹ - D. G. Drobnitskii, Mir ozhivshikh predmetov, Moscow, 1967, p. 45; also see V. P. Tugarinov, O tsnostiakh zhizni i kul'tury, Leningrad, 1960

ان وعي الكادحين اليومي في المجتمع الرأسمالي يتطور مباشرةً في عمليات الانتاج المادي والصراع الطبقي. وكما أشار لينين، فإن وجود الاستغلال "يولد دائماً، حتى عند الأشخاص الأكثر عُرضةً للاستغلال وكذلك بعض أوساط الانتلجنسيا، مثل معارضة النظام"¹.



أوليفغ دروبنيتسكي

سيحمل الوعي اليومي للجماهير في ظل الرأسمالية في المقام الأول طابع حُكم القيمة مُعبراً عن مصالحهم واحتياجاتهم، بسبب محدودية التمتع بالتعليم. لكن الوعي اليومي لا ينفصل بحاجز لا يُمكن عبوره عن الابداع العلمي والفني. على العكس، انه التربة التي تُغذي نظريات ومذاهب وتصورات الايديولوجيين. أكد لينين أن "هذه المُثل قيمة للغاية بالنسبة الى الماركسيين"².

بطبيعة الحال، لا تُشكّل التوجهات القِيَمية والمُثل العليا للجماهير نظريةً علمية. قام لينين، في كتابه (ما العمل) بدراسةٍ شاملة للكيفيات التي تنتقل الاشتراكية العلمية فيها الى أذهان الجماهير من "الخارج". لاحظَ لينين في كثيرٍ من الأحيان أن الديمقراطية الاجتماعية عند الطبقة العاملة غالباً ما "تنجذب الى الاشتراكية بصورة عفوية"³. كتب انجلز عن العمال الانجليز في عام 1895: "تُصبح الغريزة الاشتراكية عند الجماهير أقوى فأقوى"⁴. فقط الاشتراكية العلمية، القائمة على كل منجزات العقل الانساني، هي التي تكشف قوانين تطور الطبيعة والمجتمع.

يُمكن القول أن الوعي اليومي يطرح فقط المسائل التي يستجيب لها الوعي العلمي والابداعي ويطرح الاتجاه الأكثر عموميةً لأبحاث الايديولوجيين. يتعلق هذا بالعلم أيضاً. ان جماهير العمال لم تخلق بشكلٍ مُباشر مسرحية هاملت أو كتاب الحرب والسلام ولوحات كوربيه وسيروف وسيمفونيات بيتهوفن وتشايكوفسكي ومسرحيات كين وتشيبكين Shchepkin. ولكن عند التحليل الدقيق، يجد المرء أن ما يكمن

¹ - Lenin, Poln. sobr. soch., Vol. 1, p. 435

² - Ibid

³ - المُختارات في 10 مُجلدات-المُجلد الثاني، لينين، دار التقدم 1979، ص58

⁴ - K. Marx and F. Engels, -Soch., Vol. 39, p. 299

وراء هذه الابداعات العظيمة للتوجهات القيمية الانسانية العبقريّة، ومفاهيم ما هو كائن وما يجب أن يكون قد أبدعته الجماهير بهذه الطريقة أو تلك. ان مجموعة مقالات لينين عن تولستوي تُقدّم لنا مثلاً رائعاً لتحليل العلاقة بين الكتابة الابداعية لفنان عظيم والنفسية الاجتماعية لجماهير الفلاحين، التناقضات التي انعكست بدقة في أعمال تولستوي.

كل ما سبق، لا ينفي بأي شكلٍ من الأشكال الدور الهائل للايديولوجي الذي يخدم ليس فقط مُعبّر عن الأفكار والمفاهيم والمُثل العليا الموضوعية بالنسبة له، بل وقبل كل شيء كمُبدع يُثوري الحياة الفكرية بثمار تفكيره العلمي أو التخيلي. ان موقعه في الصراع الطبقي، سواءً كان واعياً أو غير واعٍ، والتناقضات في عمله، وتقرّر ادراكه للعالم، وطابع "تملكه للثقافة" ذاته لا تقل أهميةً بالنسبة لمؤرخ الثقافة عن أهمية شخصية تاريخية بالنسبة لمؤرخ "مُتحرّر". بشكلٍ عام، لا تختلف العلاقة بين الجماهير والشخصيات الثقافية البارزة اختلافاً جوهرياً عن العلاقة بين الجماهير والشخصيات التاريخية. عبّر عن هذ بيوتر ايفيموفيتش كرياچيف Pyotr Efimovich Kryazhev: "الشخصية التاريخية هي قوة دافعة للتطور التاريخي مُستقلة نسبياً، مُركّزةً ومُعبّراً عنها في شخصٍ فرد أو عدد من الشخصيات الفردية. تتكون جماهير الشعب وهي القوة الحاسمة للعملية التاريخية، بطبيعة الحال، من الشخصيات، ولكن الشخصية الفردية هنا... تفقد دور القوة الدافعة المُستقلة نسبياً للتاريخ"¹.

الجماهير ككل، كما هي الدافع الرئيسي المُحرك للتاريخ، هي دافع رئيسي لتاريخ الثقافة. يُلاحظ ماركس أنه "فوق الأشكال المُختلفة للملكية، فوق شروط البقاء الاجتماعية، ينهض بناء فوق كامل من المشاعر والأوهام وأنماط التفكير ووجهات النظر الى العالم المُتميزة عن بعضها البعض والمُشكّلة تشكياً خاصاً" وهو يُفسر منشأها: "ان الطبقة بأسرها تخلقها وتكونها على أساس شروطها المادية وعلى أساس العلاقات الاجتماعية التي توافقها"². "الطبقة بأكملها" وليس ايديولوجيوها فقط: هنا تكمن الأهمية المنهجية الأساسية لمُقدمة ماركس حول تاريخ الثقافة.

ان الفهم العلمي لدور الجماهير الحاسم في الحياة الروحية للمُجتمع يوفر الفرصة، كما يبدو لنا، من أجل وضع معيار واضح، يُمكن على أساسه، في سياق التحليل الملموس، تحديد الطبيعة الطبقيّة لظواهر الحياة الروحية.

يبدو لنا أن تلك الظواهر من الحياة الفكرية وُلدت على مستوى الوعي اليومي، ويجب النظر الى ثمار جهود الايديولوجيين التي تُعبّر عن التوجهات القيمية والمُثل العليا لجماهير الناس ومبادئها الأخلاقية، يجب النظر اليها على أنها ظاهرة من الثقافة الديمقراطية. وغنيٌّ عن البيان أن المفكر أو الفنان العظيم غالباً ما يستشف فقط العناصر الجنينية لمُثل الشعب والنظام المُنغير باستمرار للتوجهات القيمية التي لم تصبح بعد سائدة كميّاً عند الجماهير، ولكنها لا تزال قيماً للجماهير على وجه التحديد.

ينشأ نظام المُثل والتوجهات القيمية الديمقراطية العام في بيئة الكادحين أو طليعتها المُتقدمة في مرحلة مُعينة من تاريخ بلدٍ ما، ومن ثم يُمكن أن يتحول هذا الى نموذج أمثولات اشتراكية، جنباً الى جنب مع القيم الفنية

¹ - P. E. Kriazhev, "O dialektike obshcheniia i obosobleniia lichnosti v obshchestve," in Dialektika material'noi i dukhovnoi zhizni obshchestva, Moscow, 1966, p. 61

² - الثامن عشر من برومير لويس بونابارت، كارل ماركس، ص23. نسخة الكترونية لا تذكر اسم المُترجم.

والعلمية التي طورتها، وهذا ما يُشكّل ظاهرة الثقافة الاشتراكية.

ومع ذلك، فإن ظواهر الثقافة البرجوازية تولد في وسط الطبقة الرأسمالية نفسها، في شكل توجهاتها القِيَمية ووجهات نظرها ومفاهيمها وتحيزاتها، ويطورها الايديولوجيين البرجوازيين على هذا الأساس. كَتَبَ ماركس وانجلز أن الهيجيلية الشابّة "تُكرّر فقط في الشكل الفلسفي أفكار البرجوازية الألمانية"¹.

إن المعيار المُقترَح يجعل من المُمكن، في نظرنا، تحديد انضواء ظاهرة مُعينة من الحياة الروحية للمُجتمع الرأسمالي الى الثقافة البرجوازية أو الديمقراطية أو الاشتراكية، في سياق دراسة التاريخ الثقافي. لكن المعيار ليس مفتاحاً رئيسياً يُمكنه أن يفتح أي قفل، لأنه غالباً ما توجد خلف هذه الأقفال ظواهر روحية مُعقدة ومُتعددة المستويات.

إن تاريخ الثقافة منطقة واسعة جداً لدرجة أن ارتباطها بالبناء التحتي وكذلك الصراع الطبقي ككل، يُمكن تتبعه بشكلٍ مُباشر أكثر من الترابط بين البناء التحتي وصراع الأفكار في مجال الفلسفة أو صراع التيارات الفنية على سبيل المثال. مثلما لا يُمكن لدراسة فرع واحد من فروع الصناعة أو حتى دراسة موازية لجميع الفروع أن تحل محل التاريخ الاقتصادي ككل، فإن دراسة مُختلف المجالات في الحياة الروحية لا يُمكن أن تحل محل تاريخ الثقافة. إن وجود تاريخ العلم والأدب والفن كتخصصات علمية مُنفصلة له ما يُبرره تماماً بل هو ضروري لأغراض المعرفة العميقة لمُختلف مجالات الحياة الروحية. لكن بالكاد يُمكن لحالة مُعطاة مُعينة، على سبيل المثال في مجال الموسيقى والأدب، أن تكون بحد ذاتها ذات أهمية كبيرة لتحليل العملية التاريخية، في حين أن دراسة مسار مُعين لتطور الثقافة، والذي يكون مشروطاً في التحليل النهائي بواسطة البناء التحتي، يُمكنه أن يكتسب أهمية كبيرة في التعرف على وضعيات تاريخية ملموسة.

هذا هو السبب في أن دراسة تاريخ الثقافة هي إحدى المهام التي تواجه تخصص التاريخ على وجه التحديد. يُمكن للمؤرخ، ويجب عليه، أن يستخدم نتائج الدراسات التي أجراها مُتخصصون في مجال الأدب والفن وما الى ذلك. انه لا يدعي أنه يُمكنه أن يحل مكانهم. لكن البحث مُتعدد التخصصات في مجال التاريخ الثقافي على هذا النحو هو من عمل المؤرخ. ومع ذلك، فإن هذا يتطلب تأهيلاً مُتخصصاً لم تُقدمه أقسام التاريخ لدينا بشكلٍ كافٍ. نحن بحاجة الى تخصصات في التاريخ الثقافي في عددٍ قليلٍ من الجامعات على الأقل. نحن بحاجة الى مواقع تدريسية وأقسام مُناسبة في معاهد التاريخ وأكاديميات العلوم، وفي النهاية، الى مجلة خاصة. سيكون من الصعب، بدون هذه التدابير، تطوير هذا الفرع المُهم من التخصص التاريخي بنجاح.

ترجمة لمقالة:

L. E. Kertman (1974) A Contribution to the Methodology of the Study of Culture and A Critique of its Idealist Conceptions, Soviet Studies in History, 13:3, 3-31

¹ - Ibid., Vol. 3, p. 11

الحقيقة التاريخية: بُنيتها وشكلها ومضمونها



ميخائيل أبراموفيتش بارغ*

من الواضح أنه لا يوجد مُتطلبات يُكررها تخصص السوسولوجيا النظرية بإصرار عندما تكون الوظائف المعرفية قيد النقاش أكثر من تلك المُتطلبات التي تخص عيانية الحقائق التي يدرسها ذلك التخصص¹. هذا المُتطلب بحد ذاته مُهم جداً لأنه في الواقع، خاص بالمعرفة التاريخية². يطرح السؤال التالي نفسه: ماذا يعني هذا التعريف في لغة ابستمولوجيا ومنطق التخصص؟ ما هي المعرفة التي نقول عنها "عيانية"؟ هل المُصطلحات "العيانية" و"الحقائقية" Factography ضرورية، فيما يتعلق بالمعرفة التاريخية؟ أخيراً، ما هو مُستوى الحقائق التاريخية الذي يجب دراسته وبأي طريقة يجب إعادة تركيبه في البحث التاريخي حتى تتوافق النتائج مع ذلك المُتطلب، أي حتى يتم تمثيل الموضوع بكل عيانيته؟ كل هذه الأسئلة تتحد ضمن حدود المنهج التطبيقي للعلم التاريخي المعروف بإسم "الحقيقة التاريخية" Historical fact.

ميخائيل أبراموفيتش بارغ 1915-1991 مؤرخ سوفييتي ومُختص بتاريخ بريطانيا العظمى ومنهجية التاريخ. دَرَسَ في الأعوام 1934-1936 في معهد كيبف التربوي. انتسب الى صفوف الجيش الأحمر بعد تخرجه. أُرسِلَ عام 1937 الى مدرسة كميلينتسكي حيث عمل كمدرس ثم مدير مدرسة. أكمل سنته الرابعة في دراسة التاريخ في كلية التاريخ في جامعة خاركوف سنة 1939، وتخرَّج عام 1941. دَرَسَ في عام 1942 في المعهد العسكري للغات الأجنبية في موسكو وكان وقتها رئيساً لقسم الدعاية في لجنة حزب مدينة خاركوف. ومنذ عام 1943-1947 دَرَسَ في معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية. كان منذ 1956-1968 أستاذاً مشاركاً ثم بروفيسوراً في معهد موسكو الحكومي التربوي، وعَمَلَ من 1968-1991 في معهد تاريخ العالم التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، وترأس مجموعة من العلماء في تاريخ الحضارات المُقارن. ولديه أكثر من 200 منشور. من أبحاثه: (الثورة الانجليزية في منتصف القرن السابع عشر) 1991، (الثورة الانجليزية العظمى بعيون قادتها) 1991، (بحث حول الاقطاع الانجليزي من القرن 11-13) 1962، (مقولات ومنهجية العلم التاريخي) 1984، (كرومويل وعصره) 1950، (الطبقات الشعبية الدنيا في الثورة الانجليزية في القرن السابع عشر) 1967، (مفهوم تاريخ العالم كمبدأ علمي للعلم الماركسي التاريخي) 1973، (مسائل التاريخ الاجتماعي في الأبحاث التاريخية الغربية القروسطية) 1973، (شكسبير وعصره) 1976، (العصور والأفكار، تشكل التاريخانية) 1987.

¹ - See Filsofskaia entsiklopediia, vol. 2, p. 368: "History . . . denotes. . . the discipline that studies this process (i.e., the process of social development - M. B.) in all its concreteness and diversity

² - أنظر لينين: "التاريخ لا يدرس الجوهر المُجرّد للظواهر والعمليات والحقائق، بل يدرس تطورها العياني في تفاعلها وتغيّرها مظهرها العياني".

V. I. Lenin, -PSS, vol. 42, p. 242

كما قد يبدو الأمر وكأنه مُفارقة، فإن مفهوم المبحث التاريخي القديم هذا، وهو مفهوم بدأ مؤخراً وكأنه بسيط و"بديهي جداً"، صار موضوعاً لجدال حيوي يدور بين فلاسفة ومؤرخي بلادنا وبلاد أخرى¹. ومع ذلك، يجب أن نُعالج بإيجاز تاريخ المسألة قبل أن ننتقل الى جوهر المناقشات.

إن تتبّع المرء تطور معنى مقولة "الحقيقة التاريخية" في كتابات علماء المنهج البرجوازيين خلال القرن الماضي، فسيتعيّن عليه أن يستنتج أن الثورة التي حدثت في هذا المجال قابلة للمقارنة بالضبط لما حَدَثَ لمقولة "المادة" في العلوم الطبيعية في مطلع القرن العشرين، مع مُراعاة ما يقتضيه اختلاف المقولة فقط. في الواقع، في وقتٍ مُبكرٍ من ستينيات الى ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان علم التاريخ ذو التوجه الوضعي يتخذ، فيما يتعلق بمصادر المعرفة التاريخية، نفس الموقف الطبيعاني العفوي الذي اتخذه العلم الطبيعي فيما يتعلق بمسائل مصادر المعرفة في العلوم الطبيعية². تم تصوير هذه المسألة (مصادر العلوم التاريخية) على أنها ابتدائية تماماً وواضحة بشكلٍ كافٍ ولا يوجد فيها أي مجال للشك. في ذلك الوقت، انطلقت المُقاربة التاريخية البرجوازية ضمناً من القناعة بأن موضوع البحث التاريخي (ما يُسمّى بعالم الحقائق التاريخية) هو الواقع الموضوعي، أي ما كان موجوداً بشكلٍ مُستقل عن الفرد المُدرك، أي "الواقع التاريخي"، الذي كان موجوداً بهذه الطريقة أو تلك، وحُوفِظَ عليه ومن ثم وصل الى عصرنا. تم تسجيله و"وضعه" في المصادر الأولية بطريقة مُباشرة في الغالب. بكلمةٍ أُخرى، المصادر الأولية هي مخزن الحقائق التاريخية المتنوعة والتي لا حصر لها "المُعَدّة" لاستخدام المؤرخ³. وهكذا، إن تمسك المرء بمجموعة معينة من القواعد والاجراءات الشكلية بدرجة كبيرة والتي تُسمّى بمجموعها نقد المصدر الداخلي والخارجي، فإنه يُمكن لـ"الحقائق" التاريخية بحد ذاتها أن تؤمّن للمؤرخ فُرصةً لإعادة تركيب "واقع" العصور التاريخية الماضية⁴. بعبارةٍ أُخرى، تحتوي المصادر التاريخية على كل ما يحتاجه المؤرخ لحل المهام المعرفية التي يواجهها، وكل ما عليه فعله هو أن يستنتج نفسه الى أقصى درجة من مفهومه التاريخي.

يُمكن أن نستخلص النتائج الابستمولوجية التالية من هذا الموقف الموضوعاتي والطبيعاني العفوي من التأريخ الوضعي الذي كان سائداً في ستينيات الى ثمانينيات القرن التاسع عشر:

1- ان الحقيقة التاريخية Fact، بمعنى، أي حَدَثٌ موثّق (مشهود) بطريقةٍ ما (والتي تعود له كل تمظهرات التاريخ في التحليل النهائي) هو المصدر الوحيد والموضوعي للمعرفة التاريخية. انها لَبِنَةٌ أولية (لا يُمكن أن

¹ - See V. Kosolapov, "Fakti ta ikh rol' v istorichnim doslidszhenni," Ukr. istor. zhurn., 1963, no. 2; N. M. Doroshenko, Problema fakta v istoricheskom poznanii, Leningrad, 1968; S. Sychev, "Istoricheskii fakt i ego metodologicheskoe znachenie," Trudy MIIT, part 11, no. 282, MOSCOW, 1968; G. M. Ivanov, "K voprosu o poniatii 'fakt' v istoricheskoi nauke," Voprosy istorii, 1969, no. 2; V. S. Bibler, "Istoricheskii fakt kak fragment deistvitel'nosti," in the collection Istochnikovovedenie, MOSCOW, 1969; A. Ia. Gurevich, "Chto takoe istoricheskii fakt," ibid.; A. I. Uvarov, "Istoricheskii fakt kak element teorii," UZ Kalininskogo ped. in-ta, vol. 91, 1971; V. I. Salov, "Istoricheskii fakt i sovremennaia burzhuaiznaia istoriografiia," Novaia i noveishaia istoriia, 1973, no. 6

² -See K. Marx and F. Engels, -Soch., vol. 20, p. 513 ff

³ - وهكذا، وصفت أهم مؤرخي العصور الوسطى الروس الذين ينتمون الى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وصفوا أعمال باحثي القرنين السابع عشر والثامن عشر (مثل الباحث الانجليزي جون سيلدين John Selden وسيلمين ومادوكس) بأنها "خُلَاصَةٌ رائعة للحقائق" stupendous compendia of facts، أي أنها وثقت معلومات بالكاد تمت مُعالجتها أصلاً.

⁴ - See C. Seignobos and C. Langlois, Vvedenie v izuchenie istorii, St. Petersburg, 1899, p. 88

تُحللها الى عناصر أصغر) مُتميزة عن الحقائق الأخرى (مُنفصلة عنها بوضوح في الزمان والمكان)، وغير قابلة للتغير في المحتوى (وُضعت مرةً واحدةً والى الأبد). ان المهمة الأكثر أهميةً للمؤرخ هي اثبات صحة الحقيقة.

2- تحتوي الآثار التاريخية على عددٍ ثابتٍ من الحقائق التاريخية. أن المعلومات في المصادر الأولية التي تصمد للتحقق هي شذرات من الواقع التاريخي نفسه وجاهزة لتضمينها في العمل التاريخي. الحقائق التاريخية، هي "لبنات" الحقيقة الموضوعية التي صنعها التاريخ نفسه والتي تُبنى منها الحقيقة Truth التاريخية في المبحث التاريخي. وكلما زاد عدد هذه "اللبنات" التي يجمعها المؤرخ في عمله، زاد اكتمال الحقيقة Truth، أي تزيد القيمة العلمية لعمله. ان التهديد الوحيد للحقيقة Truth لا يأتي من الحقائق Facts بل من المؤرخ الذي قد يشوه صحة الحقائق. ومن هنا جاء مُتطلب "إقصاء شخصية الباحث عن البحث" الى أقصى درجة مُمكنة، أي عدم إدراج قناعاته وأوهامه وعواطفه وخياله وشغفه في نسيج البحث. إن المؤرخ الجيد هو من يترك القارئ "وحده مع الحقائق Facts". خلاصة القول، يجب على الحقائق أن تُعبّر عن نفسها لوحدها¹. علم التاريخ هو علم الحقائق. وبما أن الحقيقة Fact (بما هي تختلف عن النظرية) لا تتطلب شيئاً، فإن علم التاريخ لا "يُخمن" أي شيء، ولا "يفترض" أي شيء" ولا "يُعمم"².

كانت هذه الاستنتاجات النهائية المُستمدّة من التفسير الحسي البدائي لمسألة الحقيقة Fact، وبالتالي لمسألة المعرفة التاريخية باعتبارها معرفة حسية مُباشرة³، إسُمدت إمكانية تحديد الطبيعة المنطقية والابستمولوجية للمعرفة التاريخية والطبيعية العلمية. إن الحقيقة Fact في العلوم التاريخية وفي العلوم الطبيعية من نفس النوع تماماً. انهما موضوعيتان وموثقتان بنفس القدر، وهما، في كلتا الحالتين تُمثلان "الحقيقة Truth العلمية غير القابلة للتجزئة"⁴.

ومع ذلك، فإن سوسيولوجيا القرن التاسع عشر الوضعية، التي استبدلت الوظائف المعرفية للتاريخ بتلك الوظائف المعرفية للسوسيولوجيا لأسباب عملية، لم تحسب الحقائق Facts على هذا النحو. أُعطيت الحقيقة التاريخية في أبنيتها التأملية دور توضيحي خالص (بدلاً من وظيفتها البنائية في البحث التاريخي). من ناحية أخرى، قام التأريخ الوضعي، الذي ينظر بسداجة الى "عالم التاريخ" كعالم يُمكن ادراكه حصرياً من خلال

1 - من هنا جاءت مقولة ليوبولد رانكه Leopold von Ranke الشهيرة: "لا يُمكن رؤية الماضي كما هو الا بشرط واحد: ان التزم المرء بالحقائق بأكبر قدر مُمكن من الدقة.

see smmtliche Werke, vol. 33-34, Leipzig, 1879, p. VII

كان رأي نوما كولانجيس Numa Denis Fustel de Coulanges تكراراً حرفياً لهذا تقريباً: "دراسة النصوص بشكل مباشر بأدق تفاصيلها، وتصديق فقط ما تُظهره وإزالة الأفكار الحديثة بشكل مباشر من تاريخ الماضي".

see Fustel de Coulanges, Istoriia obshchestvennogo stroia drevnei Frantsii, vol. 3, St. Petersburg, 1907, p. XII

ومع ذلك، ويا للعجب، لم ينجح أيٌّ منهما في رؤية "الماضي كما كان فعلاً". أظهر رانكه فُدرَةً جيدةً في سيره نحو الميول القومية والدينية. بدوره، اتبع كولانجيس بدرجة أكبر من مُعاصريه مفهوماً مُتحيّزاً لم يُظهر بسببه، وبعبارة مُلطفة، أي احترام للحقائق Facts التاريخية.

see P. G. Vinogradov, "Fustel' de Kulanzh," Russkaia mysl', book 1, 1890

² - See Seignobos and Langlois, op. cit., p. 88

³ - See M. A. Kissel', Sud'ba staroi dilemmy, MOSCOW, 1974, ~.72

⁴ - See H. T. Buckle, Istoriia tsivilizatsii v Anglii, vol. 1, St. Petersburg, 1862, p. 62. See J. S. Mill, Sistema logiki, MOSCOW, 1914, p. 54

منظور المصادر، بمُطابقة إجراء البحث التاريخي مع اجراء التجارب في العلوم الطبيعية، وبنى تعميماته على هذا الأساس، على نفس مثال التعميمات (القوانين) في العلوم الطبيعية¹.

على الرغم من كل الأخطاء الابستمولوجية الواضحة، فقد أدى التأريخ الوضعي واجبه تجاه الموضوع عانية في المسألة المعنية. لم يتم خلط الحقائق Facts التي تشتغل عليها الدراسات التاريخية مع "خبرة" الباحث المُدرِك فحسب، بل ووضعت مُقابلها كذلك. علاوةً على ذلك، تمت موضعتها Objectivized الى درجة بحيث يتم مُطابقتها، من حيث الجوهر، بالواقع الذي تعكسه. بعبارةٍ أُخرى، لم يُميّز التأريخ الوضعي بين الحقيقة Fact التي تخص تخصص التاريخ والحقيقة Fact في الواقع التاريخي الفعلي. عندما كان المؤرّخ الوضعي يستخلص هذه الأخيرة من المصدر الأولي، فإنه ينقلها "مباشرةً وبدون أي توسّط" الى بناءه بدون أي تغيير في مكانها في سلسلة التاريخ ودون المساس بدورها وأهميتها فيها (في السلسلة). ومهما كانت درجة صحة فعل ذلك، فإن سداجة آراء الوضعية "القديمة" الطبيعية فيما يتعلّق بطبيعة الحقيقة Fact التاريخية قد غدّت القناعة المقبولة على نطاقٍ واسع بأنه يُمكن للمبحث التاريخي، نظراً لطبيعة المعرفة التي يُقدمها، أن يُعيد إنشاء صورة موضوعية لتاريخ البشرية².

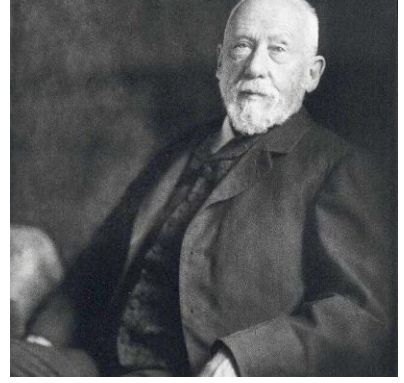
ومع ذلك، ظَهَرَ في التُّلث الأخير من القرن التاسع عشر تيار مُعارض تماماً رفع صوته ضد هذه الممارسة في منهج علم التاريخ البرجوازي³*. كان فيلهلم ديلتاي الذي كان تأثيره هائلاً في القرن العشرين هو الذي قام بذلك⁴.

1 - من الضروري التمييز بين الأسس المثالية الذاتية للتفسير الوضعي لعملية التطور الاجتماعي (فلسفات كونت وميل وسينسر التاريخية، الخ) من جهة، والبحث التاريخي العياني الذي قام به الوضعيون من جهةٍ أُخرى. لقد تخلل هذا الأخير التفاؤل فيما يتعلّق باكتساب المعرفة والتركيز على العمليات ذات الطابع البنوي (على عكس عملية سرد الأحداث الذي يوفّر مواداً للكتابة اللاهوتية حول التاريخ)، وبذلك، رسّمت لوحات تاريخية كبيرة كانت بمثابة أساس لتعميمات واستنتاجات كثيرة. يكفي أن نتذكر كتابات تيودور شتيرنيغ Theodor Inama von Sternegg وكارل لامبريخت Karl Lamprecht وكارل بوخر Karl Bücher فضلاً عن بافل غافريلوفيتش فينوغرادوف Pavel Gavrilovich Vinogradov وماكسيم ماكسيموفيتش كوفاليفسكي Maksim Maksimovich Kovalevsky وديميتري موبسيفيتش بيتروشفيفسكي Dmitry Moiseevich Petrushevsky وآخرين. وغنيٌّ عن البيان أن النقد الشامل لعلم تاريخ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر الوضعي هو خارج نطاق هذا المقال. سوف نَقْصُر أنفسنا هنا فقط على الإشارة الى أنه تم هنا تجاهل الطبيعة المُميّزة لحقائق Facts التاريخ وبالتالي خبرة تحصيل المعرفة التاريخية.

2 - V. S. Stepnin, *Sovremennyi pozitivizm i chastnye nauki*, Minsk, 1963

3* - "قيم ديلتاي علم الاجتماع الوضعي بنفس الطريقة السلبية. لقد وبخ كونت وميل وسينسر بسبب عدم دقة مصطلحاتهم ودوغمانيتهم العلمية وميتافيزيقيتهم الطبيعية. ادعت السوسولوجيا انها تدرس المجتمع ككل، ولكن في الواقع، وسواءً كان الأمر يتعلّق بالتطور التاريخي أو علاقات مكونات البنية الاجتماعية، لم تستطع سوى الأبحاث المتخصصة والتحليلية مقسمةً حسب التخصصات (السيكولوجيا، الاثنولوجيا، دراسات الأنظمة الثقافية والمؤسسات الاجتماعية) ان توّتي نتائج عملية مثمرة. لقد استتبع عدائبة ديلتاي للطبيعية، رفضاً للسوسولوجيا كعلم". من كتاب (تاريخ السوسولوجيا الكلاسيكية)، مقال: أزمة الاتجاه التطوري في السوسولوجيا، والاتجاهات المعادية للوضعية في السوسولوجيا على أبواب القرن العشرين، ايغور سيمونوفيتش كون، تأليف مجموعة من الماركسيين السوفييت، ترجمة مالك أبو عليا، نشر الكتروني فقط، ص96.

4 - W. Dilthey, *Einleitung in die Geisteswissenschaften*, vol. 1, Leipzig, 1883. Compare G. Simmel, *Die Probleme der Geschichtsphilosophie*, Leipzig, 1892



فيلهلم ديلتاي

إتخذت فكرة الحقيقة التاريخية، في منظومة آرائه، تفسيراً مثالياً ذاتياً. تختلف الحقائق التي يعمل عليها المبحث التاريخي إختلافاً حاداً عن حقائق العلوم الطبيعية: إن هذه الأخيرة هي نتاج إعادة انشاء مباشر للواقع الخارجي عن طريق أعضاء حواسنا، في حين أن الأولى لا تُنشئ الواقع الموضوعي بل تُنشئ "الشهادة التاريخية" historical witnessing*1 من بين تلك التي يُطلق عليها "التصريحات على شكل محاضر" statements in the form of minutes التي يُدليها شهود العيان على الأحداث الغارقين في مجموعة من المعلومات التي تمتاز بشدة التوسط. ولكن في حين أن غالبية الحقائق التاريخية ليست نتاج المعرفة الحسية المباشرة بل مُجرّد "بُرهان" على التقاليد، فإن دور المؤرّخ في إعادة انتاج هذه الحقائق يختلف اختلافاً كبيراً عن دور عالم الطبيعة. النقطة المهمة هي أن التقليد التاريخي لا يُمكن إعادة انتاجه (على عكس "التصريحات في شكل محاضر" عن طريق شهود عيان) من قِبَل المؤرّخ مباشرةً وبدون توسط (حتى لو كان ذلك فقط بسبب تحوّل الاهتمام التاريخي الى مستوى آخر). إنه يتطلّب موقف المُبادرة من جانب المؤرّخ، أي اتخاذ موقف "النقد" و"اطلاق الأحكام" و"الاختيار". بمعنى آخر تقييم المواد المتوفرة. لكن كل عمليات التقييم، بدورها، تتطلب معايير مُحددة (يجب بالضرورة أن تكون من خارج المادة التي يتم تقييمها)، وبالتالي قد يجد

*1 - أطلق مؤرخي الفلسفة على فيلهلم ديلتاي 1833-1911 بأنه "كانط المعارف التاريخية". لقد عارض ديلتاي العلوم الانسانية (والذي عرّفها بأنها علوم الروح) بالعلوم الطبيعية. قال ديلتاي في كتابه (مقدمة حول علوم الروح) Einleitung in die Geisteswissenschaften ان تحرير العلوم الخاصة بدأ في نهاية العصور الوسطى، ولكن ظلت تلك العلوم التي بحثت المجتمع والتاريخ كموضوع لها سجيناً للميتافيزيقيا (حتى القرن التاسع عشر). ويُكمل، انها في عصره، خضعت الى قمع لا يقل عما كانت عليه، اي لقوة العلوم الطبيعية المتصاعدة. لم يُنكر ديلتاي ان الانسان كان كياناً - نفسياً جسدياً مُحدداً كان يمكن تفكيكه فقط بالتجريد، وانه يمكن للعلوم الاجتماعية والطبيعية بهذا المعنى أن تدرس حياة الانسان نفسها. لكن العلوم الطبيعية بحثت في الطريقة التي أثرت بها مجريات الأحداث على وضع الانسان، في حين كانت العلوم الانسانية في الأساس علماً للروح التي درست النشاط الحر للانسان بحثاً عن أهداف معينة. ان الأشياء المادية التي يدرسها العلم الطبيعي معروفة لنا بشكلٍ غير مباشر فقط، كظواهر. أما بيانات علم الروح، فهي على العكس، تؤخذ من التجربة الداخلية، من الملاحظة المباشرة للنفس وللآخرين والعلاقات بينهم. وجادل بأن الحقائق الاجتماعية يمكن أن تُعرف لنا من الداخل، ويمكن إعادة انتاجها داخل انفسنا، الى حد ما، من مراقبة وضعنا. يمكن عن طريق معرفة هذه الحقائق الداخلية أن نُحيي محبتنا او كرهنا للعالم التاريخي ونستعرض مشاعرنا كلها. ان الطبيعة بالنسبة لنا عمياء. فقط قوة الخيال البشري هي التي تومض شعلة الحياة في داخلنا. ان الطبيعة غريبة عن الانسان وخارجية بالنسبة له. ان المجتمع هو عالم البشر.

ان العنصر الأساسي لعلوم الروح، حسب ديلتاي، هو الخبرة الداخلية المباشرة Erlibins، هناك حيث يُدرك الانسان ويعي وجوده في العالم بشكلٍ مباشر. لقد جعل تشابه هياكل العالم الروحي والعقلي لمختلف الأشخاص من التعاطف والمودة ممكناً، والذي كان بدوره اساساً لفهم العالم الداخلي للآخرين ودوافعهم ورموز الثقافة. "نحن نُفسر الطبيعة، ولكننا نفهم الحياة الروحية"، هذه هي اطروحة ديلتاي الرئيسية. كانت نظريته عن الفهم واحدة من المحاولات الأولى لفهم نظري لمسألة فك رموز وتفسير معنى النشاط الاجتماعي-التاريخي وموضوعيته. ولكن ديلتاي اعتبر وجود فلسفة او سوسيولوجيا او تاريخ تدعي امكانية تعميم مسار التاريخ ككل هو أمر مستحيل من حيث المبدأ وغير صحيح، بما أن التجربة المباشرة التي تم الاستناد اليها في الفهم كانت فردية. "ان اي صيغة تعبر فيها عن احساس التاريخ هي فقط انعكاس لشعورنا بالحياة... من المستحيل استخلاص اي حقيقة مثمرة من هذه الصيغ والادعاء بأنها يمكنها أن تُعبر عن معنى التاريخ، ليس هذا الا ضباب ميتافيزيقي.

من كتاب (تاريخ السوسيولوجيا الكلاسيكية)، مقال: أزمة الاتجاه التطوري في السوسيولوجيا، والاتجاهات المعادية للوضعية في السوسيولوجيا على أبواب القرن العشرين، ايفور سيميونوفيتش كون، تأليف مجموعة من الماركسيين السوفييت، ترجمة مالك أبو عليا، نشر الكتروني فقط، ص 95

المؤرخ معايير في مجال المعرفة (فلسفية مُجرّدة، دينية، أخلاقية، الخ) بخلاف المصادر. وهكذا، فإن الدرجة التي تكون فيها الحقائق التاريخية صحيحة تُثبت أنها تعتمد على درجة صحة معايير تقييم المؤرخ لمادته¹. نتيجةً لذلك، دَفَع كتاب (نقد العقل التاريخي) لديلتاي الى المُقدّمة مسألة (الخبرة الداخلية) Eribins، وحس المؤرخ باعتباره مُقدّمة حاسمة لتوضيح طبيعة الحقيقة Fact التاريخية الاستمولوجية والمنطقية. تم وضع الحقيقة التاريخية بشكلٍ حاد في مُقابل الحقيقة في العلوم الطبيعية كأنها مواجهة بين حقيقة خاصة بالوعي وحقيقة ملموسة ذات طابع حسي، كحقيقة "الخبرة الداخلية" مُقابل حقيقة يُمكن تفسيرها سببياً، كحقيقة مُخمنة حدسياً مُقابل حقيقة مُدرّكة عقلياً².

ليس من الصعب أن نرى الى أي درجة تم إفقار عالم الحقائق التاريخية وتسويته في الفرد المُدرّك من خلال تفسير ديلتاي مُقارنةً بالتفسير الوضعي لذلك العالم. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يُثير الدهشة في هذا: إن تحويل هذا العالم الى مخلوقٍ لـ "العقل" (وتبعاً لذلك تحويله من كونه تاريخاً الى "علم العقل") نتيجةً مباشرةً لاستبعاد كامل ثراء تمظهرات نشاط الفرد العملي والمادي والاجتماعي من البحث التاريخي، وإحلال الدافع السيكولوجي اللاعقلاني للباحث محل علاقة السبب-النتيجة التاريخية الموضوعية³. في حين أنه من المُبرر أن نرى في "منهجية العلوم الاجتماعية" التي وضعها ديلتاي أنها رد فعل على "طبيعية" الوضعية الساذجة في مجال المعرفة التاريخية، إلا أنه يجب أن نُدرّك بأن هذا رد فعل من جانب المثالية الذاتية واللاعقلانية. ونتيجةً لذلك، يُسلب من الحقيقة التاريخية عدد من أهم سماتها: الواقع الموضوعي، أي سمتها الجوهرية، وانفصالها عن الفرد المُدرّك، واستقلال محتواها عن "تقييم" الباحث، وتُحرّم من أصلاتها وقابلية التحقق منها، وتكراريتها وما الى ذلك⁴.

وهكذا، كان عالم التاريخ، من ناحية، محدوداً ومقصوراً على حقائق عالم العقل، ومن ناحيةٍ أُخرى، تم تفسير معرفة التاريخ من وجهة نظر المثالية الذاتية واللاعقلانية. تم اختزال المعرفة التاريخية الى حدس وعاطفة وانطباعات الفرد المُدرّك.

في الوقت نفسه، يُمكن للمرء أن يجد، في نقده للتفسير العقلاني الوضعي لمقولة "الحقيقة التاريخية" التي طوّرها ديلتاي، طرْحاً لمسألة ما هو خاص بالمعرفة التاريخية. لن يعود من المُمكن، من هذه النقطة فصاعداً، الاتفاق مع المفهوم الطبيعي للحقيقة التاريخية التي تُميّز أنصار الامبريقية الحسية. كانت المسألة الرئيسية للمنهجية الوضعية هي كيفية الانتقال من الحقائق الى التعميمات، أي صياغة القوانين التاريخية العامة (فيما يتعلق بالحقائق نفسها، حيث كان "الحصول عليها" أمرٌ مفروغٌ منه بطريقةٍ ما)، ثم تغيّرت مسألتهم الرئيسية

¹ - W. Dilthey, op. cit., p. 81; compare M. A. Kissel', op. cit., pp. 75-76

² - W. Dilthey, op. cit., pp. 9, 25 ff

³ - Ibid., p. 41 ff

⁴ - كان باكل وفوستيل ولانغلويس وسينوبوس يُشاركون الرأي القائل بأن الحقائق التاريخية، مثل الظواهر الطبيعية، تمتلك القدرة على التكرار، مما يجعل من المُمكن ملاحظة الانتظام في تتالي الأحداث.

Buckle (op. cit., p. 3), Fustel de Coulanges (op. cit., vol. IV, p. XXIII), as well as Langlois and Seignobos (op. cit., p. 99)

الى كيف يتم انشاء الحقائق التاريخية نفسها، والى أي درجة يُمكننا معرفة الماضي التاريخي، وما هي بُنية المعرفة التاريخية¹.

أكمل فيندلباند وريكرت حفر هوة لا يُمكن عبورها بين العلوم الطبيعية و"علوم العقل"². وبدلاً من القناعة التي كانت تقول بأن الحقيقة Fact التاريخية هي "الواقع التاريخي نفسه"، انبثقت الشكوك وسُرعان ما تم انكار امكانية معرفة الواقع التاريخي. أنكرَ الكانطيين الجُدد، أنصار مدرستي ماربورغ وفريبورغ، مُنطلقين من ثنائية الواقع الامبريقي ومجال "القيَم" (الضرورة الأخلاقية)، أن للحقائق التاريخية مُحتوىً مُستقلاً عن الباحث وأي صحة موضوعية³. برأيهم، لا يُمكن معرفة جوهر الحقيقة Fact التاريخية. وهي تفتقر الى المعنى نظراً لأنها غير مُتاحة للمُراقب الا على مستوى الظاهرة. نتيجةً لذلك، فإن أي منها تحوز على أهمية "الحقائق الثقافية" بالنسبة لنا يُمكنها أن تكون حقيقةً Fact تاريخية، ويتحقق هذا فقط من خلال تصنيف هذه الظواهر على أنها "قيَم"⁴. على الرغم من أن ريكتر عزا أهميةً مُطلقةً الى "القيَم" وبالتالي أكد وجودها الموضوعي فوق التاريخ، الا أن "تصنيف" القِيم ذاته اتضح أنه ذاتي تماماً. وفي التحليل الأخير، يكون المؤرّخ بذلك، حامل القِيم، هو الذي يصنع الواقع التاريخي⁵. وهكذا، فإن الكانطية الجديدة، والتي تؤدّن بدخول التاريخانية البرجوازية الى فترة أزمتها، قد أثبتت أنها المُعبّر الأوحّد عن تلك التاريخانية بالمعنى الحرفي للمُصطلح. لقد صاغت الكانطية الجديدة، على الرغم من كل مُقدماتها الذاتية اللاعقلانية والمثالية، عدداً من الأسئلة المُهمّة في منطق البحث التاريخي، من بينها مسألة ما هو خاص بالحقيقة Fact التاريخية. لم تعد أيّ من "المدارس" (التاريخانية غير الماركسية) التي جاءت لتحل محل الكانطية الجديدة قادرةً على أن تخرج من إسار الاستنتاجات الكانطية الجديدة كما أظهرت التجربة اللاحقة للقرن العشرين. وهكذا، على سبيل المثال، كتَب المؤرّخ الانجليزي حول الموضوع المعني، ادوارد هاليت كار Edward Hallett Carr الذي كان بعيداً عن منهجية ريكارت: "لا يتم عزل الحقائق التاريخية الرئيسية على أساس أي خصائص مُعيّنة مُتأصلة في تلك الحقائق، ولكن على أساس قرارات المؤرّخ المُسبقة"، وهو بذلك قد كرر الدوغما الكانطية الجديدة⁶.

¹ - See M. A. Kissel', op. cit., pp. 76-77

² - W. Windelband, Geschichte und Natunwissenschaft, 3rd ed., Strassburg, 1904; H. Rickert, Granitsy estestvennonauchnogo obrazovaniia poniatii, St. Petersburg, 1904

³ - H. Rickert, Filosofii istorii, St. Petersburg, 1908, p. 55

⁴ - من وجهة نظر الكانطيين الجُدد، تكمن قيمة الحقائق التاريخية كتاريخ ثقافي في عدم تكراريتها وفردانيتها. ومن هنا تنبثق مهمة التاريخ كمبحث تفريدي ideography

See H. Rickert, Filosofii istorii, pp. 27-28

⁵ - H. Rickert, Granitsy estestvennonauchnogo obrazovaniia poniatii, p. 121

⁶ - E. H. Carr, What is History?, New York, 1962, p. 18 [All quotations from non-Russian sources are retranslated from the Russian.]



دوارد كار

من الواضح أن إنكار المحتوى الموضوعي للحقيقة التاريخية يُقوّض أسس الادراك العلمي للتاريخ. كنتيجة لتحويل مركز ثقل مسألة الحقيقة التاريخية من عالم الواقع الموضوعي الى عالم الوعي والذي يصنع النهائي (أي عالم الحقائق التاريخية) من فوضى اللانهائي، أصبح مفهوم "الحقيقة في التاريخ" يتطابق مع "الحقيقة الثقافية"، أي حقيقة من وجهة نظر تاريخية مُعينة، منظور، حقيقة معزولة وفقاً لنظام "المعاني" و"القيم" و"الثقافة" وما شابه، ومقبولاً في عملية البحث. نتيجةً لذلك، ثبت أن الفكر التاريخي البرجوازي خلال القرن العشرين مُشبع بالنسبوية المُتطرفة. لأنه ان إفتقرت الحقيقة التاريخية الى العديد من السمات التي نسبها اليها التأريخ الوضعي في القرن التاسع عشر، أي تلك السمات التي تجعلها تتطابق تماماً مع الحقيقة في الطبيعة (عدم القابلية للتجزؤ، المحدودية، وما الى ذلك)، واجهت غالبية الحقائق التاريخية الباحث ليس في "مباشرتها الحسية" بل في شكل تقليد تاريخي طويل، وأخيراً، ان كشفت أهمية وبُنية هذه الحقائق إعتمادية صارمة على "أفكار القيمة" وعلى "إسقاط المؤرخ" وعلى "منظور" تاريخي مُعطى، سيُعلن حينها أن الحقيقة التاريخية كواقع تاريخي موضوعي هي "ميتافيزيقيا" و"واقعية جديدة"، الخ. ولكن هكذا، في رأي النسبويين، لا يعود من الممكن اعتبار المعرفة التاريخية انعكاساً للواقع وكمعرفة تتأسس على شيء موضوعي موجود قبل الفرد المُدرِك وبالاستقلال عنه. لا يُمكنها الزعم بأهمية شاملة وأن تحوز على حصةٍ ما في الحقيقة Truth الموضوعية.

من الواضح أنه لم يكن الانتقال من مثل هذه الشكوية الى منصة الانكار التام أن التاريخ هو علم، عصياً بالمرّة. وقد تم اتخاذ هذه الخطوة. في عام 1926 قرأ السوسيولوجي والمنهجي الأمريكي كارل بيكر Carl Becker ورقته (ما هي الحقائق التاريخية؟) التي طرّح فيها الباحث مفهومه الحاضري¹ حول الحقيقة التاريخية. إن المؤرخ يدرس واقعاً لم يعد موجوداً.

1 - التيار الحاضري هو تيار مثالي ذاتي في فلسفة التاريخ البرجوازية، يُنكر الموضوعية في المعرفة التاريخية ويرى أن مبحث التاريخ هو إسقاط لأفكار الحاضر ومصالحه وتناقضاته على الماضي.



كارل بيكر

هذا الواقع، على عكس الظواهر الطبيعية، لم يوجد سوى مرة واحدة ولا يُمكن تكراره. لا يُمكن إعادة انتاجه في "تجربة"، لأن صنّاع وحمّلة ذلك الواقع لم يعودوا موجودين. ولهذا يسأل بيكر: ما الذي يدرسه المؤرّخ إذا؟ انه يدرس "أثار" Traces ما كان ("حقائفاً")، وهي، تفنّقر، بحد ذاتها، لأي ومعنى وأهمية. إن المؤرّخ هو ما يمنحها (أي يمنح الحقائق) كلا الأمرين. وبالتالي الاستنتاج: الحقيقة Fact التاريخية ليست أكثر من مُجرّد وهم. ليس لها علاقة بالتاريخ، لأنها تشهد لصالح الحاضر وليس الماضي، أي لصالح زمن المؤرّخ. إنها ما يوجد اليوم وليس ما كان موجوداً في الماضي، على الإطلاق. باختصار، فإن اللوحة الكاملة لما يُسمى "الحقائق التاريخية" ليست سوى من صنّع المؤرّخ. لا يوجد تاريخ خارج رؤية المؤرّخ¹.
لم يكن بيكر وحده من اتخذ هذا المسار. صارت النسبوية المُتطرفة في تفسير مقولة "الحقيقة التاريخية" هي الشيء الدارج. كان المؤرّخ الفرنسي البارز لوسيان فيبر Lucien Febvre أيضاً من أنصار هذا المسار: "سينهار هذا البناء الكامل (إعادة انشاء التاريخي للحقيقة) بمجرد أن يلمسه المرء². رأى عالم المنهج الألماني كارل هوسي Karl Heussi الحقائق التاريخية على أنها مُجرّد "وجهة نظر" المؤرّخ³. كل عصر جديد سيرى في الحقيقة Fact نفسها شيء مُختلف تماماً، ولن يكون لأي من هذه النظرات أحقية في أن تكون صحيحة أكثر من الأخرى.

¹ - Becker's paper was published three decades later (see 'What Are Historical Facts ?' The Western Political Quarterly, 111, no. 3, 1955)

² - L. Febvre, Combats pour l'Histoire, Paris, 1953, p. 8

³ - Karl Heussi, Die Krisis des Historismus, Tubingen, 1932, p. 56



لوسيان فيبر

لا يُمكن للمرء أن يُطالب بأكثر من حُكم على الحقائق التاريخية بأن تكون غير مُتناقضة داخلياً. ان كل النظرات (فيما يتعلق بالمحتوى) للحقيقة على مر العصور يُمكن وضعها على قدم المُساواة. بعد بضع سنوات من هوسي، خُصَّ الفيلسوف الألماني تيودور ليت Theodor Litt من ملاحظاته على سلسلة الأحكام التاريخية على مجموعة من الحقائق المُتطابقة، حتى خلال عمر جيلٍ واحد: "ليست الحقائق، بل التحيز، هو ما يُرشد المؤرخ"¹.



تيودور ليت

بعبارةٍ أُخرى، عندما يتعلق الأمر باستنتاجين مُحتملين: إما أنه لا يوجد موضوع في المبحث التاريخي (أو حتى الماضي ليس هو موضوع البحث التاريخي بل الحاضر، أي الفرد الذي يدرسه)، أو أن المنظور التاريخي له أهميةٌ أكثر في المعرفة التاريخية-في تحرك المعرفة من مستوىٍ لآخر- أكثر من أهميته للعلوم الطبيعية، نقول عندما يتعلق الأمر بهذين الاستنتاجين، يختار العلم التاريخي البرجوازي الاستنتاج الأول. من الواضح أن الحاضرة كانت الوتر الأخير الذي عزفت عليه المنهجية الريكارتية في التاريخ. ظهرت مشكلة الحقيقة Truth في التاريخ من هذا المنظور على أنه لا علاقة لها اطلاقاً بالموضوع الذي تتم دراسته (والذي

¹ - Th. Litt, Wege und Irrwege des geschichtlichen Denkens, Munich, 1948, p. 12

هو غير قابل للمعرفة من حيث المبدأ) ولكنها تتعلق حصرياً بما يسعى الحاضر أن يجده في الماضي من خلال الباحث. وهكذا، في المفهوم الحاضر للمعرفة التاريخية تحل "خبرة الباحث" محل الحقيقة Truth التاريخية تماماً. ان المشكلة الحقيقية التي يجب أن ندرسها ليست الماضي بل "نظرة الماضي". خَلَصَ بينيدتو كروتشه Benedetto Croce الى أن كل التاريخ الأصيل دائماً ذاتي، انه دائماً "التاريخ المعاصر" فقط.



بينيدتو كروتشه

وحسب رأيه فإن هناك ما يُبرر استخدام التاريخ للحُكم على عصر المؤرّخ بدلاً من "عصر التاريخ"¹. وكخلاصة: التاريخ هو ما يصنعه المؤرّخ. ما هو نهائي: بدلاً من منطق العملية الموضوعية، يأتي منطق الرواية التاريخية، وبدلاً من محتوى العملية التاريخية، يأتي محتوى أسئلتنا حول الماضي، وبدلاً من حقائق التاريخ يأتي الشبح التاريخي الذي يُسمّى تاريخاً والذي ينزلق بعيداً عنا والقادر فقط على أن يظهر كشيء ما يختلف بالنسبة لهذا المؤرّخ أو ذلك². التاريخ كموضوع يُدرّس، هو ما يصنعه المؤرّخ. يزعم الفيلسوف الفرنسي المعاصر ريمون أرون بأنه "لا يوجد واقع تاريخي وُجد قبل المبحث التاريخي والذي على هذا الأخير أن يُعيد بناءه"³. أما زميله هنري مارو Henri-Irénée Marrou فيشاركه الرأي نفسه: "التاريخ هو نتاج الجهد الابداعي للمؤرّخ، أي نتاج جهد الفرد الساعي الى المعرفة"⁴. ان النسبوية بالطبع ليست سوى واحدة من التيارات في فلسفة التاريخ الغربية المعاصرة. ومع ذلك، فإن تأثيرها على الفكر التاريخي غير الماركسي أوسع بكثير من دائرة أنصارها المُباشرين. ولذا يُمكننا تلخيص المفاهيم الذاتية الحالية حول الحقيقة التاريخية على النحو التالي.

1- العلم التاريخي ليس تراكمياً، أي لا يُضيف "معرفة الى المعرفة" لأنه يفنقر الى موضوع بحث حقيقي (الماضي مخفي عنا ولا يُمكن للمعرفة الوصول اليه). ان موضوع التاريخ هو شيء يصنعه الباحث. ما يُسمى الحقيقة التاريخية هو من صنع الباحث وهي تتغير بمجرد أن يُغيّر الباحث "نظرة التاريخية". لهذا السبب لا معنى للحديث حول تطور مبحث التاريخ، حيث أن أي "رؤية" جديدة يُمكنها أن تُلقى بالرؤية القديمة الى القمامة. المعرفة التاريخية المُختبرة مراراً وتكراراً هي حلول مُستمر لنظرة محل بُخرى، كُلٌّ منها

¹ - B. Croce, Theoria e Storia della Storiographia, Bari, 1927, p. 4

² - E. Callot, Ambiguités et Antinomies de l'histoire, Paris 1962, p. 50

³ - R. Aron, Introduction a la philosophie de l'histoire Paris, 1948, pp. 38-39

⁴ - A. I. Marrou, De la Connaissance Historique, Paris, 1954, p. 7

نسبي ويقف على نفس المستوى وسيتم حتماً استبداله بواحدٍ جديد¹. هذا هو السبب في أن التاريخ يُمحي إلى الأبد ويُكتب تاريخ جديد بدلاً عنه.

2- إن أهم حقائق الماضي-حقائق العقل- لا يُمكن أن تكون قابلة للمعرفة. على سبيل المثال، لا يُمكننا أن نعرف أبداً ما هي الأفكار التي كانت تُخالج يوليوس قيصر عندما قرر أن يعبر نهر الروبيكون. كل ما هو مُتاح للمؤرخ هو مجرد الحدث الخارجي، أي الفعل الميكانيكي وحسب.

ولهذا فإن نظرية الانعكاس لا تنطبق على العلوم الانسانية. بالنسبة إلى المؤرخ، يبقى اما اكتشاف معنى الحقيقة Fact من خلال "الاحساس" بها، أي باللجوء إلى "تجربته الخاصة"، أو عن طريق "انشاءها" من خلال تلك التجربة، في التحليل النهائي. سيكون "اعادة انتاج الماضي"، في كلتا الحالتين مجرد نوع من "التأويل"، أي ملئ التاريخ بمعنى يتعلق بالماضي وليس بالحاضر. وبما أن الأمر كذلك في هذه الحالة، فإن كالوت E. Callot يخلص إلى أنه ان كان تأسيس "جهاز الحقائق" يعتمد كلياً على "منظومة القيم" الذي يأخذ به المؤرخ، سيفشل المرء في فهم كيف يُمكن لمبحث التاريخ أن يدرك الواقع. سيكون من المنطقي من جميع النواحي أن يحصر هذا المبحث نفسه بوعي في إطار النسبوية، مُستبعداً الانطولوجيا الميتافيزيقية².

ليس من الصعب أن نرى أن مسألة طبيعة الحقيقة التاريخية تتعلق بالمسألة الأساسية للفلسفة، أي علاقة الفكر بالوجود، بطريقة مُحوّلة. وأن اجابة الفكر البرجوازي التاريخي اليوم عن هذه المسألة من وجهات نظر المثالية الذاتية واللاأدرية والنسبوية يؤكد بوضوح أكثر من أي شيء آخر كيف كان لينين على حق، عندما كتب، في خضم جداله ضد أنصار هذه الآراء في بداية القرن: "لأن من يضع النسبوية Relativism في أساس نظرية المعرفة يحكم حتماً على نفسه إما بالرؤية المطلقة، واللاعرفانية والسفسطائية، واما بالذاتية³. وهذا ليس لأن النسبوية هي النتيجة التي مفادها أن معرفتنا نسبية، بل لأنها إنكار لأي حقيقة Truth موضوعية كانت، أي وجودها المُستقل عن الانسان والانسانية تقترب منه معرفتنا النسبية⁴.

في الوقت نفسه، كشفت مناقشة مسألة الطبيعة الابستمولوجية والمنطقية للحقيقة التاريخية عن صعوبات موضوعية ترتبط بحلها. إحدى هذه الصعوبات هي الطبيعة غير المتميزة للمصطلحات، والتي تؤدي باستمرار إلى استبدال الأفكار. تُستخدَم مقولة "الحقيقة التاريخية" للإشارة إلى حدثٍ في التاريخ (أي إلى "حقيقة" واقع موضوعي)، ومعلومة في مصدرٍ ما (أي "الحقيقة" مُنعكسة بهذه الطريقة أو تلك)، وأخيراً رسالة (دليل) صمدت أمام الاختبار وبذلك أصبحت حقيقة في المبحث التاريخي. هذا هو إلى حد كبير أصل

1 - كتَبَ كالوت، أحد أنصار ما يُسمى فلسفة التاريخ النقدية: "ان حقائق الحاضر أو أحداث الماضي لا تُخبرنا عن النومينا (الشيء بذاته)، بل فقط يمشف عن التجربة المُباشرة). (E. Callot, op. cit., p. 50)

2 - E. Callot, op. cit., p. 50

3 - المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم، ص153

4 - نفس المصدر

كل "الخلافات" بين المؤرخين الماركسيين حول المسألة التي تُهمنا هنا (ليس هناك أدنى شك في أن أنصار التعريفات المختلفة يتبنون مواقف مادية متسقة). وهكذا، عندما نقرأ التعريف التالي: "الحقيقة التاريخية، كحدث من الماضي يتأسس على أساس المصادر، هي وحدة دياليكتيكية بين الذاتي والموضوعي، موجودة في الواقع التاريخي نفسه وفي المعرفة التي تعكسها"¹ فإن الوضوح الكامل ناقص هنا فيما يخص "الحقيقة" لأنه يتم هنا الخلط بين الجوانب الدلالية الثلاث للمفهوم. بادئ ذي بدء، ان كان المرء يتحدث عن "الحقائق" كواقع تاريخي موضوعي موجود مسبقاً ومستقل عن الفرد العارف (المؤرخ)، فإن السؤال يطرح نفسه: هل كل "حقائق" ذلك الواقع تُشكّل وحدة لـ"الذاتي والموضوعي"؟ كيف يُمكننا، على سبيل المثال، أن نتعامل مع تلك العلاقات التي تنشأ مستقلة عن ارادة الانسان ووعيه، كنتيجة لنشاطٍ يهدف الى الحفاظ على وجوده، "حقائق" في مجال العلاقات الاجتماعية المادية²، ما الذي يجدر علينا فعله حيال الحقائق في مجال تاريخ الطبيعة، والتي كان لها عواقب اجتماعية هائلة ("المجاعة العظمى" 1315-1317، وطاعون القرن الرابع عشر، وما الى ذلك)؟ بالإضافة الى ذلك، فإن القول الذي يُشير الى "المصادر" في تعريف الحقيقة التاريخية تدل على أنه يتم نقل المشكلة برمتها الى مستوى مختلف. في الواقع، ليس الحقيقة، بل انها تلك "الحقيقة" المُنعكسة في مصدر، هي التي تطرح نفسها على أنها حقيقة تاريخية موضوعية. لكننا في هذه الحالة، نتعامل مع جانب مختلف تماماً من المشكلة، حيث أنه من المعروف جيداً أن الواقع التاريخي ينعكس في المصدر بطريقة غير مباشرة في أغلب الأحيان، وأحياناً بطريقة مُشوّهة وانتقائية ومُجزئة. باختصار، نحن هنا لا نُجابه الواقع نفسه، بل انعكاساً مُلائماً بهذا القدر أو ذاك. أخيراً، هناك، في تحليل تعريف الحقيقة التاريخية أعلاه، يوجد أيضاً، المعنى الثالث لمفهوم "الحقيقة التاريخية"، أي مُعالجة "حقائق المبحث التاريخي". ينبثق هذا عن الجملة التالية في التعريف: "الحقيقة التاريخية، كحدث من الماضي يتأسس على أساس المصادر..." من الذي أسسها؟ المؤرخ بالطبع! لكن نحن في هذه الحالة لا نناقش الاعتراف بحقيقة ما، بقدر ما نناقش محتواها ومعالجتها وتفسيرها وادراجها في منظومة الروابط التي تحوز (الحقيقة) على أهميتها، من خلالها (الروابط). من الواضح انه ليس من الدقيق تعريف هذا التنوع في "الحقائق" بشكلٍ مُستقل عن وحدة الموضوعي والذاتي.

وبالتالي فإن عدم كفاية التمييز بين المفاهيم هو العقبة الرئيسية في طريق المناقشة المثمرة للمسائل المعنية. ميّز لينين بشكلٍ منهجي بين حقائق الواقع الموضوعي، والتي هي المادة الخام للعلوم الاجتماعية، وحقائق تلك العلوم التي هي نتيجة لإدراكها³. يُظهرُ هذا التمييز الأساسي غموضاً بالطبع عند محاولة طرح تعريف واحد ليس فقط لما يعكس وما ينعكس، بل أيضاً عند طرح تعريف لجوهر عملية الانعكاس ذاتها.

تشهد الأمثلة المذكورة أعلاه مرةً أخرى على راهنية المشكلة التي نطرحها. من الواضح أنه قبل الشروع في دراسة جوهر المسألة، من الضروري أن نتفق على ما يلي. من الآن فصاعداً سنُطلق على "الحقيقة في التاريخ" fact of history "الحقيقة التاريخية" historical fact. سنسُمّي الحقيقة المُحددة في مصدر أولي "معلومة المصدر" source information، بينما ستكون "معلومة المصدر" التي تم التحقق منها علمياً وتم

¹ - See T. M. Ivanov, op. cit., p. 78

² - ان نقطة الانطلاق لا يُمكن أن تكون "الفكرة"، بل الظاهرة الخارجية الموضوعية فقط. مختارات فلاديمير لينين في 10 مجلدات، المجلد الأول، دار التقدم 1978، ص 81

³ - Ibid., vol. 4, pp. 101, 124, 159

تفسيرها من قِبَل المؤرِّخ وبالتالي صارت حقيقةً في العلم "حقيقة تاريخية علمية" scientific fact of history.

وبالتالي، فإن الاعتراف بحقيقة تاريخية كواقع موضوعي لا يعتمد على وعي وجودها الانطولوجي وعلى وعي وجودها كشيء مُشتق منه (مشتق من الواقع)، من قِبَل أي فرد، نقول، الاعتراف بذلك، ليس سوى حل مادي للمسألة الأساسية للفلسفة في علم التاريخ. تكمن الخاصية التي تُحدد ماهية الحقيقة التاريخية-وهي "شذرة" من "الواقع التاريخي- في اكتماليتها ولااستنفاديتها وعدم امكانية تغييرها. وتكمن الخاصية الأساسية التي تُحدد الحقيقة التاريخية العلمية في عدم اكتماليتها وتغيّر محتواها، وقدرتها على استيعاب تطور لانهائي بقدر ما يتطور المبحث التاريخي نفسه¹.

تُعبر فكرة "الحقيقة التاريخية"، للوهلة الأولى، عن التفرد والتميّز الصارمين (في المكان والزمان والمحتوى). وهي تُمثّل، في العملية التاريخية الحقيقية، عامل استمرارية، عُقدة في شبكة روابط مُعقدة. والحقائق التاريخية، على مستوى الظواهر المُكوّنة من الأحداث، هي علامات على نمط نظام واحد في تيار التاريخ. وعلى مستوى "الجوهر" من الواضح أن الأهمية الموضوعية وتعدّد وكم مثل هذه الأحداث متنوعة تماماً مثلما هي لامحدودية حياة المُجتمع. من هنا يأتي الاستنتاج الحتمي بأنه سيكون من الخطأ اعتبار الحقائق التاريخية هي تلك فقط الأحداث المُهمّة (في رأي المُعاصرين أو المؤرخين اللاحقين)، لأن السؤال سي طرح نفسه مرةً أخرى هنا: بأي معنى هي "هامة" تاريخياً واجتماعياً وثقافياً؟ إن أفكار نابليون واهتماماته، واهتمامات نجار ما مجهول في فوبورغ في باريس، و"أفعال" نابليون وحياة نفس النجار اليومية هي أحداث متساوية الأهمية في سياقات مقاطع عرضية²* مُعيّنة عبر التاريخ. بالإضافة الى ذلك، بالنسبة للتاريخ الاجتماعي، تُعتبر حياة النجار اليومية أهم من تلك التي تتعلق بنابليون. لو كان الفضول المعرفي الانساني قد احتفظ لنا بمعلومات مُفصّلة حول الحياة اليومية لنجارٍ باريسى واحد على الأقل مُعاصر لنابليون بدلاً من تخليد بان الامبراطورية، لحصلَ المبحث التاريخي على مكاسب أكثر.

وبالتالي، جميع الأحداث المُهمّة اجتماعياً، والتنوع الكامل لظواهر حياة المُجتمع، ولانهائية عالم المُجتمع، التي يُشار إليها بأنها واقع تاريخي، بغض النظر عن أي مقياس لأهمية ومعايير الأحداث والظواهر المعنية، سواء استحوذت على خيال مُعاصريها أو مرت دون أن يُلاحظها أحد، تُمثّل حقائق تاريخية. يجب التأكيد مرةً أخرى على أن لاستنفادية التاريخ تكمن بذاته (بذات التاريخ) ولا يتم استدخالها فيه بأي حالٍ من الأحوال من قِبَل الفرد الذي يدركه. وبطبيعة الحال، المنظور التاريخي والتجربة التاريخية (مسار التاريخ) يوسّع أيضاً وجهة نظرة المرء للتاريخ بآثر رجعي ويسمحان للأجيال المُتعاقة من المؤرخين باكتشاف جوانب وصلات وانتظامات جديدة لم تُلاحظ سابقاً. من الواضح أن معنى مثل هذا الاغتناء للرؤية التاريخية لا يتعم أو (حتى يتشوه) الا إن تم تفسيره من خلال مفاهيم "إسقاط الحاضر على الماضي"³*

1 - كان هيجل يُميّز بين الجانب الموضوعي للتاريخ (العملية) وجانبه الذاتي (المبحث/التخصص)، أو تاريخ الأفعال في الماضي historia rerum gestarum، والأفعال نفسها res gestae.

See Hegel, -Soch., vol. 8, MOSCOW, 1935, p. 58

*2 - المقطع العرضي في التاريخ، هو مسقط أفقي في "جسم" التاريخ ثلاثي الأبعاد.

*3 - يضع مؤلف المقالة الملاحظة التالية هنا: "تتغير صورة الماضي وتغتني نتيجة تفاعل عددٍ من العوامل: 1- ازدياد أبحاث المصادر. 2- توسع مجال الدراسات التاريخية. 3- تكرر الوضعيات التاريخية. 4- حلول عصر تاريخي جديد. 5- الثورة في العلم والتكنيك التي تجعل من الممكن استخراج معلومات جديدة من البيانات التي سبق دراستها أو من الأدلة التي لم تُعبرها تقنيات البحث التقليدية أي اهتمام، وعدد من الأمور الأخرى.

ان تتوّع العوالم التي تُشكّل حياة المُجتمع تُملي الحاجة الى تصنيف الحقائق التاريخية بشكلٍ مُناسب. وهكذا يجب التمييز بين الحقائق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها. يُعتبّر سعر القمح في مدينة أميان amiens الفرنسية 8 تشرين الأول من إحدى الأعوام معلومةً لا تقل أهميةً عن أحداث التمرد في شوارع باريس في احدى السنوات في التاريخ الاجتماعي او حلول سلالة حاكمة محل سلالة أخرى في التاريخ السياسي. هناك حاجة، ضمن مجال الحقائق التاريخية المُتعلقة بكلٍ من مجالات المُجتمع هذه، لمزيد من التقسيمات الفرعية (على سبيل المثال، يُمكن تقسيم حقائق التاريخ الاقتصادي الى: أ- حقائق التاريخ الزراعي، ب- حقائق التاريخ الصناعي، ج- حقائق في تاريخ النقل والتجارة والتمويل، د- حقائق ديموغرافية، وما الى ذلك).

كما لاحظنا مُسبقاً، تكمن احدى افتراضات منهجية التاريخ الكانطية الجديدة في الاعتراف بـ"تفرّد" الحقائق التاريخية (الأحداث، الظواهر، الخ). تم تحقيق ذلك، في المقام الأول، عن طريق وضع حدود لمجال رؤية المؤرّخ ضمن عالم حياة المُجتمع غير المادية، وفي المقام الثاني من خلال التجاهل الواعي لمجال الحياة المادية، وخاصةً وقبل كل شيء، علاقات الانتاج الاجتماعية التي تجعل من المُمكن اكتشاف التكرار في تاريخ مُختلف الشعوب¹. تم الكشف عن أن تركيز الانتباه على الحقائق في فئة الأحداث وتجاهل "ارتباطها النسوي" بالبنى الاجتماعية (فصل الأحداث التاريخية عن الروابط الاجتماعية التي أدت اليها، تماماً كما هو فصل "انجازات" الشخصيات التاريخية عن دوافع أنشطتهم الاجتماعية²، نقول تم الكشف عن ذلك كأمثلة على المُقاربة المُعادية للتاريخ بشكلٍ صارخ. علّق ماركس نفسه على أنه وراء ما يُسمى بـ"دراسة التاريخ من وجهة نظر الشخصيات"، غالباً ما يتم اخفاء الرغبة في "التغاضي" عن الاختلافات التي تتجسد فيها العلاقات الاجتماعية على وجه التحديد. المُجتمع ليس مجموع أفراد، ولكنه يُعبّر عن مجموع الروابط والعلاقات التي يرتبط بها الأفراد ببعضهم البعض. ان أكّد المرء أنه لا يوجد عبيد ومواطنين، بل أناس، في نظر المُجتمع، فمن الواضح أن وجودهم بهذه الصفة هو شيء خارج المُجتمع. أن تكون عبداً وأن تكون مواطناً هي التحديدات الاجتماعية للعلاقة بين الشخص أ والشخص ب. الشخص أ كشخص هو ليس عبداً. انه عبد في المُجتمع ومن خلاله³. بعبارةٍ أخرى، تقوم الكانطية الجديدة عبر اضفاءها صفة الاطلاق على ما يُميز "موضوع التاريخ"، بالخط عن وعي بين الحقيقة Fact ككيان تجريبي وتألمي، والحقيقة كرابط تاريخي وعملية وضرورة حيث يتم اضعاف جوهر تلك الخصيصة، ويكون هذا الجوهر هو السمة المُحددة للعلاقات الاجتماعية في تشكيل موضوع للتاريخ الاجتماعي. من وجهة نظر المادية الديالكتيكية، فان "تفرّدية" حقيقة تاريخية على مستوى المُلاحظة التجريبية لا يُمثل عقبة أمام تحديد العام وما هو محكوم بالقانون، أكثر مما يُمثله "تفرّد" الأشياء والظواهر والأحداث في الطبيعة. ان البحث عن خصوصية "شيء ما في التاريخ" من وجهة النظر هذه لا يوضح المسألة بل يشوشها. ومع ذلك، لا يُمكن أن يكون هناك شك في أنه من الضروري، على مستوى المُلاحظة المُباشرة، التمييز بين الحقائق الفريدة (اختراع الطباعة، مقتل ملك انجلترا هنري الرابع) والحقائق الاحصائية (حركة الأسعار، السكان، الحركات الاضرابية، الخ). أخيراً، واعتماداً على الفترة الزمنية التي يمتد خلالها الحدث، يُميّز المرء الأحداث اللحظية (الوقائع)

1 - مختارات فلاديمير لينين في 10 مجلدات، المجلد الأول، دار التقدم 1978، ص81

2 - E. Rotchacker , Logik und Systematik der Geisteswissenschaften, Munich, 1952, p. 73

3 - See K. Marx, Grundrisse der Kritik der Politischen Ökonomie, Berlin, 1953, pp. 375 ff

والأحداث المتكررة دورياً (الأحداث الدورية)، والأحداث ذات الفترات تطول أو تقصر بمرور الزمن (العمليات، الظواهر). ان اختلاف طبيعة الأحداث من منظور مدتها الزمنية هو بالضبط ما يقودنا الى مسألة البنية الداخلية للحقيقة التاريخية. دعونا، من أجل توضيح ذلك، نُقارن بين ثلاثة أحداث مأخوذة من الصراع الطبقي: فعل احتجاجي فردي، انتفاضة شعبية، ثورة اجتماعية.

من الواضح أن أول هذه الأفعال، والتي هي نتيجة لفعل فردي، يُمكن وصفها بشكل مُبرر بأنها "بسيطة"، على عكس الأفعال الأخرى التي تنتج عن عمل جماعي "مُعقد" بالمُقارنة مع الأولى. (على الرغم من وجود اختلاف كبير في درجة تعقيد كُلٍ منها). ومع ذلك، عندما يُقارن المرء هذه الأمثلة بعناية أكبر، يتضح أن مفهوم "التعقيد" ذاته يتطلب مزيداً من التحليل. في المقام الأول، من الواضح أنه لا توجد أحداث بسيطة في التاريخ. لكن تتحدد درجة تعقيدها من خلال عدد الروابط بين العوامل التي تُساعد في تشكّل الحدث. بالإضافة الى ذلك، يُمكن أن يكون الحدث أكثر أو أقل تعقيداً اعتماداً على: 1- مدى انتشاره في الزمان والمكان، ب- عدد الروابط التي تُشكّل الحدث، أي عدد العوامل "المُتفاعلة" و"المُتقاطعة" فيه: العمليات ومجالات الحياة الاجتماعية التي تُحدد تلك الأفعال التي نشأت في ظلها.

وبالتالي، فإن الواقع التاريخي نفسه يُسبب في حقائق، أي عُقد ذات درجات متفاوتة التعقيد والمُدّة والمكانة ضمن عمق شريحة ما هو اجتماعي المتبلورة فيها (في الحقائق). على الرغم من غموض جميع الحدود في "تطوّر الأشياء"، فإن الحقائق والأحداث ذات التكوين المُعقد تمتلك حدوداً مُعينة تماماً في الزمان والمكان وهي ليست أقل تموضّعاً في تاريخ المُجتمع. على أي حال، حتى الحقائق المُعقدة للغاية، على مُستوى الأحداث، مثل الحروب والثورات مُحددة بهذا القدر أو ذاك بإطارٍ من المكان والزمان¹. ومع ذلك، فإن تحليل بنية الحقيقة التاريخية لا يُمكن أن يتوقف هنا.

من المعروف أن العملية التاريخية مُزدوجة، طالما أنها تحدث في مجالين، ورُغم ارتباطهما ببعضهما بطريقة مُعينة، إلا أنهما لا يتطابقان على الإطلاق. أحدهما هو مجال التطور الموضوعي، والذي يُطلق عليه "الواقع الموضوعي"، والآخر هو مجال عالم الوعي الذي يعكسه، والذي يطرح نفسه بصفته وعياً اجتماعياً، وهو، بالضرورة، ذاتي بهذا القدر أو ذاك. يُوَدّي التمعّن في ازدواجية العملية التاريخية هذه، الى التمييز من جهة بين الحقائق الموضوعية التي تُجسد حركة المُجتمع كعملية تاريخية طبيعية خاضعة للقوانين، والتي ليست فقط مُستقلة عن ارادة البشر ووعيهم، بل هي التي تُحدد ارادتهم ووعيهم ومقاصدهم، ومن جهةٍ أخرى "حقائق الوعي" (الايديولوجية، النفسية الاجتماعية، الخ). يُشدد لينين أن نقطة الانطلاق "لا يُمكن أن تكون الفكرة، بل الظاهرة الخارجية الموضوعية فقط. فعلى (النقد)-التشديد من مؤلف المقالة- أن ينحصر اذاً في

¹ - في الأدبيات البرجوازية حول هذه المسألة، والتي تخلط بين الجوانب الانطولوجية والمعرفية لمسألة الحقيقة التاريخية، لم يتم بعد تحديد ما إن كانت هذه الحقائق المُعقدة يُمكن اعتبارها "أحداثاً مُنفصلة". كما نعلم، أنكرت الكانطية الجديدة صراحةً "واقعية" تلك الأحداث مُعتبرة إياها نتاجاً للنشاط المفاهيمي الذي يُنظّم الوعي، الخ. حسب ريكتر، تتكون الحروب من المعارك والهجمات والهجمات المضادة، في حين تتكون الثورات من أحداث متنوعة للغاية، وما الى ذلك.

T. Rickert, Granitsy, p. 321

من ناحيةٍ أخرى، تتجاهل الوضعية الجديدة تماماً مشكلة بُنية "الحقائق" التاريخية نظراً لأن الشيء الوحيد الذي يخضع للتحليل هو "حقائق اللغة"، في حين أن جميع الحقائق ليست أكثر من تصورات تأملية "عقلانية".

see A. Schttz, Der Sinnhafte Aufbau der sozialen Welt, Vienna, 1960, pp. 118s.)

مُقارنة واقع، في مُجابته، لا مع الفكرة، بل مع واقع آخر¹. يترتب على ذلك أن النقد المادي يعترف بالظواهر الموضوعية (الأحداث من فئة التاريخ الطبيعي) التي تحدث "بالاستقلال عن وعي و ارادة الناس"- وهذا سبب وضع الحقيقة Fact مقابل الفكرة-، على أنها هي فقط الحقائق. يُمكن تحليل التاريخ بشكلٍ موضوعي فقط من خلال الاعتماد على "حقائق" من هذا النوع².

ما زلنا حتى هذه اللحظة نبحث مشكلة تصنيف الحقائق التاريخية من ناحية بُنيته: المجال الذي نشأت فيه. ولكن لا يُمكن أن يكون هناك شك أن الحدّث بما هو حقيقة، ينشأ كنتاجٍ كُلّي لعددٍ لا مُتناهٍ من القوى التي تتقاطع بنسبٍ مُختلفة: من ناحية عناصر الضرورة التاريخية الطبيعية، ومن ناحيةٍ أُخرى عناصر الاختيار الواعي للأهداف والقرارات. يُؤكّد انجلز في رسالة منه الى بلوخ في 21-22 أيلول عام 1890 يقول: "وهكذا، فإن ثمة عدداً لا يُحصى من القوى المُتقاطعة... تؤدي الى حصيلة واحدة-الحدث التاريخي الذي يُمكن أن يُنظر اليه، بدوره، على اعتباره نتاج قوة تعمل من حيث هي كُل واحد..."³. بما أن النُقطة هنا هي التاريخ المدني على هذا النحو، فمن الواضح أن لبّ عالم موضوعه يتكون بدقة من مثل هذه العُقَد من الحقائق ونقاط تقاطع القوى المتنوعة العاملة داخل أطر الحتمية المادية النهائية وعلى أساسها.

يترتب على ما سبق أن تصنيف الحقائق التاريخية من حيث المكان الذي تنتمي اليه "نشوئياً" (الحقائق في تاريخ القوى المُنتجة، حقائق التاريخ الاقتصادي، حقائق التاريخ السياسي، وما الى ذلك) لا يعني أن إمكانياتها المعرفية محدودة في تلك الأماكن. في الواقع، تُلقِي نفس الحقائق التاريخية ضوءاً على جوانبٍ مُختلفة من حياة المُجتمع في الماضي. المُهمة ببساطة هو تعلّم القدرة على قراءة معانيها "المُشفرة". وهكذا، على سبيل المثال، ان بُنية الشركات التجارية القروسطية ليست مُجرّد حقيقة في تاريخ التجارة، بل هي حقيقة تمنح الباحثين قدراً كبيراً من المعلومات حول تاريخ التمويل وتاريخ الأسرة والحياة الأسرية في العصور الوسطى، وما الى ذلك. ان تاريخ الديون هو دليل مهم على المشاكل الأخلاقية، وما الى ذلك. وان تاريخ الاجراءات الجنائية ليست حقائقاً في تاريخ القانون وحسب، بل، ولكن أيضاً حقائق في تاريخ النفسية الاجتماعية التاريخية والأخلاق أيضاً، وما الى ذلك.

طالما أن الأحداث اليومية العادية مُتعددة الأوجه بالمعنى المعرفي، فمن السهل حينها أن نتصور كيف أن يُمكن لأحداث من مثل التحركات والثورات الجماهيرية، من وجهة النظر هذه، أن تُقدّم للمؤرّخ احتياط معلومات غنية ومتنوعة جداً.

تنعكس في التصريح القائل بأن الحقائق التاريخية ذات نطاقات مُختلفة (درجة التعقيد) وفي حقيقة أن الحقائق

1 - مختارات فلاديمير لينين في 10 مجلدات، المجلد الأول، دار التقدم 1978، ص81

2 - نفس المصدر، ص80-81

لا يعني هذا أن النقد المادي للتاريخ يتجاهل "حقائق الوعي"، بل هذا يعني فقط، أنها تظهر، لذن وضعها في مستوى (الأولي-الاشتقاق)، فإنها تظهر كشيء مُشتق، نابع، فوق. علاوة على ذلك، يكاد لا يكون في مقدور الناس، في المُجتمعات الطبقة المُتناحرة، توقّع النتائج النهائية لأفعالهم الاجتماعية لأنهم لا يمتلكون فكرة عن مجموع العلاقات الاجتماعية التي يعيشون في ظلها.

مختارات فلاديمير لينين في 10 مجلدات، المجلد الأول، دار التقدم 1978، ص81

3 - مراسلات ماركس وانجلز، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق 1981، ص496

المختلفة تحتوي على معلومات ذات معانٍ مُتنوعة (فيما يتعلق بالمُجتمع ككل)، تنعكس إحدى سمات المفاهيم المعاصرة الجديدة بالملاحظة حول الحقيقة التاريخية بالمقارنة مع ما تفهمه الوضعية القديمة بالحقيقة التاريخية، هذه الوضعية القديمة التي تجاهلت تماماً مشكلة بُنية الحقيقة التاريخية وعرّفت الحقيقة بأنها تلك التي تتطابق تماماً مع الحقيقة في الطبيعة. لكن لا يجب على المرء أن يعزو هذه السمة المميزة لطبيعة الحقيقة التاريخية الى الفرد المُدرِّك و"برنامج" و"رؤيته"، الخ. إن لدى افتراضات وتصورات البحث سلطنة على الأحكام فقط، فيما يتعلق بالحقيقة. قد تكون هذه الافتراضات والتصورات أوسع أو أضيق، لكنها لا تمتلك أي سلطنة على المُحتوى الموضوعي لحقائق التاريخ على هذا النحو. قد تُؤدّي الافتراضات العلمية حقاً الى تعميق فهم الحقائق القديمة والمعروفة منذ زمنٍ طويل أو اكتشاف حقائق تاريخية جديدة لم يتم اكتشافها حتى الآن. يُمكن للافتراضات ذات الطابع الذاتي أن تُؤدّي الى إفقار الحقائق وتشويهها أو حتى "إسكانها" ان أثبتت أنها غير مُلائمة لمثل هذه الافتراضات.

وهكذا لا تعتمد ظاهرة تنوع نطاق وتعقيد بُنية الحقائق التاريخية، على نظرة المؤرخ. من السمات المهمة للحقائق التاريخية أنها تطرح نفسها للباحث في شكلين: 1- في شكل ظاهرة، أي تَمَظُّهُر للجوهر، 2- في شكل تشبيهي Semblance، ظاهري، وهمي (هذا على سبيل المثال، هو الشكل الحسي للعلاقات الاجتماعية في ظل الرأسمالية، تماماً هو الشكل الشخصي لهذه العلاقات في ظل الاقطاع، الخ). وبالتالي، تُمثّل حقائق الظاهر، أو عالم "الواقع المُحوّر" حاجزاً يجب على الباحث تجاوزه في كل مرة للوصول الى جوهر الأشياء المخفية وراءها. بالإضافة الى ذلك، يظهر الشكل الثاني (الظاهر، الوهمي) بدوره في شكلين: 1- الموضوعي، أي عندما تنقلب العلاقات من الداخل الى الخارج خلال مسار العملية ذاته، وتتخذ "شكلاً خيالياً"، و2- الذاتي، عندما يُنظَر الى العلاقات الاجتماعية والظواهر والأحداث على أنها "مقلوبة رأساً على عقب".

تكمن الصعوبة الرئيسية في فهم "الأشكال المُحوّلة" في الطابع الموضوعي للعديد منها. وهكذا على سبيل المثال، فإن فهم جوهر صنمية السلعة لا يُلغي بحد ذاته هذه الصنمية كحقيقة اقتصادية موضوعية. بعبارة أخرى، تتبدى العلاقات الاجتماعية بين البشر، في هذه الحالة، بالضبط كما هي عليه! شدد لينين على الطابع الموضوعي للشكل التشبيهي (الظاهري) Semblance في دفاثره الفلسفية: "ألا يُقصد أن الظاهري هو أيضاً موضوعي، لأن فيه أحد وجوه الموضوعي؟ ليس فقط الجوهر، بل أيضاً الظاهر، هو موضوعي. اختلاف الذاتي والموضوعي موجود، ولكن له أيضاً حدوده"².

في هذا "الواقع الثاني" الغامض، الأرض هي التي "تجلب" الربيع، ورأس المال هو الذي "يجلب" الربح، وما الى ذلك. ان الشكل الاجتماعي لعمله يقف مُعارضاً لفاعل العمل كخاصية لنتاجه. وان "مأسسة" الظاهر وجعلها غامضة تشهد على وجودها الموضوعي. ان المُقارنة بين الصنمية السلعية والدينية مُفيدة: يقبل الانسان الصور الخيالية "ككائنات واقعية" ويمنحها خصائص الحياة. ومع ذلك، ما أكبر الاختلاف النسوي بينهما. كَشَفَ ماركس في المُجلّد الثالث من رأس المال عن جوهر حقائق "الواقع الثاني" هذا باستخدام مثال

1 - رأس المال-المُجلّد الثالث، كارل ماركس، ترجمة فالح عبدالجبار، دار الفارابي ص946

2 - دفاثر عن الديالكتيك، لينين، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة 1988، ص120

الصيغة الثلاثية (الثالث) (الأرض وإيجارها، رأس المال والفائدة، العمل والأجور). في هذا الثالث يتم تقديم المصادر الخيالية للثروة بطريقة تحجب تماماً المصدر الحقيقي والوحيد لتلك الثروة، أي أن هذه الصيغة المعروضة تُساعد على التخلص من أي شيء يُشير إلى أن شكل فائض القيمة هو الشكل الصافي للاستغلال بصفته نموذجي لنمط الإنتاج الرأسمالي، "ولو عايناً هذا الثالث الاقتصادي عن كثب لوجدنا التالي: ... إن المصادر المزعومة للثروة السنوية المُتاحة، تنتمي إلى ميايدي مُتباينة كُلياً، لا تتسم بأدنى تماثل، فالعلاقات القائمة بينها تُشبه العلاقة بين رسوم كاتب العدل والشمندر والموسيقى"¹. إن رأس المال ليس شيئاً، بل هو علاقة إنتاج اجتماعية لنظام اجتماعي تاريخي مُحدد، تتمثل في شيء مُعَيّن، وتُسبغ على هذا الشيء طابعاً اجتماعياً خاصاً، وهو شكل اجتماعي مُعَيّن، شكل صوفي تماماً من النظرة الأولى، لواحد من عوامل عملية الإنتاج الاجتماعية المُتكونة تاريخياً. يتم وضع الأرض، هذه الطبيعة اللاعضوية كما هي عليه، كُتلة فظة مُتتافرة، بكامل حالها البدائي، إلى جانب رأس المال. أخيراً، العنصر الثالث في الثالث هو شبح، العمل يفتقر إلى أي صفة اجتماعية مُحددة، وهو مأخوذاً لذاته، لا وجود له اطلاقاً، ويبرز في هذا الثالث في وجوده الطبيعي المحض مُستقلاً عن المُجتمع، مُنفصلاً عن سائر المُجتمعات.

لكن الحقيقة هي أن علاقات الإنتاج الرأسمالية تظهر للوهلة الأولى في هذا الشكل "الطبيعي" والسخيف. يرى أصحاب الإنتاج أنفسهم والعالفون في العلاقة الرأسمالية الأمر بهذا الشكل المُشوّه. يظهر لهم رأس المال والأرض والعمل كمصادر أساسية للثروة، والتي يستمدون الأرباح منها كل عام².

ولكن، كما يؤكد ماركس، فإن الأمر لا يتعلق فقط بكيفية ظهور الأمر للعقل اليومي، ولكن يتعلق فيما يُميّز نمط الإنتاج الرأسمالي الذي يؤدي إلى "قلب الواقع رأساً على عقب" والتشويش على الموضوعي. يقول ماركس: "لقد سبق لنا لدى النظر في أبسط مقولات نمط الإنتاج الرأسمالي، بل حتى مقولات الإنتاج السلعي، والسلعة والنقد، أن أشرنا إلى الطابع الصوفي الغامض الذي يُحوّل العلاقات الاجتماعية، التي تقوم العناصر المادية بمثابة حامل لها في الإنتاج، إلى خصائص لهذه الأشياء نفسها (السلعة)، ويُحوّل علاقة الإنتاج نفسها إلى شيء (نقد)، وهو ما يتجلى بشكلٍ ساطع"³.

ومع ذلك، فإن "العالم المسحور والمُشوّه"، عالم جعل جوهر العلاقات الاجتماعية غامضاً، لا يُميّز نمط الإنتاج الرأسمالي وحده. ليست علاقات الإنتاج الإقطاعية، النظام الإقطاعي ككل "يُقلب رأساً على عقب" في أعين مُعاصريه (ولاحقاً المؤرخين)؟ لا تُخفي وتُشوّه من قبل الأشكال القانونية إلى درجة أنها تصير تبدو في عيون أصحاب الإنتاج أنفسهم ومعاصري تلك العلاقات على أنها ليست نمطاً من الإنتاج الاجتماعي بل "نمط اداري"، وليس مجموعة مُحددة من علاقات الملكية، بل مجموعة من العلاقات الشخصية، أي تظهر بالشكل القانوني الذي يُخفي فيه الجوهر؟ ألا تظهر الملكية الإقطاعية في هذا "الشكل المُحرّف" على أنها "منحة"، وتشارك الربيع الإقطاعي على أنها "مُكافأة"، والعضوية في الطبقة المُهيمنة على أنها وضعية قائمة منذ الولادة، الخ الخ؟ وأخيراً، ألم يتم إظهار "العلاقات الشخصية" بطريقة مُجرّدة من المحتوى الاقتصادي، أي بطريقة عامة مُجرّدة جداً (الكل تابع في هذا المُجتمع: الفلاحين، اللوردات والكهنة، وما إلى ذلك)، بحيث أنه

1 - رأس المال-المُجلد الثالث، كارل ماركس، ترجمة فالح عبدالجبار، دار الفارابي ص945،946

2 - نفس المصدر، ص949

3 - نفس المصدر، ص958

لا يُمكن العثور على الحدود بين الطبقات الا بصعوبة كبيرة، أم أنه من المُستحيل القيام بذلك؟ بإختصار، يتم هنا، اتخاذ "مظهر" الظاهرة على أنها "حقيقة" وليس جوهرها.

للأسف، فإن هذه الفئة من "الحقائق" التي تشوه واقع المُجتمع الطبقي¹، تُفُلت تماماً من مجال نظر المرء عندما يُحلل مسألة "الحقيقة التاريخية". وبالتالي، بدلاً من تصنيف الحقائق حسب محتواها "من حيث العمق"، من الظاهر الى الجوهر، ومما هو مُشوّه (مُحوّل) الى ما هو صحيح، نقول، بدلاً من ذلك، يتم تحويلها الى رموز للواقع على نفس المُستوى وثنائية البُعد.

وهكذا، "الحقيقة التاريخية" هي "عقدة"، "شذرة"، "وصلة" للواقع الموضوعي (أي التاريخ الحاصل) المُستقل في وجوده وأهميته عن الفرد الذي يُدركه، ونقطة الانطلاق هي واقع النظرية الاجتماعية العلمية. شدد ماركس وانجلز على أن الفهم المادي للتاريخ قد كُشِفَ عن أساسه الحقيقي². وأكّد لينين بلا كلل على الأساس التاريخي الموضوعي للمعرفة الاجتماعية. كُتِب: الماركسية لا تقوم على أي شيء الا حقائق... التاريخ والواقع³. في سياقٍ آخر، يؤكّد لينين على الحاجة الى الانطلاق من الحقائق الدقيقة التي لا جدال فيها⁴. هذا هو أساس مُطالبات لينين بإجراء دراسة منهجية وعميقة لحقائق الواقع، حيث أن الحقائق المُثبتة علمياً والمُثبتة بدقّة هي التي يُمكن أن تكون بمثابة مقدمة سياسة ونظرية علميتان.

تقبل نظرية الماركسية دون قيد أو شرط أولوية الواقع، أي الحقائق التاريخية، في سياق دياليكتيك عملية اكتساب المعرفة التاريخية. ومع ذلك، فإن الحقائق التاريخية ليست "مُدرّجة" في العلم أو منقولةً منه ميكانيكياً. باستثناء البيانات الشكلية (التواريخ، الأدلة "المُسجّلة في شكل محاضر")، يجب انتقاء الحقائق التاريخية والتحقق منها والكشف عن معناها لكي تكون "حقائق علمية". لكننا، نواجه، لدن قيامنا بذلك، الجانب الذاتي من الحقائق التي ندرسها، أي نواجه مهمة تحديد ما يُميّز التحصيل العلمي للمعرفة التاريخية. ان "حقيقة" المبحث التاريخي، مُشتقة، وهي انعكاس بهذا القدر أو ذاك من الصحة في ادراك الحقيقة التاريخية، "شذرة" من الواقع الموضوعي للماضي. وبهذا المعنى يُمكننا أن نقول أن الحقيقة العلمية للتاريخ تتطابق مع الحقيقة العلمية في تاريخ الطبيعة. ولكن في حين أن الحقيقة التاريخية كواقع موضوعي لا تتميز من حيث المبدأ بأي شكلٍ من الأشكال عن مصدر المعرفة العلمية الطبيعية، فإن هذا لا يعني أن عملية المعرفة التاريخية مُطابقة تماماً لعملية المعرفة في العلوم الطبيعية. لنبدأ بحقيقة أن النقطة هنا أن الحدث التاريخي في مُجتمعات الماضي لا يُمكن ملاحظته ولا يُمكن إعادة إحداثه. (نحن نجد حقاً، في عددٍ من مجالات العلوم الطبيعية-الجيولوجيا، علم الكون، علم أحافير الكوكب البدائي، وضعاً مُشابهاً، ولكن مع اختلاف أن العواقب المُباشرة لـ"الأحداث" هنا يُمكن التوقف عندها عن طريق الملاحظة المُباشرة. لا يوجد شيء من هذا القبيل في تاريخ المُجتمع). وهكذا، يقف المصدر التاريخي بين المؤرّخ والحقيقة التاريخية،

¹ - نفس المصدر، ص 949

² - K. Marx and F. Engels, -Soch., vol. 3, p. 38

³ - V. I. Lenin, -PSS, vol. 1, p. 411

⁴ - See ibid., vol. 30, p. 350

والذي (أي المصدر) "يُسجَل" بشكلٍ أو بآخر حدثاً وَقَعَ. على سبيل المثال، يقف بين الظاهرة والباحث، في عددٍ مختلف من مجالات العلوم الطبيعية الحديثة، أداة لا يُمكن بدونها ملاحظة الظاهرة المعنية. لكن هذا مُجرّد تشبيه خارجي. الأداة تُسجَل أو تُثبت أو تكشف الظاهرة الطبيعية. علاوةً على ذلك، يتم صنع الأداة وفقاً لبرنامج البحث، وتعتمد قُدرتها على عكس الظاهرة على العالم (تُشير هنا الى مستوى تقنية البحث). أما المصادر التاريخية، فـ"يجمعها" مُعاصرو الأحداث وفقاً لـ"برنامجهم الخاص". أضف الى ذلك، أنه كثيراً ما يضع اولئك "الجامعون" لأنفسهم بوعي مهمة تضليل الأجيال القادمة. بصرف النظر عن كل شيء، في المصادر التاريخية، يتم تسجيل "الحقائق" ذات المستويات المتنوعة بنسب غير مُتكافئة وبـ"مقاييس" غير معقولة بحيث تشوه الواقع الموضوعي وتُسردُمه.

تتمثل إحدى المشكلات الرئيسية فيما يتعلق ببحث المصدر، في تحديد ما يُخبرنا به المصدر المُعطى، والى أي درجة وبأي شكل توجد الحقيقة الأصلية في "المعلومة"، وما الذي تم تحريفه في "الحقيقة" وبأي طريقة، وكيف تم تسجيلها (نظام الرموز) وما الزمان والمكان الذين سُجلت فيهما، ومن هم الذين سجلوا المعلومة! باختصار المشكلة تتعلق بـأ- "ما سَبَقَ أن قيل" وما الذي كان مغزاه، وب- المُحتوى والمعنى. هنا يكمن الاختلاف الجوهرى بين تَوسّطات الواقع من قِبَل المصدر التاريخي من جهة، وتوسّط الواقع من قِبَل الأداة من جهةٍ أخرى. وهكذا لا يتعامل مبحث التاريخ مع "التنوّع الكامل" للواقع قيد الدراسة. بالإضافة الى ذلك، بما أن المؤرّخ يواجه واقعاً مُنعكساً مُتوسّطاً بدرجاتٍ متفاوتة، فإن الرأي السائد بأن "الواقع نفسه" مُمثّل و"يتحدث" في المصادر، هو تبسيط لكامل قضية "الحقيقة" في المبحث التاريخي. نحن نعلم أن على المؤرّخ أن يستخدم عدداً كبيراً من الكواشف لتتقنه انعكاس الواقع من كل الطبقات التي تُشوش عليه، ويجب أن يقوم بعددٍ كبير من الاجراءات من أجل استعادة الروابط المحذوفة الى حدٍ ما. ان الطبيعة المُشردمة للمصادر التاريخية، والنقل التوسّطي للعديد من جوانب الماضي، كذلك الطريقة التي يتم بها تسجيلها في المصدر، كل هذا يُضفي أهمية خاصةً على التجريد العلمي في عملية اثبات الحقائق العلمية للتاريخ.² التفكير الاستقرائي الصرف غير مُثمر في البحث التاريخي بالضبط مثلما الأمر في التجريد الصرف.³ ان دور النظرية السوسولوجية في عملية تحديد الحقائق العلمية للتاريخ هائل. انها المُحدد النهائي في عملية تفسير الأساس الوثائقي للبناء التاريخي. ولكن، هناك منطقة بين النظرية العامة والحقيقة التجريبية يتم فيها "ترجمة" مُحتوى الأخيرة من لغة المُفرد الى لغة الخاص-وهي ذلك الشكل الأعلى من التعميم في الدراسات التاريخية. تدريجياً، يخضع المفهوم الذي يتعلق-(أو يتعارض مع)- بشهادة المصدر، بظهوره في البدء كافتراض حول مشكلة ما، لتأكيد وتعديل مظهره، ويخضع لعملية تحويله الى أساس البناء التاريخي. هذا الأساس، هو الذي يُحدد، في التحليل النهائي، مكان الحقائق الفردية الموثقة في منظومة "البراهين". وبالتالي، لا يُمكن اعتبار الأدلة المُستمدة من المصدر والمُعاد كتابتها في البحث التاريخي كحقيقة علمية للتاريخ بل كحقيقة موضوعية في سياق مُناسب. بعبارةٍ أخرى، فإن الحقيقة العلمية للتاريخ هي حقيقة في سياق المُفهمة، أي حقيقة أضاعت

1 -- بما أننا نناقش المصادر المكتوبة، فإنها تُجسد شكلين من "توسّطات" الواقع. لقد كانت اللغة، كما نعلم، جُكراً على طبقة مُعيّنة. كانت هذه الفئة مُنحَزة من جانبين: 1- جانب اثني مُعيّن-معيّار وعيها التاريخي، ومعيّار ما هو "جدير" و"غير جدير" في ذاكرتها التاريخية، مما يؤدي الى "انتقائية أولية"، و2- وعي المجموعة (الوظيفة، الطبقة) والذي يؤدي دور ثاني في انتقاء ما هو "جدير" وفقاً لمصلحة المجموعة (أو الطبقة). أضف الى ذلك، نحن نترك قضية "الحقائق الموثقة" documented fact خارج اطار هذه المقالة. تتطلب هذه القضية المُهمة في مبحث التاريخ مُعالجة خاصة.

2 - رأس المال-المُجدد الأول، كارل ماركس، ترجمة فالح عبد الجبار، دار الفارابي 2013، ص16. "ان تحليل الأشكال الاقتصادية، لا يُمكن أن يستعين، لا بمجهر ولا بكتشاف كيميائي. فينبغي لقوة التجريد أن تقوم مقامها".

3 - See, for example, S. Frank, Ocherki metodologii obshchestvennykh nauk, MOSCOW, 1922, pp. 101 ff.; A. Danto, Analytical Philosophy of History, Cambridge, 1965, p. 109

عليها النظرية التاريخية من الداخل. بهذا المعنى أيضاً، تكون الحقيقة العلمية للتاريخ من نفس مستوى النظام الابستمولوجي والمنطقي للحقيقة في العلوم الطبيعية.

نحن نعلم أنه كان يُنظر الى الاختلاف بين هاتين الفئتين من الحقائق، منذ زمنٍ ليس ببعيد، على أنه يكمن أساساً فيما يلي:

- 1- الحقائق التاريخية لا يُمكن ملاحظتها، في حين أنه يُمكن ملاحظة الحقائق الفيزيائية.
- 2- الحقائق التاريخية لا يُمكن إعادة خلها أو انتاجها بالتجربة وبالتالي لا يُمكن التحقق منها، في حين أن دراسات الحقائق في العلوم الطبيعية قادرة على التحقق التجريبي.
- 3- الحقائق التاريخية مُجزأة وانتقائية بشكلٍ مُفرط (خاصةً في فترات التاريخ البعيد) وبالتالي هي غير كافية لأن تكشف عن القوانين، أما في العلوم الطبيعية فعدد الحقائق غير محدود تقريباً، ومن ثم، لا توجد عقبات أمام اكتشاف العلاقات المُستقرة.
- 4- الحقائق التاريخية مشحونة بـ"أحكام القيمة"، ويعتمد ظهور هذه الأخيرة في الحقائق التاريخية، في التحليل النهائي، على نظام الحساب والمخططات المفاهيمية الخ، التي يستخدمها "مبتكروها". الحقائق في العلوم الطبيعية خالية من مثل هذه الأعباء ولا تعتمد على العناصر الذاتي وأشكال الوعي.

يُمكن وضع المزيد من النقاط في قائمة هذه التعارضات، ولكن حتى هذه فقط، كافية لتحليل جوهرها وأسسها. هذه المُعارضات بين الحقائق العلمية التاريخية والعلمية الطبيعية، تعكس بلا شك، السمات التي تُميز كل شقٍ من طرفي المُعارضة، لكن يتم تضخيم السمات هنا (سواءً من حيث الوضع الحالي لهذه المسألة في العلوم الطبيعية نفسها أم من حيث وضع العلوم الاجتماعية العلمية).

دعونا أولاً نتحدث حول مسألة عدم امكانية ملاحظة الحقائق التاريخية وإمكانية ملاحظة الحقائق الفيزيائية. نحن نعلم، بادئ ذي بدئ، أنه يُمكننا أن نلاحظ حقائق التاريخ المُعاصر بشكلٍ مُباشر، وطالما أن الأمر يتعلق بحقائق الماضي فإنه بالفعل لا يُمكننا أن نلاحظها بشكلٍ مُباشر. وكما قلنا آنفاً، فإنه يُمكن "ملاحظتها" بشكلٍ مُتوسّط، من خلال المصادر التاريخية، والتي يُمكن تصويرها على أنها الى هذا الحد أو ذاك سلسلة مُستمرة من الصور الفوتوغرافية "الفورية" ("على مستويات مُتعددة") والتي تتسجّل بكميات وأعداد هائلة لا تتضّب تقريباً (وإن كانت مُجزأة ومتشذرة) حول مُختلف جوانب المُجتمع وتطوره، على الأقل منذ أن أصبح جزءاً من الحضارة (يقول الكاتب في ملاحظة هامشية هنا، أنه يُشير الى المصادر المكتوبة. أما فيما يتعلق بآثار الثقافة المادية، فهي، كما نعلم، تقع بعيداً خارج إطار هذه الحدود الزمنية). من ناحيةٍ أُخرى، يوجد الآن، حتى في العلوم الطبيعية، تطوّر مُكثّف لعددٍ من التخصصات العلمية (فيزياء الجسيمات الأولية، الفيزياء الفلكية، وما الى ذلك) والتي لا يُمكن فيها ملاحظة الموضوع (الظاهرة) الا بشكلٍ غير مُباشر، أي من خلال قراءات الأجهزة (المُنحنيات، الصور الفورية، الخ)¹. بإختصار، لو أراد المؤرخون والفيزيائيون، على سبيل المثال، أن يُناقشوا هذه المسألة، ليس كل مجموعة على حدة، بل على طاولة واحدة، فلن يكون من الصعب استنتاج أن هذه المُعارضة بين فئتي الحقيقة (على الأقل فيما يتعلق بمجالات مُعيّنة من العلوم الطبيعية المُعاصرة) لم تعد موجودة. الوضع تقريباً نفسه عندما يتم وضع التاريخ كعلم والعلم الطبيعي مقابل بعضهما من خلال معيار

¹ - B. Kedrov, Klassifikatsiia nauk, vol. 1-2, MOSCOW 1961- 65

"قابلية تكرار" الحقائق. صحيح أن المؤرخ لا يمكنه أن يُعيد إنتاج أو خلق حقائق تاريخ بلد مُعيّن في فترة مُعينة تجريبياً، لكن الجيولوجيين أيضاً، كما نعلم، لا يمكنهم أيضاً إعادة خلق عدد هائل من "الحقائق" في مجالهم. ينطبق نفس الشيء على البيولوجيا التطورية، والذي، لا يمكنه، على سبيل المثال، مراقبة عملية تطور الأنواع الأحيائية الحديثة (بما في ذلك التحوّل من القرد العُليا إلى الانسان). ومع ذلك، في مثل هذه التخصصات، هناك طريقتان تحلّان محل المُختبرات التي لا تملكها. الأولى، وهي الطريقة النظرية، التجريد العلمي، الذي يجعل بالامكان التغلغل في العمليات المخفية عنّا وغير القابلة لأن تتكرر بصرياً. الطريقة الثانية معروفة في المبحث التاريخي على أنها الطريقة المُقارنة. يُمكن بمُساعدة هذه الطريقة التوسّع في مجال المُراقبة التاريخية، والتي يُمكن بنتيجتها تفسير العمليات المُتمثلة في المراحل والمُتتالية في أماكن مُختلفة وتكميل بعضها البعض: أ- يُمكن بفضل ذلك العثور على الروابط المفقودة في العملية، وأخيراً ب- يُمكن إعادة بناء السلسلة التطورية.

وهكذا، بالنسبة إلى مبحث التاريخ، لا يُمثل الواقع العلمي في "عدم قابلية إعادة إنتاج" الحقائق أي عقبة أمام الحصول على الحقيقة الموضوعية أكثر مما هو عقبة للعديد من مجالات العلوم الطبيعية التي تتميز حقائقها بنفس السمة. يُمكن إيجاد ما يُميّز حقائق المبحث التاريخي عن حقائق العلوم الطبيعية في التعارض الرابع. ولكن قامت الكانطية الجديدة بتشويه جوهر الأمر تماماً¹. سعى ريكتر والعديد من أنصاره لتفسير علم التاريخ بأنه علم الحقائق Science of Facts، مُنكرًا أن التاريخ هو علم قوانين التطور التاريخية الموضوعية. ولكن الحقائق، في منهجية التفكير التاريخي الريكترتي هي مقولة ذاتية وعابرة تماماً طالما أنه يُنظر إلى نسيج الحقيقة في المبحث التاريخي على أنه نظام مُعيّن من "القيم الثقافية". غير أن مثل هذه "الحقيقة" بالذات، المُطلقة في تفردّها وعدم قابلية إعادة تكريرها هي التي أُعلن عنها أنها "تاج ابداع" المؤرخين و"مغزى جوهر" مبحث التاريخ. من وجهة النظر الماركسية للتاريخ، فإن حقائق المبحث التاريخي، التي تُعتبر أساس المعرفة التاريخية، ليست من ناحية أُخرى الهدف النهائي للمبحث، على الرُغم انتسابها إلى مكانة "شرفية" في سردية التاريخ أكثر من دور الحقائق في العلوم الطبيعية. تكمن الأهمية الأساسية للحقائق في المبحث التاريخي في أنها تعكس الواقع الذي انقضى إلى الأبد والذي لا يُمكن استعادته، في حين أن الحقائق في العلوم الطبيعية عادةً ما تكون خالية من أي دور "بديل" مُماثل. علاوةً على ذلك، كما لاحظنا سابقاً، تحدث الحقائق التاريخية، على مستوى الأحداث، مرةً واحدةً ولا تتكرر، بينما يكون مجال التكرار واسعاً على مستوى البناء الاجتماعي. بقدر ما يتعلق الأمر بحقائق الطبيعة، فإنها لا تتكرر وحسب، بل يُمكن إعادة تكرارها تجريبياً بعدد لا حصر له من المرات تقريباً. ولكن الأهمية العلمية للحقائق في فروع المعرفة المُتشابهة، مُتطابقة. لا تظهر الاختلافات إلا في مرحلة بناء النظرية. بالنسبة إلى عالم الطبيعة، الحقيقة في هذه المرحلة هي مُجرّد حصن وأساس وسقالة للتوصّل إلى النتيجة النهائية. بعد التوصّل إلى النتيجة تفقد الحقائق العلمية على هذا النحو أهميتها، ويتم إزالة "السقالات"، لأنها تصطدم مع بناء "النظرية النقية". إن دور الحقائق في المعرفة العلمية التاريخية يختلف عن ذلك. يجب على الباحث هنا، أن يتحرك نحو النظرية بأقصى قدر من الحفاظ على من المعنى المُدرّك لنسيج الماضي الحقائق، لأن على الحقائق هنا، أن تُظهر نفسها كتجسيد لمنطق التاريخ الداخلي، وهو الشكل الذي تتمظهر فيه انتظاماتها. وهكذا، حقائق العلم بالنسبة إلى المؤرخ هي أساس المعرفة العلمية وتجسيدها في نفس الوقت. لهذا السبب بالذات يُقدّر المؤرخ كل

¹ - See above, pp. 8-11

حقيقة تاريخية أصيلة. وكلما زاد ربطها (ربط الحقيقة) بالمنظومة، زادت احتمالية ليس فقط التوصل الى استنتاج نهائي وحسب، بل وإمكانية الاقتراب من جوهر الظواهر والعمليات أيضاً.

في هذا الصدد، علينا أن نعالج مسألة عبئ القيمة التي تأخذها الحقيقة على عاتقها في المبحث التاريخي. لقد سبقَ ولاحظنا أعلاه أنه يمكن إيجاد ثلاثة "شاشات" أو أنواع من الانتقاء، في طريق الدراسة قبل أن يتم التوصل الى "التاريخ الحقيقي": 1- انتقاء الحقائق في الزمن الذي تم "تسجيلها" فيه، أي في الوقت الذي تم فيه وضع المصدر. 2- الانتقاء الذي يؤديه الزمن (غزو "التاريخ الحي" للتاريخ المؤرخ في الوثائق). 3- انتقاء الحقائق في سياق البحث التاريخي. سبق أعلاه أن تمت مناقشة المُقدّمات الموضوعية لتحميل المصادر التاريخية عبئ القيمة. وهنا دعونا نُشير الى بعض الطرق التي تتجلى فيها القيم في المصادر. تجلّى إقبال كاهل "الحقائق الموثقة" بالقيمة في العلاقة بين الحقائق نفسها التي تنتمي الى مجالات مُختلفة من حياة المُجتمع (على سبيل المثال، الانتاج المادي من جهة، والحملات العسكرية من جهةٍ أُخرى). هذه العلاقة هي عملياً انعكاس لهرمية القيم في عقول "جامعي" السجلات وما الى ذلك. إضافة الى ذلك، نفس طرح القيمة هذا مسؤول عن الحاجة الى التمييز بين مستويين على الأقل من "معلومات" المصادر: 1- العالم كما يظهر بالنسبة الى وعيهم (الخارجي، الصريح)، و2- العالم كما يظهر على مستوى ما هو غير مقصود (داخلي، غير مُتعمد، غير محسوب، مُسجّل في نظام مُختلف من الرموز، أي بلغة العادات والمعايير الأخلاقية، الخ). في المستوى الأول، من الواضح أن "الرسائل" ستكون مُحمّلة بقيم الطبقة الاجتماعية المعنية (الطبقة التي ينتمي اليها "جامعو" المصادر)، بينما في المستوى الثاني ستحمل الرسائل قيم ذات طابع انثروبولوجي (اثنية، نابعة من التقاليد، الخ). أما القيم الايديولوجية، فهي تُحدد بشكلٍ رئيسي ما الذي رأوه وشهدوه. هذه هي الطريقة التي تُوضَع فيها الحقائق في اللحظة التي يتم فيها تسجيلها. سنتخطى الحديث حول عُنصر "استبعاد" الزمن لمصدر ما، بالرغم من أن هذا الأمر مؤسف، الا أنه عَرَضِي. دعونا الآن نَسْرِع في مُعالجة مسألة انتقاء الحقائق في سياق البحث التاريخي.

نحن نعلم أن المبحث التاريخي، يستخدم، من أجل التغلّب على الخضوع لـ "النظرة الذاتية" لـ "صانعي" المصادر التاريخية، يستخدم ترسانة من التكنيكات التي تطورت على مر القرون وأُطلق عليها "النقد الخارجي والنقد الداخلي للمصدر". ولكن ليس هذا هو كل شيء في مسألة موضوعية البحث التاريخي. يُشير مُمثلو المبحث التاريخي اليوم في عملية البحث، الى تنوعات طبيعة الوعي الاجتماعي واستجابة وسلوك وتوجهات البشر القيمية في فترات مُختلفة كأنها "دليل" على أنه يستحيل من حيث المبدأ تحقيق معرفة تاريخية تعكس بشكلٍ كافٍ ما حدث في الماضي. يُزعم أنه بسبب أن العصور المُختلفة تتحدث بلغاتٍ مُختلفة حيث لا يكون للمفاهيم المُتطابقة معانٍ مُختلفة تماماً وحسب، بل حتى أن بُنية التفكير كلها تختلف من عصر الى عصر، نقول، يُفترض أن يواجه المؤرّخ بسبب ذلك إما خيار "إزالة نفسه" تماماً من الاطار الفكري لزمه وأن يُحاول أن "يقول ما لديه" بلغة العصر الذي يدرسه، أو أن يواجه خيار الاعتراف بعدم إمكانية معرفة الماضي من حيث المبدأ، وأن يُنشئ عن قصد بُنى ذاتية تطبع "الموضوعات التاريخية" بخاتم عصره (أي عصر المؤرّخ)، وهذا ما هو سائد اليوم في ممارسة ما يُسمى بالسوسيولوجيا التاريخية.

ولكن، ما اختزله المبحث التاريخي البرجوازي الى مُشكلة في المعنى واللغة هو في الواقع مُشكلة معيار

الموضوعية في المبحث التاريخي، والذي تمتلك، (أي مُشكلة المعنى واللغة)، فيما يتعلق بجميع المشاكل الأخرى، بما في ذلك "اختلاف لغات العصور المختلفة"، أهمية ثانوية على خلاف ما يُعتقد. وهنا يكن الجوهر الابستمولوجي للنزاع حول مفهوم "الحقيقة التاريخية" في التحليل النهائي.

كيف يُمكن للمؤرخ أن يصل الى معرفة موضوعه بما يتطابق مع الواقع؟ كيف يُمكننا أن نعرف أن أي إعادة بناء للماضي التاريخي، يكون موضوعياً في طابعه، أي أنها (أي المعرفة) تُشكّل إعادة بناء دقيقة الى هذه الدرجة أو تلك للموضوع كنظام يتطور بإطراد؟ نحن نعلم أن نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية فقط هي التي طرحت إجابة شاملة على هذه المسائل على المستوى الفلسفي العام¹، والتي فيها يتم التغلب بالتساوي على التفسير التأملي والمادي المُبتدل واللاأدري والذاتي الذي يُميز "الفلسفة النقدية" لعملية الإدراك ومصادر ومحتوى المعرفة.

سنركّز اهتمامنا على المسائل التالية فيما يتعلق بتحليل الماركسية اللينينية للمعرفة التاريخية:

- 1- العلاقة بين الحقيقة العلمية للتاريخ وحقيقة التاريخ.
- 2- جوهر تعريف "المعرفة العلمية" في السياق الاجتماعي والتاريخي.
- 3- الحقيقة في المبحث التاريخي كوحدة ديالكتيكية للذاتي والموضوعي.
- 4- التجربة التاريخية كمعيار لصحة المعرفة التاريخية.

لنبدأ حديثنا حول أول هذه المسائل. نحن نعلم أن مُعارضة "الحقيقة العلمية للتاريخ" بـ "الحقيقة التاريخية"، ضمن حدود منهجية التاريخ الماركسية، تكشف الرابطة الداخلية (حتى إن كانت مُتوسّطة) بين ما "الأصلي" و"نُسخته"، بين الواقع التاريخي والواقع نفسه. لكن هذا يعني أنه يوجد بين قُطبي هذه الثنائية، اختلافات أساسية من ناحية، وتشابه لا يقل أهمية، من ناحية أخرى. من الواضح أنه يُمكن تمييز "الحقيقة" في نظام المعرفة والحقيقة "الأصلية" في نظام "التاريخي الحقيقي" على أن هناك ما هو أولي وهناك ما هو مُشتق، موضوعي وذاتي، بالإضافة الى ذلك، من حيث زمان ومكان وقوع "الحَدَث"، ومكان وزمان "تسجيلها" في المصدر، من ناحية، ومكان وزمان إعادة انتاجها في المبحث، من ناحية أخرى. في الحالة الأولى، تحكم "الحقيقة" -مُتجاهلين تصحيحات المصدر- قوانين يحكمها الواقع الموضوعي، بينما في الحالة الثانية تحكمها قوانين الحصول على المعرفة العلمية. يؤكّد لينين أن المادي "يرى أن العالم أكثر غنى، وحيويةً وتنوعاً مما يبدو"². فيما يتعلق بالتشابه، يجب أن يدور الحديث في المقام الأول حول تشابه المحتوى، أو بعبارة أخرى، أي مُلائمة ما يعكسه أحدهما للآخر، أي الحقيقة الموضوعية. كما نعلم، الحقيقة الموضوعية ليست التصريح القائل بأن المعرفة الواقع يتطابقان، بل أن إظهار أن هناك تطابق بهذه الدرجة أو تلك، أي اقتراب أو تزامن للأول مع الثاني.

وهكذا النقطة المُهمّة في المعرفة التاريخية كذلك، هي إعادة الانتاج العلمي للواقع التاريخي (وليس للواقع على هذا النحو) في الفكر، أي ليس تطابق الشيء ونسخته في الفكر. إن أكثر ما يسعى اليه الباحث الذي يشغل

¹ - See V. I. Lenin, -PSS, vol. 18, pp. 343 ff

² - المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم، 1981، ص144

مكاناً مادياً هو التقريب الأقصى للصورة مع الواقع، مع معرفته الواعية بأنهما لن يتطابقا أبداً. وهنا يكمن تقدم المعرفة بشكلٍ عام وتقدم المعرفة التاريخية بشكلٍ خاص.

وبالتالي، فإن الحقيقة الموضوعية لا تعتمد بأيِّ حالٍ من الأحوال على الفرد المُدرِك، على الانسانية¹. بعبارةٍ أخرى، إن عدم اعتماد الوجود التاريخي على انعكاسه في العقل هو السمة الحاسمة وجوهر "حقيقة" المبحث التاريخي.

من الواضح أنه ضمن حدود منهجية التاريخ، لا تتمثل النقطة في الاعتراف بالحقيقة الموضوعية على هذا النحو، ولكن ما إن كانت المعرفة التاريخية الموضوعية الصحيحة مُمكنة أم لا، وإن كانت مُمكنة، فبأي وسائل وبأي طُرُق يُمكن الحصول عليها؟ هذا السؤال ذو الأهمية الكبيرة ليس فقط للعلم بل للمجتمع ككل، كما سبقَ ولاحظنا، غير موجود بالنسبة للمؤرخين البرجوازيين اليوم. تتجسد مصداقية المعرفة التاريخية، بالنسبة لهم، في التأكد من أن "لغة" المؤرخين لا تحتوي على تناقضات منطقية. إن هذه النظرة للتاريخ، المحرومة من معيار للحقيقة الموضوعية، تُعلن أن مقولة الحقيقة الموضوعية ذاتها هي مقولة "ميتافيزيقية" و"تأملية" وما الى ذلك².

ندد لينين بمثل هذه المظاهر من اللادرية والذاتية في جدالاته مع النقاد التجريبيين: "هل للأرض تاريخ مُحدد وضعته الجيولوجيا؟... هل من الجائز حقاً تجنّب هذا السؤال؟... "بالإضافة الى ذلك، يُكرر لينين بشكلٍ أساسي نفس السؤال عند ولكن الآن فيما يتعلق بالتاريخ باعتباره موضوع المبحث التاريخي: "هل معرفة تاريخ الأرض وتاريخ البشرية (لا تتسم بأهمية فعلية يا تُرى؟ ان هذا مُجرّد لغو مُزوّق"³. تُقرر الماركسية مسألة الأهمية الأولية للمعرفة العلمية الطبيعية والتاريخية على حدٍ سواء، على الرغم من أنها تُقرر أن تأكيد صحة المعرفة في الحالة الثانية أصعب منه في الحالة الأولى.

كَتَبَ لينين: "فيميناً وشمالاً، نثرَ دوهرينغ، في أعقد مسائل العلم على العموم ومسائل علم التاريخ على الخصوص، كلمات: الحقيقة الخالدة، النهائية، الأخيرة. فسخرَ منه انجلز ورد عليه: توجد بالطبع حقائق خالدة، ولكنه ليس من الذكاء في شيء استعمال كلمات كبيرة للإشارة الى أشياء بسيطة"⁴. ومع ذلك، فإن الطريق الى الحقيقة الموضوعية أكثر تعقيداً وصعوبةً في مجال التاريخ منه في مجال العلوم الطبيعية. هذه الحقيقة الموضوعية تواجه في طريقها مُشكلتين تنفرد بهما، تنبثقان من الحقيقة الأساسية التي مفادها أن البشر، الواعين، هم الذين يصنعون التاريخ⁵. هذه مسألة، في المقام الأول، تُميّز الهدف الذاتي عن المُحتوى الموضوعي لنتائج أفعال البشر. لكن هذا ثانوي. على عكس العلوم الطبيعية، يواجه الباحث التاريخي، في طريقه الى الحقيقة الموضوعية مسألة "موقع" الباحث نفسه "المُنقل" بانتمائه الى مُجتمع مُحدد تاريخياً، وبيئة طبقية مُعينة، ومن ثم الى مدرسة فلسفية مُعينة، وما الى ذلك، استحالة وجود أي دراسة تاريخية غير مُتحرّبة

1 - نفس المصدر، ص139

2 - K. Bock, The Acceptance of Histories, Berkeley and Los Angeles, 1956 , pp. 86 ff

3 - المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم 1981، ص148

4 - نفس المصدر ص149

5 - K. Marx and F. Engels, Izbrannye pis'ma, MOSCOW 1955, p. 423

"خالية من الايديولوجيا" فوق الطبقات بحيث يُمكنها أن "تتخذ موقفاً مشتركاً للبشرية جمعاء". هذا مُستحيل. نظراً لأنه تمت مناقشة أول مسألتين أعلاه، ولا تزال المسألة الثالثة أماننا، سنقتصر على التصريح التالي. لكي يكون التفكير التاريخي صحيحاً، ولكي لا يكون محتواه ذاتياً بل موضوعياً، يجب أن يرتكز على معيار تجربة المُجتمع التاريخية¹.

كَتَبَ ماركس في أطروحته حول فويرباخ: "ان معرفة ما اذا كان التفكير الانساني له حقيقة واقعية ليست مُطلقاً قضية نظرية، انما هي قضية عملية. ففي النشاط العملي ينبغي على الانسان أن يُثبت الحقيقة"². يُشدد لينين، فيما يتعلق بأطروحة ماركس الأولى حول فويرباخ أنه "يجب أن تكون وجهة نظر الحياة، وجهة نظر الواقع العملي وجهة النظر الأولى والأساسية في نظرية المعرفة"³. ان خبرة التاريخ (بما في ذلك خبرة البحث) تُحوّل تعارض الذات والموضوع الى وحدة دياليكتيكية، تُطبّق في عملية تحصيل المعرفة. يتضح مبدأ الموضوعية بالنسبة الى المؤرخ فيما يلي:

أ- اعتبار تاريخ المُجتمع كمنظومة لعلاقات مترابطة، تشتمل، على أساس التحدد المادي "النهائي"، على وظيفتها وتطورها.

ب- مُعالجة تاريخ المُجتمع من وجهة نظر الصراع الطبقي، أي التناقض الاجتماعي الحاسم. (تكمّن الطبيعة غير الكافية للموضوعانية في حقيقة أنه لا يتم مُتابعة التحليل حتى نهايته، حتى جوهره، أي الى أساس الظواهر ومحتوى العلاقات الطبقيّة)⁴.

ج- مبدأ التحزب في العلم، أي قُدْرته على التمسك بوجهة نظر الطبقة الاجتماعية التي يفتح موقعها التاريخي الموضوعي الطريق الى الوضع الأكثر ثوريةً وانتقاديةً في البحث التاريخي. لهذا السبب فإن مبدأ التحزب في التاريخ الماركسي هو تعبير عن ضمان موضوعية المعرفة التاريخية. لاحظ بليخانوف: "وحيثما يتعين على المؤرخ وصف الصراع بين قوى اجتماعية متضادة فإنه سيتعاطف حتماً مع طرفٍ أو آخر... ومن هذه الوجة سيكون ذاتياً... لكن مثل هذه الذاتية لن تمنعه من أن يكون مؤرخاً موضوعياً تماماً اذا لم يبدأ في تشويه تلك العلاقات الاقتصادية الواقعية التي نمت على أساسها القوى الاجتماعية المتصارعة"⁵. ولهذا السبب بالتحديد، أعلنت الماركسية لأول مرة عن حزبيتها، وفي هذه الحالة، هذا مُرادف لموضوعيتها العلمية. نحن نعلم انه لم يُدافع أحد عن مبدأ الحزبية في العلوم الاجتماعية بشكلٍ منهجي أكثر من لينين. لكن في الوقت نفسه، لم يُطالب أحد بالحقيقة التاريخية أكثر مما فعل هو: "ولكن يجب أن نكتب... بدقة مُطلقة ما هو موجود"⁶، وكتب: "من المستحيل عدم الاعتراف بما هو موجود: ان الواقع سيفرض نفسه بنفسه"⁷، و"يجب أن يتضمن التاريخ ما تم اثباته بشكلٍ واقعي"⁸.

د- وأخراً، مبدأ تكامل المعرفة. موضوعية البحث في تعريف لينين لا تعني الأمثلة، ولا الاستثناءات، بل الشيء نفسه⁹.

1 - V. I. Lenin, -PSS, vol. 29, pp. 19 ff

2 - مختارات ماركس وانجلز من أربعة مجلدات-المُجلد الأول، دار التقدم 1975، ص38، 37

3 - المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم 1981، ص161

4 - Ibid., vol. 1, p. 455

5 - في تطور النظرة الواحدة الى التاريخ، بليخانوف، دار التقدم 1981، ص208

6 - مختارات فلاديمير لينين في 10 مجلدات، المجلد الثامن، دار التقدم 1977، ص468

7 - نفس المصدر، ص471

8 - V. I. Lenin, -PSS, vol. 38, p. 154

9 - V. I. Lenin, -PSS, vol. 29, p. 202

نحن نعلم كم كان لينين قليل التسامح مع اولئك المولعين بـ"اللعب بالأمثلة"، وبالتمسك التعسفي بـ"الحقائق الصغيرة المُنفصلة" كَتَب: "ان اخذ المرء الحقائق في مُجملها، في ترابطها... فهي قاطعة بلا شك. أما ان اقتطعت الحقائق المُنعزلة من سياقها... ان كانت مُجزأة وتعسفية... فلن تكون أكثر من لعبة...¹. وبالتالي فإن مُطالبات لينين بأن يقف المرء على أساس يتكون من حقائق دقيقة لا جدال فيها لا يُفهم على أنه مجموع بسيط من الحقائق المعزولة، بل كمجموعة يُمكن أن تظهر فقط بشرط أن يتم الاضاءة الكاملة على الحدث وعلى مُجمل العلاقات الضرورية².

وهنا يكمن معنى فرضية لينين: لكي يكون التحليل علمياً حقاً، يجب أن "لا يقوم على تأملات مُجرّدة بل على دراسة دقيقة لما حدث بالفعل في تطور البشرية التاريخي"³.

ومع ذلك، فإن الاعتراف بالتجربة التاريخية الاجتماعية كميّار للحقيقة الموضوعية لا يعني رفعها الى مُستوى المُطلق. تحمل التجربة الاجتماعية، مثل أي ظاهرة للواقع والوعي الذي يعكسه، بصمة الزمن. انها، الى جانب التطور التقدمي للمُجتمع، ترفع نفسها باستمرار، الى مستويات تاريخية جديدة نوعياً.

ان الأساس الموضوعي لعملية توسّع نطاق الرؤية التاريخية المُستمر، موجود في الثراء الذي لا ينضب للحقيقة التاريخية، في لانهائية جوانبها وارتباطاتها، وبالتالي بين حدود المعرفة المتاحة حتى اللحظة. لكن الطرف القائل، بأن كُل عصر، ووفقاً لمتطلباته، "يقترح" حقائق وارتباطات حقائقية جديدة للباحث، لا يُمكنه بأي حالٍ من الأحوال أن يكون حُجّةً لصالح نسبية وذاتية المعرفة التاريخية. لا تختلف المعرفة التاريخية، في هذا الصدد، بأي شكلٍ من الأشكال عن تلك الموجودة في العلوم الطبيعية: في التاريخ "تتراكم" الحقيقة Truth كما تفعل في العلوم الطبيعية. بالاضافة الى ذلك، ان حقيقة أن المنظور التاريخي يُستبدل بمنظور آخر هي شهادة مُقتعة على عدم استنفادية الحقيقة التاريخية. ولهذا السبب بالذات "يستطيع التفكير البشري بحُكم طبيعته أن يُعطينا وهو يُعطينا الحقيقة المُطلقة التي تتكون من مُجمل الحقائق النسبية. وكل درجة في تطور العلم تُضيف ذرات جديدة الى مُجمل الحقيقة المُطلقة هذا، ولكن حدود كل موضوع علمية هي حدود نسبية لأنها تتسع تارةً وتضيق تارةً من جراء نمو المعرفة اللاحق"⁴. في علم التاريخ أيضاً، يكون ازدياد عمق الاستيعاب العلمي للواقع هو جوهر التقدم.

يترتب على ذلك أن المؤرخ، يكتشف حتماً، عند مواجهته مسألة الحقيقة Truth، البنية المُعقدة لحقائق العلم التاريخي التي تعكس دياكتيك الفكرة والشيء، الذاتية والموضوعية، الصحيح والخاطئ. ان دور الجهاز المفاهيمي في البحث التاريخي واسع. هذا هو بالضبط ما يُفسّر الطبيعة المُتناقضة لعملية المعرفة التاريخية، والتي يتبدى فيها الأوقات التي يظهر فيها الركود المؤقت للمفاهيم بالنسبة الى مقدار الأبحاث التاريخية، والأوقات التي تتقدم فيها المفاهيم على المبحث. ان تحسين المفاهيم السائدة والمقارنة المُستمرة بينها وبين

¹ - Ibid., vol. 30, p. 350

² - Ibid. Compare L. N. Kagan, "0 spetsifike primeneniia kriteriia praktiki v istoricheskoi nauke," in the volume Praktika - kriterii istiny, MOSCOW, 1960, pp. 241 ff

³ - V. I. Lenin, -PSS, vol. 4, p. 36

⁴ - المادية ومذهب النقد التجريبي، فلاديمير لينين، دار التقدم، 1981، ص152، 151

الخبرة البحثية ونتائجها هو المسار الذي يُمكن من خلاله التغلغل في الطبقات الأساسية للعصور التاريخية. في الختام، يبقى لنا أن نُجيب على هذا السؤال: هل التغيير في صورة الماضي الانساني بمرور الوقت يعني "إعادة كتابة التاريخ من قِبَل كُلِّ جيل"، أن البحث التاريخي محكوم بالتسلسل الحالي للظروف؟ هل هو "ذاتي"؟ وخاضع "لخدمة احتياجات اللحظة"؟ أم أن ما يدور هنا هو انعكاس خاص للتفاعل بين الممارسة الاجتماعية في زمنٍ مُعيّن ومفاهيم التاريخ كمبحث؟

نحن نعلم أن صورة العالم تتغير باستمرار، ولكن ليس فقط في مبحث التاريخ. كل العلوم، بما في ذلك الفيزياء وعلم نشأة الكون والبيولوجيا تُعيد النظر باستمرار ليس فقط في تفاصيل تلك الصورة بل الصورة ككل أيضاً. ولكن، لا يخطر ببال أي شخص اعتبار هذه "الثورات" وإعادة البحث، دليلاً على ذاتية تلك العلوم وعدم قُدرتها على طرح معرفة موضوعية. ولكن لماذا إذاً يتم تفسير عمليات إعادة البحث التاريخية تلك في المبحث التاريخي على وجه التحديد بهذه الطريقة؟¹.

هناك طرفين مسؤولين عن هذا في رأينا. أولاً، هناك ظرف موضوعي: التطور الاجتماعي يحدث بسرعة أكبر بما لا يُفاس من تطور عناصر الطبيعة، وبالتالي تُوقّر التجربة في هذا المجال حُججاً لإعادة دراسة الصورة العلمية لموضوع البحث بشكلٍ متكررٍ وأسرع مما يحدث في العلوم الطبيعية. لذلك يجب اعتبار دور المنظور التاريخي في تحصيل المعرفة التاريخية كعامل يُعزز موضوعية المعرفة. الطرف الثاني ذاتي. التاريخ، الذي يعكس بوعي أو بغير وعي موقف الطبقات المُستغلة، يُثقل حتماً بـ"القيّم العابرة" و"المصالح"². في مثل هذه الحالات، يتم استخدام مجال التاريخ لأغراض مُعادية للتاريخ بعمق. إن التاريخ الماركسي، الذي يعترف بحزبيته صراحةً، يستهدف بجوهره مُعالجة التجربة التاريخية للشعوب مُعالجة علمية. هنا، يُمكن أن تستند إعادة دراسة النظرات العامة فقط على الاعتبار العام للعلم نفسه.

وهكذا، في حين أن نظرتنا للتاريخ تتغير بسرعة نسبياً، وفي حين أن الماضي يطرح لنا باستمرار جوانب جديدة، فإن هذا يعني فقط أن خبرتنا التاريخية قد اتسعت وتعمقت. نظراً لأن عدد الأحداث-كحقائق موجودة في المصادر التاريخية محدود نسبياً، في حين أن عدد الحقائق وارتباطات الحقائق هي بدون حدود، فإن اكتشاف جوانب جديدة من الروابط والصلات والتحوّلات غير المعروفة سابقاً سوف يستمر في المستقبل بتقديم المعرفة التاريخية.

ترجمة لمقالة:

M. A. Barg (1977) The Historical Fact: Structure, form, Content, Soviet Studies in History, 16:1, 3-47

1 - كتب لينين عن مثل هذه التجارب أنها "نموذج بالغ الإثارة عن مدى التشويه الذي يلحق بصورة الوقائع الفعلية عندا يُنظر إليها من زاوية نظرية --- مغلوبة".

تطور الرأسمالية في روسيا، فلاديمير لينين، ترجمة فواز طرابلسي، دار الطليعة 1979، ص139

2 - لا يُمكن الخلط بين أنواع مُختلفة من التجارب الذاتية في كتابة التاريخ والتي تُملئها اعتبارات عابرة، وبين عملية تطور المبحث التاريخي الا ان نظر المرء للأمور من الخارج. ولكن هذا يعني أن المعرفة التاريخية التي تستند الى هذا المعيار، وتجعل إعادة انتاج الصورة الصحيحة الموضوعية للماضي الانساني مُمكنة في كل حُقبه مُعطاة- تُقدّم صورة دقيقة للواقع وتقريبية بهذه الدرجة أو تلك.

ملاحظات حول معنى التاريخ



نيكولاي يوسيفوفيتش كونراد*

قبل سنوات قليلة من موته، كتب انجلز في رسالة الى ميهرينغ أنه هو ماركس في أعمالهما "لم يكن لنا من بُد من وضع التشديد الرئيسي في المحل الأول، على اشتقاق المفاهيم السياسية والحقوقية وغيرها من المفاهيم الايديولوجية، واشتقاق الأفعال الحادثة بوساطة هذه المفاهيم من الوقائع الاقتصادية الأساسية" وهو قد أكد أنه "بيد أننا حين فعلنا ذلك، أهملنا الجانب الصوري-الطرق والوسائط التي نشأت بها هذه المفاهيم، الخ-من أجل المضمون". هذه المفاهيم، يُشير انجلز، هي "عملية فكرية يشتق الايديولوجي "شكلها ومضمونها على حدٍ سواء من الفكر الخالص، سواءاً أكان فكره أو فكر أسلافه"¹.
يترتب على هذه الكلمات، أن التشديد الذي قام به ماركس وانجلز على البحث في القوانين الموضوعية لتطور المجتمع الانساني، لا يُمثل انكاراً من جانبهم لأهمية الأفكار والحاجة اليها للتعبير عن فهم مُتعدد الجوانب للعملية التاريخية. ونجد أيضاً المعنى الفلسفي للتاريخ في تشكّل مثل هذه الأفكار.

* الماركسي نيكولاي يوسيفوفيتش كونراد 1891-1970، مُستشرق سوفيتي، حاصل على دكتوراه في الفيلولوجيا وأكاديمي في أكاديمية العلوم السوفييتية 1958.

تخرّج من القسم الصيني الياباني التابع لكلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبورغ عام 1912. دَرَسَ اللغتين اليابانية والصينية والثقافة اليابانية الكلاسيكية في جامعة طوكيو أعوام 1914-1917. كان استاذاً في معهد لينينغراد للغات الشرقية الحية منذ عام 1926-1938. في الوقت نفسه عمل استاذاً في المعهد الجغرافي لجامعة لينينغراد. كان باحثاً في معهد الدراسات الاستشرافية التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية منذ عام 1931. كان استاذاً في كلية موسكو للدراسات الاستشرافية في جامعة موسكو الحكومية منذ عام 1941-1950، وعضو في قسم الأدب واللغة في أكاديمية العلوم السوفييتية منذ عام 1958.

كان مجال اهتمامه يشمل الأدب الياباني الكلاسيكي والحديث، والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ليابان العصور الوسطى ونظام التعليم الياباني والفلسفتين اليابانية والصينية واللغويات. نُشِرَ ترجمات لعدد من كُتُب الأدب الكلاسيكي الياباني باللغة الروسية. حَصَلَ على وسامين لينين عامي 1945 و1954، ووسام الشمس المشرقة الياباني عام 1969. من مقالاته: (حول اللغة الصينية) 1952، (مُختصر تاريخ الأدب الصيني) 1959، (أدب شعوب الشرق ومسائل حول المعرفة الأدبية العامة) 1961. (شكسبير وعصره) 1964.

¹ - مراسلات ماركس وانجلز، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب، دار دمشق 1981، ص538، 539

لمعرفة التاريخ في هذا الصدد، هو أن نعرف الشيء نفسه، أي التاريخ كما هو بالفعل. ان كل موضوع، فريد من نوعه، ويتطلب رؤيته فلسفياً، معرفة لكل من خصائصه الخاصة والعامه، ومعناه الخاص والعام. لذلك عند بحث التاريخ من وجهة النظر الفلسفية، يجب أن نبدأ بالكشف عن معنى التاريخ والخصائص العامة للعملية التاريخية. ومع ذلك، فان هذا الكشف لا يسير في اطار ما يُشار اليه بنظرية التاريخ. ترتبط نظرية التاريخ بالقوانين التي كشف عنها مجراه، والفاعلة في مُختلف مجالاته الانسانية. تكتشف نظرية التاريخ هذه المبادئ، وتستخلص منها قوانين التاريخ، وأحد هذه القوانين، على سبيل المثال، هو الطبيعة الديالكتيكية للعلاقة المُتبادلة بين الانسان والطبيعة المادية من جهة، وبينه وبين البشر الآخرين من جهةٍ أخرى. ان ديالكتيك العلاقة المُتبادلة بينه وبين الطبيعة يُعبّر عنها في حقيقة أنه في حين يعتمد وجود الانسان ونشاطه على الموارد الفيزيائية المتوفرة في الطبيعة والقوى الطبيعية، فان الانسان بدوره يؤثر عليها ويُسيطر على مواردها وقواها. يتجلى ديالكتيك العلاقة بين البشر في اعتماد البشر على بعضهم البعض في حياتهم ونشاطهم ووجود المشاكل المُشتركة التي تتطلب جهداً مُشتركاً من جهة، ومن جهةٍ أخرى، ينشُج عن وجود ضرورة تلبية متطلبات ومصالح مُتميزة داخل المجموعات المُختلفة، صراعاتٍ مُختلفة، تختلف في شكلها وشدتها وطبيعتها بين الجماعات والأفراد.

انه لقانونٌ تاريخي أن العامل الحاسم في العملية التاريخية هو النشاط الانتاجي للانسان، الذي يُعبّر عن درجة سيطرة الانسان على موارد وقوى الطبيعة ومستوى تطور القوى المُنتجة المُرتبطة بها من ناحية. ومن ناحيةٍ أخرى، يُعبّر عنه من خلال مُحتوى الأهداف المطروحة على الانسان في حياته الاجتماعية بالاقتران مع الدرجة التي يُقر بها بهذه الأهداف ويريد تحقيقها. انه قانونٌ تاريخي أن علاقات البشر الانتاجية تختلف وتعتمد على مستوى تطور قوى الانتاج. انه قانونٌ تاريخي أيضاً أن علاقات الانتاج تُحدد العلاقات الاجتماعية للانسان، والتي تقوم على مستويات مُختلفة من المساواة أو عدم المساواة الاجتماعية، التي تؤدي، في حالة المساواة الاجتماعية، الى النهوض بالمصالح المُشتركة وما يترتب عليها من حاجة الى جهود مُشتركة، وغلبة مصالح جماعات مُعينة، والصدامات الناتجة عنها في حالة عدم المساواة الاجتماعية. كما أن التاريخ ليس في جوانبه الفلسفية ما تُطلق عليه السوسولوجيا. تهتم السوسولوجيا بالتعميمات الشاملة حول طبيعة وخصائص الظواهر الاجتماعية والعلاقات بينها. تشمل السوسولوجيا، على سبيل المثال، على مسائل مثل التفرد النوعي للمبادئ السارية في مجال الظواهر الاجتماعية، والعلاقة بين الأفعال السببية الفردية وكُلية الظواهر الاجتماعية، بين الحرية والابداع الانساني الذي يسير بعقلانية نحو هدفٍ ما، والمبادئ العامة للحياة الاجتماعية.

تأخذ فلسفة التاريخ ما تؤسسه النظرية التاريخية وما تكتشفه السوسولوجيا في الاعتبار. ولكن يوجد لفلسفة التاريخ موضوع بحث خاص بها لا يُمكن اختزاله سواءً لافتراضات نظرية العملية التاريخية أو لصيغ السوسولوجيا. ان موضوع فلسفة التاريخ هو مُحتوى العملية التاريخية التي يتم بحثها من وجهة النظر الفلسفية، أي السؤال عن معنى العملية التاريخية واتجاهها وأهدافها، بعبارةٍ أخرى، مغزى التاريخ. عند اتباع هذا المسار، من السهل الوقوع في حبال الميثافيزيقيا: محاولة تفسير العملية التاريخية على أساس مبدأ أسمى يقف في مكانٍ ما خارج التاريخ. من السهل أيضاً اتباع طريق الاستمولوجيا: التفكير فيما اذا كان من المُمكن فهم التاريخ على الاطلاق وبالتالي شروط وقيود ونوعية وقيمة هذا الفهم، ويُمكن أيضاً اختزال فلسفة التاريخ الى الكشف عن الطبيعة المنطقية لموضوع التاريخ. يُمكن العثور على العديد من المقاربات

المُختلفة التي تبحث عن معنى التاريخ في تأملات الفلسفة لموضوع البحث التاريخي. هذا يُثبت فقط كيف يسعى الانسان باصرار الى فهم معنى حياته و حياة الانسان كما تسير تاريخياً. انه يُثبِت مدى ضرورة الاجابة على السؤال حول ما ان كان للنشاط التاريخي للانسان أي معنى وأي أهداف، وان كان الأمر كذلك، فما هي.

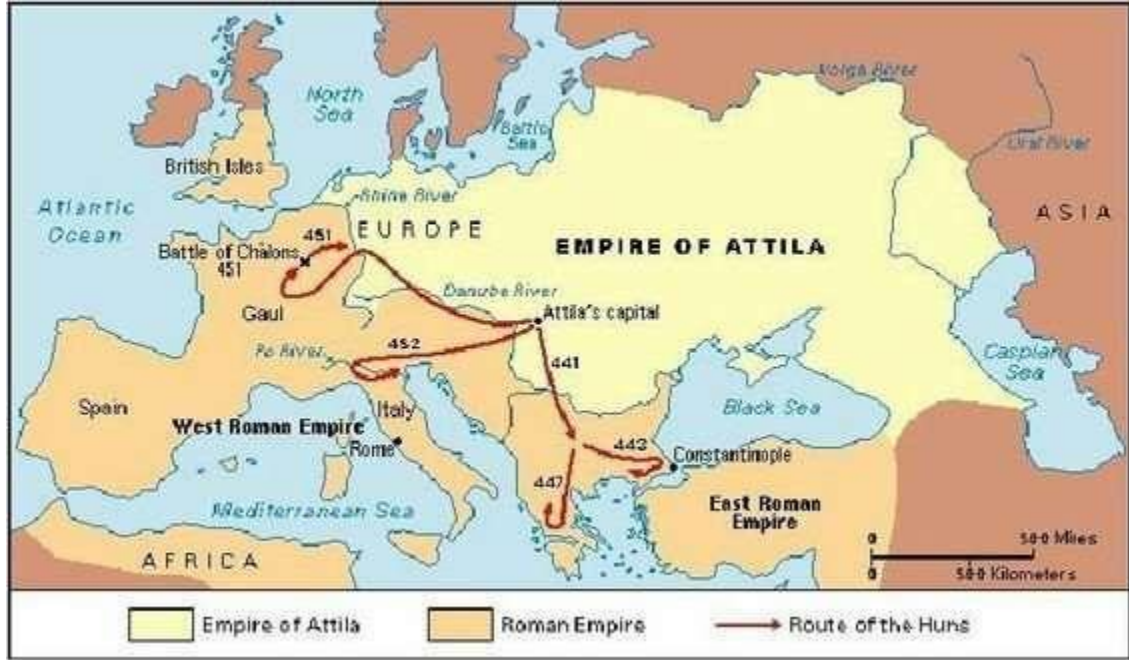
ان أفضل مُقاربة للبحث حول معنى التاريخ هو دراسته بشكلٍ مُباشر، والمُحاولة بأي طريقة تجنّب الخضوع لأي تصورات مُسبقة. يجب أن يكشف التاريخ نفسه يكشف عن معناه. من الواضح أن قبول هذا المفهوم بحد ذاته يضع قيوداً على استنتاجاتنا. ان كان التاريخ نفسه يكشف عن معناه، فهذا يعني أن جميع استنتاجاتنا مبنية على البيانات التاريخية الماضية، وحتى الى الدرجة التي فيها نعرفها. نحن نعلم جيداً كيف زادت معرفتنا حول الماضي بشكلٍ تدريجي، ومدى مساهمة الكشوفات في هذه المعرفة، وكيف لعِبَت دوراً في احداث تغيرات في المفاهيم التي بدى وكأنها راسخة. وكم من هذه الاكتشافات لم يأت بعد! ولكن حتى لو افترضنا أننا نعرف جيداً الخطوط العريضة للماضي الانساني وأن أي شيء جديد يُمكن اضافته الى معرفتنا التاريخية يتعلق فقط بالجوانب الفردية لهذا الماضي وتفصيله، فانه حتى في هذه الحالة، ستكون معرفتنا بالعملية التاريخية مُقيّدة بالضرورة بحدودها الخاصة في زمننا.

ان استنتاجاتنا فيما يتعلق بمسار الانسان في التاريخ الذي صنعه تستند الى الماضي. ولكن التاريخ لا ينتهي عندنا، وسيكون من المُنافي للتاريخ افتراض أن مساره سيتبع دائماً القناة التي اتبعها حتى الآن، أو تلك التي نتوقعها. لذلك، فان أي معنى للتاريخ الانساني يعتمد على ما نستخلصه من التجربة التاريخية الانسانية وما يُمكننا توقعه في المُستقبل على هذا الأساس. صحيح أن هذه التجربة ليست محدودة للغاية. لأننا حتى لو بدأنا في استعراض التاريخ منذ ظهور الدول الأولى، أي في الألفية الرابعة قبل الميلاد، فانه لدينا صورة متحركة لحياة البشرية مدتها ستة آلاف عام. يُمكن لهذه المُدة أن تعرض لنا الخطوط العامة للمسار الذي سلكته البشرية ومحتواه واتجاهه.

ومع ذلك، لا يزال هناك ظرف آخر يجعل بحثنا أكثر قابلية لأن يكون أكثر اكتمالاً ووضوحاً ويجعلنا أكثر فُدرَةً على التنبؤ بالمستقبل، أو على الأقل المستقبل القريب. هذا الظرف هو تجربتنا التاريخية الخاصة، تجربة عصرنا. تحدث لحظات في تاريخ البشرية لا تُشير فقط الى نهاية شيء مهم كان موجوداً سابقاً، ولكن تُشير كذلك الى بداية شيءٍ جديد. ونتيجةً لذلك، فهي تُسلط الضوء على المُستقبل. هذه اللحظات هي نقاط تحول ثورية.

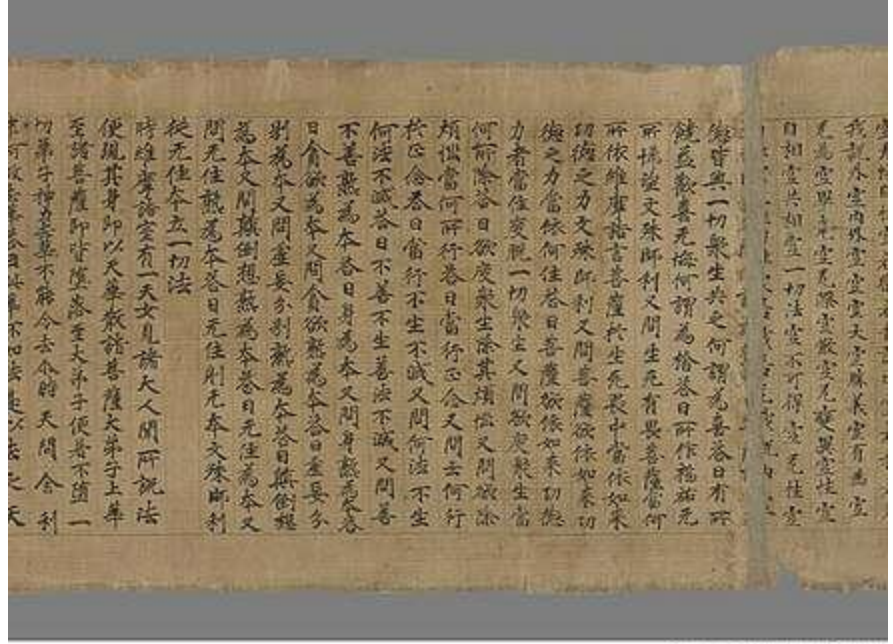
كانت نُقطة التحول الثورية الأولى هي انهيار العالم الذي تُسميه "المُجتمع القديم". كان هذا هو نظام العبودية اجتماعياً واقتصادياً، وكانت آخر معارقه الكُبرى امبراطورية هان في شرق آسيا، والامبراطورية الرومانية في جنوب أوروبا وشمال افريقيا والشرق الأدنى. انهار الأول في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، والثاني في القرنين الرابع والخامس. ولم تُقدّم هذه الأحداث صورةً كاملةً الى حدٍ ما عن الفترة السابقة وحسب، بل سلّطت الضوء على المُستقبل أيضاً. أظهر انهيار هذه الامبراطوريات أن العلاقات الاجتماعية-الاقتصادية التي انبثقت في زمنها صارت تظهر الآن على الساحة التاريخية، وأن المُستقبل يخص هذه العلاقات على

وجه التحديد، ونحن نقول عن هذه العلاقات الاقطاعية بأنها جديدة في زمنها.



امبراطورية الهان

يُثبت تاريخ الفكر الانساني أن هذه الأحداث أُلقت الضوء على المُستقبل. في هذه اللحظات من التاريخ على وجه الخصوص، سعى البشر لأن يصوروا المستقبل، بطبيعة الحال فانهم فعلوا ذلك في اطار مقولات عصرهم. في ذلك الوقت، تم تصوّر المستقبل في الصين وروما بمقياس الأديان التي ظهرت في العصور "القديمة" من وجهة نظر ذلك الوقت، ولكن ذلك لم يكن له مكانة مُهيمنة، الآن، ومع ذلك، في نقطة التحول التاريخية هذه، كانوا يتقدمون للسيطرة على المجال الايديولوجي للفترة التاريخية الجديدة. في الصين كانت البوذية، والمسيحية كانت في روما. في الشرق كان الفيمالاكيرتي سوترا Vimalakirti Sutra نصاً بوذياً عكس انطباعات عن المُستقبل مُعبّراً عن هذه الأديان. أما الغرب فقد عبّرت عن نفس الموضوعات نصوص كتاب "مدينة الرب" De civitate Dei.



نص الفيما الاكبرتي سوترا

كانت نقطة التحول الثورية الكبرى الثانية هي انهيار العالم الذي تُسمية مُجتمع القرون الوسطى. لقد كان من الناحية الاقتصادية-الاجتماعية عالم النظام الاقطاعي. جاء الوقت الذي انهيار فيه باعتباره النظام العالمي المُهمين. من بين الدول الكبرى التي حدث فيها هذا التحول في وقتٍ مُبكر انجلترا وفرنسا. حدث هذا في انجلترا في القرن السابع عشر، وفي فرنسا القرن الثامن عشر. أظهرت الأحداث أن مركز المرحلة التاريخية ستأخذ العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية الجديدة التي تشكلت مُسبقاً في رحم المُجتمع القديم. تُسمي هذه العلاقات بالراسمالية. بدأ شكل المُستقبل يتضح، ووجهت ألمع عقول تلك الحقبة أنظارها اليه. عبّرت هذه الأفكار عن نفسها بشكلٍ رئيسي في النصوص حول المُجتمع والحكومة بشكلٍ عام، لكن هذه النصوص كانت تعكس ما كان يحدث بالفعل. في ذلك الوقت، لم تكن هذه الخطابات والنصوص تعمل في اطار الدين، بل في اطار الفلسفة، ولا سيما الفلسفة الاجتماعية والسياسية. كان المُمثلون النموذجيون لهذا الفكر الفلسفي هم هوبز في انجلترا وروسو في فرنسا. صنّف ماركس هوبز مع المفكرين الذين "بدأوا بدراسة الدولة من خلال النظرة الانسانية واستنباط قوانينها الطبيعية من العقل والتجربة وليس من اللاهوت"¹. بينما قال عن روسو بأنه "استباق للمُجتمع البرجوازي"²، أي مُستقبل المُجتمع الذي كتب في زمنه.

حدثت نقطة التحول الثورية الثالثة ذات الأهمية لتاريخ العالم في القرن العشرين. كانت الثورات في روسيا والصين بشيراً لها. لقد شهدت بداية سقوط الراسمالية باعتبارها النظام العالمي المُهمين، وأظهرت أن المُستقبل ينتمي الى العلاقات الاجتماعية-الاقتصادية الجديدة التي بدأت تظهر في ظل ظروف النظام الراسمالي. نحن نُطلق على هذه العلاقات اسم الاشتراكية، وهي ليست الا المرحلة الأولى للشيوعية. في ضوء تلك المُتطلبات الأساسية للنظام الاجتماعي الجديد، كان أكثر المفكرين الاجتماعيين تقدماً يتطلعون الى

¹ - Marx, K., and Engels, F soch, Vol.1 2d ed p. 111

² - نقد الاقتصاد السياسي، كارل ماركس، ترجمة راشد البرواي، دار النهضة العربية 1969، ص92

المستقبل. نَجَحَ ماركس وانجلز في استشراف هذا المستقبل حتى في القرن التاسع عشر. ومع ذلك، كان لنقطة التحول الثورية الثالثة هذه أهمية تاريخية مختلفة تماماً عن سابقتها. قبل هذا، حدث التحول في اطار اجتماعي وتاريخي كبير مُتطابق: في اطار المُجتمع الطبقي، في اطار العلاقات الطبقيّة المُتناحرة. ونتيجةً لذلك، حل نظام اجتماعي طبقي مُتناحر محل آخر، ولم يتغير سوى الخصوم الطبقيين. لقد غيّرت الثورة الاشتراكية مجرى التاريخ بشكلٍ جذري، فهي لم تؤدي الى استبدال بعض الطبقات بأخرى، بل أدى الى اختفاء الصراع الطبقي المعني. لذلك، فان نقطة التحول الثورية نحو الاشتراكية تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التحولات التاريخية السابقة. في حين كان سقوط نظام ملكية العبيد والانتقال للاقطاع وسقوطه والانتقال الى الرأسمالية يُشير الى تحولات من مرحلة في تاريخ البشرية الى أخرى في اطار نظام اجتماعي طبقي آخر، فان انهيار الرأسمالية والانتقال الى الاشتراكية، هو انتقال الى عصر اجتماعي جديد: عصر نظام اجتماعي مُختلف جذرياً، أي المُجتمع اللاتبقي. ان التحوّل الوحيد السابق الذي ربما يكون قابلاً للمقارنة هو انتقال الانسانية من مُجتمع بدائي لاتبقي الى مُجتمع طبقي. هذا هو السبب في أن الحُقبَة الحالية توفر امكانات أكبر من أي وقتٍ مضى لفهم الماضي والمستقبل، وهذا الأخير محدود بمنظورنا.

وهكذا، فان معرفتنا بالماضي، جنباً الى جنب مع فهم الماضي والمستقبل الذي تُقدمه لنا الحُقبَة الحالية، تسمح بادراك معنى التاريخ البشري وبالتالي تصوّر المفهوم الفلسفي للتاريخ. لا يُمكن القيام بذلك الا اذا ركزنا الانتباه على تاريخ البشرية ككل وليس على تاريخ مجموعة مُعينة من الشعوب أو البُلدان. ان مفاهيم مثل "أوروبا" و"آسيا" و"أفريقيا"، الخ، جُغرافية وليست تاريخية. انها في أحسن الأحوال جزء من الجغرافيا التاريخية. كما أن مفاهيماً مثل "الشرق" و"الغرب" لا يُمكن الاعتماد عليها بشكلٍ كبير. انها في أحسن الأحوال تُشير الى مجموعات مُعينة من الشعوب، ولكنها عُرضة للتغيير. وهكذا، كان لدى الصين القديمة والوسيلة مفهومها الخاص عن الغرب، والذي كان يشتمل على مناطق القارة الآسيوية التي أطلقنا عليها فيما بعد تركستان الشرقية وآسيا الوسطى.



تركستان الشرقية

بالنسبة للصينيين المُعاصرين، الغرب هو أوروبا وأمريكا. بالنسبة للرومان القدماء، كان الشرق يتألف من سوريا وفلسطين وبلاد فارس وأرمينيا وبلاد ما بين النهرين. بالنسبة لأحفادهم الايطاليين في العصور الوسطى صار الشرق يشمل بيزنطة. أما الايطاليين المُعاصرين، كما هو الحال بالنسبة لسكان أوروبا الغربية

فان الشرق هو تشيكوسلوفاكيا وبولندا ورومانيا والاتحاد السوفييتي. لذلك من المُستحيل انشاء تصوّر للعملية التاريخية على نسيج محصور في اطار مفاهيم أوروبا وآسيا، أو الغرب والشرق.



آسيا الوسطى

النسيج الوحيد المُمكن هو تاريخ البشرية الجمعاء، الذي يُشكّل موضوع التاريخ الحقيقي.



ثورة حُفاة الأقدام

ان مسار التاريخ الذي نعرفه يُثبت هذا قبل كل شيء. يكفي أن نقول أنه في اثنتين من نقاط التحول الثورية الثلاثة ذات الأهمية لتاريخ العالم، أي تلك من العبودية الى الاقطاع، ومن الرأسمالية الى الاشتراكية، كانت الانطلاقة مُتزامنة نسبياً على طرفي الأرض: الأولى في امبراطورية هان في الطرف الشرقي لقارة أوراسيا، والامبراطورية الرومانية في الغرب. الثانية في روسيا، أي في أوروبا، وفي الصين، أي في آسيا. حتى تشكّل النظام الرأسمالي العالمي بدأ في القرن السادس عشر في أحد أطراف العالم في هولندا واكتمل في القرن التاسع عشر في الطرف الآخر في اليابان. يُمكننا أن نذكر أيضاً، أن أعنف ثورات الفلاحين في صراعهم ضد الاضطهاد الاقطاعي، بدءاً من عشرينيات القرن السادس عشر مع حرب الفلاحين العُظمى في ألمانيا، ثم

النصف الأول من القرن السابع عشر، اجتازت العالم بأكمله تقريباً من فرنسا الى اليابان: في فرنسا من العشرينيات الى أربعينيات القرن السابع عشر (وبلغت ذروتها في ثورة خُفاة الأقدام va-nu-pieds عام 1639)، وفي روسيا في أول عقد من القرن السابع عشر (بلغت ذروتها في تمرد بولوتنيكوف Bolotnikov 1606-1607)، وفي تسعينيات القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر في تركيا العثمانية (انتفاضة كارا جاسيدي Kara Jassidji عام 1600)، وفي العشرينيات من القرن السابع عشر في بلاد فارس (انتفاضة ابييل باشا Abil pasha عام 1629) وفي العشرينيات الى الأربعينيات من القرن السابع عشر في الصين (بلغت ذروتها في انتفاضة لي تزو تشينغ Li Tzu-Ch'eng 1639-1645). وفي العشرينيات من القرن السابع عشر في اليابان (ثورة شيمابارا Shimabara 1637-1638).



تمرد بولوتنيكوف في روسيا

تُصنّف حرب الفلاحين العُظمى في الصين، من حيث الأهمية والنطاق، مع حرب الفلاحين العُظمى في ألمانيا. هذا ليس من قبيل الصدفة. لم تكن الصين في القرنين السادس عشر والسابع عشر أقل من ألمانيا من حيث التطور التاريخي. تتكشف الأهمية التاريخية العامة لهذه الانتفاضات فقط عندما تتم دراسة العملية برمتها، وعندها فقط يمكننا أن نرى أن هذه الثورات والانتفاضات "تمهيد" للثورات البرجوازية القادمة. عندها فقط يمكننا أن نفهم تماماً سبب ظهور أنظمة سياسية مُتطابقة (مع استبعاد الاختلافات المحلية بالطبع)، وهو النظام الذي يُطلق عليه الاستبدادية الاقطاعية في جميع البلدان التي حدثت فيها مثل هذه الحركات الشعبية. هل يُمكن فهم كل هذا ان حصرنا أنفسنا في اطار تاريخ دولة واحدة؟

يُمكن الاستشهاد بالعديد من بيانات أكثر فروع النشاط الانساني تنوعاً للتحقق من صحة اطروحتنا القائلة بأن دراسة التاريخ على نطاق عالمي فقط يكشف طبيعة الظواهر التاريخية في اكتماليتها وأهميتها. وهكذا، فان عصر النهضة، الذي بدأ في ايطاليا في القرن الرابع عشر، أخذ اسمه من حقيقة أن أناس ذلك العصر كانوا يقولون بأن الظواهر الجديدة في الفلسفة والأدب والفن هي ولادة جديدة ونهوض لفلسفة وأدب وفن أوروبا

القديمة في اليونان وروما. نحن على دراية تامة بهذه الحركة، لكن هل نفهم تماماً أهميتها التاريخية دون معرفة أن الصينيين بين القرنين الثامن والثاني عشر كانوا ينظرون الى تلك الظواهر بنفس الطريقة تماماً كنهضة (نهوض) لعصورهم القديمة؟ صحيح أن الصينيين لم يتحدثوا عن ولادة جديدة للعصور القديمة، بل عن عودة إليها، ولكن الأمر سيان في جوهره، حيث الحركة نفسها تطابقت في جوانب رئيسية من محتواها مع ما نلاحظه في إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. هذا يُجبرنا على طرح مسألة عصر النهضة على أنها ظاهرة تنبثق بشكل متوقع في مرحلة معينة من تاريخ مجتمعات القرون الوسطى بين الشعوب التي تمتلك تاريخاً طويلاً في العصور القديمة.



انتفاضة لي تزو تشينغ

ان تاريخ أي فرع من فروع المعرفة البشرية يتجاوز تاريخ أي شعب بمفرده. هناك العديد من العلوم التي ليس من الصعب اثبات أن اكتشافاتها تعود الى البشرية جمعاء. يُمكن للمرء أن يذكر أسماء فروع من الرياضيات مثل الحساب والجبر والتي تشهد على المشاركة المهمة للعرب في انشاءها. في الوقت ذاته، نحن نعلم كم يدين العرب أنفسهم للهيلينيين والهنود القدماء في هذا المجال بالذات.

يكشف لنا تاريخ المنطق عن ثلاثة مسارات للتطور في مجالات المعرفة النظرية: الصينيون، الهنود والأوروبيون. الأول هو الهيتوفيديا Hetuvidya أو المنطق البوذي، والتي تُطوّر أعمال أكشاباد Akshapad (القرن الثاني عشر قبل الميلاد). والثاني لـ مو تي Mo Ti (القرن الخامس قبل الميلاد)، والثالث لأرسطو (القرن الرابع قبل الميلاد). نحن نعلم أن كل مسار من هذه المسارات تطور بشكلٍ مُستقل، ولكننا نعلم أن مؤلفيها ناقشوا، بشكلٍ عام، نفس الموضوعات، وحتى ناقشوا تفاصيل صغيرة متشابهة مثل "الحد الأوسط"، ليس فقط في الأورغانون لأرسطو وحسب، بل في مخطوطات مو تي، ولكن بمصطلحاته الخاصة طبعاً. على أي حال، من الواضح أنه لم يرق أي فرع من فروع المعرفة النظرية لوحده بتطوير هذا النوع من المعرفة النظرية المهم جداً لتطور المعرفة الانسانية عموماً. ان المفاهيم المألوفة لنا، والتي تبدو لنا على أنها "أوروبية"، مثل الصوتيات واللسانيات والثويات، كانت معروفةً جيداً من قِبَل الصينيين منذ القرن

الثامن، والذين تعلموا عن هذه الأمور من الهنود. باختصار، يُمكن تقديم بيانات وافرة لاثبات أن التاريخ الانساني، حرفياً، هو تاريخ البشرية جمعاء، وليس تاريخ الشعوب الفردية والدول المُنعزلة، وأنه لا يُمكن فهم العملية التاريخية الا بالرجوع الى تاريخ البشرية. كل التاريخ يزخر بمثل هذه المُعطيات.

ومع ذلك، فان هذا لا يُقلل بأي حالٍ من الأحوال من أهمية تاريخ الشعوب كُلّ على حدة. ان كل شعب له تاريخه المُتميز وسماته الفريدة، كان كبيراً أم صغيراً. بل يُمكن القول أن التاريخ البشري يتجلى في تاريخ الشعوب الفردية ومن خلاله. التاريخ البشري ليس عملية غير مُشخصة. انه ملموس للغاية ويتكون من نشاطات الشعوب المنفردة. ولكن في نفس الوقت، يحدث كثيراً أن يتكشف بشكلٍ كامل المعنى التاريخي الذي يبدو مُميزاً لشعبٍ واحد، من خلال الوسيط التاريخي المُشترك للبشرية جمعاء. ان ثورة القرن السادس عشر في هولندا تُفسّر ببيانات من تاريخ هولندا السابق، وان اقتصرنا على ذلك فقط، فستبدو أنها حلقة في تاريخ ذلك البلد الصغير. لكن علينا فقط أن نأخذ في الاعتبار أن هولندا كانت آنذاك جزءاً من الامبراطورية الاسبانية، وأن نتذكر دورها في تلك الامبراطورية كمركز مالي وتجاري وحتى صناعي. يجب أن نضع في اعتبارنا أن هذه الثورة تَبِعَها توسّع استعماري من جانب هذا البلد الصغير، مُحْتَضنةً جنوب افريقيا وأجزاء من الهند وأندونيسيا، وهو توسّع وصلّ الى الطرف الآخر من العالم في ذلك الوقت، أي اليابان. نحن بحاجة الى تقييم مظهر شركة الهند الشرقية الهولندية بشكلٍ صحيح كأداة أولى للاستعمار الرأسمالي الجديد، لتحل محل الاستعمار الاقطاعي الاسباني والبرتغالي القديمين. عندما نضع هذه النقاط في اعتبارنا فان الثورة في هولندا تُصبح على الفور حدثاً مُهماً في تاريخ العالم. ربما يدفع هذا المؤرخين الى التفكير في السؤال التالي: ألا يجب علينا تأريخ بداية العصر الرأسمالي في تاريخ البشرية تحديداً انطلاقاً من الثورة في هولندا؟ مثال آخر. تُعد الثورة الروسية عام 1905 أساساً جزءاً من تاريخ الشعب الروسي. يُمكن تفسير أصلها ومحتواها وشكلها، وأخيراً مصيرها من خلال مُجمل معطيات التاريخ الروسي. لكننا نحتاج فقط الى أن نتذكر أن تلك الثورة، أعقبتها حركة ضخمة في اتساعها وعمقها أطلقَ عليها لينين استيقاظ آسيا. ان توسعنا في دراسة تاريخ هذه الثورة، خارج اطار التاريخ الروسي انطلاقاً من حركة استيقاظ آسيا، على نفس المنوال، فاننا سنكتشف عن جوهرها التاريخي بشكلٍ أفضل.

ان كل محاولة لفهم معنى العملية التاريخية تطرح السؤال التالي الذي لا مفر منه: هل هذه العملية لها أي معنى على الاطلاق؟ هل حتى لها أي اتجاه؟ يُشتق من الاجابات المُختلفة لهذا السؤال مفهومان لفلسفة التاريخ: الأول، أنه لا يوجد معنى، ولكن مُجرّد تكرار لانهائي لنفس الشيء. الثاني، أن هناك معنى، والتاريخ هو حركة مُستمرة الى الأمام. ان أوضح تعبير عن المفهوم الأول هو نظرية الدورة المُغلقة، بينما يُعبّر عن المفهوم الثاني بنظرية التقدم. كانت كلتا النظريتين تتعرضان للنقد. ليس من الصعب انتقاد نظرية الدورة المُغلقة. يُمكننا دائماً ايراد عدد من الوقائع لاثبات أنه لا يوجد حقبة جديدة تُكرر أي حقبة سابقة، حتى عندما تظهر خصائص مُتشابهة. سيكون من الصعب أن تجد أي شخص يُؤكّد أن الديمقراطية الأوروبية في القرن التاسع عشر كانت مُماثلة لتلك في أثينا القديمة، أو أن مبدأ الفوهرر للقرن العشرين في اطار نظام شمولي هو نفسه القتل الروماني، أو أن مسرحية فايدرا Phedre لراسين، هي مُجرّد نسخة مُعدلة من مسرحية هيبوليتوس Hippolytus للاغريقي يوربيديس أو أن تمثال مايكل انجلو Michel angelo المنحوت المُسمّى (موسى) Moses هو نفسه تمثال زيوس للاغريقي فيدياس Phidias.



منحوتة (موسى) لمايكل انجلو



تمثال (زيوس) للاغريقي فيدياس

هناك لوحة لهنري ماتيس Henri Matisse اسمها Still life with orange عام 1898 مشابهة بشكلٍ
مثيرٍ للدهشة للوحة الاقحوان والجرة chrysanthemum and jug للفنان الصيني تشين تشو Shen
Chou، ومع ذلك فهما مُختلفتان تماماً: استخدم فنان القرن الخامس عشر الصيني باستخدام ضربات الفرشاة،
طريقة اختزال الأشياء الى شكل زخرفي لنقل جوهر الشيء بروح تعاليم نصوص الدايانا Dhyana الزنية

البوذية. أما فنان القرن التاسع عشر الفرنسي فقد حل بهذه الطريقة، مشكلة توازن الشكل واللون-وهي مشكلة مُجرّدة تتعلق بفن أوروبا الغربية في الفترة ما بعد الانطباعية.

كانت نظرية التقدم تتعرض دائماً للنقد. تتمثل الحجة الرئيسية لهذا النقد في الإشارة الى الطبيعة الدوغمانية لمفهوم التقدم ذاته، او افتقاره الى الوضوح، أو أن ما يُعتبر تقدماً هو دائماً قابل للنقاش والنقد، وحقيقة أن تحديد شيء ما على انه تقدمي يعتمد على وجهة نظر المرء. يتم تقديم البيانات المُختلفة لاثبات أن الظواهر التي تُعتبر تقدمية قد أثبتت، في كثيرٍ من الأحيان، أنها ليست كذلك على الاطلاق. ان نقد نظرية التقدم من هذه المواقف خطير للغاية، حيث انه في العادة تؤخّذ بعض الافتراضات المُسبقة ذات الطبيعة المُجرّدة والدوغمانية كنقطة انطلاق عند مناقشة ما يُمكن اعتباره ظاهرة تقدمية. يبدو أن أفضل طريقة لحل هذه المشكلة، والتي تُعتبر أساسية لفهم معنى التاريخ، هي اللجوء الى التاريخ نفسه وتحليل ستة آلاف عام من التاريخ الانساني دون تصورات مُسبقة نابعة من خارجه.

نحن نقول ستة آلاف عام من التاريخ لأن العمر التاريخي للانسان المُتاح لملاحظتنا في السجلات المكتوبة بدأ في الألفية الرابعة قبل الميلاد، عندما ظهرت الدول الأولى في منطقتين من العالم القديم: وادي النيل، وحوض نهري دجلة والفرات. هذا لا يعني أن جميع أشكال الحياة السابقة لهذا مُستثناة من التاريخ، ولكن معرفتنا بها تقتصر فقط على بيانات الانثروبولوجيا التاريخية والأركيولوجيا وأنه بهذا المعنى لا يُمكننا التحدث عن التاريخ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. لكن لا يترتب على هذا على الاطلاق أن الحقبة الطويلة من وجود الجنس البشري ليس لها أهمية تاريخية. ان لها أهمية هائلة. فان ظهور الدولة لا يُمكنه أن يَنْتُج الا عن عملية صراع وتطور اجتماعي سابق وواسع النطاق. شهد هذا التطور العامل الأهم على الاطلاق: وصول الانسان الى خلق الأشكال الاجتماعية للحياة. صرّح انجلز بحدّة انه في هذا الوقت، أي ما قبل التاريخ، حدثت أهم التطورات وتحدد المسار اللاحق للتطور الانساني: أصبح الانسان انساناً. وقد كتّب أن "مُنطَلَق" هذا العصر هو "انفصال الانسان عن مملكة الحيوان، ومضمونه هو تذليل الصعوبات التي لن يواجهها أبداً أناس المُستقبل المُتعاضدون"¹. وهكذا، حتى هذه الحقبة ما قبل التاريخية تُثبت أن تطور البشرية كان منذ البداية ليس مُتكرراً بل يسير الى الأمام.

بدأ العصر الجديد مع الألفية الرابعة قبل الميلاد، عندما نشأت مصر في وادي النيل، وسومر في وادي دجلة والفرات. تتميز هذه الحقبة بحقيقة أنه، على عكس الحُقَب السابقة التي كانت ساحتها في الأساس الكرة الأرضية بأكملها، كانت الحياة التاريخية مرتبطةً بمناطق جغرافية مُحددة. كان وادي النيل وحوض دجلة والفرات من أولى المناطق. تكشف لنا حركة التاريخ اللاحقة عن عملية توسّع مستمرة في الساحة الجغرافية للحياة التاريخية. اندرج المزيد والمزيد من الشعوب. هذا واضح للغاية من خلال أي تفحص سريع لتاريخ الانسانية.

أصبحت المناطق المُجاورة تدريجياً مُرتبطةً بالحياة التاريخية للمركزين الأولين، أي المصري والسومري.

¹ - ضد دوهرينغ، فريديريك انجلز، دار التقدم 1984، ص135

انتقل التاريخ، من احدى المراكز، أي مصر، جنوباً الى المرتفعات الأثيوبية، ومن الشرق الى شبه الجزيرة العربية، في المقام الأول الى أقرب جزءٍ منها، والذي سُمي فيما بعد فلسطين، ثم فصاعداً على طول الجزء الذي يخص البحر الأبيض المتوسط من آسيا الصغرى، الى مناطق سوريا الحديثة ولبنان، ومن ثم انطلاقاً من تلك المناطق الى أعماق آسيا الصغرى باتجاه وادي دجلة والفُرات. ومن المركز الثاني تقدمت الحركة أيضاً في اتجاهين: نحو آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين، نحو القوقاز وإيران.

The Kingdom of Urartu, 9th-6th Centuries B.C.



مملكة أورارتو

وهكذا، احتضن التاريخ، بحلول منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، منطقةً واسعةً تشمل مصر وجزءاً من أثيوبيا وسوريا والجزء الشرقي من آسيا الصغرى والجزء الجنوبي الغربي من القوقاز، وبعض مناطق غرب إيران وحوض دجلة والفُرات. استمرت العملية بعد ذلك في شكلٍ مزدوج: كان هناك توسع لهذه المنطقة في نفس الاتجاهات ودخلت مناطق جديدة-منطقة بحر ايجه- حزام آسيا الصغرى من البحر الأبيض المتوسط وجزر بحر ايجه وكريت والجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان، نقول دخلت في المنطقة التي يُغطيها التاريخ المكتوب. وهكذا، دخلت منطقة كبيرة جداً في نطاق التاريخ، بحلول منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد. امتدت على الأجزاء المتاخمة لثلاث قارات من العالم القديم والأراضي التابعة لها. خلال الألفية الثانية قبل الميلاد نفسها، انتقلت منطقتان أخريتان من ما قبل التاريخ الى التاريخ. كان أحدها في الهند، في وديان أنهر السند والغانج Ganges، والأخرى في وادي هوانغ هو Hwang-ho في المنطقة المعروفة الآن باسم الصين. ظهرت أولى الولايات الهندية في وديان أنهر السند والغانج خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، بينما تشكلت مملكة شانغ، وهي أول دولة صينية استطاع البحث التاريخي الوصول إليها، في وادي هوانغ هو، وهذه كانت أول ثلاث مناطق جغرافية تشكلت فيها الحياة التاريخية للإنسان، وهي المراكز الثقافية الأولى.

بعد ذلك، اتخذت العملية التاريخية نفس المسار المزدوج. من ناحية، اتسع نطاق كلٍ من المجالات التاريخية الثلاث السابقة، ومن ناحيةٍ أخرى، ظهرت على الساحة مناطق جديدة. توسّعت المجموعة الأوروبية-

الأفروآسيوية نحو إيران وعبر القوقاز وآسيا الصغرى.



فريجيا وليديا

شهدت هذه المنطقة، ابتداءً من نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، تاريخ آشور والامبراطورية البابلية الجديدة ومركزها على نهري دجلة والفرات، وتمركزت دولة فارس في إيران، ومملكة أورارتو Urartu في المرتفعات الأرمينية، والدول الحيثية والفريجية Phrygia والليدية Lydia في آسيا الوسطى، وصور Tyre وصيدا Sidon ودول مُدُن فينيقية أخرى على الجزء الجنوبي من ساحل البحر الأبيض المتوسط، إسرائيل ويهوذا في فلسطين، ومملكتي معين Minaean وسبأ Sabaeen في جنوب شبه الجزيرة العربية، ومصر وأثيوبيا في وادي النيل.



دولة معين

دخلت منطقة جديدة الى التاريخ من جانب واحدٍ من المناطق المذكورة في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد: خوارزم Khorezm وباختريا Bactria، وقد كان مصير هذه المنطقة فيما بعد أن صارت حلقة

وصلت كانت توحد المراكز الثلاثة القديمة في حياة الانسان التاريخية: الأوروبية-الافروآسيوية والهندية والصينية.

توسعت المنطقة الأوروبية-الافروآسيوية أيضاً الى غرب البحر الأبيض المتوسط. تم التعبير عن هذا التوسع في الاستعمار الفينيقي ولاحقاً اليوناني. احتضن الاستعمار الفينيقي في البداية ساحل شمال افريقيا، وفي المقام الأول منطقة تونس الحديثة، حيث تأسست قرطاج Carthage عام 814 قبل الميلاد، وهكذا نشأ مركز فينيقي جديد وهو الدولة القرطاجية التي أصبحت أكبر قوة استعمارية في عصرها، لأن قرطاج أنشأت مستعمرات لها في اسبانيا وصقلية وسردينيا وجزر البليار.



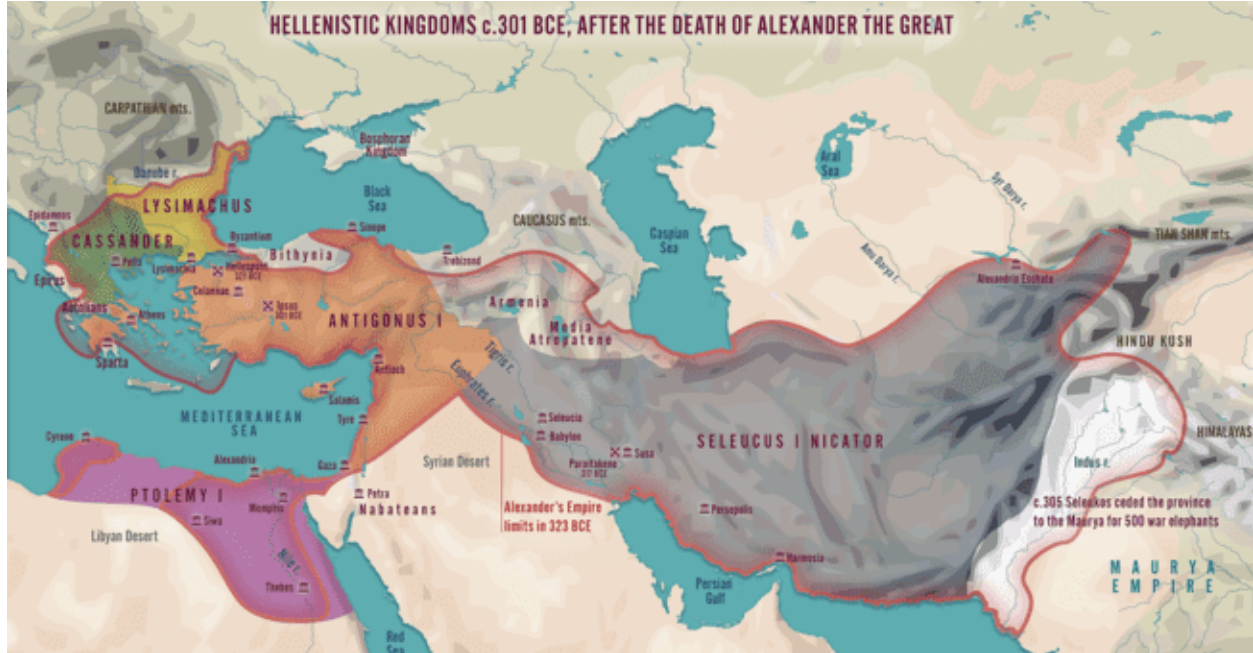
قرطاج

أدى ذلك الى تشكل منطقة تاريخية جديدة، والتي صارت تربط أراضي شرق وغرب البحر الأبيض المتوسط. كانت مهارة الملاحة التجارية التي طورها الفينيقيون بشكل هائل تؤمن وسائل الاتصال. لم يجتاز الفينيقيون شرق وغرب البحر الأبيض المتوسط في رحلاتهم وحسب، بل اكتشفوا بجزءاً من الكرة الأرضية لم تكن معروفة بعد آنذاك. أكملوا، في القرن السابع قبل الميلاد، أول دورة حول افريقيا في تاريخ البشرية. انطلقوا من الشرق، من البحر الأحمر، وعادوا عبر مضيق جبل طارق، الذي حصل منهم على اسمه الأول: اعمدة ملقرت pillars of Melkarth.



أعمدة ملقرت

وكان الفينيقيون هم أول من وصلوا الجُزر البريطانية. تطور الاستعمار اليوناني في عدة اتجاهات. كانت احداها باتجاه الغرب: نشأت المُستعمرات اليونانية في ايطاليا وصقلية، وكان هناك اتجاه آخر نحو الشمال الشرقي. بدأ الاستعمار اليوناني لساحل البحر الأسود الشمالي. في الوقت ذاته، كانت المنطقة التي يسودها العالم الهيليني تتحرك قُدماً في التطور. في النصف الأول من الألفية الأولى قبل الميلاد، ازدهرت المُدن اليونانية في ايونيا Tonia، القسم الساحلي من آسيا الصُغرى. توسعت الأراضي الهلينية في البلقان باتجاه وسط شبه الجزيرة تلك.



العالم الهيليني

كما دخلت أجزاء أخرى من شبه الجزيرة في التاريخ. نشأت تراقيا Thrace في القرن الخامس قبل الميلاد في الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة، أما اليريا Ilyria فقد نشأت في القرن الرابع على الساحل الأدرياتيكي. هناك أيضاً، ظهرت المملكة المقدونية شمال اليونان. في الوقت نفسه نشأ مركز جديد للنشاط البشري التاريخي في شبه الجزيرة الإيطالية. كان الاتروسكان Etruscans الأناث الأوائل في هذه المنطقة، حيث نظموا لمدنهم حلفاً من القرن الثامن وحتى السادس قبل الميلاد، ثم انتقل الدور الرئيسي الى اللاتين Latins، الذين أسسوا روما عام 753 قبل الميلاد في لاتيوم Latium، وشكلوا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد دولةً قوية والتي دخلت التاريخ باسم الجمهورية الرومانية.

كما تقدّم التوسع في المركز الثاني من المراكز التاريخية القديمة-الهند- أيضاً دون انقطاع. شمل هذا المركز عدداً مُتزايداً من المناطق حول نهر الغانج والجومنا Jumna. وفقاً للأسطورة، كانت توجد 16 ولاية في هذا الجزء من هندوستان في بداية القرن السادس قبل الميلاد. ثم بدأت عملية التاريخ بالانتشار أيضاً الى الجزء الأوسط من الهند، جنوب نهر الغانج. في القرن الرابع قبل الميلاد تزايدت قوة واحدة من أقدم الممالك الهندية

وهي الماغادا Magadha في شمال شرق ووسط الهند.



مملكة الماغادا

استمر التوسع في الأراضي التي احتضنها التاريخ. سيطرت الامبراطورية الماورية Mauryan على شبه الجزيرة بأكملها باستثناء الجزء الجنوبي منها في القرن الثالث قبل الميلاد والتي حلت محل الماغادا. ثم امتدت ودخلت الى المسرح التاريخي نحو جنوب الهند في القرن الثالث قبل الميلاد.



الامبراطورية الماورية

هذا التمدد للمركزين القديمين لتاريخ العالم جعلهما على اتصال مع بعضهما البعض، وكان التطور اللاحق

لتاريخهما خاضع لظروف توصلهما. ينطبق هذا بشكلٍ خاص على شمال غرب الهند، والذي أصبح في الوقت نفسه قاعدةً استيطانية شمالية غربية للعالم الهندي، وقاعدة جنوبية شرقية لعالم آسيا الوسطى. وقد انعكس ذلك في انضمام هذا الجزء من الهند، لبعض الوقت، في دول الشرق الأدنى: فارس الأخمينية Achaemenid وامبراطورية الاسكندر. يرتبط تاريخ شمال غرب الهند أيضاً بمركز الشرق الأوسط. اندمجت هاتين المنطقتين معاً في دولة واحدة خلال فترة الامبراطورية الكوشانية Kushan.



الامبراطورية الكوشانية

كما تمدد مركز تاريخ العالم القديم الثالث، وهو الصين. خلال الألفية الأولى لم يقتصر دخول التيار العام للتاريخ على مناطق حوض نهر هوانغ هو، بل وشمل أيضاً المناطق المحاذية لنهر عظيم آخر وهو نهر يانغسي yangtze river. تمددت الأراضي التي احتضنها التاريخ الى الشمال الشرقي أيضاً، نحو ما أصبح يُعرَف فيما بعد بمنشوريا، والى الشمال الغربي نحو ما صار منغوليا، والى الغرب باتجاه مقاطعة سيشوان Szechwan الحديثة، وأخيراً الى الجنوب الشرقي باتجاه فييتنام المعاصرة. في القرن الثالث قبل الميلاد دخلت كل تلك الأراضي المهولة في اتساعها ضمن امبراطورية تشين Ch'in، وهي أول دولة تضم في نطاقها الصين بأكملها.

الى جانب هذا مركز تاريخ العالم القديم الثالث والمتوسع دوماً، نشأ مركز جديد للنشاط التاريخي باتجاه الغرب في آسيا الوسطى، كان روادها الرئيسيون هم الهان Hun. أنشأوا في القرن الثالث قبل الميلاد تحالفاً قَبلياً كبيراً أطلق عليه في كثيرٍ من الأحيان دولة الهان، وقد غطت مناطق شاسعةً من المنطقة المتاخمة لبايكال Baikal في الشمال وحتى التبت جنوباً، ومن تركستان الشرقية في الغرب الى وسط منطقة نهر هوانغ هو في الشرق. هذا المركز سيلعب لاحقاً، دور الرابط الذي يصل مركز الشرق الأقصى بمركز الشرق الأوسط. وهكذا، بحلول نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد، ظهرت الى الوجود منطقة نشاط بشري تاريخي من شعوب متصلة ببعضها البعض الى هذه الدرجة أو تلك. هذه المنطقة لا تتضمن ثلاثة مراكز فقط كما كان الحال في المرحلة الأولى من تاريخ العالم، بل ما لا يقل عن سبعة مراكز: الثلاثة الأقدم وهي الأوراسي-الافريقي

والهندي والصيني، وتجيء شمال افريقيا قرطاجة، وجنوب أوروبا اللاتين، والشرق الأوسط، وآسيا الوسطى. يشمل التاريخ الآن الجزء الأكبر من شرق آسيا وجزء كبير من آسيا الوسطى، العديد من مناطق الشرق الأوسط وإيران والهند ومعظم مناطق القوقاز وكل آسيا الصغرى ووادي النيل ومناطق مختلفة من الساحل الأفريقي البحر الأبيض المتوسط وجزر ايجيه وشبه جزيرة البلقان وشواطئ البحر الأسود الشمالية وشبه جزيرة أبنين وصقلية وبعض الأجزاء الجنوبية من فرنسا وإسبانيا.

استمر نمو هذه المنطقة بشكلٍ مطرد بعد ذلك، سواءً من خلال التمدد في المناطق المُبكرة من التاريخ، أو من خلال ظهور مناطق جديدة. دَمَجَ نمو الجمهورية الرومانية في التاريخ جزءاً جديداً من ساحل شمال افريقيا وهو أقسام من الساحل الشمالي للجزائر في القرن الثاني قبل الميلاد وإسبانيا في القرن الأول قبل الميلاد وبلاد الغال وحتى بريطانيا لاحقاً. كان هذا هو المحيط الغربي للمنطقة الإفرو-أوراسية القديمة. تطور التاريخ أيضاً في المحيط الشمالي للجزء الأوسط من هذه المنطقة المُتمثلة بالشواطئ الشمالية للبحر الأسود. كانت المملكة السكيثية Scythian موجودةً هنا في القرنين الرابع الى الثاني قبل الميلاد، ومركزها في شبه جزيرة القرم. خلال نفس الفترة امتدت مملكة بوسبوران (البوسفور) Bosporan على جانبي مضيق البوسفور، أي مضيق كيرتتش. دخلت أيضاً دول الكولش Colchis وإيبيريا وألبانيا في مجرى التاريخ.

لم يستطع المجال الإفرو-آسيوي القديم التوسع الى الشمال الشرقي حيث وصل مُسبقاً منذ فترةٍ طويلة الى حدوده التاريخية أي حدود المجال الهندي. ومع ذلك، توسعت العلاقات بين هذين المجالين وتعززت كثيراً. تثبتت أهمية هذه العلاقات من خلال التحول الذي بدأ مع القرن الرابع قبل الميلاد في كل هذا العالم الضخم، والذي يتكون من شمال غرب الهند وإيران وباختريا وصوقديانا Sogdiana في وسط آسيا وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وجزر ايجيه واليونان ومقدونيا على شبه جزيرة البلقان، هذا التحول الى مُجمَع ثقافي وتاريخي واحد شديد التفاعل والذي أصبح يُعرَف بالعالم الهليني. امتد تأثير هذا العالم أيضاً الى دول غرب البحر الأبيض المتوسط ولا سيما إيطاليا. وصلت التأثيرات أيضاً الى دول شرق آسيا مثل الصين وكوريا وحتى اليابان.

كما توسّع المجال الهندي وتقدم نحو الجنوب والشرق. دخلت سيلان التي يقطنها مهاجرون من هندوستان هذا المجال في القرن الخامس قبل الميلاد، وظهرت الدولة السنهالية Singhalese الأولى في القرن الثالث قبل الميلاد، وهاجر الهنود في تيارات متدفقة الى جزر أندونيسيا، مما فعّل العلاقات بين هذه الأخيرة والمجال الهندي. تألفت النواة الاندونيسية اذاً من اقليم يتكون من الأجزاء المُجاورة لشبه جزيرة ملقا Malacca وسومطرة الشرقية وجاوة الغربية. نشأت أولى الدول الاندونيسية خلال القرون الأولى الميلادية على هذه المنطقة. لقد كانت دولاً هندية الى حدٍ كبير. توسعت مجموعة الأراضي الاندونيسية نفسها، ليس فقط من خلال اندماج المناطق الشرقية من اندونيسيا في الحياة التاريخية، ولكن من خلال استعمار مدغشقر البعيدة أيضاً. أدى استيطان هذه الجزيرة من قِبَل المهاجرين الاندونيسيين الذين اختلطوا مع السكان المحليين الى تشكيل شعب المالغاش Malgash المُرتبط اثنياً بالاندونيسيين. كان للعلاقات الوثيقة بين المجالين الهندي والاندونيسي نتائج بعيدة المدى. نتيجةً لعلاقات الهند الطويلة مع إيران وآسيا الصغرى بثقافتها الهلينية، كان المجال الاندونيسي بذلك على اتصال مع المجال الإفرو-آسيوي. كان الطريق البحري في المحيط المؤدي من

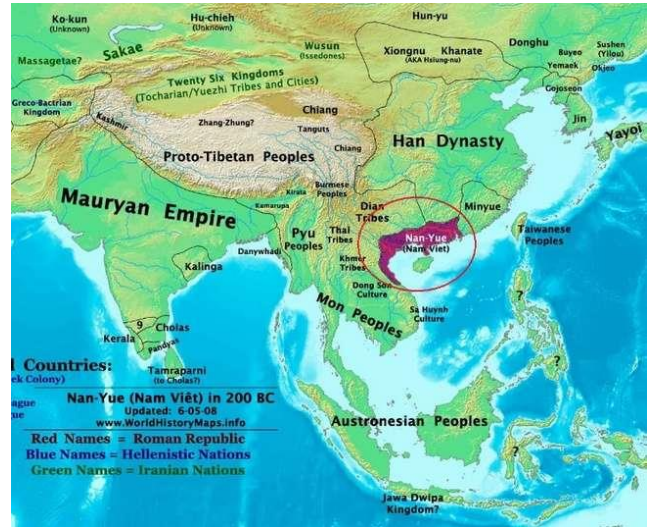
الهند الى الموانئ الجافاكية (من جزيرة جاوا الاندونيسية)-وهو اسم لدولة تشكلت في القرنين الثاني والأول- معروفاً لدى اليونانيين.

كما توسّعت مجموعة الأراضي التاريخية القديمة الثالثة، أي الصينية. دخلت جنوب منشوريا والأجزاء المجاورة لكوريا الشمالية مدارها في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد. تشكّل بدءاً من القرن الأول قبل الميلاد ثلاثة تحالفات قبّلية كبيرة في شبه الجزيرة: كوجوريو Koguryo في الشمال وبيكشي Paekche في الجنوب الغربي وسيلا Silla في الجنوب الشرقي.



قبائل الكورجيو والسيلا

في حين كان تطورها التاريخي مستقلاً، كانت كل هذه الأراضي تقع ضمن المجال الصيني. كانت اليابان ، ابتداءً من القرن الأول قبل الميلاد أيضاً على اتصال بهذا المجال. تمدد المجال الصيني أيضاً الى الجنوب الشرقي. نشأت في القرن الثالث قبل الميلاد دولة نامفيتيت Namviet في جنوب الصين الحديثة، وضمت الجزء الشمالي الشرقي من الهند الصينية.



دولة نامفيتيت

وقعت هذه المملكة تحت سلطة امبراطورية هان الصينية في القرن الثاني، ومنذ ذلك الوقت كانت العلاقات التاريخية بين هذا الجزء من الهند الصينية والصين وثيقة. في الوقت نفسه بزغ فجر التاريخ على أجزاء أخرى من شبه الجزيرة والتي سكنها قبائل مُختلفة من بينها البورمان التبتيين Tibetan-Burman والمونغخيمير Muongkhmers. لقد أنشأت هذه القبائل دولاً في القرن الرابع قبل الميلاد. كانت شبه جزيرة الهند الصينية أيضاً ساحة للهجرة الهندية مما أدى، كما هو الحال مع أندونيسيا، الى هندننة Indianization أجزاء كثيرة من شبه الجزيرة. من ناحيةٍ أخرى، تغلغل النفوذ الصيني من الشمال الشرقي مما أدى الى تصنيف بعض المناطق. ان اسم الهند الصينية الذي يُطلق على شبه الجزيرة هذه لديه ما يُبرره جُغرافياً وتاريخياً.

وهكذا، بقيت في القرن الأول الميلادي أراضي شاسعة من شواطئ بحر الشمال وبحر البلطيق في أقصى الغرب الى بحار أوكوتسك واليابان في الشرق الأقصى خارج نطاق التاريخ. كانت الحدود الشمالية لهذا الفضاء هي شاطئ المحيط المُتجمد الشمالي على طوله في أوروبا وآسيا. تتألف حدوده الجنوبية من المنطقة الواقعة شمال نهر الراين والدانوب وشمال ساحل البحر الأسود والقوقاز كل هذا في أوروبا، وشمال وسط آسيا وتركستان الشرقية وصحراء غوبي Gobi وجبال سايان في آسيا. عاشت كل افريقيا القارية من مصر وأثيوبيا من الشرق، والى الجنوب من مناطق البحر الأبيض المتوسط وامتداداً الى المُحيط الأطلسي في الغرب حياتها الخاصة، معزولةً عن المناطق التي ناقشناها. تم العثور على "بُقَع بيضاء" أيضاً في نطاق الأراضي التاريخية. كانت أكثر المناطق أهميةً هي منطقة التبت الحالية، ودول الهمالايا وجنوب غرب الصين. بقي الجزء الشرقي من الأرخبيل الأندونيسي خارج الحياة العامة للتاريخ. وكانت استراليا ونيوزيلندا لا تزال بدون اتصال على الاطلاق بحياة بقية العالم التاريخية العامة. استمرت حياة النصف الغربي من الكرة الأرضية، والذي يتكون من الأمريكيتين في اطارٍ من العُزلة التامة عن بلدان العالم القديم هذه. ان تاريخ هذه الأراضي المعروفة لنا-وعلى ما يبدو تاريخها الفعلي- قد تطوّر متأخراً الى حدٍ ما.

ان السياق اللاحق للنمو الاقليمي للتاريخ معروف جيداً. كان التمدد اللاحق الأكثر أهميةً، هو دخول المناطق الأوروبية المذكورة أعلاه، أي الأجزاء الشمالية غرب وكل شرق أوروبا الى التيار الرئيسي للتاريخ. وهكذا، دخل الجزء الغربي من النصف الشمالي من أوروبا الى التيار الرئيسي للتاريخ مع نشوء مملكة الفرنكيين Franks في القرن الخامس الميلادي، ودخل الجزء الأوسط مع تشكّل ألمانيا، والجزء الاسكندنافي مع اقامة المملكة الدنماركية، ومع تشكّل تحالفات السلاف البلوبيانيين Polabian Slavs في القرنين السادس الى الثامن أصبحت منطقة الحوض الذي يمر فيه نهر لبا Laba والاوردر Odra والفيستولا ضمن اطار التاريخ. في القرنين السادس والسابع ظهرت الدول في بوهيميا ومورافيا وسلوفينيا. أما أراضي بولندا فقد دخلت مجرى التاريخ في القرن السابع الى التاسع، ومع ظهور الدولة الروسية دخلت أوروبا الشرقية مجرى التاريخ العام.

استمر دخول المناطق الى التاريخ أيضاً في الجزء الآسيوي من القارة الأوراسية، سواءاً من أراضي شرق آسيا المذكورة أعلاه، وفي وقتٍ لاحق الى حدٍ كبير من أوروبا الشرقية. شكّلت قبائل تجو تشان Zhu-Zhan في المنطقة المُمتدة من سلسلة جبال خينجان Khingan الى تيين شان Tien shan في نهاية القرن الرابع

وبداية القرن الخامس تحالفاً كبيراً. نشأ تحالف من القبائل التركية في القرن السادس يُطلق عليه المؤرخون عادةً اسم الخانية التركية Turk khanate في ألتاي Altai وسميريتشي Semireche على حدود مجال الشرق الأوسط القديم، وشمل هذا التحالف أراضي تجو تشان الواقعة في وسط آسيا، وحتى بعض أجزاء شمال شرق آسيا حتى شواطئ البحر الأصفر. وسَّع الأتراك ممتلكاتهم في الشرق الأوسط وآسيا، وتوغلوا في الأراضي الواقعة بين سير داريا Syr Dar'ya وأمور داريا Amu-Dar'ya. امتدت غزواتهم الى مناطق جنوب شرق بحر قزوين. نتيجةً لذلك، أصبحت هذه المنطقة الجديدة من التاريخ المكتوب على اتصال مع مناطق الشرق الأوسط وشرق آسيا، وكذلك مع الشريط الذي يمتد من إيران والشرق الأوسط عبر تركستان الشرقية وبعض أجزاء آسيا الوسطى الى الحدود الغربية للصين. في وقتٍ لاحق، دخلت منطقة منشوريا وحوض أمور المشهد التاريخي. في القرن الثامن تشكلت مملكة بوخاي Bokhai من مجموعة من القبائل المُختلفة في منشوريا التونغوسية Tungus. لعبت هذه المملكة دورها دوراً مهماً في توسيع العلاقات بين الصين من جهة وكوريا واليابان من جهةٍ أخرى. أدى تشكل الدولة المغولية في بداية القرن الثالث عشر الى تحوّل الاقليم بأكمله من شواطئ اليابان والبحر الأصفر وبحر الصين الشرقي وجنوب الصين الى الشرق الأوسط ويارتن بشكلٍ شامل، ثم عبر أوروبا الشرقية الى جبال الكاربات Carpathian Mountains، الى منطقة تاريخية واحدة غير منقطعة. بدأت المنطقة التي يُغطيها التاريخ، في وقتٍ لاحق، في التوسع الى آسيا من أوروبا الشرقية. في نهاية القرن الرابع عشر، قامت قبيلة نوجاي Nogai التي نشأت على طول نهر الفولغا بتوسيع ممتلكاتها الى نهر ارتيش Irtush، ونشأت في القرن الخامس عشر الخانية السيبيرية Sibir Khanate بين أنهار توبول وتورا وارتيش جالبةً سيبيريا الى التيار الرئيسي للتاريخ.



مملكة نانتشاو

كما اختفت "البقعة البيضاء" التاريخية بين آسيا الوسطى والهند. ظهرت الدولة التبتية في القرن السابع، وتوسعت فيما بعد باتجاه الصين الغربية والشرق الأوسط. دخلت نيبال التاريخ. نتيجةً لذلك، تم استكمال

المسارين القديمين من مجال شرق آسيا (أحدهما عبر تركستان الشرقية والشرق الأوسط، والآخر عبر بورما وآسام) بمسارٍ ثالث، وهو مسار التبت ونيبال. ظهرت في القرن الثامن دولة في القسم الجنوبي الغربي من الصين الحديثة، مُجاورةً للتبت من ناحية، وفييتنام من ناحيةٍ أُخرى، والتي تُعرَف في علم التاريخ بمملكة ناننشاو Nanchao.

يرجع سبب دخول افريقيا الى التاريخ، دخول العرب الى الساحة التاريخية والتوسع العربي اللاحق في القرنين الثامن والتاسع، وتغلغل التجار العرب في هذا الجزء القديم من العالم، وقدم الجغرافيون العرب المعلومات الأولى عن الأراضي والشعوب التي تسكن هناك. بدأ التاريخ المكتوب في عصور مصر القديمة على طول النيل الأوسط في أراضي شرق السودان. أصبح السودان معروفاً بفضل العرب. ظهرت دول في وقتٍ لاحق في هذه المنطقة، مثل غانا وسونغاي ومالي. صار الساحل الشرقي لافريقيا، من شبه الجزيرة الصومالية الى موزمبيق معروفاً أيضاً. ظهرت هناك مُدن الموانئ العربية مثل ماليندي Malindi.



مدينة ماليندي البحرية في كينيا

من هنا انتقلت الطُرق البحرية الى عدن ومُدن أُخرى في جنوب الجزيرة العربية، ومن هناك الى البحر الأحمر الى هرمز وموانئ أُخرى في خليج فارس وبحر العرب وفي النهاية الى كاليكوت ونقاط أُخرى على الشاطئ الغربي لهندوستان. وقد أثبتت رحلة فاسكو دا غاما الامكانيات الكبيرة التي كان العرب يمتلكونها في السيطرة على الطرق البحرية. بعد أن قام بالدوران في الجزء الذي كان لا يزال مجهولاً من الساحل الجنوبي الشرقي لأوروبا، سافر فاسكو الى ماليندي، وهناك شعر أنه في بيئة عالمٍ مُتحضر، حيث لم تكن الرحلات الى كاليكوت غير مألوفة. لم يكن فاسكو دا غاما هو الذي اكتشف الطريق الى الهند بالمعنى الدقيق للكلمة، بل كان القبطان العربي أحمد بن ماجد Ahmad ibn Mājid. تزايد ادراج افريقيا القارية اللاحق ضمن التيار

الرئيسي للتاريخ، في حقبة الغزو الاستعماري من قِبَل قوى أوروبا الغربية.



أحمد بن ماجد

استمر تاريخ الشعوب الأمريكية بمعزلٍ عن الحياة القديمة للتاريخ حتى بداية الغزوات الاستعمارية الاسبانية. يبدو أن الحياة التاريخية هناك تطورت بشكلٍ أساسي على أراضي المكسيك والبيرو. كان المايا هم أول من أسسوا دولة على أراضي المكسيك. تبدأ البيانات التاريخية المتعلقة بهم في القرن الرابع. نشط الإنكا في البيرو على المسرح التاريخي. يعود تشكيلهم لتحالفٍ قبلي إلى القرن الثالث عشر.



خريطة توضح موقع دولة المايا

تُظهر الصورة التي رسمناها بوضوح أن العملية التاريخية تحوُّرٌ على بُعدٍ مكاني. منذ التاريخ الأول الذي يُمكننا التقاطه، يتدفق تيار التاريخ الى منطقة دائمة الاتساع حتى تدخل التاريخ كل المناطق التي يُمكن تزدهر فيها الحياة البشرية. من الواضح أيضاً وجود بُعدٍ آخر: حقيقة أن أقسام جديدة من البشرية كانت تدخل باستمرار الى الساحة التاريخية. تم هذا الدخول بطريقتين: في بعض الحالات تم استكمال المناطق القديمة بمناطق جديدة مأهولة بالشعوب التي كانت موجودةً حتى اللحظة خارج مدار التاريخ. وفي حالاتٍ أخرى غادرت شعوبٌ جديدة مواقع سُكناها الأولى وتطلعت على حياة مناطق تاريخية قديمة. يُمكننا أن نستشهد على الطريقة الأولى بتاريخ شعوب اليابان وكوريا واللاتين في ايطاليا والكتيين في بلاد الغال وما الى ذلك. وكأمثلة على الطريقة الثانية، يُمكننا الاستشهاد بهجرات الشعوب وعدد من الحالات التي تكررت كثيراً في التاريخ.

نحن نعرف مستوطنة المنطقة الميسينية Mycenaean وهي جزء من احدى المناطق التاريخية القديمة والتي نشأت في الألفية الثالثة قبل الميلاد من قِبَل القبائل اليونانية. استقر الأراميين في بداية الألفية الثانية في سوريا وفينيقيا وبابل وشمال بلاد ما بين النهرين. نشأت المستوطنة القوقازية الآسيوية الوسطى الكيميرية Cimmerians في القرن الثامن قبل الميلاد. ثم كانت هناك مستوطنة في المناطق الشمالية الشرقية والشمالية الغربية من الصين الحالية التي تعود للسنيانبي Sianbi والهان والكيدان Kidans والجورجين Jurjens في القرن الرابع قبل الميلاد. تحرك القوطيون Goths والسارماشيون Sarmatians والسلافيون نحو البلقان وما وراءها الى النصف الجنوبي من وسط وغرب أوروبا. بدأ تحرك الأتراك من ألتاي الى الشرق الأوسط وتركستان الشرقية والسهول الواقعة بين بحر آرال وبحر قزوين وما وراءهما الى سهول أوروبا الشرقية في القرن السادس الميلادي، ثم هاجروا ابتداءً من القرن الحادي عشر من الشرق الأوسط والعراق وايران وآسيا الصغرى مع غزو أذربيجان وأرمينيا. بعد ذلك بدأ تحركهم الى شبه جزيرة البلقان ابتداءً من القرن الرابع عشر. كما كان هناك تنقلٍ عربي ابتداءً من القرن السابع الميلادي الى فلسطين وسوريا وايران والشرق الأوسط في اتجاهٍ واحد، والى مصر ثم مناطق ساحل البحر الأبيض المتوسط في افريقيا ومن هناك الى اسبانيا في اتجاهٍ آخر. حدث تحركٌ ثالث في شرق افريقيا. سكنَ الاسبان جُزر الهند الغربية في نهاية القرن الخامس عشر، ومن ثم أمريكا الوسطى والجنوبية، وبدأ الاستيطان الانجلوساكسوني في أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر. كانت كل هذه أشكال متنوعة من الهجرات وتحركات الشعوب حدثت في أزمنة مُختلفة وظروف تاريخية متنوعة ولكنها أدت الى نفس النتيجة: استيطان هذه الشعوب لأراضٍ جديدة، مصحوبةً بخضوع حكومات السكان الأصليين. ولم يكن من غير المألوف حالات الابادة الشاملة لهؤلاء السكان. وهكذا، ان استشهدنا بأمثلة من التاريخ الحديث فقط، فان الاسبان قد أبادوا بالكامل سكان جُزر الكاريبي الأصليين، وأباد الهولنديون عدداً كبيراً من سكان جنوب افريقيا من البوشمين Bushmen والهوتينتوت Hottentots والابادة الكاملة تقريباً لسكان تزمانيا Tasmania وجزء كبير من سكان استراليا وسكان أمريكا الشمالية الأصليين.

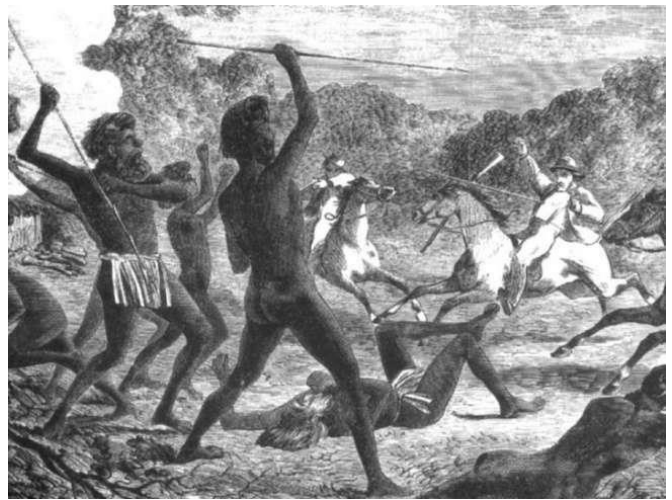
شكَّلت هجرات العديد من الشعوب ردود فعل متسلسلة، أي أن حركة شعوبٍ ما، دفعت الشعوب الأخرى الى الحركة. وهكذا، على سبيل المثال، كانت حركة الكيميريين الى آسيا الصغرى مدفوعةً بضغط السكيثيين، الذين أجبروا الكيميريين على ترك أماكن استيطانهم الأولى. انتقل السكيثيون، بدورهم، الى أراضي الكيميريين تحت ضغط الماساغيتيين Massagetae. أدت حركة الهان التي بدأت في القرن الأول قبل الميلاد

على أسوار الصين وانتهت في القرن بعد الميلاد في وسط أوروبا، الى انتقال عدد كبير من قبائل آسي الوسطى والشرق الأوسط ثم قبائل جنوب أوروبا. أخذ المغول معهم في تحركهم الى الشرق والغرب مجموعة من القبائل والشعوب المتنوعة.



البوشمن والمستعمرين الهولنديين

في خضم هذه الهجرات العظيمة اختفت قبائل وشعوب معينة، بينما صار بعضها الآخر أقوى وأشد.



إبادة التازمانيين

حدث هناك اندماج للقبائل، مما أدى الى بعض التغيير في الطابع الاثني للقبائل الأكثر استقراراً، أو الى تكوّن شعوب جديدة. على سبيل المثال، انحلّ الهان وسيانبي وكيدان والجورجين الذين هاجروا الى الصين تماماً في السكان الصينيين. أدت هجرة القبائل الجرمانية من أوروبا الشرقية الى أوروبا الوسطى والغربية الى اختلاط الوافدين الجدد والسكان السابقين وصاروا أساساً لتشكّل شعوب أوروبا الغربية الحديثين كالبريطانيين والفرنسيين والاسبان والايطاليين والألمان.

وهكذا، تم، بشكل تدريجي، استعمار أراضي كوكبنا المناسبة لحياة البشر وغزوها، في سياق التطور التاريخي. أدت عملية الاتصال المعقد للغاية بين أقسام البشرية الى تكوين مجموعات اثنية مُختلطة مستقرة، وتحوّلت الشعوب الى أمم، وتشكلت المجموعات اللغوية، التي تشكلت لغات فردية في اطارها. تغيّرت الأهمية الاجتماعية للغات: أصبحت اللغات القبلية لغات شعوب، وتطورت هذه بدورها الى لغات أممية. لم تكن العملية التاريخية، في كلٍ من هذه الجوانب، فوضويةً على الاطلاق، بل كانت ذات اتجاه مُحدد.

ان للعملية التاريخية اتجاهاً واضحاً في مجال النشاط البشري، وخاصةً الاقتصاد. لقد واجه الانسان دوماً، كما هو الحال الآن، مُشكلة ضمان الظروف المادية لوجوده على الأرض. حدد الفكر الصيني القديم هذه الشروط في صيغة موجزة: "الملابس، الطعام، المسكن". ان تاريخ النشاط الاقتصادي للانسان، وتاريخ التكنولوجيا ونتاج السلع الملموسة هو خلق أشكال "الملابس، الطعام، المسكن" بما يتوافق مع الظروف الجغرافية التي يعيش فيها الانسان، والظروف الاجتماعية التي تتقدم حياته من خلالها والمتطلبات التي تخلقها هذه الظروف. فقط استخدام الموارد الطبيعية يجعل من هذا مُمكناً، لكن هذا الاستخدام يتطلب شغلاً. ان هذا الشغل ليس فقط مطلوب، بل ضروري في أشكال أكثر فاعليةً باستمرار، مُتحدداً بعاملين: التكنيكي والاجتماعي. في جانبها التقني، تعتمد الفعالية على توافر أدوات العمل وجودتها، وعلى درجة السيطرة على قوى الطبيعة. يتضح هذا بوضوح من خلال العملية التاريخية. نرى العصر الحجري، يليه عصر المعادن حيث العصر النحاسي والعصر البرونزي والعصر الحديدي والذي لا يزال البشر موجودون فيه في الوقت الحاضر. لكن الخطوط العريضة لعصر البوليمرات قد يكون قريباً بالفعل، وربما قد يتحدث الأركيولوجيين في المستقبل يوماً ما عن حقيبتين تقنيتين عظيمتين: عصر المواد الطبيعية التي خلقتها الطبيعة، وعصر المواد الاصطناعية، أي تلك التي خلقها الانسان. في نفس الوقت نلاحظ سيطرة الانسان التدريجية على قوى الطبيعة: طاقة النار، الماء، البخار، الكهرباء، الكهرومغناطيسية والاشعاعية. يُمكننا أن نرى حالياً السيطرة على الطاقة الذرية، أي طاقة المادة الأولية للطبيعة، وحتى طاقة الكون في التفاعلات النووية الحرارية. ومع ذلك، فان كفاءة العمل لا تعتمد فقط على مستوى التكنولوجيا، بل تتحدد أيضاً من خلال أشكال تنظيم العمل، وهذه الأشكال، بدورها، مرتبطة بالعلاقات الاجتماعية الموجودة في زمنٍ مُحدد.

يبدأ الوجود البشري حقاً عندما يبدأ الانسان في العمل بشكلٍ مُشترك مع الآخرين. تظهر أنواع مختلفة من العلاقات الاجتماعية في سياق هذا الوجود. بعضها يقوم على تعاون البشر المبني على المساواة، والبعض الآخر يقوم على استغلال البعض من قِبَل البعض الآخر. ان أقدم شكل من أشكال المُجتمع في الفئة الأولى هو المشاعات. يَنبُج عن الاستغلال أشكال مُختلفة من العلاقات الاجتماعية، من بينها نوعان يتحددان بأشد

الوضوح: الاستغلال بالاكراه غير الاقتصادي، أي بالسلطة المطلقة، والاستغلال بالاكراه الاقتصادي. يتضمن كلا النموذجين تنويعات تُحددها علاقات المُستغلين المُختلفة بأدوات ووسائل الإنتاج، بالإضافة مواقع مُختلفة يشغلها الاستغلاليين.

ان التنويعات من هذا النمط التي يُمكن تحديدها في هذا المجال من تاريخ البشرية كثيرة بالفعل. بعضها انتقالي، وبعضها الآخر دائم. نحن نرى العبودية والتبعية والحرية في تمظهرات ودرجات مُختلفة. لقد مرت البشرية بهذه الظروف المتنوعة طوال فترة وجودها. كانت في كثيرٍ من الأحيان موجودةً في زمنٍ واحد، وقد لوحظَ هذا ليس فقط داخل مجموعات مُختلفة من البشر على مستويات مختلفة من التطور الاجتماعي وحسب، بل وحتى داخل مجموعة واحدة أيضاً. وهكذا، على سبيل المثال، تواجدت في انجلترا وفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث كانتا دولتين متقدمتين في ذلك الوقت، أمراء اقطاعيين قروسيين تقريباً جنباً الى جنب مع رأسماليين برجوازيين ومُلاك عبيد في ممتلكاتهم الاستعمارية في شمال أمريكا.

تتحدد العلاقات الانتاجية من خلال طبيعة انتاج السلع وأشكال النشاط الاقتصادي، لكنها بدورها تؤثر على أشكال النشاط الاقتصادي وطابع الانتاج. قد تكون هذه العملية ذات الوجهين مُتناغمة في المحتوى ان كانت حالة قوى الانتاج وشكل المُجتمع متطابقين، وقد تكون غير مُنسجمة ان لم يكن هذا التطابق حاضراً. كما نعلم، عندما يصير هذا اللاتطابق حاداً بشكلٍ خاص، يتم استبدال الشكل الحالي للمُجتمع بأخر يتم فيه استعادة التطابق، أو يكون هذا اللاتطابق فيه أقل وضوحاً. ان قمنا بتتبع مسار التاريخ في هذا الجانب، فاننا سنجد أن هذا الاستبدال يحدث، بشكلٍ عام، كتلاشٍ تدريجي لأشكال التي تنطوي على الاكراه غير الاقتصادي، والانتقال الى أشكال قائمة على اكراه اقتصادي.

يشكف هذا الاتجاه عن الطبيعة الزاهية باتجاه التقدم وليس الطبيعة المُتكررة للعملية التاريخية. لا شك أن جميع أشكال المُجتمع التي تقوم على استغلال الانسان للانسان تنطوي على مُعاناة الغالبية العُظمى من البشر. ومع ذلك، فهي لا تُشكّل مظهراً من مظاهر الارادة الشريرة لشخصٍ ما. لقد خلقها التاريخ نفسه، من خلال الظروف التي جعل الانسان نفسه في ظلها سيد موارد الطبيعة وقواها. أجبر المستوى المُنخفض لهذه السيطرة على استبدال القوة البشرية بالأدوات، أو استخدام القوة البشرية كأداة مُساعدة للأدوات المُتاحة. حوّل هذا قسماً من البشرية الى أدوات انتاج حية، أي الى عبيد. يحدث موقف آخر عندما يعمل الانسان بأدوات حديثة ويتحكم في أعتى قوى الطبيعة. قام البشر، بطريقةٍ أو بأخرى، عن طريق الأشكال الاجتماعية المُشار إليها، بالاقتران مع عملية تزايد السيطرة على قوى الطبيعة، بتوسيع نطاق انتاجه باستمرار بحيث لا يُلبى احياجات فرد واحد، ولا مجموعة ضيقة، بل احتياجات المُجتمع ككل. وقد امتد هذا بشكلٍ مُتزايد عبر حدود الدولة، وهناك امكانية في عصرنا ليمتد الى البشرية جمعاء.

اليوم تم انشاء المُتطلبات المادية الأساسية لوجود عدد غير محدود من السكان على الأرض. ولكن من الضروري من أجل هذا اقامة التطابق المطلوب بين مستوى القوى المُنتجة وأشكال المُجتمع، اي اقامة نظام اجتماعي يجعل من المُمكن تحويل هذه المُتطلبات الى واقع. لقد رأينا، على مدار التاريخ، اختفاء العبودية في شكلها التاريخي، والقنانة كذلك. نرى كذلك، أنه في أجزاء من الكرة الأرضية يتم استبدال الاستغلال

الرأسمالي بالعمل الحر الخالي من الاستغلال. في ضوء ما سبق، فإن هذا المنظور واقعي تماماً. ونتيجةً لذلك، يُمكننا أن نرى بوضوح خاص، ليس فقط حقيقة أن التاريخ يحوي الاتجاه الى التقدم، بل أنه بطبيعته أصلاً يتقدم الى الأمام أكثر من كونه متكرراً.

بينما يتحرك الانسان عبر التاريخ، ينخرط في بحثٍ مُكثّف عن المعرفة. يحدث هذا في جميع الأزمان لأن هذا ما تتطلبه حياته الفيزيائية وحياته في المُجتمع. يتركز بحثه عن المعرفة الاجتماعية والطبيعية على السواء. وبالتالي، نظراً لأن هذا البحث نابع من الخبرة وخضوعه باستمرار للتحقق من خلال الممارسة والتجربة، فإن البحث يؤدي الى توسّع المعرفة حول الطبيعة والمُجتمع. ومع ذلك، فإن جهود الانسان لكي يجد معنىً ما للعالم من حوله تتمظهر بقوة هائلة في سياق نشاطه.

لقد اتخذ هذا البحث عن المعنى أشكالاً مختلفة. في الصين القديمة، كان يُعتبر وجود الطبيعة والانسان نتيجةً لأنشطة ثلاث قوى: "السماء، الأرض، الانسان". السماء تعني ظواهر مثل تعاقب الليل والنهار وفصول السنة والمناخ والطقس والظواهر في الغلاف الجوي. الأرض تعني التربة والخضروات وعالم الحيوان والمعادن وما الى ذلك. وقد تم وضع الانسان وقدراته على قدم المساواة مع هذه العناصر. لقد طوّرَ البحث العبري القديم عن المعنى مفهوم الانسان باعتباره "تاج الخليفة"، أي الانسان السيد والقائم بالحكم على كل شيء تقدمه له الطبيعة وتضعه تحت تصرفه. طوّرَ العديد من شعوب العالم القديم الأخرى مفهوماً آخر، حول كون أن قوى الطبيعة تقمع الانسان، ولكنه قادرٌ على مقاومتها، بل وحتى السيطرة عليها ولكن فقط بمساعدة بعض القوى الخارجية. يُقدّم تاريخ بحث الانسان عن المعنى في الطبيعة ومكانه فيها وعلاقته بقواها، الصورة الأكثر تعقيداً لتطورات وتغيرات الصراع بين هذه المفاهيم الثلاثة. كانت كل واحدة من هذه المفاهيم تجد لها، من خلال هذا الصراع، براهين جديدة لتدعمها وتفسيرات مختلفة، وتنشأ تنويعات جديدة لاحقاً. ومع ذلك، كان هناك مسعى واحد لكل هذا: كل كل شيء قائماً على الجهد المبذول لايجاد طرق ووسائل الوصول الى سيطرة أكبر على موارد وقوى الطبيعة من أجل تلبية الحاجات المُتزايدة باطراد عليها. ان هذا الاتجاه، والمسار نحو التقدم وليس المسار التكراري في هذا الصدد، ليس موضع شك.

كان بحث الانسان عن المعرفة أيضاً يركز على حياته في المُجتمع. في العصور القديمة، في الصين حتى في النصف الأول من الألفية الأولى قبل الميلاد، كان يُنظر الى حياة المُجتمع على أنها نشاط "العلاقات الخمس": الحُكّام والمحكومون، الآباء والأطفال، الزوج والزوجة، الأشقاء الكبار والصغار، وأخيراً الأصدقاء. ليس من الصعب أن نرى في هذه الصيغة المفاهيم التي تُطلق عليها الأسرة والمُجتمع والدولة. ان كل مفاهيم المُجتمع الأخرى تقوم على هذا الأساس: الاجتماعي والشخصي، الاكراه والحرية، الهيمنة والخضوع، الحقوق والواجبات، الشرعية والعسف، العدل والظلم، الخير والشر الاجتماعيين، مآثر البطولة ومثالب الجريمة، الخ. وهذه كانت تُفهم بطرق متنوعة. كانت الاختلافات شديدة فيما يتعلق بدرجة أهمية كل منها، وحتى بدرجة ضرورتها. كان مبدأ أرك (Arkhe) كرمز لنظام تُقيمه معايير عالمية والزامية ضرورية لوجود البشرية، يُقابله مبدأ آخر يتحدها، وهو مبدأ الأنارك "Anarchy" أي غياب السلطة، وهو رمز اجتماعي يخلو من كل اكراه. في فجر عصرنا، تصوّر الشاعر الروماني بوليبيوس اوفيديوس ناسو Ovid مُجتمعاً أطلق عليه

"العصر الذهبي"، وهو عصر يتمسك فيه الناس بـ"إيمانٍ عميق ومبادئ سامية، لم يشرع لهم قانون يلزمون حدوده أو يخافون عقابه، وعاشوا ليس لهم وازعٌ غير الضمير: فلا قُضاةٌ يفصلون بينهم، ولا حكامٌ يجازونهم، إذ لم يكن ثمة نزاعٌ أو عداون¹".



الشاعرة الرومانية أوفيد

بغض النظر عن مدى الاختلاف في فهم هذه المفاهيم ومدى الصراع المرير التي خاضتها ضد بعضها البعض، وعمل العقل البشري المُستمر لاكتشاف أحدها والتحقق من صحته وتأكيدِه ونفي الآخر، فإن كل هذا هو دليل واضح على المسار التقدمي لبحث الإنسان عن المعرفة في هذا المجال.

يكشف التاريخ بنفس القدر عن رحلة بحث الإنسان حول نفسه. "اعرف نفسك" هو النقش الذي رُسم، حسب الأسطورة، على بوابات معبد ديلفي أوراكل Delphic oracle، والذي شدد على السؤال الذي واجه الإنسان بشكلٍ أو بآخر بدءاً من أبكر مرحلة من مراحل حياته التاريخية.



نقش (اعرف نفسك) على بوابات معبد ديلفي

1 - مسخ الكائنات، الشاعرة أوفيد، ترجمة د. ثروت عكاشة، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992، ص33

لم يكن هذا في شكله الأولي سؤالاً تم تقديم اجابة عليه بالمعنى الدقيق للكلمة، بل كان قناعاتٍ داخلية، أو بالأحرى، تصوراً عن الذات. اعتبر الانسان نفسه، بوعي أو من غير وعيٍ منه، كائناً عقلائياً في المقام الأول، وكائناً اجتماعياً في المقام الثاني. هذا التصور الذاتي مُستمد من التجربة المُباشرة ومن المُلاحظات المُباشرة لنفسه وللآخرين من حوله، وتعزز من خلال توسع الخبرة والملاحظة. باختصار، اعتبر الانسان نفسه ما عرّفه البيولوجيين لاحقاً: الانسان العاقل Homo Sapiens، وفي نفس الوقت وصفه أرسطو بأنه حيوان سياسي Zoon Politikon.

تجلّى تصور الانسان عن نفسه ككائن عقلائي في بحثه عن المعرفة وفي عمله الابداعي. مع تطور هذا التصور، تم ادماجه مع الجهد لتفسير أصل العقل باعتباره الصفة المُميزة للانسان. وقد أدّى هذا التفسير الى انبثاق مفهومين حوله: مفهوم التلقّي، ومفهوم التحصيل. يقضي المفهوم الأول بأنه تلقى عقله من كائنٍ أعلى منه، ويأخذ هذا الكائن عادةً شكل الإله. وهكذا، أكدت المسيحية، واليهودية قبلها أن الإله خلق الانسان على "صورته"، لكنها كانت لا تزال تتحدث عن ولادة المسيح باعتبارها ظهور "نور العقل". أما المفهوم الثاني يقضي بأن الانسان يُحصّل ملكة العقل من خلال وجوده ذاته كشكل خاص من أشكال الوجود، والذي يُميزه عن أي كائنٍ آخر. تجلّى هذا المفهوم بشكلٍ كبير في البوذية، التي تقول بأن كل ما هو موجود، بما في ذلك الانسان، يتكون من حُزْمٍ من الخيوط المترابطة والقوية التي تمر عبر تيارٍ من الوجود الذي لا يحوز أي بداية أو نهاية، وتتجلى في مجموعة متنوعة من التظاهرات المُختلفة. ان خاصية العقل هي فقط تلك التي تُميّز حُزْمة معينة من الخيوط تُسمّى الانسان.

تمثّل هذين الموقفين في التاريخ من خلال عدد لا حصر له من التنويعات الفكرية، مُعبّراً عنها بأساطير وأقوال وخرافات وأغاني شعرية ومفاهيم دينية وفلسفية وعلمية. وبالتالي، يُمكن أن نعتبر أن مفهوم العقل الذي تم تلقيه من كائنٍ أعلى، بأن هذا الكائن يمتلك هذه الخاصية أصلاً وهو غير راغب بتقديمها للبشر. تم التعبير عن هذا التصور في اسطورة بروميتيوس الذي سرَق النار من زيوس. يُمكن أن يُفهم تلقّي العقل من كائنٍ أعلى على أنه فعل طبيعي بحكم قرب البشر من هذا الكائن أو حتى بسبب التطابق معه. تم التعبير عن هذا التصور في اليهودية التي تحدثت عن خلق الانسان على صورة الإله، وفي الاوبانيشاد Upanishads الهندية التي تؤكد تطابق الإله والانسان، وفي شكل آخر طرحه المفهوم اليوناني القديم عن الآلهة التي تُشبه البشر في كل شيء.

غالباً ما يتم العثور على المفهوم القائل بأن الانسان قد حصّل العقل بشكلٍ مستقل بالاقتران مع فكرة أن هذه الخاصية مُتأصلة فيه، وبالتالي يتم التأكيد في تعاليم الشارفاكا Charvaka الهندوسية الهندية القديمة أن العقل هو خاصية لوجود الانسان الجسدي. يشبه هذا المفهوم أحد تعاليم الصينيين القدامى الذين قالوا بوجود ثلاث صفات متأصلة في الانسان: العقل، الانسانية، الشجاعة. هذا الأفكار مُشابهة جداً لتلك التي تُشير اليها بعبارة: "العقل، الحساسة، الارادة". يُمكن أن تندمج التصورات حول الاكتساب المُستقل للعقل، مع الأفكار التي تتصور تطور هذه الخاصية عند المرء في سياق خبرة العمل والكفاح والحياة. وهكذا، فان تاريخ بحث الانسان عن المعرفة، في هذا الصدد، هو صورة لجهدٍ فكري متواصل ركّز على طُرُق استيعاب الثروات الفكرية الهائلة ومفهمتها والتعبير عنها بالأمثلة والرموز.

ركزَ بحث الانسان عن المعرفة أيضاً على مسألة حل أبسط الأسئلة: جوهر عملية الحياة ذاتها. لم يكن هذا السؤال تجريدياً بأي حالٍ من الأحوال، فقد كان نشاط الانسان بحد ذاته هو المسؤول عن طرح المسألة. ان هذا السؤال يتقدم بأكثر أشكاله عموميةً كما يلي: هل تسير كامل حياة الانسان بشكلٍ مُستقل عن ارادته ورغبته، أم هل يُحدد الانسان بنفسه طريقه ومصيره؟ وانطلاقاً من مصير الانسان الفردي، انتقل السؤال الى مصير حياة المُجتمع ككل، وأخيراً الى مصير وجود العالم برمته. طُرحت اجابات مُختلفة على هذا السؤال، ولكن كان أقدم الاجابات وأكثرهما نموذجيةً اثنتين: ان حياة ومصير الانسان والمُجتمع والعالم بأسره يسير بشكلٍ مستقل عن ارادة الانسان ورغبته، والاجابة الثانية كانت تؤكد أن مصير الانسان والمُجتمع يُحدده البشر أنفسهم. في الأول يُحدد مسار الانسان والمُجتمع والعالم كائنٌ كان يُعتبر الها، أو قَدراً، أو قوةً قانونية تعمل بشكلٍ مُستقل عن ارادة الانسان. في الثاني يُعتبر الانسان نفسه خالق حياة ومصير الانسان والمُجتمع وخالق قوانينه. كان هناك اجابة ثالثة، وهي في الواقع الأكثر شيوعاً: تحكم حياة ومصير الانسان والمُجتمع والطبيعة قوة من نوع خاص يُمكن للانسان أن يؤثر عليها بالصلاة والقرابين والتهديدات وتطبيق القوى الخاصة الموجودة في تصرف الانسان، والتي حتى الآلهة تخضع لها. وأخيراً، هناك فكرة تقول كذلك بأن أي حياة تسير وفقاً للقوانين، ولكن هذه القوانين خلقتها الحياة نفسها ولا يستطيع الانسان فهمها أو السيطرة عليها بأي شكلٍ من الأشكال.

يُظهر تاريخ الدين والفلسفة صورة معقدة ومتنوعة تمت فيها صياغة تنويعات كثيرة منها. ومع ذلك، فان الفكرة الأكثر شيوعاً من هذه المقاربات هي وجود مبدئين يحكمان الوجود. واحدة من أبسط التنويعات عن هذا المفهوم تطرحها رموز يهوه والشيطان Jehovah and Satan، واورموزد واهريمان Ormuzd and Ahriman.



تصوير من قصة يهوه والشيطان

يرتكز هذا المفهوم على الملاحظة الحياتية لما هو نافع وضار للانسان والطبيعة، كالخير والشر. تعبير بسيط آخر بنفس القدر عن هذه الفكرة، والذي تأسس أيضاً على الملاحظة، وهو رموز الأضداد: النور والظلام، الحرارة والبرودة، القاسي واللين، الشيوخوخة والشباب، الرجل والمرأة، الخ. هناك أيضاً مفهوم القوتان يانغ

ويبين Yang and Yin والذي طوره الصينيين القدامى، ومفهوم الأضداد الذي أنشأه الفكر اليوناني وعبر عنه فيثاغورس.



أورموزد وأهريمان

تم التعبير عن مفهوم مماثل في رمزية الأرقام عند اليونانيين القدامى، والرموز الخطية عند الصينيين القدامى: الأول يُرمز له بخط واحد، والثاني يُرمز بخط مُقسّم الى جزأين. وهذا يُعبر عن فكرة عمل قوى الوحدة والانقسام والتكامل والتمايز. تم تطوير نموذج لحركة هاتين القوتين وعبر عنهما في رموز بيانية صوّرت عملية التطور المتعاقبة للتركيبات والانتقالات واستبدالها. يتم تصوير مبدأ عملية الحياة، في البوذية، بصيغة السبب-النتيجة، مع ادراك أن كل سبب يؤدي الى نتيجة، وأن النتيجة تُصبح هدفاً.

وهكذا، وبغض النظر عن مجال بحث الانسان عن المعرفة الذي نتحدث عنه، يكشف التاريخ عن جهد بشري عقلي متواصل وكبير لفهم كل ما يتعلق بالمجتمع والطبيعة والانسان نفسه. ظهرت أسئلة جديدة في سياق هذا الجهد، وتغيّر محتوى الأسئلة القديمة كما تغير فهمها، وتطورت مناهج كثيرة لحلها. كانت هناك، بشكل عام، عملية مُعقدة ومتناقضة ولكنها غير مُنقطعة لتوسيع المعارف وتنقيح تفاصيلها، وفي نفس الوقت كانت المعرفة تخدم دائماً الأهداف التي تطرحها الحياة على مجموعة من الناس أو على البشرية جمعاء. يتم وضع هذه الأهداف باستمرار في شكل أكثر تعقيداً أكثر مما مضى، ويشير البحث عن المعرفة التي تدمج خبرة البحث السابقة، بدرجة أو بأخرى، الى طرق ووسائل حل تلك المشكلات.

ان كان الانسان ولا يزال هو خالق التاريخ، فان التاريخ بدوره كان ولا يزال هو خالق الانسان. ان النظام الاجتماعي الذي أنشأه الانسان يُشكّل ويصوغ الانسان نفسه. ان المعرفة من صنع الانسان، لكنها بدورها تصنع عقله. لذلك، يتطور الانسان نفسه من كلا الجانبين، ككائن عقلائي وكائن اجتماعي في سياق التاريخ وفي نشاطه الاقتصادي والاجتماعي الذي يرتبط دائماً بالبحث عن المعرفة. انه لدى السؤال حول ما يُمكن اعتباره "تحسيناً" للانسان اجاباتٍ عديدة، وقد قام الفكر الصيني القديم بطرح واحدة من أقدم الاجابات التي

اشْتُقَّتْ من فكرة طبيعة الانسان كحيوان عقلائي واجتماعي، والتي توقّر على الأرجح، أكثر معيار من حيث اتساع نطاق تربيته من أجل القياس: يفهم الانسان "الأشياء"، أي العالم بأسره من حوله وكذلك نفسه، وهو يخلق المعرفة على هذا الأساس. المعرفة تجعل أفكاره متطابقة مع الحقيقة، وينتج عن صحة أفكاره "صحة القلب"، أي بكلماتٍ أخرى العواطف. تتحسن شخصية الانسان من خلال كل هذا. عندما تكون شخصية الانسان كاملة تكون الأسرة في أحسن أوضاعها وتُحكّم الدولة بشكلٍ صحيح وبذلك يسود السلام على كل شيء تحت سقف السماء.

بهذا الشكل أو ذلك، فإن فكرة امكانية وضرورة تحسين الانسان والعلاقة بين حالة المجتمع التي يُمكن فيها تحسين الانسان تلاحق فكر الانسان طوال تاريخه بأكمله. يتميز المفهوم الصيني القديم المذكور أعلاه بالافتتاح أن الكمال الشخصي يبدأ بتحصيل معرفة "الأشياء"، أي عالم الوجود الموضوعي. بمعنى آخر، أنه يبدأ بعمل العقل بناءً على الخبرة والتجربة. لا تقل أهميةً في هذا المفهوم، الفكرة حول أن نشاط الانسان يتركز على هدف واحد أثناء تحسين شخصيته وأوضاعه الاجتماعية والحكومية: تحقيق السلام في "العالم بأسره"، أي على الأرض حيث يعيش البشر. تمت صياغة الكلمات القديمة حول "السلام على الأرض" و"حُسن النية تجاه البشر" في أزمنة أخرى وبين شعوب متنوعة وفي اطار منظومات مفاهيمية مُتعددة. لكنها كانت تتحدث حول الشيء نفسه، أي حول "نور العقل" على وجه التحديد. تحمل هذه التعبيرات وما شابهها- وهناك عدد كبير منها- بصمة الحلم الأزلي للأبدي للانسان حول وجود بشري حقيقي.

لغة البشر هي مؤشر واضح ومباشر بشكلٍ استثنائي على تطور الانسان الفكري. تتحقق المعرفة بالفكر، لكن الفكر يأخذ شكلاً مُحدداً و"لموساً" فقط في الاطار الصوتي. يقول ماركس: "ان اللغة قديمة قَدَم الوعي، فاللغة هي الوعي الفعلي، العملي، الموجود أيضاً من البشر الآخرين، وبالتالي موجود اذاً، كذلك بصورة فعلية من أجلي فقط"¹. لذلك يُمكننا من خلال اللغة أن نحكم على حالة الفكر وعملياته ومستواه.

نحن نجد في كل لغة، عدد من الكليات وعدد آخر من الجُزئيات بهذا الشكل أو ذلك. يتكون فعل اللغة كتعبير عن فعل الادراك من معرفة العلاقة بين الظواهر المختلفة التي يتم فهمها في اطار اللغة، أو في الكشف عن الكُل على أنه وحدة أجزاءه. يكشف فعل الاندماج والتمايز هذا عن محتوى العالم الموضوعي حيث تُشكّل جميع الظواهر كياناتٍ بذاتها من ناحية، وتشكيلة من عناصر متنوعة من ناحيةٍ أخرى. هذا يعني، أن الفكر، كوظيفة للعقل، يُحدده الوجود وهو يتلائم معه وهذا يخلق امكانية أن يتمكن العقل من الوصول الى معرفة كافية عن الواقع. يُمكن استيعاب الواقع بلغة المفاهيم والصور والرموز. ان لغة المفاهيم هي أداة العلم، ولغة الصور هي أداة الابداع الأدبي، والرموز هي لغة الأساطير. ولكن يُمكن لهذا أن يكون صحيحاً عندما نتحدث فقط عن أشكال الفكر "النقية" من خلال المفاهيم والصور والرموز ان جاز التعبير، على الرغم من عدم وجود مثل هذه الأشكال النقية في الواقع. لا يستطيع الابداع الأدبي أن يستغني عن لغات المفاهيم والرموز. لا يُمكن تصوّر الأساطير بدون الصور. بينما لا نجد الرموز في الأدب ولا سيما الشعر وحسب، بل وفي العلم

1 - الايديولوجيا الألمانية، ماركس وانجلز، ترجمة فواد أيوب، دار الفارابي 2016، ص 49

أيضاً. انهم يطرحون في هذا الأخير الرموز الرياضية والصيغ الكيميائية وما الى ذلك. كل هذا يُثبت التنوع الكبير في أشكال الفكر والطبيعة مُتعددة الجوانب لاستيعاب الانسان للواقع بعمق، اي التغلغل الى جوهر الظواهر المُراد فهمها.

اللغة هي أيضاً وسيلة تواصل. انها على حد تعبير ماركس، "مثل الوعي" "تنشأ من الحاجة، من الضرورة المُلحة للتعامل مع البشر الآخرين"¹. هذه الوظيفة الأخيرة، تكشف عن الطبيعة الاجتماعية للانسان، ولكن يجب أن لا يُفهم التواصل على أنه عملية استخراج Externalization: ان التواصل يتضمن الفهم، قبل كل شيء. التواصل من خلال اللغة مُمكن فقط لأن اللغة تحتوي على فئات وأشكال فكرية مُشتركة لمجموعة مُعينة، والسبب في ذلك أن المفاهيم والصور والرموز تُوضع في تعبيرات تمتلك نفس المعنى لجميع من هم في المجموعة. اللغة ليست فقط أداة تواصل ونشاط مُشترك، ولكنها أيضاً تعبير عن التواصل الفكري بين أفراد المجموعة المُعطاة. وليس من دون سبب أن نعتبر اللغة عنصراً من أهم عناصر الأمة، وهي أعلى شكل من أشكال الوحدة الاجتماعية التي حققتها الانسانية حتى الآن.

يُبرهن التاريخ والواقع المُعاصر على وجود عدد هائل من اللغات، مما يُثبت مدى تنوع المسارات التي استوعب من خلالها الانسان معنى الواقع ويستوعبه اليوم، ومدى تعدد وتنوع أشكال التعبير اللغوي عن هذا الوعي بالعالم المُحيط. لكن في الوقت نفسه، تكشف لنا العملية التاريخية أن هذه اللغات تقترب باستمرار من بعضها. لا يتأتى من ذلك أن هناك لغة واحدة ستنشأ من مجموعة مختلفة من اللغات. لا تكمن عقبة التواصل الجماهيري عبر قناة اللغة في الاختلاف بين اللغات بحد ذاته، بل بسبب الاختلاف في التركيب السيمانطيقي للغات المُختلفة، أي الاختلاف في محتواها وعدد المفاهيم والصور والرموز والاختلاف في معناها والاختلاف في شروط وامكانيات ربط هذه المفاهيم والصور والرموز. يتطلب التواصل الجماهيري والنشاط المُشترك للانسان فهم ما يقوله الانسان الآخر بغض النظر عن اللغة التي يتحدث بها، وأي فهم من هذا القبيل مبني على تشابه المستويات الفكرية، وبالتالي، على مستوى التعليم والثقافة في التحليل النهائي. فُهم الرومان واليونانيون بعضهم بعضاً في العصر الهيليني ليس فقط لأن كثيرين منهم كانوا يعرفون كلتا اللغتين، ولكن تعلم كلٌ منهم لغة الآخر بسهولة لأن الشعبين كانا يقفان على نفس المستوى من التطور الفكري، وكان لديهم ثقافة مُتطابقة تقريباً. لقد فهم الكوريون واليابانيون الصينيين في العصور الوسطى ليس فقط لأنهم كانوا يعرفون اللغة الصينية، ولكن لأن محتوى تفكيرهم تحدد الى حدٍ كبير من خلال نفس الظروف التي حكمت التفكير الصيني. كانت وحدة النظام السيمانطيقي في لغات الشعوب الأوروبية زمن عصر النهضة هي التربة التي تطور عليها التواصل الدولي بعد ذلك بشكلٍ شاملٍ وفعال.

تُظهر العملية التاريخية أن لغات مختلف قطاعات البشرية تقترب من بعضها باستمرار، مع احتفاظ كلٍ منها بسماتها، وهذا التقارب هو انعكاس في اللغة لعملية توسع الروابط بين الشعوب وتعززها وتبادل المعرفة والثقافة، وهو ما يرجع بدوره الى الحاجة المتزايدة لبذل جهودٍ دولية مُشتركة. يرجع تشابه اللغات في هذه الحالة الى تطابق النظام الدلالي، على الرغم من اختلاف الأشكال التي يتم التعبير عنها، يتقدم هذا التشابه في سياق الأنشطة المُشتركة التي تضم اليوم جميع البشر تقريباً وتُشارك فيه جميع فروع العلم والثقافة.

1 - نفس المصدر

أدى اتساع نطاق هذا الترابط الفكري الى انبثاق ظواهر تشير بشكلٍ مُتزايد الى اتجاه هذه العملية. ظَهَرَ ما نُطلق عليه التواصل الجماهيري، أي التوسع اللامحدود لنطاق التواصل اللغوي، في حدود اللغات الفردية. وغني عن البيان أن هذا التوسع نَتَجَّ عن حاجات الحياة الاجتماعية المُلحة بكل تناقضاتها. ومع ذلك، نَتَجَّ عن هذه الضرورة وسائل جديدة للتواصل اللغوي مصممة خصيصاً للتواصل على نطاقٍ واسع. هذه الوسائل هي الراديو والتلفزيون والصور المتحركة وأنظمة الإشارة وكل أشكال التواصل الصوتي والبصري الأخرى والصحافة الشعبية وغيرها من أشكال الطباعة الكثيرة. ظَهَرَ شكل جديد تماماً من أشكال التواصل على مستوى التواصل بلغاتٍ مُختلفة. يُمكن أن يُطلق عليه اتصال متزامن مُتعدد اللغات. لكن أصبح هذا التواصل ممكناً لأن الشعوب تتحدث بلغاتٍ مُختلفة لكنهم يتحدثون عن الأمر نفسه. قد يكون لديهم مواقف مُختلفة تجاه الأشياء التي يتحدثون عنها، لكن الموضوعات مُتطابقة والصلات بين الموضوعات التي يتحدثون عنها يتم تصورها بطريقة متطابقة. هذه اللغة الانسانية المُشتركة تقوم على التفاهم المُتبادل بالمعنى اللغوي للمصطلح، وبدون هذا الفهم المُتبادل لن يكون من المُمكن التقدم أو النضال من أجل هدفٍ مُشترك للبشرية جمعاء، وهو السلام، كما فهمه بشر العصور القديمة.

تُظهر حالة اللغة البشرية والطريقة التي يسير بها النشاط اللغوي في يومنا هذا بشكلٍ مُقنع التطور الهائل لكلٍ من الشخصية الانسانية والعقل البشري على الخصوص. ان تاريخ اللغات الذي تحدثنا عنه جنباً الى جنب مع تاريخ المعرفة والعلاقات الاجتماعية يُثبت بشكلٍ مُقنع الطبيعة التقدمية للعملية التاريخية.

وهكذا، عمل الانسان خلال فترة وجوده التاريخي، بلا كلل، على السيطرة على الأرض التي وجد نفسه يعيش عليها. لقد سيطر على قوى الطبيعة ووضعها في خدمته وبالتالي أشبَع احتياجاته التي نمت كمياً ونوعياً وأثبت أن الأرض يُمكنها أن تُعيل أي عددٍ من الناس. خلال هذه العملية، اكتشف قوانين الطبيعة وطوّر وسائل استخدامها لتحقيق غاياته وابتكر أدوات ووسائل العمل وبالتالي أظهر أنه من الممكن تطوير التكنولوجيا بشكلٍ مُستمر من خلال تحصيل المزيد من المعارف عن الطبيعة.

ولم يدخر الانسان جهداً كذلك، لخلق أشكال اجتماعية تناسب كل مرحلة رئيسية في تاريخه كل مستوى من مستويات التكنولوجيا والانتاج المادي. لقد تجاوزَ الأشكال التي نشأت في المراحل الماضية واستبدلها بأشكالٍ جديدة تناسب المرحلة اللاحقة. لقد وَجَدَ أشكال من التنظيم الاجتماعي أفضل من تلك السابقة ووضع معايير لتنظيم العلاقات بين أفراد المُجتمع. لقد توصل الى فهم المطالب الاجتماعية للمجتمع والفرد، وهي مطالب كامنة في الطبيعة الاجتماعية للانسان، حيث أصبحت أكثر تعقيداً في سياق تقدم المُجتمع ككل. لقد طوّر المؤسسات الاجتماعية الضرورية، وأظهرَ بذلك امكانية النمو المطرد للمعارف حول المُجتمع والبشر وامكانية التطوير اللاحق للمؤسسات الاجتماعية على أساس هذه المعرفة، من أجل ضمان تعايش البشر دون عوائق لتحقيق الأهداف المنشودة.

ان الطبيعة التقدمية لنشاطات الانسان في بحثه عن المعرفة واضحة أيضاً. اتسع نطاق معارفه المكتسبة تدريجياً بشكلٍ مُطرد، ليشمل ليس فقط ما وجده الانسان على الأرض، بل ما رآه في السماء كذلك. رافقت

التعميمات المعرفة التجريبية، أي كانت المعرفة النظرية التي انتشرت باستمرار الى مجالاتٍ أوسع من المعرفة. تم التعبير عن تطور العقل البشري في هذه العملية من خلال خلق الانسان لجميع الأدوات التي ساعدته في بحثه. هذه الأدوات تتخذ شكل الأجهزة وأيضاً شكل العلوم المتنوعة. أثبت التاريخ أن هناك امكانيات هائلة لتوسيع نطاق البحث عن المعرفة.

ان تطور الانسان المُستمر في مسار تاريخه مُثبت أيضاً من خلال ابداعه لأشكالٍ مُختلفة من المعرفة، وفي نفس الوقت، تلبيةً للاحتياجات مُتعددة الجوانب للفرد والمجتمع بكل تعقيداته. تشمل هذه الابداعات العلم والدين والفلسفة والفن، واستخدام الكلمات والأصوات الموسيقية والخطوط والألوان والمواد الصلبة ثلاثية الأبعاد. هذه الظواهر، القديمة قَدَم الانسانية نفسها، هي من ابداعات الانسان، ولكنها تكتسب، في المجتمع البشري، استقلالها الخاص، وتُصبح عواملاً تؤثر على حياة الانسان والمجتمع. يُثبت التاريخ التطور المُستمر لهذه الابداعات البشرية وازدياد تعقيدها وتغير شكلها وتزايد أهميتها في الحياة الاجتماعية. ان كل أداة عمل صُنعت للتو، يصنعها الانسان على أساس خبرته ومعرفته. ومع ذلك، فانها تؤثر على صانعها وتوجه عمله وأفكاره بمجرد انشاءها. ان كل شكل من أشكال الوجود الاجتماعي الذي تتم اقامته من قِبَل البشر أنفسهم، يؤثر على المجتمع الذي أنشأه، ويؤثر بعمق على وعي الانسان واتجاه التطور التاريخي اللاحق. ينطبق هذا أيضاً على العلم والفلسفة والأدب والفن.

وغني عن البيان أن حركة الانسان الى الأمام لم تكن مُنتظمة ولا مُستمرة على طول هذا الطريق. عرّف التاريخ فتراتٍ من الركود، وحتى التراجع عن المُنجزات السابقة. تُعرّف أيضاً فتراتٍ من الحركة المُكثفة الصاعدة الى أمام بشكلٍ خاص. نحن نُدرِك أيضاً أنه تكون الحركة العامة في فترةٍ ما غير متزامنة: نرى تقدماً في بعض فروع الحياة الاجتماعية والفكرية، وتفهماً أو ركوداً في فروعٍ أخرى. لكن يجب أن نضع في اعتبارنا، من أجل فهم حركة التاريخ في هذا الصدد، أن تقييمات المُعاصرين فيما يتعلق بعصرهم وماضيهم قد يُملئها فهم ضيق جداً للعملية لتاريخية ككل. مثال على هذا، كانت التقييمات التي طرحها انسانيو عصر النهضة الايطاليون فيما يتعلق بالعصور الوسطى والعصور القديمة، نابغةً من وجهة نظر المشاكل التي واجهت المجتمع الأكثر تقدماً في ذلك العصر، أي المجتمع الايطالي، كانت الحياة التي عاش بها المجتمع حتى ذلك الحين، أي في القرون التي أُطلق الانسانيون عليها اسم "القرون الوسطى" تعني حياةً راكدة، وأن تجاوز ما هو قائم يتطلب تبريراً. ان وصف العصور الوسطى بأنها عصور الظلام والانحطاط قَدَم هذا التبرير. ومع ذلك، فان هذا الوصف يُمثل تقييماً من وجهة نظر الرغبات الحالية والمستقبلية، ولكن ليس من وجهة نظر الفترة التي ظهرت منها هذه العصور الوسطى. يجب علينا، من أجل تحديد أهمية كل حقبة في التاريخ، أن نُقيّم كلٌ منها في ضوء مساهماتها الجديدة مُقارنةً بالفترة السابقة، وما ان كان هذا الجديد قد ساهم بمزيدٍ من التقدم أم لا.

يجب أن نكون حذرين كذلك عند تقييم الماضي كشيء استثنائي لا يُشبه أي شيء يتعلق بالفترات اللاحقة. هذا هو موقف الانسانيين من العصور الأوروبية القديمة، أي تاريخ روما واليونان القديمة. يجب على الحكم السليم على هذه التقييمات أن يأخذ في الاعتبار أن هؤلاء الكُتّاب لم يعتبروا العصر ككل هو المثل الأعلى، ولكنهم انتقوا منه ما بدا لهم أنه لافتٌ للنظر بشكلٍ خاص. يجب أيضاً أن نتذكر أن مثل هذا التقييم للماضي هو

في الأساس صورة لحاضرٍ أو مستقبلٍ مرغوبٍ فيه، واسقاط لمثل الحاضر على الماضي. يُقدّم هذا الاجراء أبسط طريقة لتصوير المطلوب بصورةٍ ملموسة. تم أيضاً أمثلة العصور القديمة في وقتٍ لاحقٍ عندما كانت البرجوازية لا تزال تلعب دوراً تقدمياً. لقد بالغت في تضخيم دور الديمقراطية الأثينية والمؤسسة الجمهورية الرومانية في سعيها لتأسيس أنظمة ديمقراطية ضمن حدودٍ برجوازية. لا داعي بالطبع للتأكيد على أن الديمقراطية القديمة، لم تكن، بمعناها التاريخ والاجتماعي، مُماثلةً إطلاقاً للديمقراطية البرجوازية. لذلك، من الضروري، عند وصف المسار المُستقبلي للتاريخ، مُعالجة هذا النوع من الأحكام للوصول الى صورة أكثر واقعية لما كان المُجتمع يرغب أو لا يرغب في التوصل اليه في حقبةٍ مُعينة، أي ما يعتبره تقدماً تظهر الأهمية التاريخية لكل عصر بالمقارنة مع العصور السابقة واللاحقة. وفي اطار هذه الملاحظات فقط، فنحن مضطرون الى عدم أخذ اللحظات الفردية في مسار التاريخ بعين الاعتبار، بل في نطاقه كاملاً، وبهذا يظهر بأن حركته تسير الأمام وأن تطور البشرية كان ثابتاً من جميع الجوانب.

هل يجب أن نطرح السؤال عما اذا كان هذا التطور يُمثل تقدماً؟ تعتمد الاجابة على هذا السؤال تماماً على ما هو التقدم المعني. ان استبدال السهم بالمسدس وماسكت البارود بالبندقية الأوتوماتيكية يُشير الى تطور ليس فقط التكنولوجي، بل وكل المعرفة العلمية ذات الصلة. لكن هل هذا تقدّم؟ ان الانتقال من القتال وجهاً لوجه، مع وجود مخاطر مُماثلة لكل مُشارك، الى القتل عن بُعد، حيث يكون أحد الأطراف في مكان آمن، تطلّب بلا شك تقدماً في العلوم والتكنولوجيا. القدرة على قتل جمهورٍ من الناس في وقتٍ واحد وما يتبعه من مُعاناةٍ وحزن وجرائم هو بالطبع نتيجةً لتطور العلم والتكنولوجيا. لكن هل يُمكن أن يُسمّى هذا تقدماً؟ أصبح استخدام الكمامة الساخنة بالتيار الكهربائي في التعذيب أمراً مُمكناً بفضل التقدم التكنيكي الهائل واكتشاف الكهرباء، وهو حدث ساطع. هذا هذا يعني تقدماً؟ كراهية البشر التي نشأت مع البشرية ذاتها منذ بداياتها والتي تتكرر باستمرار بأشكال وأنواع مُختلفة، هل يُثبت هذا أي تقدّم؟ لا يُمكن انكار وجود مثل هذه الظواهر في الماضي والحاضر. يُمكن للمرء أن يعرض مُقابل كل شيء ايجابي في التاريخ شيئاً سلبياً، وكثير من الأشياء التي تحتوي شيئاً ايجابياً تحوي في ذاتها شيئاً سلبياً أيضاً. لذلك، للاجابة عما ان كان مسار التاريخ يُثبت التقدم، يجب أن نُحدد في البداية ما يجب اعتباره تقدماً. ولتجنب الدوغمائية في الاجابة على هذا السؤال، يجب أن نتخذ بعض الحقائق التي لا خلاف حولها كنقطة انطلاق: ان الانسان هو صانع التاريخ، بطبيعته الاجتماعية دون أن نتعاطى معها بشكلٍ تجريدي، بل كما ظهرت في نشاطه عبر التاريخ، هي حقيقة واقعة. لكن التاريخ يُظهر أن الانسان كائن عقلاني واجتماعي. لذلك، لا يُمكن اعتبار أي شيء تقدمي الا تلك الأشياء التي تظهر كنتيجة لنشاط الانسان التاريخي والتي تتفق مع مبادئ طبيعته الاجتماعية وتُعزز تحقيقها. ومع ذلك، يجب أن نأخذ في الاعتبار، أن هذين المبدأين ليسا مُنغزلين في الطبيعة الانسانية، ولكنهما موجودان بالاقتران مع بعضهما البعض. لذلك، لا يُمكننا أن نعتبر الشيء التقدمي هو ذلك الذي يتمظهر من خلال العقل الانساني، أو فقط ما يُحرره من كل القيود الناشئة عن تطوره الاجتماعي. يُمكن اعتبار النشاط العقلاني تقدماً حقاً فقط عندما يتزامن مع نشاط المبدأ الاجتماعي من طبيعته. يصبح النشاط تقدماً حينما يتزامن المبدأ الاجتماعي والعقلاني معاً.

لا يكفي ما سبق وقلناه من أجل وضع تعريف كامل لمفهوم التقدمي. يُشكل ما هو عقلاني وما هو اجتماعي

خصائص لكيان واحد وهو الانسان، وهذا يعني أنهما مرتبطان في شيء يُميز الانسان ككيانٍ واحد. اعترف الانسان منذ زمنٍ بعيد بوجود هذه الخاصية، وهي أعلى قانون في الطبيعة البشرية، وقد وصف هذه الخاصية بكلماتٍ مُختلفة، وفُهِمَت بطرق متنوعة في عصورٍ مُختلفة في التاريخ وفي ظروف اجتماعية مُختلفة. لكن جوهرها، على العموم، قد فُهِمَ بنفس الطريقة. هذه الخاصية هي الانسانية.

منذ منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد، فُهِمَ كونفوشيوس واولئك الذين تحدثوا على لسانه "الانسانية" zhen بمعنى التعاطف، مثل شيء قلبي. كل انسان له نفس "القلب" مثل أي شخصٍ آخر، ومن هنا يترتب على ذلك أنه لا يشعر فقط بكل شيء كما يشعر الآخر به وحسب، بل ولا يُمكنه أن يكون لأمبالٍ بما يشعر به الآخرين: حُزن الآخر هو حُزنه، وسعادة الآخر هو سعادته نفسه. وبالتالي، يعيش كُلُّ منهم من خلال ما يعيشه الآخرين، ويفعلون ذلك بكل "صدق". يتكشف طابع هذه الكلمة الأخيرة عن معناه من خلال لفظة "وسط القلب" أو "داخل القلب". يجب أن يكون الشعور صادقاً، أي يجب أن يأتي من "داخل القلب". في نفس الزمن تقريباً، عبّر الهنود، وهم مركز تاريخي قديم، عن مفهوم مُشابه من خلال كلمة "التعاطف". أصبحت هذه الصيغة جزءاً من التعاليم البوذية. تم التعبير عن الطبيعة النشطة للتعاطف بمطْلَب "الاحسان". في فجر عصرنا، وَجَدَ المفهوم نفسه تعبيراً عنه في كلمة "حبوا بعضكم" التي نُسِبَت الى اليسوع، وتطلبت هذه العبارة نشاطاً مُحددًا.

نجد في هذه الصيغ وغيرها التي عبّرَ عنها الأنبياء والحكماء بغض النظر عن دورهم كمؤسسي أديان أو مُبدعي مدارس فلسفية أو شخصيات عامة أو كُتّاب أو علماء، نجد أوضح تعبير للمبدأ الاجتماعي في طبيعة الانسان مقترناً بالعقل.

كانت هناك أزمنة في التاريخ اكتسب فيها موضوع "الانسانية" زخماً مُعيناً عندما أصبحَ مركز اهتمام الجمهور وأصبحَ قوةً دافعةً للتنوير والثقافة. كان هناك العديد من هذه الأزمنة. عصر النهضة ما هو الا الأحداث. لقد مرّت الشعوب التي كان تطورها الثقافي طويلاً ومتواصلًا بفترات مُشابهة في أزمنة مُختلفة. حَدَثَ هذا في تاريخ الشعب الصيني بين القرنين الثامن والثاني عشر، وفي تاريخ الشعوب الايرانية وشعوب الشرق الأوسط المرتبطين بهم وشمال غرب الهند من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر، وفي تاريخ الشعب الايطالي وبين الشعوب الأوروبية الذين كانوا على اتصالٍ بهم منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر. أعلن المتحدثين باسم عصر النهضة الصينية قيمة الانسان من حيث قدرته على الكمال الذاتي بشكلٍ رئيسي، بينما أكدوا أن صفة "الانسانية" تكمن تحديداً في "حب الجميع". رأى رواد عصر النهضة الايرانية-الهندية في الشرق الأوسط أن قيمة الانسان تكمن في قدرته على أن يكون أخلاقياً بدرجة عالية، كأن يكون نبيل الروح وكراماً ومُحباً للصدقة. اعتبر رواد عصر النهضة الأوروبية أن الانسان هو حامل العقل بالدرجة الأولى. لقد اعتبروا أن العقل هو أعلى مظهر من مظاهر الطبيعة البشرية ولذلك حثُّوا على احترام الانسان على هذا النحو وتحرير عقله مما يُعيق تطوره. ان التطور الثقافي اللاحق للبشرية مدين بكل العمق لكل هؤلاء. لذلك فان أسماء مثل لي بو Li Po وتو فو Tu Fu و بو تشو Po Chu وأبو قاسم الفردوسي والسعدي وجلال الدين الرومي وفرانسيسكو بترارك Francesco Petrarca وبيير رونسارد Pierre de Ronsard، والمفكرين والعلماء أمثال هان يو Han Yueh ولو تسان وان Liu Tsun-yuan والفارابي

والبيروني وابن سينا وجيوفاني ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola وديدرو
Desiderius Erasmus Roterodamus واولريك فون هوتين
Ulrich von Hutten وجيودارنو برونو، نقول، هذه الأسماء جديرة بالاحترام الى يومنا هذا. لقد وَجَدَ جميع
رواد النهضة العالميين في جميع أنحاء العالم الكلمة التي كانت بالنسبة لهم التعبير الدقيق عن الانسان والتي
نستخدمها اليوم بهذا المعنى. يتم نطق هذه الكلمة في لغاتٍ مُختلفة. وهي كلمة Humanism بالنسبة لشعوب
أوروبا.



أبو قاسم الفردوسي

وهكذا، فان المعيار الذي طوره تاريخ البشرية ذاته، موجود بالفعل لتحديد ما هو تقدمي حقاً. يُشير هذا
المعيار، المُعبّر عنه بكلمة "الانسانية" الى تلك الصفات الخاصة بالطبيعة البشرية، وتقييمها على أنها أعلى
مبادئ للحياة الاجتماعية. ما هو تقدمي يتوافق مع ما هو انساني.



جلال الدين الرومي

يُمكننا، في ضوء هذا الطرح، أن نرى ما هو مُظلم في التاريخ. لكن الانجاز البشري العظيم حقاً، وربما يكون
أعلى تمظهرات التقدم، هو حقيقة أن الناس قد ميّزوا ذلك، وسمّوا الشر بأنه شر، والاكراه اكرهاً والجريمة
جريمة. ان ظهور المفاهيم التي تدل عليها هذه المصطلحات هو دليل على التقدم، فهذه كلمات لا تصف

الظواهر والأفعال فحسب، بل يتم تقييمها وادانتها. لم تنشأ هذه الكلمات عسفاً، بل وُلدت في خِصَم عملية التطور والتواصل. لقد نَتَجَت عن وجود مبادئ العقلانية والاجتماعية في الطبيعة البشرية.

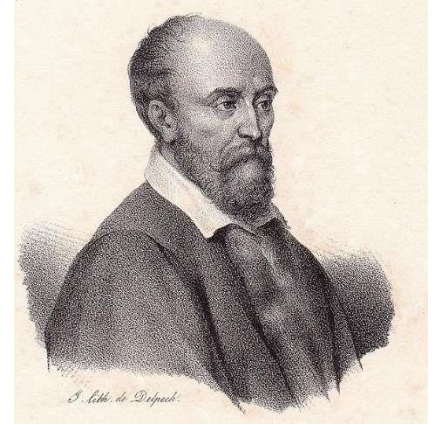


alamy

Image ID: 014771
www.alamy.com

فرانسيسكو بترارك

ان تطور فهم ما يجب تقييمه على أنه شر هو دليل آخر على التقدم.



بيير رونسارد

وتألف هذا التطور، من الفصل التدريجي لمفاهيم الشر نفسها عن العوامل التي تربطها بمصالح هذه الفئة والطبقة أو تلك. بالطبع، قد يكون الشر الرئيسي هو ما تعتبره مجموعة مُعينة شراً: يحدث هذا عندما تكون مثل هذه المجموعة هي المسيطرة. في المُجتمع الطبقي تكون الطبقة الأكثر تقدماً في فترة تاريخية مُعينة هي الأداة للتعبير عن ذلك. ولكن حتى في المُجتمع الطبقي فإن أفضل مُمثلي البشرية لم ينسوا أبداً أن الشر يطبق على الجميع بشكلٍ مُتساوٍ، أي أنهم حولوا مفهوم الشر من المجال الاجتماعي الضيق الى مجال البشرية قاطبةً. على الرغم من أنه لم يكن بإمكان هذا المفهوم أن يتطور أبعد من هذا في عصرهم التاريخي، إلا أنه

كان بمثابة مَعَلِّم على الطريق التاريخي للانسان.



طابع بريد سوفيتي، بمناسبة الذكرى الألف والمئة لميلاد الفارابي

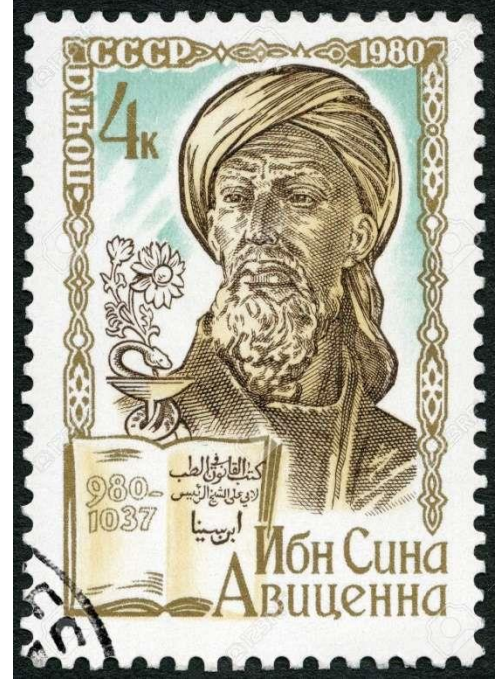
تتشابك مفاهيم الشر والعنف والجريمة مع مفهوم واجب مُحاربة كل هذا، أي واجب القضاء على الشر من حياة الانسان.



طابع بريد سوفيتي بمناسبة الذكرى الخمسمائة لميلاد البيروني

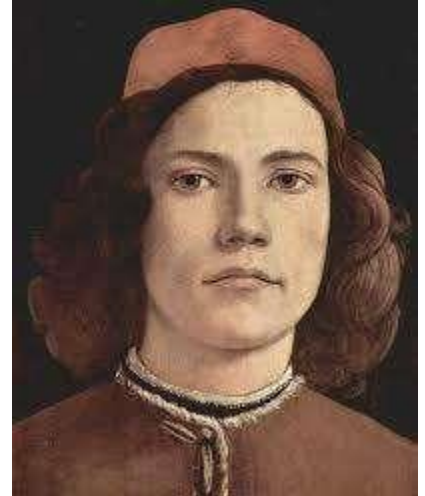
لطالما تم خوض هذا النضال، وهذا بدوره دليل واضح على التقدم. كان النضال يُشَن، بطبيعة الحال، ضد ما كان يُعتَبَر أنه الشر الرئيسي في زمنه، في المقام الأول. في هذا الصدد، لم يكن مُحْتَوَى النضال هو الذي

يتغير، بل أهدافه. يتكشف التقدم في هذا المجال في حقيقة أن النضال لم يكن متوجهاً ضد مظاهر الشر، بل الى مصادره وأسبابه.



طابع بريد سوفيتي

هنا، يظهر جلياً التحسن المستمر في فهم مصادر الشر و الوضوح المتزايد باستمرار لطبيعته الاجتماعية والهدف الرئيسي للنضال وما هو مسار النضال الأكثر فعالية ضده.



جيوفاني ميراندولا

ما الذي نراه كأصل للشر في عصرنا هذا، عندما أتاح لنا تطور قوى الانتاج وقدرتنا على السيطرة على

الطبيعة، أن نطرح المسألة العملية تماماً حول ضمان حياة تليق بالانسانية جمعاء؟



بيدرو

ان مصدر الشر في عصرنا هو استغلال الانسان للانسان واللجوء الى الحرب، أي القتل الجماعي المنظم كوسيلة لحل النزاعات الاجتماعية. من الناحية التاريخية، فان استغلال الانسان للانسان ليس بالأمر المستجد، ونحن نفهم أنه كان لا مفر منه في مرحلة مُعينة من تطور قوى الانتاج. والحرب كذلك كانت مُبررة تاريخياً. لكننا في نفس الوقت نفهم أنه يُمكن، مع المستوى العالي لتطور القوى المُنتجة، وقيام ثورة أكتوبر بفتح الأبواب للشيوعية، أن يتم القضاء على استغلال الانسان لأخيه الانسان، وأن الحرب، في المُجتمع الحديث هي ببساطة لامعقولة. لا يُمكننا أن نطرح فكرة أن استغلال الانسان للانسان الى جانب الحرب هي جرائم ضد الانسانية بدون مفهوم "الانسانية" الذي ناقشناه أعلاه. اختلف محتوى "الانسانية" في مُختلف العصور التاريخية. في عصرنا، يتمثل المفهوم البارز للانسانية، قبل كل شيء، في أن المصادر الرئيسية لكل الشرور الاجتماعية هي استغلال الانسان للانسان والحروب. لذلك، فان النضال من أجل القضاء على هذه الشرور هو أسمى تعبير عن التقدم الاجتماعي. ومع ذلك، يجب أن يتم هذا النضال وفقاً لما هو انساني في الانسان. هنا أود أن أعود الى ما بدأت به. الانسانية في محتواها الاجتماعي، هي أهم الأفكار العظيمة التي قدمتها البشرية خلال آلاف السنين من تاريخها. ان فكرة "الانسانية" هي أيضاً الأكثر أهمية اجتماعياً من بين جميع المقولات الأخلاقية. لقد كانت دائماً أعلى معيار للتقدم البشري الحقيقي.

أعلن انجلز، في الرسالة الى ميهرينغ التي استشهدنا منها سابقاً، أنه من غير المعقول الاعتقاد بأنه هو وماركس غير راغبين في الاعتراف بأن كل مجال من مجالات الايديولوجيا يحوز على تطور تاريخي مستقل خاص به، وبالتالي يُرغم انهم يُنكرون أن لها أي تأثير على التاريخ. كتب انجلز: "وأن أساس ذلك هو التصور غير الجدلي المُشترك عن السبب والنتيجة من حيث هما قطبان متعارضة بصورة جامدة، والجهل التام بالتفاعل المُتبادل"¹. ان يكون القضاء على استغلال الانسان للانسان وخطر الحرب مُمكناً-مصادر الشر هذه التي تُسببت وتُسبب للبشرية مثل هذه المعاناة- أن يصل المُجتمع البشري الى حالة يُمكن فيها توحيد تيار التطور التاريخي والنهوض بالمفاهيم الأخلاقية التي وُلدت في الفكر، بما في ذلك المفهوم الاجتماعي الأكثر أهمية "الانسانية"؟ ان تتحقق هذه الوحدة من خلال التحويل المستمر للمفاهيم الأخلاقية بشكل عام، ومفهوم

¹ - مراسلات ماركس وانجلز، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب، دار دمشق 1981، ص540

"الانسانية" في المقام الأول، الى معيار طبيعي للسلوك البشري؟ ان كل تاريخ البشرية السابق، وكل الواقع الحالي يتطلب هذا. ونحن نعيش بثقة راسخة في أن هذا سيحدث.



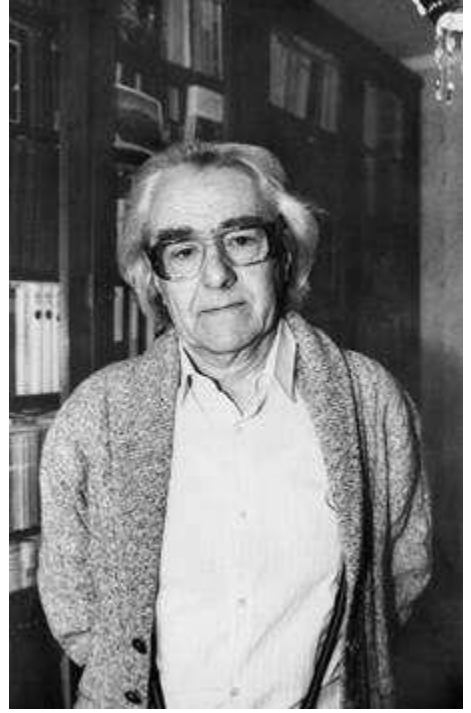
جيودارنو برونو

هل هناك حد لتحرك الانسان الى الأمام؟ تتوقف الاجابة على هذا السؤال على اجابة سؤال آخر: هل يُمكن أن يكون هناك حد لمثل هذه الحركة بشكلٍ عام؟ يبدو أن الاجابة هي نعم ولا. لا، لأننا لا نستطيع تخمين أشكال وأنواع الشر التي قد تنشأ في المستقبل عندما يتم القضاء على شرور اليوم. ومع ذلك، يوجد هناك حد، وان شئنا الدقة، هناك فكرة حول حدٍ ما. ظَهَرَت هذا الفكرة في شكل صورة لمُجتمع مثالي. رُسمَت هذه الصورة بطرق مُختلفة جداً. ففي القرن التاسع قبل الميلاد ظهرت فكرة حول دولة الشعب الصيني على شكل "الأرض السعيدة"، وعبروا عن آمالهم في تحقيق ذلك بانشاد أغنية: "هناك أرضٌ سعيدة! نعم، أرضٌ سعيدة! في تلك الأرض بعيداً سنجد وطننا الجديد". تصوّر الرومان واليونانيون القدماء المُجتمع الكامل على صورة "العصر الذهبي". ان فكرة هذا الهدف التي تم التعبير عنها بصور مُختلفة لم تُبَارح البشرية أبداً وألهمت للنضال ضد كل ما يُعيق تحقيق الحالة الاجتماعية المثلى التي تليق بالانسان. هذا ما وصفه دوستويفسكي بوضوح كبير: "ان العصر الذهبي هو أكثر الأحلام غير المُمكنة، لكنه الحلم الذي كرّس الناس من أجله كل حياتهم وكل قوتهم والذي من أجله صُلبَ الناس وقُتِلَ الأنبياء، والذي بدونه لا يريد الناس أن يعيشوا أو حتى أن يموتوا". ربما يكون هذا الحلم هو أسمى مظهر من مظاهر الانسانية عند الانسان، مظهر من مظاهر تلك الانسانية التي كانت دائماً ولا تزال أعظم الأفكار في البرنامج الاجتماعي.

ترجمة لمقالة:

N. I. Konrad (1962) Notes on the Meaning of History, Soviet Studies in History, 1:1, 3-23

بعض جوانب دراسة التاريخ الاجتماعي (السيكولوجيا الاجتماعية التاريخية)



أرون ياكوفليفيتش غورفيتش*

ان السيكولوجيا الاجتماعية هو أحد التخصصات العلمية، الذي من شأن دراسة منهجه وموضوعه أن يُقدّم لنا، في رأينا، آفاقاً مثمرة للغاية للبحث التاريخي.

*أرون ياكوفليفيتش غورفيتش

1924-2006 مؤرخ ماركسي سوفيتي وعالم ثقافة.

كان عضواً في الكومسومول اللينيني عام 1940. عمل في مصنع عسكري حتى عام 1944. وفي الوقت نفسه درس في قسم المراسلات في كلية التاريخ التابعة جامعة موسكو الحكومية وتخرّج من قسم تاريخ العصور الوسطى عام 1946. تخرّج من دورة الدراسات العليا في معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية حيث درّس فيها من الأعوام 1947-1950. ألقى مُحاضرات عن تاريخ العصور الوسطى في قسم المراسلات في معهد كالوغا عام 1950، وفي نفس العام تم تعيينه في معهد كالينين التربوي في كلية التاريخ: كان مُساعداً في الأعوام 1950-1953، ومُحاضر أول في الأعوام 1953-1957 وأستاذ مُشارك 1957-1963، وبروفسور في الأعوام 1963-1966. في الأعوام 1966-1969 كان باحثاً أول في قسم الثقافة التابع لمعهد الفلسفة في أكاديمية العلوم. عمل منذ عام 1969 في معهد التاريخ العام التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، وترأس منذ عام 1987 مركز الأنثروبولوجيا التاريخية والثقافية التابع لمركز الدراسات الشرقية في أكاديمية العلوم. درّس تاريخ الاقطاعية في جامعة موسكو الحكومية في الأعوام 1975-1977. كانت اطروحته كمرشح في العلوم التاريخية عام 1950 بعنوان "فلاحو جنوب غرب إنجلترا في الفترة ما قبل النورماندية"، ودكتوراة في العلوم التاريخية عام 1962 بأطروحة عنوانها "مقالات عن التاريخ الاجتماعي للنرويج في القرنين التاسع-الثاني عشر". ألفت عدد من فصول الكُتب المدرسية حول تاريخ العصور الوسطى للمعاهد التربوية، ونُشرت بالفرنسية والبرتغالية. ومؤلف فصل عن تاريخ شمال أوروبا في الكُتب المدرسية لكلية التاريخ في جامعة موسكو الحكومية (1968، 1977، 1990) بالإضافة الى عددٍ من المقالات في العمل المُشترك "تاريخ الفلاحين في أوروبا" 1985-1986. كان نشاط غورفيتش العلمي يتمحور حول تاريخ الثقافة الأوروبية في العصور الوسطى، والتاريخ الحديث، ونظرية الثقافة ومنهجية البحث التاريخي، وتاريخ الدول الاسكندنافية في العصور الوسطى والانثروبولوجيا الثقافية. وهو مؤلف أكثر من 500 ورقة علمية. من كُتبه: (حملات الفاكينغ) 1966، وترجم للبولندية والاستونوية. (الفلاحين الأحرار في النرويج الاقطاعية) 1967. (مسائل نشوء الاقطاعية في أوروبا الغربية) 1970 نُشر باللغة السويدية والاطالاية. (أنماط الثقافة القروسطية) 1984، نُشر بالألمانية والرومانية والبولندية والتشيكية والاسبانية والفرنسية والانجليزية والليتوانية والبرتغالية واليابانية. وغيرها الكثير من الكُتب.

ان موضوع السيكولوجيا الاجتماعية مزدوج. تشمل مهامها، في المقام الأول، دراسة تكيّف عقلية الفرد من خلال عضويته في مجتمع أو طبقة أو مجموعة اجتماعية. تهتم السيكولوجيا الاجتماعية بجوانب العقلية والسلوك العاطفي للانسان الذي يتشكل نتيجة حياته ونشاطه في المجموعة. في المقام الثاني، تدرس السيكولوجيا الاجتماعية معايير سلوك الجماعات والمُجمّعات، وردود الفعل النفسية للجماهير. نحن نعلم أن السلوك العاطفي للمجموعة ليس مجرد مجموع مشاعر الأفراد المُكونين لها. من ناحية أخرى، فإن عقل الفرد وتمظهراته في المجموعة ليست متماثلة للحياة الفكرية للفرد المعزول. دائماً ما تكون الحياة العقلية للفرد داخل المجموعة عرضةً للتغيير الى حدٍ ما تحت تأثير هذه الأخيرة. من ناحية أخرى، توجد أشكال التفاعلات الذهنية التي تُميّز في المقام الأول أو حصراً الجماعات أو المجموعات أو الجمهور - على سبيل المثال، مثل البطولة الثورية الجماهيرية، أو الصفات الرجعية، مثل الهستيريا القومية والتعصب.

يشمل نظام التفاعلات الاجتماعية التشارك الفكري، في أي مجموعة بشرية، من أصغرها وأكثرها بدائيةً (دعونا نقول الأسرة مثلاً) الى أكبرها (الطبقة، الشعب، الأمة)، والذي-أي نظام التفاعلات- يُحدد بدرجة كبيرة العوامل النفسية الداخلية للمجموعة ويؤثر على درجة استقرارها وحيويتها وفعاليتها وطبيعة علاقاتها مع المجموعات الأخرى.

ان النفسية الاجتماعية هي عامل مهم في حياة المُجتمع. لن تكون العديد من الظواهر مفهومة ان لم تؤخذ النفسية الاجتماعية في الاعتبار. نحن نعلم أنه حتى لو توافرت جميع المُتطلبات الموضوعية والشروط الضرورية لانتصار ثورة، فانها لن تنجح ان لم يكن الشعب المُشارك في الثورة عازماً ويحوز الحماس الثوري. من ناحية أخرى، يُمكن أن يؤدي اضعاف معنويات الثوار والتغير في مزاج الجماهير الى تدمير حركة ثورية كانت من قبل جاهزةً بالكامل. وبطبيعة الحال، فان هذا الحماس بحد ذاته، هو، الى حدٍ كبير، مظهر ليس فقط للنفسية، ولكن قبل كل شيء، للأيديولوجيا. عادةً ما تتبع الشجاعة والتفاني لقضية الثورة من فهم أهداف التحرك والأفكار التي تُلهمها. لكن الشعارات والنداءات التي تصوغ الأفكار المنتشرة بين الجماهير يجب أن تتطابق مع أرضية نفسية مواتية وتجد توسطاً نفسياً مناسباً عند شرائح وطبقات مُعينة في المُجتمع. لذلك يسعى القادة الثوريون دائماً الى أخذ جميع العوامل التي تقود الى نجاح الانتفاضة أو الثورة بما في ذلك النفسية الاجتماعية ومزاج الجماهير والاستفادة من وضعية نشاطهم من أجل توجيهه نحو الاتجاه المناسب.

يتجلّى عامل النفسية الاجتماعية بشكلٍ أكثر وضوحاً في الحروب. ان الروح القتالية للجيش هي تشابك للعوامل الايديولوجية والاجتماعية-النفسية. لا تتحدد فقط من خلال الايديولوجيا التي يُقاتل الجيش تحت رايتها، ولكن أيضاً، بدرجة كبيرة، من خلال الحالة المزاجية السائدة بين القوات في هذه اللحظة. عبّر تولستوي عن هذا بدقة كبيرة في روايته (الحرب والسلام): "معنوية الجنود، أي زيادة الرغبة في القتال وفي التعرض للخطر أو نقصانها، التي يُمكن أن تجيش في صدور كل الجنود الذين يُشكلون جيشاً، وذلك على نحو مُستقل كل الاستقلال عن مسألة معرفة ما اذا كانوا يُقاتلون تحت امرة عباقرة على ثلاثة خطوط أو على خطين، وبالeraوات أو البنادق التي تطلق 30 طلقة في الدقيقة. ان الرجال الذين فيهم رغبة كبرى في القتال،

يقيمون أنفسهم دائماً من تلقاء أنفسهم في المراكز الأكثر قابلية للقتال¹. هنا مرةً أخرى نواجه مسألة درجة تناسب الحالة الأخلاقية والنفسية للجماهير، وروح ايديولوجيتها الاجتماعية. كان حب الوطن والوطنية الذين الهمتا الشعب الروسي في النضال ضد الغزو الأجنبي مُكون من مجموعة من العوامل الايديولوجية والاجتماعية-النفسية.

ان النفسية الاجتماعية للناس لها أهمية كبيرة أيضاً في وقت السلم. يكفي أن نتذكر ظواهر مثل تلك التي تنطوي على حماس الناس للعمل، مثل أيام السبت الشيوعية غير مدفوعة الأجر وحركة العمل في الخطة الخمسية الأولى، وحركة ستاخانوف الثانية، وافتتاح الأرض البكر ومشاركة الشباب في مشاريع البناء في سيبيريا والشرق الأقصى، وحركة فِزق العمل الشيوعي، ونحن نرى الى جانب العوامل الايديولوجية المفهومة تماماً، عوامل اجتماعية-نفسية. تُصبح المُثل العليا، بعد أن تدخل عالم المشاعر الانسانية، قوةً تُحفّز المزاج والحماس الموافق لها.

تتطلب مسألة العلاقة المتبادلة بين الايديولوجيا والنفسية الاجتماعية كجانبين من جوانب الحياة الفكرية للمجتمع، اهتماماً خاصاً. عند الحديث عن هذا باختصار، يجب التأكيد على أن هذين المجالين، او مستويين مُختلفين من الوعي الاجتماعي. يشمل المجال الايديولوجي كامل مجموعة الأفكار والآراء الاجتماعية المُنظمة الى حدٍ ما. تعبر الايديولوجيا قبل كل شيء عن المصالح الطبقيّة الأساسية وهي مستوى من الوعي الاجتماعي. لكن هذا لا يستنفد الوعي الاجتماعي على الاطلاق. انه (اي الوعي الاجتماعي) يشمل المستوى الثاني الأدنى من المستوى الايديولوجي، وهو المُستوى الاجتماعي-النفسية. يشمل مفهوم "النفسية الاجتماعية" ظواهر متنوعة وغير متجانسة، يُمكن تمييز مجموعتين رئيسيتين من بينها. أولاً، لدينا العادات الاجتماعية والعادات والتقاليد وتُشكّل معاً المجموعة الذهنية للمجموعة الاجتماعية. هذه المجموعة الأولى مُستقرة نسبياً ولا تتغير الا تدريجياً. ثانياً، ان لدى النفسية الاجتماعية جانباً أكثر تغيراً، وهو الجانب العاطفي حيث نجد المزاج الاجتماعي والمشاعر المُرتبطة بشكلٍ مُباشر بمصالح واحتياجات المجموعة الاجتماعية. لا يشمل المستوى الايديولوجي للنفسية الاجتماعية العوامل الواعية فقط، بل اللاواعية، على عكس مستوى الحياة الفكرية.

يجب أن نلاحظ، الى جانب الاختلافات في مُحتوى الايديولوجيا والنفسية الاجتماعية، ضرورة التأكيد على ترابطها وتشابكها أيضاً. تفترض الايديولوجيا، التي تنشأ على أساس ادراك المصالح والاحتياجات الاجتماعية، مشاعر وأمزجة مُحددة مرتبطة بهذه الاحتياجات الاجتماعية. انها ترتبط ليس فقط بعقول البشر بل ومشاعرهم كذلك، وتُمارس تأثير قوي على الجانب العاطفي من حياتهم. تحتوي النفسية الاجتماعية دائماً على عوامل ايديولوجية. يتبع تطورها الى حدٍ كبير بالأفكار التي تحياها الطبقات الاجتماعية. لكن في الوقت نفسه، فان العلاقة المتبادلة بين الايديولوجيا والنفسية الاجتماعية معقدة ومتناقضة.

غالباً ما تظل العادات والتقاليد الاجتماعية مستقرة، بسبب طابعها المُحافظ الذي يُميزها، حتى عندما تتغير

1 - الحرب والسلام، ليو تولستوي، الجزء الرابع، مكتبة مدبولي 1996، ص210

ايديولوجية المُجتمع أو الطبقة المعنية. ومن ناحية أخرى، يُمكن للحالة المزاجية الاجتماعية أن تتغير بسرعة تبعاً لتسلسل الأحداث، دون تغيير المستوى الايديولوجي الأعلى منه. وبالتالي فإن الخط الذي يفصل بين مجالات الايديولوجيا والنفسية الاجتماعية هو خط غير ثابت، الى حد كبير. تتركز الثقافة الانسانية على كلا هذين الجانبين وتستمد محتواها منهما. ومع ذلك، فإن تجاهل النفسية الاجتماعية، كما يحدث في البحث التاريخي في كثيرٍ من الأحيان هو أمر غير مُبرر. يجب أن لا يفشل المرء في أن يأخذ في الاعتبار الاختلاف النوعي بين مستويي الحياة الفكرية للمُجتمع المُرتبط بالعلاقة بين العفوية والوعي في تطور المُجتمع.

لا يُمكن للمرء أن يشك بأهمية دراسة علم النفس الاجتماعي الحديث. يُتابع العلماء السوفييت هذه الدراسة في السنوات الأخيرة¹، والتي انقطعت في بداية الثلاثينيات، وعلى الرغم من أنه لم يمر وقت طويل على هذا الاستئناف، الا أنه يُمكننا بالفعل رؤية مجموعة من المسائل المطروحة للدراسة. ولكن، نادراً ما تمت دراسة أحد جوانب علم النفس الاجتماعي المُتعلق بجانبه التاريخي. لا شك في أن دراسة التطور الذهني للشعوب في العهود الماضية لا تقل أهمية عن دراسة النفسية الاجتماعية للمُجتمع المعاصر. يجب أن يشمل التاريخ الاجتماعي، وهو العمود الفقري للبحث التاريخي- كلاً من الحياة المادية والفكرية. لا يعني المفهوم المادي للتاريخ على الاطلاق أنه يجب اختزال كل ثروة محتوي العملية التاريخية في تحليل التغيرات في عمليات الانتاج والنظام الاجتماعي-السياسي. لا يُمكن اختزال تاريخ الانسانية في مُجرد تطور وسائل انتاج السلع المادية. يجب على جميع جوانب حياة الانسان والمُجتمع أن تدخل في نطاق اهتمام المؤرخين. من الضروري التغلب على الرأي القائل بأن الحياة الفكرية للمُجتمع هي أمر ثانوي وشيء "يُزخرف" البنية الاجتماعية-الاقتصادية².

ان نظرنا الى الكتب المدرسية وكتب التاريخ الشائعة (بما في ذلك Vsemirnaia istoriia) فسندج أن المقالات أو الفصول المتعلقة بتاريخ الثقافة الفكرية تكون في أفضل الأحوال عبارة عن ملاحق للنص الأساسي، وليست مرتبطة بها عضويًا. وهذه الملاحق ليست موجودة في الكتب المدرسية عن التاريخ الحديث والمعاصر. هذه أيضاً مشكلة يواجهها تدريس التاريخ ودورات التاريخ المُتقدمة في مؤسسات التعليم العالي. تقوم مناهج التاريخ، وفي حالات غير قليلة، باستبعاد الفن والأدب وغيرهما من مظاهر الحياة الفكرية للمُجتمع من سيرورة تاريخ العالم.

ان العلاقة المُتبادلة بين مُختلف أشكال ومستويات الوعي الاجتماعي، وعناصر الوعي والعفوية، لا تبقى ثابتة في مستويات مُختلفة من التطور التاريخي. يُمكن للمرء أن يتفق، في الشكل الأكثر عمومية، مع الفكر القائلة بأن دور الايديولوجيا في الوعي الاجتماعي يزداد على مدار التطور التاريخي، وأن النفسية الاجتماعية، على الرغم من عدم تقلص أهميتها في حياة المُجتمع تخضع بشكلٍ مُتزايدٍ للايديولوجيا³.

¹ - See articles in Voprosy psikhologii, 1962, nos. 2, 5, and 1963, nos. 1,

² - Kommunist, 1963, No. 8; Voprosy filosofii. 1962, No. 5, and 1963, nos. 11, 12; Voprosy marksistskoi psikhologii, Leningrad, 1962; Vestnik LGU, 1959, No. 11; Tezisy dokladov na 11 s'ezde obshchestva psikhologov, No. 3, Moscow, 1963.

³ - Goriacheva, op. cit., pp. 59-60, 64

أشار ماركس وانجلز ولينين مراراً وتكراراً، في تطويرهم للفهم المادي للتاريخ، الى أن هذه العملية لا تحدث بدون مشاركة الكائنات الانسانية وأفكارهم ومشاعرهم وقناعاتهم. تحتوي كتابات مؤسسي الماركسية اللينينية على أمثلة عديدة على استخدام الوصف السيكولوجي لتحليل الواقع الاجتماعي. انطلاقاً من هذه الأمثلة، يجب على المؤرخين الماركسيين أن يدرسوا بشكلٍ نقدي تجربة وخبرات علماء الماضي البرجوازيين في تطوير علم النفس الاجتماعي التاريخي (ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville، كارل لامبريخت Karl Lamprecht، ماكس فيبر، فيرديناند تونيز، جورج زيميل، فيرنر سومبارت Werner Sombart، ليف كارسافين Lev Platonovich Karsavin، اولغا روجديستفينسكايا Olga Rozhdestvenskaya وغيرهم ممن كانوا مهتمين بهذه المسائل)، حتى يتسنى، بعد التخلص من جميع الطروحات المثالية والذاتية التي تكثر في أدبياتهم، ايجاد عناصرها العقلانية وتطويرها بشكلٍ ابداعي.



ألكسيس دو توكفيل

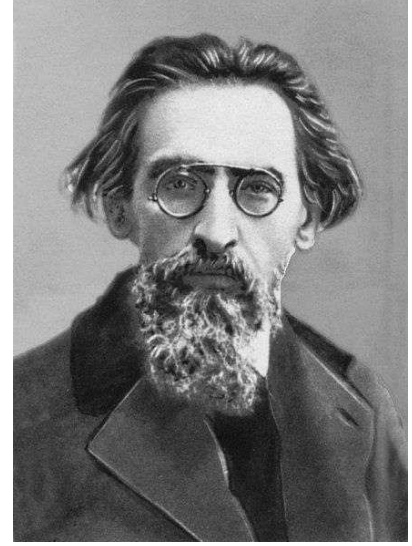
من الواضح أن علم النفس الاجتماعي الماركسي، باعتباره أحد جوانب البحث التاريخي، مبني على أسس مختلفة اختلافاً جوهرياً عن علم النفس الاجتماعي البرجوازي.



كارل لامبريخت

يُظهر المؤرخون الماركسيون ويفسرون التفاعل المُعقد بين مُختلف جوانب حياة المُجتمع، دون فصل الجانب الفكري وخصوصاً النفسي، عن الجانب الاجتماعي، ودون اضافة صفة الاطلاق عليه. ليس لدى المؤرخين

الماركسيين أي شيء مُشترك مع ما يُسمى الاتجاه السيكلوجي في السوسولوجيا البرجوازية، التي تسعى الى اختزال العملية التاريخية بأكملها في المشاعر والأمزجة البشرية. ليست "الغرائز المُظلمة" ولا العوامل "اللاواعية"، والتي يُحب السوسولوجيون والمؤرخون البرجوازيون التحدث عنها في وقتنا الحاضر، هي الدافع الأساسي لنشاط الناس في التاريخ. يوضّح البحث في الحياة الاجتماعية-النفسية والايديولوجية للمُجتمع أنها مشروطة بالوجود المادي.



ليف كارسافين

ان الدراسات التاريخية، باعتبارها مُتميزة عن السوسولوجيا، لا تُعالج القوانين التي تعمل على مسار التاريخ، ولكن، في المقام الأول، تُعالج تمظهراتها العيانية التي تتوافق مع القوانين في مجتمع وفترة معينة. نظراً لأن فعل هذا مستحيل دون النظر الى الثراء الكامل لمحتوى العملية التاريخية، فان علم النفس الاجتماعي التاريخي يكتسب أهمية الوسيلة التي نوسع من خلالها معرفتنا بواقع تاريخي مُعطى. ان المؤرخ الذي يكشف عن المُحدد المادي لأفعال وسلوكيات الفئات والطبقات الاجتماعية وأنتاج تفسيراً لها وفقاً لمخطط "تفاهم الاستغلال (تملك العبيد، الاقطاعية، الرأسمالية) يؤدي الى رد فعل الجماهير الكادحة (صراع طبقي أكثر حدة، هروب العبيد والفلاحين، تمردات شعبية، اضرابات، الخ)، هو مُذنب بأنه يُبسّط الحقائق، ويُفسرها بطريقة صحيحة، ولكن غير كافية. يُحاول الكثير من المؤرخين أن يكتفوا بتفسير الصراع الاجتماعي المُعطى من خلال الأسباب الاقتصادية وحدها دون محاولة الكشف عن العوامل الأخرى التي قد لا تكون بحد ذاتها قد أدت الى ظهور الحدث المُراد وصفه، لكنها أثرت في طابعه، وسرّعت من وتيرة حدوثه. توضع هذه العوامل عادةً في قائمة "المصادفات" و"المُحفزات المُباشرة"، كقائمة ليس لها علاقة بالأسباب العميقة للحدث أو الحركة.

يكتسب علم النفس الاجتماعي التاريخي، المنظور اليه من وجهة نظر السببية، أهمية جديدةً بالنسبة لنا. لا يتعلق الأمر فقط بالعوامل الموضوعية، أي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية التي تُحدد الحدث التاريخي المعني، والعلاقة بينها. من الضروري توضيح الآلية التي تُساعد في جعل هذه العوامل الموضوعية قوةً دافعةً للبشر. ان السبب المادي، وفعله، المُعبّر عنه في أفعال البشر، مُترابطان، ولكن ليس

ميكانيكياً وليس بشكلٍ مباشر. ان مجموعة الظروف برمتها، التي يُشير إليها المؤرخ كمفهوم سبب حدث معين، لا تؤثر على الناس كمجرد حافز خارجي. الأفراد والجمهير ليست مجرد أجساد مادية ولا مواضيع سلبية تتفاعل تلقائياً مع حوافز خارجية. انهم شخوص الفعل التاريخي وذواته وفاعله. لذلك يجب على الباحث الذي يسعى الى فهم الديناميكيات الفعلية للعملية التاريخية أن يقوم، في كل حالة ملموسة، بدراسة كيف تنعكس الحياة الاجتماعية في عقول البشر مُتشكلاً عندهم في مفاهيم وتخيلات وعواطف، وكيف تُحدد هذه العوامل الخاضعة للتحويل الذاتي، أفعال البشر، وكيف تُلهم أفراداً وجماعات اجتماعية وجماهير للانخراط في أحداث وأعمال مُعينة. بعبارةٍ أخرى، توجد علاقة معقدة ومتناقضة بين الواقع الاجتماعي الذي يُسبب فعلاً تاريخياً، وهذا الفعل نفسه. تصبح الظروف الموضوعية سبب أفعال البشر من خلال عملية عبورها في عقولهم ومشاعرهم وتصبح موضوعاً لحياتهم الاجتماعية-النفسية. هذه بدورها تتشكل، من ناحية، في ظروف تاريخية ملموسة للوجود الاجتماعي، وهي نفسها، تكتسب، من ناحيةٍ أخرى، قيمة عاملٍ ضروري لأفعال البشر الاجتماعية. من المستحيل، بدون دراسة علم النفس الاجتماعي التاريخي، فهم العملية التاريخية بعمق وشمول، لأن هذه العملية لا تجري بعيداً عن البشر، بل من خلالها. يجب على المؤرخ أن يُفسّر الظاهرة التي يصفها. وبالتالي، حتى بدون اجراء دراسة خاصة للنفسية الاجتماعية في الفترة المُعطاة (إذا كانت هذه المهمة ليست من صلب متطلبات بحثه)، فان عليه أن يأخذها في الاعتبار ان كان يريد الكشف عن أسباب الظواهر التي يُحللها. نظراً لأن العملية التاريخية هي النتيجة الموضوعية لنشاط الأجيال التي تسعى الى تحقيق أهدافٍ مُعينة (بالرغم من اختلافها-اختلاف الأهداف- عن الرغبات التي تسعى إليها بشكلٍ شخصي)، فلا يُمكن للدراسة التاريخية أن تنأى بنفسها عن بحث الانسان كذات، وتحصيل المعارف حول نفسية حياة البشر وجماعاتهم وطبقات المجتمع. هذه هي المهمة الأولى لعلم النفس الاجتماعي التاريخي، والتي ترتبط بأكثر مشكلة منهجية للمعرفة التاريخية.

مسألة أخرى في علم النفس الاجتماعي التاريخي تتعلق بالتحليل البنوي للمجتمع. يفترض علم النفس الاجتماعي التاريخي وجود مجموعات من الناس يُشكلون حاملاً لمصفوفة ذهنية وعادات اجتماعية وحالات مزاجية ومشاعر. تنطوي دراسة علم النفس الاجتماعي دون ربطه بمجموعة اجتماعية مُعينة على خطر استبدال التحليل الاجتماعي بالسلجة المُجردة والذاتية. هنا بالتحديد، يجب أن نبحت، في المقام الأول، عن الحد الفاصل بين الدراسات في السيكولوجيا الاجتماعية المُجردة من وجهة نظر الماركسية، وبحوث علماء السيكولوجيا الاجتماعية والسوسولوجيين والمؤرخين البرجوازيين، الذين، يفصلون النفسية، وكذلك الحياة الفكرية بشكلٍ عام، بطريقةٍ أو بأخرى، عن الحياة المادية للمجتمع ويرفضون أن يروا في الحياة الفكرية للبشر انعكاساً لوجودهم الاجتماعي، وهم، يتعاملون مع حشود غير متجانسة (مثلما كان الحال مع المدرسة السيكولوجية الفرنسية القديمة)، أو "المجموعات الصغيرة" والتي ليس لها أي أهمية حقيقية في البنية الطبقيّة للمجتمع (المدرسة الأمريكية)، أو "الروح الشعبية أو روح الشعب" المُجردة أو العقل الجمعي مثل (المدرسة الألمانية)، بدلاً من المجموعات الاجتماعية الحقيقية مثل الطبقات والفئات. يسعى المؤرخ الماركسي الى اجراء تحليل شامل للعلاقات الاجتماعية للعصر الذي يدرسه من أجل الكشف عن ديناميتها والكشف عن طابع وبُنية المجموعات الاجتماعية الموجودة بالفعل في المجتمع قيد الدراسة. ان تلك المجموعة الاجتماعية ذات الأهمية المركزية، سواءاً بالنسبة للعملية التاريخية أو في التحليل العلمي، هي الطبقة. تكشف لنا دراسة التركيب الطبقي للمجتمع وتكوين كل طبقة جوهر هذا المجتمع. بالنسبة لأي عضوٍ في المجتمع، فان العضوية في طبقة مُعينة، هي، في التحليل الأخير، العامل الذي يُحدد مجموع الأفكار التي يتوجه سلوكه وعقله من

خلالها. بطبيعة الحال، لا تُغطي النفسية الطبقة جميع أشكال النفسية الاجتماعية في حياة المجتمع. يتميز كل شعبٍ أو أمة بطابعٍ مُعينٍ من التكوين النفسي والثقافة الوطنية والتقاليد التاريخية الراسخة نسبياً والتي تتجلى في حياة جميع أفراد المجتمع المُعين الفكرية، ويترك هذا الطابع المذكور بصمته على نفسية الطبقة من طبقاته.

يتضمن البحث في البنية الطبقة تحديد الفئات الاجتماعية التي تُشكّل الطبقات، أي الفئات التي يُبرزها البحث التاريخي القائمة على المعايير الملكية والقانونية في المقام الأول. ان أردنا أن نتحدث عن مجتمع القرون الوسطى وطبقاته الأساسية على سبيل المثال، فان مؤرخي القرون الوسطى يجدون من بين طبقة الفلاحين، شرائح خاضعين لدرجاتٍ مُختلفةٍ من التبعية وأشكال الايجار وتوافر الأرض. في الطبقة الحاكمة، يعتمد التمايز على معيار مقياس ملكية الأرض (اللوردات الاقطاعيين الكبار والمتوسطين والصغار) أو المكان الذي يشغلونه في التسلسل الهرمي الاقطاعي. ليست المصالح المادية لأعضاء كُلٍ من هذه الشرائح والفئات مُتطابقة، وانعكس ذلك في سلوكهم الاجتماعي وغالباً في تكوينهم النفسي. لكن هذه الفئات الاجتماعية وما يُشابهها، والتي من الواضح أنه يجب تحليلها، كانت موجودةً في الحياة الحقيقية لمجتمع العصور الوسطى بطريقة متفرقة. لم يكونوا يُشكلوا أجساماً اجتماعية حقيقية، على الرغم من أن الأفراد الذين انتموا لها غالباً ما وحدتهم مجموعة من المصالح وكانوا يُشاركون في النزاعات الاجتماعية والسياسية المُختلفة كتجمعات مُنظمة الى حدٍ ما. من خلال الاستفادة من المفهوم الذي ظهر الى حيز الوجود في العلوم الطبيعية، يُمكننا القول أنه ضمن "البنية الكبيرة" Macrostructure للمجتمع (تكوينه الطبقي) يوجد هناك "بنية الصغيرة" Microstructure. يُقصد بالأخيرة تلك النوى الاجتماعية الأولية أو مجموعات التكوين العضوي، التي تشمل الطبقات في التحليل النهائي. كتب ماركس: "وكلما مضينا أبعد في التاريخ، بدا لنا الفرد، وبالتالي الفرد المُنتج، أكثر تبعيةً باعتباره مُنتجاً الى كُلٍ أكبر، بطريقةٍ لا تزال طبيعية تماماً الى العائلة ومن ثم العائلة المُتسعة الى عشيرة وفيما بعد الى أشكال مُختلفة من المجتمع المشاعي الناشئ عن نقض والتحام العشائر. في القرن الثامن عشر فقط، وفي "المجتمع المدني" تجابه الأشكال المُختلفة للارتباط الاجتماعي الفرد باعتبارها مجرد وسائل لتحقيق أغراضه الخاصة، كضرورة خارجية"¹. من حيث العصور الوسطى، يُمكن ترتيب هذه الوحدات الاجتماعية ذات التركيب العضوي، على أساس أصلها وطريقة تمظهرها. ظل أناس العصور الوسطى أعضاءً في هذه المجموعات الاجتماعية طوال حياتهم، وغالباً ما ولدوا لأناس ينتمون لها أصلاً. لكن يبدو هنا أنه من الضروري التمييز بين المجموعات الاجتماعية الأساسية والتجمعات الاجتماعية الأوسع الى حدٍ ما التي كانت هذه المجموعات الأساسية جزء منها، أي أنه من الضروري تمييز "الذرات" و"الأنوية" الاجتماعية في اطار الطبقة والمجتمع. يجب تضمين العائلة في التركيب الذري للمجتمع الاقطاعي. بالطبع، العائلة ليست شيئاً يختص به العصر الاقطاعي وحده، لكنها، في هذا المجتمع القائم على الانتاج الصغير، هي التي تُعتبر الوحدة المُنتجة الرئيسية. يجب دراسة العائلة، باعتبارها أساساً للانتاج، في علاقاتها الاجتماعية المُختلفة بشكلٍ شامل، والتي تميزت حينها باستقرار وثبات استثنائي. تقتصر دراساتنا في المقام الأول على تلك الجوانب من حياة العائلة التي لها علاقة بدورها الانتاجي وعلاقات الملكية. ومع ان البنية الداخلية للعائلة والعلاقات المُتبادلة بين أفرادها وأخلاق الأسرة والجو الفكري الذي تعيش فيه هي عناصر تطبع سلوك الانسان في العصور الوسطى بطابعها، الا أنه تبقى هذه المسائل خارج اطار الدراسة في

1 - الغروندريسة- أسس نقد الاقتصاد السياسي، كارل ماركس، ترجمة عصام الخفاجي، دار ابن خلدون 1984، ص104

كثير من الأحيان. من الواضح أن تحليل علاقات الملكية والانتاج فقط غير كافٍ لوحده من أجل الحصول على معرفة دقيقة فيما يخص العائلة.

ومع ذلك لم يتم استبعاد العائلة من الجسم الاجتماعي الأوسع. يجب تضمينها لمجموعات العضوية مثل كوميون القرية في فئة "البنية الجزيئية" لمجتمع القرون الوسطى. في هذه الحالة أيضاً، يقصر المؤرخ تحليله في العادة على أشكال الملكية ونشاط الانتاج والوضع القانوني للكوميونة، أي علاقات كوميون القرية مع اللوردات الاقطاعيين أو الحكومة. ألا ينبغي التعمق أكثر من هذا؟ الكوميون هو عبارة عن مجموعة من العائلات الكبيرة أو الصغيرة. ما الذي كانه نمط التفاعل بينهم؟ السؤال لا يُستنفد من خلال معرفة طبيعة حيازة الأرض واستخداماتها، والتمايز بين الممتلكات والعواقب الاجتماعية المترتبة على ذلك. ظل الكوميون، خلال تاريخ المُجتمع بأكمله تقريباً هو الشكل الذي استمرت فيه حياة الغالبية العظمى من الناس.

دعونا ننظر الى كلمة مير Mir (كوميونة، سلام، عالم) كما يفهمها الفلاح الروسي. ان محتواها ثري جداً. ان القرية التي يعيش فيها الفلاح هي كل العالم بالنسبة له. ان الحدود التي تنتهي عنده ممتلكات كوميونته هي حدود الأفق الفكري للانسان. ان هذا العالم المُصغّر هو في نفس الوقت العالم الوحيد الذي يُمكن للفلاح أن يتخيله. ستكون معرفتنا بانسان العصور الوسطى والمُجتمع الاقطاعي أكثر واقعية لو أخذنا في الاعتبار جميع جوانب القرية القروسطية من حيث هي كيان من وجهة نظر حياته الداخلية وتفاعله مع العالم الخارجي ومع القوى الاجتماعية التي تؤثر على المُجتمع من الخارج. سنتمكن، نتيجةً لمثل هذه الدراسة من تحديد القوى التي تفعل فعلها في الكوميون ونكتشف ليس فقط الوسائل المادية (المتعلقة بالانتاج والملكية) ولكن أيضاً الوسائل السيكولوجية الموجودة للحفاظ على الروابط التقليدية واعادة انتاجها.



فلاحين روس في عهد القيصريّة

يُعتبر المدينة "جزيء" آخر في المُجتمع الاقطاعي. تتميز المدينة ببنية أكثر تعقيداً من مجتمع كوميونة القرية على الرغم من نجد في تكوين المدينة أشكال "وسيطه" من التنظيم الاجتماعي مثل النقابات Guilds والأخويات الأخرى التي تتألف بدورها من العائلات. هنا، مرةً أخرى، من المُستحيل أن يقتصر المرء على

دراسة بنية إنتاج النقابات وتحديد الملكية والتدرجات القانونية بين سكان المُدن. كانت النقابات، مثل غيرها من جمعيات المواطنين، الركيزة الأساسية لحياة المدينة. لقد شكّلت طابع ساكن المدينة القروسطية. اختلفت الر جمعيات المدنية عن الكوميونات الريفية في أصلها وقدرتها على دمج أعضاء جُدد. وُلِدَ الفلاح كعضو في احدى الكوميونات، بينما كان على الشخص المدني أن يتم ضمه الى نقابة مُعينة. لذلك فان الاجابة على السؤال المُتعلق بالعلاقة الأسرة والجماعة أو الجمعية في المدينة، تختلف عن الاجابة حول علاقة العائلة ومكانها في بنية الكوميون في القرية.



مدينة موسكو في القرون الوسطى

يُمكن للمرء أيضاً تسمية مجموعات أُخرى في المُجتمع والتي تختلف اختلافاً كبيراً في الأدوار التي لعبتها في حياة المُجتمع والانسان. من الواضح تماماً أن دراستها تتطلب نظاماً من التصنيف. لا شك أنه يجب النظر الى المجموعات ذات الطابع الانتاجي والتي كان لها أهمية حاسمة، بشكلٍ مُستقل. لكن هذا لا يعني أننا يجب أن نتجاهل الجماعات الأخرى التي كان وجودها، على المدى القصير أو الطويل، قائماً على مجموعة من العوامل الأخرى مثل المشاركة في النشاط السياسي أو المصالح المُشتركة القائمة على نظام فكري أو ديني صرف. تتطلب دراسة كل مجموعة من هذه المجموعات نهجاً مُتميزاً. من المُهم تحديد تأثير هذه المجموعات على بنية الطبقات. من الضروري أن نضع في اعتبارنا أنه كانت المجموعات من هذا النوع مُتمايزة بشكلٍ أوضح عن بعضها في المُجتمع القديم والعصور الوسطى عن المُجتمع الرأسمالي بسبب وسائل التبادل غير المتطورة و"تحركيتها" Mobility" الاجتماعية الضعيفة. ولم يكن لهذا الا أن يؤثر على طبيعة بُنيتهما الطبقيّة. من شأن تحليل "البُنية الميكروية" للمُجتمع أن يفتح آفاقاً جديدة للعلم. في الوقت نفسه ستصبح

مفاهيمنا عن البنية الطبقيّة للمجتمع أكثر واقعية. ومن المحتم أن تنشأ أيضاً مسائل مهمة مثل العلاقة بين الابنية الماكروية والميكروية وانعكاس الصراعات الطبقيّة وغيرها من الصراعات الاجتماعيّة على حياة هذه الوحدات الضيقة.

تُشكل مجموعة العوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة والطبيعيّة والثقافيّة والايديولوجية والتقاليد التاريخيّة الفاعلة في حقبة معينة الأساس الذي يقف عليه المناخ الاجتماعي النفسي والبيئة العاطفيّة التي بدورها تُحدد النمط النفسي للفرد في المجموعة والطبقة والمجتمع المُعطى. وبطبيعة الحال، البشر ليسوا أبداً مُتطابقين نفسياً، ولكن على الرغم من كل التنوع الحتمي للنفسيّة الفرديّة والطبقيّة والقومية، فإن هناك مناخاً نفسياً واحداً يُميز المجتمع بأسره. يُصبح من المُمكن فهم آلية عمل المعايير الأخلاقيّة المُميّزة لذلك المجتمع وتقبّل أعضائه للأفكار المُختلفة على أساس دراسة نوع النفسيّة السائدة في مجتمع مُعيّن. بمعنى آخر، من المستحيل الوصول الى تحليل سليم للنظام الاجتماعي-الاقتصادي وتوضيح وتفسير ايديولوجيته دون النظر الى الجو الاجتماعي-النفسي لذلك المجتمع.

لم تتم دراسة الحياة الذهنيّة للناس في الماضي بما يكفي. تم التركيز على الأفكار التي كانت سائدة في ذلك المجتمع فقط. ما هو المناخ الفكري لمجتمع القرون الوسطى، على سبيل المثال؟ بكل صدق، سيكون من الصعب علينا اعطاء اجابة على هذا السؤال، لأننا لم ندرس الأمر بما يكفي. سيكون من الطبيعي أن نفترض أنه على الرغم من البطئ النسبي للتغيرات في المجتمع الاقطاعي والسمات التقليديّة التي تُميّز جميع جوانب حياته، فإن ذهنيّة الانسان في العصور الوسطى قد تغيّرت بالفعل. ولكن هذا التغيّر لم يحدث خلال فترات مُختلفة من العصور الوسطى وحسب، ولكن أيضاً في بلدان مُختلفة بسبب الاختلافات في الطبيعة الجغرافيّة ومستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ودرجة تأثير الكنسية والظروف الملموسة التي لا حصر لها، وقد ادى هذا كله الى عدم تطابق النفسيّة الاجتماعيّة. بالطبع لا يُمكن وضع سيكولوجيا الاقطاعي والقن، والمواطن الغني وصبي المهنة والفرسان والأساقفة والرهبان والهراقة في قالب واحد. ومع ذلك، فمن الواضح أن هناك عوامل أثرت في نفسيّة المجتمع ككل. كانت بعض السمات التي تُميّز شخصية انسان العصور الوسطى شائعة في كل تلك الحقبة، وكانت موجودة، بهذه الدرجة أو تلك، في الغرب وبيزنطة والدول الاسكندنافية وروسيا، بقدر ما كان هناك نوع مُحدد من العلاقات العائليّة والانتاجية موجوداً في العصور الوسطى. كان هناك ايديولوجيا دينية مُشتركة وكان هناك أسلوب واحد لانتاج السلع الماديّة يقوم عليه المجتمع.

في الوقت نفسه، من الضروري أن نلاحظ خاصية أخرى موجودة بدرجة أو بأخرى في جميع المجتمعات ما قبل الرأسماليّة، وهي التمايز الضعيف للحياة الاجتماعيّة. في حين أن جوانب الحياة المُختلفة في المجتمع الرأسمالي، مثل الانتاج والعلم والفلسفة والنشاط الايديولوجي والابداع الفني وما شابه تختلف عن بعضها البعض وتظهر بصورة ساطعة على أنها اشكال مُختلفة من النشاط الانساني وتجد أساساً في التقسيم الاجتماعي التفصيلي للعمل، فانه لم تكن هناك خطوط تفصل بينها بشكلٍ حاد في العصور الوسطى والمجتمع القديم. بالإضافة الى ذلك، فهي عادةً ما تتاخم بعضها وتتداخل بطريقة غير ملحوظة لأفراد هذه المجتمعات المذكورة أخيراً. يقوم المؤرّخ، بفصلها عن بعضها لأغراض التحليل، لكن يجب أن لا ينسى أن المجتمع الذي يدرسه لم يعتبر مجالات النشاط المُختلفة هذه مُنفردة واعتبروها-ليس فقط على الصعيد الذهني بل على الصعيد العملي كذلك- كشيء موحد بشكل أساسي ولا ينفصل.

على سبيل المثال، كانت عملية الانتاج مرتبطة بمجموعة معقدة من المفاهيم والمؤسسات التي لا تتعلق بالمجال الاقتصادي في حد ذاته. فمن ناحية، انطوى الانتاج على معتقدات وطقوس دينية (عبادة قوى الطبيعة، الخصوبة أو سحر الصيد، القرايين، الأعياد الموسمية وما شابه). كانت الطقوس والأفعال السحرية بالنسبة الى انسان هذا المجتمع ذات أهمية قصوى من أجل قطف المحصول والحصول على مواليد الحيوانات أو صنع مُنتج من الحرفة، بقدر أهمية الانتاج ذاته. من ناحية كان الانتاج متشابكاً بشكل وثيق مع الفن (الموقف من الحرفة كما هو الموقف من الفن وعدم الانفصال بين الانتاج الفني والاقتصادي). أخيراً، لم يكن النشاط الاقتصادي يخضع للتنظيم القانوني فقط (وهذا يحدث في أي مجتمع) بل وأيضاً للتنظيم الأخلاقي (على سبيل المثال، مفهوم السعر "العادل"). بدوره، لم يكن القانون موجوداً بمعزل عن الدين وكان يحمل طابعاً مقدساً. أخذت المعايير الأخلاقية نفس أهمية الدين. كان الفن يخضع للطقوس واعتبر أداة من أدوات السحر. كانت الفلسفة في العصور الوسطى، مثل كل المعارف، خادمة للاهوت. كانت السياسة أيضاً تعتمد جزئياً على الدين. باختصار، ظهرت جميع العلاقات الاجتماعية وأشكال النشاط في هذا النوع من المجتمع على أنها مجموعة غير قابلة للتجزئة وقبيلها معاصروها على هذا النحو.

كل هذا معروف جيداً، لكن المؤرخين لا ينظرون دائماً الى هذا الارتباط العضوي للنشاط الاجتماعي الذي تحدثنا عنه. انهم لا يوضحون الموقف الذي يتخذه أعضاء المجتمع قيد الدراسة تجاه نشاطاتهم (يتحدد موقفهم الى حد كبير من خلال طبيعة هذا النشاط). ان الفرضية القائلة بأنه فقط في مجتمع "ما قبل التاريخ" بين القبائل البدائية تكون جوانب الحياة الاجتماعية مثل العمل والسحر والقانون والأخلاق والدين والفن والعبادة والتاريخ والأسطورة والكلمة والفعل غير مفصولة عن بعضها، ان هذه الفرضية من دون أساس. نحن نواجه ظواهر متطابقة في كلا مجتمعي القرون الوسطى والقديم على حد سواء، بين كل من شعوب أوروبا وأفريقيا وآسيا (مختلفة في الشكل لكن متشابهة في الجوهر) أدت الى نشوء ترميز ووظائف المجتمع ووضعها في اطار طقوسي. ان تجاهلنا سمة الوجود الاجتماعي هذه، والتي ميّزت جزءاً كبيراً من تاريخ البشرية الى حد كبير، فاننا حينها نقوم بسحب التاريخ الحديث على التاريخ القديم بشكلٍ لا ارادي. ان لم نولي الاعتبار الكامل لمجموع نظرة الانسان الى العالم وسلوكه فاننا بالكاد نستطيع أن نفهم بشكلٍ صحيح القوى الدافعة العاملة في المجتمع. ان الحاجة الى تكييف تقنيات معينة للبحث الانثروبولوجي لدراسة التاريخ تُصبح اليوم أكثر الحاحاً. لا يُمكن أن يكون هناك شك في أن الأعراف والتقاليد والطقوس والرموز في ظل الظروف الراكدة للاقتصاد المعيشي للتشكيلات ما قبل الرأسمالية، تشمل وتتقاطع مع أكثر مجالات النشاط الانساني تنوعاً. لكننا نادراً ما نتحرى عن هذه الظواهر ووظائفها الاجتماعية وأهميتها (باستثناء ان بحث المرء حول الدور المُعترف به عالمياً للعرف في الحفاظ على مستوى الاستغلال الاقطاعي، كما أشار ماركس). ومع ذلك، فاننا لا نتعامل هنا مع بعض الخصائص الخارجية الثانوية التي قد يتم تجاهلها باعتبارها ميكروية. بشكلٍ عام، من الضروري، قبل حل مسألة ما اذا كانت ظاهرة تاريخية ما تستحق الدراسة من قِبَل المؤرخين، تفسير الوظيفة والحالة التي تُعبر عنها في حياة المجتمع. كانت التقاليد والطقوس والرموز والاجراءات المقدسة والظواهر الأخرى المُشابهة التي تغلغت في المجتمع خلال هذه الفترات وسيلةً أساسيةً للعلاقات الاجتماعية وآلية تنظيم اجتماعي تُلزم كل عضو (غالباً بدون وعي منه) بأشكال الزامية من السلوك تُسيطر على معايير الاجتماعية. وبالتالي، فان أهميتها الاجتماعية هائلة جداً. تُمكن دراسة هذه الأعراف المؤرخ من فهم نظام العلاقات الاجتماعية بشكلٍ أعمق. يُمكن ايجاد الرموز التي تُعبر عن الأنظمة النمطية والمُتكررة للصور والمفاهيم

المهمة اجتماعياً في أكثر أشكال الآثار المتنوعة لدراسة الايديولوجيا: في المصادر المكتوبة، في جميع أنواع الصيغ المقدسة والقانونية وغيرها، في كتابات القوانين والعادات، في المصطلحات والنقوش والصور والمواضيع الدينية والأعمال الفنية والحرف اليدوية والهندسة المعمارية والموسيقى والتراكيب اللغوية والأساطير والفلكلور والرموز الرياضية. ما يتبقى هو ببساطة تحديد طابع ومقاييس تأثير هذه الصور النمطية على البنية الاجتماعية وتفسيرها في سياق الشروط الحقيقية للوجود الاجتماعي¹.

اليوم، تواجه المسائل التالية العلم باصرار أكثر فأكثر: الى أي درجة وبأي طريقة تُحدد العملية التاريخية حياة الناس النفسية؟ ان الاجابات التي تقول أن الوعي ثانوي بالنسبة للوجود وأن الذهنية تحكمها البيئة، غير كافية هنا. من المستحيل أيضاً الاكتفاء بالفرضية الدقيقة للغاية القائلة بأن الأفكار تصبح قوة مادية عندما تستحوذ على الجماهير. ان صحة هذه الافتراضات التي لا شك فيها، لا تجعل منها اطروحات مُكتملة تماماً من وجهة نظر البحث العياني التاريخي. يجب على الايديولوجيا، من أجل أن تستحوذ على الجماهير وتصير ملكاً لهم، أن تتخذ شكلاً معيناً يُمكنها التأثير عليهم من خلاله. مثل هذه المفاهيم يجب ان تنعكس في موشور نفسية الناس ويجب أن تُلامس عواطفهم. ترتبط نشأة الأفكار الاجتماعية ارتباطاً وثيقاً بالنفسية الاجتماعية. تُشكّل الأفكار التي صاغها المفكرين المختلفين- في نظامٍ من المفاهيم- التعبير عن المشاعر والأمال والعواطف والظواهر العاطفية الأخرى السائدة في مجتمعٍ أو طبقةٍ معينة².

برأينا، ترتبط الصعوبات الناشئة في مسار البحث في تاريخ الثقافة، بالاستهانة بالنفسية الاجتماعية والميل الى اختزالها الى ايديولوجيا. من الاستثناءات الجيدة في هذا الصدد مقالة ل.م. باتكين L. M. Batkin حول جيوفاني موريلي (مساهمة في الجذور الاجتماعية لعصر النهضة الايطالي)³. يسعى مؤلف المقالة، بدراسة آراء وأذواق بوبولو غراسو Popolo Grasso في النصف الثاني من القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر، الى الكشف عن خصائص ومصادر سيكولوجيا البرجوازية الفلورنسية في تلك الفترة. انه يصوّر العالم الداخلي وحالات التجار المزاجية وطابع شخصياتهم وأخلاقهم ومفاهيمهم الدينية وممارستهم الفعلية في الحياة والتي تقوّض الآراء والمعايير التقليدية القديمة بشكلٍ لا هوادة فيه. ولاثبات أن المُثل الانسانية كانت "انعكاساً مُصعّداً لاحتياجات بوبولو غراسو، يجد باتكين تبايناً بينهما، ويخلص الى الاستنتاج بأنه "على الرغم من أن ثقافة عصر النهضة هي نتاج بيئة تجارية وصناعية، الا أنها كانت كذلك أكثر من هذا بما لا يُقاس". فيما يتعلق بمسألة عدم التطابق بين البناء التحتي والثقافة خلال عصر النهضة، يُعرب باتكين عن وجهة نظر مفادها أنه "كان لا بُد للعلاقات الاقتصادية الناشئة لتوها أن تُطوّر مناخاً مُستقراً من النفسية الاجتماعية قبل أن تُمارس تأثيرها غير المُباشر على الفن والعلوم. لقد استغرق الأمر عدة أجيال من التجار الفلورنسيين وأصحاب المانيفاكاتورات لتحقيق ذلك"⁴. لم يتم تقديم أي حل للمسألة هنا، ولكن تم توضيح

¹ - استمرت هذه الخصائص المُستقرة والمُحافظة نسبياً للنفسية في هذه الأشكال النمطية. يجب تمييز هذه الخصائص المُستقرة والمُحافظة عن الحالة المزاجية الجماعية والجماهيرية المتغيرة ذات الطبيعة المؤقتة التي تعبر عن التغيرات التي تظهر عادةً نتيجة لأحداث واضطرابات اجتماعية معينة.

² - For the correlation between popular and, in particular, peasant psychology, and social ideas and on the transition from the former to the latter, see B. F. Porshnev, "Zhan Mel'e i narodnye istoki ego mirovozzreniia," Desiatyi 8) For the correlation between popular and, mezhdunarodnyi kongress istorikov v Rime, Sentiabr' 1955. Doklady sovetskoii delegatsii, Moscow, 1956, pp. 602-606; same author, Feodalizm i narodnye massy, Moscow, 1964, p. 309 ff; same author, Mel'e, Moscow, 1964.

³ - Voprosy istorii, 1962, No. 12

⁴ - Ibid., p. 106.

طريقة مُعالجتها. يبدو لنا أن مسألة عدم التطابق بين مستوى الثقافة والشرط المادي والسياسي للمُجتمع التي غالباً ما يواجهها المؤرخون (تذكروا عصر النهضة الاسبانية أو الثقافة الروسية في فترة الرجعية تحت حكم نيكولاي الأول) لا يُمكن أن يتم حلها بشكلٍ صحيح دون دراسة مناخ النفسية الاجتماعية. تظل جميع تفسيرات عدم التطابق هذا ميكانيكيةً وسطحيةً في غياب مثل هذه الدراسة.

نحن على دراية بكلمات ماركس بأن "استخلاص النواة الأرضية من التصورات الدينية الضبابية عن طريق التحليل أسهل بكثير من أن نستخلص، على العكس، الأشكال المُقدسة القائمة من علاقات الحياة الفعلية. لكن هذا الأخير هو المنهج المادي الوحيد، وبالتالي المنهج العلمي الوحيد"¹. تحتوي هذه الملاحظة على دعوة الى عدم وجوب اختزال البناء الفوقي الى القاعدة، وعدم وجوب النظر الى المفاهيم الدينية أو الأعمال الفنية كـ"انعكاس" بسيط للواقع. تتطلب الطريقة المادية والعلمية في البحث أن تنتقل من العلاقات القائمة في البناء التحتي الى الأشكال الأعلى من الحياة الفكرية للانسان مروراً بسلسلة من الروابط الوسيطة وأهمها النفسية الاجتماعية. لن يحصل المرء الذي يسعى الى تجاوز النفسية الاجتماعية في دراسته للفن أو الأدب أو الدين أو الأخلاق أو القانون، على النتائج المُرتجاة. على حد تعبير هرتزن فان النفسية الاجتماعية هي "الدم القرمزي المتدفق في شرايين التاريخ".

عند النظر في المجالات المُمكنة لتطبيق البحث في النفسية الاجتماعية، لا يُمكننا أن نتجاهل مسألة تطور وتشكّل الشعوب والأمم. حتى الآن لا يُمكننا أن نقول أننا حققنا انجازات كبيرة في دراسة هذه المسألة. ان تعريف ستالين للأمة على أنها مُجتمع مؤسس تاريخياً يتميز بأربع معايير: الحياة الاقتصادية، الأرض، اللغة والنفسية التي تتجلى في الثقافة، غير كافٍ بالمرّة. هناك على وجه الخصوص، أهمية المُجتمع السياسي، والذي يؤدي فقده الى اضمحلال الوحدة الاثنية. من ناحيةٍ أخرى، فان العضوية في دولة واحدة تجعل من المُمكن خلط واستيعاب الكيانات العرقية المُتنوعة². كل هذا مؤكد تماماً. نحن نعلم أنه حتى بعد تشكّل الأمة، فان وجود مجتمع من كيانات عرقية مُختلفة حتى داخل حدود دولة واحدة باقتصاد موحد وإقليم ولغة مشتركة لا يؤدي (أو لا يؤدي دائماً) الى نشوء أمة أساسية. ودون السعي في التوسع في هذه المسألة، نود أن نلاحظ أنه سيكون من غير الصحيح تجاهل التكوين النفسي القومي أو اختزاله الى "الثقافة" دون توسيع تعريفه. لسوء الحظ فان هذا الجانب هو أقل جانب تم البحث فيه. حقيقة الأمر هي أن مسألة النفسية القومية هي مسألة قد استلمها التاريخ البرجوازي الذي أعطاها تفسيراً مثالياً. يُمكن للمرء أن يفهم جيداً الحذر الذي تعامل به المؤرخون الماركسيون مع المفاهيم المبتدلة المُستخدمة في الدراسات البرجوازية مثل "روح الشعب" Volksgeist أو "روح العصر" Zeitgeist وما الى ذلك. ولكن هل يعني هذا انه من غير اللائق مناقشة "روح الشعب" أو "روح العصر" على الاطلاق وانكار النفسية الاثنية ووضعها على أساس علمي؟

تفترض دراسة النفسية الاجتماعية-التاريخية تطوير تكتيك وحل مسألة المصادر. هل مثل هذا البحث ممكن فيما يتعلق بالفترات التاريخية البعيدة عنا؟ ان الصعوبات التي ينطوي عليها حل المسائل التي تتجسد في مثل هذه الدراسات كبيرة بشكلٍ استثنائي. على أية حال، ان أحد أهم تقنيات البحث الاجتماعي اليوم هو الاستنباط. يلجأ السوسولوجيين والسيكولوجيين الاجتماعيين الى الأفراد والى فئات ومجموعات بأكملها. من الواضح أن

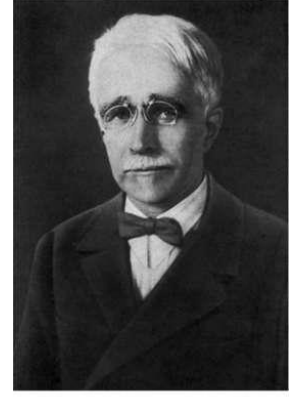
¹ - رأس المال-المُجلد الأول، كارل ماركس، ترجمة فالح عبد الجبار، دار الفارابي 2013، ص 467

² - See N. F. Kolesnitskii, "Ob etnicheskom p. 378, fn. 89. i gosudarstvennom razvitii srednevekovoi Germanii (VI-XIV w.)," Srednie veka, 1963, No. 23.

المؤرخ أيضاً يجب أن يصوغ أسئلته بطريقة تُسلط الضوء على سلوك الناس ودوافعهم وانجازاتهم وحالاتهم المزاجية وآرائهم والعوامل التي تؤثر عليها في الماضي، وما الى ذلك. لكن أناس الماضي قدموا-أو لم يقدموا- اجاباتهم للمؤرخ قبل أن يطرح أسئلته بوقتٍ طويل. قد يتم اكتشاف هذه الأجوبة ولكن يبدو أنه من المستحيل الحصول على اجوبة جديدة. أخيراً، يفتقر المؤرخ الى أي وسيلة للتحقق من بيانات تحليله من خلال التحقيق مع مجموعة أخرى من الأشخاص. باختصار، هناك صعوبات كبيرة والنتائج التي يُمكن توقعها ستكون دائماً غير كاملة وغير مُرضية. سنُصبح الصعوبات أكثر وأقل قابلية لحلها كلما ذهبنا بهذه الأسئلة الى أماكن أكثر عمقاً في التاريخ.

هل هذا يعني أن المؤرخين بشكلٍ عام لا يُمكنهم،، من حيث المبدأ، أن يفلحوا في تحصيل نتائج ما دامت تقنيات علم النفس الاجتماعي التاريخي صعبة؟ أعتقد أنه ليس هذا هو الحال. نظراً لأن النفسية الاجتماعية والايديولوجيا متشابكان بشكلٍ وثيق، فسيترتب على ذلك أنه يُمكن ويجب استخدام جميع المصادر التي يستخدمها المؤرخون في دراسة الأفكار، لدراسة ظواهر النفسية الاجتماعية. ولكن لا يُمكن استخدام مصادر تاريخ الوعي الاجتماعي والأعمال الأدبية والفلسفية وما شابه ذلك فقط. يُمكن أيضاً، الاستعانة بكل ما لمسّه الانسان وكل ما ترك عليه بصمات نشاطه من أجل الكشف عن تفكيره وعقليته ووجهات نظره وعاداته ومزاجه الموافق لمُجتمعه في تلك الأيام. على سبيل المثال، يجب أن نستخدم، في دراسة ذهنية انسان العصور الوسطى، الآثار المتعلقة بقوانين البرابرة والقواعد التي تحكم الفلاحين وسجلات المحاكم. تحظى أعمال الفنون التشكيلية في العصور الوسطى باهتمامٍ استثنائي في هذا الصدد. ولكن يجب أن لا ننسى أن أي مصدر تاريخي لا يوفر فقط معلومات فيما يتعلق بالظواهر التي يدرسها المؤرخون، بل أيضاً فيما يتعلق بصانعها سواءً كان كاتباً أو مُفكراً أو مؤرخاً أو مُشرّعاً أو جُزفياً أو احصائياً أو رساماً أو نحّاتاً. يكشف تحليل هذا الجانب من الموضوع المدروس تحديداً عن سيكولوجيا كلٍ من مُنشئ الموضوع المعني، وبيئته وعصره من جهة أخرى. بالنظر الى مثل هذه المُقاربة، لا يأخذ الباحث في الاعتبار المُحتوى فحسب، بل أيضاً شكل الاتصال. بمعنى آخر، يتم توجيه الانتباه الى تلك العوامل (التعبيرات وطبيعة الفكر والموقف تجاه المعلومة المنقولة واختيارها ونظام الوسائل التصويرية وما الى ذلك) التي انعكست في الأداة، على الأغلب، بالرغم من وعي واردة مُنشئها.

لسوء الحظ، لم تمنحنا الأبحاث بعد، وفرةً من الأمثلة على مثل هذه الدراسات. من بين الأعمال القليلة التي قد تبدو مُفيدة، هناك، على وجه الخصوص، عمل بوريس الكساندروفينش رومانوف Boris Aleksandrovich Romanov 1889-1957 (شعوب وعادات روسيا القديمة) لعام 1947.



B. Romanov

بوريس الكساندروفيتش رومانوف

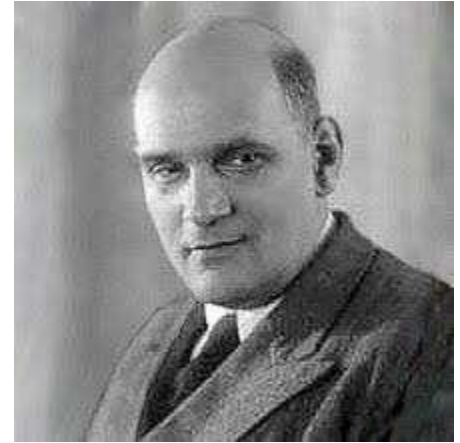
سعى مؤلفه، ينجاح كبير، الى رسم أنماط اجتماعية وخصائصها النفسية الفردية والاجتماعية ونظرتها على أساس الآثار غير المُكتملة والمُجزأة التي بقيت من فترة العصور الوسطى المبكرة في روسيا، مثل وثيقة (صلاة دانيال المُحاصر) Supplication of Daniel the Exile، وآداب "تعليمية" أخرى، وسيّر القديسين والسجلات وأخيراً القانون الروسي. العامل الأكثر أهمية، كما يشهد كتاب رومانوف، هو القدرة والرغبة على قراءة نقدية لمصادر معروفة جيداً استخدمها العديد من المؤرخين لأغراض أخرى، دون تفسيرها بشكلٍ تعسفي، واستخدامها بطريقة مُلائمة بدقة من أجل أغراض بحثية في علم النفس الاجتماعي. كانت مهمة المؤلف هي الكشف عن انعكاس عملية تشكّل الطبقات في الحياة اليومية وعقلية مُمثلي طبقات مُختلف سكان روسيا في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر: "كيف عاش الناس... وما الذي كانوا يعيشون لأجله، فيما يتعلق بموقعهم الاجتماعي...". لقد نظر الى حياتهم النفسية "من منظور الانسان المُعاصر وكأنه على صلة وثيقة بهم". استخدم هذا الباحث منهجية التحليل الأدبي، أي طريقة "اعادة تصميم الظرف، من خلال تحليل عمل أدبي مُعيّن، وشخصية القارئ الذي كان ذلك العمل موجهاً له وصاحب المصلحة فيه". وبهذه الطريقة، تم انشاء نمط بشري تاريخي لثقافة معينة، والذي استخدمه رومانوف لاحقاً كمعيار يُمكن على أساسه دراسة الوثائق الأخرى. نتيجةً لذلك، صار التصور حول المُجتمع الروسي القديم الذي تجري فيه عملية بناء الاقطاعية أكثر عيانيةً وواقعيةً وحيويةً: يظهر الناس فيه أحياءاً كأنهم يعيشون معنا.

دعونا نذكر أيضاً كتاباً من تأليف ايلينا ميخايلوفنا شاتيرمان Elena Mikhailovna Shtaerman (أخلاق وديانة الطبقات المظلومة في مُجتمع الامبراطورية الرومانية) 1962.



إيلينا ميخايلوفنا شاتيرمان

تتبع المؤلفة، على أساس العديد من الآثار والنقوش والأعمال الفنية والأطروحات الأخلاقية والفلسفية، تحولات تفكير ومفاهيم الحياة والآلهة التي حدثت بين الطبقات الدنيا وفئات المجتمع العبودي خلال فترة أزمته. يُذكرنا عمل شاتيرمان بالحقيقة المهمة المتمثلة في أن موت نظام اجتماعي-اقتصادي لا ينعكس فقط في الايديولوجيا، بل وفي نفسية جميع طبقات المجتمع، ويمر في أفكار البشر الذين يعيشونه باعتباره "انقطاعاً في الزمن". أخيراً، تصوّر كتابات بوريس فيودوروفيتش بورشنيف Boris Fyodorovich Porshnev حول جان ميسلير العلاقة بين سيكولوجيا الفلاحين في المجتمع لاقطاعي ومقاومتهم للقمع، والأفكار الثورية التي صاغها ميسلير.



بوريس فيودوروفيتش بورشنيف

يتم إيلاء الكثير من الاهتمام لمسائل علم النفس الاجتماعي التاريخي في كتابات المؤرخين الغربيين المعاصرين، وخاصةً الفرنسيين. يبدو أنه يُمكن للمرء أن يتحدث عن عددٍ من الاتجاهات في التأريخ الفرنسي في العقود العديدة الماضية الموجهة إلى حدٍ ما لمسائل البحث في علم النفس الاجتماعي. من المُثير القول أن مدرسة الفرنسيين التقدميين

التي انخرطت في دراسة مسائل الثورة الفرنسية في مهاية القرن الثامن عشر والتي جعلت من المسائل الاجتماعية مركزية في كتاباتهم بحدّة خاصة، هي المدرسة التي قدمت أكبر مساهمة في معالجة الجوانب الاجتماعية-النفسية للثورة.

بالعودة الى كتاب (الخوف الكبير) La Grande Peur للمؤرخ جورج لوفيفر، المُكرّس لدراسة الاضطرابات الفلاحية في فرنسا عام 1789، كانت دراسة حركة الفلاحين مُرتبطة بتوضيح نفسية وحالة المشاركين في الانتفاضات والنبلاء الذين كانت موجهةً ضدهم¹. تعامل لوفيفر أيضاً مع مسائل النفسية الجماهيرية في الثورة في نهاية القرن الثامن عشر في دراسته لـ"الحشود الثورية"². اتّبع تلميذه نفس الخط. أحد الأخصائيين المعاصرين الأكثر أهميةً في دراسة تاريخ الثورة الفرنسية هو ألبيرت ماريوس سوبول Albert Marius Soboul مؤلف عدد من الكُتب الجادة وأهمها (سانس كولوتيس الباريسيون) Les sans-culottes parisiens en l'an II والذي ناقش ليس فقط التكوين الاجتماعي للسانس كولوتيس (وهم أبناء المدن الأكثر فقراً) ومطالبهم وبنية وأقسامهم الباريسية ونشاط هؤلاء الأخيرين وعلاقتهم بالحكومة الثورية ودورهم في الأيام الحاسمة للثورة، ولكنه طرَح أيضاً مسائل سيكولوجيا السانس كولوتيس وآفاقهم الاجتماعية والثقافية وسلوكهم وأدواقهم وسعى للعثور على العوامل المؤدية الى تصاعد طاقة الباريسيين الثورية وتراجعها خلال فترات معينة³. يربط سوبول بشكل وثيق المسائل المتعلقة بالعلاقات الاقتصادية الاجتماعية بسمات بُنية نفسية السانس كولوتيس الاجتماعية، والذين كانوا منتجين صغاراً بسيكولوجيا أصحاب الأملاك الصغيرة⁴.



ألبيرت ماريوس سوبول

يسعى أحد أتباع لوفيفر المؤرخ الانجليزي جورج رود George Rudé في كتابه (الحشد في الثورة

¹ - G. Lefebvre, La Grande Peur de 1789, Paris, 1932.

² - G. Lefebvre, "Foules revolutionnaires," Etudes sur la Rbvolution franqaise, Paris, 1954, pp. 271 ff; R. Baehrel, "Epidemie et terreur: histoire et sociolotiie. Annales historiaues - de la R6volution fransaise, 1951, No. 122

³ - A. Souboul, Les sans-culottes parisiens en l'an II, Paris, 1958

⁴ - A. Sobul', Iz istorii Velikoi Frantsuzskoi burzhuaznoi revoliutsii 1789-1794 i revoliutsii 1848 g. vo Frantsii, Moscow, 1960

الفرنسية) الى الكشف عن التركيب الاجتماعي للمشاركين في التظاهرات الشعبية في المدن وعلى رأسها باريس خلال سنوات الثورة وتحديد أسبابها، وتحديد الأسباب التي دفعت الى مشاركة مختلف الجماعات والأفراد في الاضطرابات الثورية وأشكال التعبير عن الاستياء الشعبي والسمات المميزة لنفسية الجماعات والعلاقة بين أفعال الأشخاص الذين نزلوا الى الشوارع وشعارات الأحزاب التي قالت أنها استلمت دفة القيادة¹.



جورج رود

في كتابات مؤرخي هذا الاتجاه، يتوقف الناس عن كونهم كتلة غير مُشخّصة ويظهرون ليس فقط على أنهم مُحددون اجتماعياً ومتميزين من الناحية التاريخية الملموسة، بل يكتسبون طابعهم الخاص. نجح رود وسوبول في فرز الأفراد الأحياء من بين الحشود المُتظاهرة في الشوارع ومجموعات الباريسيين في اجتماعاتهم الفردية، وفي نفس الوقت تصنيفهم في أنماط مُحددة. يجب الاعتراف بأن لدى هؤلاء الباحثين مصادر واسعة ومخزون هائل من مصادر المعلومات تحت تصرفهم. ان لديهم محاضر وعرائض وتصريحات وصحف وتقارير بوليسية حول مزاج الجماهير وثراقب السانس كولوتيس اللذين كانت السلطات ترتاب منهم وقتها. أخيراً، هناك سجلات المحاكم. هذه المصادر، المعروفة منذ زمن للمؤرخين، ولم يتم توظيفها من قبل في هذا الجانب. ليس فقط وجود المصادر هو المهم، بل وجهة نظر المؤرخ، وهي ربما حتى أكثر أهمية.

هناك اتجاه آخر في علم التاريخ، يركز أنصاره اهتمامهم على مسائل علم نفس المجموعة، وهو مرتبط بمدرسة الحوليات ومجموعة الكتب التاريخية (تطور البشرية) The Evolution of Mankind والتي أوجدها أ. بير. من بين كُتّاب هذه المدرسة يُمكن للمرء الاستشهاد بل. لوفيفر وروبرت ماندرو Robert Mandrou وجاكس ليغوف Jacques Le Goff والفونس دوبرونت Alphonse Dupront وجورجوس

1 - كتب رود أيضاً عدة أمور عن انتفاضات سكان المدن البريطانية في القرن الثامن عشر حيث بحث أيضاً تكوين المشاركين في الحركات وتنظيمهم ودوافعهم وسلوكهم. توصل رود الى استنتاج مفاده أن "الحشد" يظهر أنه أقل عشوائية وأنه ليس بلا هدف بأي حال من الأحوال كما صوره المؤرخون البرجوازيون. يُمكن للمرء أن يرى، في سلوك الناس الذين تظاهروا في شوارع لندن وباريس في القرن الثامن عشر، مزيجاً مُعقداً من الدوافع: ارتفاع تكلفة المواد الغذائية والأجور المنخفضة والمطالب السياسية والتعاطف والنفور الشخصيين. ان توخّذ كل هذه العوامل هي التي ساهمت بظهور الاحتجاج الاجتماعي الذي ظهرت فيه الأسس الطبقيّة للحركة بوضوح. على عكس السانس كولوتيس عام 1789 في باريس والسنوات اللاحقة، رأى رود أنه كانت نسبة العمال المأجورين بين المتمردين اللندنيين أكبر، وبالتالي كانت العناصر البرجوازية الصغيرة أقل. في كلتا الحالتين، تفجرت الأسطورة الشائعة في التاريخ البرجوازي عن "الرُعاة المُجرمين" الذين فجروا الأحداث المُحتدمة في شوارع العواصم الأوروبية خلال السنوات الثورية.

The Gordon Riots," Transactions of the Royal Historical Society, 1956; ejusd., 'The London 'Mob' of the Eighteenth Century," Historical Journal, 1959; Vol. TI, No. 1; ejusd., Wilkes and Liberty, Oxford, 1961

دوبي Georges Duby. ومن بين مؤسسي هذه المدرسة بالإضافة الى لوسيان فيفير Lucien Febvre،
رئيسها الرسمي مارك ليوبولد بلوخ Marc Léopold Benjamin Bloch وبول دانيال الفيندري Paul
Daniel Alphan  ry.



روبرت ماندارو

أكد فيفير أن دراسة كُلي من سيكولوجيا المجموعة وسيكولوجيا الفرد ضروري لفهم التاريخ الاجتماعي للمجتمع. كان فيفير يُريد، على عكس بعض السيكلوجيين الذين عالجوا مسائل السيكلوجيا من وجهة نظر مثالية بحتة، أن يوضح الظروف الموضوعية التي تتشكل من خلالها السمات المميزة لذهنية الأشخاص في التاريخ. ان البيئة المادية والاجتماعية هي المسؤولة بشكلٍ رئيسي عن تشكيل التركيب الفكري والبُنية النفسية للانسان في الماضي. رأى فيفير الطريق لفهم سيكولوجيا الفرد والجماعات في استخدام المؤرخين لبيانات وتقنيات العلوم الأخرى مثل السيكلوجيا والاثنوغرافيا والانثروبولوجيا واللغويات والنقد الأدبي ودراسات الفلكلور والفن والتاريخ والجغرافيا¹.

¹ - L. Febvre, Combats pour l'histoire, Paris, 1953, p. 428; ejusd., Pour une histoire a part entiere, Paris, 1962, p. 820 ff; ejusd., Le mobilisme de l'incroyance au XVIe sikle. La religion de Rabelais, Paris, 1947 (6dition revue).



لوسيان فيفر

كانت أفكار فيفر متوافقة الى حد كبير مع ملاحظات المؤرخ الهولندي المرموق جوهان هايزينغا Johan Huizinga مؤلف كتاب (انحلال العصور الوسطى) ¹ Le Déclin du Moyen-Âge. قام هذا الأخير بدراسة سيكولوجيا الفرنسيين، وخاصةً البورغونديين Burgundians خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.



جوهان هايزينغا

لقد لاحظ "الحياة المحمومة" لشخصيات الناس في بيئة وصفها بأنها "ذابلة" وبأنها "خريف" مُجتمع القرون الوسطى. انه يكتب عن "خليط رائحة الدم والورود". كان الخوف من الجحيم، بالإضافة الى حب الحياة الغزير السخيف متشاكين بشكلٍ وثيق في أذهان أناس ذلك الوقت لدرجة أنهم كانوا يخلطون بينهما. كانت

¹ - J. Huizinga, Le Declin du Moyen Age, Paris, 1948 (1e ed. - 1932)

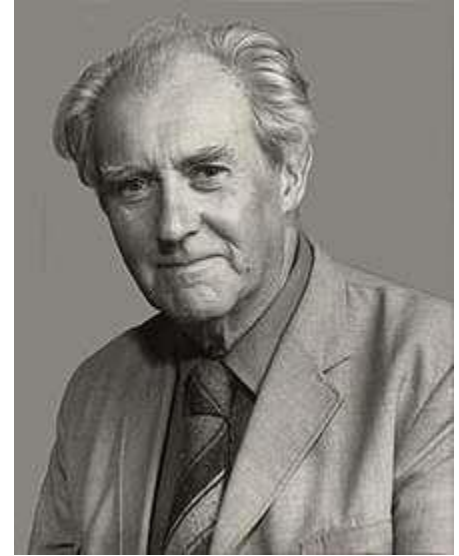
القسوة والتقوى، الانتقام والنبيل والحب والكرهية تستبدل بعضها البعض في تتابع سريع. فيما يتعلق بالمرأة، يُمكن أن يشهد المرء التحول من شهوانية شرسة تجاهها الى أمثلة Idealisation غير محدودة لها. كانت هناك تناقضات عميقة في الفن كما في الحياة الدينية. سادت الألوان العنيفة في الرسم والثيراب. تأرجح الانسان بين أقصى جانبيين من السلوك: "الكمال" والحقارة. يجد المرء، في المستوى الأدنى للنفسية، دلائل على الميول والرغبات المنبوذة التي قمعها المجتمع القائم بأخلاقه الصارمة. بقيت الفناعات العُليا مثل الفضائل المسيحية المسموح بها والموافق عليها من قِبَل الأخلاق، في المستوى الأعلى من النفسية. ان الانقسام بين مستويي الذهنية والتوتر الشديد الناشئ بينهما هو مصدر استنارة كل مُستوى لآخر والتبدل المُستمر لموقعيهما. في مثل هذا المجتمع من الصعب للغاية تحقيق سلوكٍ متوازن ومدروس بعناية. كانت التناقضات الحادة في التركيب النفسي للانسان وعدم استقرار سلوكه العاطفي هي علامات على انحدار القرون الوسطى وانحلالها، واختفاء مُجتمع الفرسان في رأي هايزينغا. الأكثر اثاراً للفضول هو ملاحظته أن انتعاش مُثل الفرسان والاتيكنيات الموافقة لها، ووصول المعايير والطقوس الأخلاقية الى مُنتهى مُتقن، قد حَدَثَ في ظل أفسى الظروف الاقتصادية والاجتماعية وحشية وفي ظل أزمة النبالة. كان أعضاء هذا المجتمع على ما يبدو يسعون للخلاص من واقع الحياة القاسي بالجوء الى المُثل الدينية والمُجاملات المُهذبة. يجب القول أن صورة هايزينغا للمجتمع هذه قد عُرِضت بطريقة مُضخمة من أجل خلق صورة فنية عنه (عن المجتمع) الى حد ما. ومع ذلك، فان منهجية البحث الخاصة به والتي تُشبه منهجية فيفير كثيراً، مُهمة للغاية. ان لدينا معلومات تُشير الى استخدامه للأعمال الفنية والأدبية للكشف عن سيكولوجيا المجتمع وطريقة ادراكه للحياة والعالم ونظام المعايير الأخلاقية، من خلال تحليله للقيم الجمالية السائدة. اهتم كُلٌّ من فيفير وهايزينغا بأعمال الكُتّاب والشعراء والمفكرين واللاهوتيين والمؤرخين في أواخر العصور الوسطى، ليس فقط-وربما ليس كثيراً- بما كانوا يرغبون أن يقولوا، بل أيضاً بما كانوا يقولونه ضد ارادتهم وبشكلٍ غير مقصود. يبدو أن هذه وسيلة يُمكن من خلالها التغلغل في العالم الداخلي للبشر في الماضي بشكلٍ أعمق ودراسة ليس فقط آراء وأمزجة كُتّاب ومُثلي ذلك لمجتمع البارزين، ولكن أيضاً الجو العاطفي والفكري المُسيطر فيه. يوجه هايزينغا الانتباه الى الطقوس والرموز والعادات التي تمتلك فيماً جمالية وأخلاقية في المجتمع. يسمع البحث في الرمزية والطقوس الفاعلة في المجتمع، بالاضافة الى اكتشاف اللغة، الى الكشف عن أهم خصائص النفسية الاجتماعية.

تم وضع ملاحظات هايزينغا وفيفير في منظورٍ أوسع في كتاب لروبرت ماندارو (مقدمة حول فرنسا الحديثة 1500-1640. مقالة حول السيكلوجيا التاريخية) (1500-1640). Essai de Psychologie historique (1640). يعتبر ماندارو أنه من الخطأ فصل النفسية التاريخية، عن التاريخ، لأنها جزء لا يتجزأ منه. ان دراستها هي "مطلب منهجي يتواجد في كل لحظة من البحث". ويؤكد أن "النفسية التاريخية كلها وكل تاريخ الحياة الفكرية هي تاريخ اجتماعي، ولكنها أيضاً تاريخ الثقافة"¹. هناك كتاب أيضاً لزيبيدي باربو zavedei barbu مُخصص أيضاً لمسائل علم النفس التاريخي. تتركز اهتماماته الخاصة في بناء الشخصية الفردية في اليونان القديمة وبناء الشخصية القومية الانجليزية في القرنين السادس

¹ - R. Mandrou, Introduction h la France Moderne (1500-1640). Essai de Psychologie historique, Paris, 1961, pp. 353, 366; ejusd. 'Le baroque europeen: Mentalite pathetique et revoltion sociale' Annales (E.S.C.), 1960, 15e annee, NO. 5.

عشر والسابع عشر. علاوةً على ذلك، فهو يبذل جهد كبير لربط هذه الظواهر بالحياة الاجتماعية لذلك العصر¹.

عَرَضَ المؤرخ الفرنسي دوبرونت، في المؤتمر الثالث للمؤرخين، ورقةً بعنوان (مسائل ومناهج علم النفس الجماعي) *Problèmes et méthodes d'une histoire de la psychologie collective*، مُحدداً هدفه تحديد أشكال "تفكير المجموعة" وروحها من خلال تحليل أنظمة القيم والأفكار والمفاهيم والصور الفنية والأساطير والظواهر الأخرى التي تحدث بشكلٍ دوري، والتي تتجلى فيها "إيقاعات" الفكر الانساني. يتجاهل دوبرونت المكون الأساسي لعلم النفس الجماعي ولا يقول شيئاً عن البحث في نفسية الطبقات². يتم اخفاء الذاتية والمثالية بشكلٍ بارع في هذا النوع من الصياغة³. قد يُقدّم كتاب المؤرخ الأمريكي نورمان كون Norman Cohn (السعي للألفية) مثلاً على المُعالجة المشوهة وغير العلمية لمسائل علم النفس الاجتماعي التاريخي⁴. ان طائفة الألفيين-وهي طائفة عصبوية في القرون الوسطى كانوا ينتظرون انشاء "مملكة الرب على الأرض"- قد عالجها كون من حيث علم النفس المرضي والبارانويا والفصام الجماهيري. كما لم يتوانى المؤلف عن شن الهجمات الشرسة ضد المشاركين في الحركة الشيوعية المُعاصرة، والذين يشتبه كون بأنهم مُصابين بالذهان الوبائي.



نورمان كون

بطبيعة الحال، فان تشويه المسائل العلمية من قِبَل بعض المؤلفين لا يُلغي السؤال حول ما اذا كانت هذه

¹ - Z. Barbu, Problems of Historical Psychology, New York, 1960.

² - A. Dupront Problèmes et méthodes d'une histoire de la psychologie collective, Annales, 1961, 16e annee, No. 1

³ - See B. Geremek, Wmyslowosc i psychologia zbiorowa w historii," Przeglad historyczny, 1962, LIII, Na. 4. For a comment on ~ the Geremek article see Voprosy istorii, 1963, No. 10, pp. 183-185. Compare B. F. Porshnev, 'Sostoianie pogranych problem biologicheskikh i obshchestvenno -istoriche skikh nauk, " Voprosy filosofii, 1962, No. 5, p. 117

⁴ - N. Cohn, The Pursuit of the Millennium, Fairlawn, New Jersey, 1957

المسائل ذات أهمية موضوعية. يُمكن للمرء أن يذكر عدداً من الأعمال الجادة للعلماء البرجوازيين المعاصرين المُكرّسة لدراسة النفسية الاجتماعية في الماضي. يجب الانتباه بشكلٍ خاص الى مدرسة علماء النفس الفرنسيين برئاسة اي. ميرسون الذين قاموا بدراسة النفسية الاجتماعية في تطورها التاريخي وتحديدها الاجتماعي¹.

توجد اختلافات كبيرة بين الاتجاهات المُختلفة في علم التاريخ الغربي الحديث في تفسير مشاكل علم النفس الاجتماعي. يُعتبر المؤرخون الماركسيون مثل سوبول وروود هذا الفرع من البحث مكوناً لا ينفصم من علم التاريخ الاجتماعي. بعض العلماء الفرنسيين مثل ماندارو ودوبي لديهم وجهة نظر مماثلة. ومع ذلك، فإن المدرسة التي أسسها هويزينغا وفيفر تميل بدلاً من ذلك الى رؤية مستقبل علم النفس الاجتماعي التاريخي على أنه مجال من مجالات علم تاريخ الثقافة. أخيراً، يميل الكُتاب من نوع دوبرونت الى التعامل مع علم النفس التاريخي باعتباره مُختلفاً عن البحث الاجتماعي. لكن علم النفس التاريخي اليوم لا يشغل بال المؤرخين وهدهم. يهتم علماء النفس ونُقاد الفن واللغويون وممثلو العلوم الانسانية الأخرى بجوانبها المُتنوعة. توجد أسباب وجيهة للتأكيد على أن علم النفس الاجتماعي التاريخي صار المحور الذي تلتقي فيه الدراسات الأكثر تنوعاً حول الانسان².

ان الانتقال من نظام العلاقات المُتضمن في البناء التحتي الى نظام البنية الفوقية شديد التنوع ومتعددة الأشكال، بما في ذلك أعلى أشكال الحياة الايديولوجية للمجتمع، أمر مُستحيل ان لم نعتبر فرع دراسة حياة الانسان الفكرية والنفسية الاجتماعية مُهمة جداً. ان علم النفس الاجتماعي، كما نُؤكد مرةً أُخرى، ليس هو الحياة الايديولوجية للمجتمع، ولكن بعد أن تولد وتتشكل من خلال الظروف المادية والايديولوجية، فانها تُمارس تأثيراً هائلاً عليها (على الحياة الايديولوجية). بالنسبة للمؤرخ،، فان النفسية الاجتماعية التاريخية هي موضوع للدراسة وأحد تلك العناصر الأساسية التي بدون اعادة بناءها لن تكون صورة الماضي التاريخي عندها كاملة. في الوقت نفسه، يخدم علم النفس الاجتماعي التاريخي المؤرخ كأحد أدوات البحث، ومكوّن من عناصر التحليل البنوي والتفسير السببي. عند الحديث عن هذه الوظيفة الأخيرة لعلم النفس الاجتماعي، فاننا لا نقصد أن نربط أنفسنا على الاطلاق بأعضاء المدرسة السيكلوجية البرجوازية مؤيدي "التفسير التحفيزي" للتاريخ، والذين يختزلون كل أسباب الأحداث التاريخية بالأسباب السيكلوجية وحدها. ولكن، فنحن أيضاً غير قادرين على الاتفاق مع أولئك الذين يرفضون تماماً هذا الشكل من التحليل برفض النفسية الاجتماعية كأحد مكونات التفسير السببي.

يشهد الاستقصاء السريع وغير الكامل للأدبيات على حقيقة أن ما تم انجازه حتى الآن في هذا الاتجاه، لا يتجاوز حدود البحث البسيط وبالكَاد يُنظر اليه على أنه مثال يُحتذى به. لكن بعض تقنيات البحث المنهجية

¹ - See O. M. Tutundzhian, 'Progressivnye tendentsii v istoricheskoi psikhologii In'iasa Meiersona,' Voprosy psikhologii, 1963, No. 3.

² - Compare J. P. Vernant, 'Sur les recherches de psychologie comparative historique,' Journal de Psychologie, 1960, 57e annke, No. 4.

التي يستخدمها بعض المؤرخين تستحق الدراسة. بطبيعة الحال، لا يُمكن حل مشاكل تقنيات البحث واختيار المصادر والمسائل الأخرى الا في عملية البحث الملموس لمُختلف الموضوعات.

لا توجد هناك عوائق موضوعية أمام تطوير أُسس علم النفس الاجتماعي التاريخي الماركسي، والتي لا تُشكّل فقط فرعاً من علم النفس، بل عُصراً من عناصر البحث التاريخي كذلك. يجب أن يُصبح علم النفس الاجتماعي جانباً هاماً من جوانب البحث التاريخي.

ترجمة لمقالة:

A. Ia. Gurevich (1965) Certain Aspects of the Study of Social History (Historical Social Psychology), Soviet Studies in History, 3:4, 17-33

حول مشكلة ثورة العصر الحجري الحديث في ضوء البيانات الأركيولوجية الجديدة



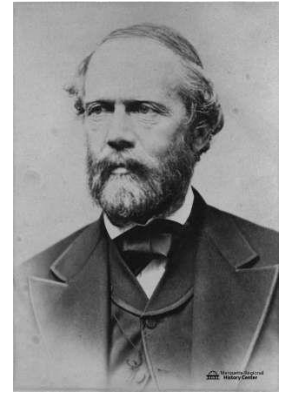
فاديم ميخايلوفيتش ماسون*

كان الانتقال الى حراثة التربة والرعي، أو بالمصطلحات المعاصرة، الى اقتصادٍ مُنتج، من أهم العمليات في تاريخ الإنسانية. انجلز نفسه اعتبر "تدجين وتربية الحيوانات وزراعة النباتات" كسمة مُميزة للعصر الجديد، والذي أطلق عليه البربرية مُستخدماً مصطلح لويس هنري مورغان. كَتَب انجلز في كتابه الشهير عن المراحل الأولى في التاريخ: "في وسعنا أن نُعمم كما يلي تقسيم مورغان للمراحل: الوحشية، المرحلة التي يُهيمن فيها امتلاك المنتجات الطبيعية الجاهزة، المنتجات التي يثنعها الانسان تُشكّل أساساً أدوات تُساعد في هذا الامتلاك. البربرية، مرحلة بداية تربية الماشية والزراعة، مرحلة تحصيل الطرائق لزيادة انتاج المنتجات الطبيعية بفضل النشاط البشري. الحضارة، مرحلة استمر فيها تعلّم معالجة المنتجات الطبيعية، مرحلة الصناعة بالذات ومرحلة الفن"¹. ومع ذلك لا يجب أن ننسى أن تحقيب انجلز-مورغان يعود الى فجر علم الأركيولوجيا البدائي، وأنه يستند الى درجة كبيرة، على المواد الاثنوغرافية.

* فاديم ميخايلوفيتش ماسون 1929-2010 عالم ماركسي أنثروبولوجي ودكتور في العلوم التاريخية ورئيس معهد تاريخ الثقافة المادية في أكاديمية العلوم السوفييتية-الروسية 1982-1998.
تخرّج من القسم الاركيولوجي لمعهد التاريخ في جامعة وسط آسيا الحكومية. دافع عام 1954 عن اطروحته في الدكتوراه المعنونة (الثقافة القديمة لداغستان- مسائل تاريخية وأركيولوجية). وفي عام 1962 دافع عن اطروحة الدكتوراه (التاريخ القديم لوسط آسيا-منذ نشوء الزراعة وحتى حملات اسكندر الأعظم)، ومن ثم بعد هذا عمل في القسم القوقازي لمعهد تاريخ الثقافة المادية السوفييتي وصار رئيساً لهذا القسم عام 1968. ألف ماسون لوحده أو بالتعاون مع علماء آخرين أكثر من 32 كتاباً و500 مقالة نُشرت في الاتحاد السوفييتي وبريطانيا وألمانيا الديمقراطية والغربية واليابان وايطاليا. ومن أعماله: (وسط آسيا والشرق القديم) 1964، (دولة الألف مدينة) 1966، (وسط آسيا في العصرين الحديدي والبرونزي) 1966، (نشوء وتطور الزراعة) 1967، (ثقافة شعوب الشرق: المواد والبحث) 1976، (أولى الحضارات) 1989.

1 - مختارات ماركس وانجلز في 4 أجزاء، المُجلد الثالث، دار التقدم 1975، ص201

أكد المزيد من تراكم البيانات الأركيولوجية بقوة أكبر على الاختلاف النوعي الأساسي بين الفترتين، مما جعل من الممكن للأركيولوجي الإنجليزي غوردون تشايلد (1892-1957) أن يقترح مصطلح "ثورة العصر الحجري الحديث" الذي يُقصد به الانتقال إلى فلاحه التربة وتربية المواشي. تشايلد نفسه لم يُخف حقيقة أنه طرَحَ هذا المصطلح مثل المصطلح الآخر "الثورة الحضرية" الذي لن نُعالجه في هذه المقالة¹، والذي هو محاكاة للثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر². تم قبول هذا المصطلح بين الأركيولوجيين والمؤرخين السوفييت بحذر إلى حد ما في البداية بسبب الميل السائد في وقت ما إلى اعتبار الثورة بمثابة نهوض اجتماعي في المقام الأول³. ومع ذلك، فقد اكتسب هذا المصطلح في السنوات الأخيرة قبولاً متزايداً في أدبنا أيضاً⁴.



لويس مورغان

بطبيعة الحال، فإن الشكوك القائمة على اعتبارات تكنولوجية محضة، يصعب الدفاع عنها. نحن نعلم أن ماركس استخدم على وجه التحديد مصطلح الثورة الصناعية⁵.

ترسخت في السنوات الأخيرة فكرة أن ثورة علمية تكنولوجية ذات جذور عميقة تحدث حالياً في المصطلحات العلمية والاجتماعية والسياسية، ويستخدمها المؤرخون الماركسيون على نطاق واسع. يبدو لي أن البيانات الأركيولوجية الحديثة ستجعل من الممكن تحديد سمات التغيرات الأساسية التي حدثت في الاقتصاد في فجر التاريخ بدقة.

الاعتراض الرئيسي ضد مصطلح "ثورة العصر الحجري الحديث" في الأدبيات الأركيولوجية الأوروبية

¹ - See V. M. Masson, "K voprosu o 'gorodskoi revoliutsii,'" - IV sessiia PO Drevnemu Vostoku. 5-10 fevralia 1968 g. Tezisy dokladov, Moscow, 1968, p. 15

² - G. Childe, Man Makes Himself, London, 1939

³ - See, for example, A. V. Artsikhovskii's introduction to G. Childe, Progress i arkhologiiia, Moscow, 1949, p. 15. The present author at one time shared such a view.

⁴ - Istoriia SSSR, Vol. I, Moscow, 1966, p. 40; V. I. Guliaev, "Novye dannye of proiskhozhdenii zemledel'cheskikh kul'tur Mezoameriki," Sovetskaia etnografiia (hereafter SE), 1966, No. 1, p. 147; L. S. Vasil'ev, "Nektorye problemy genezisa mirovoi tsivilizatsii v sovremennykh zarubezhnykh issledovaniiax," Narody Azii i Afriki, 1966, No. 2, p. 172; V. M. Bakhta, "K voprosu o strukture pervobytnogo proizvodstva," Voprosy istorii, 1960, No. 7.

⁵ - مثلاً: رأس المال-المؤجد الأول، كارل ماركس، ترجمة فالح عبدالجبار، دار الفارابي 2013، ص 467

الغربية والأمريكية الحالية، هو أن البيانات الجديدة تُشير كما يُزعم، الى تغير تدريجي (من جانب الانسان) في مصادر الغذاء والأشكال الاقتصادية الجديدة. والأمر، بالنسبة للعلماء الذين تُضلّهم الفترات الزمنية الطويلة للغاية التي تنطوي عليها هذه العملية، هو تطور تدريجي Evolution وليس ثورة¹.

ان الحقيقة هي أن هذا التغير، بناءً على البيانات المتاحة، تطلّب ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف سنة² في الحالات التي لم يتم تحفيزه بتأثيرات خارجية مُكثّفة. ومع ذلك، من الضروري تجنب سحب المواقف المُتجذرة في وضعنا اليوم عندما نتعامل مع مسألة مُعدلات التطور التاريخي. ان ما يبدو طويلاً وبطيئاً من وجهة نظر الحاضر قد يحتاج تقييماً مُختلفاً تماماً ان تمت دراسة نفس الظاهرة من منظور آلاف السنين من تاريخ العصر الحجري القديم والذي استمر لما يقرب من مليوني عام، وخصوصاً في ضوء أحدث الأبحاث.



غوردون تشايلد

من هذا المُنتلق، فان الانتقال الى حراثة التربة وتربية المواشي، والذي كان الجوهر التاريخي لثورة العصر الحجري الحديث وحدد أهميته التاريخية، يقع في فئة التغيرات النوعية العميقة والتحويلات الحادة والسريعة نسبياً من حالة نوعية الى أخرى. كانت هذه عملية طويلة ومُعقدة في الحياة العملية للبشر وتسلسل الأجيال، وقد تضمنت، كما لاحظ تشايلد نفسه بحق، عدداً من المراحل المُتعاكبة³. وفي هذا الصدد، ليس من قبيل المُصادفة أن المؤرخين في العصر الحديث قد حددوا عدداً من المراحل في تطور الثورة الصناعية⁴. استناداً الى حقيقة أن تقنيات جديدة مُعينة دخلت حيز الاستخدام في الصيد وصيد الأسماك خلال العصر الحجري الحديث⁵، ظهر اتجاه يُفسر ثورة العصر الحجري الحديث على نطاق واسع، ساحبين هذا المُصطلح على جميع المُجتمعات التي أُطلقَ عليها الأركيولوجيين اسم العصر الحجري الحديث بغض النظر عن أساسها الاقتصادي. ينبع هذا النوع من مُعالجة المسألة من السعي الطبيعي لاطفاء طابع تاريخي على التحقيب الأركيولوجي التقليدي المُريح. ولكن، من الواضح تماماً أن المُحتوى التاريخي للفترات التي يُطلق عليها

¹ - J. Mellaart, Cab1 Huyik. A Neolithic Town in Anatolia, London, 1967, p. 17; R. S. MacNeish, "Ancient Mesoamerican Civilization," Science, 1964, No. 3606, p. 536

² - V. M. Masson, "Problema neoliticheskoi revoliutsii," Tezisy dokladov na zasedaniakh, posviashchennykh itogam polevykh issledovaniy 1967 g., Moscow, 1968, p. 15. 9).

³ - G. Childe, op. cit., p. 112

⁴ - See L. G. Mel'nik, "Izuchenie v GDR, Pol'she i Chekhoslovakii problemy promy shlennogo perevorota," Voprosy istorii, 1967, No. 5, pp. 179-180

⁵ -- See Istoriia SSSR, Vol. I, Moscow, 1966, p. 40

بشكلٍ تعسفي العصر الحجري الحديث، يختلف تماماً في الشرق الأدنى والحزام الشجري في أوروبا الشرقية. لا يوجد هناك مبررات لتطبيق مُصطلح "ثورة العصر الحجري الحديث" على المُجتمعات التي استمرت في التطور من مُجتمعات قائمة على اقتصاد الجمع والصيد وصيد الأسماك. لا تؤدي أي من التغيرات التي تحدث فيها بأي شكلٍ من الأشكال الى تحولاتٍ نوعية حادة في الاقتصاد ككل.

يبدو لنا أنه يجب على "ثورة العصر الحجري الحديث" أن تُفهم على أنها تعني التغيرات الأساسية في مجال الاقتصاد المُعبر عنها في التحول الى حراثة التربة وتربية المواشي باعتبارها الطريقة الرئيسية لإنتاج الغذاء سواءً كانت مجموعة من الأشكال المتعددة لهذه الأنماط الاقتصادية، أو أحدها.

ان مُصطلح "ثورة العصر الحجري الحديث" هو الى حدٍ كبير مُصطلح اتفاقي، وحتى تشايلد يضعه دائماً بين شرتي اقتباس عند الحديث عن ثورة أو اقتصاد عصر حجري حديث¹. يُفضّل بعض المؤرخين الأجانب الحديث عن "ثورة إنتاج الغذاء"²، كما طرَح مُصطلح "الثورة الزراعية"، الذي يُصنّف طابع التغيرات الاقتصادية في مُجتمعات العالم القديم. برأينا، فان مُصطلح تشايلد القديم لا يزال هو الأكثر ملاءمةً، شريطة أن يكون مُحتوى المُصطلح مُحدد بوضوح. وليس من قبيل المُصادفة أنه حصلَ على أوسع انتشار في الأدبيات العلمية.

ان أحد أهم المسائل هو تحديد المرحلة الأولية والأخيرة في ثورة العصر الحجري الحديث. كان تشايلد وبعض أتباعه المُباشرين يميلون الى تحديد فترة العصر الحجري الحديث بالكامل حتى فترة استدخال المعادن على أنها تقع ضمن ثورة العصر الحجري الحديث. يزداد هذا السؤال تعقيداً بسبب المستوى غير المُلائم للمعالجة النظرية والنُدرة الشديدة للمواد الوقائية. من الواضح أن المعيار الرئيسي يجب أن يكون مستوى تطور الفروع الاقتصادية الجديدة المُهيمنة بغض النظر عن بقايا الأشكال الاقتصادية والثقافية القديمة الانتقالية. من الأصح تطبيق مُصطلح ثورة العصر الحجري الحديث على وجه التحديد على العملية التي تتأسس الأشكال الاقتصادية الجديدة بموجبها، والتي وصلت ذروتها في بواكير مُجتمعات زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات. من المؤكد أن تربية الحيوانات وزراعة التربة استمرت في التطور بعد ذلك، كما تطوّرت العناصر الحياتية والاقتصادية الأخرى. ومع ذلك، فان هذا التطور لم يحمل طابع التغيرات النوعية الحادة. كانت التغيرات الاقتصادية الأساسية قد انتهت في أثناء هذا التطور، وكان المُجتمع يسير في حقبة جديدة أصلاً.

ان للظهور الأول لدور الأنواع المُستأنسة من النباتات والحيوانات في الاقتصاد ذو أهمية قصوى لتحديد المرحلة الأولية لهذه الثورة. ان أول ظهور لتلك الحيوانات تُشير الى بداية ثورة العصر الحجري الحديث، تماماً كما كان اختراع جون وايت آلة الغزل عام 1735 بمثابة بداية الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر³.

¹ - G. Childe, op. cit., pp. 80, 95, 110

² - R. McC. Adams, The Evolution of Urban Society, Chicago, 1966, p. 41; R. J. Braidwood, Prehistoric Man, Glenview, 1967, p. 88

³ - رأس المال-المُجدد الأول، كارل ماركس، دار التقدم 1985، ص535

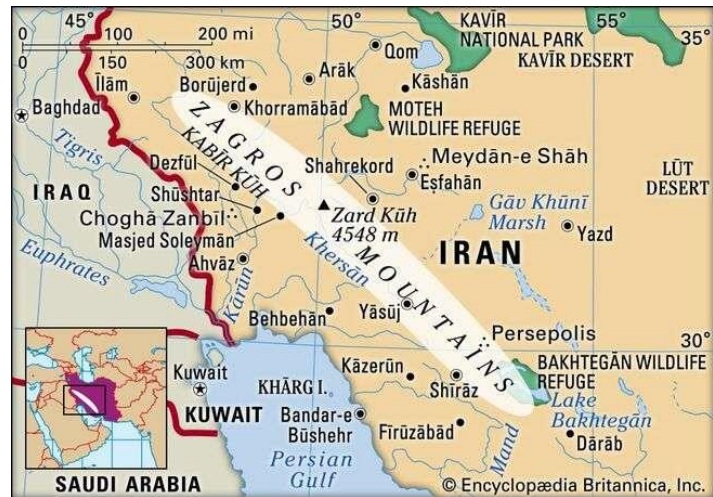
تجب الإشارة الى نهاية ثورة العصر الحجري الحديث في الوقت الذي سيطرت فيه الفروع الاقتصادية الجديدة على النظام الاقتصادي مؤمنةً ما لا يقل عن نصف المُنتجات الغذائية. وحتى لو كانت هناك امكانات اقتصادية مُرتفعة للصيد وصيد الأسماك والجمع في ظل ظروف مُختلفة أثناء تلك الثورة، فلن تُغيّر جوهرها (جوهر الثورة) على الاطلاق.

دعونا نُعالج الجوانب الرئيسية لثورة العصر الحجري الحديث في ضوء تلك التحديدات التي سبق ذكرها، انطلاقاً من المواد الأركيولوجية في المقام الأول. ستظل الأدوات الأثرية التي اكتشفت في آسيا الصُغرى وأمريكا الوسطى والبيرو (على الأقل حتى يتم ايجاد اكتشافات جديدة)، أساساً لدراسة ثورة العصر الحجري الحديث في بيئات غير مُعقدة تعقيداً ناتجاً عن وجود حضارات مُتطورة قريبة ومتاخمة لها. في الوقت نفسه، يجب أن لا يغيب عن الأذهان أن التجمعات والثقافات الأركيولوجية تعكس عادةً السمات العيانية لتطور المُجتمعات البشرية في مناطق جغرافية مُحددة بكل تعقيدات الخصائص المحلية الطبيعية والتاريخية. لذلك، من أجل فحص الانتظامات العامة لثورة العصر الحجري الحديث، من المُستحسن اعادة بناء المُخططات والنماذج العامة، انطلاقاً من البيانات العيانية. يُمكننا اليوم التحدث بشكلٍ مؤقت عن ثلاثة مسارات أو نماذج لهذه العملية.

1- نموذج آسيا الصُغرى: يتميز باقتصاد قائم على الزراعة وتربية الماشية على أساس اقتصاد صيد والتقاط متطور للغاية. يتمثل هذا النموذج في نوعين رئيسيين: النوع الاقتصادي ذو الهيمنة الزراعية، والنوع ذو الهيمنة الرَعوية.

2- نموذج أمريكا الوسطى: يتميز بتشكّل اقتصاد زراعي على أساس اقتصاد جامع للثمار عالي التخصص في ظل ظروف أزمة الصيد بسبب التغيرات المناخية القديمة.

3- النموذج البيروفي: يتميز بتأسيس اقتصاد تُهيمن الزراعة عليه في ظل ظروف لِعَبَ فيها الصيد والصيد البحري دوراً كبيراً بسبب التطور المُسبق لأسلوب حياة مُستقر. في البداية كان لهذا العامل تأثير ايجابي على ولادة الزراعة، ولكنه لاحقاً مَنَعَ الانتصار الكامل لهذا النمط الاقتصادي الجديد عندما كان يوفر امدادات مُستقرة من المنتجات الغذائية.



جبال زاغروس في ايران

دعونا نُعالج بايجاز سياق هذه العمليات في المجالات الرائدة للعالمين القديم والجديد. في العالم القديم، تم ايجاد أهم المُكتشفات في الشرق الأدنى، وقامت بعض المؤلفات العامة بتخصيص مواضيعها لها¹.



أحد مساكن شاندار الكهفية

كانت جبال زاغروس Zagros في غرب ايران وشمال العراق من أهم مراكز ثورة العصر الحجري الحديث. هنا سادت ثقافة العصر الحجري الوسيط للالتقاط والصيد في الألف العاشر الى الثامن قبل الميلاد، في حين أن الحركة على طول الطريق نحو الاقتصاد الجديد كانت حينها قد بدأت بالفعل. ان مساكن (شاندار) Shanidar الكهفية (کردستان) ومستوطنات تلك الفترة معروفة جيداً (مواقع: زاوي وتشيمي^{2*} -Zawi-Chemi و شاندار، معليف^{3*} M'Lefaat، كريم وشاهر^{4*} Karim-Shahir).

¹ - R. J. Braidwood, The Near East and Foundations for Civilization, Oregon, 1952; same author, Prehistoric Man; K. V. Flannery, "The Ecology of Early Food Production in Mesopotamia," Science, 1965, No. 3663; J. Mellaart, Earliest Civilizations of the Near East, London, 1965; same author, The Earliest Settlements in Western Asia, Cambridge, 1967; V. M. Masson, Sredniaia Aziia i Drevnii Vostok, Moscow and Leningrad, 1964

² * - موقع اركيولوجي على بعد 24 كيلومتراً الى الشمال الشرقي من أنقرة وعلى بُعد 48 كيلومتر من الموصل وقد حُدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون بواسطة الأشعة السينية بحوالي 9000 عاماً قبل الميلاد، وكانت المساكن هناك عبارة عن أكواخ دائرية بُنيّت جدرانها من أحجار النهر، وتُظهر الأدوات الحجرية أن بعض المنتوجات النباتية قد زُرعت لاستعمالها كطعام. ومع أن الصيد كان لا يزال المصدر الأساسي للحصول على الطعام الا أنه كان هناك بقايا أغانم وعظامها مما يدل على تربية الأغانم، مما يُظهر ان استئناس الحيوانات كان قد بدأ.

³ * - معليف هو موقع اركيولوجي يبعد حوالي 35 كيلومتراً شرق الموصل و250 متراً غرب ضفة نهر خازر ويرجع تاريخه الى حوالي 8000-7600 قبل لميلاد.

⁴ * - موقع كريم وشاهر هو تل قديم يقع بالقرب من موقع جرمو الأثري في تلال كركوك. لقد اكتشفت هناك قطع اركيولوجية تقدم دليلاً واضحاً على المعرفة بزراعة الحبوب على شكل شفرات منجل تُظهر لمعناً من مكان استخدامها. كما تم اكتشاف أجران الحبوب وعظام الحيوانات الخ.



مجموعة من البشر البدائيين في موقع زاوي وتشيمي

تم توفير بيانات مُثيرة للاهتمام من خلال التنقيب في موقع زاوي-تشيمي. كانت المهنة الأساسية لسكانها هي صيد الحيوانات ذات الحوافر الكبيرة (الأغنام والماعز والغزلان) بالإضافة الى جمع الحلزونات البرية والقواقع البحرية.



موقع معليف الأركيولوجي

ولكن وجود العدد الكبير لصغار الأغنام قد أدت بعلماء الحيوانات الى استنتاج أن أولئك السكان كانوا يمرون بالمراحل الأولى لتدجين الحيوانات. من المُحتمل أن تكون أجران الحبوب المتنوعة والمدقات الجرسية bell pestles تُستخدَم في معالجة الأطعمة النباتية، وكما تم العثور على شفرات مناجل صوانية.



المدقات الجرسية التي عُثِرَ عليها في موقع زاوي-تشيبي

يبدو أن الطبقات الأرضية الدنيا من منطقة علي كوش¹ * Ali Kosh تقع في نهاية تلك الفترة. هنا يشهد تحليل النسبة المئوية لعينات أفراد النوع المعني أن تدجين الماعز كان حاضراً، بينما من بين العديد من البقايا الخضرية توجد حبوب القمح والشعير المزروع.



حفریات من منطقة علي كوش

وهكذا، لدينا آثار واضحة تماماً للمرحلة الأولى من ثورة العصر الحجري الحديث. ولكن على العموم، كانت

¹ * علي كوش هو تل صغير من فترة أوائل العصر الحجري الحديث في غرب إيران وتم التنقيب عنه في الستينيات. توصل البحث فيه إلى أن الموقع سُكِنَ 3 مرات على مدار 2000 سنة تقريباً، بدءاً من حوالي 9500 قبل الميلاد إلى عام 7500 قبل الميلاد. كان علي كوش أول مجتمع زراعي في غرب إيران، حيث بدأت الزراعة في الألفية الثامنة قبل الميلاد كما تم رعي الماعز والأغنام.

الثقافة لا تزال تحتفظ بسماتها القديمة، ما يشهد عليه مواقع المُدن غير المُحصَّنة المُتكونة مما يُشبه المخابئ الأرضية semidugout dwellings، وغياب الفخار والفقر النسبي، وهذا واضح في حالة مدافن شاندار. ومع ذلك، فقد توفرت هنا الى هذا الحد أو ذاك، حتى مع هذا الاقتصاد المُختلط بكُل من عناصره القديمة والتقدمية، حالة من الانتاج المُستقر والمتوسع، مما أدى الى تكثيف عناصر الحياة المُستقرة حيث تراكمت طبقات ثقافية ذات سماكة مُعتبرة في المواقع الأركيولوجية المعنية.



استخدام المناجل في الزراعة في العصر الحجري الحديث

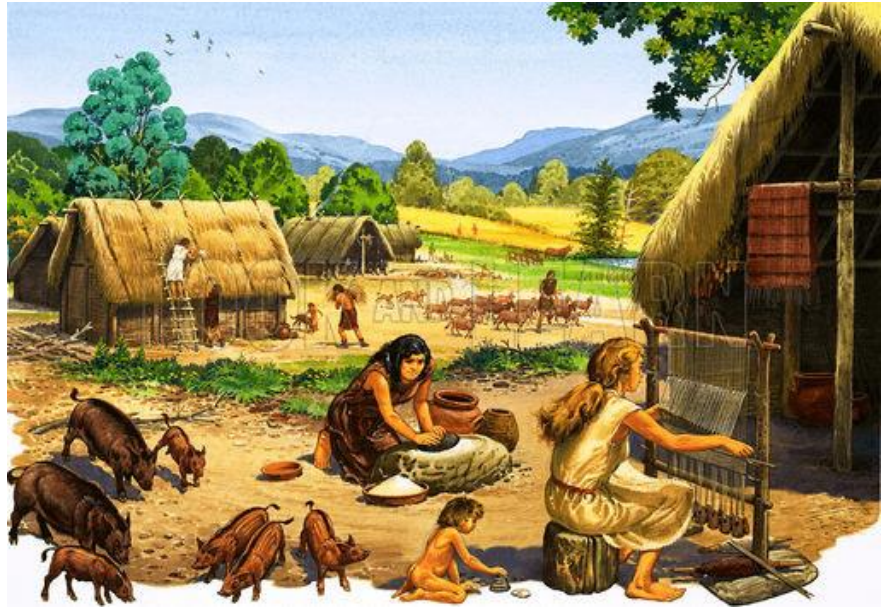
اتسم انتصار ثورة العصر الحجري الحديث في المناطق الجبلية في زاغروس zagros على ما يبدو بتجمعات من مثل تلك في جرمو¹ * Jarmo (الألف السابع الى السادس قبل الميلاد). يُعرَف في الوقت الحاضر عن عدد من المُجتمعات من هذا النمط (جرمو سراب Sarab، غوران Guran، شمشير Shamsir). تم تدجين الماعز والأغنام والخنازير في هذه المرحلة. تم العثور على حواف المناجل الصوانية بكثرة مصحوبةً بنوعين من الحبوب المزروعة وهما القمح والشعير. أدت الحاجة الى مُعالجة وطهي الطعام النباتي الى انتاج عدد كبير من الأواني الحجرية أولاً، ومن ثم الفخارية. كما تم صنع أشكال بشرية وحيوانية من الطين بأعداد كبيرة. تتكون الطبقات الثقافية التي يبلغ سُمكها عدة أمتار من بقايا منازل طينية وتُشكل دليلاً على حياة مُستقرة. في الوقت نفسه يبدو أنه يُمكن للمرء أن يرى عناصر من التخصص الاقتصادي داخل منطقة جغرافية وثقافية واحدة. وهكذا، فإن مستوطنة سراب الواقعة في منطقة المراعي الجبلية العالية تختلف عن منطقة جرمو التي تقع على ارتفاع منخفض حيث لا تحتوي على عمارة من الطوب ولا عظام الخنازير.

1* - جرمو، وتُسمى أيضاً قلعة جرمو، وهي موقع أثري من عصور ما قبل التاريخ يقع شرق كركوك في شمال شرق العراق. الموقع مُهم لأنه كُشفت فيه عن آثار احدى المُجتمعات الزراعية القروية الأولى في العالم. تُقدَّم ما يقرب من 12 طبقة من المباني المعمارية أدلةً على وجود القمح والشعير والكلاب والماعز المُستأنسة، مما يُشير الى وجود نمط حياة زراعي مُستقر. تُشير القطع الأثرية التي تم العثور عليها في جرمو مثل شفرات المناجل الصوانية وأحجار الطحن والفخار الى الابتكارات التكنيكية التي تم اجراؤها استجابةً لنمط انتاج الغذاء الجديد. تشير التقديرات الى ان استيطان الموقع قد حدث حوالي عام 7000 قبل الميلاد.



إناء فخاري وُجِدَ في موقع جرمو

يسمح عمر الماعز المذبوحة هنا باستنتاج أن هذا كان مُجتمعاً موسمياً من الرُّعاة. بعبارةٍ أُخرى، كان يُمكن أن يوجد أنماط مُجتمعات يغلب عليها اما الطابع الزراعي لوحده أو الطابع الرعوي لوحده في منطقة جغرافية واحدة من ثورة العصر الحجري الحديث. من المُحتمل تماماً أن يكون التطور الشامل لنمط الاقتصاد الجديد قد حدث في المقام الأول بفضل انتشار المزيد من مُجتمعات تربية الماشية التي كان لديها معرفة بالزراعة ولكنها لم تُمارسها كمهنة أساسية.



قبائل حسونة

ان قبائل حسونة Hassuna التي سيطرت على منطقة شاسعة من شمال بلاد ما بين النهرين في الألفية السادسة قبل الميلاد، هي مثال حي على مُجتمعات ثورة العصر الحجري الحديث، وهي ليست بعيدة عن المستوطنة التي اكتشفها الأركيولوجيين العرب مؤخراً والتي تعود الى نفس الفترة: تل الصوان-Tell es-

Sawwan*¹. كل شيء هنا يشهد على مستوى عالٍ من الازدهار الثقافي. كانت المُستوطنة مُحاطة بجدارٍ من الطوب وخندق مائي. بالإضافة الى المساكن توجد آثار لمبنى كبير، ربما كان معبداً. وُجِدَت أغراض مثل الخرز والأواني الحجرية الأنيقة والتماثيل النسائية في كل مقبرة من الـ200 قبر. تُدهشنا مجموعة المنحوتات الحجرية التي يبلغ عددها أكثر من 100 عيّنة والتي تعود الى مثل هذه المستوطنة الصغيرة جداً.



احدى المنحوتات الحجرية النسائية، من تل الصوان

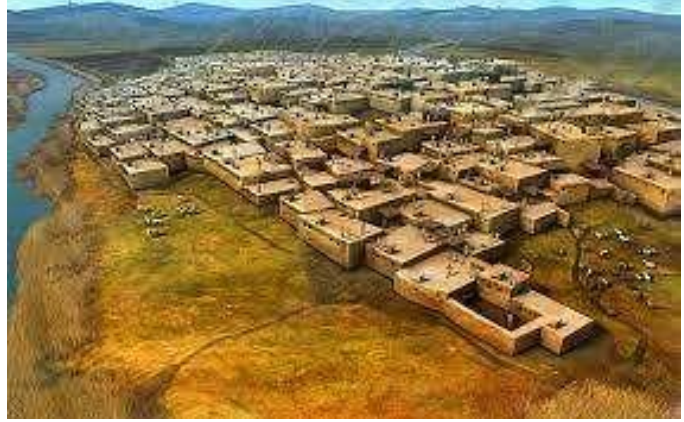
تم العثور على كميات بالكيلوغرام لحبوب النباتات المزروعة: الكتان وثلاثة أنواع من القمح وأربعة أنواع من الشعير. يبدو أنه تم بناء السدود على طول شواطئ الجداول الموسمية من أجل الري، وهذه هي المرحلة الأولى من الزراعة المروية².

تتمظهر النتائج المباشرة لثورة العصر الحجري الحديث بشكل أكثر وضوحاً في مواد منطقة أخرى في الشرق الأدنى، في آسيا الوسطى. من الصحيح القول أن المراحل المُبكرة مثل تلك في زاغروس لم تتحدد

1* - موقع أثري على الضفة الشرقية لنهر دجلة، جنوب سامراء في محافظة صلاح الدين وسط العراق. بدأ التنقيب في المكان منذ الستينات في القرن العشرين، وخاصة من قبل بعثات عراقية. كشفت أعمال التنقيب عن قرية متطورة من العصر الحجري الحديث، عاشت على امتداد النصف الثاني للألف السادس ق.م.، وكانت مستوطنة محمية بخندق مزدوج، يليه سور دفاعي، مزود ببوابات، مداخلها منحنية ليسهل الدفاع عنها، هذه التحصينات هي الأقدم من نوعها في الشرق القديم. وهناك أسوار تحيط ببعض الأبنية المهمة في المدينة. أبنية القرية كبيرة مؤلفة من غرف كثيرة، مبنية من اللبن المقولب، أرضها وجدرانها مطلية بالحصص ومزودة بدعامات، بعضها معابد وبعضها مشاغل ومخازن أو بيوت سكن. تنظيمها دقيق على شكل حرف T، تفصل بينها باحات مزودة بغرف تخزين وأفران وتنانير، وتفصل بين المنشآت العمرانية شوارع رئيسة وفرعية وأقنية تصريف للمياه صنعت من الفخار. كُشف تحت المباني عن الكثير من القبور، معظمها لأطفال، وبعضها لليافعين، دفن الأطفال في جرار من الفخار أو الرخام، أوفي سلال مطلية بالقار، بينما دفن اليافعون في حفر بيضوية الشكل في وضعية مثنية، لفّت الموتى بالحصص والقماش وزوّدوا بمختلف أنواع الحلي، كالأساور والأطواق والقلائد، المصنوعة من الأحجار النادرة الثمينة والصدف والقواقع والنحاس والأوبسيديان، إضافة إلى التماثيل والأواني الفخارية. دلت هذه القبور الغنية على التمايز الاجتماعي والطبقي الذي عرف من ذلك الزمن الباكر، وتعد الأواني الفخارية والمرمرية والكلسية من أهم مكتشفات هذا الموقع، وهي تجسد الميزات الحضارية لصناعة الفخار في ذلك العصر. تباينت أنواع هذه الأواني من البسيط العادي، في الطبقات الأقدم، إلى الأنواع الراقية في الطبقات الأحدث. كشف عن مختلف أنواع الجرار والطاسات والصحون والكؤوس التي حملت زخارف هندسية ونباتية وحيوانية، هي الأجل من نوعها حتى ذلك العصر، فظهرت أشكال المياه والأسماك والنساء الراقصات بشعورهن الطويلة والوجوه البشرية التي تحمل آثار الوشم، إضافة إلى أشكال الغزلان وهي تزعى، والطيور والعقارب وغيرها. وهناك التماثيل التي صنعت من الرخام، وبعضها من الطين، وجسدت فيها النساء واقفات، وقد برزت تفاصيلهن الجسدية، وعلى رؤوسهن أغطية، وعيونهن منزلة بالأحجار النادرة والحواجب محززة والأنف بارز وملامح الوجه واضحة، وبعض التماثيل بلا رؤوس، كما كشف عن دمي لحيوانات مختلفة، وخاصة لحمار الوحش. عثر في المستوطنة أيضاً على لقي متنوع كالأختام والخرز من النحاس، وأسلحة نحاسية، هي الأولى من نوعها، وهناك الأدوات الحجرية والعظمية والأدوات الزراعية المنوعة. مارس السكان زراعة القمح والشعير والذرة والكتان، بعد أن عرفوا لأول مرة الري المنظم (السقاية)، الذي دلت عليه أيضاً مجموعات الأقفية والسواقي المكتشفة في الموقع. كما دجنوا الماعز والبقر والغنم والكلاب، واصطادوا مختلف أنواع الحيوانات البرية، كالغزلان وحمار الوحش والطيور والأسماك وغيرها.

بوضوح. يعود تاريخ مستوطنة شايونا-تبيسي Çayönü-Tepesi في جنوب شرق تركيا الى النصف الثاني من الألفية الثامن والنصف الأول من الألفية السابعة قبل الميلاد. هناك سبب للاعتقاد بأن شظايا العظام التي عُثِرَ عليها تعود الى الحيوانات الأليفة والخنازير الصغيرة المُستأنسة، لكن هذا ليس مؤكداً. وينطبق الشيء نفسه على حبوب القمح البدائية المُكتشفة هنا. يعود تاريخ مستوطنة سوبيردي Suberde حيث يُعتَقَد أن 90% من اللحوم تعود الى صيد الأغنام البرية والماعز والغزلان، على الرغم من وجود علامات لتدجين الخنازير أيضاً، الى الألفية السابعة قبل الميلاد.

يُمكن مناقشة التنويع الزراعي الأساسية لثورة العصر الحجري الحديث بقدر أكبر عندما يتعلق الأمر بآسيا الصغرى. تم العثور على المناجل Sickle inserts في الطبقة الميزوليثيكية (العصر الحجري الأوسط) للقرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد في مغارة بيلديبي Beldibi Grotto على الساحل التركي الجنوبي. لا تحتوي طبقات العصر ما قبل الفخاري preceramic strata في هاليجار Halijar (جنوب شرق تركيا) على القمح البري والشعير فحسب، بل تحتوي أيضاً على حبيبات الشعير المنخولة، ولم يُعثر الا على الكلب كحيوان مُستأنس. من المُرجَّح أن تكون شاتال هايوك Çatalhöyük الزراعية المُستقرة (النصف الثاني من الألفية السابعة الى النصف الأول من الألفية السادسة قبل الميلاد) قد نشأت على أساس مُختلط من الصيد وجمع الثمار والزراعة على هضبة قزوين¹. لدينا هنا، بالاضافة الى مثال ثقافة حسونة في بلاد ما بين النهرين، أمثلة حية لمُجتمع ثورة العصر الحجري الحديث.



تصوّر اركيولوجي لما كانت عليه مستوطنة شاتال هايوك في العصر الحجري الحديث

اجمالياً، هناك أكثر من 20 مستوطنة من هذا النوع معروفة في الأناضول، والتي كانت شاتال هايوك أكبرها، حيث كانت مساحتها حوالي 126 دونماً. كان هنا يُزرَع حوالي 14 نوعاً من النباتات بما في ذلك نوعين من القمح والشعير والبازلأ. كان مستوى ازدهار هذا المُجتمع القديم عالياً جداً. كان هناك لكل ثلاثة أو أربعة مساكن مزار Shrine، صحيح أنه كان صغيراً، لكنه كان مُزيناً ببذخ بلوحات جدارية ونقوش طينية. أخيراً، تم العثور على أكثر من 50 مزاراً من هذا النوع. تُعَبَّر الأشياء الأثرية بما في ذلك الأواني والحليّ وأدوات النظافة الشخصية، من سمات هذه الثقافة. هنا على وجه التحديد، تم العثور على ما يُمكن أن يكون أقدم مرايا

¹ - F. El-Wailly and B. Abu es-Soof, "The Excavations at Tell es-Sawwan. First Preliminary Report," Sumer, Vol. XXI, 1965

بيضاوية oval mirrors في العالم مصنوعة من حجر الاوبسيديان black obsidian ((يُستَخدم في صناعة رؤوس الأسهم والأدوات الحادة)).

المركز الثالث المهم لثورة العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى هي المنطقة الأردنية-الفلسطينية. حظيت ولادة عناصر من اقتصاد حضارة العصر الحجري الوسيط النطوفية Natufi السائدة هناك في الألفيتين العاشرة والتاسعة قبل الميلاد باهتمام الباحثين¹. كان أساس الاقتصاد هناك قائم على اللقاط والصيد وصيد الأسماك. يشهد وجود أجران ومدقات والمناجل التي تستخدم في الحصاد (تم العثور على أكثر من 1000 منها في مغارة الواد (شقبا) في رام الله) على أن الثقافة النطوفية كانت تُمارس الحصاد المنتظم للنباتات البرية ان لم يكونوا أصلاً يقومون بالزراعة مُنظمة. في الوقت نفسه، يدل الدور الكبير الذي لعبه صيد السمك في بعض المستوطنات الذي أدى الى تطوير مُبكر للمستوطنات الدائمة وظهور منازل ذات أرضية مُستديرة² round floor-plans، يدل على وجود عناصر من نموذج العصر الحجري الحديث البيروفي.



السكنات النطوفية

وعلى أساس الثقافة النطوفية على وجه التحديد، تشكلت ثقافة العصر الحجري الحديث في منطقة أريحا في الألفيتين الثامنة والسابعة قبل الميلاد. كانت أريحا نفسها مستوطنة نموذجية دائمة تحتوي على منازل من الطوب وكانت مُحاطة بجدار من الحجارة خام المصقولة بدائياً على شكل طوب quarried stone. كانت الحيوانات الأليفة تشمل بلا شك الماعز والثور والأغنام والخنازير³. تم العثور على حبوب بعض النباتات البرية والقمح والشعير في احدى المستوطنات⁴.

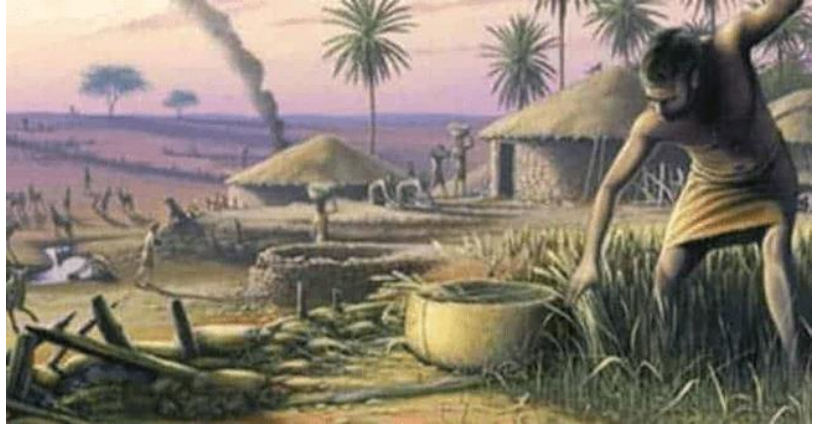
¹ - See G. N. Lisitsina, "Osnovnye etapy istorii zemledeliia na iuge Srednei Azii i Blizhnem Vostoke," I Problemy arkheologii Srednei Azii, Leningrad, 1968, pp. 82-88

² - J. Mellaart, Catal Huyuk; V. M. Masson, "Neolit luznoi Turtsii," Arkheologiya Starogo i Novogo Sveta, Moscow, 1966. 19) G. Childe, Drevneishii Vostok v svete novykh raskopok, Moscow, 1966, p. 61

³ - G. Childe, Drevneishii Vostok v svete novykh raskopok, Moscow, 1966, p. 61

⁴ - J. Perrot, "Le gisement natoufien de Mallaha (Eynan)," L'anthropologie, 1966, No. 5 -6

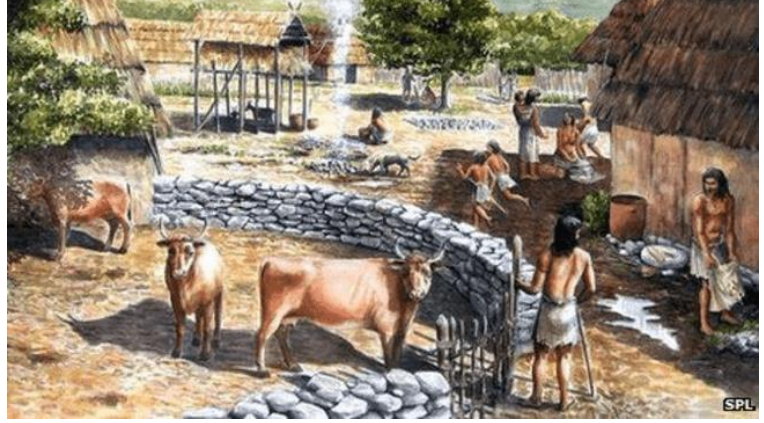
تُعتبر رحلات ريتشارد ماكنيش Richard MacNeish إلى شمال شرق المكسيك¹ ومن ثم إلى وادي تيهواكان Tehuacán Valley في الجنوب، ذات أهمية كبيرة لدراسة عملية ثورة العصر الحجري الحديث. أسفرت الحفريات الأركيولوجية ذات النطاق الواسع ودراسة المخلفات النباتية وتحديد النظام الغذائي الذي كان سائداً هناك عبر تحليل النية الأريزية، عن بيانات ذات أهمية من الدرجة الأولى لدراسة مصدر الزراعة في أمريكا الوسطى. حدثت هذه العملية في ظل ظروف ساد فيها اقتصاد اللقطة بشكل كبير. أدت التغيرات المناخية التي نتجت عنها موت الحيوانات الكبيرة إلى أزمة في الصيد مما قاد إلى الاتجاه الاقتصادي الذي سبق وذكرناه قبل قليل². وهكذا، كان نصف النظام الغذائي في الفترة من الألفية العاشرة إلى الألفية الثامنة قبل الميلاد يتشكل من عناصر نباتية في تيهواكان. كانت الطباء والخيول متضمنة في الحيوانات الكبيرة التي كان يتم اصطيادها، لكن الحيوانات الصغيرة هي التي كانت الأساس في نظم الصيد: الأرانب والسناجب Gophers والجرذان والسلاحف والطيور. يقترح ماكنيش تسمية هذه القبائل بـ"مُلتقطي النباتات والحيوانات". أدى الاستخدام المكثف للموارد النباتية في ظل هذه الظروف إلى الوصول بشكل طبيعي إلى المراحل المبكرة للزراعة. تم استخدام القرع الصالح للأكل بين أعوام 7200 و5200 قبل الميلاد. ارتبط ظهور الأجران والمدقات بالاستخدام المكثف للأطعمة النباتية. ازداد عدد النباتات التي تتم زراعتها بين أعوام 5200 و3400 قبل الميلاد. بالإضافة إلى القرع، كان هناك الفلفل والفاصوليا والشمندر والأفوكادو وعلى ما يبدو الذرة. وهنا ظهرت أيضاً الأواني الحجرية، بعد ذلك تراكمت هذه العناصر التقدمية. أصبحت الذرة بين 3400 و2300 قبل الميلاد العنصر الرئيسي في الزراعة. بدأت عملية الانتقاء وظهرت أشكال الذرة الهجينة. وكان القطن قد بدأ يظهر آنذاك. ومع ذلك، كان اللقطة والصيد لا يزالان يوفران 70% من النظام الغذائي آنذاك. وفقاً لماكنيش، كانت الزراعة هي المهيمنة بحلول 1900-2300 قبل الميلاد، ثم ظهر الفخار ثم التماثيل الطينية.



الزراعة في العصر الحجري الحديث في المكسيك

¹ - R. de Vaux, Palestine During the Neolithic and Chalcolithic Periods, Cambridge, 1966, p. 9

² - H. Helback, "Prepottery Neolithic Farming at Beida," Palestine Exploration Quarterly, 1966, January-June



قبائل بويبلو في المكسيك

حتى الأواني نفسها في البداية كانت من صنع نباتي، حيث تم تحضيرها من نوع خاص من القرع Gourd عند أولئك البشر الذين كانوا ذوي تخصص عالٍ في الجمع في شمال شرق المكسيك. هنا ظهرت الزراعة تدريجياً في الألف السادس إلى الثاني قبل الميلاد، ولكن يبدو أنه تمت استعارة الذرة من مناطق أخرى في الجنوب¹. قد يُفترض أن ثورة العصر الحجري الحديث في جنوب غرب الولايات المتحدة اتبعت نفس مسار أمريكا الوسطى، حيث وصل الأوروبيون إلى قبائل بويبلو Pueblo التي أصبحت مثلاً كلاسيكياً للمزارعين المُستقرين في الإثوغرافيا. ومع ذلك، من الصعب حتى الآن الحكم على أي درجة يُمكن أيضاً العثور على مسار التطور المُتميز هذا في بيانات العالم القديم.

الوضع يختلف فيما يتعلق النموذج البيروفي لثورة العصر الحجري الحديث. على الرغم من أنه تم التعبير عن رأي مفاده أن ثورة العصر الحجري الحديث تعود بالكامل إلى الألفية الأولى قبل الميلاد²، فمن وجهة نظرنا فقد كان ذلك مُجرّد تنويع لعملية كانت قد بدأت في وقتٍ سابق لهذا بكثير. كما هو الحال في المناطق الأخرى، تجلّت العناصر الجديدة هنا في البداية في ظل ظروف هيمنة اقتصاد اللقاط.

كانت شواطئ البحيرات ومصبات الأنهار الصغيرة على الساحل البيروفي مأهولةً بقبائل تعمل في جمع المحار الصالح للأكل وصيد الأسماك والثدييات البحرية مثل أسود البحر والفقمة والدلافين، خلال الألفية الرابعة، والنصف الأول من الألفية الثالثة قبل الميلاد. إن مستوطنة شيلكا Chilca هي نموذجية فعلاً³. يشهد الحفر في الموقع والذي وصل إلى طبقات ذات عمق 300 متر، على تطور شكل معين من الحياة المُستقرة، وقد حدد الباحثون ذلك، كما يُفترض من خلال وجود مصادر مستقرة للغذاء ناتجة عن استغلال المحيطات والموارد الساحلية. كانت المساكن عبارة عن أكواخ من القصب مُغطاة بأعشاب الجانكو Junco، لكن أولى المباني الحجرية والطينية كانت قد ظهرت أيضاً آنذاك.

¹ - R. S. MacNeish, "Preliminary Archeological Investigations in the Sierra de Tamaulipas, Mexico," American Philosophical Society Transactions, Vol. XLVIII, Pt. 6, Philadelphia, 1958

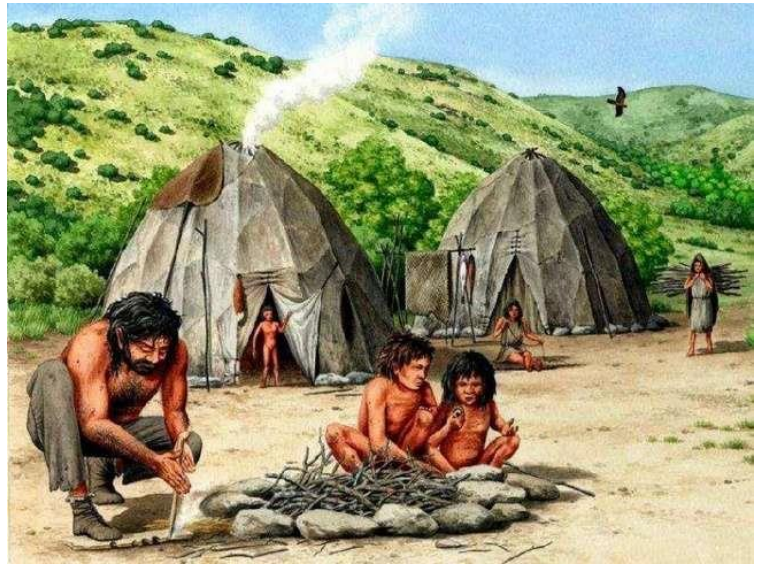
² - R. S. MacNeish, First Annual Report of the Tehuacan Archaeological-Botanical Project, Andover, 1961; same author, The Second Annual Report of the Tehuacan Archaeological- Botanical Project, Andover, 1962; same author, "Ancient Mesoamerican Civilization

³ - V. I. Guliaev, "Novye dannye o proiskhozhdenii zemlede1'- cheskikh kul'tur Mezoameriki," p. 149



أكواخ القصب المُغطاة بأعشاب الجانكو في مستوطنة شيلكا

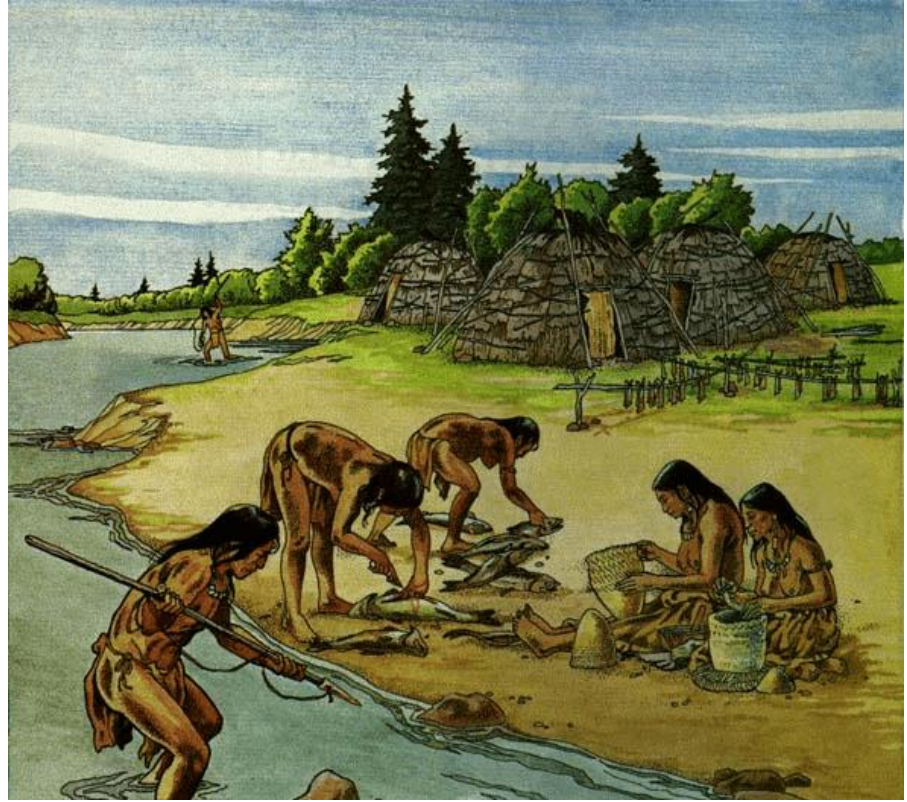
بشكلٍ عام، تُذكرنا تلك اللقى الأركيولوجية ذات الطابع الاقتصادي والثقافي في كثيرٍ من النواحي بشعب تيبيرا ديل فويغو Tierra del Fuego خلال القرن التاسع عشر، ولكن على عكس الأخير، فقد أولت الأولى اهتماماً كبيراً لاستغلال الموارد النباتية. تطوّر اللقاط على نطاقٍ واسع، وذهب جزء من النباتات الى الاحتياجات "الصناعية".



وهكذا، تم استخدام قرع الكالاباش calabash gourd في صنع الأواني وعوامات الشبّاك Net floats، بينما استُخدمت ألياف الصبّار والجانكو لنسج الشبّاك. وبالتالي، عمِلَ البحرُ جُزئياً على حفز التطور المُكثّف للقاط في ظل ظروف الانتقال الى زراعة النباتات. كان نمط الحياة المُستقر بالإضافة الى الأشكال المُحددة من

اقتصاد اللقّاط من بين الأمور التي سهّلت ولادة الزراعة. وبطبيعة الحال، تم استخدام جزء من النباتات، مثل الفاصولياء والبطاطا الحلوة بشكلٍ أساسي في النظام الغذائي، ويبدو أنه تم استخدام مجارش الحبوب الحجرية التي تم العثور عليها لمعالجتها. تم السير في الخطوات الأولى على طول المسار الجديد في "مجال اللقّاط" الاقتصادي هذا على وجه التحديد: على حد تعبير الأركيولوجي فريدريك انجل Frédéric André Engel، يُظهر القرع وأحد فصائل الفاصولياء علامات وجود الزراعة.

شهدت هذه الثقافة المتميزة نهوضاً كبيراً من النصف الثاني من الألفية الثالثة إلى منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد، حيث كانت اللقى التي تعود إلى مستوطنة هوكا بريتا Huaca Prieta شائعة جداً. على الرغم من "القطاع الاقتصادي البحري" استمر على ما يبدو في لعب دور قيادي كما كان من قبل، إلا أن أهمية الزراعة كانت تزداد بشكلٍ ملحوظ. ظهر القطن بالدرجة الأولى من بين المحاصيل "الصناعية". كما تمت زراعة ثلاثة أنواع من القرع وأربعة أنواع من الفاصولياء، والأتشيرا Achira والفلفل الأحمر. كانت النباتات البرية جزءاً من النظام الغذائي. وبالأدلة، كانت اقتصادات صيد السمك-اللقاطي-الزراعي مجتمعين بمثابة قاعدة يُعتمد عليها لإعادة الانتاج الموسعة. كان هناك أكثر من 40 مستوطنة معروفة مما يدل على نمو السكان. تم تطوير صناعة الطوب، ومن الممكن انه تمت بناء أول المباني الدينية. احتوت القبور على أقمشة تُصوّر الأفاعي وطائر الكوندور Condor وسلطعون البحر والبشر. تم العثور على أول المنتجات الطينية: مخاريط وتمائيل طينية غير مُجففة (لم تُشغل في الفرن).

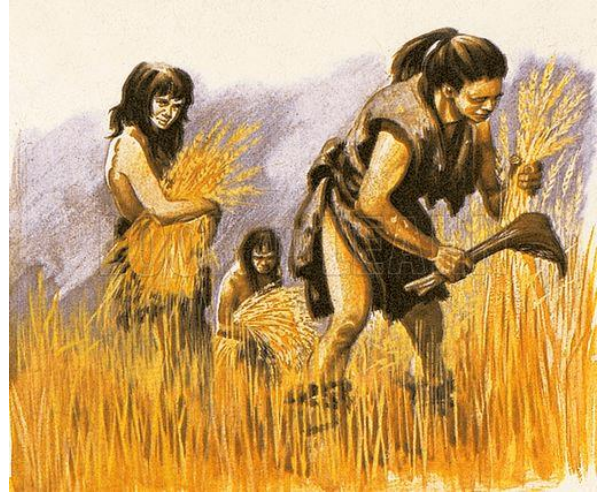


الصيد البحري في مستوطنة هوكا بريتا

ومع ذلك، من أجل الانتصار النهائي للأشكال الاقتصادية الجديدة، كانت هناك حاجة إلى نبات يُمكن أن يكون محصوله وقيمتة الغذائية منافساً للبحر. أثبتت الذرة أنها تمتلك هذه الخائص، وانتشرت في بيرو في إحدى الأوقات ما بين 1400 و1200 قبل الميلاد. سهّلت خبرة العمل الزراعي المتراكمة التمكن السريع من زراعة هذا النبات. سرعان ما ظهر الفخار. انتشرت منحوتات terracotta الصغيرة، وزاد حجم المستوطنات وصارت تتمركز حول المعابد الصغيرة. الآن توارى المحيط، الذي لعب دوراً مهماً في الزراعة، إلى الخلفية، وترسخ الاقتصاد الزراعي المستقر في كل مكان. انتصر ثورة العصر الحجري الحديث أخيراً بشكلٍ لا رجعة فيه.

يُمكن ملاحظة النموذج البيروفي لثورة العصر الحجري الحديث بمكوناته المترابطة التي تتشكل من صيد الأسماك (صيد الثدييات البحرية) والعيش المستقر والزراعة وأي عناصر لمثل هذا النموذج على أي حال، في عدد من مناطق العالم القديم الأخرى. تحدثنا عن هذا سابقاً لأنه يتعلق بالثقافة النطوفية. ربما كان وجود حياة مستقرة مرتبطة بصيد الأسماك هو الذي سهّل، في حالاتٍ كثيرة، المسيرة الناجحة لثورة العصر الحجري الحديث عبر القارة الأوروبية. يُتيح الدور الكبير لصيد الأسماك في كلٍّ من اقتصاد وبيولوجية (الطواطم السمكية) لثقافة يانغشاو Yangshao الزراعية بالحديث عن نماذج بيروفية موجودة أيضاً في الصين.

ان تم توجيه الانتباه إلى المراكز الثلاثة الأقدم للاقتصاد المُنتج على أراضي الاتحاد السوفييتي، فيمكن ملاحظة أن عملية ثورة العصر الحجري الحديث هنا اتبعت بشكلٍ أساسي نفس مسار نموذج آسيا الصغرى في كلا نوعيه.



الزراعة في آسيا الوسطى في العصر الحجري الحديث

استناداً إلى البيانات المتوفرة، كان كلا هذين النوعين موجودين في إقليم آسيا الوسطى، والذي يقع في منطقتين واسعتين: الشمالية والجنوبية¹. إن ثقافة جايتون Jayton الزراعية المُستقرة هي سمة النوع الرئيسي الكلاسيكي لثورة العصر الحجري. كما كشفت أعمال الحفريات في جايتون أن العمارة المبنية من الطوب قد

¹ - G. F. Korobkova, Orudiiia truda i khoziaistvo neoliticheskikh plemen Srednei Azii, Leningrad, 1969, p. 181

انتشرت على نطاقٍ واسعٍ في جنوب غرب آسيا الوسطى في وقتٍ مُبكرةٍ من الألفية السادسة قبل الميلاد. تمت زراعة الشعير ونوعين من القمح، وتُشكّل المناجل الى ما يصل الى 30-40% من أدوات العمل التي عُثِرَ عليها. كانت الأواني الفخارية المطلية وتمائيل تيرا كوتا Terra Cotta بأعداد وفيرة. كانت هذه هي الحدود الشمالية الشرقية القصوى لمنطقة الشرق الأدنى للزراعة المُبكرة. في الوقت نفسه، ظهرت علامات تدل على أن تربية الماشية ظهرت في وقتٍ مُبكر خارج مناطق هؤلاء الزراعيين المُستقرين والصيادين المُتخلفين ثقافياً. يعود تاريخ بقايا الماشية الصغيرة المُستأنسة في الكهوف على طول بحر قزوين (غاري كامارباندا Gari-Kamarband، دام تشاشمي Dam-Dam-Chashme) الى الألفية السابعة قبل الميلاد. تعود آثار مُماثلة لكهف غاري مار Gari-mar في شمال أفغانستان الى الألفية السادسة قبل الميلاد. هناك بيانات مُماثلة من أماكن أخرى. ومع ذلك، فإن النوع السائد الذي كان سمته الرئيسية تربية الماشية لثورة العصر الحجري الحديث، على الأقل في المناطق الجبلية، لم يُسفر عن نتائج مُهمة مثل الزراعة المُستقرة. كان يُمكن لهذا النوع أن يؤدي الى تغييرات أساسية وانتصار نهائي لنوع الاقتصاد الجديد فقط في مساحات السهوب الواسعة.

في المركز الثاني الأكبر للاقتصاد المُنتج في مناطق الاتحاد السوفييتي، في القوقاز، أصبحت أقدم المعالم الأثرية لقبائل تربية المواشي المُستقرة معروفة فقط في العقد الماضي¹. ومع ذلك، فهي وحسب كل الأدلة، بعيدة كل البعد عن تمثيل المراحل الأولى لأشكال النشاط الاقتصادي الجديد.

هنا يُمكن التمييز بين مجموعتين من اللقى، وربما ثقافتين، أولاها لشومو تيب Shomu-tepe وثانيهما كيومو تيب Kiul-tepe.

هذه كلها مُجتمعات مستقرة ذات أبنية متطورة من الطوب، تعود الى منتصف الألفية الخامسة الى الرابعة قبل الميلاد. تسود الحيوانات الأليفة بشكلٍ أساسي بين بقايا العظام. تظهر على نطاقٍ واسعٍ بذور عدد كبير من النباتات المزروعة (نوعين من الشعير، ثلاثة أنواع من القمح والحنطة). في الوقت نفسه تشهد عدد من الحقائق على أنها تأثرت بثقافات حلف عبيد Halaf Ubeid المتطورة التي تعود الى الشرق القديم. على ما يبدو اتبعت ثورة العصر الحجري في حالة جنوب القوقاز مسار النمط الزراعي في المقام الأول، ولكن مع بعض التأخر مُقارنَةً بمراكز آسيا الصغرى. تشهد سلسلة كاملة من العناصر القديمة لا سيما في أدوات شومو تيب على الأساس المحلي لهذه العملية، ولكن كان التواصل مع آسيا الصغرى بمثابة حافز لتطورهم. كان الشكل الرَّعوي لثورة العصر الحجري الحديث (على الأقل في بدايته) في مركز اقتصاد اللقاط الثالث على الساحل الشمالي للبحر الأسود ذو أهمية كبيرة. كان هذا بسبب الظروف الطبيعية المحلية: نقص تنوع أنواع الحبوب البرية التي تُميّز الشرق الأدنى ووجود أشكال من الحيوانات الأليفة مثل الخنازير (البرية) والماعز (الجبلية). على سبيل المثال، في شبه جزيرة القرم، في ظل ظروف الصيد المُتخصص للخنازير البرية، تعود عملية التدجين الى العصر الحجري الوسيط². كان أول حيوان تم تدجينه، في مناطق السهوب

¹ - A. A. Iessen, "Kavkaz i Drevnii Vostok," Kratkie soobshcheniia o dokladakh i polevykh issledovaniiax Instituta arkheologii AN SSSR (hereafter KSIA), No. 93, 1963; P. G. Narimanov, "Drevneishaia zemledel'cheskaia kul'tura Zakavkaz'ia," VII mexhdunarodnyi kongress doistorikov i protoistorikov, Moscow, 1966; T. N. Chubinishvili and K. Kh. Kushnareva, "Novye materialy PO eneolitu luzhnogo Kavkaza," Matsne, 1967, No. 6

² - D. A. Krainov, "K voprosu o proiskhozhdenii domashnikh zhivotnykh v Iugo-Zapadnom Krymu v poslepaleoliticheskoe vremia," Sovetskaia arkheologiya (hereafter SA), 1959, No. 2; A. D. Stoliar, "Ob odnom tsentre odomaxvaniia svin'i," SA, 1959, No. 3

المفتوحة، هو الثور.



اقتصاد الصيد واللقاط واللقاط أثناء ثورة العصر الحجري الحديث

يقدم البحث في مجموعة من المستوطنات على طول المسار الأوسط لنهر الدنيستر Dniester صورةً مُثيرةً للاهتمام لنهوض الاقتصاد المُنتج¹. هنا، كانت قبائل الثقافة القديمة موجودةً في الألفية السادسة قبل الميلاد. كانوا يعملون في صيد الأسماك على نطاقٍ واسعٍ وجمع المحار الصالح للأكل. وعلى الرغم من ذلك، مُقارنةً بالنسبة المئوية لمجموع نظامهم الغذائي، فقد كان الصيد يوفر معظم الغذاء اللاحم، وكانت قد ظهرت الخزائر المُستأنسة حينها، والثور المُستأنس بعد ذلك بوقت قصير. ازداد دور الزراعة في الألفية الخامسة قبل الميلاد. ظهرت الأواني الفخارية. في ذات الوقت، كان عدد الأدوات الزراعية والمناجل، قبل كل شيء، صغيراً جداً (أقل من 1% من إجمالي عدد الأدوات). صحيح أنه تم العثور على كميات من حبوب الشعير والقمح، على الرغم من أن زراعة القمح لم تكن موجودةً بعد هي ليست أمراً مفروغاً منه. يُمكن ملاحظة الروابط بين القبائل الزراعية ومُربي الماشية في البلقان مع ثقافة كوكوتيني تريبيليا Cucuteni–Trypillia المعروفة والتي وصلت الى شكلها النهائي في الألفية الرابعة قبل الميلاد. ان المُكتشفات في شمال مولدافيا هي في الأساس مجموعة محلية من ثقافة باغ دنيستير Bug- Dniester التي تمتد الى أوكرانيا غرب نهر الدنيستر.

¹ - V.TMarkevich, "Issledovaniia neolita na Srednem Dnestre," KSIA, No. 105, 1965; same author, Neolit Moldavii, author's abstract of dissertation for degree of candidate, Moscow, 1968

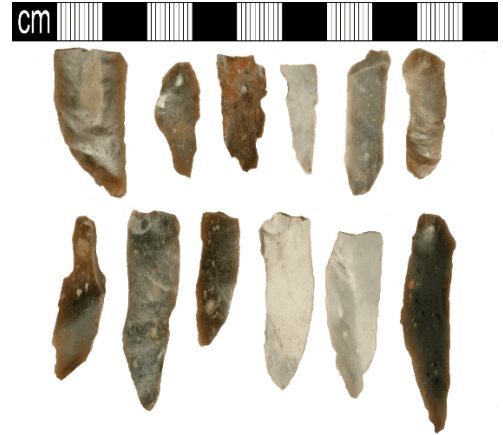


كوكوتيني تريبيليا

وهكذا، نلاحظ هنا مزيجاً من النمط الرعوي لثورة العصر الحجري الحديث مع عناصر من النموذج البيروفي. يبدو أن نشوء اقتصاد مُنتج من النمط الرعوي بالتحديد بدأ هنا في وقتٍ مُبكرٍ جداً، في زمن لا يتجاوز الألفية السابعة أو السادسة قبل الميلاد. كانت الحيوانات الرئيسية المُستأنسة، في هذا التطور، مثل الخنازير والثور، هي من الحيوانات السائدة في الاقليم لفترةٍ طويلة في مجموعات قبائل كوكوتيني-تريبيليا. في الوقت نفسه، أدى التطور المُكثف للصيد في عدد من المناطق الى نشوء مُجمّع للحياة المستقرة والذي شجّع، في مراحلهِ الأولى، على نشوء أشكال جديدة من الحياة الاقتصادية. في ظل هذه الظروف، أدت الاتصالات المُكثفة مع القبائل الزراعية ومُربية الماشية المُستقرة الى تبنّي عوامل جديدة مثل حرث التربة وتربية المواشي الصغيرة ذات القرون. كانت ثقافة كوكوتيني-تريبيليا ذروة عمليات الاستيعاب المُتبادل لهذين المبدئين، على الرغم من أن انتصار ثورة العصر الحجري الحديث يبدو أنها حدثت في عصور ما قبل التريبيليانية.

في الوقت نفسه، لا يعني ان كل هذا التنوع في المسارات الملموسة لتطور ثورة العصر الحجري الحديث والتي فُمنّا بتجميعها في ثلاثة مسارات، لا يعني على الاطلاق أنه لا يُمكن العثور على الانتظامات العامة التي تنطبق عليها جميعها. يتضح هذا حتى في دراسة مسألة مقدمات ثورة العصر الحجري الحديث. كان الانتقال الى الاقتصاد المُنتج يعود الى أسباب الظروف الطبيعية المواتية والعوامل الناشئة داخل المُجتمع الانساني نفسه. هناك وحدة دياليكتيكية لا تنفصم بين هاتين المجموعتين من المُقدمات.

دعونا أولاً نتوقف للنظر في عوامل المجموعة الاجتماعية. هنا من الضروري تضمين المستوى التكنيكي المُرتفع الى حدٍ ما، والبدايات الأولى للمعرفة الايجابية ونمط اقتصاد لفاطي متطور بتنوعاته المُختلفة والكثافة السكانية الكبيرة التي تجعل التوسع المُكثف للانتاج ضمن حدود المصادر الطبيعية التي يتم استغلالها بالطرق المعروضة آنفاً.



رؤوس الرماح من العصر الحجري الحديث

لسوء الحظ، لم يتم بعد، دراسة أدوات عمل كُلي من البيرو وأمريكا الوسطى للفترات ذات الصلة بشكلٍ كافٍ. الوضع أفضل إلى حدٍ ما في الشرق الأدنى، حيث كان صنع شحف الصوان مُنتشرة في ذلك الوقت. تُظهر مواد الشرق الأدنى بوضوح أن تقنيات وأدوات العمل المُميزة لثورة العصر الحجري الحديث ظهرت أساساً في الفترة التي سبقتها. إن صناعة الشحف الصوانية والتركيز على رؤوس الرماح Microlithic وتكنيكات الشحذ، هي خصائص لُقى ثقافات كريم-شاهر والنطوفية تأخذ أصولها من تقاليد العصر الحجري القديم العلوي. إن سكين الحصاد الذي يعود إلى هذه الثقافات، هو في شكله، الأداة التقليدية المشحوذة المُستخدمة في وظيفة جديدة. تستمد المجرفة وعصا الحفر والتي هي الأدوات الأساسية للزراعة القديمة، أصولها من أدوات حفر الأرض المُستخدمة في بناء المساكن في العصر الحجري القديم العلوي.



عصا الحفر في العصر الحجري الحديث

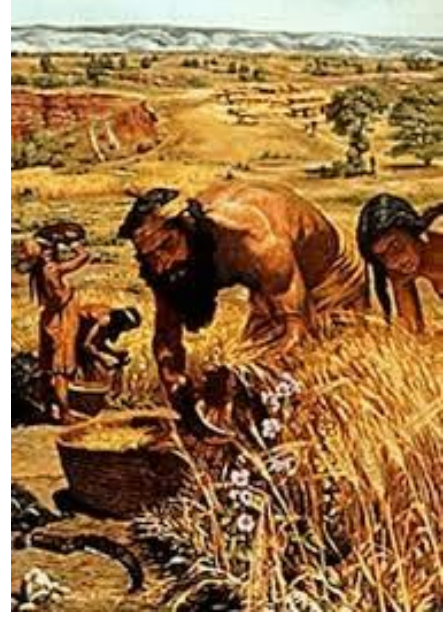
وصلت تطور تقنيات ومجموعات أدوات العمل المُميزة للمجتمعات الزراعية المُبكرة خلال المراحل الأولى من ثورة العصر الحجري الحديث إلى كمالها النسبي. يتعلق هذا أيضاً بتقنية شحذ الأحجار التي اكتشفت في

أثار زاغروس من الألفية العاشرة الى الألفية الثامنة قبل الميلاد. ما حدث لاحقاً كان مجرد تطور تغيرات كمية في حدود المصنوعات التي نشأت. كان أحد أهم الابتكارات هو ابتكار المنجل المنحني على الرغم من احتفاظ العديد من المزارعين الأوائل بسكين الحصاد المستقيم التقليدي (مثل مواقع جيتون Jeitun في تركمانستان، سيالك Sialk في ايران، الفيوم Faiyum في مصر).

كانت بدايات المعرفة الايجابية في العصور الحجرية التي أولى لها الأركيولوجي جوردون تشايلد اهتماماً خاصاً، ذات أهمية كبيرة أيضاً¹. في هذا الصدد، تطلبت الزراعة، حتى في المراحل الأولى من تطورها، أساساً "علمياً" أكثر من الرعي. ان المعرفة المُمْتَازة التي يمتلكها الاستراليون الأصليون بالحياة النباتية، الذين كانوا على عتبة ثورة العصر الحجري الحديث، معروفة جيداً². كانت الدورات الموسمية لمخيمات القبائل المكسيكية المؤقتة العائدة الى الألفية الثامنة الى الخامسة قبل الميلاد والتي حددها ماكنيش، تقول كانت قد تأسست على هذه المعرفة بالذات. ومع ذلك، لم تكن الملاحظات البيئية وحدها التي تدخل كعنصر في عملية الحصول على الغذاء، تُلبي الحاجة الى المقدمات "الفكرية" للزراعة. تفترض عملية الغرس والزراعة بأكملها في حد ذاتها توقعاً لنتائج هذا الفعل، مستوى كبيراً من تطور الفكر المجرد. لم يكن لهذا أن يحدث الا كنتيجة لتطور معقد للعقل البشري، الذي، كما تُظهر الأعمال الفنية، حقق قفزة نوعية خلال العصر الحجري القديم العلوي. تحدد الانتقال الى الزراعة والرعي من خلال الحاجة الاقتصادية الماسة. من الواضح أن التناقض بين أعداد السكان المُتزايدة (وان كانت تتزايد ببطء) والقدرات الانتاجية للأشكال القديمة للاقتصاد قد لعب الدور الرئيسي في تحسين واتقان الطرق التقليدية للحصول على الغذاء. أصبح البحث عن أشكال جديدة لتحصيل مصادر الغذاء ضرورةً مُلحّة في الحالات التي كان فيها مستوى السكان مصحوباً بمشاكل أو حتى منَع تدفق السكان عن طريق الهجرة. يبدو أن مثل هذا الوضع قد طرأ بالقرب من نهاية العصر الحجري القديم العلوي في عدد من مناطق الشرق الأدنى. كان من المُمكن أن تحدث أزمات مُحددة بوضوح للأشكال الاقتصادية التقليدية، كما يتضح من حالة تراجع الصيد بين القبائل المكسيكية في الألفية العاشرة الى الثامنة قبل الميلاد.

¹ - G. Childe, "Arkheologicheskie dokumenty PO predystorii nauki," Vestnik mirovoi kul'tury, 1957, No. 2, p. 59

² - A. N. Maksimov, "Nakanune zemledeliia," Uchenyepapiski Instituta istorii AN SSSR, Vol. 3, Moscow, 1929; Narody Avstralii i Okeanii, Moscow, 1956, pp. 108-113



ولكن، لم تكن أزمة الصيد، ولا الزيادة السكانية النسبية، ولا أدوات العمل الأكثر كمالاً، بقادرة، في ظل ظروف تلك الفترة، على انشاء اقتصاد مُنتج ذو تعقيد أكبر. كان العامل الطبيعي هو أهم مُقدمة وشرط لثورة العصر الحجري الحديث علاوةً على ذلك، وعلى المستوى الذي نحن بصدد، يجب النظر الى الظروف الطبيعية من جانبيين مُختلفين: الشروط التي تُحدد بشكلٍ مُباشر الحاجة الى الانتقال الى اقتصاد من نمط جديد، والظروف المواتية لمزيد من تطور الزراعة وتربية الماشية. يتوافق هذين الجانبين مع مرحلتين مُختلفتين في ثورة العصر الحجري الحديث: نشأتها، وانتصارها النهائي.

في المرحلة الأولى، لعبت الأشكال البرية الأصلية لتدجين الحيوانات والنباتات ومنطقة استيطانها وتطورها دوراً رئيسياً. تم العثور في الشرق الأدنى، على الآثار التي تجعل من المُمكن تتبع المراحل الأولى من ثورة العصر الحجري الحديث. وهذا ينطبق على كل حزام غابات البلوط والفسق في زاغروس على ارتفاع يتراوح بين 600 و1350 متراً. يُظهر التحليل الباليوبوتاني Paleobotanical المُختص بدراسة أحافير وبقايا النباتات أن الظروف المناخية في الألف العاشر الى السابع قبل الميلاد كانت هناك تقريباً كما هي اليوم. تتراوح مُعدّل هطول الأمطار من 250 الى 1000 ملم، وهو ما كان مُناسباً تماماً للزراعة، ولا سيما في أحواض الجبال التي كانت المياة تغمرها جيداً. تميزت المواقع الأردنية-الفلستينية بمناخ أكثر جفافاً وأشكال قاحلة من الأرض. هنا تظهر الحبوب البرية والنباتات التي نشأت منها الحيوانات المُستأنسة كالماعز ذو الشعر والخنزير البري، تظهر بشكلٍ مُتساوٍ. من المهم أن نلاحظ أن مركزي ثورة العصر الحجري الحديث هذين، مثل مركز آسيا الصغرى، يتوافقان اقليمياً مع موقع منشأ (آسيا الصغرى) النباتات المزروعة وفقاً لنموذج نيكولاي فافيلوف Nikolai Vavilov¹. تتوافق المراكز المُشابهة في العالم الجديد مع مراكز أمريكا

¹ - N. I. Vavilov, "Botaniko-geograficheskie osnovy seleksii," Izbrannye proizvedeniia, Vol. I, Leningrad, 1967

الوسطى والجنوبية في هذا النموذج. في هذا الصدد، فإن توافق نتائج التحليلين الأركيولوجي والجيوبوتاني^{1*} geobotanical هو أمر مُثير للاهتمام.

ولكن لم يظهر نمط جديد من الاقتصاد الا عندما اجتمعت العوامل الاجتماعية والطبيعية. على الأرجح، كان سبب التطور المتأخر نسبياً لثقافات الزراعة المبكرة هو أن العوامل من النوع الاجتماعي لم تتطور بشكلٍ كافٍ في بعض المناطق التي بدت، على أساس البيانات الجيوبوتانية، أنها الموقع المُفترض لأصل النباتات المزروعة. هذا هو الوضع فيما يتعلق بآثيوبيا وأفغانستان وهندوستان والصين والهند الصينية. بالإضافة الى ذلك، تميزت أدوات العمل، في أفغانستان على سبيل المثال، بنفس نمط صناعة الشَّخَف الصوانية وتكنيكات الحواف الحادة كما كان الأمر في العصر الحجري الوسيط في زاغروس. يجب الافتراض أن امكانية اقتصاد اللقاط والصيد على نطاق واسع في ظل ظروف الكثافة السكانية المُخفضة نسبياً لم تكن قد استُنفدت بعد. يبدو أن الوضع في الصين كان مُشابهاً في كثيرٍ من النواحي.

صار الوضع مُختلفاً في المرحلة التالية عندما بلغت عملية ثورة العصر الحجري الحديث ذروتها. صارت منطقة انتشار الثقافات الزراعية المُبكرة تشتمل على مناطق أرضية زراعية جديدة، وهنا بالتحديد ازدهرت الى أقصى حد مُتجاوزةً "الوطن" السابق. كان هناك عاملان سهلاً ذلك. أولاً، كان وجود غابات كثيفة من النباتات البرية، التي عملت كقاعدة ثابتة للحصول على المواد الغذائية، يعمل بمثابة كبح لانتصار الزراعة النهائي. يبدو أن هذا هو العامل الذي يجب على المرء من خلاله أن يُفسر التأخر الملحوظ لقبائل جبال زاغروس خلال الألفية السادسة قبل الميلاد بالنسبة الى ثقافة حسونة وفترة ثورة العصر الحجري الحديث الطويلة في شمال شرق المكسيك. في المقام الثاني، حصلت القبائل المُنتشرة على أرضٍ جديدة تُشكل مناطق ليست نموذجية لتلك التي نشأت فيها الحبوب بشكلٍ طبيعي. كان هذا بمثابة حافز لعملية التطوير المُكثَّف للسلاسل التي قَدِّمت للانسان امكانيات واسعة للانتقاء. أدت الظروف الطبيعية الجديدة الى ظهور أشكال جديدة وأكثر انتاجيةً للزراعة، وخاصةً الزراعة المروية.

توفر البيانات الأركيولوجية أيضاً صورةً واضحةً للسمات الجديدة نوعياً التي تُميِّز المُجتمع الذي أنجز ثورة العصر الحجري الحديث. كانت نتائجها تنعكس قبل كل شيء في القاعدة الاقتصادية. لقد لاحظَ انجلز بالفعل الطابع النوعي الجديد للاقتصاد الموجه نحو انتاج الغذاء².

كان التأثير الاقتصادي للعمل الزراعي كبيراً بشكلٍ خاص. تقدم حسابات علم اقتصاد العصر الحجري شهادةً واضحةً على تقلص وقت العمل الضروري في هذا المجال الجديد من النشاط الاقتصادي. في ظل زراعة القطع والحرق Slash and burn- (وهي الطريقة التي يتم فيها قطع النباتات الموجودة وحرقها قبل زرع بذور جديدة. وعادةً ما تُستخدم كطريقة لتطهير أراضي الغابات من أجل الزراعة). أمضى هنود المايا عملاً يُعادل عمل 46 شخصاً في اليوم لاطعام عائلة واحدة وفقاً لنتائج أبحاث علماء الانثروبولوجيا. في شمال

¹ * - التحليل الجيوبوتاني هو تحليل يعتمد بشكلٍ أساسي على تفسير الغطاء النباتي في منطقة مُحددة لاكتشاف التغيرات المورفولوجية أو الارتباطات النباتية النموذجية لأنواع معينة من النباتات الجيوبولوجية. هذا التحليل يكشف عن الرابط بين البيئة الجغرافية للنباتات وبنيتها التشريحية وطريقة تكيفها.

² - مختارات ماركس وانجلز في 4 أجزاء، المُجلد الثالث، دار التقدم 1975، ص201

العراق المعاصر تطلبت زراعة 15 فداناً (63 دونماً)، بأشكال الزراعة المروية القديمة، كمية عمل يُنجزها 250 شخصاً في اليوم. دعونا نُجري عمليةً حسابيةً مُماثلةً لمستوطنة جيتون، التي تم التنقيب عنها بالكامل مما يجعل من المُمكن تقدير عدد سكانها الذي كان يتراوح بين 150-180 نسمة (حوالي 30 عائلة). بحساب نصف كيلوغرام من الحبوب للفرد الواحد في اليوم، كان الاحتياج السنوي لسكان موقع جيتون حوالي 44 طناً. ان مساحة زراعية من 50 فداناً (حوالي 200 دونم) مطلوبة لحصاد 44 طن. بموجب هذه المعايير المذكورة أعلاه للعراق الحديث فان هذه المساحة تتطلب انفاق كمية عمل 800-850 رجل. مع الأخذ في الاعتبار الحالة البدائية لأدوات العصر الحجري الحديث فان هذا الرقم يجب مضاعفته 3 مرات مبدئياً، مما يجعله يتطلب كم عمل 2500 شخص في اليوم الواحد، في هذه الحالة مع وجود شخصين بالغين في العمل سيتطلب ذلك حوالي شهرين من العمل من كل عائلة. قد تكون هذه الحسابات مُرتبطة باتجاهٍ آخر. تُظهر البيانات التجريبية أن الشخص عديم الخبرة يُمكنه أن يجمع 1.5 كغ من الحبوب في الساعة بمنجلٍ حجري. وان كان يوم العمل يوازي 10 ساعات، يُمكن حصاد 10 أطنان في كم عمل يوازي 670 شخصاً في اليوم. بعبارةٍ أخرى، كان يُمكن لشعب جيتون في العصر الحجري الحديث أن يحصدوا كميتهم المطلوبة في 11 أو 12 يوم ان كان يوجد عاملين اثنين من كل عائلة. على الرغم من كل هذه الحسابات السريعة، والحاجة الى مزيد من البيانات (الوقت اللازم لصنع أدوات العمل، مُعالجة الحبوب المحصودة، إعداد الطعام للأكل وما الى ذلك) فان الفعالية الاقتصادية الهائلة لحرثة التربة بالنسبة الى اقتصاد اللقاط غير مشكوك فيها. هذه قوة بسيطة نسبياً يتم تحصيل نتائج كبير من خلالها، وقد قلب هذا المُجتمع رأساً على عقب.

تجلى ظهور مصادر الغذاء المستقرة والمتوسعة في المقام الأول في نمو السكان، وبالتالي زاد من قوى الانتاج، التي دخل الانسان نفسه فيها كعنصر مُهم ولا ينفصل عنها. كان هذا في الأساس أول انفجار ديموغرافي، وليس من قبيل المصادفة أن نرى مستوطنات المزارعين الأوائل تملأ خريطة الشرق الأدنى الأركيولوجية. وفقاً للبيانات الاثنوغرافية، تميّزت حقبة هيمنة الصيادين وجامعي الثمار بكثافة سكانية تراوحت من 1 (الاستراليين والبوشمن Bushmen) الى 5-7 (هنود أمريكا ما قبل كولومبوس) لكل 100 كيلومتر مربع. على أساس هذه الأرقام والبيانات من مستوطنة ستار كار Star Carr البريطانية التي تم التنقيب والكشف عنها بالكامل، فقد حدد الأركيولوجيين الأمريكيين روبرت بريودود Robert John Braidwood وريد C. A. Reed عدد سكان انجلترا وويلز في العصر الحجري الوسيط بـ7500000 شخص¹. حدد نفس المؤلفين الكثافة السكانية للسكان الزراعيين المبكرين بـ1000 شخص لكل 100 كلم مربع آخذين البيانات المُعاصرة حول نهر جمجمال في شمال العراق كنقطة انطلاق، حيث تقع مستوطنة جارمو الزراعية المُبكرة. استناداً الى حسابات مُماثلة يقدم عالم الديموغرافيا² ادوارد ديفي Edward Smith Deevey الحسابات التالية لسكان الأرض: مليون شخص عام 300000 قبل الميلاد، 3340000 عام 25000 قبل الميلاد. العصر الحجري القديم العلوي 5320000 حوالي 10000 قبل الميلاد، و86500000 شخص حوالي 6000 قبل الميلاد في العصر الحجري الوسيط فترة الزراعة المبكرة. بغض النظر عن مدى ابتدائية هذه الملاحظات المؤقتة، فانه لا مجال في الشك بالفقرة السكانية بعد ثورة العصر الحجري الحديث.

¹ - E. S. Deevey, "The Human Population," Scientific American, 1960, No. 3, p. 196; for demographic methods in archeology, see: C. Gabel, Analysis of Prehistoric Economic Patterns, 1967, pp. 32-35

² - G. N. Lisitsina, Oroshaemoe zemledelie epokhi eneolita na iuae Turkmenii, Moscow, 1965, p. 11

تؤيد البيانات الأركيولوجية تماماً الزيادة في الكثافة السكانية في الفترة الزراعية المبكرة. وهكذا، احتلت واحة جيوكسيور Geoksiur من فترة ما بعد العصر الحجري الحديث Neolithic (العصر البرونزي) في جنوب تركمانيا مساحةً تبلغ حوالي 4000 كيلومتراً مربعاً.

وقد أُجريت أعمال التنقيب في جميع مستوطنات هذه الواحة. لقد جَعَلت من المُمكن تحديد الكثافة السكانية لهذه المنطقة وحساب أن عدد السكان عند أعلى نقاط ازدهار الواحة كان 4000-5000 شخص (40). ينشُج عن هذا متوسط كثافة يتراوح بين 1000-1200 نسمة لكل 100 كم مربع. يُمكن رؤية ديناميات النمو السكاني خلال العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي الى حدٍ ما من خلال النظر في المعالم الأثرية لجنوب تركمانستان. على سبيل المثال، تبلغ مساحة جميع المستوطنات المعروفة لثقافة جايتون حوالي 10 فدان (42 دونماً)، وهو ما يتوافق مع عدد سكان يبلغ 1500 نسمة للمواقع التي تم التنقيب عنها بالكامل. اذا افترض المرء انه تم العثور على ما لا يقل عن 50% من جميع المعالم الأثرية في تلك المنطقة، فاننا نحصل على عدد سكان العصر الحجري الحديث في الألفية السادسة قبل الميلاد، اي حوالي 3000 شخص، أي ما يقرب من 14 نسمة لكل 100 كم مربع. لكن ثقافة جيتون هي من فترة الزراعة القديمة، وهي مُجتمع كانت ثورة العصر الحجري فيه قد اكتملت للتو. نجد في نفس المنطقة في الألفية الرابعة قبل الميلاد آثاراً تبلغ مساحتها الاجمالية 150 فداناً (630 دونم)، والتي حسب كثافة تلك المنطقة في تلك الفترة تحوز على عدد سكان يتراوح بين 12000-14000 نسمة، أو حوالي 660 شخصاً لكل 100 كم مربع. كما لعب دور مهم حقيقة أن الاقتصاد الجديد قلَّص بشكلٍ حاد المساحة الضرورية لضمان غذاء مجموعات مُحددة من البشر. كما أثر على متوسط العمر ارتفاع مستوى المعيشة واشكال الاقتصاد التي تنطوي على مستويات "حوادث صناعية" أقل، لا سيما بالمقارنة مع الصيد. في حين كان متوسط عمر انسان النياندرتال 29.4 عاماً، كان متوسطه يبلغ 38 عاماً في آسيا الوسطى فترة العصر الحجري الحديث. هذا صحيح لأن قليلاً منهم كان قد وصل حد 50 عاماً.

أتاح تقلُّص وقت العمل الضروري لانتاج المنتجات الغذائية توجيه جهودٍ اضافية الى فروع اقتصادية أُخرى، بما في ذلك المتطلبات المتزايدة لمجتمع كان يدخل بشكلٍ مُتزايدٍ مرحلةً من الرفاهية النسبية. كان الازدهار العالمي لمُختلف أشكال الانتاج الجِرفي البدائية أحد أكثر العواقب الملحوظة لثورة العصر الحجري في علم الأركيولوجيا. اصبحت مُعالجة وطهي الطعام أمراً يتطلب الكثير من الوقت والجهد، وتم تطوير مجموعة متنوعة من الأدوات لخدمة هذا الهدف. ظهرت ملاعق العظام الأنيقة نسبياً في التجمعات الزراعية المبكرة. أصبحت الأواني ذات الاشكال والاستخدامات المُتخصصة متنوعة تماماً. في البداية كانت تُصنَع من الخشب (مستوطنة تشاتال هايبوك Catalhöyük في تركيا) والحجر (جرمو)، ولكن سرعان ما حل الفخار محلها. أولى جوردون تشايلد أهميةً خاصةً للفخار، حيث اعتبر أنه أهم المواد القديمة استخداماً لتحويلات المادة الكيميائية.

غدا البناء أهم فرع من فروع الانتاج. حفز نمط الحياة المستقر تقدم العمارة، وصار من المُمكن تقديم قوى

¹ - V. M. Masson, Sredniaia Aziia i Drevnii Vostok, p. 319

واهتمام متزايدين لتطوير مهارات البناء بفضل قدرة المجتمع العالية نسبياً على الإنتاج. في هذا المجال، جاء أولاً وقبل كل شيء بناء مساكن حجرية وكتل من الطين والطوب. تطورت مهارات وتعليمات البناء والهندسة المعمارية. طرَح تطوّر المجتمع أيضاً مهمة بناء مبانٍ دينية خاصة، وهي المزارات Shrines. كانت هذه مبانٍ صغيرة نسبياً في تشاتال هايوك، حيث أمكّن تحديد الغرض منها من خلال النظر الى ديكوراتها. في وقتٍ لاحق ازداد حجم المعابد لتكشل السمة الغالبة للمستوطنات الزراعية المبكرة. أدت الكثافة السكانية المتزايدة وتراكم الثروة الاجتماعية في ظل الظروف التي تُميّز المجتمع البدائي مثل الحروب المحلية بين القبائل الى ظهور التحصينات التي زادت من تخصص البناء.



كان الفخار من أهم المواد القديمة استخداماً لتحويلات المادة الكيميائية

أصبح العزل، الذي أدى تقدمه في ظل ظروف ثورة العصر الحجري الحديث الى زراعة محاصيل "صناعية" مُتخصصة (القطن في العالم الجديد والكتان في الشرق الأدنى)، أصبح فرعاً مهماً من "الصناعات" المنزلية. وجدّ ارتفاع مستوى المعيشة انعكاساً حيويّاً في إنتاج الخزاف المختلفة وأدوات المنزل.



صنع أدوات العمل بشكلٍ جماعي

وهكذا، كانت ثورة العصر الحجري الحديث حافزاً لظهور وتطور عدد من أشكال الإنتاج التي أصبحت جِرفاً مُتخصصة. ومع ذلك، فإن نشوء الحرفة كان فقط النتاج النهائي للعمليات التي كانت قد بدأت في وقتٍ أسبق. كان بناء مساكن أقدم المشاعات الزراعية، والمتنوعة تماماً في تكتيكها، مُحفظةً، من حيث جانبيها الاجتماعي، بسمات الحقبة السابقة. كان بناء المنازل في جيتون لامركزياً. من الناحية العملية، كانت كل عائلة تُشارك في صنع الأدوات الصوانية لاستخدام كل فرد، وتنظيف الجلود الكبيرة للملابس Hides وأعمال الجلود والخشب. كان هناك وضع مُشابه خلال العصر الحجري القديم الأعلى، عندما كان صنع الأدوات داخل المُجتمع مُنتشر بين جميع العائلات¹. لنذكر أنه تم صنع جميع أدوات العمل وأسلحة الصيد وُعصي الحفر من قِبَل الأفراد الذين استخدموها في استراليا².

وكان تنوع وتعقيد الإنتاج المنزلي المُتزايد على وجه التحديد، والذي كان نتيجةً مُباشرةً لثورة العصر الحجري الحديث، هو الذي قوَّضَ هذا التقليد المُستمر. على هذا الأساس التكنولوجي لم تعد كل عائلة تُنتج أدوات الإنتاج، بل ظهرَ حرفيون متخصصون يعملون بمهارات ضيقة ويخدمون احتياجات جميع أعضاء المشاعة بحكم عضويتهم فيها. فقط في المرحلة الثالثة من التطور، يحدث الانفصال الحقيقي للحرف عن الزراعة، وظهرت ورش عمل لم يعمل فيها الا الحرفيين المتخصصين، بينما ارتبط توزيع انتاجهم ارتباطاً وثيقاً بالتبادل الداخلي والخارجي. لكن هذه كانت بالفعل فترة جديدة، مُنفصلة عن ثورة العصر الحجري الحديث بفترة زمنية طويلة.

¹ - S. M. Bibikov, "Opytpaleoekonomicheskogo modelirovaniia v arkheologii," Tezisy dokladov vsesoiuznoi sessii, posviashchennoi itonam arkheoloaicheskikh i etnonraficheskikh issledovaniia 1966 g., Kishinev, 1967, pp. 12-15

² - V. M. Bakhta., Obshchestvennoe proizvodstvo u aborigenov Avstralii i papuasov Vostochnoi Novoi Gvinei, author's abstract of dissertation for degree of candidate, Moscow, 1963, p5



تطور الحرفة في العصر الحجري الحديث

يؤدي تجاهل هذا المسار الطويل لتطور الحرف البدائية، على وجه الخصوص، الى القول بأن بعض المستوطنات الزراعية المبكرة هي المُنذ الأولى. ان اسلوب الحديث حول مُنذ العصر الحجري الحديث، والذي بدأ بالمناقشات حول أريحا¹ لم يتوقف بأي حالٍ من الأحوال². من الناحية العددية، حتى لو استخدمنا معيار جوردون تشايلد لتسمية مُجتمع يضم أكثر من 5000 شخص بأنه مدينة³، فان مستوطنة تشاتال هايوك فقط هي التي وصلت الى هذا العدد من السكان. ومع ذلك، لا توجد بيانات تُشير الى انفصال الحرف عن الزراعة في هذه المُجتمع.

¹ - See V. M. Masson, "Dokeramicheskii neolit Ierokhona," p. 5. SA, 1958, No. 3

² - E. Anati, "Prehistoric Trade and the Puzzle of Jericho," Bulletin of the American School of Oriental Research, 1963; No. 167; J. Mellaart, Catal Huyik

³ - With respect to the term "town" as applied to the most archaic periods, see V. M. Masson, "Stanovlenie ranneklassovogo obshchestva na Drevnem Vostoke," Voprosy istorii, 1967, No. 5, p. 91



هناك مُبالغة واضحة في دور وطابع التبادل خلال فترة وجود أريحا وتشتاتال هايوك، وفي هذا الصدد، يستشهد ايمانويل اناتي Emmanuel Anati بوجود حجارة الاوبسيديان في أريحا من الأناضول، وحجارة التركواز turquoise من سيناء، وصدف من البحر الأبيض المتوسط، وهو يعتقد بأن مُجتمعات أريحا كانت تُتاجر بالملح والقار والكبريت¹.



ولكن أريحا لم تبعد أكثر من 96 كم عن البحر، بينما تم العثور على صدف على مسافات أبعد من هذه المسافة، حتى في العصر الحجري القديم. بالكاد كاد الكبريت والقار أن يلعبا دوراً ذو أهمية خاصة في حياة قبائل العصر الحجري الحديث. من المشكوك فيه تماماً، في ضوء البيانات الأثنوغرافية المُعاصرة، أن سكان أريحا كانوا قادرين على التأسيس والحفاظ على حيازة حوض كبير من البحر الميت المصدر الطبيعي للملح.

¹ - E. Anati, op. cit., pp. 29-30

ليس بالضرورة أن تكون التجارة هي التي جلبت المواد التي لم تمت بصلة للمنطقة المعنية، حيث كانت بعض القبائل تجلب بعض المواد من أماكن بعيدة عن سكنائها، فنحن نعلم على سبيل المثال، انه تم استغلال رواسب المغرة Ocher بشكلٍ مُشترك من قِبَل القبائل البدائية خارج الحدود الإقليمية للمجموعات التي أُرسِلت للحصول عليها¹. من أجل أن يكون لدى المرء منظور تاريخي مُلائم، من المهم للغاية أخذ التطور الواسع للتبادل بين الصيادين وجامعي الثمار في استراليا². هذا لم ينتهك على الاطلاق الطابع المعيشي لاقتصاد سكان استراليا الأصليين ولم يكن كذلك يؤثر على شكل انتاجهم.



رحلة البحث عن مواد الاستخدام في العصر الحجري الحديث

يُمكن وصف مستوى تطور التبادل في الشرق الأدنى خلال ثورة العصر الحجري الحديث بسهولة على أساس انتشار حجر الأوبسديان³. هنا شهدت الألفية السابعة والسادسة قبل الميلاد انشاء الطرق الرئيسية لتبادل الأوبسديان، ولكن كان هذا تبادلاً عادياً للمواد الخام، ولم تكن هناك علامات على تبادل المُنتجات الحرفية المصنوعة من أجل البيع. نحن نفترض أن الانخفاض التدريجي في النسبة المئوية لمُنتجات حجر الأوبسديان مع ابتعاد المسافة عن المصدر الأصلي، قد يشهد على التبادل مُتعدد المُستويات. في أريحا على سبيل المثال، التي يزعم اناتي بأنها كانت مركزاً رئيسياً للتجارة، كان الأوبسديان كان يُشكل 1-3% من

¹ - N. A. Wiltinov, "Razdelenie truda v pervobytnom obshchestve," Trudy Instituta etnografii AN SSSR, Vol. IV, Moscow and Leningrad, 1960, pp. 115-116

² - N. A. Butinov, op. cit., pp. 114-119; also see Narody Avstralii i Okeanii, pp. 196-204

³ - C. Ranfrew, J. E. Dixon, and J. R. Cann, "Obsidian and Early Cultural Contact in the Near East," Proceedings of the Prehistoric Society, 1966, Vol. XXIII, pp. 30-72

المنتجات الحجرية. خلص بعض العلماء بحق الى أن سكان شاتال هايوك لم يحتاجوا الى وسطاء على الاطلاق لأنهم كانوا يعيدون على المناجم 193 كيلومتراً فقط¹.

في ضوء هذه البيانات، يبدو أن استخدام مُصطلح "مدينة العصر الحجري الحديث" هو سحب سابق لأوانه للتحديث، على التاريخ². ومع ذلك، فإن ظهور مراكز سكانية كبيرة، بغض النظر عن المُصطلح الذي يُشير إليها، كان أحد النتائج المُباشرة لثورة العصر الحجري الحديث وهو أفضل نوع من الأدلة على الوضع الجيد نوعياً لهذه المُجتمعات. لا يُمكن لاقتصاد اللقاط أن يُنتج أو أن يؤدي الى أي شيء مثل شاتال هايوك، وعاصمة الزراعة القديمة هذه في آسيا الوسطى هي رمز حقيقي للعصر الجديد.

هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن هناك تغيرات مهمة قد طرأت على الحياة الايديولوجية للمُجتمع مع ثورة العصر الحجري الحديث. تتطلب طبيعة الأشكال الاقتصادية الجديدة بدوراتها الموسمية فهماً أعمق لجانب السبب-النتيجة أكثر مما يتطلبه اقتصاد الصيد. هذا مُستمد من الضرورة الاقتصادية المُباشرة والتي انعكست في المفاهيم البدائية التي بدأت تتشكل حول الكونيات. ان الأركيولوجيا هي الدليل المباشر على سمتين جديدتين على الأقل، للنظرات الدينية. لدينا هنا في شاتال هايوك ، أولاً، وقبل كل شيء، مظهر بشري-حيواني مُتحوّل anthropomorphic للأرواح والآلهة مُمثلةً بوضوح في آثار المزارات. كما نعلم، فإن هذا التحويل البشري-الحيواني ليس سمةً من سمات المراحل المُبكرة من تطور الدين³. والميزة الثانية هي ظهور نظام عبادة مع ضريح خاص، وهنا نفترض ان هذا كهنوت ناشئ للتو. كان تشكيل مجموعة كهنوتية جزءاً ضرورياً من النظام الاقتصادي الجديد.



من فنون العصر الحجري الحديث

تجلت القدرة العالية على التفكير والقدرة على التجريد التي يمتلكها المزارعون الأوائل بقوة خاصة في فنهم. حتى في لوحات شاتال هايوك الجدارية للصيد فلم يوجد آثار للفن الواقعي على الجدران الذي يُميّز العصر الحجري القديم. هنا يتم تمثيل صور الحيوانات في أبليكات Appliquh (حيث يتم درز قطع من القماش على

¹ - Ibid., p. 52

² - This was also observed by G. de Contenson in his review of Mellaart's book. See Antiquity, 1968, No. 165, p. 73

³ - S. A. Tokarev, Religii v istorii narodov mira, Moscow, 1964.p 09

قطع أبر لتشكل صورة مُعينة)، وهي تخطيطية في كثيرٍ من النواحي. هنا، تُعد الرسومات الحيوانية عناصر في تراكيب ايقاعية أكثر من كونها قريبةً من الواقع. ان ايقاع التراكيب والزخرفية هي التي شكلت السمة الجديدة والمُهيمنة في الفن الآن. ميزة جديدة ومهمة في الفن هي الاهتمام المُتزايد بصور البشر، على الرغم من أن هذه الصور كانت مُجرّد تمويه لتجسيد قوى مُجرّدة¹. تظهر آلهة المعابد بشكل انساني-حيواني مُتحوّل، وعلى عكس معظم تماثيل العصر الحجري القديم، تتميز المنحوتات الصغيرة الآن بمعالجة مفصّلة للوجه، وغالباً ما تكون العيون كبيرة ويتم ابرازها بوضع قشور كتليسية. ان الانسان بعد أن أنتج سنبلة كاملة من حبة كان قد زرعا فقد حقق انتصاراً ذا أهمية أساسية على قوى الطبيعة، فقد بلّغ درجةً مُعينةً من الثقة بالنفس وعلى الرغم من أن الأعمال الفنية لم تكن تُبرز بعد نفسيات الأفراد كُلٌّ على حدا، بل تُبرز سمات مجموعات مُختلفة ذات طابع عرقي، فان جوهر التغيرات التي حدثت مُثيرة للاهتمام بدرجة كبيرة.

لا يزال حتى من الأصعب التوصل الى أحكام بشأن الجوانب الاجتماعية لثورة العصر الحجري الحديث². يبدو أن عواقب هذه الثورة كانت مُهمّةً في أربعة جوانب بشكلٍ خاص. في المقام الأول، أدى وجود فائض الانتاج الثابت والدائم الموزع في اطار النظام الاجتماعي التقليدي، والتقسيم المُتزايد للعمل الى خلق الظروف الحقيقية لظهور التمايز من جانب المُلكية. في المقام الثاني، أصبحت الزيادة الحادة في انتاجية عمل الفرد المُنفرد، وحتى زيادة انتاجية الأسرة المُنفردة في انتاج المُنتج الفائض، المُنتقل الاقتصادي لظهور الاستغلال. ثالثاً، أدى ارتفاع مستوى المعيشة العام وزيادة النتائج الملموسة للعمل الى توسع مُتزايد في مجال المُلكية الشخصية والاستخدام الفردي. رابعاً، أدت طبيعة الاقتصاد الجديد، لا سيما في الزراعة، الى تعقيد الوظائف التنظيمية لنظام العشيرة والى زيادة دور القادة كُمديرين لعمليات العمل، والكهنة كأوصياء طبقيين للخبرة التقليدية وأساسيات تكنيك الزراعة. وهكذا، حملت ثورة العصر الحجري الحديث بذور انحلال النظام الاجتماعي البدائي التي نمت فيه، على الرغم من عدم حدوث انتهاكات كُبرى للمساواة في ذلك المُجتمع فور انتصاره.

تُظهر البيانات المتوفرة أن ثورة العصر الحجري الحديث كانت المسار العام الذي سلكه التطور البشري نحو المُجتمع الطبقي المُبكر. في جوهر الأمر، كان صوت معاول المُزارعين الأوائل في جبال زاغروزس بمثابة اعلان ارساء الحضارة. ليس من قبيل المُصادفة أننا وجدنا المُجمعات الطبقيّة الأولى في العالمين القديم والجديد داخل مناطق أقدم مواقع ثورة العصر الحجري الحديث.

ترجمة لمقالة:

V. M. Masson (1972) The Problem of the Neolithic Revolution in the Light of New Archeological Data, Soviet Studies in History, 11:2, 123-154

¹ - A. A. Formozov, Pamiatniki pervobytnogo iskusstva, Moscow, 1966, p. 22

² - See, for example, an interesting attempt to compare the system of the Australian aborigenes and the early agriculturalists of New Guinea (see V. M. Bakhta, op. cit.)

سبارتاكوس في التاريخ السوفييتي

كلوديا بافلوفنا كورجيفا *

ترجمة رُبي مَسوِدَة

لم تكف ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس، والتي حدثت منذ 2000 عاماً، عن إثارة اهتمام ذوي التفكير التقدمي. لقد أولى العلماء السوفييت اهتماماً كبيراً لهذا الحدث البارز في تاريخ روما القديم. أثارت ثورة العبيد ونضالهم المتفاني بقيادة سبارتاكوس، وهو الحدّث المُنسَجَم تماماً مع الحقبة الثورية التي تميّز تدشينها بالنصر في ثورة أكتوبر الإشتراكية العظمى، أثارت إستجابةً حية في أدب السنوات الأولى بعد ثورة أكتوبر¹. غير أنه في ذلك الوقت، أي في الفترة الأولى ما بعد ثورة أكتوبر، كان الدور الرائد في دراسة تاريخ العصور القديمة لا يزال يعود إلى علماء مدرسة ما قبل الثورة القديمة، الذين اعتبرو مُعظّم تاريخ المجتمع الروماني رُاسمالياً، بينما رأى روبرت فيبر Robert Wipper أن ما يميز " الرُاسمالية الرومانية " هي عبودية الجماهير، وخاصةً في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد. في رأي فيبر، فإن ثورة سبارتاكوس، والتي عبرت عن ذروة الوعي السياسي والثوري للعبيد²، هي التي جعلت الدولة الرومانية في حالة خوف لمدة ثلاث سنوات. كتب فلاديمير سيرجيف Vladimir Sergeyevich Sergeyev عن أهمية العبودية وكفاح العبيد في العصور القديمة. مُعتبراً روما "مُجتمع مُضاربة ربوية للرُاسمال القديم بعناصر اقطاعية" وبالتالي أشار الى تعقّد تكوينها، ولكنه أشار لها في نفس الوقت على أنها قائمة على " مُلكية العبيد"، يقول: "اعتمد المجتمع القديم بأكمله على العبودية". ورأى سيرجيف في تمرد العبيد أحد الأسباب "التي وضعت الإقتصاد والدوائر الرومانية الحاكمة في حالة أزمة اقتصادية واهتياج واضطراب إجتماعي دائم"³. لقد أكّد على أن تحرّك العبيد قد بلغ أوجه خلال "ثورة العبيد بقيادة المُجالد التراقي سبارتاكوس"⁴. بمعاينة أسباب هزيمته كان سيرجيف هو أول من قدم حُججاً من مثل عدم وجود خطة موحدة، وضعف وعيهم بهدف العام، والافتقار للتنظيم الجيد، والخلافات بين القادة. كتب سيرجيف حول نتائج النضال الثوري في العصور القديمة ككل، يقول:

* الماركسية السوفييتية كلوديا بافلوفنا كورجيفا 1914-2004، المُختصة بالتاريخ. عملت في قسم التاريخ في جامعة كازخستان الحكومية وكانت مُختصة في مسائل العصور القديمة وتاريخ العبودية والصراع الطبقي في روما وتاريخ الاقطاع الأوروبي وتطوّر المُلكية الاقطاعية في فرنسا، ومسائل تفاعل الطبيعة والمجتمع تاريخياً، وتاريخ انتصار السلطة السوفييتية في كازاخستان، ومسائل منهجية في التاريخ والمادية التاريخية.

¹ - See, for example, E. G. Kagarov, Spartak. Ego zhizn' i bor'ba, Kharkov, 1924; A. Mikhailov, Spartak, Mogcow and Leningrad. 1927; M. P. Putilovskii. SDartak. 1929. and others

² -See R. lu. Vipper, Ocherki istorii Rimskoi imperii, 2nd ed., Berlin, 1923, p. 159

³ - V. S. Sergeev, Mirovye krizisy, issue II, Grwhdanskaia voina v drevnem Rime v II-I w. do r. kh., MOSCOW, 1924, p. 80

⁴ - Ibid., pp. 76, 81

"مهما كان ضُعب نضالات الناس في العصور القديمة من حيث نتائجها بالنسبة لمن نظموا وشاركوا فيها، الا أنه لا يجب التقليل من شأن أهميتها بالنسبة للعضوية الإجتماعية ككل¹. كتب سيرجي كوفاليف Sergei Ivanovich Kovalev وسيرجي جابيليف Sergey Alexandrovich Zhebelev² عن الدور الرئيسي للعبودية في العالم القديم وأهمية ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس في أولى دراساتهم الأساسية حول تاريخ روما القديمة.



سيرجي كوفاليف

كان نَشْر عمَل لينين بعنوان "عن الدولة" عام 1929 ذا أهمية بالغة في مُعالجة المؤرخين السوفييت لهذه المسألة بشكل أكبر. لقد صاغ لينين بوضوح الافتراضات القائلة بأن الطبقات المتناحرة الرئيسية في العصور القديمة كانت أسياذ العبيد والعبيد³ وعالج ثورة هؤلاء الأخيرين على أنها الأكثر وضوحاً وخطورةً في التعبير عن التناقضات الطبقيّة.

¹ - Ibid., p. 82

² - S. A. Zhebelev, Drevnii Rim, part 1, Tsarskaia i respublikanskaia epokhi, Petrograd, 1922; S. 1. Koval'ev, Kurs vseobshchei istorii, vol. I, Petrograd, 1923; vol. II, Leningrad, 1925; same author. Vseobshchaia istoriia v Dvudliarnom izlozhenii dlia samoobrazovaniia, part 1, Drevnii mir, Leningrad, 1925.

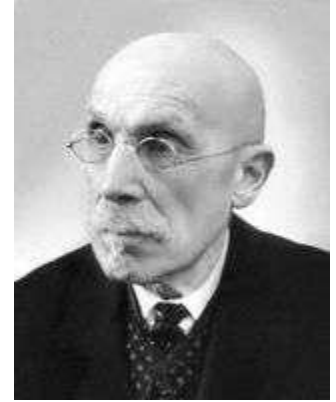
³ - مقال (الدولة)، فلاديمير لينين. منشور على الحوار المتمدن

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=38085>



روبرت فيبير

أظهر لينين، في الوقت نفسه، أن ثورات العبيد تميزت بسمات مثل العفوية وافتقارها للأهداف الصريحة من أجل نضالهم وعدم قدرتها على الدفاع عن مصالحها الطبقية بشكل مُتسق ومتفرد. وفي وصفه لها، قدّر لينين ثورة سبارتاكوس تقديراً عالياً، حيث أن العبيد المتمردين كانوا ثوريين ويتحلّون بسمات شخصية قائدهم. يقول " سبارتاكوس كان بطلاً من أبرز الأبطال في انتفاضة من أكبر الانتفاضات التي قام بها العبيد منذ نحو ألفي سنة. إن إمبراطورية روما التي قامت بصورة تامة على العبودية قد كانت، على ما كان يبدو لها من حولٍ وطولٍ، تعاني، في غضون عدد من السنين، الهزات وتتلقى الضربات من انتفاضة كبرى للعبيد الذين تسلحوا واحتشدوا تحت قيادة سبارتاكوس وشكلوا جيشاً كبيراً"¹. وصف لينين ثورة سبارتاكوس بأنها حرب عادلة لمصالح الطبقة المُستعبدة².



سيرجي جابيليف

افتتح الفكر الماركسي حول النظام الاجتماعي-الاقتصادي العبودي والصراع الطبقي، في هذه الفترة (اي في فترة بداية ثورة اكتوبر الاشتراكية)، آفاقاً واسعة لمعالجة المسائل الاجتماعية الاقتصادية حول العصور

1 - نفس المصدر

2 - نفس المصدر

القديمة. بدأ في الثلاثينيات، نقاش علمي حول المسائل المتعلقة بطابع التناقض الأساسي في الفترة العبودية ونمط الإنتاج والطبقات والصراع الطبقي المتعلق بفترة نهوض وسقوط الدول في العصور القديمة. وفي هذه الفترة، تم نشر المصادر¹ وأصدَرَ المؤرخين السوفييت عدداً من الدراسات الخاصة عن تاريخ الصراع الطبقي في روما القديمة². ناقشت هذه الأعمال ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس باعتبارها تمظهراً رئيسياً وحيماً بشكلٍ خاص للتناقضات الطبقيّة في روما القديمة.

كَتَبَ الكسندر اليتش تيومينيف Alexander Ilyich Tyumnev وهو واحد من أوائل من درسوا تاريخ اليونان القديمة وروما القديمة كتاريخ لمجتمع طبقي مبني على حيازة العبيد، أنه في حين أن ثورة العبيد في صقلية وإيطاليا لم تقدم أي آفاق لإعادة تنظيم النظام الاجتماعي، إلا أنها أظهرت قدراً عظيماً من الصلابة والتنظيم مما كان عليه الحال في تمرد العبيد في اليونان³. "كان مالكو العبيد الرومان مدركون تماماً لقوة ثورة سبارتاكوس وخطرها. ولفترة طويلة بعد ذلك اعتبروا قائد المُجالدين الثائرين على انه يقف نفس المستوى تقريباً مع أكبر عدو لروما وأعظم قائد عسكري في العصور القديمة هانيبال. أشار بيوتر بريوبراجينسكي Pyotr Fedorovich Preobrazhensky الى أن مشاعر العداة الطبقيّ هنا قدّمت معياراً صحيحاً لقياس أهمية ثورة سبارتاكوس⁴. تم وضع تاريخ ثورة سبارتاكوس على هذا المستوى العلمي الجديد في الكتب المدرسية العليا والثانوية المنشورة بعد إصدار المرسوم المشترك الشهير حول تدريس التاريخ السياسي⁵، الصادر عن مجلس مفوضي الشعب واللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في 16 أيار عام 1934.

¹ - The first reader, Antichnyi sposob proizvodstva v istochnikakh, was published in the Izvestia Gosudarstvennoi akademii istorii material'noi kul'tury (GAIMK), 1933, no. 780, and was edited by S. A. Zhebelev and S. I. Kovalev; a second edition was brought out under the same title, Moscow and Leningrad, 1938; E. G. Kagarov, "Novootkrytyi istochnik PO istorii vosstaniia Spartaka," Problemy istorii dokapitalisticheskikh obshchestv (cited hereafter as PIDO), 1935, no. 9-10

² - L. V. Bazhenov, Klassovaia bor'ba v antichnom mire, Leningrad, 1931; S. A. Zhebelev and S. I. Kovalev, "Velikie vosstaniia rabov II-I w. do n. e. v Rime," Izvestia GAIMK, 1934, no. 10 1; S. I. Kovalev, "Klassovaia bor'ba i padenie antichnogo obshchestva," Iz istorii dokapitalisticheskikh forma- -tsii, Moscow and Leningrad, 1933; O. O. Kriuger, "Rabskie vosstaniia II-I vv. do n. e. kak nachal'nyi etap revoliutsii rabov," Izvestia GAIMK, 1934, no. 90; V. S. Sergeev, "Revoliutsiia rabov v Rimskoi respublike," Bor'ba klassov, 1935, no. 6

³ - See A. I. Tiumentev, Istoriia antichnykh rabovlade1'- cheskikh obshchestv, Moscow and Leningrad, 1936, p. 192

⁴ - P. F. Preobrazhenskii, V mire antichnykh idei i obrazov, MOSCOW 1965, p. 58

⁵ - See S. I. Kovalev, Istoriia antichnogo obshchestva. Ellinizm. Rim, Leningrad, 1936; V. S. Sergeev, Ocherki PO istorii drevnego Rima, parts 1 4, MOSCOW 1,9 38; A. V. Mishulin, Istoriia drevnego mira, MOSCOW 1,9 50; N. A. Mashkin, Istoriia drevnego Rima, Moscow, 1938; V. N. D'iakov and N. M. Niko1'- skii, Istoriia drevnego mira, MOSCOW 1,9 52



بيوتر بريوير اجينسكي

ومع ذلك، فإن الكتابات عن نضال العبيد المنشورة في ثلاثينيات القرن الماضي كان لها جانبها السلبي ايضا. اكتسبت فكرة "ثورة العبيد"، التي من المفترض انها أطاحت بنمط انتاج تملك العبيد، انتشارا وتداولاً واسعاً. قادت هذه الفكرة الى تشوّهات وانحرافات معينة عن الحقيقة في تأويل المصادر والبحث الطبقي والاجتماعي في مسألة حركات العصور القديمة. كان دور الصراع الطبقي للعبيد في المصائر التاريخية لروما القديمة مُبالغاً فيه. اعتُبر أن طبقة العبيد، من البداية الى النهاية، هي الطبقة الثورية لمجتمع روما حيث قادت هذه الأخيرة طبقة الفلاحين. تمت دراسة انتفاضات العبيد جنباً الى جنب مع حركات المواطنين الأحرار الديمقراطية ووضعها على نفس المستوى. تم اعتبار أن العبيد هم الطبقة الواعية والأكثر تنظيماً التي تتمتع بالهيمنة في الصراع الطبقي، بينما كان يُنظر إلى حركات الفلاحين في إيطاليا على أنها "عَرَضية" وثنائية وخاضعة لثورة العبيد وتدونها مرتبةً. بما أن تمردات العبيد الكبرى في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد لم تحظى بأي دورٍ مهم في إنهاء أشكال استغلال العبيد، فقد تم انشاء نظرية عن "المرحلتين في ثورة العبيد"- التي انتهت في القرن الخامس مع سقوط الإمبراطورية الرومانية واستبدال العبودية بنظام الإقطاع- بشكلٍ مُصطنع. تم عزل تمردات العبيد في القرنين الأول والثاني على أساس أنها "المرحلة الأولى لثورة العبيد". وتم تعيين ثورة سبارتاكوس على أنها تنويج لهذه المرحلة ونُسب لها أهمية حاسمة في تقويض اسس نظام العبودية في روما وفي أزمة وسقوط الجمهورية وفي تأسيس الإمبراطورية.

كانت هذه المفاهيم، سائدةً في التاريخ السوفييتي في فترة الثلاثينيات. وحتى أول طالب رئيسي في مادة ثورة سبارتاكوس الكسندر فاسيليفتش ميشولين Alexander Vasilyevich Mishulin لم يستطع أن يُفَلت منها.



الكسندر ميشولين

في غياب أي سابقة وتجربة علمية في التعامل مع هذا الموضوع فإن ميشولين الذي كان "في مقدمة من عالج أكثر المسائل صعوبة ودقة وقلّة في المعطيات في تاريخ العصور القديمة"¹، كان قد نشر عدداً من المقالات الخاصة في الثلاثينيات عن تاريخ ثورة سبارتاكوس². تمكّن، نتيجةً لعملٍ تحليليٍّ مُضنٍّ لمجموعة محدودة ومعقدة من المصادر، تمكّن، لأول مرة في الدراسات التاريخية، (جُزئياً، أن يستخدم الترجمات الروسية الجديدة التي قام بها هو) ونظمتها جميع المعلومات من الكتاب القدماء حول الانتفاضة وقائدها وكذلك حول نضال العبيد بعد موت سبارتاكوس، وهو الموضوع الذي كان الأدب صامتاً تجاهه تقريباً. قام ميشولين بادراج ملاحظاته واستنتاجاته التي توصل إليها بنتيجة للكثير من سنوات العمل، في دراسة بحثية³.

كان الأساس المنهجي لعمل ميشولين هو الافتراض الماركسي اللينيني بأن نضال العبيد في العصور القديمة كان نتيجةً طبيعيةً لتطور نظام الرق الانتاجي وإن أسباب كل الثورات كانت قائمة على الأساس المادي لنظام العبودية. باعتماده على أفكار لينين حول الثورة المسلحة كشكل خاص من أشكال الفن، قدّم ميشولين التنظيم والبرنامج السياسي للانتفاضة والنسيج الاجتماعي والعربي للمشاركين فيها، واطهر أن الحركة كانت واسعة النطاق. ورفضه الصريح لوصف تيودور مومسن T. Mommsen للمشاركين في ثورة سبارتاكوس، "بأنهم عصابة متمردة من قطاع الطرق" وبأن قائدهم هو "زعيم عصابة" هذا الوصف المقبول عالمياً في الخارج، أظهر ميشولين أن تحليلاً أكثر دقة للمصادر حول ثورة سبارتاكوس يدحض هذا الرأي الراسخ⁴. كتب ميشولين: "لدينا مادة وفيرة لكي نؤكد أن تنظيم الحرب الأهلية ودورها في سير الانتفاضة... قد ارتقى بسبارتاكوس إلى مستوى القادة العسكريين العظماء في تاريخ البشرية"⁵.

¹ - K 10-letiiu so dnia smerti A. V. Mishulina, " V-DI, 1958, no. 4, p. 170

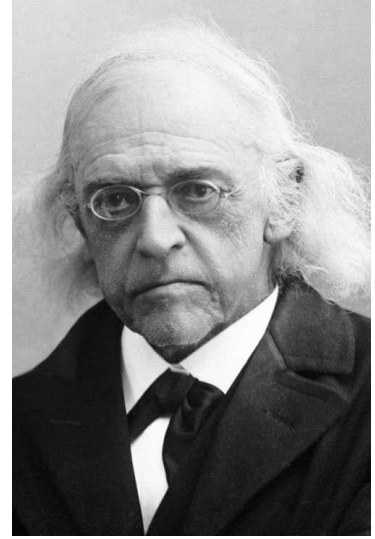
² - A. V. Mishulin, "Vosstanie Spartaka v drevnem Rime," Izvestiia GAIMK, 1934, no. 76; same author, "Poslednii pokhod Spartaka i ego gibel'," PIDO, 1935, no. 7-8; same author, Revoliutsiia rabov i padenie Rimskoi respubliki, Moscow, 1936; same author, 'X istorii vosstaniia Spartaka v drevnem Rime ," VDI, 1937, no. 1

³ - A. V. Mishulin, Spartakovskoe vosstanie. Revoliutsiia rabov v Rime I v. do n. e ., MOSCOW, 1936; same author, Spartak, Nauchno-populiarnyi ocherk, MOSCOW, 1947 (2nd ed., MOSCOW, 1950)

⁴ - A. V. Mishulin, Revoliutsiia rabov, p. 95

⁵ - Ibid., p. 83

كانت خدمة ميشولين الأعظم تتمثل في نقده للمنظرين الحداثيين أمثال ماكس فيبر، ومومسن وادوارد ماير Eduard Meyer ودوباش وميخائيل روستوفتسيف Mikhail Ivanovich Rostovtzeff والزايك وآخرون في نظرياتهم عن نضال العبيد في العصور القديمة كالنظريات التي "تستهدف الماركسية الثورية على قدم المساواة"¹.



تيودور مومسن

مع ذلك تحتوي دراسات ميشولين على عدد من التأكيدات القابلة للنقاش والتي تعرّضت للنقد في الأدب السوفييتي في الثلاثينات وما بعدها. وبالتالي، فهو قد بالغ في دور الفقراء الأحرار في صفوف جيش سبارتاكوس، وقد اعتبر تمرّد العبيد بأنه "ثورة العبيد والفلاحين الفقراء" والذين شارك فيها الفلاحين والجنود الايطاليين الذين تعرّضوا للخراب. اعتبر ميشولين العبيد المتمردون أنهم طبقة قيادية تميزت بالوعي والثورية والتنظيم وفرضت نفسها أثناء "ثورة العبيد والفلاحين الفقراء" بقيادة سبارتاكوس والتي تمثلت مهمتها في التحرر من العبودية والالغاء التام لتملك العبيد. مع ذلك، في رأيه، فقد زحف الفلاحين بقيادة كريكسوس، وغانيكوس، وانيميوس وقادة آخرين إلى روما من أجل الإستيلاء عليها وإعادة توزيع الأرض. هذا الظرف في رأيه، لم يخلق الشروط المناسبة التي يمكن الإعتماد عليها للتحالف بين ثورة العبيد و"ثورة الفلاحين الزراعية"². ولهذا السبب تحديداً قال ميشولين أن وحدة السبارتاكوسيين تحطمت بسبب افتقارها للجانس الاجتماعي. لم يندمج الهدفين الذين تجلّيا في تحرك سبارتاكوس، وهما تحرير العبيد من العبودية وتحرير الفلاحين من عبودية ملاك العبيد، مما حدد مسبقاً النتيجة الفاشلة للثورة³. عارض برينبراجينسكي وسيرجيفسكي⁴ وآخرين غيرهم على الفور، مصطلح "ثورة العبيد والفلاحين الفقراء" ولقد تم تأكيد صحة هذا النقد في وقت لاحق من خلال المصادر والدراسات الجديدة التي أجراها المؤرخون السوفييت.

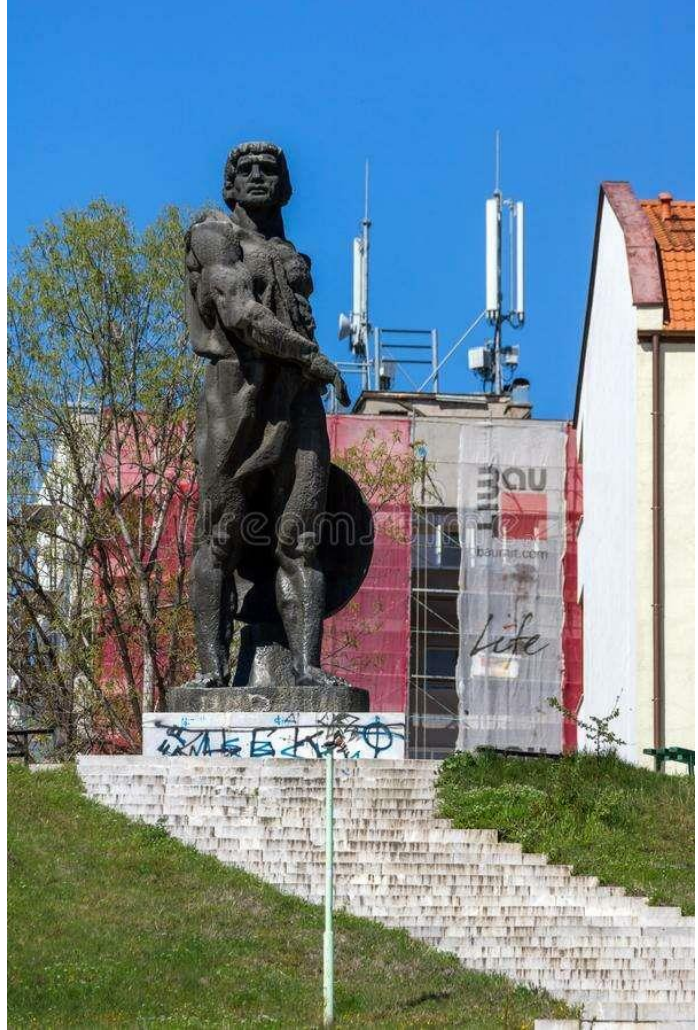
¹ - Ibid., pp. 5, 99

² - A. V. Mishulin, Spartakovskoe vosstanie, p. 141

³ - A. V. Mishulin, Revoliutsiia rabov, p. 96; same author, Spartakovskoe vosstanie, p. 139

⁴ - P. F. Preobrazhenskii, "Retsenziia na Imigu A. V. Mishulina 'Spartakovskoe vosstanie,'" Istorik-marksist, 1936, no. 6; A. G. Sergievskii, "Tsennyi, no syroi trud o revoliutsii rabov," Kniga i proletarskaia revoliutsiia, 1936, no. 10

وفقاً لفكرته عن "ثورة العبيد"، وصف ميشولين ثورة سبارتاكوس بأنها إحدى روابط "المرحلة الأولى" من الثورة، مُبالغاً في تقدير أهمية التمرد في تفويض أسس نظام ملكية العبيد الاقتصادي ودورها في اعداد "المرحلة الثانية من ثورة العبيد". كَتَبَ بأنه "ظهر النضال ضد العبودية كنظام على وجه التحديد منذ نهاية القرن الثاني، عندما أدى تصاعد الوعي الذاتي عند العبيد في ثورة سبارتاكوس إلى محاولات التحرر الشامل من العبودية وبالتالي الى تدمير نظام ملكية العبيد الاقتصادي"¹.



تمثال لقائد ثورة العبيد سبارتاكوس في بلغاريا الاشتراكية

ناقشت كتابات ميشولين كون عمل العبيد كان عملاً اقتصادياً غير مُربح وناقشت منح قطع صغيرة من الأرض للمستأجرين مجاناً، وان الكولونات ظهرت كنتيجة لثورة سبارتاكوس وأنه كان هناك ازدياد كبير في عتق العبيد مما أدى الى ولادة شكل جديد من عمل العبودية الانتاجي الجديد. أكد ميشولين على فكرة تكثف استخدام عمل العبيد الذين تربوا في المنازل بدلاً من شراءهم، واستخدام العبيد من قبائل مختلفة وليس من نفس القبيلة خوفاً من الانفجارات الثورية. إعْتَبِرَت السياسة الجديدة فيما يتعلق بالعبيد والمزارع التي أدارها

¹ - A. V. Mishulin, Spartakovskoe vosstanie, p. 53

العنق، بداية انهيار نمط الانتاج العبودي. ان المبالغة في أهمية دور ثورة سبارتاكوس في تغيير اقتصاد امتلاك العبيد لا نجدها فقط في كتابات ميشولين ولكن نجدها ايضا في اعمال مؤرخين آخرين في الثلاثينيات والسنوات اللاحقة¹.



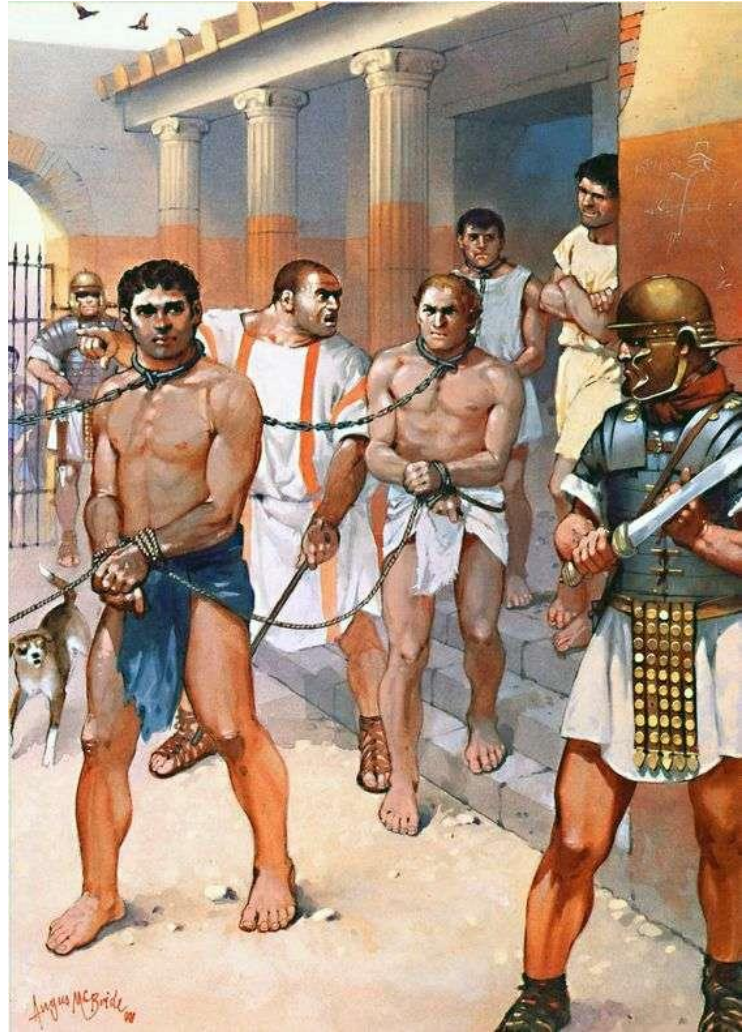
ملصق سوفياتي لثورة سبارتاكوس

ف نجد دراسات من قبل المؤرخين السوفييت في تلك الفترة تميزت بمقاربة تخطيطية مما يُعزى الى حقيقة أنه لم تكن العديد من المسائل ذات الأهمية في التاريخ القديم قد تمت معالجتها بعد. تم التركيز بشكل رئيسي على المسائل المنهجية، دون الاعتماد الضروري على مواد تاريخية عيانية ملموسة. كان النضال ضد المدارس والمفاهيم البرجوازية يُدار في كثير من الأحيان، دون أساس كافٍ في الدراسات التاريخية. تمت دراسة ما سُمي "ثورات العبيد العظيمة" في صقلية وثورة سبارتاكوس، بمعزل عن أشكال ثورات المظلومين والمستغلين والنضال السياسي في روما.

¹ - See, for example, S. I. Kovalev, "Ob osnovnykh problemakh rabovladel'cheskoi formatsii," Izvestiia GAIMK, 1933, no. 64, p. 31; same author, "Problema sotsial'noi revoliutsii v antichnom obshchestve," Izvestiia GAIMK, 1934, no. 76, pp. 37, 48-58; same author, Istoriia antichnogo obshchestva, p. 225; A. G. Prigozhin, "Zakliuchitel'noe slovo na sessii instituta istorii Komakademii. Mart, 1933," Izvestiia GAIMK, 1934, no. 63, p. 94; O. O. Kriuger, op. cit., pp. 128-30; V. S. Sergeev, Ocherki PO istorii drevnego Rima, p. 273; N. A. Mashkin, Istoriia Rima, MOSCOW, 1948, p. 266; P. F. Preobrazhenskii, V mire antichnykh idei i obrazov, pp. 58, 66

عكس عمل ميشولين حول ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس، وضع دراسة المؤرخين السوفييت لمسائل الصراع الطبقي للعبيد في روما القديمة.

بصرف النظر عن الطابع الخاطي والقابل للنقاش لبعض الاستنتاجات والآراء، على سبيل المثال فيما يتعلق بمسألة التحالف بين العبيد والفلاحين، أو أزمة نظام حيازة العبيد كنتيجة لثورة العبيد في القرن الأول قبل الميلاد، فقد بقيت دراسات ميشولين حتى يومنا هذا هي الأكثر اكتمالاً وجديّةً فيما يخص ثورة سبارتاكوس في كل من الأدب السوفييتي والأجنبي. لقد اظهرت دراساته أن مشاكل نظام العبودية الاجتماعي-الإقتصادي حتى ذلك الحين، بدأت تحتل مكانةً ثابتةً في التأريخ السوفييتي.



المُجالدين العبيد، في مدرسة باتياتوس

مارست كتابات تيومينيف وكوفاليف وجابيليف، وسيرجيف وكريوجر وميشولين التأثير الأكبر على المسار اللاحق للفكر البحثي وأدت في نهاية المطاف إلى تأسيس المنهج الماركسي-اللينيني في دراسة العالم القديم.

ومن الطابع الخطي الذي ميّز دراسات مؤرخي الثلاثينيات في حلولها لمسائل معينة ومن مجرد افتراض عبودية المجتمع القديم، فقد تطوّرت الدراسة السوفييتية حول العصور القديمة بتسلحها بالمنهجية الجديدة

موضحةً تعقد الظواهر الملموسة وتناقضها والطبيعة وتعدد أوجهها. حدث هذا التطور الإبداعي للمعرفة السوفيتية في سياق التغلب على الدوغمانية والمذهبية¹، وفي صراعها ضد المفاهيم المثالية للدراسات البرجوازية. إن الكشف عن سمات خاصة في إقتصاديات المجتمعات القديمة قد مكنا من فهم بُناها الطبقيّة المعقدة. دَرَس المؤرخون السوفييت، مستندين على فكرة ماركس حول الانقسام الطبقي للمجتمع الروماني القديم الى عدة مستويات²، درسوا مسألة جذور التناقضات الحادة في المجتمع الروماني القديم ليس فقط من حيث التناقض الطبقي الأساسي، ولكن أيضا من حيث محاولات المواطنين الأحرار للتخلص من الاستغلال.

جرت المحاولات في وقتٍ مبكرٍ من الثلاثينات للبحث في المسائل المتعلقة بخطين من التناقض في المجتمع الروماني (الصراع الطبقي والصراع المدني)، التناقضات بين حياة العبيد واسعة النطاق والمزارعين والفلاحين الصغار، والصراع السياسي بين المواطنين الأحرار³. لاحقاً، توصل اوليغ كودريافتسيف Oleg Vsevolodovich Kudryavtsev، وسيرجي اوتشينكو Sergei L. Utchenko باعتمادهم على دراسة البنية الاجتماعية للمجتمع الروماني القديم، الى استنتاج أكثر ملموسيةً أنه بالإضافة إلى الانقسام الطبقي الأساسي للمجتمع الروماني الى ملاكي العبيد والعبيد فقد كان هناك انقسام بين الأحرار إلى أصحاب الأراضي مالكي العبيد، وطبقة المُنتجين الصغار، أي الفلاحين.



سيرجي اوتشينكو

لم يكن المنتجون الأحرار الصغار من الطبقة الأساسية بل كانوا طبقةً انتقالية في مواجهة أصحاب الملكية الكبار، وفي حين وظّف الفلاحون عمل العبيد، من حينٍ الى آخر، إلا أنه لا يُمكن تصنيفهم ضمن مُلاك العبيد بما أن هؤلاء الأخيرين كانوا يستغلونهم.

أدى نمو وتطور حياة العبيد ومُلكية الأراضي الكبيرة في المجتمع الروماني الى خراب وافقار الملاكين الأحرار الصغار، والذين طالبوا بتقسيم الأرض والتوسع في الحقوق السياسية. وهكذا، جنباً الى جنب مع التناقض الرئيسي في روما بين العبيد وملاكي العبيد، والذي تحوّل إلى انتفاضاتٍ وأشكالٍ أخرى من الصراع الطبقي، لم يكن الصراع أقل جِدَّةً بين فئة المالكين الصغار الانتقالية، وطبقتي ملاكي الأراضي وملاكي

¹ - VDI, 1967, no. 4, p. 8

² - See K. Marx and F. Engels, Soch., vol. 4, pp. 424-25

³ - See, for example, S. A. Zhebelev and S. I. Kovalev, Velikie vosstaniia rabov 11 i l w . do n. e . , p. 152; S. I. Kovalev, "Dve problemy rimskoi istorii," Vestnik Leningradskogo uni - versiteta, 1947, no. 4, pp. 91-96



سبارتاكوس ورفاقه المجالدين في الحلبة، قبل هروبهم من المدرسة

بالرغم من ذلك، لم يكن من المُمكن حدوث فعل مشترك بين العبيد والفلاحين ضد مالكي العبيد، بسبب اختلاف مصالح الطبقات المضطهدة في الظروف التاريخية المُعطاة: كان العبيد يقاتلون من أجل حريتهم الشخصية وحارب الفلاحون من أجل حصولهم على الأرض. بالتالي يمكن فهم خطأ النظر لثورة سبارتاكوس على أنها "ثورة العبيد والفلاحين الفقراء" والمبالغة في دور الفقراء الأحرار، وهم الطبقة الأقرب إلى العبيد. بعد فحص المصادر، توصل كوفاليف، على سبيل المثال، إلى استنتاج مفاده أن العبيد لم يجتذبوا الفقراء إليهم: "ان حالات المشاركين من المجموعة الأخيرة في حركات العبيد قليلة، وكل الجهود لإثبات أنه كان هناك عدد كبير من عمال المزارع وفقراء الفلاحين في جيش سبارتاكوس لم تعتمد على البيانات الموجودة في المصادر"¹. ربما قد انضم أفراد من بين الفلاحين الفقراء والأشخاص الذين تراكت عليهم الديون الميئوس

¹ - See S. L. Utchenko, "O klassakh i klassovoi strukture antichnogo rabovladel'cheskogo obshchestva," V-DI, 1951, no. 4; same author, Ideino-politicheskaia bor'ba v Rime, Moscow, 1952, p. 28; O. V. Kudriavtsev, Ellinskie provintsii Balkanskogo poluostrova vo II-I vv. do n. e., MOSCOW, 1954. With respect to class divisions in ancient society, see

منها، وبروليتاريا رثة وغيرهم من أوساط "رعاع الرومان" الى العصيان. كان من الممكن أن يهدف "حلفاء" عشوائيون من هذا النوع فقط الى الاستيلاء على الأرض داخل حدود إيطاليا وأن يسبب انحلالاً في صفوف الثوار. أكدت موتوس A. A. Motus أنه لا توجد أسباب كافية¹ للحديث عن المشاركة الجماهيرية للفلاحين الأحرار والفقراء الأحرار بشكل عام في ثورة سبارتاكوس واندماج حركات الفلاحين والعبيد في ذلك الوقت. كتب المؤرخ البولندي ر. كاميينيك مؤخراً أن ميثولين بالغ في أعداد الجنود الذين قُتِلوا وانتسبوا الى جيش سبارتاكوس². ولم يكن نموذج "ثورة العبيد على أساس مرحلتين" كأساس لدراسة الصراع الطبقي في روما مؤكداً بحقائق عيانية ملموسة. بدأت إعادة دراسة لوجهات نظر مؤرخي الثلاثينات حول صراعات العبيد للقرنين الأول والثاني قبل الميلاد باعتباره "المرحلة الأولى" من ذلك النموذج الثنائي، والذي من المفترض أنها قوضت أسس نمط الانتاج العبودي.

في عملية ترسيخ المفهوم الماركسي للتاريخ القديم، كانت دراسة ثورة سبارتاكوس تجري بشكل مكثف على مستويين: مستوى المنهجية العامة، ومستوى توثيق المصادر. يكمن تعقيد المهمة في حقيقة أن المصادر حول نضال العبيد كانت متناثرة وذاتية ومتناقضة. ان كُتَّاب العصور القديمة الذين مثلوا طبقة مُلاك العبيد، بأعدادهم تقارير تستخف بأعدائهم الطبقيين، لم يرغبوا، على حد تعبير بريوبراجينسكي الدقيق "نشر غسلهم المتسخ أمام الملأ"³. زاد من تعقيد شُح الأدلة القديمة عن أصول العبيد وصراعهم، انعدام دقة الحقائق والأسماء والتواريخ المذكورة؛ كانت المعلومات التي قدمها الكُتَّاب القدماء حول ثورة سبارتاكوس مجزأة ومتناقضة. لم يُعالج الكُتَّاب القدماء مسائل برنامج وأهداف التحرك والنسيج الاجتماعي للمتمردين وموقفهم من العبودية كظاهرة اجتماعية وأسبابها، وأسباب الخلافات في صفوف الثوار الا بشكلٍ نادر، لدرجة أنه لم يكن يُمكن للمرء الا أن يُشكِّل فكرةً غامضةً عنها. قام العلماء السوفييت بعمل عظيم فيما يخص أدب العصور القديمة، أي باكتشافها وتجميعها وتحليلها ومقارنتها بشكل نقدي.

كان هذا العمل ضروريا للغاية لأنه لم يكن لدى دارسي الثورة طُرقاً غير هذا التوثيق العلمي. اكتشف مدير متحف نابولي Naples Museum أثناء التنقيبات لوحة جدارية في بومبي والتي تصور فارسيين منفصلين يتقاتلون وتتجسد بهوية سبارتاكوس و"فيليكس من بومبي"، نُشرت جنباً إلى جنب مع السجل الأثري في المجلة الإيطالية Noticie degli slave عام 1927. وتُعتبر هذه اللوحة الجدارية قليلة الوضوح، وهو الاكتشاف الأركيولوجي الوحيد الذي وجده بعض المؤرخين السوفييت مقبولاً فيما يتعلق بموت سبارتاكوس في معركته الأخيرة⁴.

S. K. Utchenko and I. M. D'iakonov, "Sotsial'naia stratifikatsiia drevnego obshchestva," Thirteenth International Congress of Historical Sciences, Mos - COW, 1970, pp. 8-11

¹ -- S. I. Kovalev, "Dve problemy rimskoi istorii," p. 95

² - A. A. Motus, "Iz istorii vosstaniia Spartaka," Uchenye zapiski Leningradskogo gosudarstvennogo pedagogicheskogo instituta imeni A. I Gertsena, 1948, vol. 68, p. 65.

³ - R. Kamienik, "Die Zahlenangaben uber den Spartakus- Aufstand und ihre Glaubwiirdigkeit," Das Alttertum, 1970, vol. 16, no. 2, p. 102

⁴ - P. F. Preobrazhenskii, V mire antichnykh idei i obrazov, p. 60



صوفيا بروتاسوفا

نُشِرَت بعض المصادر المتعلقة بتحريك سبارتاكوس في مجلة عام 1933. يُمكن العثور على مصادر تاريخ حول ثورة سبارتاكوس بشكل أكثر اكتمالاً وتعميماً في منشور جابيليف وكوفاليف المُعنون (تمردات العبيد العظيمة في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد في روما)¹. تم جمع هذه المصادر بواسطة ميشولين بشكل موسع ومرتب منهجياً وكانت في كثير من الحالات أولى الترجمات الى اللغة الروسية. كانت هناك فقط إضافات طفيفة لتلك البيانات في أعمال موتوس، ونيكولاي ماشكين² Nikolai Alexandrovich Mashkin. كان مقال صوفيا بروتاسوفا Sofia Ivanovna Protasova بحثاً أصيلاً في مصادر ثورة سبارتاكوس. اكتشفت الاتجاهات التي اتبعتها المؤلفون القدامى في رواياتهم عن سبارتاكوس عن طريق مقارنة المصادر وتصحيحها ومن ثم حددت نموذجين تقليديين من الروايات حول الثورة السبارتاكوسية: النسخة الأقدم والأكثر ترجيحاً والتي قَدَّمها ليفي Livy وأوروسوس Orosius وسالوست Sallust وبلوتارك Plutarch؛ بينما تلك التي صدرت من ابيان فهي الأقل إقناعاً. علاوةً على ذلك، فان ابيان، في رأي بروتاسوفا "لم يستخدم مصادر ليفي أو سالوست ولكن استخدم مصادر اخرى لاحقة وغير معروفة"³. ان استنتاج بروتاسوفا أن هناك نموذجين تقليديين حول ثورة سبارتاكوس، قد تم قبوله، مع تغييرات واضافات

¹ - See A. V. Mishulin, Spartakovskoe vosstanie, p. 154; S. N. Benkliev, Vosstanie Spartaka, Voronezh, 1949, p. 17; V. N. D'iakov and S. I. Kovalev, Istoriia drevnego mira, 2nd ed., MOSCOW, 1962, p. 562

² - "This study," Kolobova wrote, "retains its value to our day, being the sole work that contains a detailed examination of all the sources on the history of the slave insurrections" (K. M. Kolobova, 'Vostaniia rabov v antichnom obshchestve V-I v v. do n. e.', "Problemy vseobshchei istorii. Istoriograficheskii sbornik, Leningrad, 1967, p. 18, fn. 40).

³ - A. V. Mishulin, Spartakovskoe vosstanie, pp. 239-81; A. A. Motus, Vosstanie Spartaka, Leningrad, 1937; N. A. Mashkin, Printsipat Avgusta, Moscow and Leningrad, 1949, pp. 113-21

طفيفة من قبل المؤرخين السوفييت حول العصور القديمة. حظيت البيانات في النموذج الأول- الذي كتبه المؤلفون القدامى في وقتٍ قريبٍ من أحداث الثورة- بثقة أكبر.

في حين أقرّ فلاديمير ميلوفيدوف Vladimir Fedorovich Milovidov وهو أحد الباحثين في ثورة سبارتاكوس، بأن المعلومات المقدمة من سالوست وليفي وبلورتاخ على أنها أكثر جدارة، فقد علّق بأنه قد يكون من الممكن اعتبار هذا النموذج الذي أنشأه هؤلاء الكُتّاب القدامى "رسمي الى حدٍ كبير"¹.



فلاديمير ميلوفيدوف

فيما يتعلّق بالتقليد الثاني الذي ينتمي الى ابيان، بالاضافة الى اتخاذ موقف إيجابي عام تجاه شهادة هذا الكاتب؛ الا أن عدداً من المؤرخين السوفييت قد أعربوا عن شكوكهم حول ذلك الجزء الأكبر من سرد ابيان المتناقض حول ثورة سبارتاكوس. إن أغلبية الباحثين توصلوا إلى استنتاج انه لا يوجد مصدر جديد كان متوفراً للاستخدام في سرد ابيان حول ثورة سبارتاكوس بخلاف تلك الموجودة في تقليد ليفي-بلوتارك (وهو لم يستخدمهم)، بالاضافة الى الاستخدام غير المبالي للحقائق والأسماء الصحيحة والتسلسل الزمني للأحداث مما تسبب في حدوث أخطاء في سرد ابيان².

سمحت الدراسة والتعليق على المواد ومقارنة للإشارات والأدلة الفعلية المباشرة وغير المباشرة بترتيبها الزمني لثورة سبارتاكوس في كتابات سالوست وشيشرون وليفي وبلورتاخ وابيان وفلوروس Florus وأوروسيوس ويوتروبيوس Eutropius وبيتركولوس Peterculus وافينيوس Aphineus وفرونينيوس Frontinus وغيرهم، سمحت للمؤرخين السوفييت لأن يقدّموا صورةً أشمل عن ثورة سبارتاكوس ككل، وفي عدد من الحالات، ادخال عوامل جديدة تسلط الضوء على جوانب الحركة العسكرية والبرنامجية والاجتماعية-المحلية.

¹ - S. I. Protasova, "Antichnaia traditsiia o Spartakovskom vosstanii. Marshruty Spartaka i lichnost' vozhdia (74-71 gg. do n. e.)," Uchenye zapiski MGU, no. 143, Trudy kafedry drevnei istorii i arkheologii, 1950, p. 42. The question as to the source used by Appian has been examined by E. Meyer, E. Kornemann, E. Shwarz, and others, but other than the fact that this source or sources were of Latin origin (but not Sallust or Livy), they were unable to find anything new

² - See V. F. Milovidov, Vosstanie rabov v Italii pod predvoditel'stvom Spartaka (74-71 gg. do n. e.), MOSCOW, 1955, p. 9

بعد اقتراح المؤرخ الألماني الكلاسيكي فيلهلم دورمان Wilhelm Drumann القيم الذي نسيه المؤرخون بأن الثوار المتمردين نزلوا عن جبل فيزوفوس Vesuvius من جانبه الداخلي المطلق، أي جانب الحمم البركانية وليس من على جانبه الخارجي، كانت موتوس أول من أثبت هذه الفكرة ليس فقط من خلال شهادة بلوتارك وسالوست وفرونتيوس حول الأمر، ولكن أيضاً من كلمات فلوراس، الذي صرح تحديداً أنهم نزلوا من صدعٍ شديد الانحدار في باطن الجبل¹.



نزول الثوار عن جبل فيزوفوس

تمت دراسة مصادر موضوعة مفاوضات السلام التي عَرَضها سبارتاكوس على كراسوس. إن مقارنة شهادة ابيان بشهادة تاكيتوس قدّمت عناصر جديدة في صلب هذا الموضوع وزوّدت العلم بالبراهين الجديدة على الموهبة العسكرية لقائد العبيد الذي تنبأ بالحاجة الحقيقية للمناورات التكتيكية في الوضع المتغيّر. من خلال مقارنة المعلومات الواردة عند المؤرخ العسكري فرونتينيوس مع المعلومات الأخرى، وعلى وجه الخصوص تلك التي لدى شيشيرون، حددت موتوس اسباب فشل جيش سبارتاكوس في عبور مضيق ميسينا Straits of Messina. الى جانب القصة المألوفة حول غرق أسطول الطوافات خلال عاصفة، فقد طرّح فرضية معقولة أن حاكم صقلية فيريس قد رشى قادة القراصنة الذين لم ينفذوا فيما بعد التزاماتهم بموجب اتفاق كان قد عُقد مع سبارتاكوس. تم قبول هذا العامل الجديد في قصة عملية العبور والذي أظهرته بيانات شيشيرون كعامل

¹ - Kamienik wrote that the accounts of Plutarch and Appian drew on an identical source (perhaps Livy and Sallust) with respect to the number of rebels (see R. Kamienik, op. cit., p. 101)

منطقي وتفسير مقنع لفشل أسباب العبور¹. تم التعبير عن بضعة شكوك في الأدب السوفييتي فيما يخص بعض تفاصيل معركة سبارتاكوس النهائية كما وصفها بلورتاك. تخلص المؤرخون السوفييت أيضاً من أسطورة "الأصل الملكي" لسبارتاكوس.

من أجل الحصول على فكرة دقيقة عن مسار الثورة بجميع مراحلها، نشأت الحاجة إلى تطوير فكرة أكثر دقة عن تاريخ بداياتها. كان التاريخ التقليدي لبداية الثورة عام 73 قبل الميلاد، قبل ظهور كتاب ميشولين (تمرد سبارتاكوس)، مقبولاً في الأدب. آخذاً في اعتباره احتمال أن يكون عام 74 قبل الميلاد² هو التاريخ الصحيح الممكن، هذا الاحتمال الذي عرّضه شامباخ Schambach على الرغم من ضعف الأدلة عليه، قام ميشولين نقلاً عن بيانات المؤلفين القدامى ولا سيما غابيان الذي قدّم عدداً من البراهين على هروب المجالدين من مدرسة التدريب في كابوا في صيف عام 74 قبل الميلاد، وبالتالي، دَعَم ميشولين عام 74 قبل الميلاد على أنه تاريخ بداية الثورة.



مدرسة باتياتوس التي تدرّب فيها سبارتاكوس ورفاقه في كابوا

كتب ميشولين: "قرّ مجالدي كابوا من المدرسة وحصنوا أنفسهم في فيزيفيوس في صيف عام 74 قبل الميلاد... كان المجادلون أنفسهم لا يزالون قلة قليلة وكان تسليحهم سيئاً للغاية وأضعف من أن يُمكنهم من خوض قتالاً نشطاً ضد روما. أصبح الخريف والشتاء بأكمله فترة لجمع القوات، وقد بدأ الصراع النشط فقط عام 73 قبل الميلاد³. ان تصريح ميشولين أن عام 74 قبل الميلاد كان تاريخ الأحداث الأولى في الثورة

¹ - VDI, 1966, no. 4, p. 188

² - A. A. Motus, "Iz istorii vosstaniia Spartaka. Tsitseron kak istochnik o vosstanii Spartaka," pp. 60-62

³ - يكتب كوفاليف، أنه لا يُمكن الحديث عن بداية الثورة، إلا عندما هُرب مجموعة من المجالدين بقيادة سبارتاكوس في كابوا
S. I. Kovalev, "K voprosu o datirovke nachala vosstaniia Spartaka," V-DI, 1956, no. 2, p. 12

وأيضاً أنه كانت هناك "فترة تجميع قوات" استمرت من صيف عام 74 الى ربيع عام 73، قد تم قبوله من قبل الأدب البحثي والشعبي والمدرسي¹.



هروب سبارتاكوس من مدرسة باتياتوس

وجّه العلماء السوفييت انتباههم، في الخمسينات من القرن الماضي، على مسألة تاريخ ثورة سبارتاكوس.



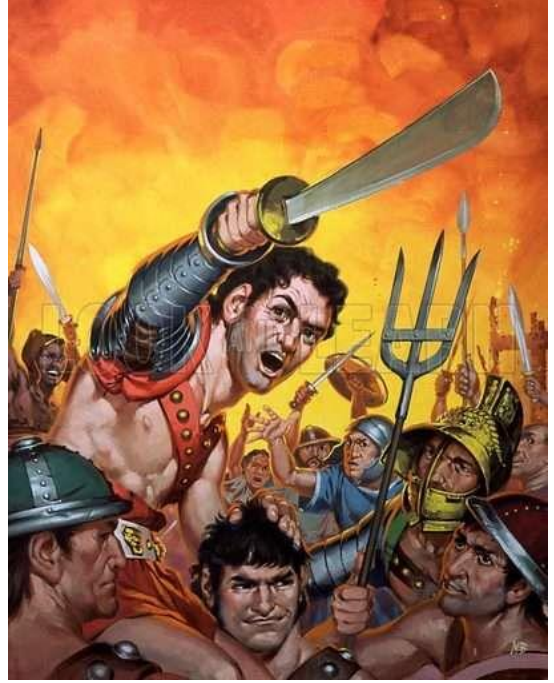
¹-A. A. Motus, "O datirovke nachala vosstaniia Spartaka," -VDI, 1957, no. 3, p. 160. The author comments that Appian's confusion of the two Lucullus brothers had already been pointed out by V. Druman, R. Holm, and F. Mhzer

مُتفقين مع رأي بروتاسوفا أن بيانات ليفي وسالوست وبلورتاك كانت هي الأكثر موثوقية، انتقد كوفاليف وموتوس رواية ابيان عن الثورة والتي كانت أساساً لتصريحات ميشولين. ففي رأيهما، فإن تصريح ابيان المعروف والذي مفاده أن "هذه الحرب الرهيبة التي سخرها منها في البداية واحتقروها كحرب ضد المُجالدين أصبحت الآن في عامها الثالث" تطلّب تعديلاً كبيراً. حَيّر هذا التصريح العديد من الباحثين الذين فشلوا في الأخذ بالاعتبار حقيقة أن تأريخ الأحداث في كتاب (الحرب الأهلية) لأبيان كان في اولمبيادات (174,175,176) وأشار إلى أن ثورة سبارتاكوس كانت تقع في الأولمبياد 176 أي (73-76 قبل الميلاد حسب التسلسل الزمني الرسمي). وبالتالي لم يُقدّم أبيان الإجابة على سؤال نقطة البداية التي يجب أن يبدأ العد التنازلي منها وصولاً الى "السنة الثالثة". كشفت الدراسة التفصيلية لقائمة القناصل في فترة ثورة سبارتاكوس أن ابيان خلط بين اثنين من أسماء القناصل، الإخوان لوكولوس (لوشيوس لاكيننيوس لوكولوس Lucius Licinius Lucullus المنتصر على ميثريدتس Mithridates ولوكولوس القنصل حاكم مقدونيا في 73 عام قبل الميلاد) وهو الأمر الذي خَطأ أيضاً مسألة النقطة التي يمكن الانطلاق منها وصولاً الى "السنة الثالثة"¹.

بالإضافة إلى ذلك لقد ثبت إن ابيان لم يكن دقيقاً في تعداد أسماء القادة الرومان الذي أرسلوا ضد سبارتاكوس في الفترة الأولى من الثورة . بدلا من كلوديوس Clodius، ذَكَرَ أسماء فارينيوس جلابريوس وبوبليوس فارينيوس مما عقّد حل المشكلة وأضفى طابعاً آخر على الأحداث الأولى للتحرك. وَصَلَ كوفاليف وموتوس إلى استنتاج أن التسلسل الزمني للسرد كان نقطة ضعف عند ابيان وأنه لا يمكن الوثوق به في تحديد تاريخ بداية الثورة. كما أنهما لم يتفقا مع فرضية ميشولين القائلة بأنه كانت هناك فترة طويلة من "تجميع القوات" في بداية ثورة سبارتاكوس. ذكرت مقالة استقصائية مكرّسة لتطور الدراسات السوفيتية حول العصور القديمة خلال الخمسينيات: "في مقالاتٍ كُتِبَتْ بقلم كوفاليف وموتوس كُرِّسَتْ لتأريخ بداية ثورة سبارتاكوس تم بحث المشكلة الفرعية انطلاقاً من مسألة أكثر عمومية، أي مسألة طابع وسمات ثورة العبيد. دَعَمَ كلا المؤلفين عام 73 قبل الميلاد كتاريخ بدء الثورة (بخلاف 74 الذي كان مقبولاً من قِبَل عدد من العلماء) مؤكداً على أن العفوية وغياب الإعداد المخطط للثورة هو الذي أدى الى فُجائيتها وجعلت أي فترة خاصة من (تجميع القوات) مُستحيلة"².

¹ - See S. I. Kovalev, 'X voprosu o datirovke,' p. 13; A. A. Motus, "O datirovke," p. 164

² - G. G. Diligenskii and L. I. Marinovich, "Izuchenie istorii antichnogo mira v 1956-1960 gg.," VDI, 1961, no. 4, pp. 26-27



في الوقت نفسه لا يمكن لبعض المؤرخين قبول هذا الرأي دون تحفّظ على أساس البيانات المتاحة حالياً، ولا يمكنهم التحيز لصالح الرأي الآخر، لقد قصرُوا أنفسهم على التصريح بأن تاريخ بدء الثورة قابل للنقاش¹.

بحث التاريخ السوفييتي بشكلٍ مُفصّل مسألة أسباب الخلافات داخل جيش سبارتاكوس والمسألة وثيقة الصلة بخطته للزحف على روما².

¹ - See, for example, P. O. Karyshkovskii, Spartak, MOSCOW, 1958, p. 35; E. M. Shtaerman, Rastsvet rabovladel'cheskikh otnoshenii v Rimskoi respublike, MOSCOW1, 964, p. 239; SIE, vol. 13, MOSCOW1,9 69, p. 737; Khrestomatiiia po istorii drevnego Rima, MOSCOW1,9 71, p. 210; Istoriia drevnego Rima, MOSCOW, 1971, p. 210

² - See E . M. Shtaerman, Rastsvet rabovladel'cheskikh otnoshenii v Rimskoi respublike, pp. 240 -45



جيش العبيد بقيادة كريكسوس الذي وصل الى بوابات روما

خلافاً لرأي مومسن الذي كان سائداً في الدراسات البرجوازية بأن "العداوات الاثنية" كانت هي السبب الأساسي للخلافات في جيش الثوار، طرح ميشولين حله الخاص للمسألة وكان جديداً في ذلك الوقت، وتم الاعتراض عليه في وقت لاحق. اعتبر ميشولين أن سبب الخلاف في جيش سبارتاكوس لم يكن بسبب الأختلافات العرقية بل بسبب التناقضات الاجتماعية. بينما كان العبيد -الطبقة التي قادت الثورة- في رأي ميشولين، يحاربون ضد العبودية كنظام علاقات إجتماعية وعارضوا امتلاك العبيد (مثل نضال البروليتاريا الحديثة)، كان الفلاحون، بتجاهلهم هذه الأهداف السامية، يريدون فقط أن يستعيدوا الأراضي التي فقدوها. في حين أن العبيد في جيش سبارتاكوس هزموا فيالقي مجلس الشيوخ ثم هرع كلُّ منهم الى مسقط رأسه، رَفَضَت فصائل الفلاحين الفقراء برئاسة كريكسوس وانيمايوس وكاستوس وغانيكوس هذا الأمر، وحاربوا روما داخل حدود جبال الأبينين (أي داخل ايطاليا). لقد انشقت هذه الفصائل عن قوات العبيد الثورية في كل مرة حاول سبارتاكوس فيها- الذي تجنب السير نحو روما بوعي تام- تنفيذ خطته ليخرج جيشه من ايطاليا. وبما أن مهمتي الثورة، أي تحرير العبيد وتحرير الفلاحين من عبودية الديون، لم توحدهما قيادة واحدة، فقد فشلت الثورة¹. ربط سيرجيف وماشكين نفسيهما بوجهة نظر ميشولين في الوقت الذي قاما به بتعديل تأكيدهما غير المشروط. لقد رأوا أن الأهمية الكبرى في الخلاف في حركة سبارتاكوس مرتبطة ليس فقط بتنوع التركيب الاجتماعي للثوار ولكن بالعداء القبلي أيضاً². عارض سيرجي اوتشينكو في وقت لاحق فكرة العداء العرقي بوصفه السبب الرئيسي للخلاف في صفوف جيش سبارتاكوس³. في كتاب (تاريخ العالم) كتبت الينا شتيرمان Elena Mikhailovna Shtaerman أن سبارتاكوس تجاوز روما واتجه شمالاً إلى جبال الألب على رأس

¹ - See A. V. Mishulin, Spartakovskoe vosstanie , pp. 138 -39

² - V. S. Sergeev, Ocherki PO istorii drevnego Rima, p. 267; N. A. Mashkin, Istoriia Rima, pp. 263-64

³ - S. L. Utchenko, Introduction to A. V. Mishulin, Spartak, MOSCOW1,9 50, p. 8

العبيد وقرر أن يضمن لهم الحرية. أما الفقراء الأحرار في صفوف قوات كريكسوس وانيمايوس قد حلموا بالزحف إلى روما¹.



قوات سبارتاكوس بالقرب من جبال الألب

في ذات الوقت، أعرب العديد من المؤرخين السوفييت عن فرضية أنه لا يجب المبالغة في الخلافات بين صفوف الثوار، لاسيما الخلافات على أسس التناقضات الإجتماعية. في وقت مبكر من الثلاثينيات اعتبر جابيليف وكوفاليف سبب الخلاف في جيش سبارتاكوس ليس هو عدم وجود تجانس اجتماعي، لأن هذا لم يكن مُهماً بالنسبة للمشاركين الأحرار، "رفاق الدرب"، بل الطابع العام لعفوية التحرك وغياب الانضباط الصارم وتصميم الغالين والجرمان على الزحف إلى روما². وافق بينكلييف S. N. Benkliev هذا الرأي بقوله: "لقد تم تحديد احتمالات ظهور الخلافات في المقام الأول من خلال طبيعة ثورة العبيد، أي عفويتها ومستوى تنظيمها الضعيف للغاية بالإضافة إلى الإختلافات بين فئات العبيد المتنوعة: على سبيل المثال بين خَدَم منازل كبار مُلاك الأراضي الكبار، والعبيد الذين عملوا في الإنتاج، بين أولئك الذين عملوا بالوظائف الفكرية المختلفة وأولئك الذين كانوا عمالاً يدويين غير مَهَرَة"³. رأت موتوس أن الخلافات في جيش سبارتاكوس لا يمكن اختزالها إلى العداء القبلي أو التكوين الاجتماعي للمتمردين. "لقد كان هناك خلافات داخل كتلة العبيد وقادتهم حول مسائل تكتيكيات وإستراتيجية الحركة نفسها (الزمان والمكان وتكتيكات المعركة وطريق المسيرة ووقت المغادرة من ايطاليا)"⁴.

¹ - See Vsemirnaia istoriia, vol. 11, Moscow, 1956, pp. 369- 70

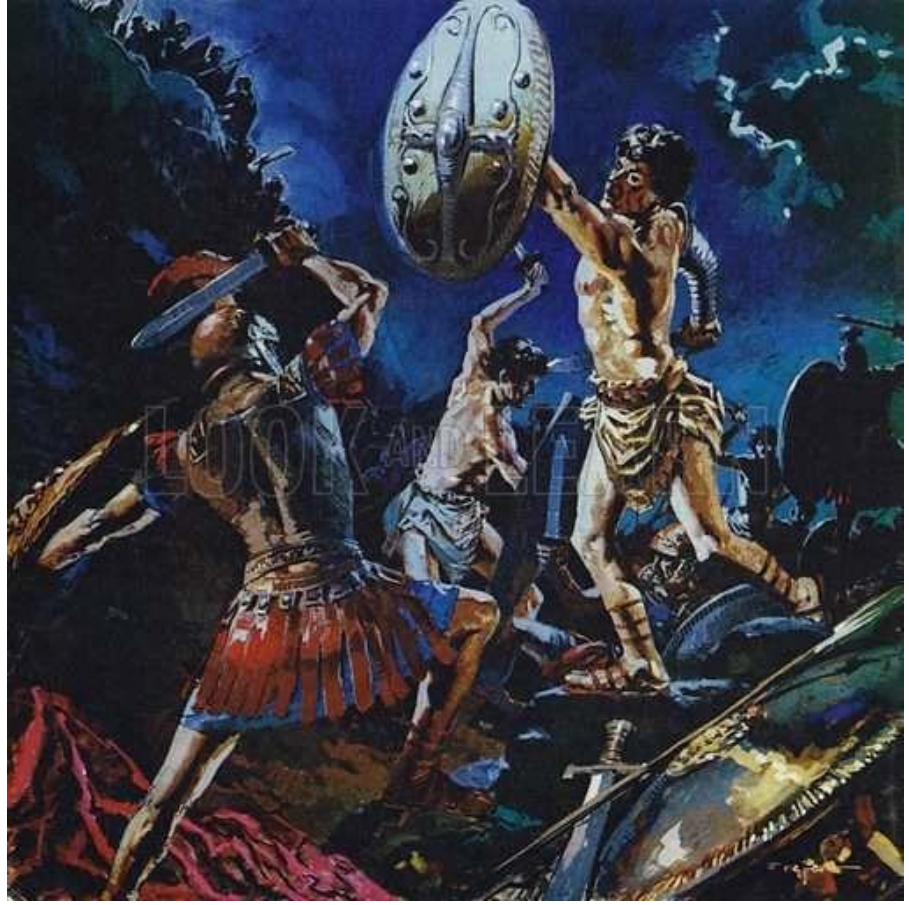
² - S. A. Zhebelev and S. I. Kovalev, Velikie vosstaniia rabov pp. 166, 179

³ - VDI, 1958, no. 1, p. 187

⁴ - A. A. Motus, Iz istorii vosstaniia Spartaka, p. 68



أعربت موتوس عن اعتقادها بأن صميم الجيش يتكون من الغاليين والتراقيين يليهم العبيد الجرمان (الكيمبريين والتيتونيين) وأيضاً عبيد من قبائل أخرى: كاليونانيين والسوريون وأفراد من آسيا الصغرى وشمال غرب أفريقيا. تكوّن الجزء الأكبر من فصائل قوات كريكسوس وانيمايوس وكاستوس وغانيكوس الذي انفصل عن جيش سبارتاكوس، من الغاليين والجرمان (وليس الفلاحين كما اعتقده ميشولين). وقفت عبقرية سبارتاكوس العسكرية وبصيرته وحذره في مقابل الكفاح الجامح والعاطفي في معظم الأحيان لفصائل الغاليين والجرمان لمواجهة العدو وجها لوجه دون تأخير لهزيمة روما المكروهة تحت أي ظرف من الظروف وحتى تضمين هؤلاء غير الملائمين للهجوم. وهكذا، على عكس رغبة كريكسوس لمواجهة فارينيوس Varinius في الحال، حاول سبارتاكوس تأجيل المواجهة والقيام بأعداد تنظيمي كبير لها وكنتيجة لذلك حظي بالنصر. يمكن تتبع عقلانية تكتيك سبارتاكوس بسهولة في خطته للمضي شمالاً إلى جبال الألب بعد ابتهاجه بالنصر في معاركه مع جيوش مجلس الشيوخ، والهزيمة التي لحقت بفصائل كريكسوس في معركة جبل جارجان Mt. Gargan. مُعتبراً أن موتوس اقتربت من الحل الصحيح لمسألة الخلافات في جيش سبارتاكوس، حاول ميلوفيدوف أن يوسّع من رأيها ويؤكد على رأي كوفاليف وجابيليف حول "تصميم الغاليين والجرمان على الزحف إلى روما" في دراسة حقيقية أن الفصائل التي انفصلت كانت تتكون في الواقع من أفراد قبائل غالية وجرمانية، وان كانت تتشكل من فئات عمرية مختلفة، مما فسّر إلى حد كبير انفصالهم عن القوى الرئيسية. بعد دراسة المصادر المتعلقة بالمكوّن الغالي-الجرماني في جيش سبارتاكوس، كُتب المؤلف أنهم كانوا كيمبريين وتيتونيين وتيغورينيين وأمبرونيين وُلدوا ونشأوا في العبودية وكانوا من الذين قد نسوا بالفعل أراضيهم القبلية. لقد كان هؤلاء على وجه التحديد هم الذي التفوا حول كريكسوس وبقوا في إيطاليا، في حين سار سبارتاكوس على رأس التراقيين واليونانيين والإيليريين والجرمان من كبار السن شمالاً نحو بلاد الغال.



فسر ميلوفيدوف الانقسام الثاني عن الجيش الأساسي حدث في جنوب إيطاليا على أساس أن الكتيبة التي انفصلت تشكلت من قبل اشخاص حاولوا الوصول إلى أوطانهم عبر جبال الألب، بينما خطط سبارتاكوس لمغادرة مدينة بروتيوم¹ Bruttium. كتب راتنر وأناتولي بوكشاتشانين Anatoly Georgyevich Bokshchanin عن عفوية التحرك والخلافات المؤقتة حول مسائل البرنامج العسكري².

اتخذ فلاديمير دياكوف Vladimir Nikolaevich Dyakov مقاربةً مختلفةً لمسألة أسباب الخلافات التكتيكية المؤقتة في جيش سبارتاكوس. وبعد تحليل ومقارنة بيانات المصادر واتباع نهج نقدي لرواية بلورتاك توصل إلى استنتاج مفاده أن تلك الخلافات في جيش سبارتاكوس لم تكن بذات الأهمية الكبرى للحركة ككل، لأن سبارتاكوس وكريكسوس كانا يتجهان نحو هدفٍ مشترك وهو هزيمة روما وإن لم يتخذا نفس الخطوات. أكد دياكوف بشكلٍ قاطع أن سبارتاكوس حاول منذ بداية الثورة تنفيذ خطة موحدة للحركة الثورية ككل: وهي هزيمة وتدمير روما كمركز رئيسي لتملك العبيد، وباعتبارها مُذنبَةً في كل مصائب ذلك العصر التي لا تعد ولا تحصى، "ومن الطبيعي تماماً أن سبارتاكوس... لم يتمكن من المضي قدماً في تنفيذ هذه الخطة. ولكن فقط عندما حشد قوة ضخمة (120.000 متمرّد) فإنه مثل هانيبال، احتل الجزء الجنوبي

¹ - V. F. Milovidov, op. cit., pp. 11-12

² - A. B. Ratner, 'X voprosu o prichinakh raznoglasii v armii Spartaka,' Uchenye zapiski Karelo -Finskogo universiteta, vol. III, no. 1, Istoricheskie i filologicheskie nauki, 1948; A. G. Bokshchanin, Istoriia drevnego mira, MOSCOW1,9 55, p. 182

والشرقي بأكمله من شبه جزيرة الأبينين، وانشأ لنفسه قاعدة تموين وخلفية محمية في منطقة شمال ايطاليا
"Cis-Alpine Gaul"¹.

ان فكرة رغبة سبارتاكوس في الزحف الى روما موجودة في عدد من أعمال العديد من المؤرخين السوفييت
المتنوعة، مُرتبطة في أغلب الأحيان بمسألة لماذا اتجه سبارتاكوس جنوباً مرةً أخرى من الشمال. لقد أثار هذا
السؤال، ولا يزال يُثير، اقتراحات مختلفة. اقترح ميشولين على سبيل المثال، أن "سبارتاكوس بعد أن قاس
صعوبات السير عبر جبال الألب وعدم حصوله على دعم فلاحي الشمال راسخي الجذور"، قد غير خطته
الأولية وقرر أن يهرب من ايطاليا عن طريق بحر صقلية². أكد كوفاليف أن بلورتاك كان محقا في توضيح
انعطاف سبارتاكوس جنوبا بسبب الإحباط الذي أصاب العبيد الثوار الأقوياء جداً وذوي الأعداد الكبيرة وكان
فخرهم يزداد بسبب انتصاراتهم، لم يكونوا ليستمعوا الى سبارتاكوس، وتحركوا في ايطاليا التي أخذوا
تدميرها على عاتقهم³. ومن المحتمل أيضاً أنه لم يستطع اتخاذ قرار بشأن محاولة العبور الصعب للجبال
"الأمر والذي أُنْعَشَ آراء أولئك الذين اعتبروا أنه من الضروري مواصلة الحرب في ايطاليا وبروز قرار
الثوار الزحف نحو روما⁴. مالت سينييا كولوبوفا Kseniya Mikhailovna Kólobova مثل كوفاليف، الى
القول أن سبارتاكوس كان يعتزم بشدة مغادرة ايطاليا لكن "برنامج الثوري الذي أراد تنفيذه خلال مساره لم
يكن مدعوماً من الثوار. تخلى العبيد عن خطة مغادرة ايطاليا بالهام من نجاحاتهم"⁵. كتبت شتيرمان، مُشيرةً
الى ندرة المصادر، "أنه من المحتمل لأسباب يُمكن أن تظل مجهولة الى الابد، أن سبارتاكوس لم يستغل
الفرص التي أُتيحت له واستدار جنوباً مرةً اخرى⁶.

ظَلَّت قضية أسباب تحول مسار سبارتاكوس من الشمال الى الجنوب غير مفسرة، لكن دراستها سهّلت، على
وجه الخصوص، توضيح مسألة أخرى تم تناولها أعلاه، أي مسألة زحف سبارتاكوس نحو روما. في
الأدبيات السوفييتية المبكرة، لم تكن هناك سوى إقتراحات حول هذا الموضوع لم تؤكد المصادر. وهكذا
كتب سيرجيف "من السمات المميزة لتحرك سبارتاكوس على العموم هي حقيقة أنه لا أحد، على ما يبدو، الا
سبارتاكوس نفسه قد فهم الضرورة الأساسية لاحتلال المركز الحكومي والاستراتيجي، أي (عرين الذئب)
روما، على حد تعبير أحد السامنيين "Samnite"⁷. في وقت لاحق، عبّرت موتوس عن نفس الفكرة بعبارات
أكثر دقة: "كان من غير المُمكن أن يُعارض سبارتاكوس هزيمة روما أو خوض صراع نشط معها. لقد ثبت
ان وجود خطته الإستراتيجية الأساسية باخراج العبيد من ايطاليا، مُستحيل بدون هزيمة قوة روما
العسكرية"⁸. على هذا الأساس أكدت انه لا ينبغي للمرء إن يضع الخطتين في تناقض حاد: خطة سبارتاكوس
لمغادرة ايطاليا، وخطة كريكسوس وغيره من القادة في السير نحو روما. ومع ذلك بالنسبة لكتاب العصور
القديمة، فان سبارتاكوس بعد عودته من جبال الألب واتخاذ عدداً من الإجراءات التنظيمية من أجل التحرك
ضد روما، سرعان ما تخلى عن هذه الخطة وأراد التوجه الى جنوب ايطاليا.

1 - Istoriia drevnego mira, pp. 564-65

2 - A. V. Mishulin, Vosstanie Spartaka v drevnem Rime, p. 148

3 - S. A. Zhebelev and S. I. Kovalev, op. cit., p. 167; S. I. Kovalev, Istoriia Rima, Leningrad, 1948, p. 423

4 - Vsemirnaia istoriia. V 10-ti tomakh, vol. 11, p. 370

5 - K. M. Kolobova, op. cit., p. 25

6 - V. S. Sergeev, Mirovye krizisy, p. 81

7 - V. S. Sergeev, Mirovye krizisy, p. 81

8 - A. A. Motus, "Iz istorii vosstaniia Spartaka," pp. 71, 73; on this, see A. B. Ratner, op. cit., p. 56

لماذا لم يتقدّم سبارتاكوس الى روما بالرغم من أنه هزَم جيوش مجلس الشيوخ؟ أوضح بريوبراجينسكي رفض سبارتاكوس للزحف الى روما ببعد نظره. "كانت خطة الهجوم المباشرة على روما استحالة إستراتيجية واجتماعية. حتى هانيبال نفسه لم يقرر اقتحام "المدينة الأبدية". كان لدى سبارتاكوس فرصة أقل للانتصار... لقد كانت جميع الاحتمالات تقف ضده، مثل انعدام القابلية الاستراتيجية لاقتحام روما، ولامبالاة السكان الأحرار، وأخيراً، حقيقة أن الثوار مُحاصرين في ايطاليا"¹.



هزيمة كريكسوس وجيشه، على أبواب روما

مُعربين عن فكرة أن سبارتاكوس كانت لديه خطة محكمة لسحب العبيد من إيطاليا، فقد فسّر جابيليف وكوفاليف تحول مسار سبارتاكوس جنوباً متجاوزين روما من خلال حقيقة أن تنفيذ الخطة كان حقيقة واقعة. وبفهم شامل لجميع الصعوبات التي تكتنف الهجوم المسلح ضد روما، فقد قرر تجنبه، والعودة جنوباً الى لوكانيا Lucania، "لأن خوض قتال ضد الرومان في أرضٍ مفتوحة شيء، والاستيلاء على روما المُحصّنة شيء آخر تماماً"². بمجرد أن يخرجوا من إيطاليا سيتمكن العبيد من العودة بحرية الى مناطقهم الأصلية. "ليس لدينا أي أسباب للافتراض بأنه تكمن أي حسابات متعلقة بمزيدٍ من تطور الصراع، وراء خطة سبارتاكوس هذه"³. اقترحت موتوس باستنادها على تصريح ايبان أن سبارتاكوس "اعتبر نفسه غير متعادل مع الرومان من حيث القوة"، خلافاً لرأي كوفاليف، نقول، اقترحت، أن سبارتاكوس قد حصن نفسه في

¹ - P. F. Preobrazhenskii, V mire antichnykh idei i obrazov, p. 63

² - S. A. Zhebelev and S. I. Kovalev, Velikie vosstaniia rabov, p. 168; also see V. Gorskov, "Voennoe iskusstvo Spartaka," Voenno-istoricheskii zhurnal, 1972, no. 8, p. 83

³ - S. I. Kovalev, -Is toriia Rima, p. 422

جنوب مدينة ثوري Thuri، وانشغل هناك بتجهيز الأسلحة من أجل زحفه في روما¹. استمر دياكوف في تطوير فكرة رغبة سبارتاكوس بالهجوم على روما، مُستندا إلى تصريحات بلورتاك و ابيان، وأكد أن خطة سبارتاكوس في مهاجمة روما تطورت تحديداً عند وصوله جبال الألب بسبب نجاحه العسكري، هذه الخطة التي لم يتم تنفيذها لأن كراسوس أغلق الطريق إلى بابينشا Picentia ومنعه من الوصول إلى العاصمة. دياكوف فسر هذا الفشل، بضعف استعدادات جيش العبيد غير المؤهل وقرار سبارتاكوس بإضافة العبيد الصقليين كاحتياطي لجيشه. حكمت فيالق جيش مجلس الشيوخ المتزايدة والانقسام الجديد بين الثوار أيضاً، على تحقيق هذا الهدف بالفشل².



مقتل سبارتاكوس

إن التفسير الذي قدمه بريوبراجينسكي وموتوس ودياكوف لأسباب الخلاف بين قوات سبارتاكوس ولرغبة سبارتاكوس في السير نحو روما ثم التخلي اللاحق عنها لا اعتبارات استراتيجية، قدمها هؤلاء المؤلفون بشكلٍ مستقل عن بعضهم البعض في أوقات متفاوتة ومستويات مختلفة من الدعم الوثائقي، أخذها الباحثون بعناية وبالإعتبار³. ونتيجةً لذلك، بدأت تتبلور وجهة نظر متفق عليها حول هذه المسألة. إن أغلب المؤرخين السوفييت يعتقدون أنه لا "الاختلاف العرقي" ولا "التناقضات الاجتماعية" في جيش سبارتاكوس يمكنها بحد

¹ - See A. A. Motus, "Iz istorii vosstaniia Spartaka," p. 72

² - Istoriia drevnego mira, p. 565

³ - See, for example, E. M. Shtaerman, Rastsvet rabovlade1'- cheskikh otnoshenii v Rimskoi respublike, pp. 240-42; K. M. Kolobova, op. cit., p. 25

ذاتها أن تكون هي الأسباب الرئيسية للخلافات. كان السبب الرئيسي للخلافات والانقسام على الأغلب هو العفوية وقلة التنظيم وعدم نضج الوعي الطبقي بين الثوار وحالات متكررة من الخلاف على الاستراتيجية العسكرية بين القادة. هل أراد سبارتاكوس الزحف الى روما؟ يبدو انه نعم. الافتراض الأكثر احتمالاً هو انه لم تكن هناك هوة لا يمكن عبورها بين خطة سبارتاكوس لسحب العبيد من ايطاليا ورغبته بسحق روما. إن الخطتان مترابطتان والمواد الموجودة في المصادر المتاحة تسمح بالاستنتاج المنطقي لامكانية توجيه ضربة ساحقة لروما، هذا الهدف الذي كان اهتماماً لتحرك جيش سبارتاكوس إلى الشمال والعودة مرة اخرى الى الجنوب. لم يدافع سبارتاكوس عن نفسه ضد الجيوش التي تلاحقه وحسب، بل وهاجم بشراسة وضرب جيوش القناصل ومعسكراتهم في اللحظات المناسبة كذلك. على الأرجح، لم يتخلى سبارتاكوس أبداً عن أمله في هزيمة روما وحتى القيام ببعض الاستعدادات في هذا الصدد. لكن في الوقت نفسه، كقائد عسكري بارز في العصور القديمة، أخذ في الاعتبار بشكل واقعي ان قوات مجلس الشيوخ وجيش العبيد لم يكونا على نفس القوة. من الواضح أن هذه الاعتبارات هي التي أوقفته في عدة مناسبات، وأجبرته ليضع حداً للمحاولات المتكررة لانقسام الفصائل من أجل الزحف الى روما.

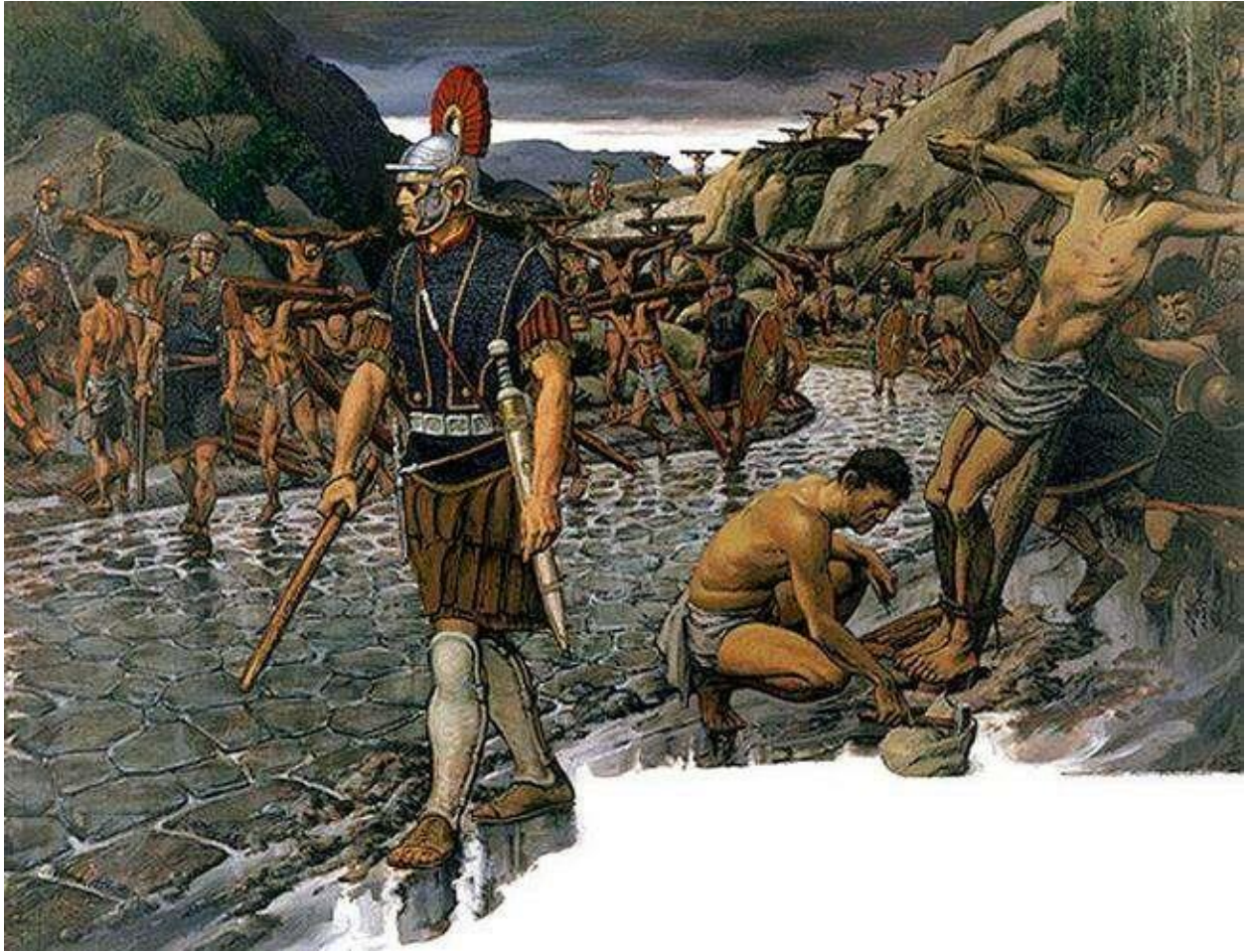
مع ترسخ وجهات النظر الماركسية اللينينية حول تاريخ العصور القديمة واستيعاب المصادر بشكل نقدي، ظهرت أيضاً مقاربة جديدة لتقييم أسباب وطابع وعواقب تمرد العبيد بقيادة سبارتاكوس.



العبودية في جمهورية روما

تقرّر أن هذه الثورة حدثت تحت ظروف كانت تُهيمن فيها علاقات العبودية داخل وخارج مجال الإنتاج، وعندما ظهر بوضوح تعارض طبقات أسياد العبيد والعبيد مع بعضها. لقد أدى انتصار العبودية في إيطاليا منذ زمن الحروب البونية (بين قرطاج وروما)، والازدياد المستمر لحصة العمل العبودي في جميع مجالات الإنتاج ولا سيما الزراعة، والتشكّل النهائي للطبقات المتناحرة، "كان كل ذلك بالضبط هي العمليات التي حددت من تقاوم الصراع الطبقي، الذي اتخذ شكل ثورة العبيد"¹.

¹ - E . M. Shtaerman, Rastsvet rabovladel'cheskikh otnoshenii v Rimskoi respublike, p. 238



هزيمة الثورة و صلب العبيد الأسرى المتبقين من المعركة الأخيرة على طول طريق الأبيان الى روما

في هذا الوقت بالتحديد "أصبح الصراع الطبقي مقياساً لدرجة الاستغلال"¹. انتقل العبيد من أشكال النضال مثل الهروب والسطو على الطرق السريعة وتخريب وسرقة الأدوات وقتل أسيادهم، والمشاركة المحلية المتفرقة في الصراع السياسي للجماعات أو الشخصيات الرومانية²، وصولاً إلى الانتفاضات الثورية الجماهيرية التي كانت أكثر نشاطاً في السنوات من عام 199 إلى عام 62 قبل الميلاد. لقد كانت التمرد السبارتاكوسي، الذي كانت قوته الدافعة الأساسية له عبيد اللاتيفونديا الزراعيين latifundias وفلأسياد العبيد الإيطالية، أحد الحلقات الحية في سلسلة مثل هذه الأعمال.

لم يكن تمرّد العبيد بقيادة سبارتاكوس "ظاهرةً للتلاقي العرضي للظروف" أو بعض "الحلقات" في حياة روما القديمة الناجمة عن تدفق السجناء أو الضعف المرحلي لمجلس الشيوخ. لقد كان نتيجةً طبيعيةً ضروريةً للتناقضات غير القابلة للحل بين الطبقات المتناحرة في مجتمع العبودية في أعظم فترات ازدهارها. على عكس خلفية تفاقم الصراع الطبقي في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد، كانت الثورة السبارتاكوسية بفضل استنادها على قوة وعمق الشغف الثوري، عدد المشاركين فيها وامكانياتها وطبيعتها المنظمة نسبياً، ذروة الصراع الطبقي في العصور القديمة، وأوجه.



قدّر المؤرخون السوفييت عالياً موهبة سبارتاكوس التنظيمية الرائعة، وتفانيه في قضية تحرير العبيد، وشجاعته الاستثنائية، وقدرته على توحيد عناصر من أصول قَبَلية متنوعة وانسانيته واتساع ذكائه.

لقد كان تنظيمه لجيش قادر على شن حرب من خلال كتلة عبيد متناثرة وغير مسلحة فعلياً، ونطاق

¹ - G. Shrot, "O rentabel'nosti sel'skogo khoziaistva v Rime v kontse respubliki," V-DI, 1959, no. 2, p. 82

² - See, for example, L. A. El'nitskii, Vozniknoveniei razvitie rabstva v Rime v VIII-III w. do n. e., MOSCOW, 1964, pp. 178-83; E. Maroti, "Dvizheniia rabov v period triumvirata," Antichnoe obshchestvo . Trudy konferentsii PO izucheniiu problem antichnosti, MOSCOW, 1967, p. 118; G. Shrot, op. cit., p. 67

استراتيجيات خطته، وتكتيكاته الهجومية المندفعة في ظروف الجبال، وحره للمناورات الميدانية في المناطق المجاورة مباشرةً لمركز العدو، وقدرته على تركيز قواه الرئيسية لتوجيه ضربة الى نقطة ضعف العدو¹، ونضاله ضد الفوضى والحالة الطبيعية لإرهاب العبيد، كل هذا وضعه في صفوف أعظم الجنرالات ومصادر الفن العسكري ليس فقط في العصور القديمة.

ومع ذلك، لا يُبالغ المؤرخين السوفييت في أهمية ثورة سبارتاكوس في تغيير اقتصاد ملكية العبيد في روما. في سياق دراسة المصادر تطورت في الدراسات السوفييتية فكرة أن انتشار الكولوني *Colonii*، وممارسة عتق العبيد على نطاقٍ واسع، نتيجة ثورة سبارتاكوس فقط كما كان يُعتَقَد سابقاً. كانت الكولوني مؤسسة قديمة، مثلها مثل العبودية نفسها، وبدأ الاستفاد منها في بداية الاقتصاد الروماني في منتصف القرن الثاني فقط. كما حدث عتق العبيد قبل الثورة، في أغلب الأحيان في حالة العبيد في المناطق الحَضْرِي. ومع ذلك فإن وضع العبيد الريفيين، الذين كانوا الكتلة الأساسية لمنتجات السلع المادية في المجتمع الروماني، لم يتغير، بغض النظر عن حقيقة أن انتشار الاستغلال من خلال أشكال التاجير والكولوني وغيرها من التكنيكات كان قد بدأ². إن عدم قدرة طبقة العبيد على طرح نمط إنتاج أكثر تقدماً، وعدم تقدّمها بالهدف المُتمثّل بالغاء العبودية كمؤسسة للعلاقات الإجتماعية، وعدم وجود برنامج سياسي واضح المعالم لديها لاعادة تنظيم المجتمع على أساس مبادئ جديدة، ولكن السعي فقط من أجل الحرية والانتقام من الاستعباد والقمع القاسي، فان الثوار العبيد، على الرغم من كل تضحياتهم الذاتية وبطولاتهم الجماعية، كانوا بالتالي غير قادرين في ذلك الوقت، على تدمير أو تغيير أشكال الانتاج الرئيسية وأساليب الاستغلال بشكل جذري³. كتب لينين "فالعبيد كما نعلم قد ثاروا ونظموا الانتفاضات وشنوا الحروب الأهلية، ولكنهم لم يستطيعوا في أي ظرف من الظروف تكوين أكثرية واعية وأحزاب تقود النضال، لم يستطيعوا أن يفهموا بوضوح الهدف الذي يتجهون إليه..."⁴. حتى لو قَبِل المرء إقتراح كولوبوفا إن العبيد المتمردين في العصور القديمة كان من الممكن أن يكون لديهم تنظيمات سياسية جنينية "من خلال محاولة فرض النظام والانضباط على فترات النضال الشديد من أجل تحرّرهم"⁵، وهو أمر محتمل تماماً، ومع ذلك كما تلاحظ شترمان، فقد كان هذا التنظيم السياسي "مُبهم ومشتت للغاية"⁶.

¹ - See V. Gorskov, op. cit., p. 83

² - See, for example, V. I. Kuzishchin, "Khoziaistvo ital'ianskikh latifundii vo II-I w. do n. e.," Vestnik MGU. Istorikofilologicheskaiia seriia, 1958, no. 4; same author, Ocherki PO istorii zemledeliiia 11 v. do n. e. - I v. n. e., MOSCOW, 1966; same author, Problemy proizvoditel'nosti rabskogo truda, Moscow, 1970; E. M. Shtaerman and M. K. Trofimova, Rabovlade1'- cheskie otnosheniia v rannei Rimskoi imDerii. Moscow. 1971

³ - See, for example, Vsemirnaia istoriia, vol. II, p. 371; -SIE, vol. 12, p. 62; E. M. Shtaerman, Rastsvet rabovlade1'- cheskikh otnoshenii v Rimskoi respublike , p. 245

⁴ - مقال (الدولة)، فلاديمير لينين. منشور على الحوار المتمدن

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=38085>

⁵ - K. M. Kolobova, "Vtoroe sitsiliiskoe vosstanie rabov," Eirene Studia Graeca et Latina, TI, Prague, 1964, p. 135.

⁶ - E. M. Shtaerman, Rastsvet rabovladel'cheskikh otnoshenii v Rimskoi respublike , p. 248



سبار تاكوس

لقد طور المؤرخون السوفييت قناعةً بأنه من المُستحيل المُساواة بين صراع العبيد ضد أسياد العبيد، و صراع الجماهير الأحرار والفلاحين ضد هيمنة مجلس الشيوخ، الذي هو مالك للعبيد. كان هذان خيطان مستقلان للنضال يسيران بشكل منفصل، على الرغم من أن أصلهما يرجع الى نفس السبب، وهو تطوّر نمط الانتاج العبودي. لقد كانت أهدافهما البرامجية ومصالحهما الايدولوجية مختلفين وغير قادرين على الاندماج.

كتب اوتشينكو أن أعمال الفلاحين لم تكن خاضعةً لثورة العبيد، ولم يكن هؤلاء الأخيرين جزءاً من تحرك الفلاحين، على الرغم من أن كل منها على حدة، مثلت القوة الثورية للمجتمع الروماني وأظهرت قدراتها الثورية في فترات مختلفة¹. في ضوء أحدث الدراسات، يبدو أن المُبالغة في عدد الفقراء الأحرار في جيش سبار تاكوس غير مُبرّرة على أقل تقدير، وأن تفسير ثورته على أنها "ثورة العبيد والفقراء" قد فقدت أهميتها العلمية بشكلٍ دائم. إن السبب الرئيسي لفشل ثورة سبار تاكوس لم يكن بالتأكيد تعقيد قيادة حشد غير منظم من العبيد من أصول قَبلية متنوعة. يكمن السبب الرئيسي لهزيمة سبار تاكوس في حقيقة أنه لم يكن من المُمكن تحطيم المعقل الرئيسي للعبودية، حتى من قِبَل الضغط الهائل لقوى العبيد الثوار بقيادة شخصية موهوبة مثل سبار تاكوس، في ظل ظروفٍ تاريخيةٍ لم يستنفد نمط الانتاج العبودي فيها، امكاناته بعد.

دون المُبالغة في دور ثورة سبار تاكوس في تفويض نمط الانتاج العبودي، وسقوط القاعدة التي قامت عليها العبودية الرومانية، يُلاحظ المؤرخون السوفييت، مع ذلك، تأثيرها الكبير على حياة روما الاجتماعية والسياسية والإيدولوجية في القرن الأول قبل الميلاد.

¹ - See S. L. Utchenko, Krizis i padenie Rimskoi respubliki, pp. 31, 154-55



كان صَلب العبيد على طول طريق الأبيان إنذاراً وجهته طبقة سادة العبيد لجميع الطبقات المُضطهدة من التمرّد على العبودية، ورسالةً موجهةً لهم بأنهم سيقومون بكل ما بوسعهم لقمع أي محاولة لتغيير النظام الروماني القائم.

كان التغيير في السياسة تجاه العبيد والأحرار الذي يُمكن ملاحظته تحت حكم قيصر (سيزار)، والتي تم تنفيذها بطريقة مُخططة أكثر من قِبَل اغسطس وغيره من حكام الإمبراطورية الصاعدة قد أعدّها لها مجمل الصراع الطبقي في وقت متأخر من الفترة الجمهورية والصراع الشرس داخل طبقة أسياد العبيد من أجل شكل جديد من أشكال السلطة العسكرية الدكتاتورية. كان لثورة سبارتاكوس دوراً، ان لم يكن حاسماً، فهو محدد للغاية في هذه العملية. "شدد أسياد العبيد" خوفاً من نطاق الثورة، "اشرفهم على العبيد وبدأوا بتفضيل العبيد الذين تربوا في المنزل على أولئك الذين أسعِدوا عن طريق الأسر وانشأوا مؤسسات لإدارة العبودية انتقلت إلى

أيدي الدولة كجزء من وظائف مراقبة العبيد¹. وتحوّل العبيد تدريجياً من كونهم رعايا لأسيادهم وحدهم، لكونهم رعايا للدولة بأكملها أيضاً.

كان لثورة سبارتاكوس تأثير أكبر بكثير على تغيير البناء الفوقي السياسي. من المستحيل بالطبع، أن نتفق مع الرأي القائل بأن ثورة سبارتاكوس كانت السبب الرئيسي للانتقال من جمهورية إلى امبراطورية، لكنها بلا شك عززت تسريع هذه العملية. لقد وجّهت ثورات العبيد، وخاصة تلك التي قادها سبارتاكوس، ضربةً ملموسةً لمجلس الشيوخ بصفته أعلى جهاز للسلطة في الجمهورية، مما أدى إلى تسريع عملية التحول من الجمهورية إلى الدكتاتورية العسكرية التي سبقت انشاء الإمبراطورية. كان مجلس الشيوخ الأستقراطي القديم يتقاليده البطريركية المتمثلة بعدم تدخلهم بين أسياد العبيد وعائلاتهم والنزاعات بينهم من جهة، وعلاقة هؤلاء الأخيرين بالعبيد من جهة أخرى، غير قادر على منع نشوب ثورة العبيد أو القضاء على الحرب الأهلية. احتاجت طبقة أسياد العبيد المتنامية والمتطورة إلى سياسة دولة مختلفة جذرياً، وأكثر فعالية ومرونة قادرة على المحافظة على خضوع العبيد وغيرهم من الفئات المستغلة، ومنع وقوع ثورات العبيد، وحماية مصالح أصحاب الملكية الخاصة. كانت هناك حاجة إلى جهاز اكرام مختلف، يتكيف بشكل أفضل مع ظروف الحياة المتغيرة والمتطلبات الأخرى للطبقة المهيمنة، بجيش قوي وبيروقراطية حكومية متطورة. كانت حاجة أسياد العبيد إلى مثل هذه الحكومة أحد أهم الأسباب لتأسيس الامبراطورية كجهاز لسلطة الدولة لتلك الطبقة.



أدت ثورة سبارتاكوس كأحدى أكثر تمظاهرات نضال العبيد الطبقي الأكثر حيويةً في عهد أواخر الجمهورية الرومانية، إلى تسريع تحويل تلك الحاجة إلى ضرورة.

دخلت انتفاضة سبارتاكوس في التاريخ، كواحدة من ألمع الحركات وأوسعها، باعتبارها ملحمة الصراع ضد العبودية ليس فقط في العصور القديمة. حتى عندما ينظر أحدهم إلى عفويتها، وغياب وجود برنامج واضح لها، ووجود خلافات تكتيكية وربما خلافات داخلية أخرى، فقد كانت واحدة من الأمثلة الأولى وأعظمها

¹ - V. I. Kuzishchin, "Spartaka vosstanie," -SIE, vol. 13, p. 739

للنضال الثوري العاطفي من أجل أئمن القضايا لجميع العصور والأجيال، ألا وهي قضية الحرية.

* الماركسية السوفيتية كلوديا بافلوفنا كورجيفا 1914-2004، المُختصة بالتاريخ. عملت في قسم التاريخ في جامعة كازخستان الحكومية وكانت مُختصة في مسائل العصور القديمة وتاريخ العبودية والصراع الطبقي في روما وتاريخ الاقطاع الأوروبي وتطور الملكية الاقطاعية في فرنسا، ومسائل تفاعل الطبيعة والمجتمع تاريخياً، وتاريخ انتصار السُلطة السوفيتية في كازاخستان، ومسائل منهجية في التأريخ والمادية التاريخية.

ترجمة لمقالة:

Spartacus's Rebellion In Soviet Historiography, Klaudia Korzheva, Soviet Studies in History, 15:1, 67-97 1976

4	القسم الأول: المقالات الفلسفية.....
5	الفلسفة الماركسية ومسألة القيمة.....
15	الماركسية ومسألة القيمة: مقارنة نظرية.....
24	ملاحظة ماركسية أولية على مسألة القيم.....
35	الفلسفة التحليلية المعاصرة.....
51	العلوم الطبيعية المعاصرة والنظرة العلمية الى العالم.....
64	انجلز والداروينية.....
80	كتاب لينين "المادية ومذهب النقد التجريبي" ونظرية المعرفة المعاصرة.....
95	القسم الثاني: التاريخ ومنهجية التاريخ.....
96	قوانين الوضعيات التاريخية.....
112	حول مشكلة التحليل البنيوي للتاريخ.....
135	مساهمة في منهجية دراسة الثقافة ونقد مفاهيمها المثالية.....
157	الحقيقة التاريخية: بُنيتهَا وشكلها ومضمونها.....
186	ملاحظات حول معنى التاريخ.....
232	بعض جوانب دراسة التاريخ الاجتماعي (السيكولوجيا الاجتماعية التاريخية...).
257	حول مشكلة ثورة العصر الحجري الحديث في ضوء البيانات الأركيولوجية الجديدة.....
291	سبارتاكوس في التاريخ السوفييتي.....
326	الفهرس.....

